

جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا
قسم التاريخ

٤٥٧
١٣٣٩
علي

نيابة دمشق الشام في عهد الأمير تنكز الحسامي الناصري
(٧١٢-٧٤٠هـ / ١٣١٢-١٣٣٩ / ١٣٤٠م)

إعداد

عبد الجبار أحمد محمد العملة

إشراف

الدكتور محمود علي عطا الله

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في التاريخ بكلية
الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية

نابلس - فلسطين

١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م

نيابة دمشق الشام في عهد الأمير
تنكر الحسامي الناصري (٧١٢-٧٤٠هـ/١٢١٢-١٢٣٩-١٢٤٠م)

إعداد الطالب

عبد الجبار أحمد محمد العملة

أعضاء لجنة المناقشة

رئيساً
عضواً
عضواً

الدكتور محمود عطا الله
الدكتور حاتم المحاميد
الدكتور جمال جودة

نوقشت هذه الأطروحة وأجيزت بتاريخ ٢٦/٩/٢٠٠٠.

الإهداء

إلى مروح والدي الطاهرة.

إلى من أروضعتني الحب والوفاء والدتي الحبيبة.

إلى من شجعتني على مواصلة العلم نروحي العزيزة منى.

إلى إخوتي جميعاً.

اعتراف بالفضل

شكر وتقدير

بعد شكر الله وحمده، لا يسعني في هذا المقام إلا أن أتقدم بجزيل شكري وتقديري وعظيم امتناني وعرفاني بالفضل لأهل الفضل، إلى الأستاذ الفاضل والمعلم الجليل الدكتور محمود عطا الله، على ما حباني به من طيب المعاملة، والتوجيه السليم طوال فترة الدراسة، حيث أعطاني من وقته الثمين الكثير وأمدني بنصحه وإرشاده، فله مني كل الشكر والتقدير والعرفان.

كما أتقدم بالشكر الجزيل لأعضاء لجنة المناقشة: الدكتور حاتم محاميد، والدكتور جمال جودة، شاكرًا لهما عناء تجشمهما قراءة هذا البحث.

وأقدم بالشكر والعرفان إلى جميع أفراد أسرتي، والدتي وأخوتي وأخواتي لما قدموه لي من تشجيع لمواصلة الدراسة، وما تحملوه معي من عناء هذا البحث، والوقوف إلى جانبي طيلة فترة الدراسة.

ولا يفوتني أن أسجل شكري وتقديري وامتناني إلى نزوجتي العزيزة، التي عانت معي الكثير، فوفقت إلى جانبي، وشدت أزراري، وتولت طباعة هذه الدراسة، فلها مني جزيل الشكر والامتنان.

كما أشكر كلاً من الأستاذ محمود الدباس الذي دقق هذه الدراسة لغوياً، والدكتور أحمد مرأفت من قسم الجغرافيا بجامعة النجاح الذي ساعدني في رسم بعض الخرائط المتعلقة بالدراسة.

وأشكر كل من قدم لي عوناً كان مقلداً أو مكثرًا أسهم في إنجاح هذا البحث، وأخص بالذكر المحال عبد الهادي العملة وأولاده، وكل من وقف إلى جانبي لهم مني عظيم الامتنان.

وفي الختام أتقدم بالشكر إلى العاملين في مكتبة الجامعة الأردنية، الذين وفروا لي كل التسهيلات التي مكنتني من الإطلاع على المصادر والمراجع المتعلقة ببحتي.

٥٤٢٨٦٢

والله ولي التوفيق

عبد الجبار العملة

المحتويات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٣
شكر وتقدير	٤
المحتويات	٥
الرموز والمصطلحات	١٢
المقدمة	١٣
_ أهمية البحث ومنهج الدراسة	١٣
عرض وتحليل لأهم مصادر الدراسة	١٦
الفصل الأول : جغرافية نيابة دمشق	٢٨
_ أولاً : الموقع والحدود	٢٩
_ ثانياً : التضاريس	٣١
_ ثالثاً : المناخ والمياه	٣٣
أ) المناخ	٣٣
ب) الحرارة	٣٤
ج) الرياح	٣٤
د) الامطار	٣٥
هـ) المياه والأنهار	٣٨
_ التعريف بنيابة دمشق في العصر المملوكي	٤٦
_ القرى في نيابة دمشق في العصر المملوكي	٥١
الفصل الثاني : الإدارة والوظائف في نيابة دمشق	٦٦
أولاً : الموظفون من أرباب السيوف	٦٧
١_ نائب السلطنة	٦٧
٢_ الحاجب	٧١
٣_ الأستاذار	٧٢
٤_ نائب القلعة	٧٢

٧٤	٥_ نقيب الجيش
٧٤	٦_ ولاية المدينة
٧٥	٧_ شاد الدواوين
٧٥	٨_ شاد المهمات
٧٥	٩_ نقيب النقباء
٧٥	١٠_ المهمندار
٧٦	١١_ الخزنदार
٧٦	١٢_ شاد الأوقاف
٧٧	١٣_ شاد الزكاة
٧٧	١٤_ شاد الخاص
٧٧	١٥_ شاد العشر
٧٧	١٦_ شاد الطعم
٧٨	١٧_ أمير آخورية البريد
٧٨	١٨_ مقدم البريد
٧٨	١٩_ شاد الموارد الحشرية
٧٨	٢٠_ الأتابكية
٧٨	٢١_ الدوادارية (دوادار النائب)
٧٩	ثانياً : أرباب الأقلام أو أصحاب الوظائف الديوانية
٧٩	١_ الوزارة
٨٠	٢_ كاتب السر
٨١	٣_ ناظر الجيش
٨٢	٤_ ناظر بيت المال
٨٣	٥_ نظر المهمات الشريفة
٨٣	٦_ نظر الخاص
٨٣	٧_ نظر ديوان الأسرى
٨٣	٨_ نظر الأسواق
٨٣	٩_ نظر مراكز البريد
٨٤	١٠_ نظر الحوطات
٨٤	١١_ نظر المسابك

٨٤	١٢_ نظر الخزائنة
٨٤	١٣_ نظر البيمارستان النوري
٨٤	١٤_ نظر الجامع الأموي
٨٥	١٥_ نظر خزائن السلاح
٨٥	١٦_ نظر الجوالي
٨٥	ثالثاً : أرباب الوظائف الدينية
٨٥	١_ قضاء القضاة
٨٧	٢_ قاضي العسكر
٨٧	٣_ إفتاء دار العدل
٨٧	٤_ مشيخة الشيوخ
٨٨	٥_ الحسبة
٩٢	٦_ وكالة بيت المال
٩٣	٧_ نقابة الأشراف
٩٣	٨_ الخطابة
٩٤	رابعاً : وظائف أرباب الصناعات
٩٤	١_ رئاسة الطب
٩٥	٢_ رئاسة الكحالين
٩٦	٣_ رئاسة الجرائحية
٩٦	خامساً : وظائف زعماء أهل الذمة
٩٦	أولاً : النصارى
٩٨	ثانياً : اليهود
١٠٠	الفصل الثالث : حياة الأمير تنكز الحسامي
١٠١	_ اسمه ونسبه
١٠١	_ أصله
١٠٣	_ ثقافته وعلمه
١٠٤	_ نشأته وظهوره على مسرح الأحداث
١٠٨	_ ثروة الأمير تنكز وأملاكه
١٠٩	_ ممتلكاته العقارية

١١٣ ثرواته المالية	—
الفصل الرابع : الأوضاع السياسية والعسكرية لنيابة دمشق في عهد الأمير تنكز ١١٧		
١١٨ علاقة الأمير تنكز مع السلطان الناصر والأمراء المماليك	—
١٢٧ الخلاف بين الناصر والأمير تنكز	—
١٤٦ الأوضاع العسكرية لنيابة دمشق في عهد الأمير تنكز ودوره في الجهاد	—
١٤٦ معركة وادي الخازندار	—
١٤٩ معركة شقحب	—
١٥١ الحملة العسكرية على ملطية	—
١٥٨ الحملة العسكرية على سيس	—
الفصل الخامس : الحياة الاقتصادية		
١٦٦ الزراعة	—
١٦٧ طرق استثمار الأرض	—
١٧٠ الكوارث الطبيعية وأثرها على الإنتاج الزراعي	—
١٧٤ أهم المنتجات والمحاصيل الزراعية	—
١٧٥ الحبوب	—
١٧٥ الخضار والبقول	—
١٧٦ الأشجار المثمرة	—
١٨٣ النباتات العطرية والورود	—
١٨٣ الثروة الحيوانية	—
الصناعة		
١٨٦ أولاً : الصناعات النسيجية	—
١٨٩ ثانياً : الصناعات العسكرية	—
١٩٢ ثالثاً : الصناعات المعدنية	—
١٩٧ رابعاً : الصناعات الزجاجية	—
١٩٨ خامساً : الصناعات الخزفية	—
١٩٨ سادساً : الصناعات الخشبية	—
١٩٩ سابعاً : صناعة الحصر	—
٢٠٠ ثامناً : صناعة الصابون	—

٢٠٠	تاسعاً : الصناعات الجلدية
٢٠١	عاشراً : صناعة الورق
٢٠١	حادي عشر : صناعة العطور
٢٠٢	ثاني عشر : الصناعات الغذائية
٢٠٩	التجارة
٢١٠	_ الأسواق الدمشقية
٢٢٠	_ العمائر التجارية المتممة للأسواق
٢٢٠	أولاً : القياس
٢٢٢	ثانياً : الفنادق
٢٢٤	ثالثاً : الخانات
٢٢٧	_ التجارة الخارجية
٢٣٥	العملة
٢٣٦	الأوزان
٢٣٧	المكاييل
٢٣٨	المقاييس
٢٣٩	الأسعار
٢٤٠	الضرائب
٢٤١	المواصلات
٢٤١	أولاً : البريد
٢٤٨	ثانياً : أبراج الحمام
٢٤٨	_ مراكز هجن الثلج
٢٤٨	_ المناور
٢٥٠	الفصل السادس : الحركة العلمية
٢٥١	تمهيد
٢٥٢	أهم المؤسسات العلمية
٢٥٢	أولاً : المساجد
٢٥٣	_ أنواع المساجد
٢٥٥	_ نفقات المساجد

٢٥٦	قومة المساجد
٢٥٧	الدور العلمي والثقافي لمساجد دمشق
٢٥٩	أهم الجوامع
٢٦٣	ثانياً : المدارس
٢٦٣	نشأة المدارس في بلاد الشام
٢٦٣	مدارس دمشق في العصر المملوكي
٢٦٤	أنواع المدارس
٢٦٥	الوظائف العلمية في المدارس
٢٦٨	مراحل التعليم وطرقه
٢٧١	أساليب التعليم
٢٧٤	المواد الدراسية في المدارس المملوكية
٢٧٥	الدور الثقافي للمدارس
٢٧٦	أهم المدارس في دمشق
٢٨٠	ثالثاً : اليمارستانات
٢٨١	أقسام اليمارستانات
٢٨٣	نظام المعالجة في اليمارستانات
٢٨٤	مدارس الطب
٢٨٥	الدور الثقافي لليمارستانات
٢٨٧	رابعاً : المؤسسات الصوفية في دمشق (الخوانق _ الربط _ الزوايا) :
٢٨٧	تمهيد
٢٨٩	الفرق الصوفية
٢٩٠	الخوانق والربط والزوايا
٢٩٣	الخوانق
٢٩٤	الربط
٢٩٥	الزوايا
٢٩٦	علماء دمشق في عهد الأمير تنكز :
٢٩٦	أولاً : العلوم الدينية
٢٩٦	أ) في مجال الحديث والفقہ
٣١٦	ب) التصوف

٣١٨ ثانياً : علم التاريخ
٣٢٦ ثالثاً : الأدب
٣٣٦ رابعاً : العلوم العقلية
٣٤٠ الفصل السابع : الحياة الاجتماعية:
٣٤١ الفئات الاجتماعية
٣٤١ أولاً : المسلمون
٣٤١ أ) السنة
٣٤٣ ب) الشيعة
٣٤٤ ثانياً : أهل الذمة
٣٤٥ أ) النصارى
٣٥٠ ب) اليهود
٣٥٢ احتفالات المجتمع الدمشقي
٣٥٢ أولاً : الأعياد والمناسبات الدينية
٣٦٠ أعياد أهل الذمة
٣٦٢ ثانياً : احتفالات المجتمع الدمشقي في المناسبات الاجتماعية الخاصة
٣٧٧ وسائل التسلية لدى المالك
٣٨٠ الحياة اليومية في دمشق ومنتزهاها
٣٨٥ الفساد الاجتماعي
٣٨٧ دور المرأة في الحياة الاجتماعية
٣٩٠ الحمام ودوره في الحياة الاجتماعية
٣٩٩ الملابس
٤٠٤ الخاتمة
٤٠٦ الملحق
٤١٠ المصادر والمراجع
٤٥٥ الخرائط والأشكال
٤٦١ ملخص الدراسة باللغة العربية
٤٦٢ ملخص الدراسة باللغة الإنجليزية

الرموز والمصطلحات

عند استخدام الكتاب في البحث يذكر اسم الشهرة للمؤلف، والمقطع الأول من اسم الكتاب، في حالة وجود أكثر من كتاب لهذا المؤلف. وهذا ينطبق على الكتب العربية والأجنبية.

أما الرموز والمختصرات العربية التي وردت في الرسالة فهي:-

ت = توفي

ج = الجزء

د. ن = دون ذكر لدار النشر

د. م = دون مكان نشر

د. ت = دون تاريخ نشر

ط = الطبعة

م = مجلد

ع = العدد بالنسبة للدوريات العربية

أما الرموز والمختصرات الأجنبية فهي :-

ed = Editor

Trans = Translated

Vol = Volume

A.D = After death

N.d = No date

مقدمة :

أهمية البحث ومنهج الدراسة:-

اتجهت بعض الدراسات الحديثة إلى دراسة نيابات الشام في العصر المملوكي، وبالنسبة لنيابة دمشق فقد تناولت دراستين حديثتين الجانب الاجتماعي للمدينة في ذلك العصر، الدراسة الأولى كانت بعنوان: "الحياة الاجتماعية في دمشق في العهد المملوكي" لفريال الزربا، والثانية بعنوان: "الاجتمع الدمشقي من خلال كتابات ابن طولون" لبوران لنية. وفيما خلا هاتين الدراستين فلم تظهر دراسات أخرى لدراسة نيابة دمشق دراسة شاملة في مختلف النواحي الجغرافية والإدارية والسياسية والاقتصادية والعلمية والاجتماعية في فترة وجيزة من فترات العصر المملوكي، لذا جاءت هذه الدراسة لتعالج موضوع نيابة دمشق في الفترة بين عامي ٧١٢-٧٤٠هـ/١٣١٢-١٣٣٩م/١٣٤٠م. اعتبرت نيابة دمشق أهم نيابات الشام على الإطلاق، وكانت تأتي من حيث الأهمية في الدولة المملوكية بعد القاهرة، ولذا تمتع نائب دمشق بصلاحيات لم تعط لأحد من نواب الشام، بل وصلت إلى حد مسؤوليته عليهم جميعاً، وأصبح يعتبر نائباً للسلطان في بلاد الشام.

وقد ازدهرت دمشق في العصر المملوكي ازدهاراً كبيراً من مختلف النواحي السياسية والاقتصادية والعلمية، ويشهد على ذلك الدور السياسي الذي لعبته النيابة في الحياة السياسية المملوكية، والموقع الاقتصادي المرموق الذي أحرزته المدينة بين مدن بلاد الشام والمشرق العربي عامة، إضافة إلى المؤسسات العلمية العريقة التي ضمتها المدينة وعلى رأسها الجامع الأموي.

وقد بلغت مدينة دمشق ذروة ازدهارها الحضاري في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، خاصة في عهد نائبها الشهير تنكز الحسامي. ومما زاد من أهمية نيابة دمشق سياسياً في عهد هذا الأمير ارتباطه بعلاقة مصاهرة مع سلطان دولة المماليك آنذاك وهو السلطان الناصر محمد بن قلاوون، من هنا جاءت أهمية دراسة هذه المدينة من مختلف جوانبها الحضارية في هذه الفترة الحاسمة من تاريخها في العصر المملوكي.

ولتحقيق أهداف الدراسة فقد قسمت البحث إلى سبعة فصول: خصصت الفصل الأول منها لجغرافية دمشق ومنطقتها، حيث تحدثت فيه عن الموقع، والمناخ، والتضاريس، ومصادر المياه، ثم تناولت حدود نيابة دمشق، كما ناقشت في هذا الفصل موضوع التعريف بنيابة دمشق في هذا العهد اعتماداً على جغرافي العصر المملوكي، وتلا ذلك ذكر لقرى دمشق في هذا العهد مع ذكر نبذة موجزة عن كل منها.

وقد عالج الفصل الثاني الإدارة والوظائف في المدينة، وتناولت فيه خمسة أنواع من الوظائف بشكل مسهب، فشمل النوع الأول منها: "الموظفون من أرباب السيوف"، أما النوع الثاني فهو: "أرباب الأقاليم أو أصحاب الوظائف الديوانية"، أما النوع الثالث فتناول: "أرباب الوظائف الدينية"، والنوع الرابع كان بعنوان: "وظائف أرباب الصناعات"، والنوع الخامس بعنوان: "وظائف زعماء أهل الذمة".

وتناولت في الفصل الثالث دراسة تحليلية لشخصية الأمير تنكر الحسامي من حيث نسبه، وأصله، وكيفية ارتقائه سلم الوظائف العسكرية والإدارية، وتوليه منصب النيابة، ثم ختمت هذا الفصل بالحديث عن ثروات الأمير المالية، وممتلكاته العقارية، وأماكن وجودها، ومصادرة السلطان الناصر لهذه الممتلكات بعد القضاء على تنكر.

ودرست في الفصل الرابع الأوضاع السياسية والعسكرية لنيابة دمشق في عهد الأمير تنكر، وقد تضمن علاقة الأمير تنكر مع السلطان الناصر، هذه العلاقة التي بدأت ترسم ملامحها منذ وجود السلطان الناصر في الكرك، وقبل توليه منصب السلطنة المملوكية للمرة الثالثة عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، ثم تطورت بتعيينه نائباً للشام عام ٧١٢هـ/١٣١٢م، وعلى أثر ذلك توثقت هذه العلاقة بشكل كبير عندما تزوج الناصر إحدى بنات الأمير تنكر، فتكررت زيارات تنكر للسلطان في القاهرة، وفي المقابل تكررت زيارات السلطان لدمشق، ووصل الأمر إلى أن عرض السلطان على الأمير تنكر أن يزوج بناته لأولاد الأمير. كما تناول هذا الفصل كيفية تحول هذه العلاقة الوثيقة وهذا الود الكبير الذي ربط السلطان الناصر بالأمير تنكر، إلى عداوة وكره شديدتين، دفعا بالناصر في نهاية المطاف إلى التخلص من الأمير تنكر وقتله، وختمت هذا الفصل بالحديث عن دور تنكر في الجهاد ضد أعداء الدولة المملوكية (المغول والأرمن)، فبينت مشاركة الأمير في معركتي شقحب ووادي الخزندار ضد المغول، وكانت هذه المشاركة في الفترة التي سبقت حكمه لدمشق، كما أوضحت دوره في الجهاد ضد الأرمن (ملطية وسيس) في فترة ولايته على دمشق، وشرحت بشكل مسهب حملته العسكرية الشهيرة على ملطية عام ٧١٥هـ/١٣١٥م، وكذلك مشاركة القوات الدمشقية في الحملة على بلاد سيس عام ٧٣٧هـ/١٣٣٧م.

أما الفصل الخامس، فتعرضت فيه للحديث عن الحياة الاقتصادية لنيابة دمشق، وحاولت إعطاء صورة واضحة لأبرز موارد النيابة في هذا العصر، وقد ضم عدة جوانب من الإنتاج الزراعي، كما ركزت على الصناعات الدمشقية وأنواعها، إضافة إلى الحديث عن التجارة في دمشق والمرافق التي عملت على تنشيط التبادل التجاري، وأشارت في هذا الفصل إلى العلاقات التجارية التي ارتبطت بها دمشق مع المناطق المجاورة، ثم تناولت وسائل المواصلات وأهمها البريد، والحمام الزاجل، ومراكز

هجن الثلج، والمناور، كما أوضحت في هذا الفصل معالم اقتصادية أخرى في دمشق، مثل: العملة، والمكايل، والمقاييس، والأسعار، والضرائب وأنواعها.

أما الفصل السادس، فعالج الحركة العلمية في نيابة دمشق، واشتمل على أهم المؤسسات العلمية التي كان لها دور مهم في نشر العلم وازدهار العلوم الدينية والدنيوية، مثل: المساجد، والمدارس، والبيمارستانات، والخوانق، والربط، والزوايا، وقد استعرضت دور هذه المؤسسات في إثراء الحركة العلمية في دمشق، وختمت هذا الفصل بالترجمة لعدد من علماء دمشق آنذاك والذين اشتهروا في مجالات العلوم المختلفة، وذكر لأشهر مؤلفاتهم، والتي تدل على نهضة علمية فكرية ثقافية شهدتها النيابة في ذلك العصر.

أما الفصل السابع، فتضمن الحياة الاجتماعية في مدينة دمشق، وتحدثت فيه عن الفئات الاجتماعية الدينية في المدينة وهي: المسلمون، والنصارى، واليهود، كما أوضحت في هذا الفصل أهم الاحتفالات التي كان يقوم بها السكان في دمشق، وقسمتها إلى مناسبات دينية، ومناسبات اجتماعية، إضافة إلى وسائل التسلية عند الماليك، وكذلك التسلية عند عامة الناس، من خلال الحديث عن الحياة اليومية في دمشق المملوكية، وأثر المتنزعات الدمشقية في انتشار اللهو والترف والفساد الاجتماعي، كما أوضحت دور المرأة الدمشقية في الحياة اليومية ومختلف النشاطات الاجتماعية، وكذلك الحمام الدمشقي ودوره في الحياة الاجتماعية، وأخيراً ملابس السكان.

وقد بذلت جهداً أرجو أن يكون كافياً لإخراج مثل هذه الدراسة التي أتمنى أن تنال رضا أساتذتي المناقشين والأخوة القارئین.

ولا أدعي أنني أوفيت الموضوع من جميع جوانبه بحثاً وكتابةً، فلا بد أن تكون هناك معلومات لم أستطع الوصول إليها بسبب عدم توفر مصادرها، ولم أبلغ الكمال أبداً، فالكمال لله وحده، وأرجو من أساتذتي قبول اعتذاري عن كل تقصير، واعداء إياهم بأن أقوم بتلبية رغباتهم والعمل بتوجيهاتهم القيمة ليخرج هذا البحث بالصورة المثلى التي يريدون.

عرض وتحليل لأهم مصادر الدراسة:

استندت هذه الدراسة على العديد من المصادر الأساسية التاريخية والجغرافية، المخطوطة منها والمطبوعة، والتي شكلت مجموعها الأساس الذي قامت عليه مادة البحث، وهنا سأقوم بعرض موجز لأهم المصادر التي اعتمد عليها بشكل أساسي في هذه الدراسة.

أولاً: كتب الجغرافية والرحلات:

١- رحلة ابن جبیر، لأبي الحسن محمد بن أحمد بن جبیر الکنانی الأندلسي الشاطبي البنسسي، (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م): بدأ ابن جبیر رحلته الأولى إلى المشرق سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م، زار خلالها مصر والحجاز والعراق، ووصل بلاد الشام سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م^(١)، ومع أن رحلته جاءت سابقة لفترة البحث إلا أنها كانت من مصادره المهمة، وذلك لاشتمالها على وصف يكاد يكون دقيقاً لبعض المؤسسات العلمية والاجتماعية في دمشق، وقد استمر كثير من هذه المؤسسات حتى العصر المملوكي مما كان لمعلومات ابن جبیر أثر كبير في معرفة التطورات التي حدثت على هذه المؤسسات، فقد أورد ابن جبیر كثيراً من مشاهداته حول المساجد خاصة المسجد الأموي في دمشق^(٢)، وكذلك البيمارستانات، والخوانق والربط والزوايا التي قدم وصفاً دقيقاً لما كان موجود منها بدمشق^(٣).

٢- معجم البلدان، لشهاب الدين عبد الله ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م): ويعد هذا الكتاب من أهم المعاجم الجغرافية التي أفاد منها الباحث في دراسته، إذ يلاحظ بأن المادة التي قدمها ياقوت في معجمه مادة شاملة تقدم صوراً جغرافية شتى عن المواقع التي يعرف بها، كما أن لديه إضافات وتعريفات لمواقع أخرى لم ترد عند غيره^(٤).

وصف ياقوت كتابه (معجم البلدان) في مقدمة الكتاب بقوله: «أما بعد، فهذا كتاب في أسماء البلدان، والجبال، والأودية، والقيعان، والقرى، والمحال، والأوطان، والبحار، والأنهار، والغدران، والأصنام، والأبداد، والأوثان»^(٥).

وقد أفاد الباحث من هذا الكتاب في التعريف بالمواقع الجغرافية المختلفة التي وردت في فصول الدراسة.

٣- الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، لعز الدين أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن شداد (ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٧م): وتكمن أهمية هذا الكتاب أن مادته جاءت شاملة لبلاد الشام كلها،

(١) زيادة، رواد ٨١.

(٢) ابن جبیر ٢٣٥-٢٥٤.

(٣) المصدر نفسه ٢٥٥-٢٥٧.

(٤) زيادة، رواد ٦٩.

(٥) ياقوت، معجم ٢١/١.

فهناك قسم خاص بمدينة دمشق، وقسم خاص بمدينة حلب، وآخر يتعلق بتاريخ لبنان والأردن وفلسطين، وقد أفدت منه بذكر المؤسسات الاجتماعية والثقافية في دمشق، من مدارس، وبيمارستانات، وخوانق، وربط، وزوايا، فقد ذكر هذه المؤسسات، ومواقعها وشيئاً من أوقافها، وجاء ذكره لهذه المؤسسات منذ القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، ولذا فقد رُفد هذا المصدر بحثي بشكل بارز، خاصة الفصلين السادس والسابع منه، والمتعلقة بالحركة العلمية والحياة الاجتماعية ومؤسستها.

٤_ نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي، المعروف بشيخ الربوة، (ت ٧٢٧هـ/١٣٢٧م): ويبحث هذا الكتاب في حياة الأرض، ومقاييسها، وأقاليمها بما في ذلك البحار، والمحيطات، والأهوار^(١)، وتكمن قيمة هذا الكتاب في أن مادته عن بلاد الشام تحتل المكانة الأولى، لأنه أمضى فيها كل حياته، وهو يعتبر مصدراً أساسياً بالنسبة لجغرافيتها وتاريخها، ويعتبر وصفه للشام وافياً في هذا المجال^(٢)، والدمشقي نادراً ما يشير إلى مصادره، وهي جميعها أسماء معروفة، مثل: ابن حوقل (ت ق ٤هـ/١٠م)، والمسعودي (ت ٣٤٥هـ/٩٥٦م)، والبكري (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، والإدريسي (ت ٦٥٠هـ/١١٦٠م)^(٣)، ومع أن نخبة الدهر أقل شأناً من تقويم البلدان من الناحية الرياضية إلا أنه أجل شأناً من حيث المعلومات المتعلقة بالظواهر الطبيعية، والثروة المعدنية، والشؤون السلالية^(٤). ويعتبر كتاب نخبة الدهر أول المصادر التي أشارت إلى التنظيم الإداري في نيابة دمشق، حيث وصفها باسم "مملكة"، كما عدد المناطق المؤلفة لنيابة دمشق في عهده، وهذا ما لا نجد عند غيره من المؤلفين، إضافة إلى ذلك فقد زدنا كتاب نخبة الدهر بمعلومات مهمة عن زراعة الورد بدمشق، وطريقة صناعة ماء الورد أيضاً، وتصديره إلى الخارج.

٥_ تقويم البلدان، للملك المؤيد بن السلطان الأفضل نور الدين بن الحسن المعروف بأبي الفداء، صاحب حماة (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م): قسم المؤلف الأرض إلى أقاليم، وقام بدراسة كل إقليم على حده بشكل مفصل، إلا أن أبا الفداء لم يكن رحالة بدليل أنه لم يعرف غير الشام، وشبه الجزيرة العربية، ومصر، والجزء الشرقي من آسيا الصغرى، وأرض الجزيرة العليا، أما بخلاف ذلك فهو جغرافي نقالة، استقى مادته من مصادر متعددة أهمها: مشاهداته الشخصية على قلة غزارتها، والمصادر الجغرافية، وكتب النسب التي ظهرت في عصره، وأخيراً المصادر الشفوية، ومع ذلك فقد أضاف بعض المعلومات الجديدة عن البلدان غير الإسلامية^(٥)، فأبو الفداء يعتبر وبحق "أعظم مؤرخ جغرافي في

(١) شيخ الربوة ١-٢.

(٢) كراتشكوفسكي ٣٨٧/١.

(٣) المرجع نفسه ٣٨٧/١.

(٤) حتى، تاريخ ٢٩٥/٢.

(٥) كراتشكوفسكي ٣٨٩/١-٣٩٠، ٣٩٢، إبراهيم ١٢٠-١٥٠.

ذلك العصر على اختلاف الأوطان والأديان»^(١).

أما المصادر المدونة التي اعتمد عليها أبو الفداء، فهي معروفة، لأنه كان يهتم بالإشارة إلى مصادره بدقة مما يدل على أمانته العلمية، ومن بين هذه المصادر: الإصطخري (ت ٤٤٠هـ/١٠م)، وابن حوقل (ت ٤٤٠هـ/١٠م)، وياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، والإدريسي (ت ٦٥٠هـ/١٢٥٢م)، وابن سعيد (ت ٦٧٣هـ/١٢٧٤م)، ومن بين المؤلفين الذين اعتمد عليهم أبو الفداء وفقدت مصنفاتهم على أهميتها (المهلي) (ت ٤٤٠هـ/١٠م)، الذي يعتبر جغرافي العهد الفاطمي^(٢). وقد أفادت الدراسة من هذا الكتاب في التعريف بالكثير من المواقع الجغرافية المختلفة التي وردت في سياق البحث.

٦_ تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتي، المعروف بابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م): لم يكن ابن بطوطة نقالة، اعتمد على غيره من المؤلفين، بل كان رحالة سافر إلى عدد كبير من البلدان، وقد جاوز تجواله مقدار ١٧٥ ألف ميل، واعتمد في هذا الكتاب (تحفة النظر) اعتماداً مطلقاً على ذاكرته^(٣).

بدأ ابن بطوطة رحلته في عام ٧٢٥هـ/١٣٢٥م، وامتدت أسفاره ثمانية وعشرين عاماً، بدأها من طنجة، وسار إلى مصر، ثم زار بلاد الشام والحجاز وأدى فريضة الحج، وتنقل في فارس وبلاد العرب، ووصل إلى شرق إفريقية، ثم زار القرم الأدنى ودخل القسطنطينية، ثم اتجه شرقاً إلى خوارزم، وبخارى، وتركستان، وأفغانستان، والهند، وتعرف إلى جزر الهند الشرقية والصين، ثم عاد إلى طنجة، وبعد ذلك قام برحلتين، الأولى: إلى الأندلس، والثانية: إلى أواسط إفريقية^(٤).

زار ابن بطوطة دمشق عام ٧٢٦هـ/١٣٢٦م^(٥)، ووصف المدينة وصفاً دقيقاً من الناحية الجغرافية، كما تحدث عن أسواقها وصناعاتها ومتاجرها، وتطرق إلى قراها وضواحيها وحددها بشكل دقيق، كما تناول الحديث عن عادات الدمشقيين الاجتماعية، ومناسباتهم الدينية، ونشاطهم العلمية، ودور المسجد الأموي في مختلف هذه النشاطات، وقد أفادت الدراسة من جميع هذه المعلومات التي أوردها المؤلف دون استثناء، خاصة أن بعض هذه المعلومات نكاد لا نجدتها في مصادر أخرى^(٦).

(١) حني، تاريخ، ٢/٢٩٤.

(٢) كراتشكوفسكي ١/٣٩٣، الساعاتي ٦١-٦٣، عيد ٧٧.

(٣) كراتشكوفسكي ١/٤٢٨.

(٤) زيادة، رواد ٩٢.

(٥) ابن بطوطة ١٢٥-١٢٦.

(٦) ابن بطوطة ١٠٤-١٢٦، زيادة، رواد ٩٢-٩٤، بروكلمان ١٣٥-١٣٦.

ثانياً: كتب التاريخ:

١ _ المختصر في أخبار البشر، للملك المؤيد بن السلطان الأفضل نور الدين بن الحسن المشهور بأبي الفداء (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م): وهذا الكتاب يعتبر من مصادر التاريخ الإسلامي المهمة لبلاد الشام عامة ولمدينة دمشق خاصة، فيما يتعلق بالعهدين الأيوبي والمملوكي^(١).

وقد رتب أبو الفداء كتاب المختصر ترتيباً حولياً^(٢)، كما أورد في مقدمة كتابه المصادر التي أخذ منها وذلك بوضوح وتسلسل تامين، وهذه المصادر هي: (الكامل في التاريخ) لابن الأثير (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٣٢م)، و(وفيات الأعيان) لابن خلكان (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)، و(مفرج الكروب في أخبار بني أيوب) لابن واصل (ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م)، ومن سفري القضاة والملوك من التوراة^(٣).

وقد أفادنا هذا الكتاب بمعلومات أساسية عن علاقة الأمير تنكز مع السلطان الناصر وزياراته المتكررة إلى البلاط السلطاني في القاهرة، إضافة إلى معلومات مهمة أخرى تتعلق بالحملات العسكرية التي نظمتها الدولة المملوكية ضد الأرمن في إنطاكية وسيس في النصف الأول من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، خصوصاً أن أبا الفداء كان مشاركاً في بعضها^(٤).

٢ _ تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده من سنة ٧٣٧_٧٤٦هـ، لشمس الدين الشجاعي: وهذا الكتاب لا يزال مخطوطاً، ويعتبر من أهم مصادر التاريخ السياسي للعصر المملوكي في العقدين الرابع والخامس من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، حيث عاصر هذا المؤلف السنوات الأخيرة لنيابة تنكز على الشام وسلطنة الناصر في القاهرة، وتحديث بشكل مسهب عن العلاقة بينهما، وكيفية تخلص الناصر من الأمير تنكز، وأسباب ذلك، كما تطرق إلى الحملات العسكرية التي نظمتها الدولة المملوكية ضد أرمينيا، ودور تنكز الحسامي في هذه الحملات، لذا جاءت المعلومات التي أوردها هذا المؤلف قيمة جداً للبحث، خاصة للفصلين الثالث والرابع^(٥).

٣ _ دول الإسلام، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، المعروف بالذهبي (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م): أرخ الذهبي في هذا الكتاب للدولة الإسلامية منذ وفاة الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى سنة ٧١٥هـ/ ١٣١٥م، ويليه تذييل تناول فيه الأحداث حتى سنة ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م، وقد رتب الذهبي هذا الكتاب ترتيباً حولياً، وتناول فيه الأحداث المهمة في كل

(١) زكار ٥٤-٥٥.

(٢) أبو الفداء، المختصر ١/١٢.

(٣) أبو الفداء، المختصر ١/١١-١٢ الساعات ٦٣ عباد ٧٨-٩٥.

(٤) أبو الفداء، المختصر ٢/٤١٩.

(٥) الشجاعي ١-٦٧ب.

سنة، ثم يتبعها بذكر من توفي من العلماء والأعيان، وقد أفدنا من هذا الكتاب في ذكر بعض الأحداث السياسية المتعلقة بنبأ دمشق في عهد الأمير تنكز، وكذلك التي لها علاقة بأهل الذمة، إضافة إلى تراجم للكثير من العلماء.

٤ _ البداية والنهاية، لعماد الدين إسماعيل بن كثير القرشي، (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م): وقد جاءت أخباره دقيقة وموثوقة، فهو فقيه إلى جانب كونه مؤرخاً، كما كان معاصراً للأحداث، وخاصة في الأجزاء الأخيرة من كتابه، فأعطى بذلك صوراً حية كثيرة للأحداث والمجريات التي عايشها وشاهدها، وهو شاهد عيان لتلك الأحداث^(١).

وقد قسم كتابه إلى أقسام:

١ _ يتناول القسم الأول الفترة الممتدة بين خلق العرش والكرسي والسموات والأرضين وما فيهن، وما بينهن من الملائكة والجان والشياطين، وكيفية خلق آدم، وقصص النبيين. وما جرى مجرى ذلك إلى أيام بني إسرائيل وأيام الجاهلية حتى تنتهي النبوة إلى أيام النبي محمد، صلى الله عليه وسلم.

٢ _ يتناول القسم الثاني الفترة الممتدة بعد وفاة الرسول، صلى الله عليه وسلم، حتى سنة ٧٦٨هـ/١٣٦٦.

٣ _ يتناول القسم الثالث الفتن، والملاحم، وأشرط الساعة، والبعث، والنشور، وأحوال القيامة، وصفة النار والجنان.

وتكمن قيمة هذا الكتاب في أنه يعتبر مصدراً أساسياً لتاريخ بلاد الشام السياسي والاجتماعي^(٢)، وقد أفدنا منه من خلال تتبع الأحداث السياسية، كعلاقة الأمير تنكز مع السلطان والخلاف بينهما، ونهاية تنكز في آخر المطاف، وأحداث اجتماعية متعلقة بعبادات أهالي دمشق، واقتصادية تتعلق بالكوارث الطبيعية التي تعرضت لها الزراعة في بلاد الشام، ويذكر تراجم لبعض العلماء ويوضح دورهم في الحياة العامة، كما يتناول موضوع مدارس دمشق أيام الزنكيين والأيوبيين والمماليك واهتمامهم بها، وعن أوقاف هذه المدارس والمدرسين بها، وعن الاحتفال عند الانتهاء من بناء مسجد أو جامع، كما يتحدث عن التحديثات التي أدخلها سلاطين المماليك على المسجد الأموي، ومن ضمنها التحديثات التي أحدثت على المسجد في النصف الأول من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، (موضوع الدراسة)، إضافة إلى الحديث عن أوقاف هذا المسجد، كما يتناول ابن كثير موقف الدولة المملوكية من التصوف، ويتحدث أيضاً عن المؤسسات الاجتماعية مثل البيمارستانات وخاصة البيمارستان القيمري، إضافة إلى الحمامات، والحانات، والفنادق، والقياسر، ويتحدث أيضاً عن الاحتفالات الدينية والاجتماعية التي كان يقوم بها سكان دمشق.

(١) عنان ٤٥.

(٢) زيادة، دمشق ٢٠٦.

٥_ العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م): كان ابن خلدون قاضياً^(١)، كتب تاريخه بعد أن تنقل في البلاد الإسلامية، مثل: الأندلس والمغرب، ووفد إلى مصر عام ٧٨٤هـ/١٣٨٢م^(٢).

ويتدئ كتابه بذكر الخليفة وينتهي في بداية القرن التاسع الهجري/أوائل القرن الخامس عشر الميلادي، وخالف ابن خلدون المؤرخين السابقين من ناحية أنه لم يتبع الطريقة الحولية في الكتابة، بل قسم تاريخه إلى مواضع ودول، أما مصادر معلوماته، فقد استفاد من كتب سابقه، وتكمن قيمة هذا الكتاب في أن مؤلفه عاصر بعض الأحداث التي ذكرها.

وبالنسبة لموضوع الدراسة فقد أفادت من هذا الكتاب في مجال العلاقات بين تنكز والناصر وتوترها وأسباب ذلك، إضافة إلى الأعمال العسكرية التي قامت بها نيابة دمشق ضد أرمنييا ودور تنكز فيها، ودوره في حركة الجهاد ضد المغول قبل توليه منصب النيابة.

٦_ السلوك لمعرفة دول الملوك، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن علي الشافعي المقرئزي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م): تولى المقرئزي مناصب عديدة في الدولة المملوكية، منها: وظيفة التوقيع بديوان الإنشاء، ثم تولى وظيفة محتسب القاهرة والوجه البحري، واشتغل بالتدريس في مدرسة الحديث بالقاهرة^(٣)، فالمقرئزي صاحب المدرسة التاريخية التي تتميز بتنوع المادة الكتابية، إضافة إلى منهجه في التحليل الدقيق للظواهر الاجتماعية، وقد أرخ فيه المؤلف لتاريخ الدول الإسلامية بإيجاز حتى انتهى إلى الدولة المملوكية، إذ أرخ لها بشكل شامل، وقد اتبع في السلوك الطريقة الحولية، حيث قام بتدوين حوادث كل عام بفصل مستقل تحت عنوان باسم ذلك العام، وختم الحوادث بذكر الوفيات والترجمة لأصحابها في شيء من الاختصار، ثم انتقل إلى العام التالي فجعله عنواناً جديداً وسجل حوادثه دون أن يؤلف من كتابته قصة متصلة، سوى أنه افتتح السنة أحياناً بذكر الوظائف الكرى ومن عليها، وهذا في العادة إذا جاء بدء السنة موافقاً لقيام سلطان جديد لما في ذلك من تغيير وتبدل بين موظفي البلاط السلطاني، واعتاد المقرئزي أن يكتب اسم السلطان، غير أنه لم يجعل من ذلك وقفة يلخص فيها، بل اكتفى بعبارات افتتاحية عن أصل السلطان وماضيه، ثم انتقل إلى ذكر الحوادث والأخبار حسب ترتيبها الزمني قدر الإمكان^(٤).

ويلاحظ بأن المقرئزي كانت له القدرة والأمانة العلمية في نقل الأحداث التاريخية فهو يتحرى

(١) كراتشكوفسكي ٤٣٨/١-٤٤٠؛ حتى، تاريخ ٢/٢٩٥؛ أرنديك، ابن خلدون ١/١٧٩.

(٢) أرنديك، ابن خلدون ١/١٨٠.

(٣) عنان ٤٥.

(٤) زيادة، المؤرخون ٩٤.

الضبط والتدقيق التاريخي، فكتابه يعتبر مذكرات يومية دقيقة وصادقة، صور فيها المقريري الأحوال الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في عصره تصويراً دقيقاً^(١)، وقد اعتمد البحث على هذا المصدر اعتماداً كبيراً خاصة الفصلين الثالث والرابع، حيث أورد معلومات بارزة تتعلق بشرة الأمير تنكز وعلاقاته مع الناصر وزياراته المتكررة إلى القاهرة، والخلاف الذي نشب بينهما فيما بعد وأدى إلى القضاء على تنكز في نهاية المطاف، إضافة إلى الفصل الخامس خاصة ما يتعلق بأخبار الكوارث الطبيعية وغيرها من الأحداث.

٧_ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م): وهو سفر يؤرخ لمصر منذ الفتح الإسلامي سنة ٢٠هـ/٦٤٠م إلى سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م، وهو من أهم الكتب التي ألقت في تاريخ الدولة المملوكية، وقد أتاحت الظروف لأبي المحاسن جمال الدين لأن يتعرف على النواحي الإدارية والسياسية للحكم المملوكي من خلال والده الذي كان أتابكاً للعسكر في مصر، ثم كافلاً للممالك الشامية^(٢).

كما أن ابن تغري بردي نفسه تولى عام ٨٤٩هـ/١٤٤٥م وظيفة أمير الحمل المصري^(٣). أما طريقته في الكتابة فتمثل في أنه خصص لكل عهد من عهود الممالك والسلطين فضلاً قائماً بذاته، وذكر السنين وحوادثها دون أن يجعل لها عناوين مستقلة، وعند وفاة السلطان يأتي أبو المحاسن على أخباره مرة أخرى في ترجمة كاملة^(٤)، واعتمد أبو المحاسن في كثير من مادته على المقريري وابن حجر العسقلاني والعيبي^(٥)، ويعد الكتاب من المصادر المهمة لدراسة التاريخ المملوكي التي لا غنى للباحث عنها، خصوصاً في الجوانب السياسية والإدارية والاقتصادية والعلمية، وقد أفادت الدراسة من هذا المصدر في الفصلين الثالث والرابع عند الحديث عن ثروة الأمير تنكز وعلاقته بالسلطان الناصر وأسباب الخلاف بينهما وتخلص السلطان منه في نهاية الأمر، إضافة إلى الإفادة منه في بعض التراجم التي وردت في الدراسة.

ثانياً: كتب الموسوعات والنظم:

١_ التعريف بالمصطلح الشريف، لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م): موسوعي دمشقي في عهد الممالك، ولقد كان أبوه وجده من قبل موظفين في الدولة المملوكية، وكانا متصلين بتنظيم البريد خاصة، وولد شهاب الدين بدمشق وتولى منصب

(١) المقريري، السلوك ٣٨٤، ٢/١.

(٢) ابن طولون، إعلام ٣٤.

(٣) زيادة، المؤرخون ٢٦-٣٢.

(٤) زيادة، المؤرخون ٩٥-٩٦؛ العراوي ٢٤٥.

(٥) زيادة، المؤرخون ٨٥، ١٠١؛ العراوي ٢٤٥.

القضاء فيها^(١)، وقد عرض في كتابه التعريف كل ما يحتاج إليه في عمل الدواوين^(٢)، وأفدنا من الفصل الخامس من هذا الكتاب وموضوعه (في نطاق كل مملكة وما هو مضاف إليها من المدن والقلاع والرسائق)، وفي هذا الفصل يتعرض لوصف دمشق حيث ذكرها باسم "نيابة" كما بسين وضعها الإداري والبلاد التابعة لها تبعية مباشرة وغير مباشرة، وواجبات نائبها. والفصل السادس وموضوعه (في مراكز البريد والحمام ومراكز هجن الثلج والمراكب المسفرة به في البحر والمناور والمحرقات)، وفي هذا الفصل يعتبر المصدر الأول للدراسة عن مراكز البريد والحمام الزاحل والمناور ونقل الثلج، حيث ذكر دمشق مركزاً من هذه المراكز، وقد نقل عنه من جاء بعده، مثل القلقشندي في موسوعته (صبح الأعشى)، وفي هذا الكتاب اعتمد العمري على الوثائق الرسمية، وعلى معرفته المباشرة بمعظم الوقائع^(٣).

٢ _ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار للعمري.

فقد أمد هذا الكتاب البحث في بعض الفصول، مثل: الفصل الأول، حيث وصف دمشق وضواحيها كما وصف نهر بردى وفروعه، وتحدث عن أعمال دمشق بشكل واضح، ولا غرابة في ذلك، فالعمري أحد أبناء دمشق كما تولى منصب القضاء فيها، أما الفصل الثاني، فقد أفادنا بالحديث عن الوظائف الإدارية في نيابة دمشق وهي: وظائف أرباب السيوف، والوظائف الديوانية، والوظائف الدينية، أما الفصل الخامس، فقد أفادنا في الحديث عن زروع دمشق ونباتها وحيواناتها، وبعض الإشارات إلى الصناعة العسكرية فيها.

يقع هذا الكتاب في ٢٧ جزء^(٤)، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٦٨، وقد نشر أحمد زكي باشا جزءاً من هذا الكتاب بعنوان (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار_ الجزء الأول)، كما قامت دوروتيا كرافولسكي بنشر جزئين من هذه الموسوعة العلمية، الأول بعنوان (دولة المماليك الأولى)، والثاني بعنوان (قبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجريين)، حيث قامت بتصحيحهما ووضع حواشي مفيدة لما ورد فيهما من معلومات.

ويعتبر هذا الكتاب دائرة معارف تاريخية جغرافية أدبية، وفائدته مهمة في موضوع الوظائف الإدارية الكبرى في دولة المماليك، والاستشهاد ببعض الحوادث التي وقعت في هذا العصر، وذلك

(١) زيادة، دمشق ٢٠٦.

(٢) كراتشكوفسكي ٤١٠/١.

(٣) المرجع نفسه ٤١١/١.

(٤) المرجع نفسه ٤١١/١.

لدعم الحقائق التي وردت عن بعض أنظمة الحكم^(١).

وأفادنا الجزء المتعلق بدولة المماليك الأولى بمعلومات جغرافية واقتصادية واجتماعية وعمرانية تتعلق بدمشق في تلك الفترة.

٣_ صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م): أحد كبار الكتاب في العصر المملوكي، تولى منصب ديوان الإنشاء بمصر وأرخ لهذا الديوان، وذكر كل ما يتعلق به من وظائف وأحكام^(٢) في موسوعته هذه، وفرغ من تأليفه عام ٨١٤هـ/١٤١١م، وهو دائرة معارف مهمة عن كل ما يفيد الكاتب_ أي كاتب الدواوين_ وقد كتب القلقشندي في هذا الكتاب عن ديوان الإنشاء وأفاض القول في الأدوار التي مر بها هذا الديوان من عهد النبي، صلى الله عليه وسلم، حتى دولة المماليك، من حيث العناية بأمره، وبيان الصفات التي يجب أن تتوفر في صاحب هذا الديوان الذي أطلق عليه في عصر المماليك (كاتب السر) والمهام التي كان يضطلع بها، كما تكلم عن معاونيه، ولقلقشندي فضل عظيم في توضيح اختصاصات موظفي البلاط السلطاني، والحاشية السلطانية، والموظفين الإداريين في دولة المماليك بوجه عام، حيث تلخص في هذا الكتاب جميع المعارف التي يحتاج إليها الكاتب المثالي، ابتداءً من التوجيهات الفنية بالكلام على المداد والقلم والورق والخط إلى المعطيات الواسعة في نطاق الجغرافيا والتاريخ والأدب والبلاغة، وهو يقدم وصفاً لبلاد الشام ومصر، ولجميع الدول التي لها علاقة بمصر، وقد ركز على نظامها السياسي والإداري، ووضح الأسس التي كان يقوم عليها نشاط الدواوين، ويفرد عدداً من أجزائه لكاتب نماذج من الكتابات الدبلوماسية، وقرارات تعيين الممثلين الرسميين، وللوثائق الحكومية الرسمية من كل صنف، ولا يكفي القلقشندي بإيرادها في صيغتها الكتابية الخاصة فحسب، بل يعرض نماذج من الوثائق الأصلية الموجودة بالمحفوظات، مما يجعل كتابه مصدراً أساسياً بالنسبة للتاريخ، والإدارة والحياة الاجتماعية للعالم الإسلامي والأقطار المتعلقة به في أوائل القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي^(٣).

وبالنسبة لمصادره فإن القلقشندي يشير إليها بدقة، مراعيًا في ذلك الأمانة العلمية، ومن بين هذه المصادر: ابن خرداذبة (ت حوالي ٣٠٠هـ/٩١٢-٩١٣م)، والهمداني (ت ٣٣٤هـ/٩٤٥م)، والمسعودي (ت ٣٤٥هـ/٩٥٦م)، وابن حوقل (ت ق ٤هـ/١٠م)، وياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، والإدرسي (ت ٦٥٠هـ/١٢٥٢م)، وابن سعيد (ت ٦٧٣هـ/١٢٧٤م)، وأبو الفداء (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)، وابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م)، الذي يحتل

(١) حمزة ٣٢٢-٣٢٧.

(٢) كراتشكوفسكي ٤١٦/١.

(٣) المرجع نفسه ٤١٦/١-٤١٧.

المكانة الأولى بين هذه المصادر^(١).

وقد أفادنا الكتاب بمعلومات جغرافية وسياسية واجتماعية وإدارية وعلمية كبيرة عن نيابة دمشق، حيث يعطينا معلومات عن وظائف أرباب السيوف، مثل: نائب السلطنة، وأمراء العشرات، والخمسات، والحجوبية، وولاية المدينة، والوظائف الديوانية، مثل: كاتب الدرج، وناظر الجيش الخ... والوظائف الدينية، مثل: القضاء، والحسبة، ووكالة بيت المال، والخطابة، حيث يعتبر مصدرنا الأول عن هذه الوظائف. ومعلومات تتعلق بمراكز البريد، والحمام الزاجل، ونقل الثلج، والمناور، وهي في معظمها منقولة عن العمري.

إضافة إلى المعلومات المتعلقة بالوثائق والتقاليد والمناسبات التي أوردها المؤلف وذلك بحكم وظيفته كرئيس لديوان الإنشاء بالقاهرة.

٤_ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، للمقريزي، (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م): وهو خاص بمصر، تناول فيه المدن والآثار المصرية القديمة والوسيلة بوصف دقيق، وعني عناية خاصة بالفسطاط والقاهرة^(٢).

أما مصادر معلوماته فقد استقاها من ثلاثة اتجاهات:

الاتجاه الأول: عن طريق النقل من الكتب المصنفة في العلوم. والاتجاه الثاني: الرواية عن أدركه من شيوخ العلم وجلة الناس. والاتجاه الثالث: عن طريق المشاهدة لما عاينه ورآه^(٣)، ومع ذلك فقد اهتم المقريزي بالإسناد، فلا يكاد ينقل رواية أو واقعة أو وصفاً إلا أسنده إلى مصدره ومؤلفه، ومن بين الأسماء التي يرد ذكرها: الكندي (ت ٢٥٠هـ/٨٦٤م)، وابن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ/٨٨٨م)، والمسعودي (ت ٣٤٥هـ/٩٥٦م)، وابن زولاق (ت ٣٨٧هـ/٩٩٧م)، والقاضي الفاضل (ت ٥٩٦هـ/١١٩٩م)، وابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٣م)، وابن المتوح (ت ٧٣٠هـ/١٣٢٩م)^(٤)، إلا أنه نقل عن الأوحدي دون أن يشير إليه أو يعترف بأخذه منه^(٥).

وقد رقد هذا المصدر الدراسة بمعلومات إدارية مهمة، وأخرى تتعلق بالأعياد الدينية سواء عند المسلمين أو أهل الذمة في دمشق، وأخرى تتعلق بالبريد والحمام الزاجل، إضافة إلى الحيوانات وتربيتها، وطعام المماليك.

(١) كراتشكوفسكي ١/٤٢٠؛ عباد، ٧٧؛ إبراهيم، ١٣٥.

(٢) زيادة، المورخون ١٢.

(٣) المقريزي، الخطط ١/١٠.

(٤) كراتشكوفسكي ٢/٤٨٦، ٤٨٣؛ عنان ٥٤-٥٥.

(٥) زيادة، المورخون ١٠.

رابعاً: كتب التراجم:

١ _ سير أعلام النبلاء، للذهبي، وهذا الكتاب يشتمل على عدد كبير من التراجم، ويقع في سبعة عشر جزءاً، وقد أفدنا من الجزء الأخير، حول ترجمة الذهبي لعلماء دمشق في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي.

٢ _ الوافي بالوفيات، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م): كان الصفدي ابن عبد تركي، درس في دمشق على النحوي المشهور أبي جيان التوحيدي، ثم رافق المؤرخ المحدث الحافظ الذهبي، والفقير المشرع تاج الدين السبكي، واشتغل الصفدي منصب خازن في مدينة دمشق، وأكثر ما اشتهر بمؤلفه الضخم (الوافي بالوفيات) الذي ارتقى عدد أجزائه إلى الثلاثين^(١) وهو مرتب على حروف الهجاء^(٢).

وفي الأجزاء التي وصلت إلينا من الكتاب نحو أربع عشرة ألف سيرة من سير الحكام، والقضاة، والأدباء، وهو أضخم موسوعة للأعلام في الإسلام، ففي وفيات ابن خلكان ٨٦٥ ترجمة، وفي وفيات الكشي ٥٠٦ ترجمات، وفي عيون ابن أبي أصيبعة حوالي ٤٠٠ ترجمة، وقد قدم الصفدي لمعجمه يبحث في النهج التاريخي وهو الأول من نوعه في العالم^(٣).

وقد زدنا هذا الكتاب بالعديد من التراجم سواء للسلطين أو الأمراء أو النواب أو العلماء والأدباء، خاصة في الفصول: الثالث والرابع والسادس.

٣ _ فوات الوفيات، لمحمد بن شاکر الكشي، (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م): وهو أيضاً من كتب التراجم ذات الأهمية الكبرى، التي زودت الدراسة بعدد كبير من التراجم لكثير من علماء دمشق في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، والذين ذكروا في الفصل السادس إضافة إلى تراجم للأعلام الواردين في الدراسة خاصة الفصلين الثالث والرابع.

٤ _ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لشهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، (ت ٨٥٣هـ/١٤٤٩م): أتبع لابن حجر العسقلاني أن يتولى منصب قاضي قضاة الشافعية في القاهرة مدة ٢١ عاماً^(٤).

وقد شمل هذا الكتاب تراجم الأعيان، والعلماء، والملوك، والأمراء، والكتاب، والوزراء، والأدباء، والشعراء، ورواة الحديث، في الفترة الممتدة بين (٧٠١-٨٠٠هـ/١٣٠١-١٣٩٧م)، وقد

(١) كرينكو ٢١/٢١:٦٥٢١، حتى، تاريخ ٢/٢٩٣.

(٢) العزاوي ١٩٤.

(٣) حتى، تاريخ ٢/٢٩٣-٢٩٤.

(٤) زيادة، المؤرخون ٧-٢٠، ٨٠، أرنونك، ابن حجر ١/١٥٦-١٥٧.

استقى معلوماته من مجموعة من المصادر التي أشار إليها في مقدمة كتابه، مثل: (أعيان الناصر) لأبي الصفاء الصفدي، و(مجاني العصر) لابن حيان، و(ذهبية القصر) لشهاب الدين بن فضل الله، و(تاريخ مصر) لقطب الدين الحلبي، و(ذيل سير النبلاء) للذهبي، و(ذيل المرأة) للحافظ علم الدين السيرزالي، و(الوفيات) لابن رافع، و(ذيل الوفيات) لابن حجي، ومؤلفات المقرئزي، و(الوفيات) للدمياطي، و(ذيل الوفيات) للعراقي، و(تاريخ غرناطة) لابن الخطيب، و(تاريخ ابن خلدون)^(١).

وقد زودنا هذا المصدر بمعلومات غنية خاصة في الجانب العلمي من خلال ذكره لعلماء دمشق في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، وترجمته للعديد من الأشخاص الذين ورد ذكرهم في فصول مختلفة، سواء كانوا سلاطين أو أمراء أو نواب أو علماء وأدباء.

٥_ المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، لأبي المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، وهذا الكتاب هو تمة لكتاب الوافي بالوفيات للصفدي، وهو كتاب حافل بتراجم الأعيان والناهين من سلاطين الدولتين المملوكية الأولى والثانية ورجالهما، وبعض ملوك البلاد القريبة من المسلمين والناصرى من سنة (٦٥٠هـ/١٢٥٢م)، إلى عهده، ورتبه أجدياً. وقد أفادنا هذا الكتاب في ذكره لتراجم الكثير من الأعلام الذين وردت أسمائهم في مادة الدراسة.

(١) ابن حجر، الدرر ٤/١-٥.

الفصل الأول

جغرافية نيابة دمشق

أولاً : الموقع والحدود :

شكلت نياحة دمشق في العصر المملوكي جزءاً مهماً من جغرافية بلاد الشام^(١)، وبالنسبة لبلاد الشام، فإن تضاريسها تختلف من منطقة إلى أخرى، ففيها مناطق جبلية عالية في جهاتها الغربية تمتد بشكل طولي من الشمال إلى الجنوب، وترتفع في الشمال أكثر منها في الجنوب، وبالإضافة إلى المناطق الجبلية هناك المناطق السهلية، والمناطق الغورية المنخفضة، والأراضي الصحراوية التي تتميز بقلة المياه والسكان خاصة في الجهات الداخلية والشرقية من بلاد الشام. وخلاصة القول، فإن تضاريس بلاد الشام تأخذ التقسيم الطولي، الذي يمتد من الشمال إلى الجنوب، سواء في ذلك السهول أم الجبال أم الأغوار^(٢).

لذلك كان التقسيم الطولي هو أنسب التقاسيم الطبيعية لبلاد الشام، وقد أشار إلى ذلك المقدسي من خلال تقسيمه أقسام الشام الطبيعية، فقسمها إلى أربعة صفوف : فالصف الأول يلي بحر الروم (المتوسط) وهو السهل وفيه جميع مدن السواحل، والثاني : الجبال وفيه جبال لبنان واللكام^(٣)، والثالث : الأغوار وفيه من المدن أيلة^(٤)، وصغر^(٥)، وأريحا^(٦)، وبيسان^(٧)، وطرية^(٨)، وبانياس، والصف الرابع : سيف البادية وهي جبال عالية باردة، ومعتدلة... وتقع فيه من البلدان مآب^(٩)، وحمص^(١٠)،

(١) بلاد الشام : اختلف اللغويون والجغرافيون في سبب تسمية بلاد الشام بهذا الاسم، فقليل : إنما سميت الشام شاما لان قوما من كنعان نزلوها، فتشاعروا لها أهل اليمن من بينهم، كما يقال تيامنوا أو تياسروا فسميت لذلك. وقيل سميت الشام شاما لكثرة قراها وتدابن بعضها من بعض فشبهت بالشامات. (ابن منظور ٣٢٤/١٢؛ الشرتوني ٢٣٦/٣).

وقيل سميت الشام كذلك لان أرضها مختلفة الألوان بالحمرة والبياض والسواد فسمي شاما لذلك كما سمي الخال في بدن الإنسان شامة وقد يجمع على شامات. (الحميري ٣٣٥).

وقيل سميت شاما لوقوعها على شمال الكعبة كما سمي باليمن ما كان عن يمين الكعبة. (الظاهري ٤١).

(٢) حسين ١٧.

(٣) جبال اللكام : جبال في سورية، ويقال إنها سلسلة جبال على حدود المصيصة وهي جزء من جبال اللكام ولكنها منفصلة عنها ويبلغ طول السلسلة تسعين ميلا وعرضها تسعة أميال ومملوها القرى والقلع. (ياقوت، معجم ٢٥/٥-٢٦).

(٤) أيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم (الأحمر) مما يلي الشام. (ياقوت، معجم ٣٤٧/١؛ القزويني، آثار ١٥٣؛ الحميري ٧٠-٧١)

(٥) صغر: زغر هي اللغة الفصحى فيها، وهي مدينة تقع جنوب البحر الميت (البحيرة المنتنة). (ياقوت، معجم ٤٦٦/٣؛ القزويني، آثار ٩٣).

(٦) أريحا : مدينة الجبارين في الغور، بينها وبين القدس يوم (القزويني، آثار ١٤٢؛ البغدادي ٦٣/١؛ الحميري ٢٥).

(٧) بيسان : مدينة بالأردن بالغور الشامي ويقال : هي لسان (الأرض بين حوران وفلسطين وبها عين الفلوس).

(أبو الفداء، تقويم ٢٤٢-٢٤٣؛ البغدادي ٢٤١/١؛ الحميري ١١٩-١٢٠).

(٨) طرية : بلدة معروفة مطلة على البحيرة المعروفة بها، من أعمال الأردن في طرف الغور بينها وبين دمشق ثلاثة أيام فيها عيون ملححة حارة بنيت عليها حمامات. (ابن حوقل ١٧٣/١؛ القزويني، آثار ٢١٧؛ أبو الفداء، تقويم ٢٤٢-٢٤٣؛ البغدادي ٩٣٥/٢؛ الحميري ٣٨٥-٣٨٦).

(٩) مآب : مدينة على طرف الشام من نواحي البلقاء. (ياقوت، معجم ٣٧/٥)

(١٠) حمص : بلد مشهور بين دمشق وحلب في نصف الطريق (ابن حوقل ١٧٦/١؛ ياقوت، معجم ٣٤٧/٢؛ القزويني، آثار ١٨٤؛ أبو الفداء، تقويم ٢٦٠-٢٦١؛ الحميري ١٩٨-١٩٩).

و دمشق، و تدمر^(١)).

وبذلك يتبين لنا أن دمشق تقع علي حافة البادية الشامية خلف الحاجز المزدوج لجبال لبنان الشرقية والغربية^(٢).

أما بالنسبة لحدود نيابة دمشق في العصر المملوكي :

فقد تميزت بالتأرجح وعدم الثبات كغيرها من نيابات الشام، وتسهيلا للدراسة قسمت هذه الحدود إلى قسمين:

فالقسم الأول حدود ثابتة :

وتشمل مدينة دمشق وقرائها وضواحيها، وحدودها كما وردت عند ابن فضل الله العمري في كتابه "التعريف بالمصطلح الشريف" وهي كما يلي :

"... فأما البر فهو ضواحي دمشق وحده من القبلة قرية الخيارة المجاورة للكسوة وما هو على سمتها طولاً، ومن الشرق الجبال الطوال إلى النيك وما وقع على سمتها، ومن الشام ما هو على سمت النيك من القرى آخذاً على عسال وما حولها من القرى إلى الزبداني، ومن الغرب ما هو من الزبداني إلى قرى القران المسامطة للخيارة المقدمة الذكر، وفي هذا مرج دمشق وغوطتها"^(٣).

يلاحظ أن دمشق كانت تضم المنطقة المحصورة اليوم بين قرية الكسوة جنوباً والنيك شمالاً، وبين بادية الشام شرقاً والزبداني غرباً، ويدخل في هذا النطاق مرج دمشق وغوطتها ومدينة دمشق أيضاً^(٤). وهذا القسم هو موضوع الدراسة .

القسم الثاني حدود غير ثابتة :

وفي هذا القسم تتجاوز حدود النيابة وسلطة نائبها حدود القسم الأول لتشمل نيابات صغرى وولايات.

فاليابات الصغرى أهمها : غزة، والقدس، وصرخد، وعجلون، وبعلبك، وحمص، ومصيف، والرحبة^(٥). مع ملاحظة أن غزة صارت في عام ٧١١هـ/١٣١١م نيابة قائمة بذاتها، وقد أشار ابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) إلى ذلك عند تعدادة لمآثر السلطان الناصر حيث يقول: "حتى أن مدينة غزة هو الذي مصرها وجعلها على هذه الهيئة، وكانت قبل كآحد قرى البلاد الشامية وجعل لها

(١) تدمر : مدينة قديمة مشهورة في بريا الشام بينها وبين حلب خمسة أيام. (ياقوت، معجم ٢/٢٠، القزويني، آثار ١٦٩، الحميري، ١٣١).

(٢) المقدسي ١٦٠ .

(٣) بحر ، مدينة ٥٠ .

(٤) العمري ، التعريف ٢٥٣ ؛ الخالدي ٨٧ب ؛ القلقشندي ، صبح ١٠١/٤ .

(٥) العلي، دمشق ٣٥-٣٦ .

(٦) العمري ، التعريف ٢٥٣-٢٥٧ .

نائباً وسمي بملك الأمراء ، ولم تكن قبل ذلك إلا ضيعة من ضياع الرملة^(١). كما أن حمص أيضاً أصبحت نيابة مستقلة في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، وقد أشار إلى ذلك شيخ الربوة الدمشقي (ت ٧٢٧هـ/١٣٢٧م) حيث اعتبر حمص مملكة قائمة بذاتها^(٢). أما الولايات التابعة لنيابة دمشق فعديدة أهمها : الرملة^(٣)، وبيسان، والبقاع، وبيروت^(٤)، وصيدا^(٥)، وقارا^(٦).

ثانياً : التضاريس :

وبناء على التحديد السابق لنيابة دمشق، فإن منطقة دمشق^(٧) (المدينة وقراها)^(٨) تقع ضمن إقليم الهضاب والسهول الداخلية لبلاد الشام، حيث يشمل هذا الإقليم كافة السهول والهضاب التي تقع إلى الشرق من السلاسل الجبلية لبلاد الشام وأهمها : سهول الكرك^(٩) والبلقاء^(١٠) وهوران^(١١) وسفوح جبال الحرمون والجولان^(١٢) والغوطة والبقاع وحمص و حماة^(١٣) و حلب^(١٤) بالإضافة إلى السهول

(١) ابن تغري بردي ، النجوم ٩/ ١٤٣ .

(٢) شيخ الربوة ٢٠٢ .

(٣) الرملة : مدينة عظيمة بفلسطين، وكانت قصبتها قد خرجت الآن، وكانت رباطاً للمسلمين. (ياقوت معجم ٣/٧٩؛ أبو الفداء، تقويم ٢٤٠-٢٤١؛ الحميري ٢٦٨).

(٤) بيروت : مدينة مشهورة على ساحل بحر الشام، تعد من أعمال دمشق بينها وبين صيدا ثلاثة فراسخ. (ياقوت، معجم ١/٦٢٣؛ أبو الفداء، تقويم ٢٤٦-٢٤٧؛ الحميري ١٢٢-١٢٣).

(٥) صيدا : مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال دمشق شرقي صور بينهما ستة فراسخ. (ياقوت ، معجم ٣/٤٩٦؛ أبو الفداء، تقويم ٢٤٨-٢٤٩).

(٦) قارا : اسم قرية على قارعة الطريق وهي المنزل الأول من حمص للقاصد إلى دمشق، وكانت آخر حدود حمص وما عداها من أعمال دمشق وأهلها كلهم نصارى، وما عيون جارية يزرعون عليها. (ياقوت، معجم ٤/٣٣٥-٣٣٥؛ البغدادي ٣/١٠٥٦). وكانت قارا محطة للقوافل والجيوش وأحد مراكز البريد والحمام الزاجل بين بلاد الشام ومصر في عهود السلاطين الأيوبيين والمماليك. (الظاهري ١١٩؛ زكريا ١٣٦-١٣٧)، وصف النابلسي سكانها بأنهم (قوم عندهم الكلام أكثر من الطعام) النابلسي، الحقيقة ٢٩ (٧) العمري، التعريف ٢٥٤-٢٥٧.

(٨) الكرك : قلعة محصنة تحصينا جيدا ، تقع على الحدود السورية جهة منطقة البلقاء، وسط الجبال، وتقع في منتصف المسافة بين القدس وأبله على البحر الأحمر . (ياقوت ، معجم ٤/٥١٤؛ أبو الفداء، تقويم ٢٤٦-٢٤٧؛ الحميري ٤٩٣).

(٩) البلقاء: كورة من أعمال دمشق ، بين الشام ووادي القري و قصبتها عمان وفيها قرى كثيرة و مزارع واسعة. (القرظيني، آثار ١٥٦؛ البغدادي ١/٢١٩).

(١٠) حوران : كورة واسعة من أعمال دمشق في القبله ، ذات قرى كثيرة و مزارع ، قصبتها بصرى ، ومنها أزرعات وزرع وغيرهما. (القرظيني، آثار ١٨٥؛ البغدادي ١/٤٣٥؛ الحميري ٢٠٦).

(١١) الجولان : جبل من نواحي دمشق ثم من عمل حوران (ياقوت، معجم ٢/٢١٩؛ الحميري ١٨٣).

(١٢) حماة : مدينة كبيرة عظيمة كثيرة الخيرات رخيصة الأسعار واسعة الرقعة حفلة الأسواق، يحيط بها سور محكم، وبظاهر السور حاضر كبير جدا، فيه أسواق كثيرة وجامع مفرد مشرف على مرفأ المعروف بالعاصي. (ياقوت، معجم ٢/٣٤٤؛ أبو الفداء، تقويم ٢٦٢-٢٦٣؛ الحميري ١٩٩).

(١٣) حلب : مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات طيبة الهواء صحيحة الأدم والماء بينها وبين دمشق تسعة أيام . (ابن حوقل ١/١٧٧؛ ياقوت، معجم ٢/٣٢٤، ٣٢٨؛ القرظيني، آثار ١٨٣؛ أبو الفداء، تقويم ٢٦٦-٢٦٧؛ الحميري ١٩٦-١٩٧).

المرتفعة في فلسطين أي أن دمشق تقع بين السهول الداخلية وسلسلة الجبال الشرقية، وترتبة هذه المنطقة هي من النوع البازلتي الغنية بالمواد الصالحة للزراعة^(١).

وبالنسبة للسهول الداخلية والجبال الوسطى فإن أهم أقسامها سلسلة الجبال التدمرية التي تمتد بين بلدة الضمير في الغرب والجنوب حتى واحة السخنة^(٢) في الشمال الشرقي، وهي أطول السلاسل الجبلية في الشام، إذ يبلغ طولها ٢٤٠ كم و يتراوح عرضها بين ٥-٦ كم^(٣).

أما فيما يتعلق بسلسلة الجبال الشرقية فالذي يعيننا منها الجبال المحيطة بدمشق، وأهمها: جبل الزاوية الذي يقع في شمال سورية جنوب سهل الغاب الذي يمتد جنوبا ليتصل بجبال القلمون^(٤) «سنير»^(٥) وتجدر الإشارة إلى أن هذه المرتفعات تعد جزءا من جبال لبنان الغربية، والتي تمتد نحو الجنوب الغربي حتى جبال الزبداني التي تشكل امتدادا لها، يلي هذه الجبال جبل الشيخ «الثلج» وفيها أعلى قمة في جبال الشام وهي قمة جبل الشيخ إذ يبلغ ارتفاعها ٢٨١٤ م^(٦)، وتحيط بادية الشام بدمشق من جهة الشرق.

موقع دمشق :

وبناء على التحديد السابق لدمشق و تضاريسها فيمكن تحديد موقعها على النحو التالي:

فلكيا : تقع المدينة على درجة عرض ٣٣ و ٣٣ درجة شمال خط الاستواء، وعلى خط طول ١٧ و ٣٦ درجة شرق خط غرينتش^(٧).

جغرافيا : تقع على حافة بادية الشام من جهة الشرق، خلف الحاجز المزدوج لجبال لبنان الشرقية والغربية^(٨)، في بداية السهول الواسعة الممتدة نحو الشمال الشرقي من بلاد الشام حتى الفرات، وجنوبا

(١) كرد علي، خطط ١٤٠/٤-١٥٦.

(٢) السخنة : بلدة صغيرة في بادية سورية بين تدمر و الفرات، تنمو قرب نبعها شجر النخيل. (ياقوت، معجم ٢٢١/٣)

(البيدادي ١٦/٢)

(٣) مكاحلة ٣٦ .

(٤) ابن حوقل ١٦٦/١ ؛ حسين ٢١.

والقلمون مجموعة من السلاسل الجبلية الواقعة في الشمال الغربي من دمشق. (زكريا ٤٦٦).

(٥) جبل سنير : جبل بين حمص و بعلبك على الطريق ، وعلى رأسه قلعة سنير وهي في شرقي حماة ، وجبل الجليل مقابله من جهة

الساحل. (البيدادي ٧٤٨ / ٢)

(٦) رمضان ١٧ .

(٧) بنسي ، المدينة ٧٦-٧٧ ؛ هارتمان ١٦/٤٩١٨.

(٨) صبحي ، الوطن ٧٦-٧٧ ؛ بنسي ، دمشق ٣٢ ؛ خير ، مدينة ٥٠ ؛ هارتمان ١٦/٤٩١٨.

حتى قلب شبه الجزيرة العربية^(١).

وترتفع عن سطح البحر حوالي ٧٠٠م (٢١٣٠) قدما^(٢)، ويشرف عليها جبل قاسيون من الشرق، ويقدر ارتفاعه حوالي ٣٧٠٧م قدما، ومن الغرب يشرف عليها جبل الشيخ والذي كان يعرف قديما بجبل الثلج، وتحيط بها الغوطتان الشرقية والغربية^(٣)، وتبعد دمشق عن البحر المتوسط حوالي ٤٥ ميلا^(٤).

ثالثا : المناخ و المياه :

أ) المناخ :

من الصفات البارزة لمناخ بلاد الشام هو التغير السريع في الظروف المناخية كلما ابتعدت عن الساحل، ويعود ذلك لوجود المرتفعات الجبلية العالية والموازية لخط الساحل، التي تفرض على المؤثرات البحرية أن تمر عبر ممرات ضيقة فقط لتصل إلى الداخل، لذا تسود الخصائص المناخية القارية في الداخل والخصائص البحرية في منطقة الساحل، إضافة إلى وجود نظام مناخي ثابت في السلاسل الجبلية، يتصف بانخفاض حرارته وغزارة أمطاره، وهذا الاختلاف في الخصائص المناخية بين منطقة وأخرى أدى إلى التعدد في المناخات في مساحة قليلة العرض^(٥). وقد عبر المقدسي عن هذا التبليغ في أنماط المناخ في بلاد الشام قائلا : «الشام إقليم متوسط الهواء إلا وسطه من الشراة^(٦) إلى الحولة فإنه بلد الحر و النيل و الموز و النخيل»^(٧).

يتميز مناخ دمشق بشكل عام بأنه مناخ شبه جاف، وذلك يعود إلى انفتاح المدينة ومنطقتها على الصحراء من الشرق ووجود جبال لبنان الغربية و الشرقية كسد يمنع رطوبة البحر المتوسط من التأثير القوي على مناخها^(٨).

وتشتمل عناصر المناخ على الحرارة ، والرياح، والأمطار.

(١) هارتمان ١٦/٤٩١٩.

(٢) خير ، مدينة ٤٨؛ هارتمان ١٦/٤٩١٨.

(٣) الملعوف ٣٤٣.

(٤) سيانو ٤٩.

(٥) حسين ٢٢؛ مكاحلة ٣٩.

(٦) جبال الشراة : تقع في جنوب البلقاء ، وتقع خلفه الرمال التي استقر فيها الفلاحون. (لسترانج ٨٧).

(٧) المقدسي ١٥٣.

(٨) خير، مدينة ٤٨؛ جنسي، المدينة ١٠.

ب) الحرارة :

نظرا للظروف الطبيعية المحيطة بدمشق _ والتي ذكرناها آنفا _ فان درجة الحرارة الفصلية واليومية فيها تتميز بتفاوتها تفاوتاً كبيراً، وذلك "بسبب انحباس المؤثرات البحرية عنها خلف السلاسل الجبلية المرتفعة ووقوعها على عتبة البادية الشامية الواسعة"^(١). ففي تموز مثلاً يكون متوسط درجة الحرارة في دمشق ٢٨ درجة، في حين تبلغ في كانون الثاني ٦ درجات^(٢)، وقد تنخفض إلى ما دون ذلك كما هو الحال في منطقتي النبك و القلمون حيث تصل درجة الحرارة فيها شتاء في بعض الأحيان إلى ١٦ درجة تحت الصفر، وهذا لا يحدث إلا نادراً^(٣). أما في فصل الصيف فان درجة الحرارة ترتفع بشكل كبير وقد تصل في بعض الأحيان إلى ٤٠ درجة، ويلاحظ بأن الانخفاض الكبير في درجة الحرارة شتاء يؤدي إلى الأضرار بالمحاصيل الزراعية الشتوية على نطاق واسع^(٤). وبشكل عام يبلغ متوسط درجة الحرارة صيفاً ٣٥ درجة ، أما شتاء فإن متوسطها يصل إلى ٧ درجات^(٥).

أما متوسط درجة الحرارة السنوي فيبلغ ١٧ و٥ درجة^(٦).

ويمتد فصل الصيف من شهر نيسان إلى تشرين الثاني ، و تتميز هذه الفترة بالجفاف التام وارتفاع الحرارة ، ومما يزيد من وطأة الحر الرياح الشرقية و الجنوبية الشرقية العاصفة التي يستدعيها الفراغ الهوائي في الصحراء العربية، حيث تتجاوز درجة الحرارة في النهار ٣٥ درجة في الظل^(٧).

ج) الرياح :

تنشأ الرياح من اختلاف الضغط الجوي في المناطق المجاورة لبلاد الشام _ والتي تعد دمشق جزءاً منها _ وهذه المناطق هي : سيبيريا، وأوروبا، وإفريقيا. وتتأثر البلاد برياح مختلفة برودة وجفافاً ورطوبة^(٨).

فالرياح الشتوية أهمها :

الرياح الشمالية والشمالية الشرقية التي تتصف بالبرودة الشديدة والجفاف، وتسبب الصقيع الذي

يتلف المزروعات .

(١) خير، مدينة ٥٠ .

(٢) أبو دعة ٣٥ هارمان ١٦/٤٩١٩ .

(٣) زكريا ١٠٨ .

(٤) أبو دعة ٣٥ .

(٥) منسي ، المدينة ١٠ .

(٦) خير، مدينة ٥٠ .

(٧) سوفاجيه ٦ .

(٨) أدهم ٤٧-٤٨ .

أما الرياح الغربية والجنوبية الغربية فتكون ممطرة ودافئة ويتوقف عليها العمل الزراعي^(١)، حيث تأتي هذه الرياح من البحر المتوسط فتكون محملة بالرطوبة، وتقابل جبال لبنان ومنطقة التلال الوسطى، وترتفع وبارتفاع الهواء يتمدد مما يتسبب في سقوط الأمطار، وهذا هو تعليل كثرة الأمطار التي تسقط على السواحل وغرب جبال سورية، على أن كمية المطر تتناقص كلما اتجهنا شرقاً^(٢). أما في الفصول الانتقالية "فصلي الربيع والخريف": فتهب على بلاد الشام رياح جنوبية شرقية، ورياح شرقية، وفي الغالب تكون هذه الرياح جافة مثيرة للغبار، تؤذي النبات، ويطلق عليها اسم "رياح السموم" وهي المعروفة برياح الخماسين، وتعد فرع من رياح الخماسين التي تهب على مصر^(٣). وبالنسبة لمعدل سرعة الرياح التي تهب على منطقة دمشق فتصل في فصل الشتاء إلى ١٨ و٦ كم في الساعة، بينما تنخفض في فصل الصيف إلى ٧ و٦ كم في الساعة^(٤). وبشكل عام فإن منطقة دمشق وما حولها تقع بين منطقة الرياح التجارية الجافة التي تهب على الجزء الجنوبي من بلاد الشام، ومنطقة الرياح الغربية المحملة بالرطوبة والأمطار والتي تهب على الجزء الشمالي من بلاد الشام مسببة سقوط الأمطار الوفيرة^(٥).

(د) الأمطار :

يرتبط سقوط الأمطار في بلاد الشام بالمنخفضات الجوية والكتل الهوائية، فالرياح الغربية التي تمر بالبحر المتوسط تكون محملة بالرطوبة وتقابل جبال لبنان ومنطقة التلال الوسطى فترتفع بارتفاع الهواء ويتمدد مما يتسبب في سقوط الأمطار، وهذا هو تعليل كثرة الأمطار التي تسقط على ساحل بلاد الشام وجبالها الغربية، على أن كمية الأمطار تتناقص كلما اتجهنا شرقاً، فدمشق الواقعة خلف الحاجز المزوج لجبال لبنان الشرقية والغربية لا يصيبها إلا القليل من الأمطار، لذلك فإن أمطار دمشق غير منتظمة^(٦).

وهذا لا يعني أن الكتل الهوائية القادمة من الغرب هي وحدها التي تجلب المطر، بل لابد من توافر شروط أخرى، منها أن يوافق وصول هذه الرياح والكتل الهوائية المحملة ببخار الماء حلول الفصل البارد، بسبب هطول المطر في الشتاء الذي يشكل الفترة الأساسية في هطول الأمطار وتساقط الثلوج في المناطق الجبلية العالية^(٧).

(١) زكريا ١٠٨-١٠٩؛ هارتمان ١٦/٤٩١٩ .

(٢) رمضان ١٨ .

(٣) أدهم ٤٧-٦٦؛ رمضان ١٨ .

(٤) هنسي، المدينة ١٠ .

(٥) ابن قتيبة ١٥٨، ١٦٢؛ مكاحلة ٤٤ .

(٦) صبحي، الوطن ٧٦-٧٧؛ رمضان ١٨؛ هنسي، دمشق ٣٢ .

(٧) حسين ٢٤ .

كما يلعب الموقع الجغرافي دورا أساسيا في كمية الأمطار الهاطلة على بلاد الشام، وهناك عدة عوامل طبيعية جغرافية، تؤثر على كمية الأمطار الهاطلة في المناطق المختلفة من بلاد الشام. ومن ضمنها منطقة دمشق. وهذه العوامل هي:

أ- البعد و القرب من البحر .

ب- الارتفاع و الانخفاض عن سطح البحر .

ج- القرب أو البعد عن خط الاستواء .

وبالنسبة لدمشق فان بعدها نسبيا عن البحر المتوسط (١٠٠ كم) ووقوف جبال لبنان حائلا دون تأثيرات البحر أدى إلى انخفاض كميات الأمطار الهاطلة على المنطقة^(١)، إذ تتراوح بين ٢٢٠-٢٥٠ ملم سنويا^(٢).

وقد تصل في بعض الأحيان إلى ٣٠٠ ملم، ولا تزيد أيام المطر الغزير والبرد القارس عن ثلاثة أشهر تقريبا^(٣).

أما المنخفضات الجوية التي تؤثر على بلاد الشام والقادمة من البحر المتوسط، فتبدأ في تشرين الثاني وتبلغ عنفوانها في كانون الأول وكانون الثاني و شباط، ويبلغ متوسط عدد المنخفضات الجوية المؤثرة على دمشق في السنة حوالي ٢٦ منخفضا جويا، فإذا انخفض عدد هذه المنخفضات المارة فوق الأراضي الشامية عموما ودمشق خصوصا، أو تأخر مرورها فان ذلك يؤثر تأثيرا خطيرا على الزراعة في هذه المنطقة^(٤).

ويلاحظ بشكل عام أن الأمطار في منطقة دمشق تقل كلما اتجهنا من الغرب إلى الشرق، حيث تحجب جبال اللكام وجبال لبنان الغربية الرياح الرطبة القادمة من الغرب عن المناطق الشرقية مما يجعل نصيبها من الأمطار قليلا، ففي منطقة النبك مثلا يصل معدل الأمطار السنوي إلى ٢٠٠ ملم^(٥)، وقد هبط إلى كمية من المطر تصل إلى ٩٠ أو ١٠٠ ملم^(٦).

وقد حدد كتاب فترة البحث "العصر المملوكي" تاريخ بداية سقوط الأمطار في بلاد الشام

(١) أبو دعة ٣٧، سوفاجية ٦ ..

(٢) أبو دعة ٣٧ .

(٣) سوفاجية ٦ .

ذكر محمد كرد علي أنه قاس أمطار دمشق بنفسه خلال عشر سنوات فوجد أنها لا تبلغ ٢٥٠ ملم و إنما كانت دون ٢٠٠ ملم خلال ثلاث سنين . (كرد علي، خطط ٤/١٦٨-١٦٩).

وبلغت كمية الأمطار الهاطلة على دمشق و المسجلة بين عامي ١٩١٨-١٩٦٤م ٢١٥ ملم فقط . (هنسي ، المدينة ١٠)

(٤) خير، غوطة ٢٧٨ .

(٥) كلدور ١/٣٦٤؛ حسين ٢٦ .

(٦) زكريا ١٠٨ .

ما بين كانون الأول والثاني وشباط^(١).

ومع نهاية آذار و بداية نيسان تأخذ الأمطار بالتناقص بشكل ملحوظ إلى أن تنقطع في أواخر نيسان^(٢). وأفضل الأمطار ما سقطت في فترات متباعدة نسبيا خلال الموسم على أن تكون كل مرة كافية لري الأراضي الزراعية حتى المرة التي تليها^(٣). أما سقوط الأمطار دفعة واحدة فإنه يقلل من أهميتها حتى ولو كان هذا المطر غزيرا جدا، فيجب أن تسقط الأمطار مبكرة أي في تشرين الأول ويستمر سقوطها على فترات حتى أواخر آذار^(٤).

وهكذا نجد الأمطار تحتل المكانة الأولى بين عناصر المناخ، وأن الشح تظهر لنا مدى أهمية هذه الأمطار، في حياة منطقة دمشق من الناحية الاقتصادية، إذ يشترك في دعاء الاستسقاء جميع السكان دون تمييز في الدين أو المذهب، كما أن انحباس الأمطار يشيع القلق بين السكان بمختلف طبقاتهم^(٥).

ويمكننا من خلال العرض السابق لمناخ دمشق التعرف على مميزاته :

أ_ إن الأمطار في منطقة دمشق خاصة وبلاد الشام عامة تخضع لنظام البحر المتوسط_ أي أن الأمطار تتفق مع فصل الشتاء_ وقت مرور الأعاصير الجوية التي تجلب الأمطار، بينما يتميز فصل الصيف بجفافه التام^(٦).

ب_ مناخ منطقة دمشق وما حولها هو مناخ "قاري متطرف" فالفروق الحرارية السنوية "الفصلية" بين الصيف والشتاء واليومية بين الليل والنهار قد تصل إلى ٢٠ درجة مئوية.

ج_ كما أنه مناخ شبه جاف يؤثر عليه هبوب الرياح العاصفة والسريعة التي تنقل الغبار من المناطق الصحراوية "البادية" إلى دمشق وما حولها^(٧).

د_ وأخيرا فإن المناخ في دمشق يتصف بدورين متميزين :

١_ دور شتاء قصير جدا لا يتجاوز ثلاثة أشهر يمتاز بقلة الأمطار.

٢_ دور الصيف المتميز بطول فترته حيث تختلف فيه درجات الحرارة كثيرا بين الليل والنهار فهو مناخ الصحراء يلطفه بعض الشيء إرتفاع الموقع وقربه النسبي من البحر المتوسط^(٨).

(١) ابن وحشية ١٨٨/١ الغزي، جامع ٢١٢، مكاحلة ٤٢ .

(٢) الطاهر ١٣١ .

(٣) كرد علي، غوطة ١٧ .

(٤) خير، غوطة ٨٣ .

(٥) المرجع نفسه ، ٧٢ .

(٦) خير، مدينة ٥٠ .

(٧) هنسي ، المدينة ١١ .

(٨) سوفاجيه ٦ .

هـ) المياه والأثمار :

وصفت مدينة دمشق و غوطتها بغزارة المياه فيها^(١)، لدرجة أن شيخ الربوة قال عنها : «حتى لو حفر الإنسان أين ما حفر من أرضها وجد مجاري الماء تحته مشبكة طبقات يمنية ويسرة شيئاً فوق شيء^(٢)». و ذكر البدرى أن عدد العيون الجارية في دمشق و غوطتها يبلغ ٣٦٠ عينياً، وأنه رأى معظمها وشرب منها^(٣).

وكان الماء يوزع في المدينة بشكل دقيق، وقد تكلم شيخ الربوة عن ذلك بعد أن تحدث عن أثمار دمشق فقال : «... ثم ينقسم من هذه الأثمار فرق وجداول، وتفرق متشعبة بأراضي الغوطة حتى لا يبقى منها بقعة يمكن وصول الماء إليها إلا ويصل، ويركبها سقيا لها بحساب وتسقيط معلوم في الليل والنهار بساعات معلومة لا تزيد ولا تنقص...»^(٤).

ولكثرة المياه والعيون في دمشق والغوطة ازدهرت المنطقة بالمتنزهات^(٥).

الأثمار :

يذكر مؤرخو فترة الدراسة أن دمشق تروي أرضها وبساتينها من نهر يسمى بردى، و أن أصل مخرجه من عينين : البعيدة منها دون قرية تسمى الزبداني، ودونها عين بقرية تسمى الفيحة^(٦)، ثم ينقسم نهر بردى إلى سبعة أنهر^(٧). وقد وصف ابن شاهين الظاهري هذه الأثمار بقوله: «و بدمشق المحروسة سبعة أنهر إذا جمعت صارت مثل النيل»^(٨).

نهر بردى :

سُمي بذلك لبرد مائه^(٩)، وكان يسمى أيضا نهر أبانا^(١٠)، وقد نال هذا النهر اهتماما أكبر من سواه

(١) ابن السبهي ٤٩٩ ؛ ابن إيس ، نشق ١٢١ ؛ ابن الوردى ، خريدة ٤٩٩ ؛ الإدريسي ٣٦٧/١ .

(٢) شيخ الربوة ١٩٣ .

(٣) البدرى ٩٢ .

(٤) شيخ الربوة ١٩٨ .

(٥) البدرى ٧٥-١٨٥، ٩٣-١٩٠، ٢١٢-٢٢٠، ٢٥٤-٢٧٥، ٣١٠، ٣١٨، ٣٢٢-٣٢٣، ٣٤٥-٣٤٧، ٣٦٨-٣٧٢ .

(٦) شيخ الربوة ١٩٤ ؛ العمري ، مسالك، دولة ١٨٣ ؛ القلقشندي ، صبح ٩٨ / ٤ .

(٧) الخالدي ٨٧ ؛ القلقشندي ، صبح ٩٨ / ٤ .

(٨) الظاهري ٤٥ .

(٩) المنجد ، أثمار ٤ .

(١٠) العطار الدمشقي ١١٥ .

نظرا لأثره في حياة المنطقة التي تقع على ضفتيه والتي سميت بالغوطة^(١).

ينبع نهر بردى من موقع سهل الزبداني^(٢) على بعد ٤٥ كم من دمشق وارتفاع حوالي ١١٠٠ متر عن سطح البحر^(٣)، ويخرج بردى من جبال لبنان الشرقية، ثم يسير في واد ضيق حتى يبلغ قرية الفيحة، وعند منبع عين الفيحة يكثر ماؤه وتشتد غزارته^(٤)، فإذا صار قريبا من دمشق انقسمت مياهه إلى أثمار^(٥)، عددها سبعة^(٦): ففي الشمال يفصل عنه يزيد وثورا، ومن الجنوب يفصل القنوات، وبانياس، والمزة، والديراني، ويكون بردى سابع هذه الأثمار.

ثم يدخل بردى دمشق نفسها ويتابع سيره حتى يخرج منها، فيجتاز الغوطة، وما تزال ينساب على جنباته فتدفة بالمياه، حتى يمر بالغوطة كلها فيسقيها وتكون مدينة له بخصبها وجودة تربتها^(٧)، ثم يصب في بحيرة المرج التي تقع إلى الشرق من دمشق^(٨).

ويبلغ طول نهر بردى من منبعه في سهل الزبداني إلى مصبه في بحيرة المرج ٦٠ كم^(٩).

ويقدر متوسط تصريف نهر بردى من المياه بـ ١٢,٥ م^٣ في الثانية، لكن هذا التصريف يختلف بين فصل الشتاء والصيف، ففي الشتاء تصل قوة تصريف الماء إلى ٦٥ م^٣ في الثانية، بينما تنخفض إلى ٥ م^٣ في الثانية صيفا، ويعد نهر بردى الشريان الرئيسي المغذي لمدينة دمشق وريفها بالمياه^(١٠).

نهر يزيد :

عرف هذا النهر منذ عهد الرومان، إلا أنه كان صغيرا، ثم قام يزيد بن معاوية في خلافته بشق النهر و توسيعه فسمي باسمه^(١١).

ويجري هذا النهر في ذيل صالحة دمشق^(١٢)، ويفصل نهر يزيد عن بردى بالقرب من قرية الهامة على بعد ١٢ كم من دمشق فيمر شمال الدواسة القلعة وجنوب أراضي دير مران، ويسقي قسما كبيرا

(١) ابن حوقل ١٧٤/١ حسين ٢٩-٣٠.

(٢) العمري، مسالك، دولة ١٨٣.

(٣) هنسي، دمشق ٣٥.

(٤) ابن حوقل ١٧٤/١ خير، مدينة ٨١، ٨٣.

(٥) شيخ الربوة ١٩٤؛ البغدادي ١٤٢/١؛ الخالدي ٨٧؛ ابن عبد الهادي، غدق ٢٥-٣٢.

(٦) المنجد، أثمار ٤٢؛ ابن عبد الهادي، غدق ٢٥-٣٢.

(٧) ياقوت، معجم ٤٥٠/١؛ البغدادي ١٦٩/١.

(٨) العطار الدمشقي ٨-٩.

(٩) المصدر نفسه ٩.

(١٠) المصدر نفسه ٩.

(١١) ابن حوقل ١٧٤/١؛ ياقوت، معجم ٤٥٠/١، ٤٩٩/٥؛ شيخ الربوة ١٩٤؛ ابن طولون، القلائد ١/٢٦٢؛ العطار الدمشقي

٩-١٠؛ المنجد، أثمار ٤٢.

(١٢) العمري، مسالك، دولة ١٨٥-١٨٦.

من أراضي الصالحية مارا بسفح قاسيون، وكل مياه الصالحية منه^(١). ويجتاز هذا أراضي الميطور وبرزة ويسقيهما، وينتهي في أراضي حرستا^(٢)، من القرى الأخرى التي تشرب من نهر يزيد : دمر والربوة والقابون، حيث يزود هذا النهر جميع المناطق المذكورة بمياه الشرب و المياه اللازمة للزراعة^(٣)، ويبلغ طوله من مكان تفرعه إلى متناه ١٦ كم^(٤).

نهر ثورا :

وثورا اسم آرامي^(٥)، وهذا النهر أقدم عهدا من نهر يزيد، إذ يعود إلى عهد الآراميين^(٦)، وقيل أن النهر سمي بذلك نسبة إلى أحد الأمراء الذين عاشوا في دمشق قبل الإسلام وكان يدعى "نورا"^(٧)، وقد وصف ابن فضل الله العمري هذا النهر بأنه "نيل دمشق، عليه أجل مبانهم، وبه متنزهاتهم وإليه أكثر سيارتهم وتوجهاتهم يخاله من يراه زمردة خضراء لتراكم الأفياء عليه، والتفاف الدوح من جانبيه"^(٨).

ومن القرى التي كان يسقيها هذا النهر : قرية أرزة، وبرزة، وقرية أرزونا^(٩)، وقسما من أراضي جوبر^(١٠).

ومن نهر ثورا يتفرع فرع يسمى مقسم الثلث ويسقي أراضي قرية حزة و زملكا وعرييل وبعض أراضي عين ثرما^(١١)، ثم يتابع النهر سيره فيسقي أراضي قرى مديرا ومسرابا ودومة وينتهي في قرية عذراء حيث تشرب منه هي الأخرى^(١٢).

وقد ذكر ابن طولون في "القلائد الجوهريّة" أن مياه نهر ثورا كانت توزع على القرى المحيطة به من خلال العدادين "المقاسم" التي كانت تنظم توزيع المياه على هذه القرى بشكل عادل^(١٣).

وإضافة إلى استخدام مياه النهر في مجال الشرب فإنها تسقي حوضا زراعيا يقدر طوله بحوالي ١٦ - ١٨ كم، و عرض وسطي قدره ٣ كم، و تقدر مساحة هذه المنطقة بحوالي ٦٠٠ هكتار من

(١) ابن كان ، المروج ٢٩ .

(٢) المنجد ، أثمار ٤٣ .

(٣) العطار الدمشقي ١٠٤ .

(٤) المصدر نفسه ١٠٣ .

(٥) سوفاجيه ١١ .

(٦) العطار الدمشقي ١٠ .

(٧) ابن طولون ، القلائد ١/٢٦٤ ؛ المنجد ، أثمار ٤٣ ؛ كرد علي ، عمران ٩٨٢ .

(٨) العمري ، مسالك، دولة ١٨٥ .

(٩) ابن طولون ، ضرب ١٥٤ .

(١٠) العطار الدمشقي ١٠٦ ؛ زكريا ٢٤٣ .

(١١) العطار الدمشقي ١٠٧ ؛ المنجد ، أثمار ٤٤ - ٤٥ .

(١٢) العطار الدمشقي ١٠٧ ، المنجد ، أثمار ٤٥ .

(١٣) ابن طولون ، القلائد ١/٢٦٤ .

الأراضي الزراعية^(١).

نهر الداراني :

يعرف هذا النهر بنهر داريا^(٢)، نسبة إلى قرية داريا التي يمر منها ويسقيها ويسمى اليوم «الديراني»^(٣)، ويعد نهر داريا أرفع أنهار دمشق مجرى وأبعدها مقسماً^(٤)، إذ يتفرع عن بردى بالقرب من موقع الشذوران^(٥)، ويسقي هذا النهر أراضي المزة^(٦)، كما يروي أراضي كفر سوسه والأراضي التي حولها، مثل : طاحونة التوته^(٧)، و النصف الشمالي من أراضي داريا، مثل^(٨) : بساتين الخليج، وبساتين باب سريجة^(٩).

نهر القنوات :

ينفصل عن نهر بردى من الجهة اليمنى عند متز الشاذوران^(١٠). ويمثل نهر القنوات أهم الفروع التي تزود مدينة دمشق بالمياه^(١١)، إذ أن تخطيطه يسمح له بإيصال الماء إلى أكثر أقسام المدينة القديمة ارتفاعاً، فمياهه تصل إلى أعلى التل الواقعة إلى الجنوب من المجرى بحوالي ٥٠٠ متر^(١٢)، وهذا يبين لنا مدى أهمية مياه القنوات بالنسبة لدمشق، فقد تحدث شيخ الربوة الدمشقي عن نهرى بانياس والقنوات مبيناً أهميتهما وفضلهما على دمشق قائلاً :

«... وكلاهما يجريان إلى داخل المدينة، و يتفرقان في المصارف، والبرك، والقني، والحمامات، والطهارات»^(١٣)، أما العمري والقلقشندي فوصفا هذين النهرين بقولهما : « فأما القنوات وبانياس فهما نهران المدينة حاكمان عليها و مسلمان على ديارها»^(١٤).

ويخترق نهر القنوات أسوار المدينة القديمة، ويتوزع في أحيائها الجنوبية^(١٥)، وعند الثكنة الحميدية

(١) سوفاجيه ١١ ؛ العطار الدمشقي ١٠٧ .

(٢) العمري ، مسالك، دولة ١٨٥ .

(٣) خير، مدينة ٩٥ ؛ المنجد ، أنهار ٤٦ .

(٤) شيخ الربوة ١٩٨ ؛ كرد علي ، عمران ٩٨٣ .

(٥) العطار الدمشقي ١٢ .

(٦) المنجد ، أنهار ٤٦ .

(٧) خير، مدينة ٩٦ ؛ العطار الدمشقي ١٢ .

(٨) العطار الدمشقي ١٢ ؛ كرد علي ، غوطة ١١٦ ؛ خير، مدينة ٩٦ ؛ المنجد ، أنهار ٤٦ .

(٩) خير، مدينة ٩٦ .

(١٠) العطار الدمشقي ١٢ ؛ المنجد ، أنهار ٤٧ .

(١١) خير، مدينة ٩٩ ؛ العطار الدمشقي ١٢ .

(١٢) العطار الدمشقي ١٢ .

(١٣) شيخ الربوة ١٩٤ .

(١٤) العمري ، مسالك، دولة ١٨٥ ؛ القلقشندي ، صبح ٩٩/ ٤ .

(١٥) الرجاوي ، مدينة ١٦٢ .

«مقر جامعة دمشق» ينقسم نهر القنوات إلى فرعين :

الفرع الأول : يجري جنوباً فينقسم إلى خمسة أقسام :

- ١- قسم بستان حجر الأحمر ويسقي أراضي كفر سوسية.
- ٢- قسم القدم ويسقي أراضي قينية والخلخال.
- ٣- قسم الشعاب ويسقي باب السريجه وباب المصلى والميدان.
- ٤- قسم عاتكة ويسقي حي قبر عاتكة^(١).
- ٥- قسم المعلقات^(٢).

الفرع الثاني : يجري شرقاً فيدخل المدينة ، و يجتاز حياً سمي باسم النهر «حسي القنوات»^(٣)،

ويتفرع عنه طواع كثيرة توزع المياه على الحارات و الدور والحمامات والطواحين والجوامع كحسي قبر عاتكة، وباب السريجه، والخراب، ومأذنة الشحم، و حارة اليهود، وزقاق المارستان، وحسارة الشابكلي في القنوات، وحمام التوروزي، وحمام الخياطين، وحمام المسك، وحمام ست عذراء، وحمام السنانية، وحمام البزورية، وحمام القيشاني، وحمام ملكة، وطاحون السجن، والقلعة، والجامع الأموي، وغير ذلك^(٤)، كما يمر نهر القنوات بمحلة المنبيع، فيسقيها^(٥).

نهر المزة :

وقد سمي بذلك نسبة إلى قرية المزة^(٦)، و كان اسم هذا النهر «المنزه» لما به من صحة الهواء، وصفاء الماء ، وحسن القصور ، وطيبة الثمار ، وكثرة الزهور و الورود^(٧). أما الإدريسي فقد أطلق عليه اسم «نهر قناة المزة» و عده من أنهار دمشق السبعة^(٨).

وتنفصل قناة المزة عن نهر بردى من الجهة اليمنى قرب قرية دمر^(٩)، على بعد ٣٥٠ م من القرية^(١٠)، ويسقي هذا النهر قسماً من أراضي المزة وما يحيط بها^(١١)، كما يروي أراضي كفر سوسية^(١٢).

(١) العطار الدمشقي ١٢-١٣ ؛ المنجد ، أنهار ٤٧ .

(٢) خير، مدينة ٩٩ .

(٣) المرجع نفسه ٩٩ .

(٤) المنجد ، أنهار ٤٧ .

(٥) البدرى ٧٧ .

(٦) شيخ الربوة ١٩٤ ؛ كرد علي ، غوطة ١١٤ .

(٧) شيخ الربوة ١٩٤-١٩٥ .

(٨) الإدريسي ٣٦٧/١ .

(٩) العطار الدمشقي ١١ ؛ خير، مدينة ٩٧-٩٨ ؛ المنجد ، أنهار ٤٨ .

(١٠) خير، مدينة ٩٨ .

(١١) المنجد ، أنهار ٤٨ .

(١٢) العطار الدمشقي ١٢ .

وتسير مياه نهر المزة في قناة مكشوفة، وأهم مقاسمه :

مقسم المرجانه ، ومقسم الشيخ قاسم ، ومقسم الجندي ، ومقسم الرحبي^(١).

نهر بانياس :

ويسميه شيخ الربوة بلنياس ، ويذهب إلى أن بلنياس الحكيم اليوناني فتحه فسمي باسمه^(٢)، أما سوفاجيه فيرى بأن أصل تسميته "باناس"، و يروى بأن قناة باناس أقدم قني دمشق^(٣).

وهذا النهر يتفرع من نهر بردى من الجهة اليمنى عند مخرج بردى من خانق الربوة^(٤)، ثم يدخل إلى وسط مدينة دمشق^(٥)، فيمر بقلعتها^(٦)، ثم ينقسم إلى قسمين قسم للجامع وقسم للقلعة^(٧)، ثم ينقسم كل قسم منها على تقاسيم تفرق على أصابع المدينة بأصابع مقسومة بحقوق معلومة^(٨)، وأهم الأحياء التي يزودها بانياس بالمياه داخل المدينة : الباب الصغير ، الميدان ، بناتين الشاغور، الباب الشرقي ، ثم ينطلق خارج المدينة حاملاً معه قدرًا كبيراً من أوساخها وأقذارها و يسمى هناك "النهر الأبيض"، أما العامة فيسموه "قليط"^(٩)، و من الأحياء الأخرى التي يسقيها نهر بانياس محلة المنيع^(١٠). ويلاحظ بان النصف الشمالي من مدينة دمشق يسقى معظمه من هذا النهر^(١١).

ومن الأنهار الصغيرة الأخرى التي تتفرع عن نهر بردى :

نهر المجدول :

ويسمى اليوم نهر العقرباني نسبة إلى قرية عقربا^(١٢)، ويسقي أراضي جرمانا وعقربا وبيت

سح^(١٣).

(١) العطار الدمشقي ١٢؛ خير ، مدينة ٩٨ .

(٢) شيخ الربوة ١٩٤؛ كرد علي ، عمران ٩٨٣ .

(٣) سوفاجيه ١١ .

(٤) العطار الدمشقي ١٣؛ خير ، مدينة ١٠٠ .

(٥) ياقوت، معجم ٤٥٠ / ١ .

(٦) العمري ، مسالك، دولة ١٨٥؛ القلقشندي ، صبح ٩٩/٤؛ البدرى ٦١؛ الريحاوي ، مدينة ١٦٢ .

(٧) العمري ، مسالك، دولة ١٨٥؛ القلقشندي ، صبح ٩٩/٤؛ الريحاوي ، مدينة ١٦٢؛ المنجد ، أثمار ٤٩ .

(٨) العمري ، مسالك، دولة ١٨٥؛ القلقشندي ، صبح ٩٩ / ٤ .

(٩) البدرى ٦١؛ العطار الدمشقي ١٤ .

(١٠) البدرى ٧٧ .

(١١) المنجد ، أثمار ٤٩ .

(١٢) خير ، مدينة ١٠٣؛ العطار الدمشقي ١٥ .

(١٣) المنجد ، أثمار ٥٠ .

نهر داعية :

ويسمى أيضا الداعياني، نسبة إلى قرية تدعى داعية، وقد اندثرت الآن^(١)، ويسقى أراضي جوبر^(٢).

ويتفرع من الداعياني ثلاثة فروع أخرى هي :

الفروع الأول : يفصل عن داعية و يسقى أراضي عين ثرما وكفر بطنا .

الفروع الثاني : يفصل عن داعية بالقرب من عين ثرما ويسقى أراضي سقبا وحمورية وأفتريس وبيت سوا .

الفروع الثالث : يفصل عن نهر داعية بالقرب من عين ثرما أيضا و يسقى أراضي كفر بطنا وجسرين والمحمدية^(٣).

نهر المليحي :

ينسب إلى قرية المليحة أو المنيحة^(٤)، و يفصل هذا النهر عن بردى خارج باب توما قرب طاحونة الأحد عشرية^(٥)، و يسقى أراضي المنيحة وبلاط ودير مجدل و خيارة^(٦).

وهناك بحيرة المرج^(٧) : وتسمى أيضا بحيرة دمشق، أو بحيرة العتبية^(٨).

وتقع هذه البحيرة إلى الشرق من دمشق، ويصب فيها ما يفضل من أنهار دمشق المختلفة^(٩)، وينبت في أراضي البحيرة نبات القصب بكثرة^(١٠)، وتتسع مياه البحيرة في فصل الشتاء، وتضييق في فصل الصيف^(١١)، وكان أهالي دمشق يتفجعون من هذه البحيرة في مجال صيد السمك حيث عبر البدرى عن ذلك قائلا: «...ومنها صيدها من السمك والماء من الطيور والأسماك صيفا وشتاء»^(١٢).

(٢) العطار الدمشقي ١٥؛ المنجد، أنهار، ٥٠ .

(٢) المنجد، أنهار، ٥٠ .

(٣) العطار الدمشقي ١٠٨؛ المنجد، أنهار، ٥٠ .

(٤) ياقوت، معجم ٢٥١/٥؛ ابن طوون، ضرب ١٦٠ .

(٥) خير، مدينة ١٠٤ .

(٦) المنجد، أنهار، ٥٠ .

(٧) ياقوت، معجم ٤٥٠/١؛ البغدادي ١٦٩/١ .

(٨) العطار الدمشقي ٨؛ مهني، المدينة ١٨ .

(٩) ياقوت، معجم ٤٥٠/١؛ شيخ الربوة ١٩٨؛ البغدادي ١٦٩/١؛ القلقشندي، صبح ٨٧/٤؛ البدرى ٢٥٥ .

(١٠) شيخ الربوة ١٩٨ .

(١١) القلقشندي، صبح ٨٧/٤ .

(١٢) البدرى ٢٥٥ .

الينابيع والعيون والآبار :

تنتشر الينابيع و العيون في مناطق دمشق المختلفة ، فقلما تخلو قرية من قرى غوطة دمشق من عين ماء أو نبع ، فيذكر البدرى أن بنولحي دمشق ٣٦٠ عينا رآها و شرب من أغلبها^(١)، ومن أشهر هذه العيون :

عين الكرش : حتى انه يقال لها نهر عين الكرش لغزارة مياهها .

عين غيطة الخواججا بن المزلق . و غيرها من العيون^(٢).

أما بالنسبة للآبار فأشهرها : بئر بختي الواقع تحت كهف جربيل بجبل قاسيون فوق نهر يزيد^(٣)، وبئر الشيخ مقابل المدرسة العمرية بالصالحية من الجهة الغربية ، وينسب إلى الشيخ أحمد والد الشيخ أبي عمر صاحب الصالحية^(٤)، و بئر مدرسة الشيخ عمر العتيقة ، وبئر المدرسة الجديدة ، والذي هو من روافد نهر يزيد^(٥)، وهي من الآبار الموجودة في الصالحية والتي ذكرها ابن طولون في تعليقه القلائد الجوهريّة ، والتي بلغ تعدادها حوالي سبعة و ثلاثين بئرا فقط في الصالحية، أما دمشق المدينة فالماء ينفذ إليها من جميع النواحي^(٦).

(١) البدرى ٩٢ ، العطار الدمشقي ٧٣ .

(٢) ابن طولون ، القلائد ٢٦٥/١ .

(٣) المصدر نفسه ٢٦٥/١ .

(٤) المصدر نفسه ٢٦٥/١ .

(٥) المصدر نفسه ٢٦٦/١ .

(٦) المصدر نفسه ٢٦٦-٢٦٧/١ .

التعريف بنيابة دمشق في العصر المملوكي :

تمكنت دولة المماليك الناشئة من بسط سيطرتها على بلاد الشام بعد انهيار المقاومة الأيوبية، وتصديها للتتار^(١) وتدمير قواهم في معركة عين جالوت^(٢)، سنة ٦٥٨هـ / ١٢٥٩-١٢٦٠م^(٣). وارتسمت بذلك مرحلة تاريخية جديدة قسمت فيها بلاد الشام إلى ست نيابات وهي على حسب ترتيب ظهورها: نيابة دمشق، نيابة حلب، نيابة الكرك، نيابة صفد، نيابة طرابلس، نيابة حماة، وكان غلى رأس كل نيابة أمير كبير من أمراء المماليك يتمتع بلقب نائب السلطان^(٤).

وفي القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر للميلاد أصبح عدد نيابات الشام ثمانية، سماها شيخ الربوة ممالك، وهي: «مملكة دمشق، مملكة حلب، مملكة الكرك، مملكة صفد^(٥)، مملكة طرابلس^(٦)، مملكة حماة، مملكة غزة^(٧)، مملكة حمص^(٨)». وذلك لأن غزة أصبحت نيابة مستقلة عام ٧١١هـ / ١٣١١م^(٩)، كما أن حمص أصبحت في القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر للميلاد نيابة مستقلة أيضا، وأطلق عليها شيخ الربوة «مملكة»^(١٠).

(١) التتار: اسم أطلق على شعب خليط من عدة قبائل مغولية و تركية، يرجح أنهم جاؤوا من شرق ووسط آسيا و سيبيريا و بعض المناطق المجاورة لشمال الصين، وهم على درجة كبيرة من التخلف و الوحشية، من هنا أطلق عليهم أهل الصين هذا الاسم ليدلوا من خلاله على بدائيتهم، و حينما زحف المغول على أوروبا و غرب آسيا في القرون الوسطى، اتسع مدلول اسم التتار ليشمل المغوليين أنفسهم فيما بعد، و بالتالي أصبح لفظ مغول نفسه معبرا عن اللفظ: تتار، و في القرن السابع للهجرة / الثالث عشر للميلاد هاجم التتار بلاد العالم الإسلامي فغزوا سمرقند و بخارى و الري و همدان ثم العراق و من بعدها بلاد الشام.

(ابن الأثير ١٢/٣٥٩؛ ابن خلدون، العمر ٥/٣٧٩؛ البستاني ٦٨؛ الخطيب ١٠١).

(٢) عين جالوت: بليدة لطيفة بين بيسان و نابلس من أعمال فلسطين. (ياقوت، معجم ٤/٢٠٠)، و تقع على مسيرة نحو ١٠ كم إلى الشمال الغربي من بيسان. (الدباغ ٣/٢٠٤).

ومعركة عين جالوت: معركة فاصلة حدثت بين التتار بقيادة كيتبا و المماليك بقيادة قطز و بيبرس في موقع عين جالوت بفلسطين عام ٦٥٨هـ / ١٢٥٩-١٢٦٠م أسفرت عن انتصار المماليك و تحرير بلاد الشام من الغزو المغولي. (اليونيني ١/٣٦٠؛ المنصوري، التحفة ٤٣-٤٤؛ أبو الفداء، المختصر ٢/٣١٥-٣١٥؛ ابن الوردي، تمة ٢/٢٩٧؛ ابن كثير ١٣/١٨٢-١٨٥).

(٣) أبو شامة، الدليل ٤/٢٠٤؛ المنصوري، زبدة ١/٤١-٤٥، ١٣١-١٣٥.

(٤) الخالدي ٥؛ القلقشندي، صبح ٤/٩٤٤؛ ابن تغري بردي، النجوم ٧/٩٣؛ غوائمه، تاريخ نيابة ١٣؛ عاشور، العصر ٦/٢٠٦.

(٥) صفد: مدينة في جبال عاملطة المظلة على حمص بالشام، وهي من جبال لبنان. (ياقوت، معجم ٣/٤٦٨؛ أبو الفداء، تقويم ٢٤٢-٢٤٣).

(٦) طرابلس: مدينة على ساحل بحر الروم (المتوسط)، بها الرباطات التي يأوي إليها الصالحون، وها البساتين الجليلة. (ياقوت، معجم ٤/٢٨؛ أبو الفداء، تقويم ٢٥٢-٢٥٣؛ الحميري ٣٩٠).

(٧) غزة: مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر بينها وبين عسقلان فرسخان و أقل، وهي من نواحي فلسطين غربي عسقلان. (ياقوت، معجم ٤/٢٢٩؛ القزويني، آثار ٧/٢٢٧؛ أبو الفداء، تقويم ٢٣٨-٢٣٩؛ الحميري ٤٢٨).

(٨) شيخ الربوة ٩٣، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٠، ٢١٣.

(٩) ابن تغري بردي، النجوم ٩/١٤٣.

(١٠) شيخ الربوة ٢٠٢.

أما نجم الدين الطرسوسي (ت ٧٥٨هـ/١٣٥٦م)، فقد ذكر في كتابه "تحفة الترك" نيابات الشام في عهده، وأوردها في كتابه حسب الأهمية فقال: "... ونيابة السلطنة على مراتب بحسب البلدان: فأكبر نيابات السلطان دمشق وبعدها نيابة حلب، وبعدها نيابة طرابلس وبعدها حماة، وبعدها صنفد، وبعدها غزة، وبعدها حمص، وبعدها بعلبك"، ويلاحظ بأنه ذكر نيابة دمشق في أول النيابات، وهذا يبين أهمية نيابة دمشق على سائر نيابات الشام^(١).

اعتبرت نيابة دمشق في العصر المملوكي - خصوصا في عهد الأمير تنكز (٧١٢-٧٤٠هـ/١٣١٢-١٣٤٠م) - أهم نيابات الشام، إذ أن السلطان محمد بن قلاوون ربط جميع نواب الشام بنائب دمشق و ذلك في سنة ٧١٤هـ/١٣١٤م بحيث أصبحت أمور الولاية والعزل بهذه النيابات لنائب دمشق^(٢)، ويذكر ابن إياس (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٤م) في كتابه "بدائع الزهور" أن نيابة حلب كانت أهم وأكبر من نيابة دمشق، وحينما ولي تنكز النيابة في دمشق جعلها السلطان أهم وأكبر من حلب، إذ يقول بهذا الصدد: "فلما ولي تنكز نيابة الشام، جعل السلطان نيابة دمشق أكبر من نيابة حلب، وكان من قدم الزمان نيابة حلب أكبر من نيابة الشام"^(٣). ولهذا أطلق المؤرخون على نيابة دمشق مصطلح "مملكة الشام" تمييزا لها عن باقي النيابات الشامية^(٤).

يعد شيخ الربوة الدمشقي (ت ٧٢٧هـ/١٣٢٧م) أول من ذكر المناطق التابعة لنيابة دمشق، في كتابه (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) حيث أطلق عليها اسم "مملكة دمشق"، وتحدث عنها في بداية حديثه عن نيابات الشام، وذكر أعمالها وأهمها: داريا، وبيت لهما، والمزة، والزمار، وبرزة، والغوطة، والمرج، والجبهة، وسنير، والقران، ووادي التيم، وجبة عسال، وقارا، والنبك، والقטיפفة، وصدد، ومهين، ووادي بردى، والكفور، والجولان^(٥)، وعقربا، والجيدور^(٦)، ونوى^(٧)، والشعرا^(٨) من اللجاة^(٩) والسماوة^(١٠)، وبوارس، وبقاع^(١١) العزيز، وبقاع بعلبك، وكرك نوح^(١٢)، وإقليم غرتا، واللوبة

(١) الطرسوسي، تحفة ٧٦.

(٢) المقرئ، السلوك ١/٢، ١٣٧، المقفى ٦٠٩/٢؛ ابن تغري بردي، النجوم ٩/٣٢؛ غوثه، تاريخ نيابة ١٤.

(٣) ابن إياس، بدائع ١/١، ٤٤١.

(٤) القلقشندي، صبح ٤/١٨٦؛ الظاهري ٤٤.

(٥) الجولان: قرية، وقيل جبل من نواحي دمشق ثم من عمل حوران. (ياقوت، معجم ٢/٢١٩).

(٦) الجيدور: كورة من نواحي دمشق فيها قرى، وهي شمالي حوران، ويقال: إنها والجولان كورة واحدة. (ياقوت، معجم ٢/٢٢٩).

(٧) نوى: بلدة من أعمال حوران، وقيل: هي قصبتها، بينها وبين دمشق منزلان (ياقوت، معجم ٥/٣٥٣).

(٨) الشعرا: جبل ضخم قبل الرينة بأميال. (ياقوت، معجم ٣/٣٩٥).

(٩) اللجاة: اسم للحررة السوداء التي بأرض صلخد من نواحي الشام، فيها قرى ومزارع وعمارة واسعة. (ياقوت، معجم ٥/١٥٠).

(١٠) السماوة: بادية بين الكوفة والشام قفرى. (ياقوت، معجم ٣/٢٧٨؛ الحميري ٣٢٢).

(١١) البقاع: أرض واسعة بين بعلبك وحمص ودمشق، فيها قرى كثيرة ومياه غزيرة، و شرب هذه الضياع من عين تخرج من

جبل يقال لها عين الجسر. (ياقوت، معجم ١/٥٥٦-٥٥٧).

(١٢) كرك نوح: قرية في أصل جبل لبنان. (ياقوت، معجم ٤/٥١٤).

- وبعلبك^(١)، وكابل^(٢)، وجبل عامل^(٣)، وبانياس^(٤)، وأذرع^(٥)، وبصرى^(٦)، وحووران، وقلعة صرخد^(٧)، والبثنية^(٨)، وعمان^(٩)، وجرش^(١٠)، وعجلون^(١١)، ونابلس^(١٢)، وفحل^(١٣)، والغور^(١٤)، والقصير، وبيسان، وأريحا، وزغر، وبيت جبريل^(١٥)، وعمواس^(١٦)، والخليل^(١٧)، وغور عماتا^(١٨)، وغور
- (١) بعلبك : مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة وآثار عظيمة ، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام ، وتبعد عن ساحل البحر اثنا عشر فرسخا . (ابن حوقل ١٧٥/١-١٧٦؛ ياقوت ، معجم ١/٥٣٧-٥٣٨؛ القزويني ، آثار ١٥٦؛ أبو الفداء ، تقويم ٢٥٤-٢٥٥؛ الحميري ١٠٩).
- (٢) كابل : مدينة ساحلية بها مزارع الأقطاب و بها يطبخ السكر الفائق . (المقدسي ١٤١).
- (٣) جبل عامل : جبل ذو قرى نفيسة وأعتاب و ثمار و زيتون يطل على البحر ويتصل بجبل لبنان . (المقدسي ١٤١).
- (٤) بانياس : مدينة قديمة حصينة ، تقع على بحيرة الحولة . (المقدسي ١٤٠؛ أبو الفداء ، تقويم ٢٤٨-٢٤٩؛ شيخ الربوة ٢٠٠؛ الحميري ٧٤).
- (٥) أذرع : بلد في أطراف الشام ، يجاور أرض البلقاء وعمان (المقدسي ١٤١؛ ياقوت ، معجم ١/١٥٨؛ أبو الفداء ، تقويم ٢٥٢-٢٥٣؛ الحميري ١٩).
- (٦) بصرى : مدينة بالشام من أعمال دمشق ، وهي قصبة كورة حوران . (ياقوت ، معجم ١/٥٢٢؛ أبو الفداء ، تقويم ٢٥٢-٢٥٣؛ الحميري ١٠٩).
- (٧) صرخد : قلعة ملاصقة لبلد حوران من أعمال دمشق ، وهي حصينة وولاية واسعة حسنة وإليها ينسب الخمر الجيد . (ياقوت ، معجم ٣/٤٥٥؛ أبو الفداء ، تقويم ٢٥٨-٢٥٩؛ البغدادي ٢/٨٣٨).
- (٨) البثنية : قرية تقع بين دمشق وأذرع . (ياقوت ، معجم ١/٤٠٢؛ الحميري ٧٩).
- (٩) عمان : بلد في طرف الشام ، وكانت قصبة أرض البلقاء ، اشتهرت بالزراعة والتجارة و بالقرب منها الكهف والرقيم و بها جامع مفسس . (ياقوت ، معجم ٤/١٧٠-١٧١؛ أبو الفداء ، تقويم ٢٤٦-٢٤٧؛ الحميري ٤١٢).
- (١٠) جرش : اسم مدينة عظيمة كانت ، وهي الآن خراب ، تقع شرق البلقاء وحووران من عمل دمشق . (ياقوت ، معجم ٢/١٤٨).
- (١١) عجلون : مدينة من عمل دمشق بها حصن حصين غزير المياه و فير الفواكه و الأرزاق و هو مشرف يرى من مسيرة أربعة أيام . (شيخ الربوة ٢٠٠؛ أبو الفداء ، تقويم ٢٤٤-٢٤٥).
- (١٢) نابلس : مدينة مشهورة بفلسطين بين جبلين مستطيله لا عرض لها كثيرة المياه لأنها لصيقة في جبل بينها وبين بيت المقدس عشرة فراسخ ، كثيرة الزيتون يسمونها دمشق الصغرى . (المقدسي ١٤٩؛ ياقوت ، معجم ٥/٢٨٨؛ القزويني ، آثار ٢٧٧؛ أبو الفداء ، تقويم ٢٤٠).
- (١٣) فحل : اسم موضع بالشام كانت فيه و قعة للمسلمين مع الروم . (ياقوت ، معجم ٤/٢٦٨).
- (١٤) الغور : بفتح الغين المعجمة وسكون الواو في آخرها راء مهملة و غور الأردن بالشام بين بيت المقدس وحووران ، سمي بالغور لأنه غلتر بين جبلين وسائر بلاد الشام مرتفع عليها ، وفي طرفه الشمالي بحيرة طرية ، أما الجنوبي فالبحيرة المنتنة . (ابن حوقل ١/١٧٣؛ ياقوت ، المشترك ٣٢٦؛ الحميري ٤٣١).
- (١٥) بيت جبرين : حصن من حصون بيت المقدس ، يقع بين بيت المقدس و بين غزة . (ياقوت ، معجم ١/٦١٦ ، المشترك ٩٤؛ الحميري ١٥٦؛ لسترنج ٣٣٣).
- (١٦) عمواس : كورة من فلسطين بالقرب من بيت المقدس . (ياقوت ، معجم ٤/١٧٧).
- (١٧) الخليل : اسم موضع و بلدة فيها حصن و عمارة و سوق يقرب البيت المقدس بينهما مسيرة يوم . (ياقوت ، معجم ٢/٤٤٢-٤٤٣؛ القزويني ، آثار ١٨٧؛ أبو الفداء ، تقويم ٢٤٠-٢٤١).
- (١٨) عماتا : قرية بالأردن بها قبر أبي عبيدة بن الجراح ، وهي وسط الغور ، و بها يعمل النبل الفائقة ، تبعد عن طرية اثني عشر فرسخا . (ياقوت ، معجم ٤/١٧٣).

دامية، والسلط^(١)، وجبل بني عوف^(٢)، وجبل بني هلال^(٣)، وبيت المقدس^(٤)، والرملية، و لد^(٥)، وسبسطية^(٦)، وعين جالوت، وبيروت، وصيدا، وعسقلان^(٧)، وقيسارية^(٨)، ويافا^(٩)، وبيت لحم^(١٠)، وبيت جالا، والسويدا^(١١)، وحسبان^(١٢)، والرحبة^(١٣)، وتدمر، والسبخة^(١٤).

أما شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) فكان أكثر تحديدًا لمناطق نيابة دمشق من شيخ الربوة حيث يقول: "فأما ما هو في زماننا و عليه قانون ديواننا فإنه إذا قال سلطاننا: بلاد الشام ونائب الشام لا يريد به إلا دمشق ونائبها وولايته من لدن العريش^(١٥) حد بلاد مصر إلى آخر سلمية^(١٦) مما هو شرق بشمال، وإلى الرحبة مما هو شرق محض، وقد أضيف إليها في أيام سلطاننا بلاد جعير^(١٧)... فأعلم أن نيابة الشام تشتمل على ولاية بر وأربع صفقات، فأما السير فهو ضواحي دمشق، وحده من القبلة قرية الخيارة المجاورة للكسوة وما هو على سمتها طولاً من الشرق

- (١) السلط : بلدة لطيفة من جند الأردن في جبل النور الشرقي جنوب عجلون . (القلقشندي ، صبح ١١٠/٤) .
- (٢) جبل بني عوف : يقع غرب عجلون و سمي بذلك لان قوما من بني عوف من حرم قضاعه نزلوه . (القلقشندي، صبح ٨٦/٤) .
- (٣) جبل بني هلال : جبل بحوران من أرض دمشق ، تحته قرى كثيرة ، منها قرية تعرف بالمالكية . (ياقوت ، معجم ١٢٠/٢) .
- (٤) بيت المقدس : مدينة بفلسطين امتازت ببناء هوائها و كثرة ثمارها و فواكهها . (المقدسي ١٣٦ ، ١٤١ ، ١٤٣-١٤٤؛ أبو الفداء، تقويم ٢٤٠-٢٤١؛ الحميري ٢٤٤) .
- (٥) لد : قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين . (ياقوت ، معجم ١٧/٥) .
- (٦) سبسطية : بلدة من نواحي فلسطين بينها و بين بيت المقدس يومان . (ياقوت ، معجم ٢٠٨/٣) .
- (٧) عسقلان : مدينة بالشام من أعمال فلسطين تقع على ساحل البحر المتوسط بين غزة و بيت جبرين تشتهر بالفواكه و الجميز . (المقدسي ١٤٨ ؛ ياقوت ، معجم ١٣٧/٤؛ القزويني، آثار ٢٢٢؛ أبو الفداء، تقويم ٢٣٨-٢٣٩؛ ابن السباهي ١٧١) .
- (٨) قيسارية : بلد على ساحل بحر الشام تعد في أعمال فلسطين ، بينها و بين طرية ثلاثة أيام . (المقدسي ١٤٨-١٤٩؛ ياقوت ، معجم ٤٧٨/٤ ؛ أبو الفداء، تقويم ٢٣٨-٢٣٩) .
- (٩) يافا : مدينة تقع على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين بين قيسارية و عكا . (المقدسي ١٤٨؛ ياقوت ، معجم ٤٨٨/٥؛ أبو الفداء، تقويم ٢٣٨-٢٣٩؛ الحميري ٦١٥) .
- (١٠) بيت لحم : بليدة قرب بيت المقدس . (ياقوت ، معجم ١٦٨/١؛ القزويني، آثار ١٥٩؛ الحميري ١٢٣) .
- (١١) السويدا : قرية بحوران من نواحي دمشق . (ياقوت ، معجم ٣٢٥/٣؛ الحميري ٣٣٠) .
- (١٢) حسيان : بلدة صغيرة من عمل البلقاء و لها واد و أشجار و أرحية و بساين و زروع . (القلقشندي ، صبح ١١٠/٤) .
- (١٣) الرحبة : ناحية بين المدينة و الشام من وادي القرى و في طرف اللحاة من أعمال صلخد . (ياقوت ، معجم ٣٧/٣؛ القزويني، آثار ٣٧٣؛ البغدادي ٢/٦٠٨؛ الحميري ٢٦٨) .
- (١٤) شيخ الربوة ١٩٣ ، ١٩٨-٢٠٢) .
- (١٥) العريش : مدينة تقع في أول عمل مصر من جهة الشام ، تقع على ساحل بحر الشام و تنصف بألما مدينة ذات جوامع و مفترقة المباني و الغالب على أرضها الرمال و تتوافر فيها الثمار و الفواكه . (ياقوت ، معجم ٤/١٢٨؛ الإدريسي ١/٣٥٧؛ القزويني، آثار ٢٢١؛ الحميري ٤١٠) .
- (١٦) سلمية : بليدة من ناحية البرية من أعمال حماة ، بينهما مسيرة بمومين ، في طريقها إلى حصص في أطراف الشام بين عمان و أبله قرب الكرك . (أبو الفداء، تقويم ٢٤٦-٢٤٧؛ البغدادي ٢/٨١٨؛ الحميري ٣٢٠) .
- (١٧) جعير : تقع على الفرات بين بالس و الرقة قرب صفين و كانت قدما تسمى دوسر فملكها رجل من بني قشير أعمى يقال لسه جعير نسبت إليه . (البغدادي ١/٣٣٥) .

الجبال الطوال إلى النبك، وما وقع على سمتها، ومن الشام ما هو على سمت النبك من القرى آخذاً على عسال وما حولها من القرى إلى الزبداني ومن الغرب ما هو من الزبداني إلى قرى القران المسلمة للخيارة المقدمة الذكر، وفي هذا مرج دمشق و غوطتها. و أما الصفقات : فالأولى الساحلية والجليلية، وأهم هذه البلاد مدينة غزة والنيابة بها... وأما الصفقة الثانية : وهي المعروفة بالقبلية... ومدينتها بصرى... والصفقة الثالثة : وهي المعروفة بالشمالية... وبها من المدن الجليلة بعلبك... وأما الصفقة الرابعة : وهي الشرقية... ومدينة هذه الصفقة حمص^(١).

والذي يهمننا من تحديد العمري هذا التعرف على صلاحيات نائب دمشق و المناطق التي تشملها هذه الصلاحيات.

أما القلقشندي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) فقد نقل ما جاء عن العمري ولم يضيف شيئاً جديداً^(٢). وكذلك الخالدي (توفي في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي) فإنه نقل ما أورده العمري ولم يضيف شيئاً آخر^(٣).

أما ابن شاهين الظاهري (ت ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م) فجاء تعداداً للمناطق المكونة لنيابة دمشق على نحو ما عددها شيخ الربوة، حيث أن الظاهري نقل عنه ولم يضيف شيئاً جديداً^(٤).

(١) العمري، التعريف ٢٥٢-٢٥٧.

(٢) القلقشندي، صبح ٤/ ١٠٠-١٢٠.

(٣) الخالدي ٨٧ب-٩٠.

(٤) الظاهري ٤٤-٤٦.

القرى في نيابة دمشق في العصر المملوكي :

سوف نشير في هذا المجال إلى أهم القرى التي كانت تابعة لنيابة دمشق في هذا العهد، والتي تيسرت لدينا معلومات عنها في المصادر وهي :

١- أرزونا :

من قرى دمشق^(١)، تقع على نهر ثورا، وكان لها جامع و حمام، ومشربها من النهر نفسه^(٢).

٢- أرزة :

ذكرها ابن طولون (ت ٩٥٣هـ / ١٥٤٦م) في "ضرب الحوطة" إلا أن معظمها كان خرابا في عصره حيث أدرك بعضها منها، إذ قال عنها : "أرزة : أدركت بعض بيوت بها ومشربها من نهر ثورا"^(٣).

٣- الإفتريس :

قرية من قرى دمشق قرب جسرين ، مشربها من نهر داعية^(٤)، وكلمة "إفتريس" يونانية، وهي تحريف لكلمة "فاراتيس" أي "ضارب الأعداء و مبددهم"، وهو من أسماء المشتري^(٥).

٤- بانياس :

قرية تبعد عن دمشق مرحلة ونصف^(٦)، تقع على بحيرة الحولة، وتشتهر بالليمون والأترج^(٧).

٥- البنية :

اسم ناحية من نواحي دمشق، وقيل : هي قرية تقع بين دمشق وأذرع^(٨).

٦- بوزة :

قرية من غوطة دمشق^(٩)، تقع إلى الشمال من المدينة^(١٠)، و بها مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام

(١) ياقوت ، معجم ١ / ١٨١ .

(٢) ابن طولون ، ضرب ١٥٤ .

(٣) المصدر نفسه ١٥٤ .

(٤) المصدر نفسه ١٥٤ .

(٥) المجلد ٣٤٩ .

(٦) المرحلة : جمعها مراحل ، وتعني المنزلة بين المنزلتين ، يقال : بيني وبين كذا مرحلة أو مرحلتان . (ابن منظور ١٣ / ٢٩٧) .

(٧) المقدسي ١٤٠ ؛ شيخ الربوة ٢٠٠ ؛ أبو الفداء ، تقويم ٢٤٨ ؛ البغدادي ١ / ١٥٨ .

(٨) ياقوت ، معجم ١ / ٤٠٢ .

(٩) ياقوت ، معجم ١ / ٤٥٥ ؛ الإدريسي ١ / ٣٦٦ ؛ شيخ الربوة ١٩٨ ؛ البغدادي ١ / ١٨٣ ؛ الحميري ٨٧ ؛ ابن عبد الهادي ، معجم ٦ ب .

(١٠) البدري ٣٢ .

«وهو غار في مسجد يصعد إليه بدرج من داخل المسجد الذي بني عليه هناك وهو بالقرب من بيوت القرية وفيه ماء يأتي إليه من نهر القرية المذكورة و الدعاء فيه مستجاب»^(١).

وسميت برزة بهذا الإسم لأن سيدنا إبراهيم قاتل أعداء له عندها حيث برز لهم هناك^(٢)، وهي من متنزهات دمشق التي تزار، وإليها ينسب «التين البرزي»^(٣)، وماؤها من أحسن مياه دمشق^(٤).

٧_ بلاس :

بلد بينه و بين دمشق عشرة أميال^(٥). وكلمة «بلاس» يونانية الأصل بمعنى القصر^(٦).

٨_ البلاط :

وتدعى «بيت البلاط»، وهي من قرى غوطة دمشق^(٧)، وتقع بجوار قرية المنيحة^(٨)، والكلمة فينيقية وهي تحريف بعل بالبيت^(٩).

٩_ بيت أبيات :

قرية من قرى دمشق^(١٠)، تقع غربي الصالحية، وفي عهد ابن طولون خرب معظمها ولم يبق منها غير المسجد و الطاحون^(١١). وقد سكن القرية جماعة من المحدثين و العلماء، و ممن سكنها وتوفي فيها مؤرخ الشام أبو شامة^(١٢).

١٠_ بيت أرائس :

من قرى الغوطة^(١٣)، تقع تحت مدينة دمشق من الجهة القبلية^(١٤)، بها قبر أبي مرثد دثار بن الحصين الصحابي الجليل^(١٥).

(١) البصروي ، تحفة ١١٨ ب ، ١١٩ ؛ النابلسي ، الحقيقة ١٩ .

(٢) البدري ٣٢ .

(٣) المصدر نفسه ٢٦٠ - ٢٦١ .

(٤) ابن طولون ، ضرب ١٥٤ .

(٥) ياقوت ، معجم ٥٦٤/١ ؛ الإدريسي ١ / ٣٦٦ .

(٦) المفلوف ٣٤٩ .

(٧) ياقوت ، معجم ٥٦٤/١ .

(٨) كرد علي ، غوطة ٢٢٤ .

(٩) المفلوف ٣٤٥ .

(١٠) القزويني ، آثار ١٨٩ .

(١١) ابن طولون ، ضرب ١٥٤ .

(١٢) دهمان ، في رحاب ١٣١ - ١٣٢ .

(١٣) ياقوت معجم ١ / ٦١٥ .

(١٤) ابن طولون ، ضرب ١٥٤ .

(١٥) ياقوت ، معجم ١ / ٦١٥ .

١١_ بيت قوفا :

قرية من قرى دمشق^(١)، تقع قبلي جرمانا^(٢).

١٢_ بيت هيا :

وهي كلمة آرامية^(٣) تعني بيت الآلهة ، وهي قرية مشهورة من غوطة دمشق^(٤)، تقع إلى الشرق من الغوطة^(٥). كان سكانها من قبائل السكاسك، و السكون و هم عرب يمانية^(٦).

ويذكر أن آزر أبا إبراهيم عليه السلام كان يصنع بها الأصنام فيقوم ابنه إبراهيم بتكسيورها، وجد بها علي أيام ابن جبير مسجد جامع^(٧)، ذكرها الإدريسي باسم "بيت الأهواء"^(٨). وكانت القرية عامرة في أوائل القرن الحادي عشر للهجرة/ السابع عشر للميلاد^(٩).

١٣_ ثنية العقاب :

تقع على مقربة من مدينة دمشق، و تشرف على الغوطة، يطؤها القاصد من دمشق إلى حمص، وسميت كذلك لأن عقابا من الطير كان ساقطا عليها بعشه و فرائحه^(١٠)، ذكرها ابن جبير في رحلته أثناء مروره على الطريق بين حمص و دمشق^(١١).

١٤_ جبة عسال :

ناحية بين دمشق و بعلبك، تشتمل على عدة قرى^(١٢).

١٥_ جرمانا :

من نواحي غوطة دمشق^(١٣)، قال أحد الشعراء فيها :

فالقصر فالمرج فالميدان فالشرف الـ
أعلى فسطرا فجرمانا فقبلين^(١٤)

(١) ياقوت ، معجم، ١ / ٦١٨ .

(٢) كرد علي ، غوطة ٢٢٤ .

(٣) المعلوف ٣٤٥ .

(٤) القزويني، آثار ١٨٩؛ البديري ٢٦٨؛ ابن عبد الهادي ، معجم أ-ب ؛ ابن الخوراني ١٤١ .

(٥) ابن بطوطة ١٢٠؛ ابن طولون، ضرب ١٥٤ .

(٦) كرد علي ، غوطة ٢٢٤ .

(٧) ابن جبير ٢٤٩ .

(٨) الإدريسي ١ / ٣٦٦ .

(٩) كرد علي ، عمران ٩٧٧ .

(١٠) ياقوت ، معجم ٢ / ٩٩؛ الحميري ١٥١، ٢٤١ .

(١١) ابن جبير ٢٣٣ .

(١٢) ياقوت معجم ٢ / ١٢٦ .

(١٣) ياقوت ، معجم ٢ / ١٥٠؛ البغدادي ١ / ٣٢٧ .

(١٤) ياقوت ، معجم ٢ / ١٥٠ .

وقد ذكر ابن طولون أن سكان القرية كانوا تيامنه^(١)، على عكس سكان الغوطة جميعهم فهم من السنة^(٢).

١٦_ جسرين :

قرية من قرى غوطة دمشق^(٣)، وكانت بلدة كبيرة، إلا أنه تلاشى أمرها، وشرها من هجر داعية^(٤).

١٧_ جوبر :

قرية بغوطة دمشق^(٥)، تقع إلى الشرق من المدينة^(٦)، نسب إليها جماعة من المحدثين والعلماء^(٧)، كان سكانها على عهد ابن طولون خليطاً من المسلمين واليهود، و كان بها مسجد يقال له مسجد النبي صلى الله عليه و سلم^(٨).

١٨_ حجيرا :

من قرى غوطة دمشق^(٩)، بها قبر مدرك بن زياد، رضي الله عنه^(١٠).

١٩_ الحديدية :

من قرى غوطة دمشق يقال لها حديثة جرش^(١١).

٢٠_ حران :

قرية بغوطة دمشق^(١٢)، ويقال لها حران العواميد، وهي قرية متوسطة من قرى المرج^(١٣).

٢١_ حرستا :

قرية كبيرة عامرة وسط بساتين دمشق على طريق حمص بينها وبين دمشق أكثر من فرسخ^(١٤).

(١) التيامنة : تيامن الرجل ذهب ذات اليمين ، وهي فرقة من فرق الشيعة . (الجيلاني ١٩٣) .

(٢) ابن طولون، ضرب ١٥٤-١٥٥ .

(٣) ياقوت ، معجم ١٦٣ / ٢ .

(٤) ابن طولون ، ضرب ١٥٥ .

(٥) ياقوت ، معجم ٢ / ٢٠٥ ؛ البغدادي ١ / ٣٥٤ .

(٦) ابن طولون ، ضرب ١٥٥ .

(٧) ياقوت ، معجم ٢ / ٢٠٥ .

(٨) ابن طولون ، ضرب ١٥٥ .

(٩) ياقوت ، معجم ٢ / ٢٦١ ؛ البغدادي ١ / ٣٨٣ .

(١٠) ياقوت ، معجم ٢ / ٢٦١ .

(١١) المصدر نفسه ٢ / ٢٦٥ .

(١٢) البغدادي ١ / ٣٨٩ .

(١٣) ابن طولون ، ضرب ١٥٦ .

(١٤) ياقوت ، معجم ٢ / ٢٧٩ ؛ البغدادي ١ / ٣٩٢ .

و الفرسخ : مقداره ثلاثة أميال ، و الميل نوعين : ميل بري : يساوي ١٦٠٩ متر أما البحري فيساوي ١٨٥٢ متر .

(الخطيب ٣٣٧ ، ٤١٦) .

ذكرها ابن طولون باسم «حرسنا الزيتون»، وقال عنها: «قرية كبيرة جامعة و هي في إقطاع النيابة كانت ... وشرها من نهر يزيد وثورا و إليها ينسب التفاح النبطي»^(١).

٢٢_ حزة :

بلدة صغيرة تحت زملكا، وشرها من عين الرشيدية^(٢).

٢٣_ هورية :

قرية بغوطة دمشق^(٣)، تقع شمال قرية سقبا، وبها جامع يقال أنه عمري^(٤).

٢٤_ الخيارة :

قرية صغيرة من قرى مرج دمشق^(٥).

٢٥_ داريا :

قرية كبير مشهورة من قرى دمشق بالغوطة^(٦)، تقع غرب المدينة على بعد أربعة أميال منها و هما قرا الصحابين أبو مسلم الخولاني و أبو سليمان الداراني^(٧)، وذكر الخولاني (ت ٣٧٠هـ / ٩٨٠م) أن عدد سكان هذه القرية كان في عهده خمسة عشر ألف شخص^(٨).

تميزت بخصبها حتى وصفها شيخ الربوة بقوله: «و داريا قرية عظيمة المغل والأرض...»^(٩)، كان سكانها تيامنه، ويصفهم البصروي (ت ٩٠٥هـ / ٤٩٩م) «بأنهم لا خيانة لهم و لا يتصرفون بزروع الناس، و لا بساتينهم، لكن لا دين لهم، و قد يبلغ من أخبارهم أنهم لا يعتقدون السنة بل أنهم دهرية»^(١٠).

وكانت داريا في القرن العاشر للهجرة/السادس عشر للميلاد بلدة كبيرة، ونسب إليها البطيخ الجيد^(١١).

(١) ابن طولون، ضرب ١٥٦.

(٢) المصدر نفسه ١٥٦.

(٣) ياقوت، معجم ٢ / ٣٥١؛ البغدادي ١ / ٤٢٧.

(٤) ابن طولون، ضرب ١٥٦.

(٥) المصدر نفسه ١٥٦.

(٦) ياقوت، معجم ٢ / ٤٩١؛ الإدريسي ١ / ٣٦٦، القزويني، آثار ١٨٨؛ البغدادي ٢ / ٥١٩؛ ابن عبد الهادي، معجم ١٥.

(٧) ابن جبير ٢٥٣؛ شيخ الربوة ١٩٨؛ ابن بطوطة ١١٨؛ البديري ٢١٩-٢٢٠.

(٨) الخولاني ٨.

(٩) شيخ الربوة ١٩٨.

(١٠) البصروي، تاريخ ٢٦٠.

و الدهرية : هم الذين عطلوا المصنوعات عن صنعها ، و قالوا ما حكاها الله عنهم ((وقالوا ماهي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر)) وهم فرقتان :فرقة قالت إن الخالق سبحانه خلق الأفلاك متحركة اعظم حركة دارت عليه فأحرقته و لم يقدر على ضبطها و إمساك حركتها،و فرقة قالت إن الأشياء ليس لها أول البتة وإنما تخرج من القوة إلى الفعل.(الشهرستان ٢/٢٣٥-٢٣٦).

(١١) ابن طولون، ضرب ١٥٦.

٢٦- دمر :

قرية تشرف على غوطة دمشق من الجهة الشمالية على طريق بعلبك^(١)، وتبعد عن دمشق ٧ كم^(٢). و"دمر" فينيقية الأصل، وهي تحريف دامور أو تامور أو تامار، وهو عند الفينيقيين الإله الحامي فكأنهم اتخذوا حصنا فيه تمثال للدفاع عن المدينة التي كانت محطة لتجارهم الشهيرة^(٣). وبالقرية قصور كثيرة لبعض أعيان دمشق للاصطياف^(٤).

٢٧- دومة :

من قرى غوطة دمشق وهي غير دومة الجندل^(٥). تقع إلى الشرق من حرستا، وكانت في أيام ابن طولون بلدة كبيرة، و من أمهات القرى^(٦).

٢٨- الربوة :

تقع على بعد فرسخ من دمشق في لحف جبل قاسيون، "وهو موضع ليس في الدنيا أنزه منه"^(٧). وصفها ابن جبير فقال عنها: "وهذه الربوة المباركة رأس بساتين البلد و مقسم مائه ينقسم فيها الماء على سبعة أنهار، يأخذ كل نهر طريقه و أكبر هذه الأنهار نهر يعرف بثورا، وتشرف من هذه الربوة على جميع البساتين الغربية من البلد"^(٨). أما ابن بطوطة فقال عنها: "من أجمل مناظر الدنيا ومنتزهاها، و بها القصور المشيدة و المباني الشريفة و البساتين البديعة و إزائها بيت يقال أنه مصلى الخضر، عليه السلام، يبادر الناس إلى الصلاة فيه"^(٩).

وذهب المفسرون إلى أن الربوة هي المذكورة في قوله تعالى: "وأويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين"^(١٠)، و المقصود هنا عيسى عليه السلام و أمه مريم^(١١). وقد اشتهرت الربوة بكثرة محلاتها التجارية ومنتزهاها، وجدها في القرن العاشر للهجرة / السادس عشر للميلاد أربعة مساجد وجامع بخطبة، إلا أن أحوالها تغيرت، و تراجعت مكائنها، وأصبحت تقع بها المنكرات ممن يقصدونها أيام

(١) البكري، معجم ٥٥٦/٢؛ ياقوت، معجم ٥٢٧/٢؛ البغدادي ٥٣٣/٢.

(٢) الحصني ١٠٦٠/٣.

(٣) المعلق ٣٤٥.

(٤) الحصني ١٠٦٠/٣.

(٥) ياقوت، معجم ٥٥٣/٢.

(٦) ابن طولون، ضرب ١٥٧؛ زكريا ٣٥٨.

(٧) ابن حوقل ١٧٤/١؛ القزويني، آثار ١٩٩؛ البغدادي ٦٠٣، ٢؛ الحميري ٢٣٩؛ ابن عبد الهادي، معجم ١٧ ب.

(٨) ابن جبير ٢٤٨-٢٤٩.

(٩) ابن بطوطة ١٢٠.

(١٠) المومنون ٥٠.

(١١) الجزري ٤٠٣-٤٠٤؛ البدري ٨٣؛ الحميري ٢٣٩؛ ابن الخوراني ١٢٣.

السبت والأحد أو الثلاثاء والأربعاء^(١). ينسب إلى الربوة العالم الجغرافي الشهير محمد بن أبي طالب الأنصاري المعروف بشيخ الربوة الدمشقي^(٢).

٢٩_ الزبداني :

كورة معروفة بين دمشق و بعلبك منها يخرج فُر دمشق «بردى»^(٣)، «و قلعة الزبداني هي قلعة الورد يستخرجون بها ماء ورد القاهرة المحروسة ومكة المشرفة وغيرها من البلاد و كذلك فاكهتها المنقولة إلى القاهرة وغيرها»^(٤).

وكانت قرية الزبداني مركزا و محطة من محطات البريد بين دمشق و بعلبك أيام المماليك^(٥).

٣٠_ زمكا :

قرية بغوطة دمشق^(٦)، وكانت على أيام ابن طولون بلدة كبيرة جامعة، بها جامع و حمام وخلق كثير، و هي من أمهات «قرى» الغوطة و شرها من فُر ثورا^(٧).

٣١_ سطرا :

من قرى دمشق ، قال أحد الشعراء يذكر منتزهات الغوطة :

سقى الله من سطرا و مقرا منازلها
بها للندامي نضرة و سرور^(٨)

ذكرها البدرى مع قرية مقرا و عدها من محاسن الشام فقال : «و من محاسن الشام أرض سطرا و مقرا و هما من الأراضي الطيبة الفيحاء و بها منتزه يسمى باليلكي»^(٩).

٣٢_ سقبا :

من قرى دمشق بالغوطة^(١٠)، و هي بلدة كبيرة جامعة، و بها جامع و عدة مساجد و حمام، و منها يستحسن بذر الخيار و شرها من فُر داعية^(١١).

٣٣_ الصالحية :

قرية كبيرة ذات أسواق و جامع في لحف جبل قاسيون من غوطة دمشق، وفيها قبور جماعة من

(١) ابن طولون ، وصف ١٤٧-١٤٨ .

(٢) دهمان ، في رحاب ٢٧ .

(٣) ياقوت ، معجم ٣ / ١٤٦ ؛ البغدادي ٢ / ٦٥٧ ؛ الحميري ٢٩٦ .

(٤) البدرى ١١٨ .

(٥) القلقشندي ، صبح ١٤ / ٤٢٨ ؛ الظاهري ١٢٠ ؛ الحميري ٢٩٦ .

(٦) ياقوت ، معجم ٣ / ١٦٨ ؛ البغدادي ٢ / ٦٧٠ .

(٧) ابن طولون ، ضرب ١٥٧ .

(٨) ياقوت ، معجم ٣ / ٢٤٨ .

(٩) البدرى ٢٧٣-٢٧٤ .

(١٠) ياقوت ، معجم ٣ / ٢٥٥ ؛ البغدادي ٢ / ٧٢٠ .

(١١) ابن طولون ، ضرب ١٥٨ .

الصالحين، وأكثر أهلها ناقلة بيت المقدس على مذهب أحمد بن حنبل^(١).

ازدهرت في العصر المملوكي ، ووصفت في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد "بالمدينة ذات بيوت وجنائن و مدارس و ربط و ترب جليلة و عمائر ضخمة و مارستان و أسواق جليلة بالبز وغيره ، وجميع الصالحية مشرفة على دمشق و غوطتها و كل بسايتها و شرفها و ميادينها و مجرى واديتها و بجانبها القرى"^(٢).

وعدها البدرى من محاسن الشام ، ووصفها بقوله : "ومن محاسن الشام الصالحية، مشحونة بالزوايا و الترب و المدارس حتى أن لها قصبة دون ميل تمشي فيها بين ترب و مدارس بيناء جميل إستولى عليه المباشرون و النظار"^(٣).

أما ابن طولون فقال عنها : " وهي أول قرى الغوطة و أم البلاد و عروس الشام يصلح أن تكون مدينة بسفح قاسيون"^(٤). و قد سميت الصالحية بذلك نسبة إلى بني قدامة الصالحين الذين نزلوها في القرن السادس الهجري/ الثاني الميلادي و تحديدا عام ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م^(٥).

٣٤ _ الصفوانية :

من نواحي دمشق خارج باب توما من إقليم حولان^(٦).

٣٥ _ صنعاء دمشق :

قرية بالغوطة من دمشق، تقع بين قرية المزرة و مدينة دمشق مقابل مسجد خاتون^(٧)، و قد خربت و أصبحت بساتين^(٨)، وهي من القرى التي نزلها اليمانيون و سموها باسم صنعاء اليمن^(٩).

٣٦ _ صيدنايا :

بلد من أعمال دمشق مشهور بكثرة الكروم و الخمر الفائق^(١٠).

٣٧ _ الضمير :

قرية و حصن في آخر حدود دمشق مما يلي السماوة^(١١).

(١) ياقوت ، معجم ٣ / ٤٤٢ ؛ البغدادي ٢ / ٨٣٠ ؛ ابن طولون ، ضرب ١٥٨ .

(٢) العمري ، مسالك، دولة ١٨١ ؛ ابن كان ، المروج ١١٥ .

(٣) البدرى ٣٢٠-٣٢١ .

(٤) ابن طولون ، ضرب ١٥٨ .

(٥) دهمان ، في رحاب ٤١ .

(٦) ياقوت ، معجم ٣ / ٤٧٠ .

(٧) ياقوت ، معجم ٣ / ٤٨٤ ، ٤٨٧ ؛ الحميري ٣٦٠ .

(٨) ياقوت ، معجم ٣ / ٤٨٧ ؛ ابن طولون ؛ ضرب ١٥٨ .

(٩) كرد علي ، غوطة ٢٣٧ .

(١٠) ياقوت ، معجم ٣ / ٢٥٥ ؛ البغدادي ٢ / ٨٥٩ .

(١١) ياقوت ، معجم ٣ / ٥٢٦ ؛ البغدادي ١ / ٣٣٨ ؛ الحميري ٣٧٧ .

٣٨_ عذرا :

من قرى دمشق، تقع شرقي دومة^(١)، يوجد بها قبر الصحابي حجر بن عدي^(٢) الذي قتله معاوية هو وجماعة^(٣)، تشرب هذه القرية من نهر ثورا و تشتهر بزراعة البطيخ^(٤).

٣٩_ عرقة :

بلدة صغيرة ذات قلعة وبيساتين و نهر صغير من أعمال دمشق^(٥).

٤٠_ عين ثوما :

قرية من قرى الغوطة^(٦)، تقع شرقي دمشق كان بها في عهد ابن طولون جامع و حمام وتستمد القرية مياهها من نهر ثورا^(٧)، وكلمة ثوما يونانية الأصل وتعني "الحمة" وهي العين ذات المياه الحارة^(٨).

٤١_ فذايا : قرية من قرى دمشق^(٩).

٤٢_ الفيحة :

قرية بين دمشق و الزبداني ، عندها مخرج نهر بردى^(١٠)، وكلمة "فيحة" يونانية الأصل ، وهي تحريف "بيحة" اليونانية بمعنى ينبوع^(١١).

٤٣_ القابون :

بلدة بينها وبين دمشق مقدار ميل، وتقع في طريق القاصد إلى العراق وسط البساتين^(١٢)، وصفها البدرى في القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد بأنها "حسنة الماء و الهواء... وبها أرض مصطبة السلطان وهي مصطبة في مقدار فدان يصعد إليها في نيف وعشرين درجة من جهاتها الأربع وفيها قصر حسن البناء ينزل به الملوك والسلاطين عند توجههم إلى الأسفار وإلى هذا القابون ينسب

(١) ابن طولون ، ضرب ١٥٩ .

(٢) حجر بن عدي :هو حجر بن عدي بن جبلة بن عدي بن ربيعة ، صحابي جليل ، شهد القادسية . حارب مع علي بن أبي طالب في وقعتي الحمل و صفين ، و تزعم الشيعة في الكوفة ووقف ضد معاوية مما دفع الأخير إلى إرساله إلى قرية عذراء بالشام هو و نفر من أنصاره ، ثم قتلهم هناك . (ابن سعد ٦ / ٢٤١-٢٤٣) .

(٣) ابن الخوراني ١٤٣ / ابن طولون ، ضرب ١٥٩ .

(٤) ابن طولون ، ضرب ١٥٩ .

(٥) أبو الفداء ، تقويم ١٥٤-٢٥٥ .

(٦) ياقوت ، معجم ٤ / ٢٠٠ ؛ البغدادي ٢ / ٩٧٧ .

(٧) ابن طولون ، ضرب ١٥٩ .

(٨) المملوك ٣٤٩ .

(٩) ياقوت ، معجم ٤ / ٢٧٣ ؛ البغدادي ٣ / ١٠٢٠ .

(١٠) ابن حوقل ١ / ١٧٤ ؛ ياقوت ، معجم ٤ / ٣١٩ ؛ البغدادي ٣ / ١٠٤٩ ؛ ابن السباهي ٤٩ .

(١١) المملوك ٣٤٩ .

(١٢) ياقوت ، معجم ٤ / ٣٢٩ ؛ البغدادي ٣ / ١٠٥٤ .

الخيار^(١٠٠)، وتنقسم القابون إلى قابونين : فوقاني و تحتاني^(١٠١).

فالقابون فوقاني : قرية كبيرة ، غالب سكانها من التركمان ، و شرها من نهر يزيد. و القابون التحتاني : بلدة كبيرة سكانها من التركمان والنصارى الموارنه وغيرهم، وكان يعمل بها خميس البيض، وشرها من نهر يزيد أيضا^(١٠٢).

٤٤ _ القدم :

قرية من قرى دمشق تقع إلى الجنوب من المدينة^(١٠٣).

٤٥ _ قرحتا :

قرية من قرى دمشق، كان يسكنها يحيى بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي وغيره من أشرف بني أمية^(١٠٤).

٤٦ _ القصير :

ضبعة من ضياع دمشق، وهي أول منزل لمن يريد حمص من دمشق^(١٠٥)، تبعد عن مدينة دمشق مسافة بريد^(١٠٦) ونصف^(١٠٧).

وجد بالقصير خان كبير كانت تنزله القوافل يقال له خان القصير، حيث ذكره ابن جبير حينما مر به متوجها من حمص إلى دمشق و وصفه بقوله : «القصير : فيه خان كبير و النهر جار أمامه»^(١٠٨). ذكرها ابن طولون باسم «قصير القوافل» وهي قرية متوسطة على طريق المارة^(١٠٩).

(١) البديري ٢٦٤-٢٦٥ .

(٢) البديري ٢٦٤؛ ابن طولون ، ضرب ١٥٩ .

(٣) ابن طولون ، ضرب ١٥٩ .

(٤) ابن طولون ، ضرب ١٦٠ ؛ كرد علي ، غوطة ٢٤١ .

(٥) ياقوت ، معجم ٥ / ٣٦٣ .

(٦) ياقوت ، معجم ٤ / ٤١٧ ؛ النابلسي ، الحقيقة ٢٠ .

(٧) البريد : لفظ فارسي أصله : بريدة دم ، معناه عندهم : الفرس المقصوص الذنب المستخدم في نقل الرسائل الحكومية و ركوب الجباة ، ويبدو من سياق العبارة أن مثل هذا الفرس كان متميزا عن غيره بقطع ذنبه للدلالة عليه . شاع استخدام لفظ بريد عند العرب منذ بداية العصر الإسلامي يعني عندهم نظام نقل الأخبار و الرسائل ، و اتسعت شبكته في العصرين الأموي و العباسي و وضعت له قوانين خاصة بحيث كان البريد يقطع المسافة بين دمشق و القاهرة في أربعة أيام ، و في العهد المملوكي كان بريد الشام يصل إلى القاهرة مرتين في الأسبوع . و من معاني البريد عند العرب المسلمين انه أصبح عندهم إشارة إلى المسافة التي تقطعها بقال البريد بين كل محطة وأخرى من محطات الطريق وهي بتقدير الفقهاء أربعة فراسخ أو اثنا عشر ميلا أي ((تسعة عشر كيلسو مترا و ثلاثمئة متر)) . (المقرزي، الخطط ١/٤١٨؛ الخطيب ٧٦) .

(٨) ابن الجيعان ٨٠ .

(٩) ابن جبير ٢٣٤ .

(١٠) ابن طولون ، ضرب ١٦٠ .

ويذكر الظاهري أن القصر كانت في العصر المملوكي أحد مراكز البريد بين البيرة^(١) والقطيقة^(٢).

٤٧_ القطيقة :

قرية دون ثنية العقاب للقاصد إلى دمشق في طرف البرية من ناحية حمص^(٣).

٤٨_ قينية :

قرية كانت مقابل الباب الصغير من مدينة دمشق، ثم أصبحت بساتين^(٤).

٤٩_ الجسوة :

قرية من قرى دمشق، وهي أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر، سميت بذلك لأن الغساسنة قتلوا بها رسل ملك الروم حينما أتوا إليهم لأخذ الجزية منهم، واقتسموا كسوتهم^(٥).

٥٠_ كفر بطنا :

من قرى غوطة دمشق من إقليم داعية^(٦)، كانت في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي بلدة كبيرة جامعة، ومسكناً للعلماء والتجار، وشرها من نهر داعية^(٧).

٥١_ كفر سوسية :

من قرى دمشق^(٨)، اشتهرت بزيتونها، كما وجد بها معصرة للزيت^(٩).

٥٢_ المحمديات :

قرية صغيرة من قرى المرح قرب جسرين، تنسب إلى محمد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان^(١٠).

٥٣_ المزة :

قرية من قرى دمشق^(١١)، تقع غربي المدينة في سفح جبل قاسيون^(١٢) بينها وبين دمشق

(١) البيرة : بلدة قرب سيماسط بين حلب و الثغور الرومية وهي قلعة حصينة و لها رستاق واسع . (أبو الفداء، تقويم ٢٦٨-٢٦٩ البغدادي ١ / ٢٤١).

(٢) القلقشندي، صبح ١٤ / ٤٢٣ ، ٤٢٦ ؛ الظاهري ١١٩ .

(٣) ياقوت ، معجم ٤ / ٤٢٩ .

(٤) ياقوت ، معجم ٤ / ٤٨١ ؛ البغدادي ٣ / ١١٤٠ ؛ ابن طولون ، ضرب ١٦١ .

(٥) ياقوت ، معجم ٤ / ٥٢٤ .

(٦) ياقوت ، معجم ٤ / ٥٣١ ؛ ابن عبد الهادي ، معجم ٣٣ ب.

(٧) ابن طولون ، ضرب ١٦٠ .

(٨) ياقوت ، معجم ٤ / ٥٣٣ ؛ الإدريسي ١ / ٣٦٦ ؛ البغدادي ٣ / ١١٧٠ .

(٩) ابن طولون ، ضرب ١٦٠ .

(١٠) ياقوت ، معجم ٥ / ٧٧ ؛ ابن طولون ، ضرب ١٦٠ .

(١١) ياقوت ، معجم ٥ / ١٤٤ ؛ الإدريسي ١ / ٣٦٦ ؛ القزويني، آثار ٦٦٣ ؛ ابن عبد الهادي ، معجم ٣٩ أ.

(١٢) القزويني، آثار ٦٦٣ ؛ البغدادي ٣ / ١٢٦٦ ؛ ابن طولون ، ضرب ، ١٦١ ؛ ابن الجوزي ١٢٤ .

وقاسيون : هو الجبل المشرف على مدينة دمشق وفيه عدة مغاور وكذلك آثار الأنبياء و كهوف ، وهو جبل معظم مقدس ، وفي سفحه مقبرة أهل الصلاح . (ياقوت ، معجم ٤ / ٣٣٥) .

نصف فرسخ^(١)، وقد زارها ابن بطوطة فوصفها بأنها «من أعظم قرى دمشق بما جامع كبير عجيب وسقاية معينة»^(٢).

المزة : كلمة عبرانية وهي باسم حفيد عيسو ومعناه الخوف، وقيل هي يونانية بمعنى التلثة أو الربوة، وقيل بل عربية وهي تحريف كلمة المنتزه^(٣).

يعود سكان المزة في أصولهم إلى اليمن، وكان نزولهم فيها أيام معاوية بن أبي سفيان^(٤)، ويوجد بالقرية قبر دحية الكلبي الصباحي الجليل^(٥).

اشتهرت المزة بورودها التي كانت تصدر إلى الهند وبلاد الهند والصين ويسمى هناك الزهر^(٦). ذكرها البدرى و عدها من محاسن الشام ووصفها قائلاً : «و من محاسن الشام أرض المزة... بها الدور الوسيعة الفناء المليحة الأساس البناء وفيها أعيان الناس... و بها سويقتان فيهما سائر ما تشتهي من الألوان ، و مصلى بخطبة و خطبة بجامع جديد»^(٧).

ويذكر ابن طولون أن المزة كانت قد أقطعت لبعض أولاد أسامة بن زيد، و من العلماء والمحدثين الذين خرجوا من المزة و يتسبون إليها الحافظ جمال الدين المزي^(٨). و يرى كرد علي أن المزة الحالية بنيت فوق قناة، وهي المعروفة بقناة المزة، أما القديمة فهي تحت قناتها الراكبة على مقسم نهر الداراني^(٩).

٥٤_ معلولا :

إقليم من نواحي دمشق له قرى^(١٠)، ويعتقد بأن سكان معلولا هم من النصارى حيث يشير النابلسي في رحلته أنه مر بها و أن سكانها يتكلمون باللغة السريانية^(١١). وتقع معلولا في أقصى قرى القلمون على بعد ٥٥ كم من دمشق^(١٢).

(١) ابن طولون، تاريخ ٣١ .

(٢) ابن بطوطة ١٢٠ .

(٣) المفلوف ٣٤٩ .

(٤) ابن طولون ، تاريخ ٣٣- ٣٥ .

(٥) ياقوت ، معجم ٥ / ١٤٤ ؛ ابن طولون ، تاريخ ، ٣١ ؛ ابن الجوزي ١٢٤ .

(٦) شيخ الربوة ١٩٨ .

(٧) البدرى ١٨٧ ، ٢١٢ .

(٨) ابن طولون ، ضرب ١٦١ .

(٩) كرد علي ، غوطة ٢٤٦ .

(١٠) ياقوت ، معجم ٥ / ١٨٤ .

(١١) النابلسي ، الحقيقة ٢٦ ، ٢٧ .

(١٢) زكريا ٢٢٣ .

٥٥_ مقرى :

قرية بالشام من نواحي دمشق^(١)، تقع إلى الشرق من الصالحية^(٢) بين نهرى يزيد و ثورا أسفل حي الأكراد و تبعد عن طاحون الأشنان إلى جهة الشرق نصف كم و كانت إحدى الطرق المؤدية إلى جبل قاسيون^(٣)، وقد بقيت القرية عامرة إلى منتصف القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي حيث شاهد ابن طولون خرابها^(٤). و مقرى في الأصل اسم لمخلاف^(٥) من مخاليف اليمن نزل أهله في سفح قاسيون و سماوا تلك الجهة باسم مخلافهم "مقرى"^(٦). و كلمة "مقرى" يونانية الأصل، أصلها "مكرى" بمعنى المستطيلة^(٧).

٥٦_ المنيحة :

قرية من قرى دمشق بالغوطة^(٨)، تقع على بعد أربعة أميال شرق المدينة^(٩)، يوجد بها قبر الصحابي الجليل سعد بن عبادة^(١٠). وكان ابن طولون في أيامه خطيباً بجامعها، ووصفها بأنها تقصد من قبل الناس للزيارة و التنزه^(١١).

٥٧_ منين :

قرية في جبل سنير من أعمال دمشق^(١٢)، تقع شمال جبل قاسيون^(١٣)، وهي قرية جبلية و عرة تحيط بها الجبال من كل الاتجاهات^(١٤)، وكان لهذه القرية في العصر المملوكي دور هام في تخزين الثلج ونقله

(١) باقوت ، معجم ٥ / ٢٠٢ .

(٢) ابن طولون ، ضرب ١٦١ .

(٣) دهمان ، في رحاب ٣٢ .

(٤) ابن كان ، الموج ١٢ .

(٥) المخلاف : جمه مخاليف وهو الصقع أو الناحية أو البقعة التي يتشكل فيها قرى و محال كثيرة ، و كلمة مخلاف تستخدم في لغة أهل اليمن . (الخطيب ٣٧٣) .

(٦) دهمان ، في رحاب ٣٢ .

(٧) المعلوف ٣٤٩ .

(٨) باقوت ، معجم ٥ / ٢٥١ ؛ البغدادي ٣ / ١٣٢٦ .

(٩) ابن بطوطة ١١٧ .

(١٠) ابن الجوزاني ١٣٨ .

سعد بن عبادة : هو سعد بن عبادة بن دليم بن حارثه بن أبي خزيمه بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة من الأنصار و يكنى أبا ثابت ، شهد الغزوات مع الرسول (ص) كلها إلا بدر ، توفي سنة ١٥ هـ / ٦٣٦ م ، وكان سعد بن عبادة أحد السبعين الذين بسايعوا الرسول بيعة العقبة الثانية . (ابن سعد ٧ / ٢٧٣)

(١١) ابن طولون ، ضرب ١٦٠ .

(١٢) باقوت ، معجم ٥ / ٢٥٢ ؛ ابن الجوزاني ١٤٢ ؛ النابلسي ، الحقيقة ٢١ .

(١٣) البدري ٣٤٥ .

(١٤) زكريا ٣٩٦ .

إلى القاهرة، إضافة إلى تزويد دمشق بما تحتاجه منه^(١). ويظهر أن سكان القرية كانوا حتى القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي من النصارى، فقد ذكرها السائح الإيطالي لودفيكو دي فارتيمما Lodvicodi Wartima حينما مر بها سنة ٩٠٩هـ/١٥٠٣م قادما من حلب، فقال: "على بعد ستة عشر ميلا من دمشق وجدت بلدة أخرى تدعى مونين شيدت على ذروة جبل، سكانها نصرلى من طائفة الروم في حكم ملك دمشق، وفي هذه البلد كنيسة حيلتان يقال إن القديسة هيلانه أم قسطنطين بنتهما، وهذه البلدة وافرة المحاصيل، وفيها بساتين كثيرة ومياه و فواكه و أعناب طيبة"^(٢).

٥٨_ الميطور :

من قرى دمشق^(٣)، تقع بسفح قاسيون شرقي قرية مقرى، كانت قديما مزرعة لسليمان^(٤) بن عبد الملك الخليفة الأموي^(٥).

٥٩_ النيك :

قرية مليحة بذات الذخائر بين حمص و دمشق^(٦)، وتقع إلى الشمال من مدينة دمشق على بعد ٧٧ كم منها^(٧)، وتبعد عن حمص مسافة ٨٣ كم^(٨). وفي القرية عين ماء عجيبة باردة في الصيف صافية طيبة عذبة يقولون أن مخرجها من قرية يبرود^(٩)، وصفها ابن جبير بقوله: "قرية بها ماء جار ومحرت متسع"^(١٠). ويحيط بالنيك من جهة الجنوب سهل فسيح مستطيل الشكل اسمه سهل المليطة، و من جهة الشمال سهل يدعى "ذات الذخائر" أو "وادي الذخائر" وقد امتلأ معظمه بالبساتين و الكروم والحقول الممتدة حتى حدود قرية دير عطية^(١١).

٦٠_ النيطون :

محلة بدمشق شرقي باب جيرون^(١٢).

-
- (١) البدرى ٣٤٥ .
 (٢) زكريا ٤٠٠ .
 (٣) باقوت ، معجم ٢٨٢ / ٥ .
 (٤) سليمان بن عبد الملك : هو سليمان عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي ، ولد بالمدينة ونشأ بالشام، بويع بالخلافة سنة ٩٦هـ/٧١٤م، توفى سنة ٩٩هـ/٧١٧م عن خمس و أربعين سنة .(ابن كثير ١٥١/٩).
 (٥) دهمان ، في رحاب ٣٣ .
 (٦) باقوت ، معجم ٣٠٠/٥ ؛ البغدادي ٣ / ١٣٥٤ ؛ النابلسي، الحقيقة ٢٨ .
 (٧) الحصني ١٠٦٦/٣ .
 (٨) زكريا ١١٠ .
 (٩) باقوت ، معجم ٣٠٠/٥ ؛ البغدادي ٣/١٣٥٤ .
 (١٠) ابن جبير ٢٢٣ .
 (١١) زكريا ١١١ .
 (١٢) البغدادي ٣ / ١٤١٠ .

٦١- النيرب :

قرية مشهورة بدمشق على نصف فرسخ منها وسط البساتين^(١)، وهي من قرى الغوطة ، تقع غربي الصالحية^(٢)، على سفح جبل قاسيون^(٣). وصفها كل من ابن جبير و ابن بطوطة فقالا عنها : «وبأسفل الربوة قرية النيرب و قد تكاثرت بساتينها و تكاثفت ظلالها و تدانت أشجارها فلا يظهر من بنائها إلا ما سما ارتفاعه...»^(٤). وعدها البدرى من محاسن الشام و سماها النيرين و وصفها في أيامه بأنها «أعظم المحلات و أخضرها و أنضرها حسنة الإثمار كثيرة الأزهار و بها سوقة و حمام يقال له حمام الزمرد و جامع بخطبة وهي مسكن الرؤساء و الأعيان»^(٥).

والنيرب كلمة سريانية معناها الوادي و لكن يراد بها سفح قاسيون مما يلي الربوة، أما تسميتها بالنيرين فيراد بذلك: النيرب الأعلى بين هجري يزيد وثورا، والنيرب الأسفل ما بين ثوري وبردى^(٦).

وقد ذكرها أبو المطاع و جيه الدولة بن حمدان في شعر له و سماها النيرين فقال :

سقى الله أرض الغوطين و أهلها فلي بجنوب الغوطين شجون
فما ذكرتها النفس إلا استخفني إلى برد ماء النيرين حين^(٧)

٦٢- يبرود :

بليدة بين حمص و بعلبك فيها عين جارية عجيبة باردة، و بها فيما قيل سميت ، و تجري تحت الأرض إلى الموضع المعروف بالنبك^(٨).

ذكرها النابلسي في رحلته فقال: «... ثم توجهنا إلى قرية يبرود المحروسة، ذات الرحاب المأنوسة، و المياه الجارية بين الرياض و البساتين و النسائم العطرة بروائح الزهور و الرياحين»^(٩).

و تعتبر يبرود أقدم بلدان القلمون و أكبرها بنيانا و أكثرها سكانا و عمرانا و يقال بأنها كانت مصيفا لزنوبيا ملكة تدمر^(١٠).

(١) ابن حوقل ١٧٤/١؛ ياقوت ، معجم ٥ / ٣٨٠-٣٨١ ؛ البغدادي ٣ / ١٤١٠ .

(٢) ابن طولون ، ضرب ١٦٦ .

(٣) كرد على ، غوطة ٢٤٨ .

(٤) ابن جبير ٢٤٩ ؛ ابن بطوطة ١٢٠ .

(٥) البدرى ٨٠ .

(٦) دهمان ، في رحاب ٢٧-٢٨ .

(٧) ياقوت ، معجم ٥ / ٣٨١ ؛ دهمان ، في رحاب ٢٨ .

(٨) ياقوت ، معجم ٥ / ٤٨٩ ؛ البغدادي ٣ / ١٤٧٢ .

(٩) النابلسي ، الحقيقة ٢٧ .

(١٠) زكريا ١٥٤ .

الفصل الثاني

الإدارة والوظائف في نيابة دمشق

ومن واجبات النائب في دمشق و التي تناط به من قبل السلطان في القاهرة : إصدار القرارات باسم السلطان وأحيانا أخرى باسمه هو ، وإصدار وتوقيع التقاليد و التواقيع و المناشير^(١) ، و تفقد أحوال الرعية^(٢) . و من واجباته أيضا الإشراف على أمور القرى و الغلات و إيصال الحقوق إلى مستحقيها من ذوي المناصب و الكفاية و الحاجة^(٣) ، و تنفيذ الأحكام الشرعية^(٤) ، و تفقد الجيش و الركوب على رأس فرق الجيش في المواكب الرسمية إضافة إلى تحصين البلاد و إعمارها^(٥) ، و تعيين إقطاعات الجند^(٦) ، و حفظ المسالك ، و تسهيل مهمات البريد^(٧) ، و الاهتمام بالعلم و العلماء^(٨) ، و تولية المناصب لأهلها^(٩) ، و إقامة فقيه في كل قرية لا يوجد فقيه فيها يعلمهم أمور دينهم^(١٠) ، و دفع أهل البدع و الأهواء ، و كشف شرهم عن المسلمين^(١١) .

و يلاحظ في وظيفة نائب السلطنة أنها تشمل على نائب الحضرة و نائب الغيبة و الكافل ، و كان ابن فضل الله العمري دقيقا في تحديده للجانب القبي لهذه الاختلافات الاصطلاحية : فوظيفة نائب الحضرة تماثل رتبة الوزير بالحضرة المصرية ، أما نائب الغيبة فهو الذي يترك في السلطنة إذا غاب السلطان ، أما الكافل فينأى به إخماد الثورات و الحفاظ على الحقوق و خاصة حقوق السلطنة ، و كانت الصفة الغالبة على نواب الشام أن يكون كافلا للممالك الإسلامية المحروسة ، و عادة لا يطلق لفظ كافل إلا حين تكون المنطقة في حالة فوضى و تفجر ثورات ، و هذا يستدعي ضبط الأمور فيها ، أما عند استقرار الأحوال و هدوء المنطقة فيخاطب بصفة النائب^(١٢) .

من الواضح أن تلك المكانة التي كان يتمتع بها نائب دمشق في عصر المماليك ، كان من الممكن أن تصبح مصدر خطر على السلطان نفسه ، لذلك حرص سلاطين المماليك على فرض رقابة شديدة

(١) العمري ، التعريف ١٢٢ ، ١٨٥ .

المناشير : مفردا منشور ، و هو عبارة عن أمر سلطان مكتوب بإقطاع من أرض على أربعة أصناف يكتب كل منهما على قطع معين من الورق يختلف باختلاف طوائف رجال الدولة ، و هو من المكاتبات التي لا تحتاج إلى ختم كالمكتوب بالولاية أو الحماية أو الإقطاع . (القلقشندي ، صبح ٦ / ٢١٣-٢١٤) .

(٢) العمري ، التعريف ١٢٣ ، السبكي ، معيد ٢١ .

(٣) السبكي ، معيد ٢١ ، ابن طولون ، نقد ٣٥ .

(٤) العمري ، التعريف ١٢٢ ، القلقشندي ، صبح ١١ / ١٤٦ ، ١٧ / ١٢ ، ابن طولون ، نقد ٣٥ .

(٥) العمري ، التعريف ١٢٢ ، القلقشندي ، صبح ٤ / ٢٠٢ ، ١١ / ١٤٦ ، ١٢ / ١٧٠ .

(٦) القلقشندي ، صبح ٤ / ١٩١ .

(٧) السبكي ، معيد ٢١-٢٤ ، القلقشندي ، صبح ١٢ / ٦-٩ .

(٨) القلقشندي ، صبح ١١ / ١٧ .

(٩) السبكي ، معيد ٢١ ، ابن طولون ، نقد ٣٥ .

(١٠) السبكي ، معيد ٢٢ ، ابن طولون ، نقد ٣٥ .

(١١) السبكي ، معيد ٢٢ ، ابن طولون ، نقد ٣٥ .

(١٢) العمري ، التعريف ٨٥-٨٦ .

على نوابهم في الشام عامة ودمشق خاصة ، فكان السلطان يحرص دائما على التدخل في شؤونهم لإشعارهم بوجوده ومراقبته لهم، ولم يكنف السلطان أن يكون صاحب ديوان الإنشاء عينا له على النائب، بل كان يجعل من نائب القلعة عينا أخرى له على النائب، كما أن نائب القلعة باستطاعته مقاومة النائب إذا حدثته نفسه بالخروج على السلطان^(١).

٢_ الحاجب :

تعني الحجوية قيادة الجيش^(٢)، وتعد هذه الوظيفة من أهم وظائف أرباب السيوف، وقد عدها ابن فضل الله العمري في المرتبة الثانية من فئة أرباب السيوف بعد مقدمي الألو، وأشار إليها باسم "قسم الطبلخانات"^(٣)، وله عدة سبعين فارسا أو ممانين أو نحو ذلك^(٤). ولذا فمنصب الحجوية يأتي بعد منصب نيابة السلطنة في المرتبة، وكان عدد الحجاب في نيابة دمشق أيام السلطان الناصر قلاوون ثلاثة، أكبرهم كان يدعى حاجب الحجاب الذي يعتبر نائب السلطنة في حالة غياب النائب عنها، وكذلك في حالة وفاته إلى حين تولية نائب جديد، وإليه يأتي الأمر بالقبض على نائب السلطنة إذا أراد السلطان ذلك^(٥).

ومن واجباته أن يقوم بالنظر في مخاصمات الجنود واختلافاتهم في أمور الإقطاعات^(٦)، كما ينصف بين الأمراء والجنود^(٧) تارة بنفسه وتارة بمراجعة النائب إن كان ، وإليه تقدم من يعرض ومن يرد، وعرض الجنود وما ناسب ذلك^(٨)، وعليه رفع الأمور إلى الشرع^(٩)، ويتم تولية الحاجب عن طريق السلطان^(١٠)، كما "يشترط عليه أنه كلما بلغه من الشكاوى ورفعت إليه لا يخفيها عن السلطان، ويشترط عليه أيضا أن لا يتكلم في شيء من الأحكام الشرعية فإنه لا يعرف حكم الله فيها فيحكم بالسياسة"^(١١).

(١) العمري ، التعريف ١٢٧ ؛ القلقشندي ، ص ١٩١/٤ .

(٢) السبكي ، معيد ٤٠ .

(٣) طبلخاناه : مرتبة حربية من مراتب أرباب السيوف وصاحبها يلي أمير مائة، مقدم ألف في الدرجة وسمي أمير طبلخاناه لأحقيته في دق الطبول على أبوابه ، كما يفعل السلاطين وأمراء المئين ، ويطلق عليه أيضا أمير أربعين بمعنى أن يكون في خدمته أربعين وقد يزيد هذا العدد إلى سبعين أو ممانين مملوكا . (العمري ، التعريف ٩٧ ؛ القلقشندي ، ص ١٣٧/٤ ؛ القرظي ، الخطط ٣/٣٨٥، ٣٨٠ ؛ الظاهري ١١٣ ؛ البقلي ، التعريف ٥٠ ؛ دهمان ، معجم ١٠٦ ؛ عاشور ، العصر ٤١٤) .

(٤) العمري ، التعريف ٩٦_٩٧ ، مسالك ، دولة ١١٤ .

(٥) القلقشندي ، ص ١٩٢/٤ .

(٦) المصدر نفسه ٢٠ / ٤ .

(٧) العمري ، مسالك ، دولة ١١٧ ؛ القلقشندي ، ص ٢٠/٤ ؛ البقلي ، التعريف ٩٧ ؛ دهمان ، معجم ٥٩ .

(٨) السبكي ، معيد ٤٠ .

(٩) الطرسوسي ، تحفة ٨٨ .

(١٠) المصدر نفسه ٨٨ .

ولأهمية منصب الحاجب قال عنه العمري في «مسالك الأبصار»: «وهو المشار إليه في الباب والقائم مقام النواب في كثير من الأمور»^(١).

٣_ الأستاذار :

اعتبر ابن فضل العمري وظيفة الأستاذار «أستاذ دار» في المرتبة الثالثة من فئة أرباب السيوف بعد مقدمي الألوف، فيقول بأن له عدة سبعين فارساً أو ثمانين أو نحو ذلك^(٢).

والأستاذار : هو من يتكلم في إقطاع الأمير مع الدواوين و الفلاحين وغيرهم، وعليه ألا يطعمه حراماً ولا يبيع أستاذه رخيصاً، وأن يرفق بأهل القرى، ويؤدي أمانة الله تعالى التي علقها في رقبته حيث يدخل في هذه الوظيفة الفلاحون وغيرهم من رعية الأمير^(٣).

وقد حدد ابن فضل الله وظائف الأستاذار ومهامه من خلال وصية له، أوردتها في «التعريف»، ومنها : تفقد أحوال الحاشية على اختلاف طوائفها، وأنواع وظائفها، والإشراف على مطبخ السلطان من مشروب و طعام، وملابس سلطانية، ومن خزنة السلطان «الطشتخاناه»^(٤)، وفراش السلطان «فراش خاناه»^(٥)، وغللمان الإصطبل، و المناخات السلطانية^(٦)، وما يسرح بها من مال وجمال، و طوائف المعاملين، وما عليها، و زرابي الغنم و خولتها و رعاتها، وعليه كذلك الإشراف على الممالك السلطانية و ما يصرف في كساوبهم، وأن يتحرى التقوى عند قيامه بهذه المهمة^(٧).

٤_ نائب القلعة بدمشق :

وتعد نيابة القلعة بدمشق مستقلة ومنفردة عن نيابة السلطنة^(٨)، ويتم تعيين نائب القلعة من قبل

السلطان، ورتبته أمير طبلخاناه^(٩).

(١) العمري ، مسالك، دولة ١١٧ .

(٢) العمري ، التعريف ٩٦-٩٧ .

(٣) السبكي، معيد ٢٦-٢٧ ؛ ابن طولون، نقد ٦٠ .

(٤) الطشتخاناه : أي بيت الطشت ، وفيه يكون أنواع الطشت اللازمة لغسل الأيدي و القماش وغيرها ، فضلاً عن المقاعد و المخاد و السجادات التي تلزم السلطان، وللطشتخاناه مهتار يشرف عليه. (القلقشندي، صحح ٩/٤-١٠؛ البقلي ، التعريف ٢٣١-٢٣٢؛ عاشور، العصر ٤٥٥)

(٥) الفراش خاناه : بيت الفراش ، وكانت تشتمل على أنواع الفرش من البسط و الحيام اللازمة للسلطان في أسفاره و إقامته خارج القلعة. (القلقشندي، صحح ٤/١٠-١١؛ البقلي ، التعريف ٢٦٠-٢٦١؛ عاشور، العصر ٤٥٩)

(٦) المناخات السلطانية : وهي حواصل الجمال. (القلقشندي، صحح ٣/٥٤٩؛ المقرئ، الخطط ٣/٣٩١؛ البقلي ، التعريف ٣٣١؛ عاشور ، العصر ٤٧٧ .

(٧) العمري ، التعريف ١٢٧-١٣٠ .

(٨) العمري ، التعريف ١٢٥؛ القلقشندي ، صحح ٤/١٩١ .

(٩) العمري ، التعريف ١٢٥، ٢١٢ .

ومن أهم الأعمال الموكلة إليه أن يحصن القلعة و يكتم سرها و يدافع عنها^(١)، كما يقوم بتشديد أقيمتها و تجديد أبنيتها و حفظ ذخائرها وقت الشدائد، و يوعز بإغلاق أبوابها و فتحها و تفقد متجدياتها في كل صباح و مساء و إقامة الحرس و الاستمرار في الحذر ممن قد يتسور و يجتلس الأخبار، كما يقوم بإرسال الأخبار إلى السلطان بالقاهرة ، و الرد على ما يأتيه منه و بسرعة^(٢)، و كان لنائب القلعة جنود مقيمين معه في القلعة و لا يتصلون بدار نيابة السلطنة في المدينة^(٣)، و ذلك لأن السلطان كان يجعل من نائب القلعة عيناً له على النائب إذا حدثت نفسه بالخروج على السلطان^(٤). و من مهام نائب القلعة أيضاً المحافظة عليها بعدم تسليم مفاتيحها إلا لمن يتولى أمرها من بعده، أو لمن يأمر السلطان بذلك، و ما يرافق ذلك من عناية بها و التحوط على حواصلها و ذخائرها و ما فيها من سلاح و أقوات مع ضرورة استخدامها في الأمور التي وفتت من أجلها^(٥).

و كانت رتبة نائبها في البداية مقدم ألف، ثم استقرت بعد ذلك طبلخاناه^(٦)، و حمل نائب القلعة لقب "نائب القلعة المنصورة بدمشق المحروسة" أو "نائب قلعة دمشق"^(٧)، و كان يتم تحليف نائب القلعة بأن يبقى مخلصاً للسلطان و على عهده معه^(٨).

و من أهم الوظائف الأخرى في قلعة نيابة دمشق، و التي تأتي بعد منصب نائب القلعة و وظيفة نقيب القلعة : و يرد هذا المنصب كتكميل لمهمة نائب القلعة من حمايتها و تحصينها، و تعد وظيفة نقيب القلعة من الوظائف العسكرية بدمشق، و كان يختار من بين أمراء العشرات^(٩)، و على نقيب القلعة أن يحلف اليمين الذي يحلفه نائب القلعة^(١٠).

(١) العمري ، التعريف ١٢٥-٢١١، ٢١٢ .

(٢) المصدر نفسه ١٢٦-١٢٧ .

(٣) القلقشندي ، صبح ١٩١/٤ .

(٤) المصدر نفسه ١٩١/٤ .

(٥) العمري ، التعريف ١٢٥-١٢٧ ؛ القلقشندي ، صبح ١٩١/٤ ؛ الخالدي ١٤٦ .

(٦) القلقشندي ، صبح ١٩١/٤ .

(٧) المصدر نفسه ١٨٤/٧-١٨٥ .

(٨) العمري ، التعريف ٢١١-٢١٢ .

(٩) القلقشندي ، صبح ١٩١/٤ .

أمراء العشرات : مرتبة حربية يكون في خدمة صاحبها عشرة عماليك، و صغار الولاة من أمراء هذه المرتبة. (القلقشندي ، صبح ١٩٤/٤ ، الظاهري ١١٣ ؛ ابن أجا ١٦٤-١٦٥).

(١٠) العمري ، التعريف ٢١١-٢١٢ .

٥_ نقيب الجيش :

كان في نيابة دمشق ثلاثة أمراء من نقيب الجيش، أكبرهم يعبر عنه «نقيب النقباء»، أما رتبته فتلوة يكون أمير بطلخاناه وفي غالب الأوقات يكون أمير عشرة، ودونه اثنان من جند الحلقة^(١)، ويكتب لكل منهم توقيع كريم عن النائب على قدر رتبته^(٢)، وهذه الوظيفة من وظائف أرباب السيوف^(٣). وكان نقيب الجيش يتكفل بإحضار من يطلبه السلطان من الأمراء وأجناد الحلقة وغيرهم^(٤)، «فهو كأحد الحجاب الصغار وله تحلية الجند في عرضهم، ومعه تمشي النقباء، وإذا طلب السلطان أو النائب أو الحاجب أميراً أو مقدماً قالوا له: أرسل إليه و احضره، وإذا أمروا بالترسيم على أحد من هؤلاء أمروه فرسم عليه، وهو ممن يطلب بالخرزانة في الموكب وفي السفر»^(٥).

٦_ ولاية المدينة :

وموضوعها التحدث في أمر الشرطة كما في سائر الولايات^(٦)، وعادتها إمرة عشرة، وربما وليها جندي، ويكتب بها توقيع كريم عن النائب^(٧)، وكان والي المدينة يلقب بلقب «أمير الجيوش»^(٨). ومن واجباته القبض على اللصوص ومعاقبتهم، والكشف عن المنكرات من الخمر والحشيش^(٩)، والمحافظة على أرواح الناس وأموالهم، وكان من حقه جلد المخالفين للشريعة بالعصا، ولا يسمح له بالتحسس على الناس، وهتك حرمت بيوتهم بحجة البحث عن المنكر، وكان يساعده عدد من رجال الشرطة والحراس والعسس^(١٠)، ويقوم بالحفاظ على أمن المدينة وكان يشرف عليه شخصياً، فيتفقد الحارات في الليل، وكانت مدينة دمشق وضواحيها باستثناء القلعة تحت إشرافه^(١١).

(١) أجناد الحلقة: من أهم أقسام الجيش المملوكي من حيث حيازة الإقطاعات، ومنهم كان قلب الجيش المملوكي والأصل في التوزيع الإقطاعي، ويبلغ إقطاع الواحد من مقدمي الحلقة في مصر ١٥٠٠ دينار في السنة، أما أجناد الحلقة فمتوسط عبء إقطاع الجندي منهم ٢٥٠ ديناراً في السنة، أما إقطاعات الشام فتكون بمقدار الثلث مما تقدم. (النويري ٢٠٣/٨؛ القلقشندي، صبح ٥٢/٤

؛ المقرزي، الخطط ٣/٣٨١؛ الظاهري ١١٦؛ ابن أجا ١٦٨؛ طرخان ٥٢٥. Ayalon, Halqa 3/941;

(٢) القلقشندي، صبح ١٩٣/٤.

(٣) العمري، مسالك، دولة ١١٤.

(٤) القلقشندي، صبح ٤٢٨/٥.

(٥) العمري، مسالك، دولة ١١٩؛ المقرزي، الخطط ٣/٣٨٨.

(٦) العمري، مسالك، دولة ١١٩؛ القلقشندي، صبح ١٩٤/٤؛ المقرزي، الخطط ٣/٣٨٨.

(٧) القلقشندي، صبح ١٩٤/٤.

(٨) الباشا، الألقاب ٧١.

(٩) السبكي، معيد ٤٣.

(١٠) غوائمه، تاريخ نيابة ٣٤.

(١١) زيادة، دمشق ١٥٤.

٧_ شاد الدواوين :

وموضوع هذه الوظيفة التحدث في استخراج الأموال السلطانية^(١)، التي تشمل الخراج والعشور والغنائم^(٢)، كما يرافق الوزير بمراجعة حساباتها وتدقيقها^(٣).

وقد كانت إمرة هذه الوظيفة في البداية «طبلخاناه» ثم استقرت «إمرة عشرة»، وفي القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، كان يتولى أمرها جندي من أجناد الحلقة، ويكتب لتوليها توقيع كرم عن النائب^(٤).

٨_ شاد^(٥) المهمات :

وهي رتبة جليلة، وموضوعها التحدث في أمور الاحتياجات السلطانية، وتارة لنائب السلطنة بدمشق، وتارة لحاجب الحجاب، وتارة لبعض الأمراء من المقدمين و الطبلخانات، بحسب ما يقتضيه رأي السلطان^(٦).

٩_ نقيب^(٧) النقباء :

ويشغل هذا المنصب نقيان أحدهما لليمنة و الآخر للميسرة^(٨).

١٠_ المهندار :

حدد القلقشندي عمل المهندار بقوله : «المهنداريه_وموضوعها تلقي الرسل الواردين و أمياء العربان وغيرهم ممن يرد من أهل المملكة وغيرها»^(٩).

(١) القلقشندي، صبح ٤ / ١٩٣ .

(٢) الظاهري ٩٤ .

(٣) القلقشندي، صبح ٤ / ١٩٣ .

(٤) القلقشندي، صبح ٤ / ١٩٣؛ الخالدي ١٤٦ أ .

(٥) الشاد : مفرد، جمعه مشدبه، من الشد بمعنى الضبط و التفطيش، و الشاد موظف من العصرين الأيوبي و المملوكي، كانت الدولة تعهد إليه بالقيام ببعض الأعمال التي يضاف اسمها إلى هنا اللقب، كشاد الخاص وشاد الزرد خاناه وشاد الأوقاف... . (ابن كنان، حدائق ١٣٢؛ ضومط ٣٨٢؛ الخطيب ٢٦٥).

(٦) القلقشندي، صبح ٤ / ١٩٢؛ الخالدي ١٤٦ أ .

(٧) النقيب : لغة : أمين القوم ومقدمهم الذي يتعرف أخبارهم و ينقب عن أحوالهم، قال تعالى : ((وبعثنا منهم اثني عشر نقيساً)) وفي العصر الإسلامي اصبح هذا اللقب مركبا بعد ما اضيف إليه اختصاص حامله، فقبل : نقيب الجيش لمن كانت إليه إمسة الجند، وفي العصر الأيوبي اصبح بحد ذاته رتبة عسكرية حاملها من مرتبة أمراء العشرات، وفي العصر المملوكي انحطت هذه المرتبة ليصبح حاملها من مرتبة أمراء الخمسات، وفي هذا العصر ((المملوكي)) كان يطلق لقب نقيب الممالك على الشخص الذي كان له الحكم بين الممالك و النظر فيما كان يشجر بينهم من خصومات. (ابن كنان، حدائق ١٣٤؛ ضومط ٣٨٤؛ الخطيب، ٤٢٥).

(٨) القلقشندي، صبح ٤ / ١٩٢ .

(٩) القلقشندي، صبح ٤ / ٢٢؛ الخالدي ١٤٦ أ .

ويلاحظ بأنه في فترة نيابة الأمير تنكز أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون، كان في نيابة دمشق مهندار واحد، ورتبته مقدم ألف، «ثم استقرت في الدولة الأشرفية شعبان^(١) بن حسين ابن الناصر محمد نفرين وظلت على ذلك في القرن التاسع، حيث كان أحدهم من رتبة أمير عشرة^(٢) والآخر «جندي» ويكتب لكل منهما توقيع كريم عن النائب^(٣)».

١١_ الخزندار :

تحدث القلقشندي عن مهام الخزندار بقوله : «الخزندارية _ وموضوعها التحدث على الخلع^(٤) والتشريف^(٥) السلطانية وعادتها أربعة طواشيه^(٦) خصيان بعضهم أعلى من بعض، أحدهم في رتبة أمير طبلخاناه والثاني دونه، والثالث دونه، والرابع دونه، وكل منهم له توقيع كريم من نائب السلطنة بدمشق على قدر رتبته^(٧)». ومن واجباته: «ألا يمطل من أحيل إليه، بل يدفع إليه ما أمر له به مهتاً^(٨)».

١٢_ شاد الأوقاف :

وموضوعها التحدث على أوقاف المسلمين بدمشق، وعادتها إمرة عشرة، وربما كانت طبلخاناه، ويكون لمتوليها توقيع كريم عن النائب^(٩).

(١) شعبان بن حسين : هو الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون، قرر في السلطنة بعد خلع ابن عمه الملك المنصور ابن المظفر حاجي سنة ٥٧٦٤هـ/١٣٦٢م، و كان في أول أمره لا تصرف له وإنما الحكم ليلغا، ثم أن يلغا قتل بسأيدي مملكه عام ٥٧٦٨هـ/١٣٦٦م ، حج عام ٥٧٧٨هـ/١٣٧٦م وبعد أدائه فريضة الحج، قتل في أواخر عام ٥٧٧٨هـ/١٣٧٦م .
(ابن حجر ، اللور ١٩٠/٢-١٩١)

(٢) القلقشندي ، صبح ٤ / ١٩٤ .

(٣) الخلع : الخلعة لغة : ما يخلعه الخليفة أو الأمير على أحد الناس من الثياب الفاخرة ، وهي اصطلاح متداول عند العرب منذ العصر الجاهلي بحيث كان ملوكهم يخلعونها على شاعر مادح أو على رجل احسن في قول أو عمل ، وقد استمرت بهذا المعنى طيلة العصر الإسلامي والحديث ، إذ كان الخلفاء يمنحونها لأكابر الدولة و المقرين إليهم من أدوا خدمات مميزة للدولة، وقد أصبحت خلعة التشريف في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي بمثابة هدية شائعة، إلى حد أنه أمكن لموظفي الدولة اعتبارها حقاً مكتسباً كمرتباتهم، والخلعة قد تكون عينا أو نقداً، وعلى الأغلب هي لباس مؤلف من جبة مطرزه و عمامة و طيلسان و سيف و البدر والدنانير، (العمرى، مسالك، دولة ١٣٠-١٣٤؛ القلقشندي، صبح ٤/٥٤-٥٧؛ ماير ١٠١؛ عطية الله ٢/٢٧٢؛ الخطيب ١٦٥).

(٤) التشريف : عبارة عن ملابس خاصة فاخرة كان ينعم بها السلطان المملوكي في مصر على كبار رجال الدولة من أمراء و نواب وقادة ، و يختلف التشريف باختلاف رتبة الأمير و أعلاها تلك التشريف المختصة بأرباب السيوف، وكانت تمنح في مناسبات خاصة كولية صاحبها وظيفة جديدة ، أو في الأعياد. (القلقشندي ، صبح ٤ / ٥٣-٥٥).

(٥) الطواشية : هم الخصيان الذين استخدموا في الطباق المملوكية وفي الحرم السلطاني وكانت لهم حرمة وافرة وكلمة نافذة، ويعد شيخهم من أعيان الناس. (السبكي ، معيد ٣٩ ؛ ابن الجيعان ٨٤ ، ح ٤٢٠؛ المقرئ، الخطط ٣/٣٧٢-٣٧٣؛ عاشور ، العصر ٤٥٥ ؛ الخطيب ٣٠٨).

(٦) القلقشندي ، صبح ٤ / ١٩٢-١٩٣ .

(٧) السبكي ، معيد ٢٦ ؛ ابن طولون ، نقد ٦٠ .

(٨) القلقشندي ، صبح ٤ / ١٩٣ .

١٣_ شاد الزكاة :

كانت مهمة صاحب هذه الوظيفة النظر في جمع الزكاة من كل مسلم مكلف بدفعها، كما كان يجمع من التجار العشور المفروضة على التجارة وخاصة من تجار الكارم^(١) ونحوه، وكانت رتبها إمرة عشرة، و يكتب لمتوليها توقيع كريم عن النائب^(٢).

١٤_ شاد الخاص :

والخاص : هي الخزانة، وكانت أولا كبيرة الوضع لأنها مستودع أموال المملكة، فلما استحدثت وظيفة الخاص، صغر أمر الخزانة، وسميت بالخزانة الكبرى، وهو اسم فوق مسماه، لأنها كانت لا تحوي إلا خلع تخلع منها أو ما يحضر إليها، وفي الغالب يكون ناظرها من القضاة أو من يلتحق بهم ولناظر الخزانة اتباع يولون عن السلطان، مثل صاحب ديوان الخزانة^(٣)، و عادة متولي شد الخاص أن تكون مرتبه أمير طبلخاناه أو أمير عشرة^(٤).

١٥_ شاد العشر :

و موضوعها التحدث في المكوس المفروضة على البضائع التي يدخلها التجار الفرنج، وقيمتها العشر، وكانت رتبة شاد العشر في البداية إمرة عشرة، ثم أصبحت مرتبه في القرن التاسع جندي، و يكتب لمتوليها توقيع كريم عن النائب^(٥).

١٦_ شاد الطعم :

وهي بمثابة الوكالة في الديار المصرية، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم، وعادة رتبة متوليها أن تكون إمرة عشرة، أو مقدم^(٦) حلقة، أو جندي، و يكتب له توقيع كريم عن النائب، ويقوم شاد دار الطعم بجباية المكوس^(٧) من التجار^(٨).

(١) تجار الكارم: فئة من التجار كان يدهم تجارة البهار من الفلفل والقرنفل ونحوهما مما يجلب من الهند عن طريق نفور اليمن، فعرفوا بذلك، وكان معظمهم في الأصل من بلاد الكاتم الإسلامية التي تقع بين بحر الزغال و بحيرة تشاد بالسودان الغربي فنسبوا إلى أصلهم الجغرافي بعد تحريفه إلى ((الكارم)) ثم أطلق ذلك اللفظ على جميع من مارس تلك التجارة بمصر. (القلقشندي، صبح ٥٣٦/٥، ٥٣٧؛ ابن كان، حدائق ٩٠؛ البقلي، التعريف ٧٣).

(١) القلقشندي، صبح ٤/ ١٩٣.

(٣) القلقشندي، صبح ٤/ ٢٣١؛ البقلي، التعريف ١١٣-١١٤.

(٤) القلقشندي، صبح ٤/ ١٩٣.

(٥) المصدر نفسه ٤/ ١٩٣.

(٦) المقدم: مرتبة وظيفية مرموقة، ظهرت منذ العصر الأيوبي، قد يكون صاحبها من العسكريين، أو من الموظفين الكبار المتميزين باعتباريات خاصة، وقد يضاف إلى هذا اللفظ اسم الوظيفة فيقال: مقدم التركمان، مقدم الخاص، مقدم الدولة.

(دحمان، معجم ١٤٢؛ الخطيب ٤٠٣).

(٧) المكوس: مفرد ما مكس، وهي ضريبة يأخذها المكاس ممن يدخل البلد من التجار و الفلاحين على البضائع القادمين لها.

(القلقشندي، صبح ٣/ ٥٣٦؛ ضومط ٣٨٤؛ الخطيب ٤٠٦).

(٨) القلقشندي، صبح ٤/ ١٩٣.

١٧_ أمير آخورية^(١) البريد :

ومهمته التحدث على خيول البريد بدمشق و نواحيها، وكانت رتبته منذ عهد الناصر محمد بن قلاوون حتى القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي إمرة عشرة^(٢).

١٨_ مقدم البريد :

وظيفته تتمثل في التحدث على جماعة البريدية بدمشق، وكانت تقدمه البريد في زمن الناصر قلاوون منحصرة في واحد من جملة البريدية، ثم استقر فيها في القرن التاسع للهجرة اثنان، إما إمرة عشرة و إمرة خمسة^(٣)، أو إمرة خمسة وجندي، و يكتب لكل منهما توقيع كريم عن النائب على قدر مرتبته^(٤).

١٩_ شاد المواريث الحشرية :

و موضوعها التحدث على ديوان المواريث الحشرية ممن يموت ولا وارث له، أو له وارث ولكن لا يستغرق ميراثه^(٥)، و مرتبة متولي هذا المنصب "جندي"، ويعين من قبل النائب^(٦).

٢٠_ الأتابكية :

ويعرف صاحب هذه الوظيفة "بأتابك"^(٧)العسكر" وهو أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب الكافل، وليس له وظيفة ترجع إلى حكم و أمر و نهي، وغايته رفعة المحل و علو المقام^(٨).

٢١_ الدوادارية "دوادار النائب" :

الدوادار هو "عمسك الدواة" وتعني المسك أو الموكل بدواة النائب، حيث يكون الدوادار تابعا

(١) أمير آخور :صاحب هذه الوظيفة عمله ((التحدث على إصطبل السلطان و خيوله ، و عادما مقدم ألف يكون متحدثا فيها حديثا عاما، وهو الذي يكون ساكنا بإصطبل السلطان ،ودوته ثلاثة من أمراء الطبلخاناه، أما أمراء العشرات و الأجنساد فغير محصورين. (العمري، التعريف ١٣١ ؛ القلقشندي ، صبح ١٩/٤ ؛ ابن أجا ١٦٤ ؛ عاشور، العصر ٤١٤).

(٢) القلقشندي ، صبح ١٩٤/٤ .

(٣) أمراء الخمسات : مرتبة حرية يكون في خدمة صاحبها خمسة ماليك، وهي اصغر مرتبة من مراتب الأمراء، ويعتبر أصحابها من كبار الأجناد، كانت تمنح هذه الرتبة لأولاد الأمراء المتوقين من باب التثريف. (القلقشندي ، صبح ١٥ /٤ ؛ الظاهري ١١٣ ؛ عاشور، العصر ٤١٤ ؛ البقلي ، التعريف ٤٣).

(٤) القلقشندي ، صبح ١٩٤ /٤ .

(٥) المصدر نفسه ٣٣/٤ .

(٦) المصدر نفسه ١٩٤ /٤ .

(٧) أتابك : أصله أطابك، ومعناه ((الولد الأمير))، وأول من لقب بذلك نظام الدولة وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي حين فوض إليه ملكشاه تدبير المملكة سنة (٤٦٥هـ/١٠٧٢م) بولقبه بألقاب منها هذا اللقب، وقيل أطابك معناه أمير أب، والمراد أبو الأمراء. (القلقشندي ، صبح ١٨/ ٤ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم ١٦٥/٧، ح ١ ؛ ابن أجا ١٦٣ ؛ ابن كنان ، حدائق ١١٣-١١٤ ؛ البقلي، التعريف ١٤؛ الباشا، الألقاب ١٢٢؛ الخطيب ١٧).

Ayalon, Atabak, 1/732;

(٨) القلقشندي ، صبح ١٨/٤ .

لنائب في دمشق، من تبليغ الرسائل و الأوامر و تقديم المناشير، و التواقيع، و حمل الدواة للنائب ليوقع^(١)، يضاف إلى مهامه تلك المشاورة على من يريد الدخول على النائب و مقابلته، و إدخال المتظلمين، كما عليه مراقبة إقطاعات النائب و أمواله و ممتلكاته في دمشق و المناطق المحيطة بها^(٢).

٢٢_ و هناك شذوذ صغار متعددة: يولى بها أجناد بتواقيع لهم عن النائب، كشاد دار البطيخ والفواكه، وشاد المسابك من الحديد و النحاس و الزجاج وغير ذلك، وكان لمطايخ السكر شاد مفرد يولى بتوقيع كريم عن النائب، ثم استقر ذلك مضافا لمن يتحدث على الأغوار من النائب أو غيره^(٣).

ثانيا : أرباب الأقلام^(٤) أو أصحاب الوظائف الديوانية :

١_ الوزارة :

يلي الوزير نائب السلطنة في مدينة دمشق^(٥)، و يتم تعيينه من قبل السلطان^(٦). والوزارة من الوظائف الديوانية، وإذا تولها أحد من أرباب السيوف_ وهذا قلما يحدث_ عين معه ناظر^(٧) مملكة^(٨). ويصف ابن فضل الله العمري في «مسالك الأبصار» الوزارة في عهده قائلا : «... و أما وظائف أرباب الأقلام فأجلها الوزارة لأن رها ثاني السلطان إذا أنصف و عرف حقه، ولكن في هذه المسدد حدث عليها النيابة و تأخرت الوزارة حتى قصد بها مكانها، وقد تقدم قولنا على أنه وليها أناس من أرباب السيوف و الأقلام بأرزاق على قدر الاتفاق، ووظيفة الوزارة أشهر من أن يذكر وضع مباشرها لنفاذ كلمته وتمام تصرفه ولكنها في أخريات هذه الأيام تهقرت حتى كان المتحدث فيه لناظر المال لا يتعدى الحديث في المال، ولا يتسع في التصرف جمال، ولا تمتد يده في الولاية و العزل لتطلع السلطان إلى الإحاطة بجزئيات المال^(٩)».

(١) السبكي، معيد ٢٥؛ القلقشندي، صبح ٤/١٩؛ ابن طولون، نقد ٥٩؛ ابن كان، حدائق ١١٧؛ دهمان، معجم ٧٧.

(٢) العمري، التعريف ٢١٤؛ السبكي، معيد ٢٥-٢٦؛ ابن طولون، نقد ٥٩-٦٠؛ ابن كان، حدائق ١١٧.

(٣) القلقشندي، صبح ٤/١٩٤.

(٤) أرباب الأقلام: وهم الذين يقومون بالأعمال الديوانية في السلطنة و النيابة كديوان الإنشاء في مصر و كاتب السر و الوزير و ناظر الجيش و غيرهم. (العمري، التعريف ٩٨؛ ابن كان، حدائق ١٦٧؛ البقلي، التعريف ٢١).

(٥) العمري، مسالك، دولة ١١٩؛ القلقشندي، صبح ٤/١٩٥.

(٦) القلقشندي، صبح ٤/١٩٥.

(٧) الناظر: وهو من ينظر في الأموال و ينفذ تصرفاتها و يدفع إليها حسابها لينظر فيه و يتأمله و يمضي ما يمضي و يرد ما يرد، وهو مأخوذ إما من النظر الذي هو رأي العين لأنه يدير نظره في أمورها فينظر فيه، وإما من النظر الذي هو بمعنى العكس لأنه يفكر في المصلحة من ذلك، ثم هو يختلف باختلاف ما يضاف إليه، وهو كما يدل عليه اسمه هو الرئيس و المسؤول الأول عن كل ما يجري في الديوان و يرجع إليه جميع الموظفين و لا بد من توقيعه الرسمي على جميع ما يخرج من الديوان من أوراق ديوانية خارجية، وكان الناظر هو المشرف الرسمي على الإيراد و المنصرف في الديوان و لديه جميع البيانات الخاصة بالمتحصلات و المصروفات و البواقي و الفوائض و المتأخرات. (النويري ٢٩٩/٨؛ ابن ماضي ٢٩٨).

(٨) القلقشندي، صبح ٤/١٩٥.

(٩) العمري، مسالك، دولة ١١٩-١٢٠.

ويقوم الوزير بحفظ أموال المملكة والعمل على تنميتها، واستخدام الأشخاص ذوي الكفاءة والثقة ويوليهم أعمالهم ويلزمهم باتباع العدل، و يحرهم من الظلم والخيانة ويرفع مكانة من أحسن عمله^(١)، ويشرف الوزير على جباية الأموال من أعشار التجار والخراج والغنائم، كما أنه يشرف على مصالح القلاع و يضاعف ذخائرها^(٢)، وعلى الوزير اتباع الطرق الصحيحة والسليمة في الجباية^(٣).

٢_ كتابة السر :

يعين كاتب السر من قبل السلطان، ويعبر عنه في ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بـ"صاحب ديوان الإنشاء بالشام المحروس"^(٤). ويكون السلطان حريصاً على اختياره من خاصة الموثوق بهم، ليطالعه بخفايا أمور المملكة، وما يحدث بها مما قد يخفيه النائب عن السلطان، وبديوانه كتاب الدست^(٥)، و كتاب الدرج^(٦)، وتكون ولايات كتاب الدست و الدرج من قبل نائب السلطنة، وكان كاتب السر لا يحضر دار العدل^(٧) مع النائب، إنما كان يحضر كتاب الدست فقط، فيوقعون على محتاج إليه في الجلسة ثم يذهبون إلى كاتب السر فيخبرونه بما اتفق، وكاتب السر يجتمع بنائب السلطنة في أوقات مخصوصة فيما يتعلق بالأمور السلطانية فقط، وفيما بعد سمح لكاتب السر الحضور بدار العدل و التوقيع فيه^(٨). ويذكر العمري أن كاتب السر في عصره أصبح يوقع بدار العدل مما كان يوقع فيه الوزير بمشاورة و استقلال، خاصة بعد تراجع مكانة الوزير^(٩).

(١) العمري ، التعريف ١٢٣-١٢٤ ؛ الظاهري ٩٣-٩٤ .

(٢) القلقشندي، صبح ٣٨/١١ ؛ الظاهري ٩٤ .

(٣) العمري ، التعريف ١٢٣ ؛ السبكي ، معيد ٢٧ ؛ الظاهري ٩٤-٩٥ .

(٤) القلقشندي ، صبح ٤ / ١٩٥ .

(٥) كتاب الدست : وهم الذين يجلسون مع كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل في المواعيد على ترتيب منازلهم بالفدمة، ويقرأون القصص على السلطان بعد قراءة كاتب السر، على ترتيب جلوسهم ، ويوقعون على القصص كما يوقع عليها كاتب السر، وسما كتاب الدست إضافة إلى دست السلطان وهو مرتبة جلوسه: جلوسهم للكتابة بين يديه ، وهؤلاء هم أحق كتاب ديوان الإنشاء باسم الموقعين لتوقيعهم على جوانب القصص بخلاف غيرهم .(القلقشندي ، صبح ١/١٧٢؛ البقلي ، التعريف ٢٨١) .

(٦) كتاب الدرج : وهم الذين يكتبون ما يوقع به كاتب السر، أو كاتب الدست، أو إشارة النائب، أو الوزير، أو رسالة السوادار ونحو ذلك من المكاتبات والتقاليد و المراسيم و المناشير و الأمانات و الأمانات، و سماها بكتاب الدرج لكتابهم هذه المكتوبات و نحوها في درج الورق، و المراد بالدرج في العرف العام الورق المستطيل المركب من عدة أوصال ، و كتاب الدرج هم الطبقة الثانية بعد كتاب الدست .(القلقشندي ، صبح ١ / ١٧٢-١٧٣ ؛ البقلي ، التعريف ٢٨٠-٢٨١) .

(٧) دار العدل : هي المكان الذي يحضر فيه رئيس ديوان الإنشاء و معه كتاب الدست مع السلطان أو النائب لقراءة القصص عليه، والقصص هي المظالم التي يحملها السوادار إلى المجلس، وإذا لم يتخذ قراراً في هذه المظالم أثناء وجود السلطان النائب فإنها تعمل إلى ديوان الإنشاء لبحثها ومنه ترسل إلى الجهات المختصة للتنفيذ و يوقع عليها بذلك .(البقلي ، التعريف ١٣٠) .

(٨) القلقشندي ، صبح ٤/١٩٥-١٩٦ .

(٩) العمري ، مسالك، دولة ١١٩ .

ومن شروط كاتب السر أن يكون له معرفة بآيات القرآن الكريم، وأسباب نزولها، وعلم الحديث النبوي ومدلوله، وفهم سير الملوك الأولين، ومعرفة الحكم والأمثال، والتطلع على وقائع العرب والتوسع في أبحر المعاني الشعرية، كما يجب عليه أن يكون كأنما للأسرار بصفته مطلعاً عليها^(١). ومن المعروف أن طبيعة وظيفة كاتب السر هي مقتضى التوقيع عن الملك أو النائب و الاطلاع على أسراره التي يكتب بها، وعنه تصدر التواقيع بالولايات والعزل^(٢). وكانت المهام التي تناط بكاتب السر مهمة جدا حتى وصفه ابن كنان بأنه: «العالم بأسرار الدولة وعلى الأخص بالنسبة للسلطان والنائب»^(٣).

وكان ابن فضل الله العمري أكثر إيضاحاً لطبيعة المهام التي يقوم بها كاتب السر حيث أثبت في كتابه «التعريف» وصايا اختصت بكاتب السر، وتأتي دائماً على صيغة أنه ولي أمر المسلمين، فمنها مثلاً: «وليأمر عنا بما يقابل بالامثال، و يقاتل به، و السيوف لأقلامه مثال، و ليصف السر بجهده، و هيهات أن يحتفي و يحجه حتى عن مسمعيه»^(٤)، ويؤكد ذلك حينما تناول وصية كاتب السر بقوله: «وليعلم أنه هو لدينا المستشار المؤمن، و السفير الذي كل أحد بسفارته مرهق، وهو إذا كتب بناننا، وإذا نطق لساننا، وإذا خاطب ملكا بعيد المدى عنواننا، وإذا سدد رأيه في نخور الأعداء سهمنا المرسل و سناننا، فلينزّل نفسه مكانها، و لينظر لدينا رتبته العليا إذا رأى مثل النجوم عيانها، فيراقب الله تعالى في هذه الرتبة، و ليتوق لدينا فان الله تعالى لا يضع عنده مثقال حبة، و ليخسف سوء الحساب، و ليتعبد الله ربه»^(٥).

٣_ ناظر الجيش :

وهو المسؤول عن الجيش، والذي ينظر في أموره، و يقوم بتحريد من يرى فيه المصلحة والكفاية^(٦). وله أتباع بديوانه يولون عن السلطان، كصاحب ديوان الجيش و كتابه وشهوده، وكذلك صاحب ديوان الممالك، و كاتب الممالك وشهود الممالك^(٧). وولاية ناظر الجيش مسن الأبواب الشريفة السلطانية بتوقيع شريف^(٨).

ومن أهم الأعمال الموكلة لناظر الجيش النظر في إقطاعات الممالك والتحدث فيها^(٩) وذلك

(١) الظاهري ٩٨-٩٩ .

(٢) السبكي ، معيد ٣٠ .

(٣) ابن كنان ، حدائق ١٦٧ .

(٤) العمري ، التعريف ١٥٥-١٥٦ .

(٥) المصدر نفسه ١٥٧-١٥٨ .

(٦) الطرسوسي ، تحفة ٩٠ ؛ السبكي ، معيد ٣٣ ؛ الظاهري ١٠٣ ؛ ابن طولون ، نقد ٧٤ .

(٧) القلقشندي ، صبح ٣١/٤ .

(٨) المصدر نفسه ١٩٧/٤ .

(٩) القلقشندي ، صبح ١٩٦/٤ ؛ ماجد ١٥٣/٢ .

من ناحيتين : أولهما : أن يكتب المربعات^(١) بما يعينه النائب من الإقطاعات التي مات أصحابها و التي يجهزها النائب إلى السلطان ليقرها، و تحمل إلى ديوان الجيش بمصر، حيث يحتفظ بالأصل، ويكتب منه مربعة يخرج المنشور على أساسها، و الناحية الثانية الموكلة إليه : أن يثبت بديوانه المناشير السلطانية التي تصدر من السلطان إلى مصر، وذلك لحسابات المقطعين^(٢).

وقد اعتبر كل من السبكي و ابن طولون أن من قبائح ديوان الجيش، إلزام الفلاحين بالعمل الفلاحي في الإقطاعات، فالفلاح لم يكن حرّاً، بل جرت العادة في الشام بأن الفلاح الذي يترك أرضه دون ثلاث سنوات يعاد إلى القرية قهراً، ويلزم بشد الفلاحة، وإزاء هذه السياسة كان الفلاحون يهربون، لأنهم يضيقون على الناس^(٣).

وقد أورد ابن فضل الله العمري في "التعريف" وصية لناظر الجيش جاء فيها: "ولياخذ أمر هذا الديوان بكليته، ويستحضر كل مسمى فيه إذا دعي باسمه وقوبل عليه بحليته... وليقف على معالم هذه المباشرة، وجرائد جنودنا، وما تضحى له من الأعلام ناشره... وليستصح أمر كل ميت يأتي إليه من ديوان المواريث الحشرية ورقة وفاته، أو يخبره به مقدمه أو تقييه إذا مات معه في البيكار^(٤) عند موافاته، وليحرر ما تضمنته الكشوف... وليحترز في أمر كل مربعة، وما فيها من الجهات المقطعة وكل منشور يكتب... وإليه مدارج الأمراء فيما ينزل، وأمر كل جندي لهم ممن فارق أو نزل، وكذلك مساوقات الحساب ومن يأخذ بتاريخ المنشور الشريف..."^(٥).

٤_ ناظر بيت المال :

وموضوعها حمل حمول المملكة إلى بيت المال، و التصرف فيه تارة قبضاً، و صرفاً، وتارة بالتسويغ محضراً و صرفاً^(٦)، ولا يليها إلا ذوو العدالة البارزة من أهل العلم و الديانة^(٧).

(١) المربعات : هي مراسم مربعة تكتب في ورق شامي وتكتب من ديوان الخاص بخط مباشره بالإقطاعات، وتستهل بالبسملة، ويعد ما إلى ديوان الإنشاء، فيكتب عليها صاحب الديوان بالتعيين على بعض كتاب الإنشاء، فيكتبها ويقي المربعة شاهداً عنده (القلقشندي، صبح ٦/ ٢٠١-٢٠٢، ١٢/٩٦، ج ١؛ ابن كان، حدائق ٥٨؛ الخطيب ٣٩٢؛ البقلي، التعريف ٣٠٧-٣٠٨).

(٢) القلقشندي، صبح ٤/ ١٩٦-١٩٧.

(٣) السبكي، معيد ٣٣؛ ابن طولون، نقد ٧٤.

(٤) البيكار: لفظ فارسي معناه الحرب عامة، وهو اصطلاح عسكري أطلق في العصر السلجوقي على الحملات العسكرية المؤلفة من المماليك الأتراك، الذين تم شراؤهم وهم صغار بقيادة أميرهم الذي اشتراهم، ومن مزايا هذا النوع من الحملات أنها كانت محدودة الزمن، كثيرة الغنائم، مأمونة النتائج. وواجه استعمال هذا اللفظ في القلقشندي ((مهمات الغائبين في البيكار المنصور تلحظ و يسسد من نواهم في امورهم و مصالحهم)) و عبارة: ((ولا يحصل من أحد من الولاة مكاشرة ولا إهمال ولا يطمع في الوكلاء لأجل غيبة الأمراء و المقطعين في البيكار)). (القلقشندي، صبح ١٣/ ١٠١، ١٠٤؛ عاشور العصر ٤٢١؛ البقلي، التعريف ٧٠؛ الخطيب ٩٦).

(٥) العمري، التعريف ١٥٩-١٦٠.

(٦) القلقشندي، صبح ٤/ ٣٢.

(٧) العمري، مسائل، دولة ١٢٢؛ القلقشندي، صبح ٤/ ٣٢.

وقد أورد العمري في "التعريف" وصية إلى ناظر بيت المال ومنها نشير: "...وليعلم أننا لم نكل به النظر إلا وهو عندنا عين، وأن به تحفظ كل عين، ويتفجر من المال كل عين، وإليه يرجع في الجهات الديوانية الأمر كله، وبقلمه المثمر يمتد فينه و ظله، فليرق هذه الرتبة، التي هي فوق كل رتبة، وليثمر أموالها لتكون ببركة تدبيره"^(١).

٥_ نظر المهمات الشريفة :

وهي وظيفة جليلة يكون متوليها من أرباب الأقاليم رقيقاً لشاد المهمات المتقدم ذكره من أرباب السيوف من النائب أو حاجب الحجاب أو غيرها، وهي تارة تضاف إلى الوزارة، وتارة تفرد عنها بحسب ما يراه السلطان، وولايتها من الأبواب السلطانية بتوقيع شريف، وبهذا الديوان عدة مباشرين من كتاب وشهود، فيولهم النائب بتوقيع كريمة^(٢).

٦_ نظر الخاص :

وهي وظيفة محدثة، أحدثها السلطان الملك الناصر "محمد بن قلاوون" حين أبطل الوزارة، وأصل موضوعها التحدث فيما هو خاص بمال السلطان، وصار كالوزير لقربه من السلطان وتصرفه، وصار إليه تدبير جملة الأمور و تعيين المباشرين يعني في زمن تعطيل الوزارة، وصاحب هذه الوظيفة لا يقدر على الاستقلال بأمر إلا بمراجعة السلطان، و لناظر الخاص أتباع من كتاب ديوان الخاص كمستوفي الخاص وناظر خزانة الخاص^(٣).

ومن مهام ناظر الخاص في نيابة دمشق التحدث فيما يتعلق بالمستأجرات السلطانية وغيرها من الأغوار، وما يجري مجراها، وربما أضيف نظرها للوزير^(٤).

٧_ نظر ديوان الأسرى :

وهذه الوظيفة تختص بالتحدث في الأوقاف التي تُفدى بها الأسرى^(٥).

٨_ نظر الأسواق :

وموضوعها التحدث على سوق الرقيق و الخيل ونحوها، وولايتها عن النائب بتوقيع كرم^(٦).

٩_ نظر مراكز البريد :

ومتوليها يكون رقيقاً لأمير آخور البريد المقدم ذكره، وولايته عن النائب بتوقيع كرم^(٧).

(١) العمري ، التعريف ، ١٦٢ .

(٢) القلقشندي ، صبح ١٩٧/٤ .

(٣) المصدر نفسه ٤ / ٣٠ .

(٤) المصدر نفسه ٤ / ١٩٧ .

(٥) المصدر نفسه ٤ / ١٩٨ .

(٦) المصدر نفسه ٤ / ١٩٨ .

(٧) المصدر نفسه ٤ / ١٩٨ .

١٥- نظر خزائن السلاح :

وموضوعها التحدث على كل ما يستعمل من السلاح السلطاني، وعادته أن يجمع ما يتحصل من عمل كل سنة و يجهز في يوم معين، ويحمل على رؤوس الجمالين إلى خزائن السلاح بالقلعة المحروسة ويخلع عليه وعلى رفقة من المباشرين^(١). وولايتها عن النائب بتوقيع كريم^(٢). وقد أشار العمري في "مسالك الأبصار" إلى خزائن السلاح في دمشق قائلاً: "وفي خزائن السلاح بما معمل الحمايق و السلاح و الزردخانات"^(٣)، وتحمل إلى جميع الشام وتعمر به البلاد والقلاع^(٤).

١٦- ناظر الجوالي :

الجوالي هي ما يؤخذ من أهل الذمة عن الجزية المقررة على رعايهم في كل سنة^(٥). و المسؤول عن هذه المهمة عرف بناظر الجوالي^(٦).

ثالثاً : أرباب الوظائف الدينية :

١- قضاء القضاة :

اشتقت وظيفة قاضي القضاة من وظيفة القاضي، والتي تعني رئيس القضاة وكبيرهم، وهي مشتقة من "قضى الأمر" أي أحكمه، لأن حكمه يقطع الخصومات بفروع الأمر منها^(٧). ولأهمية وظيفة القضاء في السلطنة المملوكية، قال عنها العمري في "التعريف": "وهي التي جعل الله إليها منتهى القضايا، وإنهاء الشكايا، ولا يكون صاحبها إلا من العلماء، الذين هم ورثة الأنبياء، ومتولي الأحكام الشرعية، ويده زمام الأحكام، وفصل القضاء الذي يعرض عليه..."^(٨). كان تنفيذ أحكام الشرع في أنحاء المدينة من عمل القضاة الذين كانوا يقومون بذلك تحت إشراف قاضي قضاة المذهب، وقد اقتصر الأيوبيون على تعيين قاض شافعي^(٩)، واستمر الحال على ذلك في بداية العهد المملوكي حتى عام ٦٦٤هـ/١٢٦٦م، إذ أمر السلطان الظاهر بيبرس بوجوب

(١) القلقشندي، صبح ٣٢/٤ .

(٢) المصدر نفسه ١٩٨/٤ .

(٣) الزردخانات : دار السلاح وهي كلمة فارسية مركبة تشتمل على أنواع السلاح من السيوف القسي العربية و الشباب و الرماح و الدروع، وتعني أيضا السجن المخصص للمجرمين من الأمراء و أصحاب الرتب. (القلقشندي، صبح ١١١/٤ الخطيب ٢١٩؛ عاشور، العصر، ٤٤٤؛ ماجد ٢٢٢/٢-٢٣ .

(٤) العمري، مسالك، دولة ١٧٨ .

Cahen, 2/490 ;

(٥) النويري ٢٣٦/٨؛ القلقشندي، صبح ٥٣٠/٣ .

(٦) القلقشندي، صبح ٥٣٠، ٣ .

(٧) ابن كان، حقائق ١٤١ .

(٨) العمري، التعريف ١٦٧ .

(٩) أبو شامة، الروضتين ١٩١/١؛ زياده، دمشق ١٥٥ .

تعيين أربعة من القضاة ليس في القاهرة فحسب، بل في دمشق وحلب أيضاً^(١)، ومنذ ذلك الوقت أصبح لكل من المذاهب الأربعة قاضٍ للقضاة، وكان قضاة كل مذهب مرتبطين به، وكانت ولاية القضاة الأربعة في دمشق تتم من قبل السلطان^(٢).

اعتبر قاضي القضاة الشافعي في السلطنة المملوكية "صدر المجلس" وإنه المقدم في الأحكام، ولما كان من رسمه لبس الطيلسان^(٣) والذي يخضع له رب كل سيف ويُلَسُّ^(٤)، ولذا فإنه كان مسؤولاً عن جميع قضاة القضاة في مختلف نيابات الشام^(٥)، كما أن قاضي القضاة الشافعي اختص عن غيره من القضاة بلبس الخلعة المكونة من سمور مصوف أما باقي القضاة فكانت خلعتهم من الصوف^(٦).

وكان من واجبات قاضي القضاة الاهتمام بمصالح الأمة واتباع العدالة في الحكم والفصل بين الناس، كما يجب عليه أن يكون متضلماً في معرفة آداب القضاء، رحب الصدر ثابت الرأي متبعاً السنن القويمة^(٧).

وقد شملت صلاحيات قاضي القضاة مجالات واسعة ومهام عديدة، ولم تقصر على النظر في قضايا الأحوال الشخصية، بل تناولت جميع القضايا الجنائية والمدنية... كالنظر في دعاوي إثبات الحقوق والأموال التي ليس لها وارث، كما تناول النظر في أوصياء اليتامى^(٨)، وكذلك أموال المحجور عليهم من المجانين والسفهاء وفي وصايا المسلمين، والاهتمام بأمر اليهود ولا يهمل أمرهم^(٩)، والنظر في شؤون الأوقاف والعمل على تنمية مواردها واستلام ريعها وصرفه في وجوهه وعهد للقضاة في تسلم أموال الموارث المتنازع عليها وأموال من يموتون من الغرباء ويحفظونها وديعة وأمانة لديهم حتى يحضر ورثتهم^(١٠). ويلاحظ أن قاضي القضاة الشافعي اختص عن بقية القضاة بأربعة أشياء هي: النظر على الأيتام، والأوقاف، وبيت المال، ونواب البلاد^(١١)، أما القلقشندي فقال عنه: "وهو المتحدث على الموازح الحكمية والأوقاف وأكثر الوظائف ويختص بتولية النواب في النواحي والأعمال

(١) ابن كثير ٢٠٥/١٣؛ القلقشندي، صبح ١٩٩/٤؛ زباده، دمشق ١٥٥-١٥٦.

(٢) الطرسوسي، تحفة ٧٧؛ القلقشندي، صبح ١٩٩/٤.

(٣) الطيلسان: لفظ فارسي، أصله: تالسان، معرب، جمعه طيالس وطيالسه، وهو ضرب من الأوشحة يلبس على الكف ويحيط بالبدن خال من المتعة كالتفصيل والحيطة، وهو من البسة العلماء في العصر الإسلامي كان يتخذ على الأغلب من القماش الأخضر يعرف بمصر وبلاد الشام باسم: الشال. (القلقشندي، صبح ٤٨٧/١، ١٩٧/١١؛ مايو ١٩٤؛ أدي شير ١١٣؛ عطية الله ٥٨٨/٤؛ الخطيب ٣١٢).

(٤) العمري، التعريف ٤١٧٠؛ القلقشندي، صبح ١٩٧/١١.

(٥) القلقشندي، صبح ١٩٧/١١؛ ماجد ٨٤/٢.

(٦) ابن كان، حدائق ١٤٣.

(٧) العمري، التعريف ١٦٧-١٦٩؛ الظاهري ٨٦.

(٨) العمري، التعريف ١٧٠؛ الظاهري ٨٧.

(٩) العمري، التعريف ١٧٠-١٧١.

(١٠) المصدر نفسه ١٦٩.

(١١) ابن كان، حدائق ١٤٣.

بجميع أعمال دمشق حتى في غزة^(١). وتأتي وصية قاضي القضاة الشافعي كما أوردها العمري في "التعريف" حيث قال: "...وأمر دعاوي بيت المال العمور، ومحاكماته التي فيها حق كل فرد، فليحترز في قضاياها غاية الاحتراز، وليعمل بما يقتضيه لها الحق في الصيانة والإحراز، ولا يقبل فيها كل بينة للوكيل عن المسلمين فيها"^(٢).

ويلاحظ بان ممارسات القضاة في دمشق جاءت مخالفة تماماً لما أورده كل من السبكي في "معيد النعم" و ابن طولون في "نقد الطالب"، فقد أوضح آداب القضاة من سمو ورفعة أخلاق، وخصوصاً في أمر الرشوة، فلو أخذها فلا يصير قاضياً، ولا تصح عقودهم وفسوخه، لأن هذين المؤرخين يعتبران القضاء من أشرف العبادات وأقوى الفرائض وينال عليها الأجر من الخالق^(٣).

٢- قاضي العسكر :

وهو القاضي المسؤول في جيش دمشق، والذي يحكم بين الجنود في حالة حدوث خلافات بينهم^(٤)، وغالباً ما تكون هذه الخلافات حول الغنائم والديون المؤجلة واستحقاقها، ويتقاضى هؤلاء عند قاضي العسكر المختص بهم "حفظاً للوقت و لعدم انشغال الجنود عن واجباتهم"، ويكون لقاضي العسكر خيمة من الخيام يقصده الجنود للتقاضي فيها، ومعه كتاب يسجل فيه قضاياها اليومية^(٥).

وكان في نيابة دمشق قاضيان للعسكر، أحدهما شافعي و الآخر حنفي، ويتم تعيينهما من قبل السلطان "وليس في دمشق قاضي للعسكر مالكي ولا حنبلي"^(٦).

٣- إفتاء دار العدل :

يلي مفتو دار العدل قاضي العسكر في الأهمية، وكان في دمشق مفتيان أحدهما شافعي والآخر حنفي كما هو الحال في قضاء العسكر، ويتم توليتهما من قبل النائب في دمشق^(٧).

٤- مشيخة الشيوخ :

وموضوعها التحدث على جميع الخوانق و الفقراء بدمشق وأعمالها^(٨)، كما يقوم صاحب هذه الوظيفة ببحث الشيوخ على اتباع سنة الله ورسوله في جميع أعمالهم^(٩)، وعليه أيضاً أن يكون رحب الصدر إذ أنه يستقبل الوفود التي ترد من السلطان، ويقوم بإكرامهم، وتنفيذ مطالبهم، كما أن عليه

(١) القلقشندي، صبح ١٩٩/٤.

(٢) العمري، التعريف ١٧٠.

(٣) السبكي، معيد ٥٥-٦٠، ابن طولون، نقد ٤٥، ٤٨.

(٤) العمري، التعريف ١٧٧؛ الطرسوسي، تحفة ٩١.

(٥) العمري، التعريف ١٧٧-١٧٨.

(٦) القلقشندي، صبح ١٩٩/٤؛ الخالدي ١٤٦ أ.

(٧) القلقشندي، صبح ١٩٩/٤.

(٨) المصدر نفسه ٢٠٠/٤.

(٩) العمري، التعريف ١٨٢.

أن يستقبل كل مسافر أو فقير يساعده فيما يحتاج إليه^(١). وكانت العادة أن يكون متولي هذه الوظيفة شيخ الخانقاه الشميصاتيه بدمشق ويكون تعيينه من قبل النائب^(٢)، ويقوم شيخ الشيوخ في نهاية كل شهر بتهنئة السلطان أو النائب، كما يقدم له التهنئة في الأعياد^(٣).

ومع أن الزوايا كانت من مراكز العلم بالإضافة إلى أمور أخرى فإن النظر فيها لم يكن لقاضي القضاة، فقد كانت مستقلة وكان لها مدبروها، فكل زاوية حتى ولو سميت خانقاه أو رباط كان لها شيخ يرجع إليه في أمور جماعته وأتباعه، وكان هؤلاء الشيوخ جميعاً تحت إمرة شيخ الشيوخ السذي كان في وقت واحد للجميع وحلقة اتصال بينهم وبين أصحاب السلطان، فقد كان لهؤلاء أهمية خاصة في نظر أهل الحكم، إذ أنه كان باستطاعتهم أن يخلقوا متاعب للحكومة لو أنهم أثاروا في الناس روح التذمر لكنهم لم يفعلوا ذلك فقد فضلوا أن يكونوا حلفاء السلطان، وكانت الزوايا تقع تحت رقابة شديدة خشية أن ينضم إليها شيعة أو إسماعيلية، والواقع أن الكثيرين ممن كانوا يترددون على الزوايا ويقومون فيها كانوا كثيري الحرص على تعقب هؤلاء، بوصفها مراكز للمعرفة الصوفية، فقد أدت الزوايا خدمات جليلة للأدب والفكر أيام المماليك^(٤).

٥_ الحسبة :

هي وظيفة دينية تعنى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٥)، وعلى المحتسب تقع مسؤولية الإشراف على الأسواق والآداب العامة^(٦).

وكان المعين لمنصب الحسبة يختار بدقة : فيجب أن يكون من وجوه المسلمين^(٧)، فقيهاً عارفاً بالشريعة نقياً نظيف القلب رقيقاً صبوراً عارفاً بوسائل أهل الصنائع وطرق غشهم^(٨)، فالمحتسب يحتاج إلى معرفة بالأحكام الشرعية المتعلقة بالصلاة والصوم والزكاة والبيع والشراء والنكاح والطلاق والمباح من الأطعمة والأشربة والمحرم وما يكفر فيه الإنسان وما يسلم به والذبائح وشروطها والشهادات والإقرار، وجميع هذه الأحكام ليأخذ الناس بها^(٩)، وعليه أن يكون عفيفاً عن أموال الناس

(١) العمري ، التعريف ، ١٨٤ ؛ السبكي ، معيد ١٢٦ .

(٢) القلقشندي ، صبح ٢٠٠/٤ .

(٣) الظاهري ٨٨ .

(٤) زياده ، دمشق ١٦٢-١٦٣ .

(٥) الماوردي ٢٩٩ ؛ العمري ، التعريف ١٧٨ ؛ القلقشندي ، صبح ٢٠٠/٤ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ٢٢٥ ؛ ماجد ١٦٢/١ ؛ كسردي

Talbi, 3/485;

Talbi, 3/485_486;

على ، الحسبة ٢٥٨ .

(٦) ابن بسام ١٧ ؛ ماجد ١٦٢/١ .

(٧) العمري ، التعريف ١٧٨ .

(٨) زياده ، دمشق ١٧٠ .

(٩) ابن الأخوة ١٣-١٤ ؛ ابن عبد الهادي ، الحسبة ٣٨٥ .

رافضاً الرشاوى والهدايا^(١).

وكان للمحتسب خطة يجب أن يتبعها في القيام بأعماله: من ذلك أن يتخذ له دكة في السوق لمراقبة السوق عن قرب و لمفاجأة التجار ليلاً و نهاراً، وكان المحتسب يعين عرفاء لمباشرة السوق «وكانوا في الواقع رؤساء التجار إذ أنه كان لكل صناعه أو تجارة سوقها الخاص بها في الغالب»^(٢)، وكان للمحتسب أيضاً أعوان و غلمان يرافقونه في غدواته وروحاته يساعدونه في القيام بمهامه^(٣)، ويشترط فيهم العفة و العناية و النهضة و الشهامة و يؤدبهم و يهذبهم و يعرفهم كيف يتصرفون بين يديه و كيف يخرجون في طلب الغرماء، وكانوا لا يعرفون الخصم الذي يطلبونه لماذا طلب لئلا يفكر في حجة يتخلص بها، «فإذا طلب شخص بعدته وآلته فليحضره على هيأته التي وجدوه عليها ولا يمكنه أن يترك من أرطاله شيئاً في الدكان ولا يودع منها شيئاً في طريقه»^(٤).

ومع أن أكثر أعمال المحتسب كانت تتم في الأسواق، فإنه كثيراً ما كان يتفقد المساحد ليتأكد من أن المشرفين عليها حافظوا على نظافتها وأن الذين يفدون إليها يحسنون استعمالها^(٥)، وكان يراقب الأزقة الموحشة و الخالية من الناس و ذلك خشية أن يسيء بعض الرجال و النساء استعمالها للاجتماع و الالتقاء^(٦)، وكان المحتسب يمنع الناس من النظر إلى جيرانهم من أسطح المنازل و نوافذها أو أن يجلس الرجال في طرقات النساء من غير حاجة و كذلك النساء لا يجلسن على أبواب بيوتهن في طرقات الرجال^(٧).

وكان على المحتسب أن يعتني بنظافة الأسواق و الشوارع و يتأكد من أن المتاجر لا تزعج المارة، و كان يمنع أحمال الخطب و أعدال التبن و روايا الماء و شرائح السراجين و الرماد و أشباه ذلك من الدخول إلى الأسواق لما فيه من الضرر بلباس الناس، و يأمر أهل السوق بكنسها و تنظيفها^(٨).

أما الطرقات و دروب المحلات فلا يسمح لأحد بإخراج جدار داره ولا دكانه إلى الممرات المعهودة «التي يسلكها الناس» و كذلك كل ما فيه أذية و إضرار بالسالكين كالمزاريب الظاهرة من الخيطان في زمن الشتاء، و مجاري الأوساخ الخارجة عن الدور في زمن الصيف إلى الطريق، حيث

(١) العمري، التعريف ١٧٩-١٨٠، السبكي، معيد ٦٦.

(٢) ماجد ١/١٦٢، ١٧١؛ زيادة، دمشق ١٧٠.

(٣) ابن الأخوة ٢٢٠؛ زيادة، دمشق ١٧٠؛ كرد علي، الحسبة ٢٥٨.

(٤) ابن الأخوة ٢٢١.

(٥) ابن بسام ١٧٥-١٧٧.

(٦) الماوردي ٣١١؛ ابن بسام ٢٠.

(٧) الماوردي ٣١٩؛ ابن بسام ١٩-٢٠.

(٨) ابن الأخوة ٧٨-٧٩؛ ابن بسام ١٩؛ كرد علي، الحسبة ٢٥٨.

يأمر المحتسب صاحبها بسدها في الصيف، ويحفر حفرة في داره يجمع فيها^(١). وكان المحتسب أيضا يحمي الناس من أن يقدم لهم الطعام الرديء أو أن يغش بالكيل والميزان^(٢)، حيث يعير موازينهم وأقدارهم وينبغي إذا شرع في الوزن أن يسكن الميزان ويضع فيه البضاعة، ولا يهزم حافة الكفة بإهامه فان ذلك بخس و تدليس، ويكون جميع ما يكالون به محتوما بالرصاص منقوشا في طرفه اسم الإمام لثلا يردوا رؤوس المكايل بعد العيار فتقص ويلزمون أن تكون موازين الأبطال معروضة في قوس الدكان ليشاهد الزبون ما يحمل به من أبطال عند الوزن و المأكولات^(٣). وكان المحتسب يجعل لأهل كل صنعة عريف من صالح أهلها خبيرا يبضاعتهم بصيرا بغشوشهم وتدليساقهم مشهورا بالثقة و الأمان، يكون مشرفا على أحوالهم ويطالعه بأخبارهم وما يجلب إلى سوقهم من السلع والبضائع، وما تستقر عليه من الأسعار، وغير ذلك من الأسباب التي يلزم المحتسب معرفتها، ولا يجوز للمحتسب أن يسعر البضائع على أربابها ولا أن يلزمهم ببيعها بسعر معلوم^(٤). وكان المحتسب يمنع تلقي الركبان: وهو أن تقدم قافلة فيلقاها شخص خارج المدينة فيخبرهم بكسلد ما معهم ليتاعه منهم رخيصة، فإن عثر المحتسب على من يقصد ذلك رده عن فعله بعد التعزير^(٥). وكان المحتسب يحمل الناس على المصالح العامة، حيث يطوف نوابه على أرباب الحرف والمعاش وغيرها، ويأمر نوابه بالختم على قدور الهرائسين وينظر إلى لحمهم و يعرف من جزاره^(٦)، كما أنه يراقب الطباخين^(٧)، كذلك يأخذ السقائين بتغطية الروايا، وينبغي أن يكون في أوساطهم التباين^(٨) ليستروا عوراتهم وسقاة الماء بالكيزان و أصحاب القرب يؤمرون بنظافة أزيارهم وصياتها بالأغطيق وتغطية قريهم التي يسقون منها في الأسواق بالميازر و يمنعهم أن يسقوا بكيزانهم المخدم والأبرص وأصحاب العاهات والأمراض الظاهرة^(٩).

أما بالنسبة لمعلمي الصبيان : فينبغي أن يعرف عليهم عريفا ثقة دينا يمنعهم من تعليم الصبيان في المساجد لان النبي، صلى الله عليه وسلم، أمر بتنزيه المساجد من الصبيان وذلك لأنهم يسودون حيطانها وينحسون أرضها، بل يتخذون للتعليم حوانيت في أطراف الأسواق أو على الشوارع ولا

(١) الماوردي ٣٢١، كرد علي، الحسبة ٢٦٠.

(٢) الماوردي ٣١٦، ابن الأخوة ١٢٨، ١٣٠، ابن بسام ٤٣-٥٣، ابن خلدون، المقدمة ٢٢٥.

(٣) ابن الأخوة ٨٣-٨٥.

(٤) ابن بسام ١٨.

(٥) ابن الأخوة ٦٧، ابن بسام ١٩.

(٦) ابن بسام ٣٩.

(٧) المصدر نفسه ٤٤-٤٥.

(٨) التباين : مفردا تباين: من البسة البدن الداخلية، وهو سروال صغير بستر العورة. (ابن منظور ٢٢٠/١٦، ابن سيده ٨٣/٤).

(٩) ابن بسام ٢٥-٢٦.

يعلمون الصبيان في بيوتهم أيضا^(١). وعلى المحتسب أن يمنع معلمي الصبيان من ضربهم ويحذرهم من ذلك^(٢)، كما على المحتسب أيضا منع "الضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين"^(٣). كما يقوم المحتسب بمراقبة دار الضرب التي تضرب فيها النقود من الذهب و الفضة ليتأكد من عدم حصول الغش فيها^(٤)، وكذلك مراقبة توزيع الماء على الناس في مدينة دمشق بشكل عادل^(٥).

وبشكل عام فإن المحتسب في دمشق كان يضع أصحاب الصناعات و الحرف التالية تحت مراقبته المباشرة وهم : الحاكة، والخزافون، وصناع الإبر، وباعة الحناء، والصناع في معاصر السيرج، و صناع المناخل، والدباغون، واللبادون، وصانعو الحصر، وبائعو الحلي، وتجار الأرز، وسقاة الماء^(٦)، كما كان عليه أن يتأكد من توفر السلع الغذائية الأساسية لجميع السكان في أسواق مدينة دمشق وخاصة القمح والدقيق والخبز^(٧).

وعلى المحتسب أيضا أن يقصد مجالس الولاية و الأمراء ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويعظهم ويذكرهم ويأمرهم بالشفقة على الرعية والإحسان إليهم ويذكرهم ما ورد عن النبي، صلى الله عليه وسلم، في ذلك من أحاديث ويجب أن يكون في وعظه وقوله في ردعهم عن المظالم نظيفا ظريفا، لين القول، بشوش الوجه "غير جبار ولا عبوس"^(٨). وكان المحتسب يراقب سمسرة العبيد والجواري والدواب و الدور ويعاقب من أحل بأحد الشروط المفروضة عليهم^(٩). والمحتسب أيضا ينظر في أمر الوعاظ و الفقهاء^(١٠)، ومراقبة أهل الذمة^(١١)، فإذا طلب المحتسب من غلمانة وأعوانه شخصا بعدته وآلته فليحضره على هيأته التي وجدوه عليها ولا يمكنه أن يترك من أرطاله شيئا في الدكان ولا يودع منها شيئا في طريقه، وإن كان ذميا فوجدوه بلا زنار إن كان نصرانيا، أو بلا علامة إن كان يهوديا، فليحضره على هيأته التي وجد عليها حتى يعاقبه التولي على ما يراه منه^(١٢)، ويأمر المحتسب

(١) ابن الأخوة ١٧٠؛ ابن بسام ١٦١ .

(٢) ماجد ١٦٤/١؛ ابن عبد الهادي، الحسبة ٣٩٠ .

(٣) ابن خلدون، المقدمة ٢٢٥؛ كرد علي، الحسبة ٢٥٨ .

(٤) العمري، التعريف ١٧٩؛ السبكي، معيد ٦٦ .

(٥) السبكي، معيد ٦٦ .

(٦) زياده، دمشق ١٧١؛ ابن عبد الهادي، الحسبة ٣٨٥-٣٩٠؛ كرد علي، الحسبة ٢٥٨-٢٦٠ .

(٧) زياده، دمشق ١٧١ .

(٨) ابن الأخوة ٢١٦، ٢١٨؛ ابن بسام ٢١٥ .

(٩) ابن الأخوة ١٥٢-١٥٣ .

(١٠) المصدر نفسه ١٧٩-١٨٢ .

(١١) الماوردي ٣١٩؛ ابن الأخوة ٣٨-٤٥؛ ابن بسام ٢٠٧-٢٠٨ .

(١٢) ابن الأخوة ٢٢١ .

أهل الذمة «لبس الغيار و المخالفة في الهيئة وترك المجاهرة بقولهم في العزير والمسيح»^(١). يتضح من خلال العرض السابق لمهام وصلاحيات المحتسب أن صاحب الحسبة كانت له سلطات تنفيذية كسلطة قاضي القضاة، وإن كانت العقوبات التي يفرضها لا تبلغ عقوبات الحدود وتختلف بحسب الذنب وهو ما أطلق عليه «التعزير»، فكان المحتسب يعقد المحاكمات في الجامع أو في مكان معروف اسمه «الدكة» أو «دكة المحتسب» أو حتى في دار العدل - كما كان يفعل محتسب القاهرة - وكان يستعين في تنفيذ الأحكام بالأعوان أو بوالي الشرطة الذي يقوم في نفس الوقت بتنفيذ العقوبات التي يفرضها القاضي، أما أكثر وسائل التعزير التي كان يستخدمها المحتسب بحق المخالفين فهي: الضرب بالدرّة^(٢)، أو التجريس، أو التشهير^(٣).

ويوضح بعض المؤرخين مفهوم العقوبة التعزيرية التي يعاقب عليها المحتسب، فالماوردي يذكر أن المحتسب «له اجتهاد رأيه فيما يتعلق بالعرف دون الشرع»^(٤). أما ابن خلدون فيذكر أن المحتسب يحكم في العقوبات التي «لما ليس فيها سماع بينة ولا إنفاذ حكم»^(٥). أي أن المحتسب يحكم في العقوبات التي لم يرد فيها نص شرعي من القرآن الكريم أو السنة النبوية.

وكان محتسب دمشق مسؤولاً عن جميع نواب الحسبة في مختلف الأعمال التابعة للنيابة، ويتم تعيين المحتسب من قبل نائب دمشق، ولكنه لا يجلس بدار العدل كمحتسب القاهرة^(٦).

٦ - وكالة بيت المال :

وموضوعها التحدث بمبيعات بيت المال ومشترياته من أراض وأدر^(٧) وغير ذلك. ولا يليها إلا أهل العلم والديانة^(٨)، وولايتها من الأبواب الشريفة السلطانية بتوقيع شريف ووكالة مثبوتة على الحكام منفذة^(٩)، ومجلس وكيل بيت المال في دمشق لا يكون بدار العدل بخلاف وكيل بيت المال

(١) الماوردي ٣١٩ .

(٢) الدرّة : بكسر الهمزة وتشديد الراء، أداة مصنوعة من الجلد ، يعبر عنها اليوم باسم ((السوط)) أول من استعملها في الإسلام هو عمر بن الخطاب، ثم أصبحت تقليداً يستعملها المحتسب للضرب وتأديب المخالفين من التجار ونحوهم .

(عظية الله ٢ / ٣٦٢ ؛ الخطيب ١٨٠).

(٣) ماجد ١ / ١٧١-١٧٢ .

(٤) الماوردي ٣٠٠ .

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ٢٢٥ .

(٦) القلقشندي ، صبح ٤ / ٢٠٠ .

(٧) الأدر: لغة الفرد، جمعه: دار ، وهو لقب من العصر المملوكي أطلق على صاحبات العصمة من عليّة النساء دون ذكر أسمائهن .

(القلقشندي ، صبح ٣ / ٥٠٥؛ ضومط ٣٨١ ؛ الخطيب ١٠).

(٨) القلقشندي ، صبح ٤ / ٣٧-٣٨ .

(٩) المصدر نفسه ٤ / ١٩٩ .

في مصر الذي يجلس بدار العدل، فوكيل بيت المال بدمشق لا يجلس بدار العدل إلا أن يكون ككتب دست فيجلس في جملة الموقعين لا بالوكالة^(١)، ويشترط فيه أن يكون ديناً عفيفاً ناهضاً ضابطاً ليس فيه جور ولا حسد^(٢).

٧_ نقابة الأشراف :

وموضوعها التحدث على ولد علي بن أبي طالب من فاطمة بنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهم المراد بالأشراف، وذلك بالفحص عن أنسابهم و التحدث في أقاربهم، والأخذ على يد المتعدي منهم ونحو ذلك، وكان يعبر عنها في زمن الخلفاء المتقدمين بنقابة الطالبين^(٣).

٨_ الخطابة :

كان للمساجد في دمشق عدد من الموظفين أشهرهم :
النظار، الخطباء، الأئمة. وكان لكل واحد من هؤلاء وظيفته الخاصة به.
فالناظر: يدير شؤون الوقف وينظر في صيانة البناء.
والخطيب: كان مسؤولاً عن خطبة الجمعة كما انه يقوم بقسط من التعليم.
و الإمام: يوم الناس في الصلاة^(٤).

وكان خطباء المساجد الكبرى خاصة الجامع الأموي لا يقلون في منزلتهم عن القضاة وكبار رجال الدولة، وكثيراً ما نجد أحد القضاة الكبار يحتفظ إلى جانب لقب القاضي بلقب الخطيب، كالخطيب جلال الدين القزويني الذي تولى قضاء الشافعية بمصر زمناً وتولى خطابة الجامع الأموي وقضاء القضاة بدمشق، فاحتفظ بلقب الخطيب^(٥).

وتحدث العمري في "التعريف" عن الخطيب من خلال وصية قدمها له قال فيها مينا بعض مهامه:-

وعلى الخطيب أن يحث الناس في خطبة يوم الجمعة على التقوى "وليقرع المسامع بالوعد والوعيد، ويذكر بأيام الله... ويلين القلوب القاسية وان كان منها ما هو أشد قسوة من الحجارة والحديد... وليكن قد قدم إلى نفسه قبل أن يتقدم وليسبل عليه درع التوبة قبل أن يتكلم، وليجعل لكل مقام مقالاً، وليؤد هذه الفريضة التي هي من أعظم الأركان، وليقم بالصلاة أوقاتها، وليرح بها الناس في أول ميقاتها، وليخفف مع الإمام..."^(٦).

(١) الفلقشندي، ص ٤/١٩٩-٢٠٠.

(٢) الطرسوسي، تحفة ٩٢.

(٣) العمري، التعريف ١٨٧؛ الفلقشندي، ص ٤/٣٨.

(٤) زياده، دمشق ١٦٢.

(٥) سلام ١/٦٧.

(٦) العمري، التعريف ١٨٠-١٨١.

ومن الأمور الأخرى التي يجب على الخطيب مراعاتها: أن لا يرفع صوته كثيرا ولا يخفضه كثيرا أيضا، وأن لا يطيل الخطبة على الناس، وأن يدعو للسلطان بالصلاح، وأن تكون ألفاظه في الخطبة مفهومة للمستمعين إليه من عامة الناس^(١). ونظرا لأهمية الخطيب في توعية المجتمع فقد روعي في منصب الخطابة أن لا يعين إلا من يكون مستحقا لها^(٢).

وبسبب المكانة الخاصة التي تتمتع بها الجامع الأموي في دمشق من بين المساجد الأخرى في النيابة فقد كان كثيرا ما يتولى الخطابة فيه قاضي قضاة الشافعية^(٣)، حتى انه حدث تنافس بين هؤلاء القضاة من المذهب الشافعي في بعض الأحيان حول من يتولى الخطابة فيه، فقد تنازع خطابة الجامع الأموي في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد كل من القاضي تقي الدين السبكي و ابن الجلال القزويني^(٤). وكان للخطيب خلعة خاصة يلبسها في المواكب ويسير إلى جوار القضاة^(٥).

رابعا : وظائف أرباب الصناعات :

١- رئاسة الطب^(٦):

كان الأطباء يمارسون مهنة الطب تحت إشراف رئيس خاص بهم سواء في ذلك الأطباء الموظفين في البيمارستان أو الذين كان لهم عياداتهم الخاصة بهم، وكان من المتعارف عليه أن يكون في دمشق ثلاثة رؤساء وهم : رئيس الأطباء، ورئيس الجراحين، ورئيس الكحالين.

وقد يتولى أحد هؤلاء إذا كان ميرزا في عمله الجسم الطبي بكامله، وكان يتولى رئاسة الطب رئيس الأطباء، وهو الذي يحكم في طائفة الأطباء ويأذن لهم في التطيب^(٧)، ويعين في وظيفته من قبل النائب في دمشق^(٨)، ويلقب رئيس الطب بـ «المجلس العالي القضائي»^(٩).

ومن الشروط التي يجب توفرها فيمن يتولى هذه الوظيفة أن يكون حاذقا في الطب ماهرا فيه، متقدما على غيره في الفن و المعرفة و العقاقير وما فيها من نفع و ضرر و المعرفة بالأمراض و العلل و طرق العلاج^(١٠)، ويوصى بالنظر في أمر طائفته و معرفة أحوالهم^(١١). كما أن رئيس الأطباء يشرف

(١) السبكي، معيد ١١٢ .

(٢) العمري ، التعريف ١٨٠ .

(٣) القلقشندي ، صبح ١٢٠ / ١٢٠٤ ، ١٩٨ / ٧٢ .

(٤) الحسيني، ذيل ٣٩؛ ابن حجر ، الدرر ٣ / ٦٤٤ ، سلام ١ / ٦٧ .

(٥) العمري، مسالك، دولة ١٣٣ ، سلام ١ / ٦٧ .

(٦) القلقشندي ، صبح ٢٠٠ / ٤ ، الخالدي ١١٤٧ .

(٧) القلقشندي ، صبح ٤٣٨ / ٤٣٩ ؛ زياده ، دمشق ١٦٠ .

(٨) القلقشندي ، صبح ٢٠٠ / ٤ .

(٩) المصدر نفسه ٦ / ١٦٠ ، ١٢٠ / ٢٨٩ .

(١٠) المصدر نفسه ١١ / ٨٩ .

(١١) المصدر نفسه ١١ / ٩٨ .

على عمل الأطباء في معالجة المرضى، ويضمن الطرق السليمة في ذلك العلاج، منها أن يعرف حقيقة المرض وأسبابه وعلاماته، ثم ينظر إلى السن و البلد، وحينئذ يشرع في تخفيف المرض: ولا يخرج عن عادة الأطباء ولو ظن الإصابة، حتى يقوى لديه الظن ويتبصر فيه برأي أمثاله، وعليه أن يتجنب القياس، وأن يحذر من التجربة مع الاحتراز في المقادير والكيفيات وفي الاستعمال والأوقات، ولا يأمر باستعمال دواء، ولا ما يستغرب من غذاء، حتى يتحقق حقيقته ويعرف جديده من عتيقة ليعرف مقدار قوته في الفعل^(١)، كما أن على رئيس الأطباء أن لا يسمح لأحد من المعالجين بممارسة العلاج إلا أن يكون مؤهلاً لذلك^(٢)، وعليه أن يأمره بالرفق بالمرضى^(٣)، ولا يعالج بأدوية قد تضر بالمرضى وتؤذيه^(٤)، وأن تتوفر مع الطبيب الأدوات والآلات التي يعالج بها كاملة دونما نقص^(٥).

٢_ رئاسة الكحالين^(٦) :

أما رئاسة الكحالين فيتولاها رئيس الكحالين، وهو الذي يحكم على طائفة الكحالين و يأذن لهم بالتكحيل^(٧)، ويعين في وظيفته من قبل نائب دمشق^(٨).

ومن الشروط التي يجب توفرها فيمن يتولى هذه الوظيفة: أن يكون على معرفة في صنعة الكحل، ومتقدماً على أبناء صنعته فيه، وأن يعرف بحال العين وأمراضها وأصناف الأكحال وما يوافق كل علة من ذلك وما ينخرط في هذا السلك^(٩). ويوصى رئيس الكحالين بالنظر في حال جماعته ومعرفة أحوالهم وأن لا يصرف منهم إلا من أعترف بحسن المداواة و الملازمة في العلاج ويأمر كل منهم أن لا يقدم على مداواة عين حتى يعرف حقيقة المرض وأن يتخير من الكحل ما فيه شفاء العين و جلاء البصر وأن يستشير الأطباء فيها ولا يستغني عن رأي مثلهم فيه من تخفيف المادة بالاستفراغ أو نقص دم، وغير ذلك^(١٠).

(١)العري، التعريف ١٩٦ .

(٢)السيكي، معيد ١٣٣؛ ابن بسام ١٠٨ .

(٣)السيكي، معيد ١٣٣ .

(٤)ابن الأخوا ١٦٧؛ ابن بسام ١٠٩ .

(٥)ابن بسام ١٠٩ .

(٦)القلقشندي، صبح ٤ / ٢٠٠؛ الخالدي ١٤٧ .

والكحال : مفرد، جمعه: كحالون، وهو الطبيب المختص بمعالجة أمراض العين دون سائر الجسم، قال ابن كنان : ولما كان البصر أعز ما في الآدمي من جوهر البدن، فقد أفرد الحكماء الأقدمون له حكيماً واحداً، وجميع البدن واحداً.

(ابن كنان، حدائق ١٧٩؛ ضومط ٣٨٣؛ الخطيب ٣٦٥).

(٧)القلقشندي، صبح ٤٣٩/٥ .

(٨)المصدر نفسه ٤ / ٢٠٠ .

(٩)ابن الأخوا ١٦٨؛ ابن بسام ١١٩-١٢٠؛ القلقشندي، صبح ٨٩/١١ .

(١٠)العري، التعريف ١٩٧-١٩٨ .

٣_ رئاسة الجراحية^(١):

أما رئاسة الجراحية فيتولاها رئيس الجراحية، وهو الذي يحكم على طائفة الجراحين والمجسرين ويأذن لهم بالجراحة والتجبير^(٢)، ويعين رئيس الجراحية من قبل النائب^(٣). وعلى متولي هذه الوظيفة أن يكون على معرفة بكل ما يحتاج إليه في هذه الوظيفة وان يتوقى في كل أعماله^(٤) فإنه في صناعة كلها خطر، ويكون مع الجيش في أوقات الحرب ليخفف عنهم ويجبر كسورهم، ويشد أزهرهم ويداوي جراحهم^(٥).

خامسا : وظائف زعماء أهل الذمة :

أولا : النصارى :

كان للنصارى في دمشق بطر كان^(٦)، أحدهما لطائفة الملكية^(٧)، وبطرك لطائفة اليعاقبة^(٨)، وكل منهما يختص بالنصارى التابعين له في النيابة، وهو المسؤول أمام السلطان عن تصرفات أبناء طائفته، وعليه التوسط بينهم وبين الدولة، وكانت كل طائفة تختار بطركها دون تدخل من جانب السلطان^(٩)، ومع ذلك نجد السلطان أحيانا يتدخل في انتخابات البطرک عند الضرورة^(١٠)، كأن يحدث نزاع على

(١) القلقشندي، ص ٤٠٠/٤، الخالدي ١١٤٧.

(٢) القلقشندي، ص ٤٣٩/٥.

(٣) المصدر نفسه ٢٠٠/٤.

(٤) العمري، التعريف ١٩٨-١٩٩.

(٥) البطرک: مرتبه دينية عند النصارى يعد صاحبها رئيس رؤساء الأساقفة، جمعه: بطارك وبطاركة، وأول من أطلق هذا اللقب في التوراة على رؤساء القبائل أو العائلات وهم: إبراهيم الخليل وإسحاق ويعقوب. (ابن خلدون، المقدمة ٤٢٣٣؛ الخطيب ٨٠).

(٦) طائفة الملكية: وتسمى أيضا بطائفة الملكانيين أو الملكانية، وهم القائلين بأن للمسيح طبيعتين ومشيئتين إحدت في أقنوم واحد وقوام إلهي واحد، أي أن المسيح هو الله وإنسان في آن واحد، وتنسب هذه الطائفة إلى الإمبراطور البيزنطي مرقيان (٤٥٠-٤٥٧م) الذي دعا إلى عقد مجمع خلقدونية سنة ٤٥١م بسبب ما أثير من نزاع حول طبيعة المسيح، ومذهب مذهب الملكانية الروم والفرنجية ومن والاهم. (ابن خلدون، المقدمة ٢٣٣-٢٣٤؛ القلقشندي، ص ١٣ / ٢٧٩-٢٨٠، المقرئ، الخطط ٤/٤٢٢؛ قاسم، أهل ٣٤؛ النقاش ٢١؛ عاشور، أوروبا ٥٥).

(٧) طائفة اليعاقبة: هم القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح، أي أن المسيح جوهر من جوهرين وأقنوم من أقنومين ومشيئة من مشيئتين، ومعنى آخر أن المسيح هو الله بشكل إنسان، ومن ثم عرفوا بالمتوحيديين (Monophysite) ودعاهم خصومهم المعارضون لهم باليعاقبة نسبة إلى ديسقورس ثامن بطاركة كنيسة الإسكندرية لأن اسمه كان يعقوب قبل أن يصبح بطركا، وقبل بل كان له تلميذ اسمه يعقوب، وقيل أيضا بأن يعقوب كان تلميذ بطرك إنطاكية وكان يثبت النصارى على مذهب ديسقورس، وكان كثير العبادة بلبس خلق السراذع فسمي يعقوب السراذعي. (ابن خلدون، المقدمة ٢٣٣-٢٣٤؛ القلقشندي، ص ١٣/٢٨١؛ المقرئ، الخطط ٤/٤١٥-٤١٦، عاشور، أوروبا ٥٥، قاسم، أهل ٣٤؛ النقاش ٢١).

(٨) ابن خلدون، المقدمة ٢٣٣-٢٣٤؛ القلقشندي، ص ٤٠١/٤؛ الخالدي ١١٤٧؛ زياده، دمشق ١٦٤.

(٩) حجازي ٥٨.

السامرة^(١)، كما ذكر هذه الوصية أيضا القلقشندي في كتابه «صبح الأعشى»^(٢)، وهذا يدل على أن للسامرة رئيس خاص بهم قبل سنة ٨٦٠هـ/١٤٥٥م التي ذكرها ترتون في كتابه، وبناء على المعطيات السابقة يمكننا القول أنه كان للسامرة رئيسا خاصا بهم منذ النصف الأول للقرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد على الأقل وهي الفترة التي عاش فيها العمري وكان رئيس السامرة يقيم في مدينة نابلس وله نائب مقيم في دمشق^(٣).

وكان مرسوم التولية «قرار التعيين» لرئيس اليهود يصدر في الغالب عن نائب دمشق وأحيانا عن السلطان مباشرة كما هو الحال بالنسبة لبطرك النصارى^(٤).

ومن جملة الوصايا التي كانت تصدر لرئيس اليهود ورئيس السامرة فتطلب منه أن يكون أكبر الكهنة وأعلم الأحبار، عارفا بأمر دينه، حسن السياسة، حسن الأخلاق، مشهورا بالوجاهة والنباهة، ذا عبرانية حسنة، ودراسة لكذب أهل ملته على ما فيها من التغيير، مستوعبا لكل أمور طائفته صغيرها وكبيرها، وأن يلزم أتباعه بما يلزمهم من حكم أمثالهم من أهل الذمة الذين يقيمون في البلاد، كدفع الجزية و الالتزام بشعارهم الأصفر وعدم مضايقة المسلمين، وله ترتيب طبقات أهل ملته والحديث في جميع كنائسهم «كنسهم» من غير تجديد متجدد، أو إحداث قدر زايد عليها، وليحكم في أنكحتهم و مواريتهم^(٥).

(١) العمري، التعريف ٢٠٤.

(٢) القلقشندي، صبح ٣٨٦/١١.

(٣) القلقشندي، صبح ٢٠١/٤؛ زباده، دمشق ١٦٤.

(٤) القلقشندي، صبح ٥/١٢.

(٥) العمري، التعريف ٢٠٢-٢٠٣؛ القلقشندي، صبح ٣٨٦-٣٨٤/١١.

الفصل الثالث

حياة الأمير تنكز الحسامي

اسمه ونسبه:

هو الأمير سيف الدين أبو سعيد تنكز بن عبد الله الحسامي الناصري^(١).

أصله:

الأمير تنكز من الأتراك القفجاقية^(٢)، شأنه في ذلك شأن الكثير من المماليك، ومن المعروف أن المماليك ليسوا من أصل واحد بل كانوا من أجناس شتى حملها تجار الرقيق^(٣).

ولذا فالأمير تنكز مملوك جلبه الخواجا^(٤) علاء الدين التاجر، وكان تنكز آنذاك صغير السن، فاشتره الأمير حسام الدين لاجين^(٥) قبل سلطته، حيث أصبح سلطاناً على الدولة المملوكية فيما بعد (٦٩٦-٦٩٨هـ/١٢٩٦-١٢٩٨م) وعرف بالملك المنصور حسام الدين لاجين، وبعد مقتله أصبح تنكز

(١) ابن الوردي، تمة ٤٤٦٦/٢، اليوسفي ٤١١٣، الصفدي، الوافي ٤٢٠/١٠، أمراء ٤٢٢، الكني، فوات ٤٢٥١/١، ابن كثير ٤١٥٢/١٤، ابن حبيب، تذكرة ٣٢١/٢، ابن خلدون، العبر ٤٤٤٢/٥، المقرزي، السلوك ١١٨٠/٢، ابن حجر، الدرر ٤٥٢٠/١، ابن تغري بردي، النجوم ٢٤٢/٩، المنهل ٤١٥٦/٤، النعمي، المدارس ٤١٨٦/٢، ٩١/١، الشوكاني ١٦٩/١.

(٢) الأتراك القفجاقية: وهم فرع من الترك، مساكنهم الأصلية حوض نهر إتل ((الفولجا))، جنوب روسيا الحالية، وهم قوم لا يستوطنون داراً، بل ينتقلون من أراضيهم في ارتباد مياهم ومراعهم، وهم قبائل متعددة، ولم يزالوا فاطنين بأماكنهم إلى أن اتفق خروج المغول واستيلائهم على تلك الأقاليم والأمصار سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م.

(٣) المنصوري، زبدة ١٥٠/١، ابن دقماق ٥١/٢، القلقشندي، صبح ٤٢٠/١-٤٢١، المقرزي، السلوك ٣٣٩، ٣٤١، ابن تغري بردي، النجوم ٥٨/١٢، ح ٢.

(٤) الخواجا: لفظ فارسي بمعنى التاجر أو الشيخ أو السيد. (التونجي ٢٤٣).

(٥) حسام الدين لاجين: هو السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين، أصله من ممالك السلطان الملك المنصور قلاوون، اشتراه ورباه وأعتقه ورفاه إلى أن جعله من جملة ممالكه، فلما تسلطن قلاوون أمره وجعله نائباً لقاعة دمشق، تسلطن لاجين عام (٦٩٦هـ/١٢٩٦م)، ودامت سلطنته مدة سنتين وثلاثة شهور، ومع ذلك فقد كان ((ديناً متقشفاً كثير الصوم قليل الأذى قطع أكثر المكوس، وقال: إن عشت ما تركت مكساً واحداً)). وكانت وفاته عام ٦٩٨هـ/١٢٩٨م، وفي أيامه أبطل عادة نقل الثلج من الشام إلى القاهرة عن طريق البحر. (الجزري ٤٤٦/١، الذهبي، دول ٢٠١/٢، سير ٢٠١-٢٠٠/١٧، العبر ٣٩٣/٣، ابن تغري بردي، النجوم ٨٧-٨٦، ٧٠/٨).

من خاصكية^(١) السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وذلك مع بداية سلطنته الثانية في الدولة المملوكية (٦٩٨-٧٠٨هـ/١٢٩٩-١٣٠٨م)^(٢).

ونظراً لأن المملوك يلقب بلقب أستاذه فقد لقب تنكر بالحسامي نسبة إلى حسام الدين لاجين، كما لقب بالناصرية نسبة إلى أستاذه الثاني الناصر محمد بن قلاوون^(٣)، ويذكر ابن حجر العسقلاني أن علاء الدين السيواسي -و الذي جلب تنكر إلى مصر- لم يبعه للأمير حسام الدين لاجين، بل باعه للسلطان الأشرف خليل بن قلاوون^(٤)، وأن حسام الدين لاجين اشتراه من الأشرف خليل^(٥). ومما يؤكد ذلك أن كلاً من الصفدي في "الوافي بالوفيات" وابن تغري بردي في "المنهل الصافي" يؤكدان هذا الخبر، والذي نقله أولاً هو الصفدي ثم ابن تغري بردي فيقول الصفدي بهذا الصدد: "أخبرني القاضي شهاب الدين ابن القيسراني قال: قال لي "تنكر" يوماً: أنا والأمير سيف الدين طينال^(٦) من ممالك الملك الأشرف^(٧)، ويضيف ابن تغري بردي قائلاً: "يعني بذلك الأشرف خليل بن قلاوون"^(٨). كما أن الصفدي في "تحفة ذوي الألباب" يقول عن أصل الأمير تنكر بأنه "مملوك الأشرف والناس يعتقدون أنه مملوك لاجين"^(٩).

(١) الخاصكية: لفظ مملوكي جمع، مفردة خاصكي، وهم نوع من الممالك السلطانية يختارهم من الممالك الأجلاب الذين دخلوا في خدمته صفاراً ويعملهم في حرسه الخاص، وجعل هذا الاسم خاصاً بهم لأنهم يحضرون على السلطان في أوقات خلواته وفراغه، و يحضرون في خدمة الأصطبل والقصر، ويركبون مركوب السلطان ليلاً ونهاراً ولا يتخلون في قرب ولا بعد، ويجهزون في المهمات الشريفة، وكانت عدتهم في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون أربعين خاصكياً. (الظاهر ١١٥-١١٦هـ/١١٦-١١٧هـ، مجمع ٦٦، الخطيب ١٥٧).

(٢) الصفدي، الوافي ١٠/٤٤٢، الكنتي، قوات ١/٢٥١، ابن خلدون، المعر ٥/٤٤٢، ابن حجر، الدرر ١/٥٢٠، ابن تغري بردي، النجوم ٩/١١٧، المنهل ٤/١٥٦، ابن إياس، بدائع ١/٤٧٩، ١/٤٨٠، الشوكاني ١/١٦٩، دهمان، ولاة ١٥٦، الحجي، الأمير ١١.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم ٩/١١٧، ابن إياس، بدائع ١/٤٧٩، ١/٤٨٠، دهمان، ولاة ١٥٦، الحجي، الأمير ١١.

(٤) خليل بن قلاوون: الأشرف صلاح الدين خليل بن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الأنفي الصالح النجمي، تولى الحكم في سلطنة المماليك في يوم وفاة أبيه في ذي القعدة سنة ٦٨٩هـ/تشرين الثاني ١٢٩٠م، وكان والده قلاوون قد سلطه في حياته بعد موت أخيه الملك الصالح علي بن قلاوون في سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م، واستمر في السلطنة حتى عام ٦٩٣هـ/١٢٩٣م، حيث قتل في بداية هذا العام وهو خارج للصيد. (ابن كثير ١٣/٢٧٨، ابن تغري بردي، النجوم ٣/٨).

(٥) ابن حجر، الدرر ١/٥٢٠.

(٦) سيف الدين طينال: هو الأمير سيف الدين طينال الأشرفي الحاجب، وولي نيابة طرابلس عام ٧٢٦هـ/١٣٢٦م، وبقي فيها نائبا حتى عام ٧٣٣هـ/١٣٣٢م، فنقل إلى نيابة غزة إهانة له بسبب شكوى نائب الشام (تنكر) عليه فحكم بما قليلاً ثم عاد إلى طرابلس عام ٧٣٥هـ/١٣٣٤م بعد أن تعهد بالطاعة لتنكر، ثم أمر نائبا بدمشق عام ٧٤١هـ/١٣٤٠م بعد القبض على تنكر، ثم أعيد إلى طرابلس وبعدها إلى نيابة صفد فمات بها عام ٧٤٣هـ/١٣٤٢م. (الصفدي، الوافي ١٦/٥١٦، ابن كثير ١٤/٩٩، ابن حجر، الدرر ٢/٢٣٢-٢٣٣).

(٧) الكنتي، قوات ١/٢٥١، الصفدي، الوافي ١٠/٤٤٢، ابن تغري بردي، المنهل ٤/١٥٧.

(٨) ابن تغري بردي، المنهل ٤/١٥٧.

(٩) الصفدي، تحفة ٢/٢٣١.

«كان يعظم أهل العلم، وإذا كان عنده منهم أحد لم يسند ظهره يتقبل ويقبل بوجهه إليه ويؤنسه بالقول و الفعل»^(١).

نشأته و ظهوره على مسرح الأحداث:

بعد أن أصبح تنكز من خاصكية السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ومن المقرين منه أمره السلطان إمرة عشرة^(٢)، وقد رقي إلى هذه المرتبة من قبل السلطان الناصر في سلطته الثانية (٦٩٨-٧٠٨هـ/١٢٩٩-١٣٠٨م)، وذلك قبل توجهه إلى الكرك^(٣)، وفي أثناء إقامة السلطان الناصر بالكرك كان تنكز مقيماً معه، بل و يرسل بينه و بين الأفرم^(٤) نائب دمشق آنذاك، فاتمه الأفرم مرة أن معه كتاباً إلى أمراء الشام ففتشه وعرض عليه العقوبة، فرجع إلى الناصر في الكرك، وشكا إليه ما لقيه من الإهانة، فقال له الناصر: «إن عدت إلى الملك فأنت نائب الشام»^(٥).

ويتفق مؤرخو العصر المملوكي على أنه بعد عودة الناصر محمد بن قلاوون من الكرك ليتولى زلمم حكم دولة المماليك للمرة الثالثة عام ٧٠٩هـ/١٣١٠م أصدر مرسوماً بتعيين تنكز الحسامي نائباً للشام عوضاً عن الأمير جمال الدين آقوش الأفرم في ربيع الثاني سنة ٧١٢هـ/آب سنة ١٣١٢م^(٦).

ويبدو أن الناصر محمد كان يهدف من وراء تنفيذ هذه الخطوة أن يوجد لنفسه في فترة حكمه تلك نواباً مخلصين يتفانون في العمل على تعزيز سلطته في مختلف ولايات الدولة، يكونون بمثابة الساعد

(١) ابن حجر، الدرر، ٥٢٣/١.

(٢) الكشي، فوات، ٢٥١/١؛ الصفدي، الوالي، ٤٢١/١٠، تحفة، ٢٣١/٢-٤٣٢؛ المقرزي، المقفى، ٦٠٧/٢؛ ابن حجر، الدرر، ٥٢٠/١؛ ابن تغري بردي، المنهل، ١٥٧/٤؛ النجوم، ١١٧/٩؛ ابن إياس، بدائع، ٤٨٠/١؛ الشوكاني، ١٦٩/١؛ الحجي، الأمير، ١٢، ١١.

(٣) الصفدي، الوالي، ٤٢١/١٠، تحفة، ٢٣١/٢-٢٣٢؛ الكشي، فوات، ٢٥١/١؛ المقرزي، المقفى، ٦٠٧/٢؛ ابن حجر، الدرر، ٥٢٠/١؛ ابن تغري بردي، النجوم، ١١٧/٩؛ المنهل، ١٥٧/٤؛ الشوكاني، ١٦٩/١؛ الحجي، الأمير، ١٢، ١١.

(٤) آقوش الأفرم: هو آقوش بن عبد الله النوادرى المنصوري، الأمير جمال الدين، نقل من مصر إلى الشام أميراً، وأقام بها مرة قبل النيابة وكان في نيابته بدمشق يسكن القصر الأبلق، وأنشأ في الصالحية جامعاً المشهور، وكان قد عظم في نيابته بدمشق، حتى أنه كان يكتب توافيق بوظائف وإقطاعات ويعتهد بها إلى مصر ليعلم عليها السلطان، وفي عهد الناصر محمد بن قلاوون عزل عن النيابة ثم أعيد إلى نيابة طرابلس، ومنها فر هو وقرأ سنقر إلى ملك المغول، كان فارساً بطلاً، وكان لأهل دمشق فيه محبة مفرطة. (الصفدي، الوالي، ٣٢٦/٩، تحفة، ٢٢٦/٢-٢٢٩؛ ابن حجر، الدرر، ٣٩٦/١-٣٩٨؛ ابن تغري بردي، المنهل، ٩/٣-١٤؛ ابن طولون، إعلام، ١٠-١١؛ دهمان، ولاة، ١٤٤).

(٥) الصفدي، الوالي، ٤٢١/١٠؛ ابن حجر، الدرر، ٥٢٠/١؛ ابن تغري بردي، المنهل، ١٥٧/٤-١٥٨؛ الشوكاني، ١٦٩/١؛ دهمان، ولاة، ١٥٦؛ الحجي، الأمير، ١٢.

(٦) مجهول، تاريخ، ١٥٨؛ الشجاعى، ٤٥؛ الذهبي، دول، ٢١٧/٢؛ ابن الوردي، صفة، ٣٧٢/٢؛ الصفدي، تحفة، ٢٣٢/٢؛ الوالي، ٤٢١/١٠، أمراء، ٢٢؛ ابن كثير، ٥٣/١٤؛ ابن حبيب، ذرة، ١/٢٩٧-أب؛ ابن صبرى، ١٨٣؛ ابن خلدون، العبر، ٥/٤٢٥، ٤٤٢؛ المقرزي، السلوك، ١١٨، ١/٢؛ ابن حجر، الدرر، ٥٢٠/١؛ ابن تغري بردي، النجوم، ١١٧/٩-١١٨؛ المنهل، ٤/١٥٨؛ ابن إياس، بدائع، ١/٤٢١؛ ابن طولون، إعلام، ١٢؛ النعيمي، الدارس، ١٨٦/٢؛ الشوكاني، ١٦٩/١؛ دهمان، ولاة، ١٥٦.

٥٢٢/١٢

الأيمن له في تلك المرحلة الحاسمة في تاريخ سلطنة المماليك، خصوصا وأنه واجه مشاكل عديدة من قبل الأمراء الطامعين في الحكم حيث عزلوه عن السلطة مرتين^(١).

ويلاحظ بأن الناصر محمد بن قلاوون عمل على هيئته تنكز لتولي نيابة دمشق وذلك من خلال تدريبه على فن القيادة وأساليب الإدارة والحكم، فيذكر مؤرخو العصر المملوكي بهذا الصدد انه لما عاد الناصر إلى كرسي الحكم: "قال لتنكز ولسودي"^(٢): لازما أرغون^(٣) النائب وتعلما أحكامه فلازمه سنة، ثم جهز سودي لنيابة حلب، و تنكز لنيابة الشام على البريد، وكان أول ما أمر طبلخاناه في أواخر شوال عام ٧٠٩هـ / آذار ١٣٠٩م بعد رجوع الناصر إلى السلطنة، وكانت ولايته على دمشق في ربيع الآخر ٧١٢هـ / آب ١٣١٢م، وأرسل معه الحاج أرقطاي^(٤)، والحسام طرنطاي^(٥) البشمقدار^(٦)، وأمره أن لا يقطع أمرا دونهما، فباشرها، وتمكن منها، ولما ليس الخلعة، وحضر الموكب، مدحه علاء الدين

(١) ابن أيبك، ٦/٩، ١٦٧، الذهبي، دول ٢/٢٤٧؛ الصفدي، الوافي ٤/٣٥٣-٣٦٦؛ ابن حبيب، درة ١/ ١٨٠؛ المقرئ، الذهب ٥٥٦-٥٦٠، ٥٥٧؛ ابن حجر، الدرر ٤/١٤٤-١٤٨ الحجي، الأمير ١٣.

(٢) سودي: هو سيف الدين سودي بن عبد الله الناصري، كان من أعيان الأمراء، ولي نيابة حلب في سنة ٧١٢هـ / ١٣١٢م، وهو السدي أخرى النهر من الشاحور إلى قويق وطوله أربعون ألف ذراع، وكانت القرامة عليه أربعمئة ألف درهم، لم يظلم منه أحداً، ولم ينزل إلى أن مات في رجب سنة ٧١٤هـ / تشرين الأول ١٣١٤م، وكانت مدة إمرته على حلب سنتين، وكان مشكور السيرة في ولاية، وهو ممن أنشأه الملك الناصر محمد من مماليكه. (ابن كثير ١٤/٥٠؛ ابن حجر، الدرر ٢/١٧٩؛ ابن تغري بردي، النجوم ٩/١٦٢).

(٣) أرغون: هو الأمير سيف الدين أرغون شاه الناصري، كان قد جلبه الكمال الخطائي إلى السلطان بوسعيد من الصين، فبعثه إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون، فحفظي عنده، وتدرج بالأمرة حتى رسم له نيابة صغد، فبقي بها حتى سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م، ثم ولي نيابة حلب سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م، ثم ولي دمشق وتوفي فيها سنة ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م). (الصفدي، السوالي ٨/٣٥١-٣٥٤، تحفة ١/٢٧٢-٢٧٨؛ المقرئ، السلوك ٢/٨٠٠-٨٠٣؛ ابن حجر، الدرر ١/٣٥٠؛ دهمان، ولاية ١٩٦).

(٤) الحاج أرقطاي: هو الأمير سيف الدين أرقطاي بن عبد الله، وهو ممن أنشأهم الملك الناصر محمد بن قلاوون، ورفاه إلى أن ولاه نيابة صغد، ثم نقله إلى نيابة طرابلس، ثم ولي نيابة حلب سنة ٧٤٦هـ / ١٣٤٥م، ثم عزل في السنة المذكورة ونقل إلى نيابة السلطنة بالديار المصرية، ثم ولي نيابة حلب ثانية سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م، ثم ولي نيابة دمشق فتوفي قبل وصولها بظاهر حلب في خامس جمادى الأولى سنة ٧٥٠هـ / ٢٣ تموز ١٣٤٩م. (المقرئ، السلوك ٣/٨١٢؛ ابن حجر، الدرر ١/٣٥٤؛ ابن تغري بردي، المنهل ٢/٣٢٨).

(٥) الحسام طرنطاي: هو الأمير حسام الدين طرنطاي البشمقدار، ولي نيابة غزة أيام الملك الصالح علاء الدين إسماعيل بن الناصر محمد، (٧٤٣-٧٤٦هـ / ١٣٤٢-١٣٤٥م)، عام ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م، وذلك بعد توجه الأمير علم الدين سنجر بن عبدالله الجاولي إلى مصر، وأقام في غزة سنة أو أكثر، ثم نقل إلى مصر سنة ٧٤٤هـ / ١٣٤٣م، وتوفي بدمشق عام ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م بعد أن جاوز السبعين. (ابن حبيب، درة ٢/٢٧٠؛ ابن حجر، الدرر ٢/٢١٧).

(٦) البشمقدار: ورد في بعض المصادر (البشمقدار) وهو لفظ مركب من: يجمع التركية بمعنى النعل، ودار الفارسية بمعنى ممسك، فيكون معناه ممسك النعل أو حامل النعل، و البشمقدار: مرتبة أو وظيفة كانت معروفة في العصر المملوكي حاملها من فئة المماليك السلطانية، ومهمته حمل نعال الملك أو السلطان. (القلقشندي، صبح ٥/٤٣١؛ ابن كان، حدائق ١٣٩؛ الخطيب ٦٩؛ عاشور، العصر ٤١٨).

ابن غانم^(١) موقع الدست، فأثابه، واستمر يجلس وإلى جانبه الأرقطاي، فتقرأ القصص عليهما، وسلك تنكر سبيل الحرمة والناموس البالغ^(٢).

يلاحظ بأن السلطان الناصر وقبل تقليد تنكر نيابة دمشق عام ٧١٢هـ/١٣١٢م، عمل على ترفيته من مرتبة أمير عشرة إلى مرتبة أمير طبلخاناه عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، وقد احتفل المماليك بهذه الترقية التي حصل عليها تنكر مع مجموعة من الأمراء، وذلك في مدينة القاهرة^(٣).

وحينما عين السلطان الناصر تنكر نائبا على دمشق أقيمت الاحتفالات في المدينة بهذه المناسبة، إذ «خرج الناس لتلقيه وفرحوا به كثيرا، ونزل بدار السعادة، ووقع عند قدومه مصر فرح عظيم...، وأشعلت له الشموع في طريقه^(٤)».

فلما جلس الأمير تنكر بدار السعادة، وحضر الأمراء والقضاة وأهل الدولة على العادة، قام علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن سلمان بن غانم الموقع وانشد أبياتا شعرية يرحب فيها بتنكر ويمتدحه، ومنها:

بشر دمشق بوجوده	فيها ومن ظهرت دلائل جوده
إذا جاءها الرحمن منه برحمة	وسمت جميع الأرض عند وروده
وتيمن طلعتة وطالعه الذي	شرقت علينا نيرات سعوده
طابت دمشق لأهلها وجميع من	فيها بما سكنت يجفن بنوده
كم في المغاني من معان أطربت	فرحاً بمقدمه ومن وروده
وتناثرت ورد الحباء حباً له	لما يرى ذاك النهار كعيده ^(٥)

ويلاحظ بأن تنكر الحسامي وصل إلى نيابة دمشق في فترة وجيزة جدا، فالفترة الواقعة بين حصوله على مرتبة الطبلخاناه عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م وبين تقليده منصب النيابة عام ٧١٢هـ/١٣١٢م هي فترة قصيرة جداً لم تتجاوز الثلاث سنوات، ولذا فإن تنكر الحسامي يعتبر أول أمير قفز قفزة واحدة إلى النيابة في عصره^(٦)، ويعبر ابن تغري بردي عن ذلك بقوله: «ثم خلع السلطان علي تنكر الحسامي الناصري

(١) علاء الدين بن غانم: هو أبو الحسن علي بن محمد بن سليمان بن حائل بن علي المقدسي، أحد الكبار المشهورين بالفضائل و حسن الترسل وكثرة الآداب والأشعار، ولد سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م، وسمع الحديث، وحفظ القرآن والتشبيه، توفي أثناء رجوعه من الحج في تيسوك عام ٧٣٧هـ/١٣٣٦م، ودفن هناك. (ابن كثير ١٤/١٤٤٤، ابن حجر، الدرر ٣/١٠٣-١٠٤).

(٢) الكشي، فوات ١/٢٥١-٢٥٢؛ الصفدي، الوافي ١٠/٤٢٠-٤٢١؛ المقرئ، السلوك ١/١١٨، المقفى ٢/٦٠٨، ابن حجر، الدرر ١/٥٢٠-٥٢١.

(٣) ابن الزردى، تمة ٢/٣٧٢؛ المقرئ، السلوك ١/٧٧، المقفى ٢/٦٠٧، ابن تغري بردي، النجوم ٩/١٢-١٣).

(٤) الذهبي، دول ٢/٢١٧، ابن كثير ١٤/٥٣.

(٥) المقرئ، المقفى ٢/٦٠٨.

(٦) دهمان، ولاة ١٥٦.

بنيابة دمشق دفعة واحدة عوضا عن أقوش نائب الكرك، وتتكز هذا هو أول من رفاه من مماليكه إلى الرتب السنية^(١).

فمن المعروف أن المملوك كان يحصل بداية على مرتبة أمير خمسة، ثم أمير عشرة، ثم أمير طبلخاناه، ثم أمير مائة، وكان يسلك في طريق ترقيته خلال هذه الرتب طريقين: الأول: التدرج الطبيعي من رتبة إلى أخرى، فكان السلطان إذا اشترى عددا من المماليك يرسلهم أولا إلى الأطباء لفحصهم، ثم يضم المملوك بعد ذلك إلى الطبايق^(٢)، ثم يسلم إلى طواشي من اجل تعليمه الكتابة^(٣)، وأول ما يبدأ بتعلمه القرآن الكريم بوساطة فقيه، وكان لكل مجموعة منهم فقيه خاص يعلمهم آداب الشريعة وملازمة الصلاة، فإذا اجتاز المملوك هذه المرحلة، كان يعلم شيئا من الفقه، وعند ما يصل إلى سن البلوغ فإنه يدرّب على فنون القتال من رمي السهام ولعب الرمح حتى يتمكن من إجادتها^(٤)، ويُدْرَج المملوك بعد ذلك بالجامكية^(٥)، فإذا وصل إلى سن الرجولة فإنه يعتق وينعم عليه بخيل و قماش، ويصبح أمير خمسة، ثم يتدرج بعد ذلك بالرتب العسكرية إلى أن يصير من الأمراء، فلا يبلغ هذه المرحلة إلا وقد كثرت آدابه، وامتزج تعظيم الإسلام قلبه، واشتد ساعده، ومرن على ركوب الخيل، وقد كان للمماليك أزمة من الخدام، وأكابر من رؤوس النوب، يفحصون الواحد منهم فحصا شافيا، ويواخذونه أشد المواخذة، فإن عثر أحد مؤدبيه على أنه اقترف ذنبا أو أخل برسم أو ترك شيئا من آداب الدين و الدنيا، قابله على ذلك بعقوبة شديدة بقدر جرمه، وهكذا فقد كان المماليك في بداية عهدهم سادة يديرون المسالك، وقادة يجاهدون في سبيل الله، وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل، وصار منهم الفقيه والأديب والحاسب^(٦).

(١) ابن تفردي، النجوم ٣٠/٩.

(٢) الطبايق: أو الأطبايق، مفردا طبقة أو طبق، وهي الأماكن التي يسكنها المماليك الذين يشتريهم السلطان أو حتى الأمراء، وهي المدارس العسكرية، وكانت هذه الطبايق موجودة في أماكن متفرقة من القاهرة وخارجها ولاسيما في القلعة، حتى أنه بلغ عددها اثني عشر طبقا أو أكثر، وكان بعضها يشغل مساحة كبيرة، كأنه حي بأكمله قد يحتوي على ألف مملوك. (البقلي، التعريف ٢٢٧-٢٢٨؛ دهمان، معجم ١٠٥؛ الخطيب ٣٠٣).

(٣) المقرئزي، الخطط ٣٧٢/٣؛

(٤) المقرئزي، السلوك ٥٢٤، ٢/٢-٥٢٥، الخطط ٣٧٢/٣-٣٧٣؛ مبارك باشا ١٣٤.

(٥) الجامكية: لفظ فارسي مشتق من حامة بمعنى اللباس، أي نفقات أو تعويض اللباس الحكومي، وقد ترد بمعنى الأجر أو الراتب أو المنحة، والجمع جامكيات، جوامك، جماكي. (الفلقشندي، صحح ٥٢٤/٣، ح ٤٤؛ المقرئزي، السلوك ١/١، ٥٢٤؛ ابن أحمأ ١١٦٧؛ التوثيحي ١٩٨؛ أدبي سير ٤٥؛ البقلي، التعريف ٨٢؛ دهمان، معجم ٥١؛ الخطيب ١١٩؛ طرخان ٤٧٦-٤٧٧).

(٦) المقرئزي، السلوك ٥٢٤، ٢/٢-٥٢٥، الخطط ٣٧٣/٣؛ عاشور، الأيوبيين ٣٦٩؛ طرخان ١٦٣.

أما الطريق الآخر: فهو الطفرة، أي الترقية السريعة دون السلوك في الطريق و التدرج الطبيعي^(١)، وهو ما سلكه تنكز.

ثروة الأمير تنكز و أملاكه

لقد أظنت المصادر التاريخية في الحديث عن ثروة الأمير تنكز الحسامي، وقد حصل على هذه الثروة الطائلة والأملاك الكثيرة من خلال عدة طرق :

الأولى عن طريق الإقطاعات أو ما عرف بـ «الأخياز»^(٢) التي كانت تمنح بدل الخدمات العسكرية^(٣). يضاف إليها ما كان يمنح مقابل منصب معين، فكل من يتسلم نيابة الشام كانت تضاف إلى إقطاعه بصرى والحراك الشرقي و الغزلانية^(٤)، بالإضافة إلى سرمين^(٥) و حرستا^(٦).

و لم تكن الإقطاعات هي مصدر الدخل الوحيد بالنسبة للأمير تنكز فقد حصل على الإنعامات السلطانية التي كانت على عدة أوجه، فمنها ما كان يأخذه من أموال عند زيارته السنوية للسلطان الناصر في القاهرة، فيذكر ابن تغري بردي أن الناصر كان ينعم على تنكز في كل سنة يزوره في مصر ألف ألف درهم^(٧).

ويلاحظ بأن زيارات الأمير تنكز للسلطان الناصر في القاهرة تكررت كثيراً، وكان في كل زيارة ينعم عليه^(٨)، حتى أن إنعامات الناصر على تنكز بلغت في بعض السنوات سبعمائة ألف ألف درهم^(٩)، ويذكر المؤرخ الشجاعي أن الأمير تنكز و في زيارته الأخيرة للناصر في القاهرة عام ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م مكث شهرين، وكان راتبه في كل يوم أربعة آلاف درهم نقرة^(١٠).

(١) عاشور، الأيوبيين ٣٦٩؛ طرخان، ١٦٣.

(٢) الأخياز: جمع خيز، من معاني هذا اللفظ في عصر الماليك، وهو إقطاع من الأرض، فيقال أخياز الأجناد أي إقطاعهم (عاشور، العصر ٤٣٤).

Ziadeh 41.

(٣)

(٤) ابن صصرى ٦٨.

(٥) ابن الجيعان ٧٤-٧٥.

(٦) العلي، الملك ٥٠.

(٧) ابن تغري بردي، النجوم ١٤٩/٩.

(٨) مجهول، تاريخ ١٩٩؛ الشجاعي ٣٣ب؛ اليوسفي ١٦٠، ١٦٠، ١٩٠، ٢٥٢، ٢٦٤، ٣٤٣؛ الصفي، السوالي ١٠/٤٢٧؛ القريزي، السلوك ١/٢، ٢٣١-٢٣٢، ٢/٢، ٣١٧، ٣٥٩، ٣٧١، ٤١٧، ٤٣٢، ٤٦٠، ٤٦١؛ ابن تغري بردي، النجوم ٩/٨٠، ٩١، ٩٩؛ ابن إياس، بدائع ١/١، ٤٦١، ٤٦٩، ٤٨٠.

(٩) الشجاعي ٣٣ب؛ ابن صصرى ١٨٣؛ ابن طولون، إعلام ١٣.

(١٠) الشجاعي ٣٣أ.

والدراهم النقرة: النقرة لغة: السبيكة أو القطعة المذابة من الذهب والفضة، وفي الاصطلاح أطلق هذا اللفظ على العملات المصنوعة من المعادن كالذهب و الفضة، و يكون ثلثها من فضة وثلثها من نحاس و تطبع بدور الضرب بالسكة السلطانية.

(القلقشندي، صح ٣/٥٠٩، ٥١٠؛ الخطيب ٤٢٤؛ عاشور، العصر ٤٥٩).

كما أن نواب السلطنة فرضت عليهم التقدام^(١)، والتي كانوا يودونها للسلطان^(٢)، وقد حرصوا على ضخامتها و أن تكون كل مقدمة أكبر من سابقتها^(٣)، وتجدر الإشارة إلى أن التقدام التي كان يودونها تنكز للسلطان تكشف عن ثروته الضخمة، فكانت أهم تقادم الأمراء و النواب، و قد أسهبت المصادر المعاصرة في الحديث عنها، حيث كان يقدمها للسلطان في كل زيارة له^(٤).

وقد بلغت هذه التقدام التي كان يحملها تنكز للسلطان في كل سنة قدراً كبيراً حتى أن قيمتها في عام ٧٣٩هـ/١٣٣٨م قدرت بمائتين وسبعين ألف دينار، وزعت على النحو التالي: «من الجوهر ثلاثون ألف دينار، ومن الزركش^(٥) عشرون ألف دينار، ومن أواني البلور و تعابي القماش^(٦) و الخيل والسروج والبخاتي^(٧) ما قيمته مائتان و عشرون ألف دينار^(٨)».

ونتيجة لمصادر الدخل التي ذكرناها، فقد أثرى الأمير تنكز ثراءً فاحشاً أكثر بكثير من غيره من الأمراء و النواب، الذين كانت ثروة الواحد منهم تعادل ثروة جميع العاملين في مدينة صغيرة^(٩).

ممتلكاته العقارية :

حينما القي القبض على الأمير تنكز عام ٧٤٠هـ/١٣٤٠م، ورد مرسوم السلطان إلى دمشق بتقوم أملاكه ، فعمل ذلك بالعدول وأرباب الخبرة وشهود القيمة وحضرت بذلك محاضر إلى ديوان الإنشاء

(١)التقدام: لفظ مولد تداولته العامة منذ العصر الأيوبي للدلالة على الهدايا و التقدّمات.

(الخطيب ١٠٨-١٠٩).

(٢)العريبي ٢٠٤.

(٣)ابن ياس، بدائع ١/٢، ٢٤٠.

(٤)الشجاعى ٣٢؛ المقرئى، السلوك ١/٢، ١٩٥، ٢١٥؛ ابن تغري بردي، النجوم ٩/٢٩٨؛

ابن ياس، بدائع ١/١، ٤٦١؛ مرزوق ٣٤٣.

(٥)الزركش: ذكرها الفلقشندي في أكثر من موضع دون تعريف، ويعرفها البقلي و دهمان بالزراكنشة: وهي من أرباب الصنائع و الفعل زركش، و يقال زركش الثوب أي صبغه ولونه .

(البقلي، التعريف ١٦٩؛ دهمان، معجم ٨٦).

(٦)تعابي القماش: مفرداها تعيبة، والتعبية قطعة من القماش توضع فيها الثياب كالبقعة.

(دهمان، معجم ٤٤٦؛ عاشور، العصر ٤٢٤).

(٧)البخاتي: واحدها البختي من الإبل الخرسانية، وهي جمال ضخمة ذات سنامين ووبر أسود، تستعمل في أسفار الشتاء، وقد تجمع على بخاتي أو بخت، وفي الحديث الشريف عن أشراف الساعة: «على رؤوسهن كأسنمة البخت».

(البقلي، التعريف ٦١؛ دهمان، معجم ٣١).

(٨)المقرئى، السلوك ٢/٢، ٤٦٠؛ ابن تغري بردي، النجوم ٩/٩٨.

(٩)لابدوس ٩١.

لتجهز إلى السلطان، وكانت ممتلكاته على النحو التالي:

المكان	الوصف	القيمة بالدرهم
دمشق	دار الذهب بمجموعها وإصطبلاتها	٦٠٠٠٠٠
	دار الزمرد	٢٧٠٠٠٠
	دار الزردكاش ^(١)	٢٢٠٠٠٠
	الدار التي بجوار جامعها بدمشق	١٠٠٠٠٠
	الحمام الذي بجوار جامعها	١٠٠٠٠٠
	خان العرصه	١٥٠٠٠٠
	إصطبل حكر السماق	٢٠٠٠٠
	الطابق التي بجوار حمام ابن يمن	٤٥٠٠
	قيسارية المرحلين	١٥٠٠٠٠
	الفرن والحوض بالقنوات من غير أرض	١٠٠٠٠٠
	حوانيت التعديل	٨٠٠٠
	الأهراء من إصطبل بمادر آص	٢٠٠٠٠
	خان البيض وحوانيته	١١٠٠٠٠
	حمام العمري	٦٠٠٠
	الدهشة والحمام	٢٥٠٠٠٠
	بستان العادل	١٣٠٠٠٠
	بستان النجيب والحمام والفرن	١٣٠٠٠٠
	بستان الحلبي وبستان القوصي والحدائق بحرستا	٢٦٥٠٠٠
	بستان الدردوزية	٥٠٠٠٠
	الجنيئة المعروفة بالحمام بزبددين	٧٠٠٠
	بستان الرزاز	٣٥٠٠٠
	الجنيئة و بستان غيث	٨٠٠٠
	المرزعة المعروفة بتهامة بدمشق	٦٠٠٠٠

(١) الزردكاش: مفرد، جمعه زردكاشية، لفظة فارسية تعني صف من العسكر في العصر المملوكي، إتصل عملهم بصناعة الأسلحة، وصيانتها وحفظها ضمن دار تعرف باسم: الزردخانه، وفي بعض المصادر أطلق هذا اللقب على المسؤول عن حماية السلاح^(٢) أمين مستودع^(٣). (القلقشندي، ص ١١/٤؛ البقلي، التعريف، ١٧٠؛ ضومط، ٣٨٢؛ الخطيب، ٢٢٠؛ عاشور، العصر، ٤٤٥).

المكان	الوصف	القيمة بالدرهم
دمشق	الحصة بالدفوف القبلية بكفر بطنا، ثلثها	٣٠٠٠٠
	بستان السقلاطوني	٧٥٠٠٠
	الفاطكيات والرشيدي والكروم بزمكا	١٨٠٠٠٠
	مزرعة المربع	١١٠٠٠٠
	الحصة من غراس غيضة الأعجام	٢٠٠٠٠
	نصف الغيضة المعروفة بزرنه	٥٠٠٠
	غراس قائم في جوار دار الجالق	٢٠٠٠
	النصف من خراج الهامة	٣٠٠٠٠
	الحوانيت التي قبالة الحمام	١٠٠٠٠٠
	بيدر زبدن	٤٣٠٠٠
	الإصطبلات التي عند الجامع	٣٠٠٠٠
	أرض خارج باب الفرج	١٦٠٠٠
	القصر وما معه	٥٥٠٠٠٠
	نصف بوابه	١٨٠٠٠٠
	العلاية بعيون الفارستا	٨٠٠٠٠
	حصة دير ابن عصرون	٧٥٠٠٠
	حصة دويرة الكسوة	١٥٠٠
	الدير الأبيض	٥٠٠٠٠
	العديل	١٣٠٠٠٠
	حوانيت داخل باب الفرج	٤٠٠٠٠
	التنورية	٢٢٠٠٠
حمص	الحمام	٢٥٠٠٠
	الحوانيت	٧٠٠٠
	الربيع	٦٠٠٠٠
	الطاحون الراكبة على نهر العاصي	٣٠٠٠٠

القيمة بالدرهم	الصف	المكان	
٢٥٠٠٠	زور قبجق	حمص	
١٦١٥٠٠	الخان والحمام الملاصق له والحوش		
٣٠٠٠	المناخ ^(١)		
٣٠٠٠	الحوش الملاصق للخندق		
٣٠٠٠	حوانيت العريضة		
٧٠٠٠	الأراضي المكتورة		
٧٠٠٠٠	مرج الصفا		
١٨٠٠٠٠	التل الأخضر		البقاع
٧٥٠٠٠	المباركة		
١٠٠٠٠٠	المسعودية		
٤٧٠٠٠٠	الضياع الثلاث المعروفة بالجوهري		
٤٠٠٠٠٠	السعادة		
٦٠٠٠٠	أبروطيا		
٥٧٠٠٠	نصف يبرود والصالحية		
٢٢٠٠٠	حصة من نخرة روق		
٥٠٠٠٠٠	رأس الماء والذي بمزارعها		
٧٥٠٠٠	حمام صرخد		
٣٠٠٠٠	طاحون الفوار		
٣٠٠٠	السالمية		
٢٥٠٠٠	الحمام		
٦٠٠٠٠٠	المهري		قارا
٢٢٥٠٠٠	الصالحية والطاحون والأراضي		
١٢٠٠٠٠	راس ليثا ومزارعها		
٤٠٠٠٠	القضية		

(١) المناخ: لفظ متداول بالعصر المملوكي، يقصد به المناخ الذي تناخ به الجمال .
(المقريري، الخطط ٣/٣٩١؛ البقلي، التعريف ٣٣١؛ الخطيب ٤٠٩؛ عاشور، العصر ٤٧٧).

المكان	الصف	القيمة بالدرهم
قارا	القرتان ((الزرعة والبنيسية))	٩٠٠٠٠
بيروت	الخان	١٣٥٠٠٠
	الحوانيت والقرن	١٢٠٠٠٠
	المصينة بالآلها	١٠٠٠٠
	الحمام	٢٠٠٠٠
	المسلخ	١٠٠٠٠
	الطاحون	٥٠٠٠
	قرية زلايا	٤٥٠٠٠

هذا بالنسبة لممتلكات الأمير تنكز العقارية كما وردت في مصادر العصر المملوكي للقرنين الثامن والتاسع للهجرة/الرابع والخامس عشر للميلاد^(١).

ثرواته المالية

وجدت له من التحف السنوية ومن الأقمشة مائتا منديل زركش، وأربعمائة حياصة^(٢) ذهب، وستمائة كلفته^(٣) زركش، ومائة حياصة ذهب مرصعة بالجواهر، وثمان وستون بقجة^(٤) بذلات ثياب زركش، وألف ثوب أطلس، ومائتا تخفيفة^(٥) زركش، وذهب محتوم أربعمائة ألف دينار مصرية، ووجد له من الخيل والمجن والجمال البخاتي وغيرها نحو أربعة آلاف ومائتي رأس، وذلك غير ما أخذه الأمراء ومماليكهم، فإنهم كانوا ينهبون ما يخرج به ثباً، ووجد له من الثياب الصوف.

(١)الصفدي، الوافي ١٠/٤٢٨-٤٣٢؛ الكشي، فوات ١/٢٥٨-٢٥٥؛ ابن تفردي بردي، المنهل ٤/١٦٠-١٦٥؛ النجوم

٩/١١٨-١٢٢؛ دهمان، ولاة ١٧٧-١٧٩؛ الحجي، الأمير ٥٧.

(٢)الحياصة: حزام كان يتقلده العسكريون في العصور الأيوبي والمملوكي، أو نطاق يشد به الوسط كان يتخذ إما من الذهب أو الفضة - المطلية بالذهب و يسمى المنطقة.

(القلقشندي، صبح ٤/٤٢؛ ابن كنان، حدائق ٨٥؛ ماير ٤٧-٤٨؛ عاشور العصر ٤٢٢؛ البقلي، التعريف ١١٢؛ الخطيب ١٥٣).

(٣)الكلفته: لباس رأس من العصر المملوكي، مصنوع من القماش المزركش على هيئة طاقة كانت تلبس إما لوحدها أو بعمامة، ورد ذكرها في بعض المراجع باسم كلوته.

(القلقشندي، صبح ١/٤٧٤، ٤/٤١؛ ماير ٥١-٥٢؛ مرزوق ١١٠؛ صومط ٣٨٣؛ الخطيب ٣٧٠؛ البقلي، التعريف ٢٨٨-٢٨٩؛ عاشور، العصر ٤٦٦).

(٤)البقجة: اصلها بقجة، فارسية، تعني صرة الألبسة.

(التونجي ١١٨؛ الخطيب ٨٢).

(٥) التخفيفة: نوع من أنواع العمائم تستخدم لغطاء الرأس، وهناك نوعان من التخفيفة: التخفيفة الصغيرة، والتخفيفة الكبيرة، وكان السلطان وحده له الحق في لبسها، إلا أنها كانت تخلع على الأمير كجزء من ثياب التشريف. (ماير ٥٥).

ومن النصافي^(١) ما لا ينحصر^(٢)، وذكرت بعض المصادر أن الذهب الذي كان يمتلكه تنكر قدرت قيمته بثلاثمائة ألف وستة وثلاثون ألف دينار^(٣). إضافة إلى جواهر بلخش^(٤)، و أحجار ثمينة وقطع تغريسة^(٥)، ولؤلؤ^(٦) غريب الحب^(٧) تقدر بثلاثة صناديق^(٨)، ووجد عنده أيضا الكنايش^(٩) الزركش، كما وجد من القماش الصنف الملون و من السمور^(١٠) والوشق^(١١) والسنباب^(١٢)، وغير ذلك خمسمائة بقجة، ووجد عنده من الفرش والأواني ما حمل إلى القاهرة على مائة وخمسين جملا^(١٣).

كما وجد للأمير تنكر ودائع عند الناس ما يتيف عن مائتين وخمسين ألف دينار^(١٤)، هذا عدا عمل وجد له من الفضة حيث تذكر المصادر أن مقدارها بلغت ألف ألف وخمسمائة ألف درهم^(١٥).

(١) النصافي : مفردا تصيفة وهي من أنواع الأقمشة المعروفة في العهد المملوكي منسوجة من الحرير والكتان وربما أطلق هذا اللفظ على ثياب من القطن الخشن. (ضومط ٣٨٤، الخطيب ٤٤٣؛ عاشور، العصر ٤٨١).

(٢) الشجاعى ٦٨ب؛ الصفدي، الوالي ٤٢٨/١٠؛ الكتي، فوات ٢٥٥/١؛ ابن دقماق ١٧٠/٢؛ المقرئ، المقفى ٦٢١/٢؛ ابن تغري بردي، النجوم ١١٨/٩، المنهل ١٦٠/٤؛ دهمان، ولاة ١٧٦؛ الحجي، الأمير ٥٦.

(٣) الشجاعى ٦٨أ؛ الصفدي، الوالي ٤٢٨/١٠؛ الكتي، فوات ٢٥٥/١؛ ابن دقماق ١٧٠/٢؛ المقرئ، المقفى ٦٢١/٢؛ ابن تغري بردي، المنهل ١٦٠/٤؛ دهمان، ولاة ١٧٦.

(٤) بلخش: من الأحجار الكريمة شكله أحمر شفاف، يضاهي فاتق الياقوت في اللون والرواق، منسوباً إلى بلخشان (وهي موضع على مقربة من غزنة إحدى مدن خوارزم بينهما مسيرة ستة أيام، فيها معدن البلخش). (الحميري ١٠١؛ أدي شير ٢٦؛ الخطيب ٨٥).

(٥) الصفدي، الوالي ٤٢٨/١٠؛ الكتي، فوات ٢٥٥/١.

(٦) اللؤلؤ: من أدوات الخلي، يتكون في الأصداف من رواسب أو جوامد صلبة لماعة مستديرة في بعض الحيوانات الدنيا من الرخويات، واحده: لؤلؤة، وجمعة لآلى، يعرف أيضا باسم الدر. (الخطيب ٣٨٠).

(٧) الصفدي، الوالي ٤٢٨/١٠؛ الكتي، فوات ٢٥٥/١؛ ابن إياس، بدائع ٤٧٨، ١/١.

(٨) ابن إياس، بدائع ٤٧٨، ١/١.

(٩) الكنايش: جمع كبوش، وهو البردعة تجعل تحت سرج الفرس (القلقشندي، صبح ١٢/٤، ح ١).

(١٠) السمور: حيوان بري يشبه السنور، وزعم بعض الناس انه النمس، وإنما البقعة التي هو فيها هي التي أثرت في تغير لونه، وخص هذا النوع بانخاذ الفراء من جلوده لينها، وخفتها ودفنها وحبستها، ويلبسها الملوك والأكابر والأمراء، وكان جلد السمور يساوي ٤٠٠ دينار هندي. (الدميري ٣٠/٢؛ ماير ٤٣).

(١١) الوشق: حيوان ثديي من فصيلة القط، قصير الذيل، فراؤه سميك وثير أسود، يستوطن آسيا وإفريقية، يتغذى على صغار الأيسائل والأرانب والطيور. (التركماني ٥٥٠/٢).

(١٢) السنباب: حيوان على حد البربوع أكبر من الفأر وشعره في غاية النعومة يتخذ من جلده الفراء، يلبسه المتعمون وهو شديد الحيل إذا أبصر الإنسان صعد الشجرة العالية وفيها يأوي ومنها يأكل، وهو كثير ببلاد الصقالية والترك: (القلقشندي، صبح ٥٤/٢-٥٥؛ الدميري ٣٠/٢).

(١٣) ابن إياس، بدائع ٤٧٨، ١/١؛ العريبي ٢٤٣.

(١٤) ابن إياس، بدائع ٤٧٨، ١/١.

(١٥) الصفدي، الوالي ٤٢٨/١٠؛ الكتي، فوات ٢٥٥/١؛ ابن دقماق ١٧٠/٢؛ المقرئ، المقفى ٦٢١/٢؛ ابن تغري بردي، المنهل ١٦٠/٤؛ ابن إياس، بدائع ٤٧٨، ١/١؛ دهمان، ولاة ١٧٦؛ العريبي ٢٤٣.

ويذكر الشجاعى أن عدد الضياع التي كان يمتلكها الأمير تنكر كانت مائة ضيعة^(١)، كما يذكر مورخو العصر المملوكي أن ثروة الأمير تنكر وصلت إلى درجة كبيرة من الضخامة حتى أنها حملت من دمشق إلى القاهرة على ثمانمائة جمل^(٢).

إضافة إلى هذه الثروات العظيمة فقد وجد له عدد كبير من الخيول والبغال والجمال والغلال والماليك والعبيد والجواري التي حملت إلى مصر أيضا^(٣).

ويلاحظ بأن الأمير تنكر لم يعترف بهذه الثروة الهائلة التي كان يمتلكها، فعندما قبض عليه وأرسل إلى القاهرة بعث السلطان الناصر إلى تنكر يهدده حتى يعترف بما يمتلك من الأموال، فرد تنكر بأنه لا مال له سوى ثلاثين ألف دينار ودبعة عنده لأيتام بكتمر الساقى^(٤).

وقد تم حصر هذه الممتلكات التابعة لتنكر ونقلها من دمشق إلى مصر تحت إشراف الأمير بشتاك الناصري^(٥)، ومعه بعض الأمراء أمثال الأمير طاجار الدوادر^(٦)، والأمير بيغرا^(٧)، والأمير بُكا الخضري^(٨)، والحاج أرقطاي، وغيرهم من الأمراء، حيث بلغ عددهم عشرة أمراء^(٩).

(١) الشجاعى ١٦٨.

(٢) الكنتي، فوات ١/٢٥٥، الصفدي، الوافي ١٠/٤٢٨، ابن دقماق ٢/١٧٠، المقرئ، المقفى ٢/٦٢١، ابن تغري بردي، المنهل ٤/١٦٠، دهمان، ولاية ١٧٦.

(٣) ابن إياس، بدائع ١/٤٧٨.

(٤) بكتمر الساقى: كان من ماليك المظفر بيبرس، فلما استقر الناصر في السلطنة بعد الكرك دخل في مماليكه، وتقل إلى أن صار خصيصا بالناصر، وعظم عند السلطان حتى زوجه جاريتها (أم ولده أحمد)، توفي عام ٧٣٢هـ/١٣٣١م. (الجزري ٢/٥٨٨، ابن حجر، الدرر ١/٤٨٦).

(٥) بشتاك الناصري: كان من جلب من بلاد القان أزبك فاشتره الناصر بستة آلاف درهم و سلمه لقوصون لترتيبه فشغف به الناصر وقربه إليه وأفرط له في العطاء حتى امتلك من الذهب النقد ألف دينار وسبعمئة ألف دينار، حصل بينه وبين الملك المنصور أبو بكر بن محمد الناصر خلاف بسبب طمعه في نيابة دمشق، وعدم إعطائه المنصور إياها، حيث قتل في ربيع الآخر عام ٧٤٢هـ/البلول ١٣٤١م.

(ابن كثير ١٤/١٥٥، ابن حجر، الدرر ١/٤٧٧-٤٧٩، ابن تغري بردي، النجوم ١٠/٨٠).

(٦) طاجار الدوادر: هو الأمير سيف الدين المارداني، الدوادر الناصري، وولاه الناصر إمرة الدوادرية بعناية شهاب الدين ابن فضل الله وشرف الدين النشو لأنه كان صغيرا، ثم أمره السلطان طبلخاناه، ثم جهزه مع الأمير سيف الدين طشتمر الساقى لما أخرجته إلى صفد نائبها فأعطاه مائة ألف درهم، ومن ثم انتقل إلى دمشق عند الأمير تنكر، ثم ما لبث أن دب الخلاف بينهما فعاد إلى مصر، فلما توفي الناصر أصبح من المقرين للسلطان الملك المنصور أبي بكر بن الناصر، وبعد خلع أبي بكر وتولي أخاه الملك الأشرف علاء الدين كجك قبض الأمير قوصون على طاجار مع بشتاك الناصري فأرسلوا إلى الإسكندرية وقتلوا هناك عام ٧٤٢هـ/١٣٤١م.

(الصفدي، الوافي ١٦/٣٧٨-٣٧٩، ابن حجر، الدرر ٢/٢١٣-٢١٤، ابن تغري بردي، النجوم ١٠/١٣-١٥).

(٧) بيغرا: كان من الأمراء المقدمين في أول وفاة الناصر محمد، ثم استقر نائب السلطنة، ثم ولي الحجوبية في أيام السلطان الملك الكامل (٧٤٦-٧٤٧هـ/١٣٤٥-١٣٤٦م)، ثم عمل كاشف الجسور بالوجه القبلي، ثم أخرج إلى حلب أميرا، فمات بها سنة ٧٥٤هـ/١٣٥٣م، وكان عاقلا مشكور السيرة. (ابن حجر، الدرر ١/٥١٤).

(٨) بُكا الخضري: هو أحد الأمراء بدمشق، قتل بسبب الناصر أحمد في ولاية الصالح إسماعيل بن الناصر. (٧٤٦-٧٤٧هـ/١٣٤٢-١٣٤٥م) ووسط بسوق الخيل في رجب سنة ٧٤٦هـ/تشرين الأول ١٣٤٥. (ابن حجر، الدرر، ١/٤٨٠).

(٩) الشجاعى ٦٧ب-٦٨، الكنتي، فوات ١/٢٥٥، الصفدي، الوافي ١٠/٤٢٨، ابن كثير ١٤/١٥٢، ابن حجر، الدرر ١/٥٢٦، ابن تغري بردي، المنهل ٤/١٦٠.

علاقة الأمير تنكز مع السلطان الناصر و الأمراء المماليك

بعد أن أصبح تنكز مملوكا للناصر، رقاها الناصر إلى رتبة "أمير عشرة"، ثم أمير طبلخاناه، ثم ولاة نيابة

دمشق، "فتمكن تنكز في النيابة"^(١)، ولذا يعد الأمير تنكز أول من رقاها السلطان الناصر من مماليكه إلى الرتب السنية^(٢).

وبمرور الوقت حظي تنكز الحسامي بمكانة عالية في البلاط الناصري حتى بات الناصر لا يرفض له

طلباً، وكان السلطان لا يفعل شيئاً حتى يشاوره فيه، ولما كتب إلى السلطان في شيء فردته^(٣).

وبعد النجاح الباهر الذي أحرزه تنكز في حملته الشهيرة على ملطية عام ٧١٥هـ/١٣١٥م^(٤)، عظم

شأنه عند الناصر وهابه الأمراء بدمشق ونواب الشام، ولم يزل في ارتقاء حتى كتب له: "أعز الله

أنصار المقر"^(٥) الكريم أو "المقر الشريف"، العالي الأميري، وفي الألقاب الأتابكي، الزاهدي^(٦)، العليدي^(٧)،

وفي النعوت: "معز الإسلام والمسلمين"^(٨) سيد الأمراء في العالمين^(٩)، وهذا لم يكتب عن سلطان لئيب ولا

(١) الصفدي، تحفة ٢/٢٣٢، الكني، فوات ١/٢٥٢.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم ٩/٣٠.

(٣) الجزري ٢/١٧٧، الكني، فوات ١/٢٥٢، ابن صصري ١٨٣، المقرزي، المقفى ٢/٦١٩، ابن حجر، السلور ١/٥٢١، ابن تغري

بردي، النهل ٤/١٦٦، ابن إيس، بدائع ١/٤٨٠، ابن طولون، إعلام ٤١٣، الشوكاني ١/١٧٠، الحجي، الأمير ١٣-١٤.

(٤) أبو الفداء، المختصر ٢/٤١٨، مجهول، تاريخ ١٥٠، ابن الوردي، تمة ٥/٣٧٥، الكني، فوات ١/٢٥٢، الصفدي، السواقي ١٠/٤٢١،

ابن كثير ١٤/٥٨، ابن حبيب، درة ٢/١١، تذكرة ٢/٦٥، ابن خلدون، العبر ٥/٤٤٢، القرزي، السلوك ١/٢، ١٤٢، المقفى ٢/٦٠٩،

ابن حجر، الدرر ١/٥٢١، ابن تغري بردي، النهل ٤/١٥٨، ابن إيس، بدائع ١/٤٢٦، النعمي، الدارس ٢/١٨٦.

(٥) المقر: لقب مملوكي ذكر عنه القلقشندي ما يلي: ((قال في عرف التعريف: و يختص بكبار الأمراء و أعيان الوزراء و كتاب السر

ومن يجري من مجراهم كناظر الخاص و ناظر الجيش و ناظر الدولة و كتاب الدست و من في معناهم، أما ابن شيت فيذكر في ((معالم

الكتابة)) أنه من الألقاب المملوكية كالمقام بل جعلها على حد واحد في ذلك، قال في: ((عرف التعريف)) ويقال فيه ((المقر الأشرف،

والمقر الشريف العالي)) و((المقر الكريم العالي)). (القلقشندي، صبح ٥/٤٦٣-٤٦٤).

(٦) الزاهد: من ألقاب الصوفية و أهل الصلاح، وهو في اللغة خلاف الراغب، و المراد هنا من أعرض عن الدنيا فلم يلتفت إليها،

و الزاهدي نسبة إليه للمبالغة. (القلقشندي، صبح ٦/٤١٣، البقلي، التعريف ١٦٩، الباشا، الألقاب ٣٠٩).

(٧) العابد: من ألقاب الصوفية و أهل الصلاح، وهو فاعل من العبادة وهي الطاعة و ربما استعمل في أرباب السيوف و الأقلام أيضاً.

لاتصاف متصف منهم بذلك أو وقوعه أولاً على متصف به منهم ثم لزومه من بعده من أهل تلك المرتبة كما في نواب الشام

. (القلقشندي، صبح ٦/١٩٩، البقلي، التعريف ٢٣٧، الباشا، الألقاب ٣٨٧).

(٨) معز الإسلام و المسلمين: المعز كان نعتاً خاصة لجماعة من أهمهم معد أول الخلفاء الفاطميين بمصر الذي نعتت بالمعز لدين الله

الفاطمي، وكذلك أليك التركماني أول من ولي مصر من المماليك، وقد أضيف إليها بعض كلمات لتكوين ألقاب مركبة، مثل هذا

اللقب وهو من ألقاب النائب الكافل و من في معناه، وهو من أعلى الألقاب في الرتبة وذلك لأنه يقوم مقام الركن وفيه معنى العز والقوة.

(القلقشندي، صبح ٦/٧١، ١٠١، ١١٠، ١٧١، البقلي، التعريف ٣١٥).

(٩) سيد الأمراء في العالمين: من ألقاب أكبر أرباب السيوف كقواب السلطنة و نحوهم و ربما كتب به لبعض الملوك عن الأبواب السلطانية

وهو أعلى ألقاب العسكريين، وورد مع مرتبة ((المقر الشريف))، وهو من الألقاب المركبة وأورده شهاب الدين الفارقي في دستورهِ عمن

نائب الشام. (القلقشندي، صبح ٦/٥٦، ١٠٤، ١٢٧، البقلي، التعريف ١٨٧).

غير نائب على اختلاف الوظائف^(١).

وحيثما قام الناصر بتعيين تنكرز نائبا على دمشق عام ٧١٢هـ/١٣١٢م، حرص على توصيته بأن يتشاور مع كبار الأمراء المماليك هما: الأمير سيف الدين أرقطاي و الأمير حسام الدين طرنطاي البشمقدار^(٢)، وذلك رغبة من الناصر في أن يكون تنكرز كفوًّا للمنصب الكبير الذي أنيط به و ما ترتب عليه من مسؤوليات حسام، إذ كان الناصر محمد على أتم الإدراك بأن الخبرة لا تأتي إلا عن طريق الممارسة و الاحتكاك، و من هنا جاء حرصه على أن يسقي تنكرز الخبرة من منبعها السليم^(٣).

ويمكننا أن نبين أهمية المنزلة التي تمتع بها تنكرز الحسامي في البلاط الناصري حينما كتب السلطان في عام ٧١٤هـ/١٣١٤م «لنائب حلب، و حماة، و حصص، و طرابلس، و صفد بأن أحدا منهم لا يكتب السلطان، وإنما يكتب الأمير تنكرز نائب الشام، و يكون تنكرز هو المكاتب للسلطان في أمرهم»^(٤)، فشق ذلك على النواب، و أخذ الأمير سيف الدين بلبان طرنا^(٥) نائب صفد ينكر ذلك، فكاتب فيه تنكرز حتى عزل، و استقر عوضه الأمير بلبان البدري^(٦)، «و حمل بلبان طرنا مقيدا إلى مصر، و سجن بالقلعة»^(٧).

و مما يدل على سمو المكانة التي تمتع بها الأمير تنكرز في البلاط الناصري أنه بعد استقراره نائبا في دمشق، بنى لنفسه فيها جامعا، و قد تم تحديد هذا الجامع سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م بأمر السلطان الناصر

(١) الكشي، فوات ٢٥٢/١؛ الصفدي، الوافي ٤٢١/١٠، تحفة ٢٣٣/٢؛ المقرئ، السلوك ٤٦٢، ٤٦٢/٢؛ المقفي ٦١٥/٢؛ ابن إيسر، بدائع ٤٨٠، ٤٨٠/١.

(٢) الصفدي، الوافي ٤٢٠/١٠-٤٢١؛ الكشي، فوات ٢٥١/١-٢٥٢؛ المقرئ، السلوك ١١٨، ١١٨/٢؛ المقفي ٦٠٨/٢؛ ابن حجر، الدرر ٥٢٠/١.

(٣) الحجى، الأمير ١٤.

(٤) الشجاعى، ٥٥-٥٥؛ المقرئ، السلوك ١٣٧، ١٣٧/٢؛ المقفي ٦٠٨/٢؛ ابن حجر، الدرر ٥٢١/١؛ ابن تغري بردي، النجوم ٣٢/٩؛ الشوكاني ١٧٠/١؛ سرور ٥١.

(٥) بلبان طرنا: أمير حنار، كان حسن الشكل حسيما مقداما شجاعا، ثم ولي نيابة صفد، ثم اعتقل سنة ٧١٤هـ/١٣١٤م بسعاية تنكرز إلى سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٥م، ثم أفرج عنه واستقر في إمرة طبلخاناه بدمشق، ثم أعطي تقديما، واستقر أميرا عنده واختص به، تولى عام ٧٣٤هـ/١٣٣٣م.

(٦) ابن كثير ١٣٥/١٤-١٣٦؛ المقرئ، المقفي ٤٨٧/٢؛ ابن حجر، الدرر ٤٩٤/١؛ ابن تغري بردي، النجوم ٢٢٤/٩.

(٧) بلبان البدري: هو الأمير سيف بلبان بن عبد الله البدري، أحد مقدمي الألواف بدمشق، حج بالناس عام ٧٠٧هـ/١٣٠٧م وولي نيابة قلعة دمشق، ثم نيابة صفد بعد بلبان طرنا، ثم نيابة حصص، توفي في يوم عيد الفطر عام ٧٢٧هـ/١٣٢٦م وقد خلف مالا كثيرا يقال أن الذهب منه كان ثلاثين ألف دينار، وكان شجاعا، مهيبا، عاقلا، سليم الباطن.

(٨) ابن حجر، الدرر ٤٩٢/١-٤٩٣؛ ابن تغري بردي، النجوم ١٩٤/٩.

Holt 115

(٩) مجهول، تاريخ ١٦٢؛ المقرئ، السلوك ١٣٧، ١٣٧/٢؛ ابن تغري بردي، النجوم ٣٢/٩.

شخصياً^(١)، وبلغت مكانة تنكز الرفيعة عند الناصر، حتى أنه لما حج في عام ٧٢١هـ/١٣٢١م^(٢)، أقام عنه بيبرس الحاجب^(٣) نائب غيبة، وكانت مدة غيبته للحج ثلاثة أشهر^(٤)، وعندما عاد إلى دمشق في أوائل محرم سنة ٧٢٢هـ/كانون ثاني ١٣٢٢م، أرسل السلطان الناصر له الهدايا والخلع^(٥)، ويقال أنه قدم القاهرة بعد حجه، فأمر السلطان الأمراء أن يهادوه، فكانت جملة ما قدم له ثمانين ألف دينار^(٦).

بالإضافة إلى ذلك يذكر المقرئ في ضمن حوادث سنة ٧٢٢هـ/١٣٢٢م أنه^(٧) في يوم الأربعاء تاسع عشر رجب قدم الأمير تنكز، نائب الشام باستئذان، فأُنعِمَ عليه السلطان بإنعامات جلييلة بلغت قيمتها نحو ثمانين ألف دينار، ورسم لسائر الأمراء بحمل تقادهمم إليه، وأن من أحضر تقدمة يخلع على محضرها من الخزانة السلطانية، فحملت إليه تقادم جلييلة، منها أربعون سلسلة ما بين ذهب وفضه، وحمل كريم الدين الكبير^(٨) تقدمة عشرة آلاف دينار، وعاد تنكز بعد إقامته خمسة أيام على البريد، في يوم الاثنين رابع عشره، ودخل دمشق أول شعبان^(٩).

(١) ابن الوردي، تمة ٣٧٩/٢؛ الكشي، فوات ٢٥٢/١؛ ابن كثير ٧٠/١٤؛ المقرئ، السلوك ١٨٤، ١/٢؛ المقفسي ٦٠٩/٢؛ ابن حجر، الدرر ٥٢٢/١؛ ابن تفرج، النجوم ٤٨/٩؛ النعماني، السداس ٣٢٧/٢-٣٢٨؛ دهمان، ولادة ١٦٨؛ العلي، خطط ٣١٦، ٢٨١، ٢٧٨.

(٢) أبو الفداء، المختصر ٤٤٣٨/٢؛ ابن كثير ٨٠/١٤؛ ابن حجر، الدرر ٥٢٣/١؛ الشوكاني ١٧١/١.

(٣) بيبرس الحاجب كاز: هو الأمير بدر الدين، كان أمير آخور ثم صار حاجباً بعد رجوع الناصر من الكرك، ثم جرد إلى اليمن سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٤م وجهر قبل ذلك بعد عودة الناصر من الحج للإقامة بمكة عوضاً عن أفسنقر، حفظاً لعطيفة لئلا يهجم عليه حميضة، وناب في الغيبة عن نائب دمشق لما حج في سنة ٧٢١هـ/١٣٢١م، ثم اعتقل مدة بالإسكندرية، فلمسا كسان في سنة ٧٣٥هـ/١٣٣٤م ولي نيابة حلب ثم استقر أميراً بدمشق سنة ٧٣٩هـ/١٣٣٨م، ولم يزل بها إلى أن توجه الفخري صحة الناصر أحمد فجعله أمين الغيبة عنه بدمشق، ثم أسن، ومات في رجب سنة ٧٤٣هـ/تشرين الثاني ١٣٤٢م.

(٤) الصفدي، الوافي ٣٥١/١٠، تحفة ٢٤٤/٢-٢٤٤، ٢٤٥؛ المقرئ، السلوك ٦٣٧، ٣/٢؛ ابن حجر، الدرر ٥١٨/١.

(٥) ابن كثير ٨١/١٤.

(٦) المصدر نفسه ٨١/١٤.

(٧) ابن حجر، الدرر ٥٢٣/١؛ الشوكاني ١٧١/١.

(٨) كريم الدين: عبد الكرم بن هبة الله المسلماني المصري، وكيل السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وناظر خواصه، بلغ فوق ما يبلغ الوزراء، أسلم كهلاً أيام بيبرس الجاشنكير، ورد عن كريم الدين أنه كان عاقلاً ذا هبة، عمر بالزرية جامعاً وميضاً وأصلح الطرق، وعمر بدمشق جامع القبيبات، واشترى له مهر ماء بمخمين ألفاً، وجامع القابون وأوقف عليهما الأوقاف، ثم أعرف عليه الناصر ونكبه، وقبل ذلك أقام في بيت سيف الدين أرغون ثلاثة أيام، ثم نقل إلى الشوبك ثم إلى القدس، ثم طلب إلى مصر وجهر إلى أسوان وأصبح مشوقاً في أحد أيام عام ٧٢٤هـ/١٣٢٣م.

(٩) الكشي، فوات ٣٧٧/٢-٣٨٣؛ ابن كثير ٩٣/١٤-٩٤؛ ابن حجر، الدرر ٤٠١/٢-٤٠٤.

(٨) المقرئ، السلوك ٢٣٧، ١/٢.

كذلك عندما قدم الأمير تنكز إلى القاهرة في محرم سنة ٧٣٠هـ/تشرين أول سنة ١٣٣٠م^(١) «بالغ السلطان في إكرامه ورفع منزلته على عادته»^(٢)، وحينما أراد تنكز مغادرة القاهرة عائداً إلى دمشق «أنعم عليه السلطان بمائة ألف درهم وكتب له على الأعمال السامية بمائة ألف أخرى»^(٣).

ونتيجة لذلك كله يتفق مؤرخو العصر المملوكي أن تنكز الحسامي استطاع خلال سنوات قليلة أن يصبح أقرب الناس إلى قلب السلطان الناصر^(٤).

ويلاحظ بأن الصلاحيات التي حصل عليها الأمير تنكز لم يحصل عليها نائب سابق لدمشق أو نيابات الشام الأخرى^(٥)، فقد تعدت هذه الصلاحيات نيابة دمشق إلى نيابات الشام الأخرى، وذلك لأن الناصر «جعل له الولاية على سائر الممالك الإسلامية»، بل «ومشاركاً لسائر بلاد الروم»^(٦).

وهكذا استطاع تنكز الحسامي عن طريق العمل المتواصل و التفاني في الإخلاص للناصر محمد والاجتهاد في خدمة الدولة و الاهتمام البالغ في القيام بكافة مسؤولياتها أن يصل إلى هذه الرتبة العالية في البلاط السلطاني، بل يمكننا أن نتصور أنه أصبح الحاكم بأمره في بلاد الشام كلها بكافة أقاليمها وولاياتها، حيث أطلق الناصر محمد يده في إدارة مختلف شؤونها السياسية و العسكرية و المدنية، وخضع له نواب الولايات الشامية خضوعاً مطلقاً، ودانوا له بالطاعة والولاء^(٧)، وليس أدل على ذلك من قول الصفدي بأن الأمير تنكز «عظم شأنه وهابه الأمراء بدمشق و النواب بالشام و أمن الرعايا وأهل البر... ولم يزل في علو و ارتقاء مكانه في كل سنة إلى أن أمسك...»^(٨)، «وكان السلطان لا يفعل شيئاً من الأمور حتى يشاوره و يأخذ رأيه فيه...»^(٩)، و«مهما قرره» تنكز «من إمرة و نيابة و وظيفة و إقطاع و غير ذلك ترد التواقيع السلطانية بإمضاءها»^(١٠).

ويمكننا القول بأن بلاد الشام أصبحت في نيابة تنكز الحسامي ولاية مستقلة بوضعها الإداري حيث حكم تنكز هذه الولاية بسلطة مطلقة، وصلاحيات واسعة في الإدارة و الحكم والعلاقات الداخلية مع

(١) الجزري ٣٧٩/٢ المقرئ، السلوك ٣١٧، ٢/٢ ابن تغري بردي، النجوم ٧٤/٩.

(٢) الجزري ٣٧٩/٢ المقرئ، السلوك ٣١٧، ٢/٢.

(٣) الشجاعي ٣١-٣٣ ب؛ الصفدي، تحفة ٢٣٤/٢-٢٣٥ ابن خلدون، العبر ٤٤٢/٥، المقرئ، السلوك ٣١٧، ٢/٢، ٣٣٣، ٣٣٤.

(٤) ٣٧١، ٣٤٤ ابن حجر، الدرر ٥٢١/١-٥٢٣، ابن تغري بردي، النجوم ٣٠/٩، ٤٧، ٤٩، ٤٨، ٩٣، ٩٨، ٩٩، ١٤٩؛ الشوكان ١٧٠/١.

(٥) الشجاعي ٥٥.

(٦) ابن خلدون، العبر ٤٤٢، ٤٢٦/٥.

(٧) الحجى، الأمير ٢٠.

(٨) الصفدي، تحفة ٢٣٢/٢-٢٣٣.

(٩) الشجاعي ٥٥ ب؛ الصفدي، الوافي ١٠، ٤٢٢، تحفة ٢٣٣/٢-٢٣٤ الكتي، فوات ٢٥٢/١.

ابن خلدون، العبر ٤٤٢/٥ ابن حجر، الدرر ٥٢١/١ ابن تغري بردي، المنهل ١٦٧/٤ ابن طولون، إعلام ١٣.

(١٠) الصفدي، الوافي ١٠، ٤٢٢؛ الكتي، فوات ٢٥٢/١.

بقية الولايات الشامية، فأحسن تنكز استغلال هذه السلطات غير المحدودة إلى أقصى درجة حتى غدت بلاد الشام في السنوات العشر الأخيرة من نيابته ولاية قائمة بذاتها من كافة النواحي الاجتماعية والعسكرية والاقتصادية والإدارية، ولا يربطها بالحكومة المركزية في البلاط الناصري سوى روابط التبعية الرسمية والولاء الصادق، وهذا وحده يكفي إذا ما عرفنا طبيعة شخصية تنكز الحسامي وحرصه البالغ على خدمة هذه الولاية طالما كانت هذه الخدمة تؤدي في النهاية إلى تدعيم كافة صلاحيات الحكم والسلطة لدى الناصر محمد^(١)، ولشدة حرصه على تدعيم شؤون الحكم والإدارة، فقد «كان يمشي بنفسه في الليل على الطرق والأسواق ويأمر بتوسعة ما يراه ضيقا وما يصبح ذلك المكان إلا والصناع تعمل فيه»^(٢).

ولعل إدراك الناصر محمد لوجود هذا الحرص الصادق عند تنكز من أجل تأكيد سلطانه من أهم الأسباب التي أدت إلى توثيق الروابط بينهما لما فيه مصلحة الهدف المشترك^(٣)، «فحصل له بذلك عند السلطان اليد العظمى و الرتبة العليا وحكمه بالشام جميعه تحكيما لم يحصل لغيره، ورسم لنواب الأقاليم الكبار كي يطالعهو بأحوالهم و ما يتجدد لهم، و هو يطالع بها السلطان ... و حصل له من مولانا السلطان التبجيل العظيم بحيث أنه إذا سأل أمرا لا يرد عليه و إذا فصل حكما لا ينكر عليه، وإذا أشار بأمر فمندوب إليه، ومهما شاء فعل بالشام لا يرد بها من أحكامه و لا ينقص إبرامه»^(٤).

ولذلك يلاحظ أن تنكز حصل له من المال و الجاه و السلطات التي أهله لأن يصبح أعظم رجل في الدولة بعد السلطان، بل كاد يكون في منزلة السلطان نفسه في سعة النفوذ و علو المكانسة و شدة المهابة^(٥).

ويؤكد مؤرخو العصر المملوكي بشكل قاطع لا يدع سبيلا للشك أن الترحيب السلطاني بزيارات تنكز الحسامي للبلاط الناصري، كان يزداد بمرور السنوات حيث كان نائب الشام يحظى في كل مرة يقدم فيها إلى القاهرة بترحيب أعمق و وفادة أكبر و كرم أوفر مما حظي به في الزيارة السابقة^(٦).

وفي الحديث عن زيارات تنكز الحسامي إلى البلاط الناصري، وما كان يحصل عليه أثناء ذلك من حسن الوفادة و عظيم الكرم يذكر المؤرخون بهذا الصدد ما نصه : «وكان يتردد على القاهرة بإذن

(١) الحجي، الأمير ٢٠.

(٢) الصفدي، تحفة ٢٢٣/٢، ابن حجر، الدرر ٥٢٣/١، ابن طولون، إعلام ١٣.

(٣) الحجي، الأمير ٢٠.

(٤) الشجاعى ٥٥-٥٥ ب.

(٥) دهمان، ولاة ١٦١.

(٦) الشجاعى ٣١-٣٣ ب، ٥٦-٥٦ أ، الصفدي، الوافي ٤٢٢/١٠، تحفة ٢٣٤/٢، المقرئ، السلوك ٢٣٧، ١/٢، المقفى ٦١٠/٢.

ابن حجر ، الدرر ٥٢٢/١، ابن تغري بردي، النجوم ٧٤/٩، ابن إياس، بدائع ٤٦٩، ١/١، الشوكاني ١٧٠/١، الحجي، الأمير ٢٣.

السلطان فيبالغ في إكرامه واحترامه"، حتى أن الذي خصه به في زيارته سنة ٧٢٣هـ/١٣٣٢م، مبلغ ألف ألف وخمسين ألفاً خارجاً عن الخيل و السروج^(١).

كذلك تجدر الإشارة إلى أن الناصر محمد كان حريصاً على دعوة تنكز الحسامي إلى زيارة القاهرة في مختلف المناسبات، كمناسبات الزواج الخاصة بالسلطان الناصر وأسرته، فيذكر المؤرخون بهذا الصدد، أن الأمير تنكز الحسامي قام في عام ٧٣٢هـ/١٣٣١م بزيارة القاهرة، وذلك لحضور عرس ابن السلطان الناصر الأمير أنوك^(٢)، "وشرع السلطان في عمل ألهم من أوائل شعبان ٧٣٢هـ/نيسان ١٣٣١م وجمع من بالقاهرة ومصر من أرباب الملاهي، واستمر المهم سبعة أيام بلياليها، واستدعى حرم الأمراء للمهم، فلما كانت ليلة السابع منه حضر السلطان على باب النصر، وتقدم الأمراء على قدر مراتبهم واحد بعد واحد ومعهم الشموع"، وكان معهم تنكز الحسامي، فلما كان الغد "خلع على الأمير تنكز نائب الشام و جهز صحبته الخلع لأمرء دمشق"^(٣).

ويمكن القول أنه بلغ من تقدير السلطان الناصر محمد لتنكز أن تزوج ابنته وأنجبت له ابناً، الأمر الذي رفع من مكانة تنكز في البلاط السلطاني^(٤).

ولم تقف الأمور عند حد ارتفاع مكانة تنكز عند السلطان، بل أن مكانة أبنائه محمد وأحمد ارتفعت أيضاً، فقد شملهم الناصر بعطفه كما شمل والدهم من قبل، حيث جعلهم في مرتبة أمراء في حياة والدهم^(٥)، وتمتعوا بالمنزلة العالية في البلاط الناصري مما يبرهن على عمق المودة التي كان السلطان يحملها لتنكز الحسامي في نفسه، فأغدق عليه الثروة والألقاب و المناصب بغير حدود، ولعل التفسير الوحيد لهذه الخطوة التي توفرت لتنكز دون غيره من أقرانه من كبار الأمراء هو طبيعة شخصية تنكز الفريدة بما انطوت عليه من العمل بإخلاص ووضوح صريحين، إلى جانب نشاطه الغير محدود في بذل الجهود الكبيرة في خدمة الصالح العام لسلطنة المماليك دون هاون أو تقاعس^(٦).

ونتيجة لهذا الإحترام و المكانة الرفيعة التي تمتع بها تنكز و أبنائه عند الناصر فقد كان الأمراء

(١)الصفدي، تحفة ٢٣٤/٢، المقرئ، السلوك ٢/٢، ٣٥٦، ٣٥٩، المقفي ٢/٢، ٦١٢، ابن حجر، الدرر ١/٥٢٢؛ الشوكاني ١/١٧٠.
(٢)أنوك : هو الأمير أنوك بن محمد بن قلاوون، سيف الدين ابن الناصر ابن المنصور، ولد في رجب سنة ٧٢٣هـ/تموز ١٣٢٣م، أمره أبوه مائة، و قدمه على إخوته وهم أسن منه مثل أبي بكر وإبراهيم وأحمد، فكانوا أربعينات، و زوجته بنت بكر الساسي، توفي في ربيع الأول عام ٧٤٠هـ/أيلول ١٣٣٩م بسبب مرض أصابه، و حزن عليه والداه حزناً عظيماً، و جد له في يد خازن داره ستمائة ألف دينار سوى أصناف المتاجر و الغلال، و كان يحب اقتناء البقر و الإوز و البط. (الذهبي، دول ٢/٢٤٦؛ ابن الوردي، تممة ٢/٤٦٨؛ الصفدي، الوافي ٩/٤٣١-٤٣٣؛ المقرئ، السلوك ٢/٢، ٥١٣؛ ابن حجر، الدرر ١/٤١٨).

(٣)الجزري ٢/٥٢٤-٥٢٥؛ ابن تفرج، بردي، النجوم ٩/٧٩-٨٠.

(٤)الشجاعي، ٥٦؛ ابن صصري ١٨٣؛ ابن طولون، إعلام ١٣.

Holt 115.

(٥)الصفدي، الوافي ١٠/٤٢٣؛ المقرئ، المقفي ٢/٦١٩؛ ابن حجر، الدرر ١/٥٢٢؛ الشوكاني ١/١٧١.

(٦)الحجوي، الأمير ٢٤.

المالِك في مصر والشام. من فيهم خاصكية الناصر يهابونه^(١).

ويؤكد المؤرخ المعاصر ابن أيلك الدواداري ما كان الناصر محمد يكنه لتتكز الحسامي في نفسه من مشاعر الود والتقدير، حيث كان يدخل عليه قبل دخول الأمراء^(٢).

ومن الأمثلة على الحفاوة البالغة التي حظي بها تنكز عند الناصر، أنه في سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م كتب السلطان إلى الأمير تنكز أن يحضر بأولاده وأهله لعمل عرس الأمير أبي بكر^(٣) ابن السلطان علي ابنة الأمير طقز تمر^(٤)، واحتفل السلطان لقدمه احتفالاً زائداً، وكان عادته أن يصرف عليه إذا قدم مبلغ خمسين ألف دينار ما بين خلع وإنعام، فرسم أن يكون في هذه السنة مبلغ سبعين ألف دينار، ثم خرج السلطان لملاقاته ونزل قصر سرياقوس^(٥)، حتى سقط الطائر بنزول الأمير تنكز إلى الصالحية^(٦)، فأرسل السلطان الناصر أحد كبار الأمراء ويدعى قوصون للقائه ومعه كافة الأطعمة والأشربة، وأقبل حتى دنا من سرياقوس فركب السلطان إليه ومعه أولاده لاستقباله، حيث استقبله هناك بحفاوة بالغة^(٧) ولم يسمع عن ملك أنه فعل مع مملوكه من التعظيم ما فعله السلطان في هذا اليوم مع الأمير تنكز^(٨). ويبدو أن هذه الزيارة لفتت أنظار المؤرخين المعاصرين لتلك الحقة، فالجزري يعقب على استقبال الناصر لتتكز الحسامي في هذه الزيارة بقوله: «و زاد في إكرامه بخلاف العادة»^(٩).

(١) الصفدي، الوافي ٤٢٣/١٠.

(٢) ابن أيلك ٣٨٠/٩.

(٣) أبو بكر بن الناصر: هو أبو بكر بن محمد بن قلاوون، الملك المنصور بن الناصر بن المنصور، ولي الملك بعد أبيه بعهدته منه له في مرضه في ذي الحجة سنة ٧٤١هـ/أيار ١٣٤٠م واستقر حموه طقز تمر نائب السلطنة، والوزير محمود بن شرف بن ربيع في الوزارة، والمنصور هذا هو الثالث عشر من ملوك الترك بديار مصر، وقد تحالف بعض الممالِك ضده وممكوا من خلعه وتعين أخوه الأشرف علاء الدين كحك في صفر سنة ٧٤٢هـ/تموز ١٣٤١م وقتل أبو بكر في هذا العام عن عشرين عاماً، فكانت مدة ملكه على مصر تسعة وخمسين يوماً. (ابن حجر، الدرر ٤٦٢/١-٤٦٤؛ ابن تغري بردي، النجوم ١٣/٣/١٠-١٤).

(٤) طقز تمر: هو الأمير سيف الدين الناصري، كان أولاً من ممالِك المؤيد إسماعيل صاحب حماة، وقدمه للسلطان الملك الناصر، فحظي عنده، وجعله ساقياً، ولم يزل معظماً في كل طبقة لعقله وسكونه وعدم شره، ثم رماه حتى صار أميراً مائة، ومقدم ألف بالديار المصرية، وزوج ابنته بولديه المنصور والصالح إسماعيل، ولم يزل معظماً في دولة الناصر إسماعيل إلى أن مات، وولي نيابة السلطنة بمصر في دولة المنصور أبو بكر، ثم ولي نيابة حماة، ونقل الأفضل صاحبها إلى دمشق أميراً فغاب الناس عليه ذلك حتى الظنغا نائب دمشق، فلم تتم له ما سنة، ونقل في صفر سنة ٧٤٣هـ/تموز ١٣٤٢م إلى نيابة حلب، ثم نقل إلى نيابة دمشق في رجب سنة ٧٤٣هـ/تشرين الثاني ١٣٤٢م فاستمر بها إلى سلطنة الكامل شعبان، فأحضره إلى مصر وهو مريض فقدمها في جمادى الأولى عام ٧٤٦هـ/آب ١٣٤٥م، فمات بمصر في جمادى الآخرة عام ٧٤٦هـ/أيلول ١٣٤٥م. (الصفدي، تحفة ٢٦٠/٢-٢٦٢، الوافي ٢٤٥/١٦؛ ابن كثير ١٧٤/١٤؛ المقرئ، السلوك ٢/٣٦٨، ٢/٦٩٨؛ ابن حجر، الدرر ٢/٢٢٥؛ ابن تغري بردي، النجوم ١٠/١٤-١١٥؛ السخاوي ٢٠/١؛ ابن إياس، بدائع ١/١، ٥٠٧؛ ابن طولون، إعلام ١٨).

(٥) سرياقوس: بلدة في نواحي القاهرة بمصر. (ياقوت، معجم ٢٤٦/٣؛ القزويني، آثار ١٩٥).

(٦) الصالحية: محطة من محطات البريد بين غزة والقاهرة، وتقع بين محطتي بئر الوايلي وبئر عفرى. (العمرى، التعريف ٢٧٣؛ القلقشندي، صبح ٤٢٣/١٤).

(٧) الجزري ٩٣٠/٣؛ اليوسفي ٣٦٣-٣٦٤؛ المقرئ، السلوك ٢/٤١٧؛ ابن حجر، الدرر ٥٢٣/١٠.

(٨) الجزري ٩٣٠/٣؛ الكني، فوات ٢٥٤/١.

كما تكررت زيارة تنكز للسلطان في القاهرة في العام التالي (٧٣٨هـ/١٣٣٧م) وذلك لحضور الاحتفال الذي أقامه الناصر بمناسبة ولادة ابنة الأمير تنكز "زوجة الناصر"، ولذا حيث سماه الصالح^(١). وتعتبر زيارة الأمير تنكز الحسامي للقاهرة عام ٧٣٩هـ/١٣٣٨م، مثلاً لأقصى ما يمكن أن يحصل عليه أي شخص في البلاط السلطاني من الحفاوة الشاملة و التكريم البالغ، الأمر الذي جعل مؤرخي العصر المملوكي يكتبون بإسهاب و دون ملل عن هذه المظاهر غير العادية، وفي هذه الزيارة التي قام بها تنكز للسلطان الناصر كان المؤرخ الصفدي مرافقاً لتنكز، حيث يتحدث عن خروج السلطان إلى سير البيضاء^(٢) لاستقبال تنكز وتلقاه بأولاده وأمرائه وأنزله في قصر بكنم الساقى بسرياقوس، أما الأمير قوصون، فكان قد تلقاه في الصالحية، وكان السلطان قد أرسل بعض الأمراء من القاهرة إلى الطريق الموصلة إليها لحراستها أثناء مرور موكب الأمير تنكز بها، وذلك خوفاً من مضايقته من قبل اللصوص أو قطاع الطرق، ثم استقبله الناصر وخاصيته استقبالا حافلاً^(٣).

ويشير بعض المؤرخين إلى تفاصيل هذه الزيارة، ويذكرون أن سبب زيارة الأمير تنكز للقاهرة في عام ٧٣٩هـ/١٣٣٨م هو اقتراب ولادة زوج السلطان فأرسل السلطان إلى تنكز يطلب منه الحضور إلى القاهرة للمشاركة في الاحتفال الذي سيقمه بمناسبة ولادة زوجته، فتجهز تنكز وعبر لمصر هو وولديه "محمد وأحمد"، أما الناصر محمد، فقد خرج إلى سرياقوس ينتظر قدوم تنكز، ولما علم باقتراب وصوله ركب وخرج من سرياقوس لملاقاته، وسير أولاده لملافة تنكز، حيث سبقوه، كما طلب من الأمير قوصون أن لا ينزل تنكز عن فرسه حتى يصل إلى السلطان، ثم وصل تنكز بصحبة الناصر إلى القلعة وسلم على ابنته (زوج السلطان)، كما سلمت بنات الناصر على تنكز وقبلن يده، وأنعم عليه السلطان من الخيل وتعابى القماش ما قيمته مائة و عشرين ألف دينار، وكانت مدة إقامته في مصر هذه المرة قرابة شهرين، وكان راتبه في كل يوم أربعة آلاف درهم نقرة^(٤).

وقرر الناصر في زيارة تنكز هذه والتي تعد الأخيرة بالنسبة لزياراته للسلطان أن يزوج اثنتين من بناته لأبناء الأمير تنكز وهما: أحمد ومحمد^(٥)، وذلك بعد أن راقهم إلى مرتبة الإمارة^(٦)، فعقد لبني السلطان

(١) مجهول، تاريخ، ٤٩٥، المقرئ، السلوك ٤٣٢، ٢/٢-٤٣٣، ابن تغري بردي، النجوم ٩٣/٩-٩٤.

(٢) بير البيضاء: محطة من محطات البريد بين القاهرة و بليس. (العمرى، التعريف ٢٧٢؛ الفلقشندي، صبح ٤٢٢/١٤).

(٣) مجهول، تاريخ ١٩٩-٢٠٠، الصفدي، الوافي ٤٢٨، ٤٢٧/١٠، تحفة ٢٣٤-٢٣٦، المقرئ، السلوك ٤٦٠، ٢/٢-٤٦١، المقرئ ٦١٣/٢ ابن حجر، الدرر ٥٢٣/١ ابن تغري بردي، النجوم ٩٨/٩.

(٤) (النصوري، زبدة ١٣١/١٠-١٣٢، الشحاعي ٣١-٣٣؛ الصفدي، الوافي ٤٢٨-٤٢٧/١٠، المقرئ، السلوك ٤٦٠، ٢/٢-٤٦١، المقرئ ٦١٣/٢-٦١٥، ابن حجر، الدرر ٥٢٣/١-٥٢٥ ابن تغري بردي، النجوم ٩٨/٩-٩٩.

(٥) (النصوري، زبدة ١٣١/١٠-١٣٢، الشحاعي ٣١-٣٢؛ ابن صبرى ١٨٣ ابن خلدون، العبر ٤٤٢/٥، المقرئ، السلوك ٤٦١، ٢/٢، المقرئ ٦١٣/٢ ابن حجر، الدرر ٥٢٣/١ ابن تغري بردي، النجوم ٩٨/٩.

Holt 115.

(٦) المقرئ، السلوك ٤٦١، ٢/٢.

على أولاد تنكر في بيت الأمير قوصون بحضور القضاة و الأمراء، وأمر بأن يحمل مهرهن من خزانة الدولة^(١).

وكان قرار السلطان تزويج اثنتين من بناته لأولاد تنكر لرغبته في توطيد العلاقات بين الأسرتين وتدعيم روابط النسب و المصاهرة، ولعل الناصر محمد في قراره هذا كان يخطط في سبيل تأكيد مكانة تنكر بين أسرة قلاوون، فإذا توفي الناصر محمد كان تنكر خير وصي يمكن أن يأتّمه الناصر محمد كسي يأخذ بيد أولاده في الحكم، فيهيئ لهم سلطة متينة ثابتة، و يحول دون طمع كبار الأمراء المماليك في الحكم و الجلوس على كرسي السلطنة.

وفي هذا وحده تعبير صادق عن الثقة الكبيرة التي يحملها الناصر محمد لتنكر الحسامي، وإيمانه العميق بصدقه وإخلاصه، وأنه لا بد سيتفانى في خدمة ولي عهد الناصر محمد حينما يتولى زمام الأمور في السلطنة، و نستطيع أن نقدر هذه الرغبة الشخصية للناصر إذا ما عرفنا أنه شهد في فترات حكمه الثلاث سلسلة طويلة من المؤامرات التي نبحت أكثر من مرة في الإطاحة بحكمه، وتسلمن أمير آخر، وكان الناصر على إدراك تام بأن هذا سيلحق بأولاده إن عاجلا أم آجلا، فأراد أن يمهد لهذا الأمر بتأكيد وضع تنكر بين أفراد أسرة قلاوون، خاصة وأنه يعلم أن تنكر خير معين له، و لأولاده من بعده^(٢).

كما أن الناصر و في زيارة تنكر الحسامي إليه عام ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م أعطاه تفويضا بحكم الشام جميعه دون الرجوع إليه، وأن يكتبه نواب الشام بمثل ما يكتبون به السلطان، حيث يقوم تنكر بدوره بمكتابة السلطان في مهماتهم^(٣).

وكانت هذه الزيارة هي الأخيرة في سلسلة زيارات تنكر إلى مقر السلطان الناصر في القاهرة، وقد بلغت اثني عشرة زيارة^(٤).

ويعلق أحد المؤرخين على هذه الزيارة بقوله "وكانت هذه نهاية سعادة تنكر"^(٥)، أما البعض الآخر من مؤرخي العصر المملوكي فيعلقون على ذلك بالقول: "وكان من إكرامه له في هذه السفارة ما لا عهد من ملك مثله"^(٦).

(١) المنصوري، زبدة ١٣١/١٠-١٣٢، المقرئ، السلوك ٤٦١، ٢/٢، المقفى ٤٦١، ٢/٢، ابن تغري بردي، النجوم ٩٨/٩-٩٩.

(٢) الحجى، الأمير ٣٠.

(٣) الشجاعي ١٥٥-١٥٥؛ المقرئ، السلوك ٤٦٢، ٢/٢، المقفى ٤٦١، ٢/٢، ابن حجر، الدرر ٥٢٤/١.

Holt 115.

(٤) مجهول، تاريخ ١٧٢، ١٧٥، ١٧٧، ١٧٩، ١٨١، ١٨٣، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٨، ١٩٣، ١٩٩.

(٥) المصدر نفسه ١٩٩.

(٦) المقرئ، السلوك ٤٦١، ٢/٢، ٤٦٢؛ ابن تغري بردي، النجوم ٩٨/٩.

الخلاف بين الناصر والأمير تنكز

يلاحظ أن العلاقة الوثيقة التي ربطت الأمير تنكز الحسامي بالناصر طيلة الثلاثة عقود التي حكم فيها تنكز في الشام، سرعان ما تدهورت في نهاية الأمر.

ويتحدث ابن حجر عن طبيعة المكانة التي تمتع بها تنكز في السلطنة المملوكية، حتى أن جيرانه من الأرمن والمغول أخذوا يهابونه، حيث «كان يتوجه في كل سنة إلى الصيد، وربما عدّ «أي غير» الفرات»^(١) وتصيد في ذلك البر أياماً، وكان أهل تلك البلاد ينحفلون قدامه إلى تبريز»^(٢) والسلطانية»^(٣) وماردين»^(٤) وسيس»^(٥)»^(٦).

ويضيف ابن خلدون أن وجود تنكز الحسامي في الشام كان يثير الخوف في نفوس أولئك الجيران، فنشطوا في الفتنة بينه وبين الناصر محمد، من ذلك قوله: «ولما توفي أبو سعيد»^(٧) وانقرض ملك بسني هولوكو، وافترق أمر بغداد، وكانا معاً يجاورانه ويستنجدانه، سخطه بعضهم، فراسل السلطان بغشسه وأدانه في طاعته وممالة أعدائه»^(٨).

ولاشك أن لهذا الأمر كان أثر كبير في نفس الناصر الذي كان دائم التخوف من نجاح أحد كبار الأمراء في الإطاحة بحكمه، ولذا كان يتتهج في السنوات الأخيرة من حكمه على وجه التخصيص -

(١) الفرات: في أصل كلام العرب أعذب المياه، قال عز وجل ((هنا عذب فرات وهنا ملح أحاج))، وهو نهر يخرج من أرمينية ثم من قاليقا قرب خلاط ثم يدخل أرض الروم فيخرج إلى ملطية ثم إلى سميساط حتى ينتهي إلى قلعة نجم مقابل منبج ثم يمضي بالناس إلى دوسر إلى الرقة إلى رحبة مالك بن طوق ثم إلى عانة، وعند واسط يلتقي مع دجلة مشكلان ثم واحداً عرضه نحو الفرسخ، ثم يصب في بحر الهند. (ياقوت، معجم ٢٧٤/٣).

(٢) تبريز: أشهر مدن أذربيجان، وهي مدينة عامرة حسنة ذات أسوار محكمة بالأجر والجبص، وفي وسطها عدة أبقار حارية والبياتين محيطها وما الفواكه ما رخيصة. (ياقوت، معجم ١٥/٢؛ القزويني، آثار ٣٣٩؛ القلقشندي، صبح ٣٥٨/٤؛ الحميري ١٣٠، ١٤٣).

(٣) السلطانية: نسبة إلى السلطان، واسمها قنقر لان، وهي عن تبريز في سمت المشرق بميلة يسيرة إلى الجنوب على مسيرة ثمانية أيام منها، وهي مدينة معدنة، (بناها خربندا بن أرغون بن أبغا بن هولوكو، على القرب من جبال كيلان، على مسيرة يوم منها، وجعلها كرسي مملكته ومياها قوي، قليلة البياتين والفواكه، وإنما تجلب إليها الفواكه من البلاد المساقية لها). (القلقشندي، صبح ٣٥٩/٤).

(٤) ماردين: قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين. (ياقوت، معجم ٦٤/٥؛ القزويني، آملر ٢٥٩-٢٦٠؛ الحميري ٥١٨).

(٥) سبس: ذكرها ياقوت باسم سبسية: وعامة أهلها يقولون سبس، وهو بلد هو اليوم أعظم مدن الثغور الشامية بين إنطاكية وطرسوس على عين زربه وبها مسكن ابن ليون سلطان تلك الناحية الأرمني، وهي بلدة كبيرة ذات قلعة بأسوار ثلاثة على جبل مستطيل ولها بياتين ونهر صغير. (ياقوت، معجم ٣٣٨/٣؛ أبو الفداء، تقويم ٢٥٦-٢٥٧).

(٦) ابن حجر، الدرر ٥٢٣/١.

(٧) أبو سعيد: ويقال له بو سعيد بن محمد بن خربندا (أولجيتو) بن أرغون بن أبغا بن هولوكو المغولي ملك الشرق (العراق والجزيرة وأذربيجان وخراسان وبلاد الروم وأطراف ممالك ما وراء النهر)، توفي دون عقب عام ٧٣٦هـ/١٣٣٥م بعد أن حكم عشرين عاماً وموته انقرض حكم بني هولوكو وصار الأمر في العراق لسواهم. (الجزيري ٨٦٣/٣؛ الذهبي، ذبول ١٠٤/٤، سير ٥١٤/١٧؛ الصفيدي، الوافي ٣٢٢٣-٣٢٢٢/١؛ ابن كثير ١٤١/١٤؛ ابن حبيب، تذكرة ٢٧١/٢-٢٧٢؛ المقرئ، السلوك ٤٠٤/٢؛ ابن حجر، الدرر ١٣٧/٢).

(٨) ابن خلدون، العبر ٤٤٢/٥.

سياسة متطرفة في القبض على كبار الأمراء والنواب وحكام الأقاليم والولايات المملوكية دون هوادة^(١). ويلاحظ أن الناصر قلاوون كان يتتهج سياسة واضحة بخصوص نواب المملكة تتمثل في إضعاف كل أمير تقوى شوكته، فيذكر الشجاعي هذا الخصوص نصاً يبين موقف الناصر من تنكز في آخر أيامه، إذ يقول: «قبض الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام هار الثلاثاء الحادي والعشرين من ذي الحجة ٧٤٠هـ/ (الثامن عشر من حزيران ١٣٣٩م) بدمشق، وكان الموجب لذلك أن السلطان الملك الناصر كان من عادته وخلة سياسته أنه إذا كبر أحد من أمرائه و مماليكه أذبه و أقام صغيراً غيره ليأمن مكره و يكفئ شره و كان قد أقام الأمير سيف الدين تنكز نائباً بالشام ... و أقام بها نائباً إلى حين مسك ثماني وعشرين سنة و ثمانية شهور و طالت في النيابة مدته و كبرت شوكته و كثرت حاشيته»^(٢). ويبدو أن تنكز بدأ يشك في موقف الناصر محمد منه خلال الأشهر القليلة التي سبقت القبض عليه، ونتيجة لذلك ناقش تنكز هذا الوضع الجديد مع مماليكه الحسامية خاصة جنغاي^(٣) و طغاي^(٤)، «فأشاروا عليه بأن يرسل إلى قلعة جعبر^(٥) المال والسلاح بحيث يتم ذلك بسرية تامة، ويجهز المكان حتى يكون مناسباً للجوء إليه وقت الضرورة، وأن يشيع بين الأمراء أنه يقصد التوجه للصيد»^(٦). كما أن الناصر ازدادت شكوكه من الأمير تنكز بعد أن أرسل حاكم سيواس حسين بن تمرشلش^(٧) إلى الناصر يبلغه بنية تنكز التآمر على السلطان وأنه يريد الخروج عليه و التوجه إلى الحسين بن تمرشلش نفسه والتحالف معه ضد الناصر، «فتنكر السلطان» لهذا التطور المفاجئ^(٨). ويلاحظ أن هذه الواقعة أحدثت تغييراً مفاجئاً وواضحاً في نظرة الناصر محمد إلى تنكز الحسامي،

(١) الحجي، الأمير ٣٣.

(٢) الشجاعي ٥٤ب.

(٣) جنغاي: ملوك تنكز كان مقرباً عنده في غاية الحظوة لدية ، و كان يقال أنه قرابه ، ثم قبض عليه بعد تنكز و ضرب بالمقارع ثم وسط بسوق الخيل في الحرم سنة ٧٤١هـ/ تموز ١٣٤٠م . (ابن كثير ١٤/١٥٢؛ ابن حجر، الدرر ١/٥٣٩).

(٤) طغاي: أمير آحور تنكز، كان قد تقدم في ولاية أستاذه ، فلما أمسك ووسط بسوق الخيل على يدي بشتاك الناصري سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م، ووجدت عنده أموال كثيرة جداً . (ابن كثير ٦٤/١٥٢؛ ابن حجر، الدرر ٢/٢٢٠).

(٥) قلعة جعبر: قلعة حصينة من ديار بكر تقع في البر الشرقي الشمالي من الفرات بين الرقة و بالس قرب صفين ، كانت قديماً تعرف بقلعة دوسر . (ياقوت، معجم ٢/١٦٥؛ أبو الفداء، تقويم ٢٧٦-٢٧٧؛ البغدادي ٣/١١١٨؛ القلقشندي، صبح ٤/١٤٣).

(٦) الشجاعي ٥٩ب.

(٧) حسين بن تمرشلش: هو حسين بن تمرشلش بن حوبان، تأمر بسيواس بعد قتل أبيه سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م، وكان داهية ماكراً ، وكان يتمنى أن يدخل الشام ، و يأخذها ويهاب تنكز، فلم يزل يعمل الخيل إلى أن أرسل رسولا إلى الناصر يقال له قاضي شيراز تاج الدين على لسان الشيخ حسن أن تنكز طلب الحضور عندي فاستوحش الناصر من تنكز ، وكان سبب هلاكه، فلما بلغه ذلك خرج و أراد التوجه إلى الشام فشغل عنها إلى أن مات سنة ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م، مات مخنوقاً عن طريق زوجته . (الصفدي، الوافي، ١٠/٤٢٥؛ الكشي، فوات ١/٢٥٣؛ المقرئ، المقفى ٢/٦١٥؛ ابن حجر، الدرر ٢/١٥).

(٨) الصفدي، الوافي ١٠/٤٢٥؛ الكشي، فوات ١/٢٥٣؛ ابن خلدون، العبر ٥/٤٤٢؛ المقرئ، المقفى ٢/٦١٥.

حتى أصبح دائم الشك و الريبة في كل ما يأتيه من تصرفات و أفعال^(١)، أما السبب الذي دفع الحسين بن ممرتاش لأن يوقع بين تنكز و الناصر بحيث تسوء العلاقات بينهما، فيحاول ابن حجر أن يشرح ذلك فيقول: بأن الحسين بن ممرتاش «كان يتمنى أن يدخل الشام و يأخذها، و يهاب تنكز، فلم يزل يعمل الخيل إلى أن أرسل رسولا إلى الناصر يقال له قاضي شيراز تاج الدين وأخيره على لسان الشيخ حسن أن تنكز طلب الحضور إلى عندي، فاستوحش الناصر محمد من تنكز و كان سبب هلاكه، فلما بلغه ذلك فرح وأراد التوجه إلى الشام فشغل عنها إلى أن مات في سنة ٧٤٤هـ/١٣٤٣م»^(٢).

وكان من نتيجة ذلك أن «شاع في تلك الأيام أن تنكز عزم على التوجه إلى بلاد التار، فطرق سمع طاجار فبلغها السلطان مع ما ضم إليها، بسبب ما عمله به تنكز من الازدراء، فتغير السلطان»^(٣). وهذا يتبين لنا أن حكم تنكز الحسامي في الشام كان يتميز بالقوة و الهبة خاصة بين البلدان المجاورة من الروم^(٤) و المغول، الأمر الذي أثار عداوة حكام تلك الدول ضد تنكز، واشتدت رغبتهم في طرده من الشام كي يسهل لهم تحقيق مطامعهم فيها حيث كان من المستحيل أن يدخلوا الشام و يتمكنوا من إنجاز هدفهم فيها مع وجود تنكز الذي كان على أهبة الاستعداد الحربي لإنزال الهزيمة بأي حملة عسكرية تتوجه نحو الشام، وبتغير السلطان على تنكز يكون الحسين بن ممرتاش قد نجح إلى حد كبير في تمهيد الطريق للحملة العسكرية التي كان يزعم إرسالها إلى الشام، إلا أنه توفي قبل تحقيق ذلك^(٥).

إضافة إلى ذلك فقد حدث في شوال من عام ٧٤٠هـ/آذار ١٣٣٩م حريق هائل في مدينة دمشق، وقد أصاب الجامع الأموي و أوقافه بأضرار بالغة^(٦)، واستمر يومين بلياليها، حتى تم إطفاءه، ثم توالست الحرائق في المتاجر و الأسواق المجاورة للجامع عدة أيام أخرى، فعدم فيها نحو خمسة و ثلاثين ألف قوس و عدت الناس أموالا عظيمة، منها للتجار خاصة ما مبلغه ألف ألف و ستمائة ألف دينار و خربت أماكن

(١) الصفدي، الوافي ١/٤٢٥؛ الكشي، فوات ١/٢٥٣؛ ابن خلدون، العبر ٥/٤٤٢؛ المقرئ، المقفى ٢/٦١٥؛ الحجي، الأمير ٤٧.

(٢) ابن حجر، الدرر ٢/١٥.

(٣) ابن خلدون، العبر ٥/٤٤٢؛ ابن حجر، الدرر ١/٥٢٥.

(٤) بلاد الروم: أو أرض الروم، وهي بلاد واسعة من أنزه النواحي وأخصبها وأكثرها خيراً، ومن قراها نتاج الدواب والنعم، وليس في شتى البلاد مثل مائها، يحمل منها إلى سائر الأفاق، وكذلك أصناف الرقيق من الترك و الروم، وأهلها مسلمون و نصارى، وليرد بلادهم تسرى الغالب على ألوانهم البياض وعلى شعورهم الشقرة وعلى أبدانهم الصلابة، والغالب على طبعهم مباشرة اللهو والطرب، ويقام بالروم سوق كل سنة أول الربيع ويقع إليه من الممالك و الجوارى التركية و الرومية، ومن الثياب الأطلس والسقلاط، ومن الخيل و البغال الحسنة، وبلادهم واسعة، وملكاتهم عظيمة منها الرومية و القسطنطينية. (القزويني، آثار ٥٣٠-٥٣١، ٥٨٦-٥٨٧).

(٥) ابن حجر، الدرر ٢/١٥؛ الحجي، الأمير ٤٧-٤٨.

(٦) أبو الفداء، المختصر ٢/٤٩٣؛ مجهول، تاريخ ٢٠٩؛ الشجاعى ٥٦ب-٥٧أ؛ الذهبي، دول ٢/٢٤٦، ذيل ٤/١١٧؛ ابن كثير ١٤/١٥١؛ ابن حبيب، درة ٢/١٦٣-١٦٣ب، تذكرة ٢/٣١٣؛ ابن عسرى ١١٨؛ المقرئ، المقفى ٢/٦١٥؛ مرزوق ٢٢١؛ حماد ٣٦٢.

كثيرة^(١)، وقد أجرى الأمير تنكز الحسامي تحقيقاً في مسببات هذا الحريق، وبعد التحري الدقيق تبين أن المسؤول عن هذا الحريق هم الكتاب النصارى في مدينة دمشق^(٢)، وعددهم اثنا عشر شخصاً^(٣)، وقد قاموا بارتكاب هذه الفعلة بمساعدة راهبين قداماً من القسطنطينية^(٤) ويدعيان "ميلاني" و"عازر" وذلك "ليجاهدا في الملة الإسلامية ومعابدها، وقد باعا نفسيهما على ذلك، وأنهما يعلمان صناعة النفط"^(٥)، وقد تمكن هذان الراهبان من الفرار إلى قبرص^(٦). أما بقية كتاب النصارى فقد تم القبض عليهم وأحضروا بين يدي الأمير تنكز فاعترفوا بفعلتهم، فصدورت ممتلكاتهم وأموالهم، و من ثم سمر^(٧) أربعة منهم على الجمال و داروا بهم مدينة دمشق، وبعد ذلك أحرقوا بالنيران^(٨).

و حينما علم السلطان ما فعله تنكز بالنصارى في دمشق أرسل إليه ينكر عليه هذا العمل، حيث خشى السلطان أن يكون هذا العمل ذريعة للنصارى في القسطنطينية للتنكيل بالمسلمين، فبعث إلى تنكز يخبره أنه قرر إرسال بشتاك وبلغا اليحياوي إلى دمشق ومعهم عدد كبير من الأمراء الخاصكية ومماليكه وعددهم ٣٥٠، وكتب السلطان لتنكز "بأن يجهز بناته اللاتي عقدن لأولاد تنكز عليهن"، ويطلب منه أيضاً أن يرسل الأموال التي صادرها من النصارى إلى القاهرة مع بشتاك وبلغا اليحياوي^(٩).

(١) مجهول، تاريخ ٢٠٩؛ الشجاعي ٥٧؛ الذهبي، دول ٢٤٦/٢، ذيول ٤/١١٧؛ المقرئزي، السلوك ٢/٢، ٤٩٥.

(٢) أبو الفداء، المختصر ٢/٤٩٣؛ الشجاعي ٥٦ب-٥٧؛ الذهبي، دول ٢٤٦/٢، ذيول ٤/١١٧؛ ابن كثير ١٤/١٥١؛ ابن حبيب، درة ٢/١٦٣-١٦٣ب، تذكرة ٢/٣١٣؛ ابن صصري ١١٨؛ المقرئزي، السلوك ٢/٢، ٤٩٦؛ المقفئ ٢/٦١٥؛ مرزوق ٢٢١؛ حماده ٣٦٢.

(٣) الشجاعي ٥٧ب؛ ابن صصري ١١٨.

(٤) القسطنطينية: ويقال قسطنطينية، وهي دار ملك الروم، بناها قسطنطين الأكبر، وتسمى إستنبول، بينها وبين بلاد المسلمين البحر المالح، وحوها سور عظيم، تميز بجسورها، فيها منارة عجيبة، (ياقوت، معجم ٤/٣٩٥-٣٩٦).

(٥) المقرئزي، السلوك ٢/٢، ٤٩٦.

(٦) المصدر نفسه ٢/٢، ٤٩٦.

قبرص: جزيرة في بحر الروم وبأيديهم دورها، مسيرة ستة عشر يوماً. (ياقوت، معجم ٤/٣٤٦).

(٧) التسمير: نوع من أنواع التعذيب المستعملة في ذلك العهد ((وهي أن يعرّى المحكوم عليه من الثياب، ثم يربط إلى خشبتين على شكل صليب، وي طرح على ظهره، وتسمى هذه العملية بالتسمير، وربما طيف بالمحكوم عليه شوارع المدينة على هذه الحال، وهذا هو التشهير، ثم يأتي السيف فيضرب المحكوم عليه ضربة قوية بقوة تحت السرة يقسم الجسم إلى نصفين من وسطه فتتفارق أعضاؤه إلى الأرض وهذا هو التوسيط)). (المقرئزي، السلوك ١/٤٠٤، ح ٤١؛ دهمان، معجم ٤٨).

(٨) أبو الفداء، المختصر ٢/٤٩٣؛ الشجاعي ٥٧ب؛ الذهبي، ذيول ٤/١١٧؛ ابن كثير ١٤/١٥١؛ ابن حبيب، درة ٢/١٦٣-١٦٣ب، تذكرة ٢/٣١٣؛ المقرئزي، المقفئ ٢/٦١٥.

(٩) الشجاعي ٥٧ب-٥٨ب؛ الصفدي، تحفة ٢/٢٤٠؛ المقرئزي، السلوك ٢/٢، ٤٩٧.

يلبغا اليحياوي: هو الأمير يلبغا اليحياوي الناصري، كان من أكبر خاصكية الناصر، ولم يكن عند الناصر مثله، حيث شغف به فجعله أمير مائة ومقدم ألف بالديار المصرية وعمر له داراً عظيمة كانت بموضع مدرسة السلطان حسن تجاه القلعة، ولي بعد موت الملك الناصر حماة و حلب و الشام، عمر بدمشق الجامع المعروف بجامع يلبغا بسوق الخيل، وكان شجاعاً كريماً، بلغ إنعامه على مماليكه في كل سنة مائة وعشرين فرساً وثمانين حياصة ذهب، توفي في سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م. (الصفدي، أمصواء ١٠٠، تحفة ٢/٢٦٤-٢٦٥؛ المقرئزي، السلوك ٢/٧٥٥-٧٥٦؛ ابن حجر، الدرر ٤/٤٣٦-٤٣٧؛ ابن تغري بردي، النجوم ١٠/١٤٦-١٤٧؛ ابن طولون، إعلام ١٨٨).

أما موقف تنكر من قرار السلطان هذا فقد أظهر عدم رغبته في قدوم الأمير بشتاك لخشيته من أن قدومه هو بهدف القبض عليه^(١)، ولذلك فقد اعتذر تنكر عن تجهيز بنات السلطان، كما اعتذر عن حضور بشتاك، كما أظهر عدم رغبته في إرسال الأموال التي صادرها من النصارى للسلطان، وقدم تنكر ثلاثة أسباب دفعته إلى عدم إرسال الأموال، وهذه الأسباب هي :

أولاً: الجفاف و القحط الذي أصاب بلاد الشام و منها دمشق في تلك السنة (٧٤٠هـ/١٣٣٩م)^(٢).

ثانياً: الغلاء الكبير الذي طرأ على أسعار الأقوات ومختلف البضائع في بلاد الشام^(٣).

ثالثاً: رغبة تنكر في صرف تلك الأموال على ترميم وإصلاح الأماكن التي خربت من جراء الحريق^(٤).

ويجدر بنا ونحن بصدد مناقشة العوامل التي أدت إلى تغير موقف الناصر محمد نحو نائب الشام أن نشير إلى الدور الذي لعبه بعض رجال البلاط، وكانت عاقبة هذا الدور وخيمة على وضع تنكر في سلطنة المماليك، وبعبارة أكثر تحديداً كان لذلك أثر كبير فيما وصلت إليه علاقته بالسلطان من العداء والكراهية حتى انتهى الأمر بالتخلص منه و القضاء على حياته، و يأتي على رأس هؤلاء قرمشي^(٥) أو قرجي بن أقطوان الحاجب، ففي سبيل التقرب إلى السلطان و الحصول على منصب الحجوية في مصر اجتهد في إمساك تنكر و الإيقاع بينه وبين السلطان^(٦). و يظهر موقف قرجي هذا واضحا عند قدومه إلى الناصر محمد حاملاً رسالة من تنكر يعتذر فيها عن العرس بسبب ما كانت تعانيه بلاد الشام وقت ذاك من ظروف اقتصادية سيئة^(٧)، ولكن هذا الجواب لم يعجب الناصر محمد "فنظر إلى قرجي نظرة الغضب فاستدرك قرجي في جوابه وتحدث مع السلطان فيما يرضيه فاستعطفه السلطان وأوعده بمواعيد حسنة وأن يكبره ويوليه الحجوية، وباطنه في أمر سائر الشام فباح له بسائر أسرارهم وضمائرهم و سبب حضوره، و أن نائب "الشام" خائف من عاقبة أمره مع السلطان، وأنه حذر من حضور بشتاك و عرف سائر ما هو مطلع عليه من أمور نائب الشام، فقرر السلطان معه أن يكون عيناً له عليه وأن يرسل إليه بجميع أحواله وما يتجدد له وما نهض قرجي حتى غنمت نفسه أن نائب الشام ما بقي يسد منها عصابة،

(١) الشجاعي ٥٨؛ الكني، فوات ١/٢٥٣؛ الصفدي، الوافي ١٠/٤٢٥؛ المقرئ، المقفى ٢/٦١٦؛ ابن إياس، بدائع ١/٤٧٧.

(٢) الشجاعي ٥٨، ب؛ الصفدي، تحفة ٢/٢٤٠؛ الوافي ١٠/٤٢٥؛ الكني، فوات ١/٢٥٣؛

المقرئ، المقفى ٢/٦١٦؛ الحجى، الأمير ٤٢.

(٣) الشجاعي ٥٨؛ الحجى، الأمير ٤٢.

(٤) الشجاعي، ٥٨؛ المقرئ، السلوك ٢/٤٩٧؛ المقفى ٢/٦١٦؛ مرزوق ٢٢٣؛ الحجى، الأمير ٤٢.

(٥) قرجي: هو قرجي بن أقطوان الحاجب، نشأ بصفد على خير وعبادة و اعتقاد في ابن تيمية وأتباعه، وكان تنكر يجه، ثم ولي الحجوية بالقاهرة، ثم نيابة صفد أيام الصالح إسماعيل بن الناصر (٧٤٢-٧٤٦هـ/١٣٤٢-١٣٤٥م)، ثم آل أمره إلى أن خنق في شعبان سنة ٧٤٧هـ/ تشرين الثاني ١٣٤٦م. (الشجاعي ٦١؛ المقرئ، السلوك ٢/٧٢٢؛ ابن حجر، الدرر ٣/٢٤٨).

(٦) الشجاعي ٥٩؛ المقرئ، المقفى ٢/٦١٦؛ الحجى، الأمير ٤٣.

(٧) الشجاعي ٥٩.

وأن يكون هو حاجباً بمصر، وكتب السلطان له الجواب لنائب الشام و هو ناكر عليه في العرس و أنه لاغنى عنه، و أوصى لقرجي أن يطالع بما يتحدد، و سافر قرجي^(١).

وهكذا استطاع الناصر محمد أن يحول قرجي إلى عين تشهد أعمال تنكز وتفسرها حسبما يرضي شكوكه و ارتيابه، في حين نسي قرجي فضل تنكز الحسامي عليه، حيث ساعده ورقاه حتى أصبح الحاجب الخاص لنائب الشام^(٢)، وأضحت المصلحة الشخصية هي المحور الذي يحرك الحوادث بما يخدم المنفعة الخاصة، إنها و لا شك سياسة كريمة تتضمن فرصة الارتقاء على حساب قضية تنكز، وإبرازها في شكل خطر يهدد استقرار الدولة، و من جانب آخر لعبت الظروف دوراً كبيراً في خدمة هذه الميول الانتهازية، ذلك أن تنكز اعتذر عن استقبال الأمير بشتاك الذي كان مقرراً حضوره من القاهرة من أجل عمل العرس لأولاد تنكز على بنات السلطان، وبين تنكز أنه لا داعي لأن يتكبد الأمراء خسائر التقادم والشموع والهدايا بهذه المناسبة، ويطلب تأجيل ذلك إلى أن يتحسن الوضع الاقتصادي، ومن ناحية ثانية فإنه لا مانع عنده من أن يرسل أولاده بين يدي السلطان بغير مهم عنده، وأرسل قرجي بالكتاب وأمره بكشف حال السلطان معه وسرعة حضوره بالخبر^(٣).

ويرى ابن إياس أن تنكز لو حضر مع الأمير بشتاك أو الأمير بلبغا إلى عند السلطان ما كان يحصل له إلا كل خير ولكن ضل رأيه عن الصواب^(٤).

ولكن يبدو أن جواب تنكز هذا لم يعجب السلطان، فحاء دور سيف الدين طاجار^(٥) المارديني لكي يلعب دوراً مشابهاً لما فعله قرجي، ذلك أن السلطان أرسل طاجار إلى تنكز وطلب منه إخباره رغبة السلطان في حضوره مع أولاده إلى القاهرة، إلا أن تنكز رد على طاجار الدوادار بأن يعود إلى السلطان و أنه سيلحق به مع أولاده بعد عدة أيام^(٦).

وهكذا يبدو أنه مما أثار غضب الناصر محمد أيضاً هو تأخير تنكز في إرسال ولد به إلى القاهرة كي يتزوجا ابنتي الناصر^(٧)، وفي ذلك الوقت تقابل طاجار الدوادار مع قرجي الحاجب والذي كان "عين

(١) الشجاعي ٥٩؛ المقرزي، المقفى ٦١٦/٢.

(٢) الشجاعي ٦١-٦١ب؛ المقرزي، المقفى ٦١٦/٢؛ ابن حجر، الدرر ٢٤٨/٣؛ الحجى، الأمير ٤٣.

(٣) الشجاعي ٥٩ب؛ ابن خلدون، العبر ٤٤٢/٥.

(٤) ابن إياس، بدائع ٤٧٧، ١/١.

(٥) طاجار: هو الأمير سيف الدين طاجار بن عبد الله الناصري الدوادار، كان من خواص الملك الناصر محمد، و من أكابر مماليكه، أمره في عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م عشرة، ثم أمره بطلبه ثم رقه إلى منصب الدوادارية، وكان ممن انضم إلى الملك المنصور أبي بكر قبض عليه عند خلعه وقتل بالإسكندرية على يد الأمير قوصون عام ٧٤٢هـ/١٣٤١م. (الصفدي، السوافي ١٦/٣٧٨-٣٧٩. المقرزي، السلوك ٤٣/٢، ٦١٤، ابن حجر، الدرر ٢١٣/٢-٢١٤؛ ابن تغري بردي، النجوم ٦١/١٠.

(٦) الشجاعي ٦٠ب؛ الصفدي، الوالي ١٠/٤٢٥؛ المقرزي، المقفى ٦١٦/٢؛ ابن تغري بردي، النجوم ١١٢/٩.

ابن إياس، بدائع ٤٧٧، ١/١.

(٧) الشجاعي ٥٨ب.

السلطان يطالعه بما يتجدد"، فأوصى قرجي أن يعرف "السلطان أن يستدرك أمر نائب الشام"، قبل خروجه من دمشق، وقد جهز لهذا الغرض خمسمائة هجين، حيث اتفق تنكز مع أمراءه على ذلك، وحلفهم و أنفق عليهم و أعطاهم الخيل و الخلع^(١).

من خلال ذلك يبدو لنا جليا تصرف بعض المقربين من تنكز ضده، فعملوا على الكيد له عند السلطان، في حين يظهر لنا واضحا أن نائب الشام كان يتصرف تصرفا عاديا لا غبار عليه، ولم يظهر أنه كان يتحرز في حديثه مع طاجار أو قرجي، الأمر الذي يدل على صدق نواياه وإخلاصه للسلطان^(٢).

ولكن من جانب آخر نلاحظ أن بعض المماليك الحسامية كانوا يشكون في تصرفات قرجي وقد حذروا تنكز من مكائده وأنه "من جهة السلطان عيننا عليك فلا تسمع منه"^(٣)، غير أن تنكز كان مطمئنا إلى قرجي وطاجار بدليل ما حدث عندما أرسل السلطان طاجار إلى تنكز يقول له: "إنه ما بقي يطلبك إلى مصر ولا يجهاز إليك أميرا حتى لاتوهم"، فقال: "أنا أتوجه معك بأولادي"، فقال: "لو وصلت إلى بلبس"^(٤) ردك، وأنا أكفيك هذا المهم وأكون عندك بعد ثمانية أيام بتعين جديدين"، فنبطه بكلامه، "ويقال: لو عصاه وسار إلى السلطان عذره ولم يلق إلا خيرا"^(٥).

وهكذا يظهر بشكل واضح وصورة متكاملة أن كلاً من طاجار الدوادار وقرجي بن أقطوان الحاجب كانا يغشان تنكز الحسامي في النصيحة، و يؤلفان القصص الكاذبة عند سلوكهما وتصرفهما في سبيل تحقيق رغبتهما في التخلص من تنكز من ناحية، والتقرب إلى السلطان لتحقيق طموحاتهما الشخصية من ناحية أخرى، و كانا يدركان كذلك أن السلطان يكن لتنكز أعرق مشاعر الإعزاز والتقدير، ولذا اجتهدا في البحث عن دليل يدين تنكز أمام الناصر محمد، وقد كان ذلك في تفسير الأفعال التي قام تنكز بعملها في آخر أيامه، وأصبح بالتالي هدفهما هو إقناع الناصر محمد بأن كل ما أتاه تنكز من أعمال في تلك الفترة كان يخدم حركة العصيان التي كان يديرها في الخفاء وهو أبعد ما يكون عن الحقيقة^(٦)، ويؤكد الكاتب Holt أن العلاقة الحميمة التي ربطت الناصر بالأمير تنكز خاصة بعد المصاهرة بينهما قد أدت إلى ظهور تنكز على جميع الأمراء حيث أدى هذا إلى إثارة الحسد من الأمراء الآخرين وأن حاشية السلطان قد غدت بلا شك شبهاته حول الأمير تنكز خاصة بعد عودته إلى

(١) الشجاعى ٦١-٦١ ب.

(٢) الشجاعى ٥٩، ٦٠ ب؛ الصفدي، الوالي ١٠/٤٢٥؛ المقرئ، المقفى ٢/٦١٦؛ ابن تغري بردي، النجوم ٩/١١٢؛ ابن إيساس، بدائع ١/٤٧٧، الحجى، الأمير ٤٤.

(٣) الشجاعى ٦١ ب.

(٤) بلبس: مدينة بينها وبين القسطنطينية عشرة فراسخ على طريق الشام، وهي من الأعمال الشرقية بالديار المصرية.

(٥) ياقوت، معجم ١/٥٦٧؛ أبو الفداء، تقويم ١١٨-١١٩؛ المقرئ، الخطط ١/٣٣٩-٣٤٠.

(٦) الكنى، فوات ١/٢٥٣-٢٥٤؛ الصفدي، الوالي ١٠/٤٢٥-٤٢٦، تحفة ٢/٢٤٠؛ ابن حجر، الدرر ١/٥٢٤.

(٦) الشجاعى ٦١-٦١ ب؛ الصفدي، الوالي ١٠/٤٢٥؛ المقرئ، المقفى ٢/٦١٦؛ ابن حجر، الدرر ٣/٢٤٨؛ الحجى، الأمير ٤٥.

دمشق على أثر زيارته الأخيرة للقاهرة عام ٧٣٩هـ/١٣٣٨م^(١).

وهذا يلاحظ أن طاجار أوهم تنكز أن السلطان تراجع عن رغبته في حضوره إلى القاهرة، في الوقت الذي أثار حقد الناصر على تنكز حيث أخيره عند عودته إلى القاهرة بأن تنكز لا يريد الحضور إليه^(٢). وفي الوقت نفسه أعلم طاجار الدوادار السلطان الناصر محمد بأن تنكز يخطط للذهاب إلى قلعة جعير بحجة التصيد هناك حيث أن طاجار "زاد في المقال و عظم الأمر" للناصر، مما أثار حقد السلطان على تنكز^(٣)، وكان تنكز قد ناقش الأمر مع مستشاريه خاصة جنغاي و طغاي، فكان القرار إرسال الأموال و العتاد إلى القلعة لتهيئتها للجوء تنكز إليها في حالة وقوع نزاع متوقع بينه وبين الناصر^(٤)، وعندما علم السلطان بنية تنكز اللجوء إلى جعير قرر أن يرسل إلى دمشق جيشاً للقبض على تنكز قبل أن ينفذ خطته في الهرب^(٥).

إضافة إلى ذلك فإن المؤرخين يذكرون أسباباً أخرى للنزاع بين الناصر وتنكز وقرار السلطان القبض عليه، فقد "كان لتغير السلطان الملك الناصر على تنكز هذا أسباب منها : أنه كتب يستأذنه في سفره إلى ناحية جعير فمنعه السلطان من ذلك لما بتلك البلاد من الغلاء، فألح في الطلب، والجواب يرد عليه بمنعه حتى حتى تنكز وقال، والله لقد تغير عقل أستاذنا وصار يسمع من الصبيان الذين حوله، والله لو سمع مني لكنت أشرت عليه بأن يقيم أحداً من أولاده في السلطنة، وأقوم أنا بتدبير ملكه، ويبقى هو مستريحاً"، فكتب بذلك جركم^(٦) إلى السلطان، وكان السلطان يتخيل بدون هذا فآثر هذا في نفسه، ثم اتفق أن أرتنا^(٧) نائب بلاد الروم بعث رسولاً إلى السلطان بكتابه، ولم يكتب معه كتاباً إلى تنكز،

Holt 115.

(١)

(٢) الكي، فوات ٢٥٣/١-٢٥٤، الصفدي، الوالي ١٠/١٠٤٢٦-٤٢٦، تحفة ٢/٢٤٠، ابن حجر، الدرر ١/٥٢٤.

(٣) الشجاعي ٦٢؛ الكي، فوات ١/٢٥٤؛ المقرئ، المقفي ٢/٦١٧؛ ابن حجر، الدرر ١/٥٢٥؛ ابن تغري بردي، النجوم ٩/١١٢؛ دهمان، ولاة ١٦٣.

(٤) الشجاعي ٥٩ ب؛ المقرئ، السلوك ٢/٢٤٩٨، المقفي ٢/٦١٦.

(٥) الشجاعي ٦٢؛ الكي، فوات ١/٢٥٤؛ الصفدي، الوالي ١٠/٤٢٦؛ ابن كثير ١٤/١٥١؛ المقرئ، المقفي ٢/٦١٧؛ ابن حجر، الدرر ١/٥٢٥؛ ابن تغري بردي، النجوم ٩/١١٢؛ دهمان، ولاة ١٦٣.

(٦) جركم: هو الأمير بهادر رأس نوبه، اتصل بعد قتل أبيه بيبرس الجاشنكير وأمره في أواخر دولته في رمضان عام ٧٠٨هـ/شباط ١٣٠٨م، فلما عاد الناصر وقبض على الأمراء الذين أمرهم المظفر بيبرس لم يسلم منهم إلا جركم لأن فراسق كان صهره حيث شفع فيه عند السلطان فعفى عنه وأعادته إلى حريته، ولم يزل حتى مات الناصر فبعته قوصون مباشرةً بسلطنة الأشرف كحك، ثم سجن بعد القبض على قوصون و قتل بالإسكندرية عام ٧٤٢هـ/١٣٤١م، وكان في جملة الأمراء الذين حجوا مع الناصر.

(المقرئ، السلوك ٢/٣٠٥؛ ابن حجر، الدرر ١/٥٣٤؛ ابن تغري بردي، النجوم ١٠/٦٦).

(٧) أرتنا: هو التوين أرتنا، وقيل أرتنا، سلطان بلاد الروم، كان نائباً عن السلطان بو سعيد بن خربندا ملك المغول بجميع ممالك الروم، ودام على ذلك سنين، فلما مات بو سعيد كاتب أرتنا هذا السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وقال له: ((أريد أن أكون نائبك بممالك الروم))، فأجابه الملك الناصر محمد وكتب له بذلك، وأرسل له الخلع السنية وكتب له: ((نائب السلطنة الشريفة بالممالك الروميسة))، ولم تزل رسله تتردد إلى الديار المصرية إلى أن مات في أوائل المحرم من سنة ٧٥٣هـ/شباط ١٣٥٢م، وقد حسن إسلامه، كان ملكاً عارفاً عاقلاً سيوساً مديراً. (القلقشندي، صبح ٥/٣٤٤-٣٤٥؛ ابن حجر، الدرر ١/٣٤٨-٣٤٩؛ ابن تغري بردي، النجوم ١٠/٢٢٦؛ السخاوي ١/٦٦).

فحقق تنكز لعدم مكاتبته ورد رسوله من دمشق، فكتب أرتنا يعرف السلطان بذلك، وسأل ألا يطلع تنكز على ما بينه وبين السلطان، ورماه بأمر أوجبت شدة تغير السلطان على تنكز. ثم اتفق أيضاً غضب تنكز على جماعة من ممالكيه فضرمهم وسجنهم بالكرك و الشوبك، فكتب منهم جوبان^(١) وكان أكبر مماليكه إلى الأمير قوصون يشفع به في الإفراج عنهم من سجن الكرك، فكلم قوصون السلطان في ذلك، فكتب السلطان إلى تنكز يشفع في جوبان فلم يجب عن أمره بشيء، فكتب إليه ثانياً و ثالثاً فلم يجب، فاشتد غضب السلطان حتى قال للأمرء: "ما تقولون في هذا الرجل؟ هو يشفع عندي في قاتل أخي فقبلت شفاعته وأخرجته من السجن وسيرته إليه _ يعني طشتمر^(٢) أخوا بتخاص^(٣)، وأنا أشفع في مملوكه ما قبل شفاعتي"، وكتب السلطان لنائب الشوبك بالإفراج عن جوبان المذكور فافرج عنه فكان هذا وما أشبهه الذي غير خاطر السلطان الملك الناصر على مملوكه تنكز^(٤).

ولا شك أنه كان لإشاعة خروج تنكز الحسامي إلى المغول أثر كبير في تقادم شكوك الناصر محمد نحو نائبه في الشام، وزيادة نواياه في إمساكه قبل أن ينجح في تنفيذ محاولة الهرب هذه^(٥). ومثلما كان الطمع في السيطرة على بلاد الشام وراء موقف حكام البلاد المجاورة ممن تنكز الحسامي، كذلك كانت الغيرة و الحسد هي الدافع الذي كان يحرك كبار الأمرء في البلاط الناصري من أجل إثارة غضب الناصر محمد وحقه على نائب الشام^(٦).

ولعل من أهم ما كان يثير استياءهم هو حرص الناصر محمد على أن يستشير تنكز الحسامي في كل صغيرة و كبيرة من شؤون الدولة ، إلى جانب سؤاله المستمر لنائب الشام في سبيل أن ينصحه فيما يجب

(١) جوبان : هو الأمير سيف الدين جوبان بن عبد الله المنصوري ، أحد أكابر أمرء دمشق ، كان من مماليك الأشرف ، أمّره ثم أمّره الناصر بدمشق ، ووقع بينه و بين تنكز فأذن له في الهجاء إلى القاهرة فأقام وقتاً يسيراً ثم أعيد إلى دمشق ومات بها بعد مدة في صفر سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م ، وهو من أبناء السبعين. (ابن حجر، الدرر ١/٥٤٢، ابن تغري بردي، النجوم ٩/١٩٨).

(٢) طشتمر: هو سيف الدين طشتمر بن عبد الله الساقى الناصري المعروف بمحمض أخضر ، كان أحد مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون ومن خواصه ، رقاہ وأمره وولاه نيابة صغد ، وهو الذي توجه من صغد و قبض على تنكز نائب الشام ، ثم نقله إلى نيابة حلب عوضاً عن طوغان الناصري سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م ، فقام بحلب حتى خرج إلى الروم ثم عاد إلى مصر صحبة الأمرء الشاميين فولاه الناصر أحمد نيابة السلطنة ، ثم قبض عليه بعد أن باشر النيابة بـ ٣٥ يوماً وأخرجه معه إلى الكرك فقتله هناك عام ٧٤٣هـ/١٣٤٢م.

(ابن حجر، الدرر ٢/٢١٩-٢٢٠؛ ابن تغري بردي، النجوم ٩/٨٤-٨٣).

(٣) بتخاص: هو الأمير سيف الدين بتخاص المنصوري، أصله من الرحبة ثم كان من أمرء دمشق ثم ولي نيابة صغد سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، فأكثر من القتل، ثم صرف فعاد إلى القاهرة وولي بها إمرة في سلطنة بيبرس الجاشنكير، وفي سلطنة الناصر الثالثة وقع بينه وبين بتخاص خلاف فأحرق داره وسجنه بالكرك إلى أن مات بها سنة ٧١١هـ/١٣١١م. (الصفدي، الوافي ١٠/٧٥؛ ابن حجر، الدرر ١/٤٧٢-٤٧٣).

(٤) المقرزي، السلوك ٢/٤٩٨، ابن تغري بردي، النجوم ٩/١٢٢-١٢٣.

(٥) الشجاعى ٦٢-٦٢ب؛ الصفدي، الوافي ١٠/٤٢٦؛ الكتي، لوات ١/٢٥٤؛ المقرزي، المقفى ٢/٦١٧؛ ابن تغري بردي، النجوم ٩/١١٣؛ دهمان، ولاية ١٦٣-١٦٤؛ الحجي، الأمير ٤٩.

(٦) ابن خلدون، العبر ٥/٤٤٢.

أن يفعله للوصول إلى حل مناسب لمشاكل الحكم ومسؤولياته، ونتيجة لجهود هؤلاء الأمراء المتواصلة اعتقد الناصر محمد أن تنكز الحسامي كان فعلاً يحضر نفسه للهرب من دمشق من أجل النجاة والحماية^(١).

وقد تأكدت شكوك الناصر من مسألة فرار تنكز من دمشق عندما حضر طاجار إلى البلاط الناصري وأبلغ السلطان أن تنكز «عزم على الخروج من دمشق»^(٢).

ونتيجة لكل هذه التطورات طلب السلطان بعد الصلاة بعض الأمراء الذين قرر إرسالهم من أجل تنفيذ مهمة إلقاء القبض على تنكز، وهؤلاء الأمراء هم الأمير بشتاك، والأمير بيبرس الأحمدي^(٣)، والأمير جنكلي بن البابا^(٤)، والأمير أرقطاي، والأمير أرنيغا^(٥) أمير جاندار^(٦)، والأمير قماري^(٧) أمير شكار^(٨)،

(١) الشجاعي ٦٦٤، ٦٦٢ ب؛ الصفدي، تحفة ٢٤٠/٢؛ المقرزي، السلوك ٤٩٨، ٤٩٨، ٤٩٩؛ ابن حجر، الدرر ١/٥٢٥؛ ابن تغري بردي، النجوم ٩/١١٢؛ الشوكاني ١/١٧٢.

(٢) المقرزي، السلوك ٤٩٨، ٤٩٨، ٤٩٩؛ ابن تغري بردي، النجوم ٩/١١٢.

(٣) بيبرس الأحمدي : هو الأمير ركن الدين بيبرس بن عبد الله الأحمدي الناصري ، أمير جاندار ، كان أصله من مماليك الملك المنصور قلاوون ، وأحد أعيان الديار المصرية ، وهو الذي قوى عزم قوصون على سلطنة الملك المنصور أبي بكر ، وكان حركسي الجنسية ، تنقل إلى أن صار من أعيان الأمراء بمصر ، ثم ولي نيابة صفد و طرابلس ، ثم قدم القاهرة و تولى أمير جاندار ، وكان كريماً شجاعاً دينياً قوياً النفس ، وكان له ثروة كبيرة ، توفي في سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م وهو في عشر الثمانين.

(الصفدي، الوافي ١٠/٣٥٣-٣٥٥؛ ابن حجر، الدرر ١/٥٠٢؛ ابن تغري بردي، النجوم ١٠/١١٥).

(٤) جنكلي بن البابا : هو الأمير بدر الدين جنكلي بن محمد بن البابا بن جنكلي بن خليل بن عبد الله المعروف بابن البابا العجلي ، كان أتباعاً للعساكر بالديار المصرية ، أصله من بلاد الروم ، طلبه الملك الأشرف خليل بن قلاوون فكتب له منشوراً بإقطاع الذي عينه إليه ، فلم يتفق حضوره إلا في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٤م، فأقره و أكرمه ، ولا زال يرقبه حتى صار يجلس ثاني أقوش نائب الكرك، ثم بعد أقوش جلس جنكلي هذا رأس الميمنة ، توفي في ذي الحجة سنة ٧٤٦هـ/آذار ١٣٤٥م. (الصفدي، الوافي ٢/٣١٠-٣١٣، ١١/١٩٩-٢٠١؛ المقرزي، السلوك ٣/٥٥٢-٥٥٣؛ ابن تغري بردي، النجوم ٩/١١٦؛ السخاوي ١/١٨٩-١٩).

(٥) أرنيغا : هو الأمير سيف الدين أرنيغا بن عبد الله الناصري ، عمل ناظراً لطرابلس ، وكان من أجل أمراء الدولة و من أعيان مماليك الناصر محمد و خاصيته، تنقل في عدة ولايات و كان معلوداً من الشجعان . (ابن تغري بردي ، النجوم ١٠/٨٢-٨١).

(٦) أمير جاندار : الجاندار لفظ مركب من :جان : التركية بمعنى روح، و دار: الفارسية بمعنى ملك أو صاحب، وأمير جاندار معناه : الممسك لروح السلطان، و هو لقب موظف من العصر المملوكي من مرتبة أمراء الطبلخاناه ، لا يأذن بالدخول عليه إلا لمن يأمن عاقبته، و هذا الأمير مهام أخرى كتقديم البريد للسلطان و الأمير و تسلم الزردخاناه .

(القلقشندي، صبح ٤/٢٠-٢١، ٥/٤٣٣؛ المقرزي، الخطط ٣/٣٨٧؛ ابن كنان، حدائق ١٣٠؛ البقلي، التعريف ٤٨؛ عاشور، العصر ٤٣-٤٤).

(٧) قماري : ((أمير شكار)) : كان حظياً عند الناصر ، حتى تزوج ابنته ، وأمره تقدمه في سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٧م ، ثم ولي أيام الصالح إسماعيل أمير آخور ، مات في أواخر سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م. (ابن حجر ، الدرر ٣/٢٥٦).

(٨) أمير شكار : لفظ مركب من العربية و الفارسية ، معناه : أمير الصيد ، وهو لقب موظف من العصرين الأيوبي و المملوكي ، من فئة أمراء الطبلخاناه ، تلقب به المسؤول عن الطيور الجوارح وأحواشها و كل ما يتصل بأدوات صيد السلطان . (القلقشندي، صبح ٤/٢٣-٢٤، ٥/٤٣٣-٤٣٤؛ ابن طولون، إعلام ١٤، ح ٢ ؛ التوحي ٣٧٣؛ عاشور، العصر ٤١٤؛ البقلي، التعريف ٤٩ ؛ الخطيب ٤٤-٤٥).

والأمير قماري^(١) أخو بكتمر الساقى، والأمير برسبغا^(٢) الحاجب، ومع هؤلاء الأمراء السبعة ثلاثون أمير طبلخاناه، وعشرون أمير عشرة، ... وخمسون نفرًا من مقدمي الحلقة وأربعمائة من المماليك السلطانية^(٣)، ولكن مؤرخين آخرين أشاروا إلى أن عدد القوات التي أرسلها الناصر إلى دمشق تراوحت بين خمسة آلاف و عشرة آلاف بقيادة بشتاك الناصري^(٤)، وقبل إرسال هذه القوات جلس السلطان وعرض هذه القوات^(٥).

وحمل السلطان لكل مقدم ألف شارك في التوجه إلى الشام للقبض على تنكر، مبلغ ألف دينار، ولكل أمير طبلخاناه أربعمائة دينار، ولكل مقدم حلقة ألف درهم، ولكل مملوك خمسمائة درهم و فرساً و قرقلًا وخوذه^(٦).

كما قرر الناصر تحليف العسكر المتوجه للقبض على تنكر، حتى يضمّن ولاءه له في حركته العسكرية وهو يتوجه من مصر إلى الشام للقبض على تنكر^(٧)، وقد قرر الناصر تحليف العسكر بعد استشارة أمراءه الذين أشاروا عليه بذلك، حيث: «جمع الأمراء جميعهم وحلف المجردين والمقيمين له ولولده الأمير أبي بكر من بعده، و طلب الأجناد من النواحي للحلف، فكانت بالقاهرة حركات

(١) قماري الناصري : هو سيف الدين قماري بن عبد الله الناصري أخو بكتمر الساقى ، أمره الناصر بعد وفاة بكتمر ، و كان أحضره من بلاد الترك من أجل أخيه ، ولي الإستادارية في أيام الصالح إسماعيل ، ثم عمل نائباً لطرابلس ، وخرج مع الفخري لحصار الناصر أحمد بالكرك ، ثم أخرجه الكامل إلى نياية طرابلس ، ثم قبض عليه في أواخر سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م، ونقل إلى مصر فكان آخر العهد به ، فقد نقل إلى سجن الإسكندرية وقتل هناك سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦م-١٣٤٧م. (المقريزي، السلوك ٣/٢، ٧٢٣؛ ابن حجر، الدرر ٣/٢٥٦؛ ابن تغري بردي، النجوم ١٠/١٤١).

(٢) برسبغا : هو الأمير سيف الدين برسبغا الحاجب الناصري ، كان معظماً عند الناصر و هو الذي كان يتولى عقوبة المياسرين إذا صودروا فهلك على يده النشو و أقاربه و أمين الدين و غرهم ، و كان مع ذلك لين الجانب سليم الباطن ، ثم امسك في ولاية الأشرف كحك و اعتقل بالإسكندرية و قتل فيها في ولاية الناصر أحمد سنة ٧٤٢هـ/١٣٤٢ . (الصفدي، الوافي ١٠/١١٤-١١٥؛ ابن حجر ، الدرر ١/٤٧٤).

(٣) الشجاعى ٦٢-٦٢ب ؛ المقريزي، السلوك ٢/٢، ٤٩٨-٤٩٩ ، المقفى ٦١٧/٢؛ ابن تغري بردي ، النجوم ٩/١١٣ ؛ دهمان، ولاية ١٦٦٣-١٦٤ .

(٤) الصفدي ، الوافي ١٠/٤٢٦ ؛ الكتي، فوات ١/٢٥٤ .

(٥) المقريزي، السلوك ٢/٢، ٤٩٩، المقفى ٦١٧/٢؛ ابن تغري بردي، النجوم ٩/١١٣؛ دهمان، ولاية ١٦٤ .

عرض القوات :ويسمى يوم العرضة ، وهو اجتماع القوات والقيام برقصة الحرب وهم يحملون السيوف و ينشدون أناشيد الحرب ، وهي بمثابة إعداد القوات للحرب، أي تحميتها و زيادة نشاطها، وما زالت العرضة تستعمل في السعودية إلى اليوم، وهي رقصة الحرب أو: (العرضة التحدية))، وأصبحت رقصة شعبية يشترك فيها الملوك و الأمراء والشيوخ. (غوائمه، إمارة الكرك ١٥٥-٢٢٨).

(٦) الشجاعى ٦٢ب ؛ المقريزي، السلوك ٢/٢، ٤٩٩ ، المقفى ٦١٧/٢ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم ٩/١١٣ .

والقرقل: جمعه قرقلات : وهي نوع من الدروع تتخذ من صفائح الحديد وتغشى بالديباغ الأحمر و الأصفر و قد تكون مبطنه . (الفلقشندي، صبح ٢/٤١٥٢؛ البقلي، التعريف ٢٧٢؛ عاشور، العصر ٤٦٢ .

(٧) مجهول، تاريخ ٢١٠-٢١١؛ الصفدي، الوافي ١٠/٤٢٦؛ المقريزي، السلوك ٢/٢، ٤٩٩؛ ابن تغري بردي، النجوم ٩/١١٣؛ دهمان، ولاية ١٦٤؛ الحجي، الأمير ٥٠.

كثيرة^(١)، هذا إلى جانب أن السلطان بعث الأمير بهادر حلاوة^(٢) من طائفة الأوجاقية^(٣) إلى الطنبغا الصالحي نائب غزة، ومعه كتاب من السلطان سلمه إليه يخبره بأن السلطان قرر أن يستقر الطنبغا الصالحي في نيابة الشام بدلاً من تنكر، وأن العسكر المصري قادم إليه للتوجه به إلى دمشق^(٤)، كما توجه بهادر حلاوة إلى سيف الدين طشتمر نائب صفد ومعه مرسوماً سلمه إليه، يأمره فيه السلطان بأن يتوجه سريعاً إلى دمشق للقبض على تنكر نائب الشام^(٥).

كما ذهب بهادر حلاوة إلى بقية نواب الشام بملطفات^(٦) كثيرة، وذلك لكي يضمن ولائهم للسلطان وعدم تحالفهم مع الأمير تنكر^(٧).

وهكذا نلاحظ أن السلطان الناصر قرر أن يرسل جيشاً إلى الشام بقيادة أشهر أمراء مصر وعلى رأسهم بشتاك الناصري لمحاربة تنكر الحسامي^(٨).

وأخيراً غادر الجيش المعد للإمساك بتنكر القاهرة في ٢٣ ذي الحجة سنة ٧٤٠هـ / ٢٠ حزيران سنة ١٣٤٠م^(٩).

وأرسل السلطان إلى الأمراء المقيمين بدمشق يطلب منهم أن يأخذوا احتياطاتهم من تنكر، وأن يستعدوا لمنعه من الخروج من دمشق، وأن يقبضوا عليه، أو أن يعيقوه على الأقل عن التوجه خارج دمشق إلى قلعة جعبر ريثما يصل الجيش المصري إلى دمشق^(١٠).

(١) مجهول، تاريخ ٢١٠-٢١١؛ الصفدي، الوالي ١٠/٤٢٦؛ المقرئ، السلوك ٢/٤٩٩؛ ابن تغري بردي، النجوم ٩/١١٣؛ دهمان، ولاة ١٦٤.

(٢) بهادر حلاوة: هو بهادر حلاوة الأوجاقي، كان أشقر أزرق، ظالماً، وكان الناصر يندبه في مهماته، ثم ولي إمرة طبلخاناه وقرر مقدم الريدية بالشام بعد تنكر، مات مجلب في صفر سنة ٧٤٤هـ / حزيران ١٣٤٣م. (ابن حجر، الدرر ١/٤٩٧).

(٣) الأوجاقية: أو الأوشاقية، واحدها أو شاقى أو أوجاقي، وهو الذي يتولى ركوب الخيل للتسيير والريضة. (القلقشندي، صبح ١١/١٧٠، ح ٦. ابن أجا ١٦٤؛ البقلي، التعريف ٥٧؛ عاشور، العصر ٤٦٦).

(٤) ابن حبيب، تذكرة ٢/٣٢١؛ المقرئ، السلوك ٢/٤٩٩، المقفى ٢/٦١٧؛ ابن تغري بردي، النجوم ٩/١١٣؛ دهمان، ولاة ١٦٤.

(٥) أبو الفداء، المختصر ٢/٤٩٣؛ مجهول، تاريخ ٢١١؛ الصفدي، الوالي ١٠/٤٢٦؛ الكتي، فوات ١/٢٥٤؛ المقرئ، السلوك ٢/٤٩٩، المقفى ٢/٦١٧؛ ابن تغري بردي، النجوم ٩/١١٣. دهمان، ولاة ١٦٤.

(٦) الملطفات: كتب سرية كانت تكتب في العصر المملوكي على كاغد لطيف، وتلف وتختتم ثم توضع في مكان خفي كصبا سكين أو سواك أو عصا مجوفة من الداخل، يحملها الرجل ويقوم بتسليمها إلى المرسل إليه بصورة سرية لا تلفت النظر. (القلقشندي، صبح ١/١٦٢، ٣/٥٢٣؛ البقلي، التعريف ٣٢٧؛ الخطيب ٤٠٧).

(٧) الصفدي، الوالي ١٠/٤٢٦؛ الكتي، فوات ١/٢٥٤؛ المقرئ، السلوك ٢/٥٠٠؛ ابن تغري بردي، النجوم ٩/١١٣؛ دهمان، ولاة ١٦٤.

(٨) الشجاعى ٦٢؛ الكتي، فوات ١/٢٥٤؛ الصفدي، الوالي ١٠/٤٢٦؛ ابن كثير ١٤/٦٥١؛ المقرئ، المقفى ٢/٦١٧؛ ابن حجر، الدرر ١/٥٢٥؛ ابن تغري بردي، النجوم ٩/١١٢؛ ابن إياس، بدائع ١/٤٧٨.

(٩) مجهول، تاريخ ٢١١؛ الشجاعى ٦٢-٦٣؛ الصفدي، تحفة ٢/٢٤٠؛ المقرئ، المقفى ٢/٦١٨؛ ابن تغري بردي، النجوم ٩/١١٣؛ الشوكاني ١/١٧٢.

(١٠) الصفدي، الوالي ١٠/٤٢٦؛ المقرئ، المقفى ٢/٦١٧.

وقد تزامنت هذه التطورات مع قدوم الأمير موسى بن مهنا^(١) فقرر معه السلطان القبض على تنكر، فأرسل الأمير موسى بن مهنا «كتب إلى العربان بأخذ الطرقات من كل جهة على تنكر»^(٢). ثم خرج موسى بن مهنا لتجهيز العربان وإقامته على حمص^(٣)، وفي سبيل الإحاطة بتنكر بشكل جيد فان السلطان محمد بن قلاوون كتب أيضا «لسائر العربان أن يأخذوا عليه الطرقات وملئها عليه خيلاً ورجالاً»^(٤).

وقد انتهى الأمر بأن ركب الأمير طشتمر الساقى المعروف بمحمص أخضر نائب صفد إلى دمشق في ثمانين فارساً، واجتمع بالأمير قطلوبغا الفخري^(٥)، وسنجر البشمقدار^(٦)، وبيرس السلاح دار^(٧)، واتفق ركوب الأمير تنكر في ذلك اليوم إلى قصره فوق ميدان الحصا في خواصه للنزهة، وبينما هو في ذلك إذ بلغه قدوم الخيل من صفد فعاد إلى دار السعادة^(٨)، وألبس مماليكه السلاح، وأحاط به أمراء دمشق، وفي هذه الأثناء وصل نائب صفد، فخرج عسكر دمشق للقائه وقد نزل بمسجد القدم، فأمر جماعة

(١) موسى بن مهنا: هو الأمير موسى بن مهنا بن عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثه مظفر الدين أمير آل فضل، لم يخرج عن الطاعة، وكان يتنقل في الإمرة، وكانت له على السلطان الناصر وفادات وهو كثير الجرأة عليه و الناصر يكثر من الإحسان إليه، فقرره في الإمرة بعد أبيه، حيث كان أبوه أميراً، وقد أصبح أميراً عام ٧٣٥هـ/١٣٣٤م، وقدم على الناصر عام ٧٣٨هـ/١٣٣٧م، فأنعم عليه وأعطاه ضيعتين زيادة، مات في جمادى الأولى سنة ٧٤٢هـ/تشرين الأول ١٣٤١م بتلمر. (المقريزي، السلوك ٢/٦١٥، ابن حجر، الدرر ٤/٣٨٢).

(٢) المقريزي، السلوك ٢/٤٩٩، ابن تغري بردي، النجوم ٩/١١٣.

(٣) المقريزي، السلوك ٢/٤٩٩، ابن تغري بردي، النجوم ٩/١٣٣.

(٤) الشجاعى ٦٣.

(٥) قطلوبغا الفخري: هو الأمير سيف الدين قطلوبغا بن عبد الله الفخري الساقى الناصري، كان من أكابر مماليك الناصر محمد بن قلاوون من طبقة أرغون الدودار، وكان من المقربين إليه، ثم سجنه في القلعة بتهمة التآمر عليه، وبعد توسط بكتمر الساقى أطلق سراحه وأمر بإخراجه إلى الشام مع تنكر نائبها سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م، فقبه تنكر إليه، إلا أنه تحالف مع السلطان فيما بعد عام ٧٤٠هـ/١٣٣٩م في إمساك تنكر، ثم عمل في خدمة الناصر أحمد في الكرك واستولى على دمشق من الطنباغا وأصبح نائباً للمدينة لمدة أقل من سنة، وبعد أن شك الناصر أحمد في إخلاصه له قتله بسيفه عام ٧٤٣هـ/١٣٤٢م. (ابن السوردي، تمة ٢/٤٧٥؛ الصفدي، أمراء ٦٩، تحفة ٢/٢٥٠-٢٥٦؛ المقريزي، السلوك ٢/٦٣٨، ابن حجر، الدرر ٣/٢٥٠-٢٥٢؛ ابن تغري بردي، النجوم ١٠/٨٤؛ ابن إياس، بدائع ١/٤٩٥؛ ابن طولون، إعلام ١٦-١٧؛ دهمان، ولاة ١٨٤).

(٦) سنجر البشمقدار: هو علم الدين سنجر بن عبد الله البشمقدار المنصورى، كان من مماليك المنصور قلاوون، تنقل إلى أن أمّر بدمشق ثم نقل إلى القاهرة في سلطنة الناصر أحمد بصحبة قطلوبغا الفخري، مات سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م بعد أن أسن و ارتعش. (ابن حجر، الدرر ٢/١٧٣-١٧٤؛ ابن تغري بردي، النجوم ١٠/٩٤).

(٧) بيرس السلاح دار: هو الأمير ركن الدين بيرس بن عبد الله الناصري الحاجب، من المماليك الباصرية، رقاها أستاذه الملك الناصر محمد حتى صار أمير مائه ثم مقدم ألف، ثم ولاة أمير آخور مدة سنتين، ثم عزله بالأمير أيدغمش وولاه الحويبية، ثم جرده إلى اليمن فبلغ عنه أنه ارتشى فلما عاد قبض عليه فحبسه ٩ سنين و ٨ أشهر إلى أن أفرج عنه سنة ٧٣٥هـ/١٣٣٤م، وأخرجه إلى حلب أميراً بها ثم نقله إلى إمرة بدمشق فما زال بها حتى مات سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢م.

(ابن حجر، الدرر ١/٥٠٨-٥٠٩؛ ابن تغري بردي، النجوم ١٠/٨٣).

(٨) دار السعادة: اسم دار العدل التي أنشأها نور الدين محمود، تطور هذا المدلول في العصرين الأيوبي والملوكي فأصبح يطلق على مقر النواب في كل من دمشق والقاهرة وحمص وحلب وحماة وغيرها، وفي العصر العثماني أطلق مصطلح «دار سعادت» على إستنبول باعتبارها عاصمة الخلافة. (ابن طولون، إعلام ٨، ح ٢٢؛ الخطيب ١٧٢).

من المماليك أن يعودوا إلى تنكز و يخرجوه إليه، فدخل عليه جماعة منهم تمر الساقبي^(١)، والأمير طرنتاي البشمقدار، ويبرس السلاح دار، وعرفوه مرسوم السلطان فأذعن لذلك، بسبب عدم استعداده لمواجهةهم أو الخروج من دمشق والإفلات منهم، «فإن نائب صفد طرقة على حين غفلة باتفاق أمراء دمشق، ولم يجتمع على تنكز إلا عدة يسيره من ممالিকে فلذلك سلم نفسه»^(٢).

وهذه الواقعة توضح أن تنكز قد فوجئ فعلاً بقدم طشتمر بجيشه من صفد، كما أنه فكر في الحال أن يجهز ممالিকে بالسلاح لمحاربة طشتمر^(٣)، ولكنه أدرك عدم جدوى المحاولة بسبب ضعف مركزه عسكرياً وسياسياً بعد أن اتخذ أولئك المماليك الأمراء كافة الاحتياطات اللازمة للحيلولة دون ذلك، وكأهم كانوا يعلمون بأن تنكز ليس بتلك الشخصية الضعيفة التي من الممكن أن تهزم سريعاً، ولكن من ناحية ثانية كان تنكز يتصف بالحكمة وبعد النظر، ولذا فكر أنه من الأفضل الاستسلام فيحفظ بذلك أرواح المسلمين و أموال الدولة^(٤).

وبذلك تم القبض على تنكز الحسامي في يوم الثلاثاء ٢١ ذي الحجة سنة ٧٤٠هـ / ١٨ حزيران ١٣٣٩م على يد المماليك الناصرية، بقيادة طشتمر حمص أخضر نائب صفد^(٥). ويصف الشجاعى اللحظات الأخيرة التي عاشها تنكز الحسامي في دمشق، فيقول «بأن طشتمر غادر صفد وفي صحبته أربعين مملوكاً من ممالিকে وقصد دمشق فوصل إليها ...، و كان تنكز في ذلك الوقت في قصره الذي بميدان الحصا، ... و عبر لدمشق، وجلس بدار السعادة، وأراد أن يشد خيلسه، فوجد الإصطبل قد أحاط به العسكر، فوقف بميدان الحصى بظاهر دمشق»^(٦).

(١) تمر الساقبي : هو الأمير سيف الدين تمر بن عبد الله الساقبي المنصوري ، أحد أمراء الألف، كان من أكابر الأمراء و من أعيان خاصكية الملك الناصر محمد بن قلاوون وممالিকে ، وكان من مماليك الملك المنصور قلاوون أصلاً ، ثم تنقل في الولايات فتاب بممص سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م ، ثم صرف واستقر بدمشق ، ثم ولي نيابة طرابلس بعد انسحاب الأقرم إلى المغول سنة ٧١٢هـ / ١٣١٢م، إلى أن قبض عليه فاعتقل بالكرك ثم حول إلى مصر ثم أفرج عنه سنة ٧٣٥هـ / ١٣٣٤م و أعطى إمرة طبلخاناه بدمشق ، كان له دور مهم في إقناع تنكز بعدم الفرار من الناصر ومن ثم القبض عليه ، توفي سنة ٧٤٢هـ / ١٣٤١م وقيل سنة ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م .

(مجهول، تاريخ ٢١١؛ ابن الوردي، تمه ٤٧٧/٢؛ المقرئ، السلوك ٦١٦، ٣/٢؛ ابن حجر، الدرر ١٩/١؛ ابن تغري بردي، النجوم ٦٢/١٠؛ ابن إياس، بدائع ٤٧٨، ١/١).

(٢) الكتي، فوات ٢٥٤/١؛ الصفدي، الوافي ٤٢٦/١٠-٤٢٧؛ ابن خلدون، العبر ٤٤٢/٥؛ المقرئ، السلوك ٢/٢، ٥٠٠؛ ابن تغري بردي، النجوم ١١٤/٩ .

(٣) الكتي، فوات ٢٥٤/١؛ الصفدي، الوافي ٤٢٧/١٠ .

(٤) الشجاعى ٦٣، ٦٦، ٦٧-٦٧ب؛ الحجي، الأمير ٥٢-٥٣ .

(٥) أبو الفداء، المختصر ٤٩٣/٢؛ الشجاعى ٦٣-٦٣؛ الذهبي، دول ٢٤٦/٢؛ الصفدي، الوافي ٤٢٧/١٠، تحفة ٤٢١/٢

الكتي، فوات ٢٥٤/١؛ ابن كثير ١٤/١٥١؛ ابن خلدون، العبر ٤٤٢/٥؛ المقرئ، السلوك ٢/٢، ٤٩٩-٥٠٠، المقفى ٦١٨/٢؛ ابن حجر، الدرر ٥٢٥/١؛ ابن تغري بردي، النجوم ١١٤/٩؛ الشوكاني ١٧٢/١.

Holt 115.

(٦) الشجاعى ٦٣.

وبعد القبض على الأمير تنكز الحسامي على يد طشتمر حمص أخضر نائب صفد، جرد طشتمر تنكز من سلاحه وقيده وسلمه إلى الأمير بيبرس السلاح دار بحضور الأمراء، وعاد طشتمر إلى صفد، ومن ثم رحل العسكر المملوكي بقيادة بيبرس السلاح دار وبصحبة تنكز الحسامي مقيداً إلى القاهرة^(١)، وفي الحال أسرع بهادر حلاوة نحو القاهرة ليشر السلطان أنه تم القبض على تنكز، فوصل إلى بليس ليلاً والعسكر المملوكي نازل بها، فاخبر الأمير بنأ القبض على تنكز، ثم توجه لمقابلة الناصر محمد، وأعلمه الخبر، فسر الناصر سروراً عظيماً^(٢)، وكتب في الحال بعودة العسكر من بليس، وأن يتوجه بشتاك وأرقطاي وبرسيغا الحاجب إلى دمشق للحوطة على مال تنكز وممتلكاته، وأن يستقر الأمير بيغرا الجاندار^(٣)، و الأمير قماري في الصالحية بانتظار تنكز^(٤).

كذلك تم في الوقت نفسه إمساك طغاي وجنغاي "وهما مملوكي تنكز في دمشق" واعتقلوهما بقلعة دمشق^(٥)، وطلب منهما تسليم ما لديهما من أموال، وعوقبا أشد العقوبة، وقبض على أولادهما وحواشيها، وصودرت أملاكهما كلها وأموالهما، ثم وسطا بسوق الخيل^(٦).

كما قبض أيضاً على الأمير صاروجا المظفري^(٧)، وأكحل، وقبض أيضاً على الأمير الجيغا العادلي^(٨). وتجدر الإشارة إلى أنه حتى عندما جاءت الأخبار إلى الناصر بالقبض على تنكز فإنه بقي قلقساً، حيث كان يخشى عدم وصول تنكز إلى القاهرة، وبسبب اضطرابه وقلقه حلف الأمراء في القاهرة والعسكر المصري بأجمعه، وأخذ منهم عهداً بأن يبقوا موالين له، كما أعلنت في مصر حالة الطوارئ، وأصبحت القوات المملوكية على أهبة الاستعداد لمواجهة أي طارئ قد يحدث بسبب إمساك تنكز، والخشية من انتفاض بعض النواب الموالين للأمير تنكز الحسامي، واستمر السلطان قلقاً حتى وصل بهادر

(١) الشجاعى ٦٤ ب؛ الكني، هوات ١/٢٥٤؛ المقرئى، السلوك ٢/٢٠٠، ابن تغري بردى، النجوم ٩/١١٤.

(٢) المقرئى، السلوك ٢/٢٠٠، ابن تغري بردى، النجوم ٩/١١٤.

(٣) بيغرا: هو الأمير سيف الدين بيغرا بن عبد الله الناصري ثم المنصوري، الجاندار، كان أحد أمراء الألوفا بالديار المصرية في أول وفلة الناصر محمد، ثم استقر نائب السلطنة ثم ولي الحجوية في أيام السلطان الملك الكامل شعبان بن الناصر محمد (٧٤٦-٧٤٧هـ/ ١٣٤٥-١٣٤٦م)، ثم عمل كاشف الجسور بالوجه القبلي ثم أخرج إلى حلب أميراً، فمات بها في شوال سنة ٧٥٤هـ/ تشرين الأول ١٣٥٣م، وكان عاقلاً مشكور السيرة. (ابن حجر، اللور ١/٥١٤-٥١٥؛ ابن تغري بردى، النجوم ١٠/٢٢٣، السخاوي ١/٧٢).

(٤) الشجاعى ٦٥؛ المقرئى، المقفى ٢/٦١٨؛ ابن تغري بردى، النجوم ٩/١١٥.

(٥) الشجاعى ٦٥؛ الكني هوات ١/٢٥٥؛ الصفدى، الوافى ١٠/٤٢٨.

(٦) أبو الفداء، المختصر ٢/٤٩٤؛ الذهبي، دول ٢/٢٤٦؛ الصفدى، تحفة ٢/٢٤١؛ المقرئى، السلوك ٢/٥٠٧؛ ابن تغري بردى، النجوم ٩/١١٧.

(٧) صاروجا المظفري: هو الأمير صارم الدين صاروجا المظفري، أحد الأمراء الناصرية، ثم أمسك بعد مجيء الناصر من الكرك في واقعة مير موسى بن الصالح على، ثم أمره بصفد ثم بدمشق، كان خير الطبايع سليم الصدر، وكان ممن أمسك بعد تنكز واعتقل ثم أمر بكحله فعمى، ومات في أواخر سنة ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م. (ابن حجر، الدرر ٢/١٩٨).

(٨) المقرئى، السلوك ٢/٥٠٧؛ ابن تغري بردى، النجوم ٩/١١٧.

حلاوة الأوجاقي وأخبره بمسك تنكر، وبعد أن تأكد الناصر من إمساك تنكر خرج فرحاً فرحاً عظيماً و أراد أن يدق البشائر فنصح الأمرء بعدم فعل ذلك، فأخلع على البريدي، ورسم له بإمرة عشرة، وأرسل إلى طشتمر كتاباً يشكره على فعله ويثني عليه فيما دبره^(١).

وعندما وصل تنكر الحسامي إلى مصر يوم الثلاثاء ٨ محرم سنة ٧٤١هـ/ ٣ آب سنة ١٣٤٠م بصحبة الأمير بيبرس السلاح دار: «أنزل بالقلعة في مكان ضيق، وقصد السلطان ضربه بالمقارع^(٢)، فقام الأمير قوصون في الشفاعة له حتى أجيب إلى ذلك^(٣)». وعندما دخل تنكر الحسامي مدينة القاهرة أمر السلطان جميع الأمرء والماليك أن يقعدوا له بالطرقات عند باب القلعة، وأن لا يقوم له أحد، ولم يقابله السلطان بل كان قوصون يتردد إليه حتى قال له: «أبصر من يكون وصيك»، فرد عليه تنكر قائلاً: «قل له خدمتك ونصيحتك لم تترك لي صديقاً^(٤)». ثم بعث السلطان إلى الأمير تنكر يهدده حتى يعترف بمن تحالف معه من الأمرء في عصيانه، فأجاب تنكر منكرأً خروجه عن طاعة السلطان^(٥). وبناءً على أوامر الناصر أخرج تنكر الحسامي من قلعة القاهرة ليلاً إلى الإسكندرية^(٦) في حراقة^(٧) بالنيل صحبة المقدم إبراهيم بن صابر^(٨)، حيث قام بقتل تنكر هناك، وذلك يوم الثلاثاء ١٤ محرم وقيل ١٥ محرم ٧٤١هـ/

(١) الشجاعى ٦٥ أ-٦٥ ب.

(٢) المقرئى، السلوك ٢/٢٠٦، ابن تفرى بردى، النجوم ٩/١١٦؛ دهمان، ولاة ١٦٥.

والمقارع: مفرد ما مفرعة، وهي أداة خشبية أو جريدة معقوفة الرأس يضرب بها، أكثر ما يستعملها شيوخ الكنايب لتأديب الصبيان. (الخطيب ٤٠٤).

(٣) المقرئى، السلوك ٢/٢٠٦، ابن تفرى بردى، النجوم ٩/١١٦؛ دهمان، ولاة ١٦٥.

(٤) الصفدى، تحفة ٢/٢٤٢؛ ابن حجر، الدرر ١/٥٢٦؛ الشوكاني ١/١٧٢-١٧٣.

(٥) المقرئى، السلوك ٢/٢٠٦-٥٠٧، ابن تفرى بردى، النجوم ٩/١١٦.

(٦) الإسكندرية: ذكرها ياقوت قائلاً: الإسكندرية العظمى ببلاد مصر بناها الإسكندر الرومى، (ياقوت معجم ١/٢١٧؛ القزوينى، آثار ٤١٤٣ الحميرى ٥٤-٥٦). وهي مدينة لا يتسع لها عمل ولا يكتر لها قرى من أعمال الوجه البحرى، كانت في العصر المملوكى مركزاً من مراكز البريد بين الشام والقاهرة. (العمرى، التعريف ٢٥١، ٢٧١) وقد أصبحت نيابة مستقلة عام ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م، حيث أصبحت تضاهى في أهميتها نيابة طرابلس وحماة وصفد. (القلقشندى، صبح ٤/٢٤-٢٥)

(٧) الحراقة: جمعها حرايق، وهي نوع من السفن الحربية الخفيفة، كانت تستخدم لحمل الأسلحة النارية كالنار الإغريقية، فيها مرامي النيران، يرمى بها على العدو في البحر، وهناك نوع آخر من الحراقات استخدم في النيل لحمل الأمرء ورجال الدولة في الاستعراضات البحرية والحفلات الرسمية. (البقلي، التعريف ١٠٤؛ عاشور، العصر ٤٣٠؛ ضومط ٣٨٢؛ الخطيب ١٤٠).

(٨) إبراهيم بن صابر: هو إبراهيم بن أبي بكر بن شداد بن صابر مقدم الدولة، كان أصله من الغربية، ولي أبوه تقدمه بالخلعة، وولي هو أولاً جانداراً، ثم ترقى حتى ولي تقدمه الدولة، واشتهر في دولة الناصر و تمكن في الدولة حتى أنه كان يتحدث مع السلطان بغير واسطة، قبض عليه بعد الناصر ومات تحت العقوبة في صدد عام (٧٤٢هـ/ ١٣٤١م) وقيل سنة (٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م).

(المقرئى، السلوك ٢/٢٥٨، ابن حجر، الدرر ١/٢١؛ ابن تفرى بردى، النجوم ١٠/٩).

٩ أو ١٠ آب ١٣٤٠م^(١). وكانت مدة اعتقاله في الإسكندرية أقل من شهر^(٢)، وقيل اثني عشر يوماً^(٣). ولما كان في أوائل شهر رجب سنة ٧٤٤هـ/ تشرين الثاني ١٣٤٣م حضر تابوت الأمير تنكز من الإسكندرية، ودفن في تربته بجوار جامعها في دمشق^(٤).

ويرى أبو الفداء أن "الملك الناصر أضر إهلاك تنكز عشر سنين وهو يخوله ويعظمه وينعم عليه و في قلبه له ما فيه حتى قبض عليه"^(٥).

أما ابن حجر العسقلاني فيذكر أن الناصر كان يخطط للقبض على تنكز مدة ثماني سنوات قبل أن ينجح في تحقيق هدفه، وأن الناصر محمداً كان ينتظر طيلة هذه الفترة الطويلة من أجل ظهور الفرصة الملائمة لإمساك تنكز^(٦).

ولاشك أن في عبارات هؤلاء المؤرخين شيئاً من المبالغة، حيث تتفق الكتابات المملوكية المعاصرة لهذه الحقبة أن الناصر محمداً لم يقرر القبض على تنكز الحسامي سوى في الأشهر الأخيرة من سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩-١٣٤٠م، حينما جعلت الظروف هذا الأمر يبدو ضرورياً بالنسبة لأهداف الناصر محمد وخططه الرامية إلى إيجاد حكم مستقر في سلطنة المماليك، فبدا له، كما أوحى إليه بعض الأمراء ضرورة إمساك تنكز حيث أضحى وجوده خطراً يهدد استمرار حكم الناصر محمد، كذلك يبدو واضحاً في كتابات المؤرخ المعاصر الشجاعى أن الناصر محمد بدأ يرتاب في تصرفات تنكز وأفعاله، وبالتالي تغيرت مشاعره نحو نائب الشام الذي لم تحفّ عليه شكوك الناصر محمد، فأخذ يرتب الأمور من أجل النجاة بنفسه، وهنا اجتهد الناصر في وضع خططه ضمن إطار التنفيذ الفعلي بحيث يتم القبض على تنكز في أقرب وقت^(٧).

ويلاحظ بأن الأمير تنكز الحسامي رد على الافتراءات والادعاءات والتهم التي وجهت إليه، حيث أن الأمير سيف الدين قوصون _ وبعد أن حضر تنكز بصحبة بيبرس السلاح دار مقيداً _ أخذه إلى بيته

(١) أبو الفداء، المختصر ٤٤٩٣/٢، مجهول، تاريخ ٢١١، الشجاعى ٧٢، الذهبي، ذبول ٤/١٢١، ابن حبيب، درة ١٦٦/٢، ١٦٧، تذكرة ٣٢١/٢، ابن خلدون، العبر ٥/٤٤٢، ابن الشحنة، روض ٢٨٠، المقرئ، السلوك ٢/٥٠٧، المقفي ٢/٦١٩، ابن حجر، الدرر ١/٥٢٦، ابن تغري بردي، النجوم ٩/١١٦-١١٧، ابن إياس، بدائع ١/٤٧٩، النعمي، المدارس ٢/١٨٦، الشوكاني ١/١٧٣، دهمان، ولاة ١٦٥.

(٢) الكشي، فوات ١/٢٥٥، ابن حجر، الدرر ١/٥٢٦، الشوكاني ١/١٧٣.

(٣) مجهول، تاريخ ٢١٢، الحجي، الأمير ٥٦.

(٤) الذهبي، ذبول ٤/١٣٠، ابن الوردي، تمة ٢/٤٧٩-٤٨٠، الصفدي، تحفة ٢/٢٤٢، ابن كثير ١٤/١٦٩، النعمي، المدارس ١/٩٣، ٢/١٨٦.

دهمان، ولاة ١٦٥.

(٥) أبو الفداء، المختصر ٢/٤٩٣.

(٦) ابن حجر، الدرر ٤/١٤٨.

(٧) الشجاعى ٥٩-٦٢، ب ٦٢-٦٢.

بقلعة الجبل وبدأ يوجه إليه التهم التي نسبت إليه و المتمثلة في رفض القدوم إلى القاهرة بأبنائه، و رفض إرسال الأموال التي أخذها من النصارى، وتفريقه الأموال والخلع والخيل على الأمراء، وشرائه خمسمائة هجين ووضعها بالمرج، فرد عليه تنكز قائلاً: "يا أمير سيف الدين، كل الناس لا بد لهم من صديق ومن عدو ما خلا مني فأني لم يكن لي صديق، وعاديت سائر الأمراء لأجل السلطان و لم أحد منهم ولا لي محب ولا صديق وسائر الأمراء تكرهني فمن هو الذي يحلف لي أو يتقرب مني"^(١)، ثم أردف قائلاً: "و أما الذي نقل عني قريحي ، فهو معذور لأنه كان جندياً في صفد سايباً معترراً أخذته وأقمته وأمرته وجعلته حاجباً، وحاكماً في دمشق فظلم الناس و عسفهم و خرج عن الطريق فرد غيبته وحصل له مني الإهانة وخشي مني تحدث هذا القول ...، وأما مشتري الهجن، فأنا مات لي في هذه السنة ألفا هجين اشتريت عوضهم خمس مائة هجين فهو كثير إذا اشتريت عوضاً عن ألفين خمس مائة...، وأما ربطتي لهم بالمرج فعمري هجيني مربوطة بالمرج في أول حضوري و إلى الآن وأنا في وجه العدو فلا آمن أن يحضر للسلطان شغل أو مهم أو يدهنا عدو على غفلة، ... وأما إعطائي الخلع والخيل للأمراء فهذا بمرسوم السلطان ... فما عملت هذا الأمر إلا بدستوره"^(٢).

يعتقد تنكز الحسامي أن كل ما وقع له يعود إلى طبيعة منهج الناصر محمد في الحكم و سياسته نحو كبار الأمراء حتى المخلصين منهم، فلم يستطع أحد أن يحمي نفسه من ذلك التيار النفسي الذي كان يسيطر على أفكار الناصر، و رغم محاولة البعض منهم الحيلولة دون وقوع ذلك لهم بما قدموه من تحليل الأعمال في سبيل مصلحة الدولة ، إلا أن جهودهم ذهبت هباءً، ولا أدل على ذلك من عبارات تنكز نفسه بعد القبض عليه، و أثناء التحقيق معه من قبل الأمير قوصون، حيث يقول: " ... وأنا فما عملت شيء ولا لي ذنب واحد أعرفه ، قال له الأمير سيف الدين قوصون : ما هو ذنبك الذي تعرفه ؟ قال له تنكز : ذنبي أنني كبرت وطلت مدتي وانتظر وفاتي فلم أمت وكل نظرائي من خشداشيين^(٣) راحوا وأند مملوك السلطان وعمري أعمل على ما يرضيه وأمشي حسب ما يختار ولا يجري مني شيئاً"^(٤).

(١) الشجاعى ٦٦-٦٦ ب.

(٢) المصدر نفسه ٦٦-٦٧ ب.

(٣) الخشداش : فارسية معربة ، جمعها ((خشداشية))، معناها الزميل في الخدمة ، ومنها اشتقت الخشداشيه ، وهي لقب الأمراء المماليك الذين نشأوا عند سيد واحد فتمت بينهم رابطة الزمالة القديمة التي كان لها أثر هام على الإطار التاريخي في العهد المملوكي ، فقد كان هؤلاء يجلبون من أسواق النخاسة وليس بينهم من رابط سوى هذه الرابطة . (الصفدي، تحفة ١٨٣/٢، ح ٥؛ المقريزي، السلوك ١/٢٠٨-٣٨٩؛ مرزوق ٨٢؛ الخطيب ١٦٢؛ البقلي، التعريف ١٢٠؛ عاشور، العصر ٤٣٥).

(٤) الشجاعى ٦٧ ب.

من دراستنا المتفحصه هذه لمختلف جوانب الموضوع و المظاهر المتعددة للقضية التي تخفي بين حوادثها الكثير عن طبيعة التيارات التي كانت تشكل الكيان السياسي في سلطنة المماليك يظهر لنا بصورة واضحة أن تنكز الحسامي نجح بالفعل في الحصول على سلطة مطلقة لإدارة الشؤون المحلية في بلاد الشام، و لم يلتزم في كثير من الأحيان بمشاورة الناصر محمد حتى في معالجة أدق المسائل التي واجهته وهو في منصب النيابة، بل أنه لم يهتم طوال فترة نيابته بسؤال الناصر محمد النصيحة و لو من الناحية النظرية، فحظي طول الوقت بمركز قوي و مكانة رفيعة لم ينافسه فيها أحد، و من جانب آخر كان الناصر محمد حذراً كثيراً كثير الشك و الارتياب، و لم يكن له أي ثقة على الإطلاق في أي من كبار الأمراء، أو في أي ظروف جديدة قد تظهر .

وقد حدث فعلاً في وقت ما أن أصبح تنكز الحسامي أقوى أمير في سلطنة المماليك و الحاكم المطلق في بلاد الشام تحت إشراف السلطان الناصر محمد، و في ظل هذه الأحوال تبه الناصر محمد إلى تلك السلطات اللامتناهية التي كان يتمتع بها نائبه تنكز في حكم بلاد الشام، و من هنا بدأت شكوك الناصر محمد في تصرفات تنكز و أعماله حتى العادية منها والتي لا يمكن أن تنير الشك عن أي حال من الأحوال، بالإضافة إلى ذلك، بدأ الناصر محمد يخاف من تنكز الحسامي، و يخشى ما كان يتمتع به من قوة و سلطة مطلقة، بل لقد بات الناصر أشد ما يكون خوفاً من محاولة تنكز الوصول إلى الإمساك بزمام السلطة العليا في سلطنة المماليك، وأنه ربما يحاول ذلك أثناء حياة الناصر محمد أو خلال حكم ولي عهده أبي بكر .

و نتيجة لذلك بدأ الناصر محمد يضع الخطط للقبض على نائب الشام قبل أن ينجح في الإطاحة بحكم الناصر محمد، أو على الأقل هذا ما كان الناصر محمد يفكر به وهو يرسم خطة مسك تنكز و التخلص منه نهائياً، و من ثم استطاع الناصر محمد أن ينجح في تنفيذ خطة مناسبة، و تم القبض على تنكز الحسامي، و تخلص الناصر محمد بذلك من منافس كبير يخشى خطورته على استقرار الدولة المملوكية.

الأوضاع العسكرية لنيابة دمشق في عهد الأمير تنكز ودوره في الجهاد:

يلاحظ بأن المصادر التاريخية المملوكية تحدثت بشكل مسهب عن نشاط الأمير تنكز في ميدان الجهاد الإسلامي في فترة ولايته على دمشق، كما أنه شارك في الجهاد الإسلامي قبل ولايته على النيابة نفسها:

و في هذا الإطار تشير بعض المصادر إلى اشتراك الأمير تنكز الحسامي مع السلطان الناصر محمد بن قلاوون في معركة وادي الخازندار و معركة شقحب^(١). ولابد من عرض موجز لهاتين المعركتين :-

معركة وادي الخازندار :

تمثلت مقدمات هذه المعركة بهروب طائفة من المغول الأويراتية^(٢) إلى دولة المماليك سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٦م ، الأمر الذي أدى إلى غضب ملك المغول غازان^(٣) على السلطان زين الدين كتبغا^(٤) (٦٩٤-٦٩٦هـ/١٢٩٥-١٢٩٧م) الذي أنزلهم في بلاده وأحسن استقبالهم، مما دفع بغازان إلى إعداد الجيوش من أجل الانتقام من السلطان المملوكي، و السيطرة على بلاده، ومما قوى عزمه على ذلك، هروب قبجق^(٥) نائب دمشق إليه و تشجيعه على احتلال بلاد الشام^(٦).

واستجابة لذلك أعطى غازان أوامره إلى قائده سلامش بالتوجه لإخضاع بلاد الشام، ولكن ما حدث بعد ذلك من خروج سلامش عن طاعة غازان، واتصاله بالديار المصرية لجدته، أدى إلى إفشال

(١) الكشي، فوات ٢٥١/١، الصفدي، الوافي ٤٢٠/١٠، ابن تغري بردي، النجوم ١١٧/٩، المنهل ١٥٦/٤ .

(٢) الأويراتية : صنف من المغول (ابن خلدون، العبر ٤١٣/٥).

(٣) غازان : هو غازان محمود بن أرغون بن أبغا بن هولكو بن تولى بن جنكيز خان ، تولى الملك عام (٦٩٣هـ/١٢٩٣م)، وأسلم عام (٦٩٤هـ/١٢٩٤م) على يد الشيخ صدر الدين إبراهيم بن أسعد بن حموية الجويني ، مات بقروين في الثاني عشر من شعبان عام ٧٠٢هـ/التاسع من نيسان ١٣٠٢م. (ابن حجر ، الدرر ٢١٢/٣-٢١٣).

(٤) كتبغا : هو زين الدين كتبغا بن عبد الله المغلي المنصوري ، أسر من عسكر هولكو سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ثم اشتراه الملك المنصور، ثم ازداد في دولة الأشرف ، ولي النيابة للناصر محمد في سلطنته الأولى ، وكان هو الملك في الحقيقة ، و ثار على الأمير الشجاعى فحاربته، ثم قبض عليه و قتل فخدمت الفتة ، فاستقل بعد سنة، و تسلطن و لقب العادل عام ٦٩٤هـ/١٢٩٤م ، ثم وثب عليه لاحقين و استولى على القلعة، و تسلطن عام ٦٩٦هـ/١٢٩٦م ، فهرب كتبغا إلى دمشق فرسم له لاحقين أن يقيم بقلعة صرخد ، و بقي فيها إلى أن عساده الناصر إلى الحكم في سلطنته الثانية عام ٦٩٨هـ/١٢٩٨م، فعين نائباً على حماة ، و بقي فيها حتى وفاته عام ٧٠٢هـ/١٣٠٢م، فدفن بها ثم نقل جثمانه إلى دمشق ودفن بسفح قاسيون . (الصفدي ، تذكرة ١٩٣/٢-١٩٤، ابن حجر ، الدرر ٢٦٢/٣-٢٦٤، ابن تغري بردي، النجوم ٤٧/٨، ابن إياس، بدائع ٣٨٦، ١/١، الشوكاني ٥٨/٢).

(٥) قبجق : هو الأمير سيف الدين قبجق المنصوري ، أصله من المغول ، تنقل في النيابات بين حماة و دمشق و حلب ، وكان بطلاً شجاعاً جيد الرأي قليل الطمع و الظلم ، و كانت وفاته في جمادى الأولى عام ٧١٠هـ/تشرين الأول عام ١٣١٠م . (ابن حجر، الدرر ٢٤١/٣-٢٤٣ ؛ ابن تغري بردي، النجوم ١٥٣/٩، ابن طولون، إعلام ١٠، دهمان، ولاة ٨٤).

(٦) ابن خلدون، العبر ٤١٢/٥؛ ابن تغري بردي، النجوم ٩٤/٨-٩٥، ١٥٣/٩.

هدف غازان بالاستيلاء على بلاد الشام في بداية الأمر، خاصة بعد تقدم السلطان المملوكي حسام الدين لاجين المنصوري (٦٩٦-٦٩٨هـ/١٢٩٧-١٢٩٩م) النجيدات العسكرية للقائد سلامش، غير أن غازان تمكن فيما بعد من إلحاق هزيمة بجيش سلامش وقتله سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م^(١).

بعد أن تخلص غازان من سلامش أخذ يعاود التفكير من جديد في الانتقام من المماليك، خاصة بعد أن أغارت عساكر السلطان الناصر محمد على أراضي دولة المغول وقتلت معظم أهالي مدينة ماردين و هبت أموالهم، الأمر الذي اعتبره غازان سبباً رئيساً في غزوه لبلاد الشام^(٢).

ونتيجة لذلك قصد غازان بقواته بلاد الشام، فاجتاز جيشه نهر الفرات سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م، ووصل إلى أرض سلمية، في حين كان السلطان الناصر محمد قد سار بجيشه من الأراضي المصرية ووصل إلى غزة ، و في طريقه قضى على الفتنة التي أحدثها المغول الذين استغلوا مجيء غازان، وقاموا بالتمرد على أمراء الجيش المملوكي، وسعوا إلى إعادة كنيعة إلى عرش مصر^(٣)، ولكن يبدو أن تمردهم كان بدافع قتل الروح المعنوية بين العساكر المصرية وذلك تضامناً مع أبناء جنسهم، و على أية حال فبعد أن تخلص الناصر من هذه الفتنة سار إلى حمص لملاقاة غازان و أتباعه^(٤)، و في وادي الخازندار، التحم الفريقان في قتال أبدي فيه فرسان المماليك شجاعة فائقة في بداية المعركة، و قتلوا من المغول نحو خمسة آلاف جندي غير أن النهاية كانت لصالح المغول، خاصة بعد أن شعر السلطان بضعف إمكانياته الحربية وعدم مقدرة جيشه على مواصلة القتال^(٥)، الأمر الذي دفعه إلى الهرب بمن معه من العساكر إلى مدينة بعلبك و من ثم إلى مدينة دمشق التي استقبله أهلها بالشتائم و خيبة الآمال، عندها لم يكن بمقدوره الصمود أمام هذه الإهانات، فتوجه عائداً إلى الديار المصرية في أسوأ حال^(٦)، و تبعته العساكر المصرية والشامية، بعد أن لاقى في طريقها مشاق السفر بسبب هجمات العربان و أهل الجبال عليهم، وسلبهم أمتعتهم و أسلحتهم حتى أن بعضهم قد عجز عن اللحاق بالسلطان، و عاد البعض الآخر إلى مصر في أسوأ حالة بعد أن انتزعت ملابسهم^(٧).

(١) أبو الفداء، المختصر ٢/٣٧٥، ابن تغري بردي، النجوم ٨/٩٥-٩٧.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم ٨/١١١.

(٣) المنصوري، التحفة ١٥٦، الجزري ١/٤٦٢، مجهول، تاريخ ٥٨؛ القلقشندي، مآثر ٢/١٢٠؛ Muir 53.

(٤) المنصوري، مختار ١١٠، الجزري ١/٤٦٢، مجهول، تاريخ ٥٨؛ ابن دقماق ٢/١٣٠؛ ابن تغري بردي، النجوم ٨/٩٧.

(٥) الجزري ١/٤٦٢-٤٦٣، مجهول، تاريخ ٥٨-٥٩؛ اليافعي ٤/٢٣٠؛ ابن خلدون، العبر ٥/٤١٣؛ المقرئ، السلوك ١/٨٨٧، ٣/١.

M u ir 53.

(٦) الجزري ١/٤٦٣؛ اليافعي ٤/٢٣٠؛ ابن تغري بردي، النجوم ٨/٩٨-٩٩؛ ابن إياس، بدائع ١/٤٠٣.

(٧) المنصوري، مختار ١١٢، الجزري ١/٤٦٣؛ مجهول، تاريخ ٦٠؛ ابن دقماق ٢/١٣٠-١٣١.

ونج عن الهزيمة التي لحقت بالجيش المملوكي، ظهور الاضطرابات و المخاوف الشديدة بين سكان دمشق خاصة بعد أن أجمع سكان المدينة على تسليمها للمغول، وإرسال وفد من شيوخها إلى غازان من أجل طلب الأمان مقابل تسليم مفاتيحها إليه^(١)، وقد أجاب غازان إلى طلبهم وأرسل رسله إلى دمشق ومعهم فرمان الأمان لأهلها الذي اشتمل على تأمين أهل دمشق على أموالهم وأنفسهم^(٢)، ثم نزل غازان بجيشه في مرج دمشق و عانت عساكره في نواحيها وظاهرها، كما وصلت غاراتهم إلى جبل الصالحية، ثم اتجهوا إلى فتح قلعة دمشق التي امتنعت عليه بسبب رفض نائبها الأمير أرجواش المنصوري^(٣) تسليمها إليهم ففرض المغول الحصار عليها، وعندما لم يتمكنوا من احتلالها^(٤)، غارت جموعهم على مناطق الأغوار، فدخلوا غزة وصفد وبيسان ونهبوا جميعها، ولم تسلم مدينة القدس من هذه الهجمات التي انتهكت حرمة مسجدها بعد أن شربوا الخمر واستحلوا كل محرّم في داخله^(٥)، ولم يكف المغول بما حققوه من انتصارات بل أرسل زعيمهم الكتب إلى نواب الحصون الشامية البعيدة يهددهم بتسليمها إليه^(٦).

وهكذا يلاحظ بأن عودة الناصر محمد إلى مصر بعد هزيمة على يد غازان في وقعة وادي الخازندار، وتفرق العساكر الشامية من حوله فيما بعد، قد حسم المعركة لصالح المغول مما أدى إلى استيلائهم على دمشق^(٧)، إلا أن احتلالهم لها لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما أخذ السلطان في إصلاح أحوال الجيش الذي ترك أسلحته وعتاده الحربي أثناء هروبه إلى مصر^(٨).

وبالنسبة لتتكر الحسامي فقد اشترك مع المسلمين في قتال المغول في معركة وادي الخازندار وأبلى بلاءً حسناً^(٩).

(١) مجهول، تاريخ ٦٠-٦٢، اليافعي ٤/٢٣٠.

(٢) مجهول، تاريخ ٦١-٦٢، المقرئ، السلوك ١/٨٨٩، ٣/٨٩٠.

(٣) أرجواش المنصوري : هو أرجواش بن عبد الله المنصوري نائب قلعة دمشق، توفي عام ٧٠١هـ/١٣٠١ م.

(ابن تغري بردي، المنهل ٢/٢٩٤)

(٤) المنصوري، مختار ١١٣، ابن تغري بردي، النجوم ٨/١٠١.

(٥) المنصوري، مختار ١١٢-١١٣، التحفة ١٥٨، المقرئ، السلوك ١/٨٩٦، ٣/٨٩٦.

(٦) المنصوري، التحفة ١٥٨.

Muir 53.

(٧) المنصوري، مختار ١١١، القلقشندي، مآثر ٢/١٢٠، ابن إياس، بدائع ١/٥٠٥، ٢/٤٠٥.

Muir 55 .

(٨) مجهول، تاريخ ٥٨، المقرئ، السلوك ١/٨٨٨، ٣/٨٨٨.

(٩) الكني، فوات ١/٢٥١، الصفدي، الوافي ١٠/٤٢٠، ابن تغري بردي، النجوم ٩/١١٧، ٢٤٢، المنهل ٤/١٥٦.

معركة شقحب^(١):

أصدر غازان أوامره في عام ٧٠٢هـ/١٣٠٢م إلى قائدة قطلوشاه^(٢) بالسير على رأس جيشه الذي بلغ نحو ثمانين ألف مقاتل لأخذ الشام، وبعد عبور الجيش المغولي نهر الفرات، اتبع قائدة أسلوب الخداع مع الأمراء الشاميين، فأرسل إلى نائب الشام رسالة أوضح له فيها أن قدومهم كان من أجل إيجاد المراعي الخصبة، زاعماً أن أراضيهم قد أصبحت جرداء ولا تفي بالحاجة^(٣).

وأرسل أيضاً إلى نواب الأطراف الفراتية و الشامية يخبرهم بأن غازان قادم إلى الشام، وأن هدفه إقامة الصلح مع السلطان الناصر^(٤)، وقد نجح قطلوشاه في خطته هذه، إذ شرع أهالي حلب وحماة بالهروب إلى دمشق^(٥)، تاركين مدتهم خالية أمام عساكره التي نزلت على الفسور في ظاهر حلب ومرعش^(٦)، بينما سار غازان بعساكره نحو الرجة ومنها عاد إلى بلاده^(٧) تاركاً قطلوشاه و جيشه لاحتلال الشام، وقد استقرت مجموعة حول مدينة حلب، مما دفع بنائبها إلى مراسلة السلطان الناصر، يحثه على المجيء لقتال المغول، لذا فإن السلطان الناصر أرسل جيشاً بقيادة بعض الأمراء ساروا به نحو الشام، وتبعهم السلطان بجيش آخر، في حين كانت العساكر الشامية مجتمععة عند العادل كئيباً^(٨).

وعندما بلغ المغول خبر اجتماعهم، أرسل قطلوشاه طائفة من عسكره أغارت على القريتين^(٩)، وقاموا بنهبها، وسبوا من أهلها التركمانين ما يزيد على ستة آلاف شخص، مما دفع بالأمراء الشاميين إلى التوجه لإنقاذ أهالي تلك المنطقة، وتمكنوا من إلحاق الهزيمة بعساكرهم التي بلغت نحو أربعة آلاف مقاتل في موقعة عرض^(١٠) في حادي عشر من شهر شعبان سنة ٧٠٢هـ/الثامن من نيسان ١٣٠٢م، وقد غلبت فيها قلة عدد المسلمين الذي بلغ نحو ألف وخمسمائة فارس، على كثرة المغول، واستطاعوا إنقاذ التركمانين الأسرى من أيديهم^(١١)، بينما هربت العساكر المغولية إلى قطلوشاه، وأخبروه أن السلطان

(١) شقحب: قرية في جنوب دمشق و إلى الشمال الغربي من غياغب. (الذهبي، الإعلام ٢٩٤).

(٢) قطلوشاه: هو من المغول، قاد الجيش المغولي في معركة شقحب سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م، ثم أصبح فيما بعد من قادة ملك المغول خريندا و قتل في عهده. (ابن حجر، الدرر ٢٥٤/٣).

(٣) المنصوري، التحفة ٤١٦٣، ابن خلدون، العبر ٤١٧/٥، المقرئ، السلوك ٤٣٠، ٣/١، ابن تفرج، بردي، النجوم ١٢٤/٨.

(٤) المنصوري، مختار ١٢٢.

(٥) المقرئ، السلوك ٩٣٠، ٣/١.

(٦) مرعش: مدينة في الثغور بين الشام و بلاد الروم و في وسطها حصن يعرف بالرواني. (ياقوت، معجم ١٢٦/٥).

(٧) ابن خلدون، العبر ٤١٧/٥، المقرئ، السلوك ٩٣٠، ٣/١.

(٨) المقرئ، السلوك ٩٣٠، ٣/١، ابن تفرج، بردي، النجوم ١٢٤/٨، ابن إياس، بدائع ٤١٣-٤١٢، ١/١.

(٩) القريتين: قرية كبيرة من أعمال حصص في طريق البرية. (ياقوت، معجم ٣٨٢/٤).

(١٠) عَرْض: بليد في برية الشام، يدخل في أعمال حلب الآن، وهو بين تدمر و الرصافة الشرقية. (ياقوت، معجم ١١٦/٤).

(١١) المنصوري، التحفة ١٦٤، مجهول، تاريخ ١١٠، ابن تفرج، بردي، النجوم ١٢٤/٨.

المملوكي لم يخرج بعد، فقويت عزائمه، وسار بجيشه إلى قرون حماة^(١)، و من ثم إلى مرج دمشق والعساكر الشامية مندفة بين يديه حتى وصلت إلى دمشق^(٢)، التي استاء أهلها من هروهم، وأخذوا يستعدون للرحيل إلى الديار المصرية^(٣).

وبينما الأمراء الشاميون في حيرة من أمرهم، جاءهم الأخبار بوصول السلطان الناصر وجيشه إلى بلاد الشام، فساروا إليه واجتمعوا به، واتجه بهم إلى شقحب، حيث بلغهم نزول المغول فيها، وفي تلك المنطقة، وتحت جبل غباغب^(٤)، التحم الفريقان في قتال لم يسبق له مثيل، حملت فيه كراديس المغول على ميمنة الجيش المملوكي وقتلوا معظم أمرائهم^(٥)، وكاد المغول أن يلحق بالجيش الناصري هزيمة قاسية، لولا شجاعة الأمراء في القتال ودخولهم بين صفوف المحاربين، يشجعونهم على مواصلة الجهاد حتى تمكنوا من تحويل الهزيمة إلى نصر كبير، أوقف مطامع المغول، وشتت قواهم، فكانت للأمراء المذكورين اليد البيضاء على المسلمين في النصر على المغول، وما استشهاد العديد من الأمراء في هذه المعركة إلا دليل صادق على مدى صدق نواياهم في قتال أعدائهم، من أجل الدفاع عن ثرى بلادهم وغيرها من المدن الشامية^(٦).

وكان من ضمن الذين شاركوا في هذه المعركة من المماليك، وأبلوا بلاءً حسناً تنكر الناصري^(٧)، كما أن الناصر محمد أظهر في هذه المعركة تصميمه في القضاء على المغول حيث كان يقول للعساكر: "من خرج من الأجناد عن المصاف فاقتلوه، ولكم سلاحه وفرسه"^(٨)، وهذا دليل واضح على حرصه الدائم لحماية دمشق و بقية بلاد الشام، والعمل على تجنيبها من الدمار والاعتداءات الوحشية التي كان يمارسها جنود المغول على بلاد الشام، ولا أصدق على ذلك من تلك الكلمات التي وردت في رسالة غازان بعد معركة شقحب، حيث قال: "ثم سارت عساكرك طالين الغوطة، ولم يعلموا أن بها أسوداً مربوطة، وعساكرنا تأخر عنهم قليلاً قليلاً، وأعيننا ترقبها بكرة وأصيلاً، فلما عاينوا دمشق، ظنوا أنهم يدخلونها ولأهلها يأسرون، وما علموا أنهم في تجارهم ينجسون... فلم تغرب الشمس حتى فرقناهم على

(١) قرون حماة: قلعتان متقاربتان على جبل يشرف عليها ونهرها العاصي، وبين كل واحد من حماة والمرة وسلمية وبين صاحبه يوم واحد، وبينها وبين دمشق خمسة أيام. (ياقوت، معجم ٢/٣٤٥).

(٢) المنصوري التحفة ١٦٥، الياقوت ٤/٢٣٥؛ المقرئ، السلوك ١/٣١، ٩٣١.

(٣) ابن خلدون، العبر ٥/٤١٨؛ المقرئ، السلوك ١/٩٣٢-٩٣١.

(٤) غباغب: قرية في أول عمل حوران من نواحي دمشق بينهما ستة فراسخ، (ياقوت، معجم ٤/٢٠٩).

(٥) المنصوري، التحفة ١٦٥-١٦٦؛ المقرئ، السلوك ١/٩٣٢، ابن إياس، بدائع ١/٤١٣.

Muir 58.

(٦) المقرئ، السلوك ١/٩٣٣، ابن تغري بردي، النجوم ٨/١٢٧.

(٧) الكتبي، لوات ١/٢٥١؛ الصفدي، الوالي ١٠/٤٢٠؛ ابن تغري بردي، النجوم ٩/١١٧، ٢٤٢، المهمل ٤/١٥٦.

(٨) ابن أبيك ٩/٨٢؛ ابن حبيب، تذكرة ١/٢٤٥-٢٤٧؛ المقرئ، السلوك ١/٩٣٣.

أدم الأرض، وشتنا بعضهم عن بعض»^(١).

ويلاحظ بأن المغول بقيادة ملكهم أبي سعيد خربندا حاولوا غزو الشام عام ٧١٢هـ/١٣١٢م بتشجيع من أمير العرب مهنا بن عيسى^(٢) والذي عزله الناصر عن رأسته للأعراب بعد التجائه إلى ملك المغول وتحالفه معه ضد المماليك وتشجيعه على غزو الشام، وحينما علم الناصر بنياً حشود المغول خرج بقواته من مصر لملاقمتها، إلا أن القوات المغولية فضلت الانسحاب إلى الرحبة، وحاصروها مدة، وحينما فشلوا في دخولها عادوا إلى بلادهم بعد أن نفذ علف الخيل وارتفعت الأسعار، كما أن زوجة ملك المغول ضحرت من طول الحصار^(٣).

الحملة العسكرية على ملطية^(٤):

كانت ملطية تخضع للتتار منذ اجتياحهم العالم الإسلامي كبقية مناطق العراق وخراسان وأذربيجان والروم والجزيرة.

وفي عهد ملك المغول أبي سعيد بن محمد خربندا أقطع ملطية إلى أحد زعماء المغول ويدعى جوبان^(٥)، فقام جوبان هذا بتعيين أحد أمراء المغول ويدعى بدر الدين ميزامير^(٦) أميراً على المدينة، وقام ميزامير في أثناء حكمه للمدينة بتعيين أحد سكان المدينة من الأكراد ويدعى مندوه جابيا للخراج، وقد أدت سياسته السيئة في الجباية إلى تظلم سكان المدينة، حيث كان مسرفاً في جمع الضرائب^(٧)،

Muir 57.

(١) ابن أبيك ١٢٠/٩

(٢) مهنا بن عيسى: أمير آل فضل توفي عام (٧٣٥هـ/١٣٣٤م). (ابن حجر، الدرر، ٣٦٨/٤-٣٦٩؛ ابن تقي بردي، الدليل ٧٤٧/٢).

(٣) ابن أبيك ٢٤٥/٩؛ المقرئ، السلوك ١١٩، ١/٢؛ عاشور، العلاقات ١٨٢-١٨٣.

(٤) ملطية: بلدة من بلاد الروم مشهورة ومذكورة تناخم الشام، وهي للمسلمين، وصفها ابن حوقل بقوله: «مدينة كبيرة من أجل الثور وأشهرها وأكثرها سلاحاً وأجلدها رجالاً دون جبل اللكام إلى ما يلي الجزيرة، وتحتف بها أيضا جبال كثيرة بما مباح الجوز واللوز والكروم والرمان وسائر الثمار الشتوية والصيفية». (ابن حوقل ١٨١/١؛ ياقوت، معجم ٢٢٣/٥؛ الحميري ٥٤٥).

(٥) جوبان: هو الأمير سيف الدين جوبان بن ندوان، نائب القان أبي سعيد ملك المغول، وكان جوبان هذا قد ثقل على أبي سعيد فأسروا إلى خاله إيرنجي قتل فلم يمكنه ذلك، فأخذ ابنه دمشق خجاً وقله، ففر جوبان إلى هراة، فلم يسلم و قتل بها، وكان شجاعاً عالي الهمة حسن الإسلام، أجرى العين إلى مكة في جمادى الأولى سنة ٧٢٦هـ/نيسان ١٣٢٥م، وقد أنشأ مدرسة بالمدينة النبوية، ولما مات حمل إلى مكة مع الركب العراقي وطيف به الكعبة ووقف به عرضه وهو ميت ثم مضى به المدينة ودفن بالقيع، وكانت وفاته عام ٧٢٨هـ/١٣٢٧م. (ابن حجر، الدرر ٥٤١/١-٥٤٢؛ ابن تقي بردي، النجوم ١٩٧/٩).

(٦) ميزامير: هو جمال الدين الخضر ميزامير بن نور الدين، و ميزامير معناه الأمير الكبير بلغة نصارى ملطية، عينه جوبان نائباً له على ملطية، وأقام معه مندوه الكردي لجباية الخراج، وقد تظلم الناصر قلاوون بميزامير في تسلطه ملطية منه وأرسل إليه تنكر فسار بالعسكر إلى ملطية فتسلمها بغير قتال، وخرج إليه ميزامير فخلع عليه خلعة السلطان. (أبو الفداء، المختصر ٤١٩/٢؛ ابن حجر، الدرر ٣٨٦).

(٧) المقرئ، السلوك ١٤٣، ١/٢؛ ابن حجر، الدرر ٣٨٦/٤.

كما أن مندوه هذا كان يتحسس على المسلمين لحساب المغول، فقد كان «قعيداً لقصاد التتار، و كلن يتبع قصاد المسلمين ويمسكهم»، و بالتالي ثبت تأمره على المسلمين و تحالفه مع المغول^(١).
أضف إلى ذلك أن ميزامير نفسه بدأ يخشى من مندوه نفسه، و تخوف من إمكانية نجاحه في الاستيلاء على ملطية منه، و بسبب مراسلة السلطان لميزامير عدة مرات و أسلوبه في ملاطفته تمكن من إقناعه بتسليم المدينة^(٢).

كما أن السلطان الناصر كان يرغب في الاستيلاء على ملطية من المغول من خلال تجريد حملة عسكرية بقيادة تنكر الحسامي رغبة منه في إلقاء القبض على الأمير قراسنقر^(٣)، الذي فر من بلاد الشام و التجأ إلى ملك المغول أبي سعيد بن خربندا، و كان السلطان قد أرسل إليه عدة أشخاص للقبض عليه أو قتله، لكنهم فشلوا في ذلك رغم تكرار المحاولة مرات عديدة، و قد قتل في هذه المحاولات ثمانون شخصاً^(٤). فاعتقد الناصر أن الأفضل هو الإستيلاء على ملطية و القضاء على المتعاونين مع قراسنقر، خاصة و أن دساتهم ضد السلطنة المملوكية بدأت تشكل خطراً عليها^(٥).

أما أبو الفداء _ ملك حماة في ذلك الوقت _ و الذي كان قائداً لجيش حماة في الحملة الحربية على ملطية، فيتحدث في كتابه «المختصر في أخبار البشر» عن أسباب أخرى للحملة العسكرية عام ٧١٥هـ/١٣١٥م على ملطية فيقول: «إن المسلمين الذين كانوا بها، اختلطوا بالنصارى، حتى أنهم زوجوا الرجل النصراني بالمسلمة، و كانوا يعدون الإقامة بالتر و يعرفونهم بأخبار المسلمين، و كانت الأجناد و الرجال الذين بالحصون مثل قلعة الروم^(٦) و مهنسا و كختا و كركر^(٧) و غيرها لا ينقطعون عن الإغارة على بلاد العدو، مثل بلاد الروم و غيرها، فاتفق أن أهل ملطية ظفروا ببعض الغيرة المذكورين،

(١) أبو الفداء، المختصر ٤٢٠/٢.

(٢) المقرئ، السلوك ١/٢، ٤١٤٣؛ ابن حجر، الدرر ٤، ٣٨٦؛ عاشور، العلاقات ١٨٣.

(٣) قراسنقر: هو الأمير شمس الدين قراسنقر بن عبد الله المنصوري، كان من كبار الأمراء المماليك و من أجلهم، ولي نيابة حلب و الشام، خرج على السلطان الناصر مع الحاج بهادر و الأفرم، و التجأوا جميعاً إلى ملك المغول خربندا، كسانت وفاة قراسنقر بمراغة عام ٧٢٨هـ/١٣٢٧م، (الذهبي، سير ١٧/١٧-٥٠٣؛ الصفدي، تحفة ٢/٢١٥-٢٢٢، أمراء ٦٨؛ ابن حجر، الدرر ٣/٢٤٦-٢٤٧؛ ابن تغري بردي، النجوم ٩/١٩٧-١٩٨؛ ابن طولون، إعلام ١١؛ دمان، ولاة ١٤٩).

(٤) الصفدي، تحفة ٢/٢٢١؛ عاشور، العلاقات ١٨٣-١٨٤.

(٥) ابن خلدون، العبر ٥/٤٢٥؛ المقرئ، السلوك ١/٢، ١٤٣.

(٦) قلعة الروم: قلعة حصينة في غربي نهر الفرات مقابل البيرة، بينها وبين سيمساط، بما مقام بطرك الأرمن.

(٧) باقوت، معجم ٤/٤٤٣؛ أبو الفداء، تقويم ٢٦٨-٢٦٩.

(٧) كركر: حصن قرب ملطية، بينها وبين آمد و بالقرب من حصن الران.

(٧) باقوت، معجم ٤/٥١٤؛ أبو الفداء، تقويم ٢٦٤-٢٦٥.

فأسروهم وقتلوا جماعة من المسلمين، فلما جرى ذلك أرسل السلطان عسكرياً ضخماً^(١).
يتضح مما سبق أن من بين الأسباب الأخرى لغزو ملطية هو رغبة السلطان الناصر محمد ابن
قلاوون في القضاء على التحالف الذي نشأ بين المسلمين و النصارى و المغول في المدينة، إضافة إلى قيام
أهالي المدينة بقتل عدد من المسلمين الذين كانوا يغربون على بلاد الروم، وأسر البعض الآخر^(٢).
ويذكر ابن كثير أن بعض أهالي ملطية هم الذين كاتبوا السلطان و طلبوا منه فتح المدينة، حيث
«أحبوا أن يكونوا من رعيتة» وذلك بسبب ظلم مندوه الكردي وتعديه على المسلمين و انتهاك
حقوقهم^(٣).

وتيجة للأسباب المذكورة آنفاً، قرر السلطان الناصر محمد و بالتشاور مع الأمير تنكز الحسامي
نائب الشام تجريد حملة عسكرية على ملطية لفتحها و إعادتها إلى سلطة المسلمين، و أن تكون هذه
الحملة بقيادة تنكز الحسامي^(٤).

ويلاحظ بأن الاستعدادات العسكرية لهذه الحملة بدأت في دولة المماليك في نهاية عام
٧١٤هـ/١٣١٤م، فيذكر المقرئ أن السلطان الناصر جهز في أول ذي القعدة من عام
٧١٤هـ/الأول من شباط ١٣١٤م جيشاً من ممالك مصر بقيادة مجموعة من أشهر مقدمي الألوفا من
الأمرء و على رأسهم الأمرء : سيف الدين بكتمر البوبكري^(٥) السلاح دار، حيث كانت إليه مقدمة
العسكر، و الأمير قلى السلاح دار، و علم الدين سنجر^(٦) الجمقدار، و ركن الدين بيرس الحاجب،
و بكتمر البوبكري الجمقدار، و بدر الدين محمد الوزيري، و أيتمش الحمدي^(٧)، و عدد كبير من الأمرء

(١) أبو الفداء، المختصر ٤١٨/٢-٤١٩؛ ابن دقماق ١٥٤/٢ .

(٢) أبو الفداء، المختصر ٤١٨/٢-٤١٩؛ علي، جهود ٨٨ .

(٣) ابن كثير ١٤/٥٩ .

(٤) أبو الفداء، المختصر ٤١٨/٢؛ ابن أليك ٢٨٤/٩؛ مجهول، تاريخ ١٥٠، الذهبي، دول ٢٢٠/٢، ذبول ٤٠/٤، ١٢١؛ ابن الوردي،
تمة ٣٧٥/٢؛ الصفي، تحفة ٢٣٢/٢؛ الياقبي ٤٢٥٤/٤؛ ابن كثير ١٤/٥٧؛ ابن حبيب، درة ٢/١١، تذكرة ٢/٦٥؛ ابن دقماق
٤١٥٤/٢؛ المقرئ، السلوك ١٤٢/٢، المقفى ٦٠٩/٢؛ ابن حجر، الدرر ١/٥٢١؛ ابن ياس، بدائع ١/٤٤٦؛
دهان، ولاة ١٥٨ .

(٥) بكتمر البوبكري : هو الأمير سيف الدين بكتمر الأبوبكري المنصوري ، السلاح دار ، كان من أكابر الأمرء في دولة الناصر ، و كان
المنصور قد أمره أربعين ، وهو أول من تنقل من الجندية إلى الطبلخاناه ثم عظم قدره إلى أن صار أمير سلاح ، وجهه الناصر إلى صفد علم
٧٢٢هـ/١٣٢٢م نائباً فرفض فاعتقله بالإسكندرية إلى أن مات سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م ، كان جواداً سليم الباطن، كثير المعروف ، وهو
من أمرء الطبلخاناه . (ابن حجر ، الدرر ١/٤٨٢ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم ٩/١٩٨) .

(٦) سنجر الجمقدار : كان من المماليك المنصورية ، و تنقل إلى أن أمر بدمشق ، ثم نقل إلى القاهرة في فتنه الناصر أحمد بن قلاوون
بصحبة قطلوبغا الفخري ، مات سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م وقد أسن و ارتعش . (ابن حجر ، الدرر ٢/١٧٣-١٧٤) .

(٧) أيتمش الحمدي : هو الأمير سيف الدين أيتمش بن عبد الله الحمدي، كان من ممالك السلطان الناصر محمد بن قلاوون ومن خواصه،
وهو أحد من كان يندبه الناصر وهو بالكرك لمهامه، و لما عاد إلى السلطنة أمره ، ثم ولاه نيابة صفد ، و كان أميراً عارفاً فاضلاً عاقلاً
مديراً متواضعاً كريماً ، عمل في الإمارة في ظل نيابة تنكز ، توفي سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م، و قبل سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٢م .

(ابن حجر، الدرر ١/٤٢٤؛ ابن تغري بردي، النجوم ٩/٢٢٧ .

ومقدمي الحلقة^(١)، وقد بلغ عدد هذه القوات ستة آلاف مقاتل^(٢).

ورسم السلطان محمد لهذه القوات بالتوجه إلى دمشق للانضمام إلى قوات الأمير تنكز الحسامي^(٣)، كما أرسل إلى نواب حلب وحماة و طرابلس وحمص و صفد بخروج عساكرهم في هذه الحملة^(٤)، حتى قيل أن السلطان الناصر رسم لجميع عساكر الشام بالمسير في هذه الحملة^(٥)، وكان من ضمن قادة الحملة هذه الملك المؤيد عماد الدين^(٦) أبو الفداء إسماعيل نائب حماة، حيث جهز جيش حماة و توجهه بنفسه لفتح ملطية تحت قيادة الأمير سيف الدين تنكز^(٧).

ويلاحظ في هذا الإطار أن السلطان الناصر أظهر في بداية الأمر أن وجهة الجيش ستكون إلى سيبس^(٨)، وهذا يدل على أن السلطان أراد أن لا يفشي الأمر في بداية الحملة حتى لاتصل الأخبار إلى ملطية فيأخذ أهلها استعداداتهم، ولذا فالسلطان يريد أن تفاجئهم القوات الإسلامية و تأخذهم على حين غرة حتى يمكنوا من أخذ المدينة بسهولة و دون إراقة دماء، وتجدر الإشارة إلى أن ابن حجر العسقلاني يذكر أن المبادرة بتجريد حملة عسكرية على ملطية جاءت من الأمير تنكز الحسامي نفسه^(٩).

(١) ابن أيبك ٢٨٤/٩؛ المقرئزي، السلوك ١/٢، ١٤٣.

(٢) الذهبي، دول ٢٢٠/٢؛ ابن الوردى، سمة ٢/٣٧٥؛ ابن كثير ٥٧/١٤.

(٣) ابن أيبك ٢٨٤/٩؛ ابن كثير ٥٧/١٤؛ المقرئزي، السلوك ١/٢، ١٤٢؛ علي، جهود ٨٠٥.

(٤) ابن أيبك ٢٨٤/٩؛ ابن كثير ٥٧/١٤؛ ابن حبيب، درة ١/٢، أ، تذكرة ٢/٦٥؛ المقرئزي، السلوك ١/٢، ١٤٢، المقفى ٢/٦٠٩؛ ابن

حجر، الدرر ١/٥٢١؛ ابن إياس، بدائع ١/١، ٤٤٦؛ عاشور، العلاقات ١٨٣.

(٥) أبو الفداء، المختصر ٢/٤١٩؛ ابن أيبك ٩/٢٨٤؛ ابن دقماق ٢/١٥٤.

(٦) المؤيد عماد الدين: هو الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء إسماعيل صاحب حماة، ابن الملك الأفضل علي بن الملك المظفر محمود ابنسبن الملك المنصور محمد ابن الملك المنصور عمر بن شاهنشاه بن أيوب الأيوبي، مولده في جمادى الأولى سنة ٦٧٢هـ/تشرين الثاني ١٢٧٣م، حفظ القرآن الكريم وعدة كتب، برع في الفقه و الأصول العربية و التاريخ و الأدب و الطب و التفسير و المنطق و الفلسفة، كان أميراً بدمشق، خدم الملك الناصر لما كان بالكرك قبل سلطنته الثالثة فرعده بحماة، ولما عاد الناصر إلى السلطة عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م أعطاه حماة، و جعله سلطاناً يفعل فيها ما يشاء، وأركبه في القاهرة بشعار الملك وأمهة السلطنة، وكان في كل سنة يتوجه إلى مصر بأنواع من الخيل و الرقيق و الجواهر، و تقدم السلطان الملك الناصر إلى نوابه بان يكتبوا إليه ((يقبل الأرض))، و من أشهر كتبه التي ألفها:

١- المختصر في أخبار البشر.

٢- تقويم البلدان.

توفي عام ٧٣٢هـ/١٣٣١م، فتولى حماة بعده ابنه الملك الأفضل.

(٧) ابن أيبك ٣٦٤/٩-٣٦٥؛ الذهبي، ذبول ٤/٩٢٢؛ الكشي، هوات ١/١٨٣-١٨٤؛ الياقبي ٤/٢٨٤؛ ابن كثير ١٢٧/١٤؛ ابن

الشحنة، روض ٢٧٨-٢٧٩؛ ابن حجر، الدرر ١/٣٧٣-٣٧٤؛ ابن تغري بردي، النجوم ٩/٢١٤-٢١٥.

(٨) أبو الفداء، المختصر ٢/٤١٩.

(٩) المقرئزي، السلوك ١/٢، ١٤٢، المقفى ٢/٦٠٩؛ ابن حجر، الدرر ١/٥٢١؛ عاشور، العلاقات ١٨٣.

(٩) ابن حجر، الدرر ١/٥٢١.

ويشير المؤرخون أثناء حديثهم عن هذه الحملة إلى القوة العسكرية التي تمتع بها تنكر الحسامي في فترة نيابته عامة و حملته العسكرية هذه خاصة، حتى أنه صار يقارب السلطان في الهيبة و المكانة، ويشير بعضهم إلى ذلك بقولهم: «خرجت العساكر من جميع البلاد معه «تنكر» و خرج هو في زي دست السلطنة بالعصائب^(١) و الكوسات^(٢) و معه القضاة، فلما وصل إلى حماة تلقاه المؤيد فلم يحفل به ولم يأكل طعامه لكونه لم يتلقاه من بعد...»^(٣)، «و لم يفعل ذلك نائب قبله»^(٤). و من القضاة الذين استصحبهم تنكر معه في هذه الحملة قاضي القضاة نجم الدين بن صصرى الشافعي^(٥).

تحرك الجيش المملوكي بقيادة الأمير تنكر الحسامي من دمشق في الأول من محرم عام ٧١٥هـ/الأول من نيسان ١٣١٥م، ثم تبعته جيوش نيابات صفد وحمص و حماة و طرابلس، فوصلت الجيوش جميعها إلى مدينة حلب، حيث انضمت إلى قوات حلب بقيادة الأمير قرطاي^(٦)، و ملكممر الجمدار، ثم انطلقت العساكر المملوكية بقيادة الأمير تنكر الحسامي من مدينة حلب متجهة إلى مدينة ملطية عبر طريق ضيقة صعبة السلوك، و يصف الدواداري طبيعة هذه الطريق و كيفية سلوك الجيش المملوكي من خلالها قائلاً: «...وأما طريقها التي توجهوا فيها العساكر المنصورة ففيها مائة و خمسين وعشرين عقبة كبار خطيرة، دقيقة المسالك صعبة المرتقى، تقدير المسير في كل عقبة ثلاث ساعات، وكان لما توجه العسكر المنصور من عين تآب^(٧) مهدوا الطريق بالحجارين، و أصلحوا المقاطع بالأخشاب على الأودية على عقبتين منها خاصة، طول كل مقطع ثلاثين ذراعاً بذراع العمل، و عرض الجسر الخشب ذراع واحد، فكان جواز العساكر عليها، و سلم الله عز و جل»^(٨).

- (١) العصائب : هي الأعلام ، وهي عبارة عن عدة رايات منها راية عظيمة من حرير أصفر مطرز بالذهب عليها ألقاب السلطان واسمه ، وهي مما يستعمل في مواكب السلطان ، مفرداها عصابة . (القلقشندي ، صبح ٧/٤ ؛ البقلي ، التعريف ٢٤٥-٢٤٦ ؛ ضومط ٣٨٣ ؛ الخطيب ٣٢٣ ؛ عاشور ، العصر ٤٥٧).
- (٢) الكوسات : من رسوم السلطان و آله وهي صنوح من نحاس شبه الترس الصغير يدق بأحدها على الآخر بإفباع مخصوص ويتسولى ذلك الكوسى . (القلقشندي ، صبح ١٣،٨/٤ ؛ البقلي ، التعريف ٢٩٠ ؛ الخطيب ٣٧٣ ؛ ضومط ٣٨٣).
- (٣) المقرزي ، السلوك ، ١/٢ ، ١٤٢ ، المقفى ، ٦٠٩/٢ ؛ ابن حجر ، الدرر ٥٢١/١ .
- (٤) المقرزي ، السلوك ، ١/٢ ، ١٤٢ ، المقفى ، ٦٠٩/٢ .
- (٥) ابن كثير ٥٨/١٤ ؛ ابن حبيب ، تذكرة ٦٥/٢ ، المقرزي ، السلوك ١٤٢،١/٢ ؛ عاشور ، العلاقات ١٨٣ .
- (٦) قرطاي : هو الأمير قرطاي بن عبد الله الأشرفي الجوكندار ، أول ما ترقى عمل حاجباً بحلب ، ثم أمر بدمشق ، ثم تولى نيابة السلطنة بطرابلس يوم الثلاثاء ٤ ربيع الأول عام ٧٣٣هـ / ٢٣ تشرين الثاني ١٣٣٢م ، ومات بها في ١٢ صفر سنة ٧٣٤هـ / ٢٣ تشرين الأول عام ١٣٣٣م . عمر بطرابلس مدرسة عرفت به ((المدرسة القرطائية)). (ابن الوردي ، تكملة ٤٣٢/٢ ؛ ابن حبيب ، تذكرة ٢٥٢/٢-٢٥٣ ؛ المقرزي ، السلوك ٢/٢ ، ٣٧٦ ؛ ابن حجر ، الدرر ٢٤٨/٣ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم ٢٢٣/٩-٢٢٤).
- (٧) عين تآب : قلعة حصينة ورساق بين حلب و إنطاكية ، وكانت تعرف بدلوك ، ودلوك رستاقها ، وهي الآن من أعمال حلب . (ياقوت معجم ٤ / ١٩٩).
- (٨) ابن أبيك ٢٨٤/٩-٢٨٥ .

المغول وعقب وفاة الملك أبي سعيد حصل نزاع على حكمها بين الأمراء علي باشا^(١) وموسى^(٢) القان^(٣) من جهة، وبين الشيخ حسن الكبير^(٤) وطفه بن سوتاي^(٥) وأولاد تمرناش من جهة أخرى، وانتهت بسيطرة الشيخ حسن الكبير وطفاهي بن سوتاي على دولة المغول^(٦).

ومن الأسباب الأخرى التي أدت إلى الحملة العسكرية المملوكية على بلاد الأرمن عام ٧٣٧هـ/١٣٣٦م، أن الأرمن كانوا قد تعدوا على بعض المسلمين من العساكر الخلية الذين مروا ببلاد سيس بهدف إيصال أحد المسلمين من سكان تلك البلاد و الذي كان في حماية السلطان المملوكي^(٧)، كما أن هؤلاء الأرمن نقضوا الهدنة الموقعة بينهم وبين المسلمين حيث هاجموا بعض المناطق الشمالية في بلاد الشام^(٨)، أضف إلى ذلك أن ملك الأرمن "تكفور" توقف عن دفع الأموال التي كان يرسلها إلى السلطنة المملوكية بشكل سنوي^(٩)، وعلاوة على ذلك قام بالقبض على عدد من المساليك وإرسالهم إلى مدينة آياس الأرمينية، و لم يعرف بعدها عن أخبارهم شيئاً^(١٠)، كما ألقى القبض على

(١) علي باشا : أحد أمراء المغول في عهد الملك أبي سعيد ، وبعد وفاة أبو سعيد استولى علي باشا على دولة المغول وعمل على تنصيب موسى بن طوغاي سلطاناً عليها، لكنه لم يمكث طويلاً بسبب قلبه علي يد الشيخ حسن الكبير .
(ابن حجر ، الدرر ، ٣٧٦/٤)

(٢) موسى القان : هو موسى بن علي بن ييلو بن طوغاي ، من المغول ، نشأ في سواد العراق ، كان في بدايته يتكسب بالنساعة ، إنسب على دينه وعقله ، وحينما استولى الأمير علي باشا على دولة المغول عقب وفاة الملك أبي سعيد ، أحضر موسى هذا وسلطه ، فقام الشيخ حسن بقتل علي باشا وبقي موسى في جبال الأكراد لمدة أربعة أشهر ، حتى قتل في أذربيجان على يد أحد الأكراد حيث استجار به من الشيخ حسن، لكن هذا الكردي غدر به ، فقتله وذلك في عام ٧٣٧هـ/١٣٣٦م. (ابن حجر ، الدرر ، ٣٧٦/٤-٣٧٧).

(٣) القان : لقب أطلق على رؤساء الترك في القرن السابع الميلادي ، ومعناه رئيس الرؤساء ، وقد استعمل أولئك الترك المتقدمين لقب قان أو خان أيضاً بمعنى قاغان ، وربما كان اختصاراً ، وقد لبث هذا الاستعمال شائعاً بين الترك حتى أيام ملوك المغول ، فصارت كلمة قاغان أو خان تطلق على ملك المغول الأعظم . (القلقشندي، صبح ، ٤/٦٠، ٤٨٣، ٧/٣٩٩، البقلي ، التعريف ، ٢٦٧) .

(٤) حسن الكبير : هو الشيخ حسن بن حسين بن أبقا الجلجاري المعروف بالشيخ حسن الكبير، من أقارب القان أبو سعيد ، (فهو ابن عمته) ، عينه أبو سعيد نائباً له بعد مقتل جويان وأولاده ، وهو الذي أسس الدولة الجلجارية بفارس بعد وفاة أبي سعيد سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م ، قتل ببغداد سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٦م . (ابن حبيب ، تذكرة ، ٣١٧/٢ ؛ ابن حجر ، الدرر ، ١٤/٢) .

(٥) طفه بن سوتاي : ويقال طفاهي بن سوتاي المغلي ، ولي ديار بكر بعد وفاة أبيه سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م ، حارب علي باشا وقتله ، مات في الحرم سنة ٧٤٤هـ/جزيران ١٣٤٣م. (المقريزي ، السلوك ، ٢/٦٦٠، ٤ ؛ ابن حجر ، الدرر ، ٢٢٠/٢-٢٢١) .

(٦) الشجاعي ٤ ؛ الذهبي ، دول ، ٢/٢٤٣ ؛ عاشور ، العلاقات ، ١٩٦ .

(٧) ابن أيبك ، ٣٩٨/٩ ، ٣٩٩ .

(٨) سرور ، ٢٣١ ؛ عاشور ، العلاقات ، ١٩٦ .

(٩) المقريزي ، السلوك ، ٢/٤١٨ ، عاشور ، العلاقات ، ١٩٦ .

(١٠) الشجاعي ٥ ؛ المقريزي ، السلوك ، ٢/٤١٨ .

مجموعة أخرى من المماليك وقتلهم^(١)، ولم يكف بذلك بل نهب بعض التجار المسلمين الذين يتلحرون ببلادهم^(٢).

ونتيجة لهذه التطورات السياسية والعسكرية المحيطة بدولة المماليك، استشار السلطان الناصر محمد بن قلاوون نائب الشام الأمير تنكز الحسامي وغيره من المقربين إليه من أمراء المماليك، فاستقر الأمر على إرسال حملة حربية إلى بلاد سبسي لتحقيق حملة من الأهداف السياسية والعسكرية وأهمها:

١- الاستيلاء على القلاع الاستراتيجية الواقعة على الضفة اليسرى لنهر جيحان^(٣)، وإلزام ملك الأرمن "تكفور" بمعاودة حمل ما يتوجب عليه من الخراج .

٢- إجابة علي باشا إلى مطلبه المتمثل بنزول الجيش المملوكي قريباً من الفرات، ومعاونته وحليفه موسى القان ضد خصميهما الشيخ حسن الكبير وطغاي بن سوتاي^(٤).
وتنفيذاً لهذه الأهداف جهز السلطان العساكر المصرية بقيادة الأمير سيف الدين أرقطاي، حيث تحركت إلى بلاد الشام وانضمت إلى قوات نيابة دمشق بقيادة قطلوبغا الفخري مقدم الجيش الشامي، إضافة إلى ذلك انضمت قوات مملوكية أخرى من نيابات حمص وحماة وطرابلس و حلب، وأصبحت كلها تحت قيادة نائب حلب الأمير علاء الدين الطنبغا^(٥).

خرج العسكر المصري إلى بلاد الشام في شعبان سنة ٧٣٧هـ/ آذار ١٣٣٦م، وفي نفس الوقت كتب السلطان إلى نواب الشام بتوجيه عساكرهم إلى ناحية جعبر^(٦)، ولما وصل العسكر المصري إلى حلب عادت عساكر الشام من جعبر، ثم انضموا جميعاً تحت لواء نائب حلب وساروا جميعاً إلى بلاد سبسي في شوال من عام ٧٣٧هـ/ أيار ١٣٣٦م حتى وصلوا إلى الإسكندرونه^(٧)، وكان الأمير مغلطاي الغزي^(٨) قد سبقهم إليها قبل شهرين من وصولهم ، حتى يتمكن من تجهيز آلات الحصار المختلفة، مثل:

(١) الشجاعى ص ٥

(٢) المصدر نفسه ص ٥ .

(٣) جيحان: نهر بالمصيصة بالثغر الشامي ومخرجه من بلاد الروم ويمر حتى يصب بمدينة تعرف بكفر تيا بإزاء المصيصة ، وعليه عند المصيصة قنطرة من حجارة رومية عجيبة قديمة عريضة ، يدخل منها إلى المصيصة وينفذ منها أربعة أميال ثم يصب في بحر الشام. (ياقوت، معجم ٢/ ٢٢٧) .

(٤) اليوسفي ٩٦-٩٧؛ ابن الشحنة، روض ٢٨٠؛ المقرئ، السلوك ٢/٢، ٤١٨؛ عاشور، العلاقات ١٩٦ .

(٥) الجزري ٣/٩٣٦؛ الشجاعى ٣-٣؛ ابن الوردى، تممة ٢/٤٤٥؛ اليوسفي ٩٧، ٣٩٥؛ ابن حبيب، تذكرة ٢/ ٢٧٨؛ المقرئ، السلوك ٢/٢، ٤٢٨؛ عاشور، العلاقات ١٩٦؛ على، جهود ٨٣؛ سرور ٢٣١ .

(٦) اليوسفي ٣٩٥؛ المقرئ، السلوك ٢/٢، ٤١٨ .

(٧) الإسكندرونه : مدينة في شرقي إنطاكية على ساحل بحر الشام ، بينها وبين بغراس أربعة فراسخ ، وبينها وبين إنطاكية ثمانية فراسخ، وهي دربند بلاد سبسي من جهة حلب ، كما أنها أول بلاد سبسي وآخر أعمال المسلمين . (ياقوت، معجم ١/ ٢١٦؛ أبو الفداء، تقويم ٢٥٤-٢٥٥؛ اليوسفي ٣٩٦) .

(٨) مغلطاي الغزي : هو الأمير مغلطاي بن بليان الحسيني الغزي ، الأمير علاء الدين ، نائب آياس و الفتوحات السبسية ، توفي بآياس يوم الأربعاء ٥ شعبان سنة ٧٤١هـ/ ٢٤ كانون ثاني عام ١٣٤١م . (ابن حجر، الدرر ٤/٣٥٥؛ المقرئ، السلوك ٣/٢، ٥٥٣) .

المنحنيقات^(١)، وكذلك الرحافات^(٢)، وجسور الحديد والمراكب وغيرها من وسائل القتال لعبور نهر جاهان^(٣) (جيجان).

وقبل عبور القوات الإسلامية إلى النهر، وبينما كانت القوات الإسلامية تستعد للقيام بذلك أرسل تكفور ملك الأرمن مبعوثين من عنده إلى السلطان الناصر محمد يظهر فيه استعداده لتسليم القلاع التي طلبها السلطان من قبل ، و الواقعة وراء نهر جيجان^(٤)، و استعداده أيضا لإرسال الأموال التي كان قد قطعها إلى السلطان^(٥)، لكن السلطان الناصر لم يستقبل هؤلاء الرسل ولم يقطع في الأمور التي جاءوا من أجلها، وذلك لأنهم "لم يعلموا نائب الشام "تنكر" بحضورهم"، فعادوا إلى تكفور حيث بعث بدوره هدية إلى تنكر وطلب تكفور منه منع العسكر من الإغارة على سيبس و إنه على استعداد لتسليم القلاع، فكتب تنكر السلطان في هذا الأمر، وبعث رسولا من قبله إلى قائد الحملة المملوكية علاء الدين الطنبغا يمنع الإغارة على سيبس ورد الآلات إلى بغراس^(٦) ، و الانسحاب إلى آياس والإقامة عليها حتى ترده من تنكر والسلطان تعليمات جديدة^(٧).

وتختلف مصادر العصر المملوكي فيما بينها في موقف نائب حلب ممن أوامر تنكر هذه، والتعليمات الجديدة التي وصلت إليه : فالْيوسفي الذي كان مرافقا للحملة يذكر بأن الطنبغا استاء بشكل كبير من الرسالة التي حملها رسل تنكر إليه، حيث كان يرى وجوب مهاجمة سيبس محتجا بأن العرض الذي قدمه تكفور ما هو إلا محاولة منه لكسب الوقت حيث قال الطنبغا حول ذلك : "والله أنا أخير هؤلاء الملاحين و خبتهم و مكرهم، و ما فعلوا هذا إلا يريدوا أن يقيم هذا العسكر عندهم وتنطحن حتى يموتوا الناس بالوخم، ويشيل زرعهم، ونائب الشام ما يعرف حال هؤلاء"، ويشير اليوسفي إلى أن الطنبغا استجاب في النهاية لقرار تنكر فرد المنحنيقات وبعض الآلات إلى بغراس، إلا أنه لم يتراجع عن الأماكن التي عسكر بها انتظارا لاحتمال مهاجمة سيبس حيث استصحب معه المراكب والجسور

(١) المنحنيقات : مفردة منحنيق ، بفتح الميم و كسرهما ، لفظ أعجمي معرب ، وهو آلة من آلات الحصار ، كانت مستعملة في العصور الوسطى ، وصفه الفلقشندي بقوله : ((آلة من خشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف ، وفيه تجعل كفة المنحنيق التي يجعل فيها الحجر ، يجذب حتى ترفع أسافله على أعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكفة فيخرج الحجر منه فما أصاب شيئا إلا أهلكه)) . و المنحنيقات أنواع : فمنها المنحنيق العربي و المنحنيق الفارسي ((الستركي)) و المنحنيق الرومي أو الإفريقي . (الطرسوسي ، تبصرة ١٦-١٨ ؛ الفلقشندي ، صبح ١٥٢ / ٢).

(٢) الزحافات : مفردتها زحافة ، وهي عبارة عن برج يوضع على عربة ذات عجلات في داخله بضعة جنود مزودين بقاذفة للحجارة والكرات وأسلحة أخرى ويزحف به باتجاه أسوار المكان المحاصر . (اليوسفي ٣٩٦ ، ج٦).

(٣) الشجاعى ١٥ ؛ اليوسفي ٣٩٦ ؛ المقرئى ، السلوك ٢/٢ ، ٤٢٨ .

(٤) الشجاعى ١٥-٥ ؛ اليوسفي ٣٩٦ .

(٥) الشجاعى ١٦ .

(٦) بغراس : مدينة في لطف جبل اللكام بينها وبين إنطاكية أربعة فراسخ على يمين القاصد إلى إنطاكية من حلب ، في البلاد المظلة على نواحي طرسوس . (ياقوت ، معجم ١ / ٥٥٢) .

(٧) الشجاعى ١٥-٥ ؛ اليوسفي ٣٩٦-٣٩٧ .

لاستخدامها في عمليات الهجوم و الاقتحام المحتمل^(١).

أما المقريري فلم يذكر استيلاء نائب حلب من قرار تنكز بالتوقف عن الهجوم، ويذكر بأن الطنبغا أوقف الزحف و انتقل إلى مهمة أخرى تمثلت بإجراء الاستعدادات اللازمة لمهاجمة مدينة آياس^(٢). ونحن نميل إلى ترجيح رواية اليوسفي و المتمثلة في استيلاء الطنبغا من قرار تنكز بوقف الهجوم، وذلك لان اليوسفي كان معاصراً للأحداث بل ومرافقاً لتلك الحملة، أما المقريري فقد عاش في القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد، فهو بعيد عن هذه الأحداث.

وسواء اعترض الطنبغا على أوامر تنكز أم لم يعترض فإن موقف الناصر المتمثل بعدم استقبال مبعوثي ملك الأرمن الذين جاءوا إليه يعرضون تسليم القلاع، و إيعاز الناصر إلى تنكز بالبت في هذا الموضوع، إضافة إلى قيام ملك الأرمن بإرسال الرسل و الهدايا إلى تنكز طالباً منه وقف الهجوم على سبب مقابل العروض المذكورة سابقاً، كل هذه الأحداث تؤكد على المكانة السياسية و العسكرية التي وصل إليها تنكز في ذلك الوقت، إذ أنه أصبح يفصل في القضايا المهمة المختصة بدولة المماليك عامة وبلاد الشام خاصة، سواء منها السياسية أم العسكرية، الداخلية و الخارجية، وأصبح الواسطة بين السلطان وزعماء الدول المجاورة، لا بل أصبح مسؤولاً عن العلاقة الخارجية لدولة المماليك مع دول المغول و الأرمن.

ويصف اليوسفي مشاعر الأمير تنكز حينما قام السلطان برد رسل تكفور و قيام تكفور بدوره بإرسال الرسل مرة أخرى إلى تنكز و معهم الهدايا، بقوله: "و حصل لنايب الشام بذلك سرور لكون الأمر راجع إليه"^(٣)، وهذا يؤكد قول ابن خلدون من أن السلطان حينما عين الأمير تنكز نائباً على دمشق عام ٧١٢هـ/١٣١٢م "جعلته مشارفاً لسائر بلاد الروم"^(٤)، "فاستفحل في دفاع التتار و كيادهم"^(٥)، أما المقريري فيذكر بأن الناصر محمد أضاف إلى تنكز "الكلام في أمر سيس و منع الأمير الطنبغا نائب حلب من ذلك في سنة أربع و عشرين فابتدأت العداوة بينهما"^(٦).

وبعد وصول القوات المملوكية إلى مدينة آياس الأرمنية بدأت تتخذ الإستعدادات النهائية لمهاجمة المدينة و الزحف عليها^(٧)، إلا أن قائد الجيش المملوكي علاء الدين الطنبغا منعهم من الزحف قبل عمل

(١) اليوسفي ٣٩٨.

(٢) المقريري، السلوك ٢/٢، ٤٢٩.

(٣) اليوسفي ٣٩٧.

(٤) ابن خلدون، العبر ٥/٤٤٢.

(٥) المصدر نفسه ٥/٤٤٢.

(٦) المقريري، المقفى ٢/٦١٠.

(٧) الشجاعى ٦؛ اليوسفي ٣٩٨.

ما ينقصهم من الزحافات و الستارات^(١) اللازمة لمهاجمة المدينة، حيث أحضر لهذا الغرض خمسين نجلاً لعمل تلك الآلات^(٢)، لكن بعض المقاتلين المسلمين لم يستجب لقرار الطنبغا بالتريث بل واصلوا زحفهم الأمر الذي أدى إلى إصابة المهاجمين بأضرار فادحة، حيث استشهد الكثير منهم، مما دفع بقائد الجيش إلى إصدار الأوامر الصارمة بعدم معاودة الهجوم حتى تم إتمام عمل زحافتين وستارتين جديدتين^(٣).

بعد إتمام عمل آلات القتال نصبت المنجنيقات وبدأ الهجوم الحاشد و الذي اشتركت فيه كافة القوات المملوكية المشاركة في الحملة، وفي مقدمتهم قادة الجيش و على رأسهم الطنبغا، وتواصل الزحف حتى وصلوا إلى الأسوار بعد أن استشهد عدد من المسلمين المهاجمين، فضربوا حصاراً حول المدينة لمدة ثلاثة أيام^(٤)، أما الأرمن سكان مدينة آياس فقد راعهم ضخامة القوات الإسلامية المهاجمة وتجهيزاتها، وشدة الهجوم، فهرب الكثير منهم بمراكبهم تاركين المدينة وراءهم^(٥)، وأثناء ذلك وصل إلى العسكر الإسلامي مبعوث الأمير تنكز مرة أخرى يخبر الطنبغا بأن الأمير تنكز يأمره بالامتناع عن مهاجمة المدينة ووقف الزحف عليها حتى يتخذ تنكز والسلطان قرارات جديدة بهذا الشأن^(٦)، إلا أن الطنبغا رفض الاستجابة لهذا الأمر مدعياً بأن السلطان الناصر محمد أذن له بالهجوم، وأصر الطنبغا على استمرار القتال حتى يحضر تكفور مفاتيح القلاع التي عرض تسليمها، واستمرت العمليات العسكرية، حيث دخلت العساكر الإسلامية مدينة آياس وأسرت أعداداً كبيرة من الأرمن، و أحرقت أجزاء من القلاع والحصون ودمرت البعض الآخر^(٧)، و من أشهرها برج آياس^(٨).

وتيجة لإلحاح رسل تنكز وتشددهم في وقف القتال، تم الاتفاق على الانتظار و التريث ووقف القتال وإمهال الأرمن ثمانية أيام لإحضار مفاتيح القلاع، وفي اليوم السابع حضر مبعوثا تكفور ومعهم مفاتيح القلاع حيث سلمت للمسلمين، وهذه القلاع هي ملك للأرمن من بلاد سيبس وتقع شرقي نهر

(١) الستارة: عبارة عن جدار خارجي مبني من الخشب أو غيره يحتمي وراءه المدافعون عن حصن أو سور، كما يستخدمه المهاجمون للوقاية من قذائف العدو. (الطرسوسي، تبصرة ١٨-١٩).

(٢) اليوسفي ٣٩٩؛ المقريري، السلوك ٢/٢، ٤٢٩.

(٣) الشجاعى ٦٦؛ اليوسفي ٣٩٩.

(٤) ابن الوردى، تنمة ٤٤٥/٢؛ اليوسفي ٣٩٩؛ ابن حبيب، ذرة ٢/٢، تذكرة ٢٧٨/٢؛ المقريري، السلوك ٢/٢، ٤٢٩.

(٥) الشجاعى ٦٦؛ اليوسفي ٣٩٨-٣٩٩؛ ابن حبيب، ذرة ٢/٢، تذكرة ٢٧٨-٢٧٩.

(٦) الشجاعى ٦٦؛ ابن الوردى، تنمة ٤٤٥/٢؛ اليوسفي ٣٩٩-٤٠٠؛ سرور ٢٣١.

(٧) ابن أبيك ٩/٣٩٧؛ اليوسفي ٤٠٠-٤٠١؛ ابن حبيب، ذرة ٢/٢؛ المقريري، السلوك ٢/٢، ٤٢٩.

(٨) الشجاعى ٦٣؛ ابن الوردى، تنمة ٤٤٥/٢؛ ابن حبيب، تذكرة ٢٧٩/٢؛ المقريري، السلوك ٢/٢، ٤٢٩.

جیحان^(١) وهي: آياس الجوانية ، آياس البرانية، الهارونية، النقيز، كوراة (كُورَا)، حميصة، نجيمية، سرفندكار^(٢). وبعد تسليم الأرمن مفاتيح الحصون و القلاع أطلق العسكر الإسلامي ما كان بمجوزته من الأسرى الذين أخذهم أثناء الهجوم ، كما رد المسلمون ما أخذوه من أموال و غنائم^(٣)، «ثم رجعوا فرحين مسرورين»^(٤)، و بالنسبة للقلاع الأرمنية المسلمة فقد قام المسلمون بتخريب قلعتي نجيمية و الهارونية، وأبقوا ميناء آياس، وتركوا كوراة و سرفندكار وأقاموا بها نواباً للسلطان الناصر^(٥)، وعن هذا الانتصار الذي حققته القوات المملوكية على الأرمن يقول بعض المؤرخين : «فتح اشتمل على فتوح، وترك الأرمن جسداً بلا روح، خائفاً على ما بقي بيده على الإطلاق، كيف لا ومن خصائص ديننا سراية الإعتاق، فياله فتحاً كسر صلب الصليب وقطع يد الزنار، وحكم على كبير أناسهم المزمحل في بجادة بالخفض على الجوار»^(٦).

وبذلك أصبحت معظم بلاد الأرمن منذ عام ٧٣٨هـ/١٣٣٧م، خاضعة للدولة المملوكية^(٧).

-
- (١) الشجاعى ١٧؛ الذهبي، ذبول ٤/١٠٦؛ ابن الوردي، تمة ٢/٤٤٥؛ اليوسفي ٤٠٢؛ ابن حبيب تذكرة ٢/٢٧٩؛ ابن الشحنة، روض ٢٨٠؛ المقرئزي، السلوك ٢/٢٤٢٩؛ سرور ٢٣١.
- (٢) الجزري ٣/٩٤٠-٩٤١؛ مجهول، تاريخ ١٥٠؛ الشجاعى ٣؛ الذهبي، ذبول ٤/١٠٦، سير ١٧/٥٢٦؛ ابن السوردي، تمة ٢/٤٤٥؛ ابن حبيب، تذكرة ٢/٢٧٩؛ المقرئزي، السلوك ٢/٢٤٢٠-٤٢١؛ علي، جهود ٨٣.
- (٣) الشجاعى ١٧؛ اليوسفي ٤٠٢-٤٠٣؛ المقرئزي، السلوك ٢/٢٤٢٩.
- (٤) ابن حبيب، دوة ٢/٢٠٢.
- (٥) الشجاعى ٧؛ ابن الوردي تمة ٢/٤٤٥؛ ابن حبيب تذكرة ٢/٢٧٩؛ المقرئزي، السلوك ٢/٢٤٢١.
- (٦) ابن الوردي، تمة ٢/٤٤٥؛ ابن حبيب، تذكرة ٢/٢٧٩.
- (٧) علي، جهود ٨٤.

الفصل الخامس

الحياة الاقتصادية

الزراعة

طرق استثمار الأرض :

كان استثمار الأرض يتم إما مباشرة من قبل المالك إذا كانت المساحات صغيرة و إما بواسطة عمال غير مالكيين، لهذا كانت المساحة كبيرة وواسعة، وإذا لم يكن المالك في أرضه^(١)، وهؤلاء يديرون أملاكهم بواسطة وكلاء ينوبون عنهم أو بواسطة عمال يكلفون برقابة العمل^(٢)، هذا إذا كانت الملكية خاصة بالأهلين. أما أملاك الدولة و التي منحت على سبيل الإقطاع، فالمقطع هو المسؤول عن استثمار إقطاعه بشكل مناسب، ولهذا كان يشرف على الحصاد ويقضي بعض الوقت في ضياعه^(٣).

ومن الأساليب الزراعية التي عرفتها بلاد الشام و التي كانت تهدف إلى رفع مستوى الإنتاج وزيادة كمية المحاصيل طريقة تبوير الأرض، وهي عبارة عن زراعة الأرض سنة وتركها بلا زراعة في السنة التالية، حيث تحرث وتحضر وتترك حتى ترتاح ويتخلل تربتها الهواء و الشمس^(٤).

ويلاحظ بأن الفلاح الدمشقي خاصة والشامي عامة انتهج في زراعته نظام الحقلين، وقد تحدث النويري عن هذا النظام الزراعي فقال: «إن كل فلاح يقسم الأراضي التي بيده شطرين، فيزرع شطراً، ويريح شطراً، ويتعاهده بالحرث لتقرع الشمس باطن الأرض، ثم يزرعه في القابل (العام المقبل)، ويريح الشطر الذي كان به الزرع، هذا دأبهم» أي أن يعمد المزارع إلى زراعة أحد الحقلين في الوقت الذي يريح فيه الثاني ثم يبدل الحقلين في السنة التالية تجنباً لإجهاد الأرض من أجل تحسين الإنتاج^(٥).

كما غرسوا الأشجار في صفوف متباعدة وعلى استقامة واحدة، وتركوا مسافة بين كل شجرة وأخرى أثناء الغرس^(٦).

أما عن حماية النباتات من تأثير البرد والصقيع، وبخاصة الحمضيات، مثل: النارج، والبرتقال، والليمون، والموز أيضاً، فقد عمدوا إلى تغطيتها^(٧)، وهذه الطريقة لا تزال موروثه إلى اليوم.

كما تفنن الفلاح الشامي في أساليب تحسين أنواع الفواكه و تجويدها فقد ذكر البدري نقلاً عن الميدومي في كتابه «لطائف الأعاجيب» أنه كان بغوطة دمشق أشجار تحمل الواحدة منها أربعة أنواع من الفواكه، مثل: المشمش، والخوخ، والتفاح، والكمثرى، وبها ما يحمل الثلاثة، وأقلها اللونين من الفاكهة،

(١) كاهن ١٧٩/١-١٨١.

(٢) اللوري ٤٨-٤٩ غير، غوطة ٣٤٢.

(٣) آشور ٣٠٣.

(٤) الماوردي ١٥١، اللوري ٦٠، الصالح ٣٧٩، طرخان ٢٤٢.

(٥) النويري ٢٥٦/٨، غوامه، التاريخ الحضاري ٨١، رمضان ١٧٥.

(٦) ابن بصال ٦٠، النابلسي، الملاحه ٢٥.

(٧) ريسلر ١١٢.

كما يروي البدرى نفسه: «أن الكرمة الواحدة تطرح العنب الأبيض والأسود والأحمر، وأنه رأى بوادي النيرين شجرة توت تطرح التوت الأبيض والأسود»، ويضيف قائلاً: «هذا من صنعة الفلاحة يسمى التطعيم، وهو أن يأخذ قطعة خشب من التفاح و يشق ساق شجرة كمثرى تكون بساقين، وتوضع كل قطعة في إحدى الساقين المشقوفة، وتشدها بخزقة وتسقيها وتعاهدها إلى أن تلحم بها، ويخرج الورق الجديد ثم تثمر»^(١)، ومن اشتهر بعملية تطعيم الأشجار في دمشق في القرن الثامن عيسى المطعم^(٢).

استعمال الأسمدة:

أدرك الفلاح الدمشقي في العصر المملوكي نتيجة لخبرته الطويلة أن الأرض تجهد ويقبل عطاؤها بالزراعة المتواصلة، ولذلك عمد إلى إعادة الحيوية و الخصوبة لأرضه باستعمال الأسمدة العضوية التي يحصل عليها من روث الحيوانات وبقايا النبات و فضلات الناس، وقد عدد كلاً من ابن بصال و صلح بكتاب «مفتاح الراحة» مصادر الأسمدة فقالوا: «واعلم أن السرقين» «السماد» المستعمل في صناعة الفلاحة ينقسم إلى سبعة أنواع: «زبل الخيل و البغال و الحمير نوع واحد، ثم زبل الآدمي، ثم الزبل المضاف وهو المؤلف من الكناسات وغيرها، ثم زبل الغنم، ثم زبل الحمام، ثم رماد الحمامات، ثم الزبل المولد، وهو زبل يتخذ عند عدم توفر هذه الأزبال من الحشيش والتراب»^(٣).

ويؤكد الجاحظ على ذلك بقوله: إن كل شيء من الخضـر لا يصلح ولا يزكو إلا بالزبل والسماد^(٤)، وذكر ياقوت أن الزبل كان يباع بالحمل^(٥) وكان المزارعون يدفعون أجوراً زهيدة^(٦)، وخير وسيلة لتسميد البساتين هو أن يوضع السماد قرب جذور الأشجار ثم تردم بعد ذلك^(٧)، ويحذر ابن بصال من استعمال زبل طير الماء و الخنازير لأنه كالسم للنبات، وأن القليل منه يهلك الكثير من العشب^(٨)، واعتبر صاحب «مفتاح الراحة» أن زبل الحمام هو أفضل أنواع الزبل^(٩)، ويعتبر الزبل مهماً للأرض الزراعية وذلك لأنه يعطي الأرض الحرارة و الرطوبة^(١٠).

(١) البدرى ٣٥٩-٣٦٠.

(٢) الذهبي، ذبول ٤/٥٥، ابن حجر، الدرر ٣/٢٠٤.

(٣) ابن بصال ٤٤٩، مجهول، مفتاح ١١٢.

(٤) الجاحظ، الدلائل ٢٥؛ النوري ٦٠.

(٥) ياقوت، إرشاد ٥/٣٠٦؛ النوري ٦٠.

(٦) كاهن ١/١٧٥.

(٧) ياقوت، إرشاد ٥/٣٠٦.

(٨) ابن بصال ٤٩؛ النابلسي، الملاحه ١٠.

(٩) مجهول، مفتاح ١١٢.

(١٠) المصدر نفسه ١١٢.

ونظراً لاعتماد الزراعة في بلاد الشام على الأمطار، فقد أطلق المزارعون عليه أسماء مختلفة تبعاً لفترات هطولها، فعرف المطر الذي ينزل في الخريف «الوسمي»^(١)، والمطر الذي ينزل بعده «الأحوي»، والمطر الذي ينزل في شهر نيسان يسمى «الفاطم»^(٢).

وتبدأ عملية الزراعة بحراثة الأرض^(٣) وذلك في فصل الخريف عندما تسقط الأمطار المبكرة، ويجرثوها في فصل الربيع للمزروعات الصيفية^(٤). وقد عرّف النابلسي مفهوم الحراثة بقوله: «والحراثة أن يؤخذ ملء على وجه الأرض من تربتها الذي أثرت فيه الشمس والهواء، فيجعل أسفل الأرض المحفورة ليظهر أثره مما اكتسب من الشمس والهواء في أصول الأشجار المغروسة وعروقها فيري حملها وينميّه بجزارتها ورطوبته»^(٥)، وبعد أن تتم عملية الحراثة تحتاج إلى تسميد مستمر حيث تزيل الأرض بما يناسبها من زبل الدواب ونحوها، مثل: زبل، البقر، والماشية، والحمام^(٦).

وسائل الزراعة وأدواتها :

استخدم المزارعون السواقي في القرى و المناطق الزراعية لتزويد المحاصيل الزراعية بالمياه^(٧)، واستعمل الفلاحون دواليب^(٨) المياه لرفع المياه من الأنهار والأقنية، حتى أن بعض القرى أطلق عليها اسم النلعورة^(٩) في شمالي بلاد الشام^(١٠)، وقد ذكر البديري أن «الدولاب» استخدم في دمشق في منطقة الحواكير على

(١) ابن منظور ٤١٢٢/١٦؛ النويري ٢٥٥/٨.

(٢) النويري ٢٥٦/٨؛ الغزي، جامع ١٩.

(٣) ابن خلدون، المقدمة ٤٤٠٦؛ الغزي، جامع ٤٢.

(٤)

(٥) النابلسي، الملاحه ٢ب.

(٦) الغزي، جامع ٦٢؛ مقابلة ١٣٠.

(٧) رافق ٧٤.

(٨) الدولاب: هو عبارة عن عجلة مائية مثل الناعور، إلا أنه أكثر تعقيداً وهو نوعان:

النوع الأول: يدبره حيوان واحد (ثور أو حصان أو حمل).

النوع الثاني: يدبره حيوانان.

ويروي النوع الأول ٧٠ جريباً من المزروعات الشتوية، و ٣٠ جريباً من مزروعات الصيف، أما النوع الثاني فيروي ٧٠ جريباً من غلات الصيف و ١٥٠ جريباً من غلات الشتاء. (الدوري ٦٣).

(٩) الناعورة: دولاب يدبره تيار النهر، ويجعل الناعور كيزاناً ((سطولاً)) لرفع الماء، والناعور الكامل ثمانون كوزاً ((سطلاً)) يسع كل منها خمسة عشر رطلاً ويصب في كل دورة ١٢٠٠ رطلاً، ويروي جريباً في كل ساعة وهكذا يمكن للناعور أن يروي من ٣٥٠-٤٠٠ جريباً من غلات الشتاء، و ٨٠ جريباً من غلات الصيف. (الدوري ٦٣).

الجريرب: مساحة من الأرض تقدر بـ ٢١٥٩٢م^٢ (هنتر ٩٦).

(١٠) آشور ٦١.

Conder 237;

Conder 237;

سفع جبل قاسيون من جهة الربوة، ويؤخذ الماء من هر يزيد بجهد كبير لعلوها عن مجرى النهر، فقال: «وجميع هذه المحاسن محاسن الشام بالحواكير غير أن الماء لا يصل إليها إلا بجهد كبير لعلوها عن يزيد فاصطنعوا الدولاب ودورانه بكل هم شديد».

وفيه يقول ابن لؤلؤ الذهبي:

حاكورة دولابها إلى الغصون قد شكا
من حين ضاع زهرها دار عليه وبكى^(١)

أما عن النواعير فقال معلقاً على منتهه «بين النيرين» بغوطة دمشق: «ولكل مكان من ذلك نساورة يستلذ صاحبها بأنسها وتجلب له الماء إذا أسمع حسها»^(٢).

الكوارث الطبيعية وأثرها على الإنتاج الزراعي:

انحباس الأمطار أو غزارتها:

بما أن جل اعتماد الزراعة في بلاد الشام على الأمطار، فإن انحباس الأمطار أو تأخر هطولها في بعض السنين كان يؤدي إلى تدني الإنتاج وحصول ضائقة اقتصادية^(٣).

وتجدر الإشارة إلى أن دمشق تعرضت لسنين عجاف بسبب انقطاع المطر أحياناً أو تأخرها أحياناً أخرى، الأمر الذي أدى إلى الإضرار بالإنتاج الزراعي.

وفي حالة انحباس الأمطار كان الأهالي يلجأون إلى صلاة الاستسقاء ضارعين إلى الله، عز وجل، أن ينزل عليهم الغيث، وقد حدث ذلك عام ٧١٩هـ/١٣١٩م عندما تأخر سقوط الأمطار في نيابة دمشق، فخرج النائب (الأمير تنكز) والأمراء والعلماء في صفر من ذلك العام وصلوا صلاة الاستسقاء وخطبهم القاضي الصالح صدر الدين سليمان الجعفري فسقوا في اليوم الثاني^(٤)، ويذكر ابن طولون (ت ٩٥٣هـ/١٥٤٧م)، في كتابه «اللمعات الرقية» أن سنة ٧١٩هـ/١٣١٩م كانت «قليلة الماء وييسر (فيها) أشجار كثيرة»^(٥)، كما ضلوا صلاة الاستسقاء في عام ٧٢٣هـ/١٣٢٣م عندما أجدبت الأرض ولم يسقط المطر^(٦).

أما المؤرخ المعاصر أبو الفداء، فيذكر في حوادث عام ٧٢٣هـ/١٣٢٣م «أن الأرض بالشام أجدبت من دمشق إلى حلب وانحبس القطر، ولم ينبت شيء من الزراعات إلا القليل النادر، واستسقى الناس في

(١) البدرى ١٨٥.

(٢) المصدر نفسه ٦٦.

(٣) أبو دعة ٩٣.

(٤) ابن الوردي، تنمة ٣٨٣/٢، ابن كثير ٧٤/١٤، المقرئ، السلوك ١٩٣، ١/٢.

(٥) ابن طولون، اللمعات ٢٦.

(٦) أبو الفداء، المختصر ٤٣٩/٢، ابن صصري ٢٢١.

هذه البلاد فلم يسقوا^(١)، ولشدة القحط الذي عم في هذه المناطق بسبب انقطاع الأمطار هذا العام سماها المؤرخون «السنة الحمراء»^(٢)، ويتحدث ابن صصري عن آثار انحباس الأمطار على الزراعة في عام ٧٢٣هـ/١٣٢٣م قائلاً: «...ولطف الله تعالى بعباده، حتى كانوا ينادوا على الخبز «يا خبز الهواء» فإنه تربى بالندى والهواء، ذلك من لطف الله تعالى بعباده، فإنه لا بد لهم من رزق يأكلونه، وقد تكفل بأرزاقهم، وما أحسن ما قال المثل «الذي شق الأشداق يأتيها بالأرزاق»^(٣).

ويتحدث النويري عن سنة لم يحدد تاريخها أن أهالي الشام^(٤) ودعوا الحب الأرض على عادتهم فلم تسقط عليه الأمطار في تلك السنة، فاستمر في الأرض إلى العام القابل، وأيس أهل البلاد منه، وزرعوا في السنة الثانية شطر الأراضي التي كانت كراباً غير مزروعة... فلما وقعت الأمطار نبت الشطران معاً، وأقبلت الزراعات في تلك السنة، فتضاعف المغل، وهذا غريب نادر الوقوع^(٥).

ولم يكن انحباس الأمطار في إحدى السنوات أو تأخرها في سنوات أخرى أكثر ضرراً من غزارته. ففي عام ٧١٦هـ/١٣١٦م سقطت أمطار غزيرة ببلاد الشام خصوصاً في مناطق قارا وحمص وبلبك، وكانت هذه الأمطار «بخلاف المعهود، وعقبه مطر قدر النارج فيها ما زنته ثلاث أواق دمشقية، هلك بها من الناس والأغنام والدواب شيء كثير، وخربت عدة ضياع، وتلف من التركمان وأهل الضياع خلق كثير، وعقب هذا المطر نزول سمك كثير ما بين صغار وكبار بالمياه تناولته أهل الضياع واشتوهه وأكلوه... ثم نزل ثلج عظيم طم القرى وسد الطرقات والأودية وامتنع السفر حتى بعث النواب الرجال من البلاد والجبال مع الولاة بالمساحي، وعملوا فيها حتى فتحت الطرقات»^(٦).

وفي رمضان من عام ٧١٩هـ/١٣١٩م جاء سيل عظيم بدمشق بسبب الأمطار الغزيرة الأمر الذي أضر ببعض المحاصيل الزراعية وخاصة السفرجل وأقتلع كثير من الأشجار، وهدم كثير من الجدران، وهلك تحت الردم جماعة، وبسبب كثرة الأتربة والطين التي حملها السيل معه إلى نهر بردى، أدى هذا إلى خنق أعداد كثيرة من السمك الذي كان يربي في النهر^(٧)، وقد اتلف السيل شيئاً كثيراً وارتفع حتى دخل من باب الفرج ووصل إلى العقبية وانزعج الناس له وانتقلوا من أماكنهم^(٨).

وفي عام ٧٢٦هـ/١٣٢٦م «قدم الخير بوصول سيل عظيم في الفرات، أعقبه مطر، وأنه حدث وخم وفناء عم الناس من الفرات إلى دمشق، فلم تبق مدينة فيما بين ذلك حتى كثر بها المرضى والموت»^(٩).

(١) أبو الفداء، المختصر ٤٣٩/٢.

(٢) المصدر نفسه ٤٣٩/٢.

(٣) ابن صصري ٢٠٢-٢٠٣.

(٤) النويري ٢٥٦/٨.

(٥) ابن حبيب، تذكرة ٤٧٤/٢، المقرئ، السلوك ١٦٠، ١٦١.

(٦) الذهبي، دول ٢٢٦/٢، ذبول ٥٢/٤؛ ابن حبيب، تذكرة ١٠٢/٢؛ ابن طولون، اللغات ٢٦.

(٧) ابن كثير ٧٤/١٤.

(٨) المقرئ، السلوك ٢٧٥، ١/٢.

تأثير العواصف والزلازل:

كان للرياح العاصفة في ليالي الشتاء و ما يرافقه من برق و رعد له تأثير كبير على الأوضاع الاقتصادية و على أحوال السكان:

ففي عام ٧١٩هـ/١٣١٩م وتحديداً «في ليلة أول محرم: هبت ريح شديدة بدمشق هدمت عدة منازل و خربت كثيراً من البيوت فهلك تحت الردم خلق كثير، وقلعت أشجار كثيرة من أصولها»^(١).
وفي شعبان من عام ٧٣٢هـ/١٣٣١م «كان بدمشق ريح عاصفة حطمت الأشجار، ثم وقع في تاسعه برد عظيم قدر البندق»^(٢).

وبسبب البرق فقد حصل في دمشق عام ٧٤٠هـ/١٣٤١م بعض الحرائق، فقد نزل في هذا العام نار من السماء بقرية الفيحة على قبة خشب أحرقتها، وأحرقت ثلاثة بيوت بجانبها^(٣).

وكان للزلازل أيضاً تأثير على الحياة العامة في المدينة، والزلازل: هي الحركة الشديدة الباطنية للأرض، والتي ينجم عنها البلايا من دمار وهلاك^(٤)، وقد أصيبت بلاد الشام بالزلازل منذ أقدم العصور فسببت الدمار في كثير من المناطق، وأهلكت العديد من الناس، فاعتبرها الأقدمون بلايا من الله يرسلها كعلامات لخلقها، عندما يعدون عن اتباع تعاليمه، ومن هنا كان الناس يلجأون إلى المساجد والمعابد عند اشتداد الزلازل، يصلون ويتهللون إلى الله أن يرفع عنهم البلايا والشدائد^(٥).

ففي محرم سنة ٧٢٢هـ/كانون الثاني ١٣٢٢م حدثت زلزلة بدمشق ليلاً، وهزت الأرض هزة عظيمة، ثم سكنت بإذن الله تعالى، وتكرر ذلك عام ٧٢٧هـ/١٣٢٦م^(٦).

وفي سنة ٧٤٤هـ/١٣٤٣م/١٣٤٤م كانت الزلزلة العظيمة بمصر و الشام، وخرج الناس إلى الصحاري، وتواترت بعدها زلازل مدة، فأنشد المحب أبو الوليد بن الشحنة في تاريخه

زلزلت الأرض بنا زلزالها
وقال كل من عليها ما لها
فقلت إذا فروا إلى الصحاري
قد أخرجت أرضكم أثقالها^(٧)

خطر الأوبئة والأمراض والجراد :

كان للأوبئة و الأمراض التي تحدث في بعض السنين و تنتشر بين الناس تأثير كبير على الأحوال

(١) ابن كثير ٧٤/١٤؛ ابن حبيب، تذكرة ١٠٢/٢؛ المقرئ، السلوك ١٩٢، ١/٢.

(٢) أبو الفداء، المختصر ٤٥٥/٢؛ الذهبي، دول ٢٤٥/٢؛ ابن الوردي، تصمة ٤٢١/٢؛ ابن كثير ١٢٣/١٤.

(٣) الذهبي، ذبول ١١٦/٤؛ المقرئ، السلوك ٤٩٥، ٢/٢.

(٤) ابن منظور ٣٠٧/١١؛ غوامه، الزلازل ١١.

(٥) المقرئ، السلوك ٧٨٣، ٣/١؛ غوامه، الزلازل ١٢.

(٦) الجزري ١٧٧/٢؛ السيوطي ١٢٢.

(٧) ابن الشحنة، روض ٢٨١؛ السيوطي ١٢٣.

الاجتماعية و الاقتصادية، فهي تؤدي إلى موت الكثير من المصابين بالأمراض، وهذا بدوره يؤدي إلى تعطيل الحياة الاقتصادية.

ففي عام ٧٢٣هـ/١٣٢٣م فشت الأمراض في الناس في دمشق، فمات جماعة منهم فجأة، وكثر الموت لمدة شهر، وهبت ريح حارة مما أدى إلى فساد الثمار، وجفاف المياه^(١).

وفي عام ٧٢٤هـ/١٣٢٤م «فشت الأمراض في الناس بالشام ومصر والصعيد وكثر الموت السريع»^(٢). وفي عام ٧٢٦هـ/١٣٢٥م عم الفناء الناس من الفرات إلى دمشق، فلم تبقى مدينة فيما بين ذلك حتى كثر بها المرض و الموت، وباع بعض عطاري دمشق في كل يوم أدوية للمرضى بنحو الألف درهم، وأخذ حجام في أجرة فصد و شراطة أذان في كل يوم أربعمئة درهم فإنه كان فضلاً ذموماً وكان الموت فيه بالنسبة إلى المرضى قليل^(٣).

وفي عام ٧٣٥هـ/١٣٣٤م انتشر الوباء في الشام وأفسد مياه الآبار و الأنهار، وظهرت عوارضه في الجيش عند رجوعه إلى حلب ، حيث توفي عدد من كبار الأمراء وصغار الجنود^(٤).

كما عانى الفلاحون من آفة الجراد الذي كان يهاجم منطقة الشام قادماً من شبة الجزيرة العربية والسواحل الإفريقية عبر البحر الأحمر و بادية الشام، فقد هاجم الجراد منطقة دمشق عام ٧٢٤هـ/١٣٢٣م فأتلف زروعها، فبلغت الغرارة^(٥) بدمشق مائتي درهم^(٦).

كما هاجم الجراد دمشق مرة أخرى و مناطق أخرى في بلاد الشام عام ٧٢٧هـ/١٣٢٦م^(٧)، وكذلك عام ٧٤٣هـ/١٣٤٢م^(٨).

وفي السنوات التي يهاجم فيها الجراد البلاد ترتفع الأسعار، وتلغ المحاصيل الزراعية مما يؤدي إلى المجاعات، فيذكر المقرئزي أنه في سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢م «أعقب الغلاء جراد عظيم سد الأفق ومنع الناس من كثرته رؤية السماء، وأكل جميع الأشجار حتى خشبها، وانتشر في حلب، ودمشق، والقلس، وغزة فأضر بما هناك ضرراً بالغاً وأفسد الثمار كلها»^(٩).

(١) المقرئزي، السلوك ٢/٢٥٠٠.

(٢) المصدر نفسه ١/٢٥٤، ٢٥٧.

(٣) الجزري ٢/١٢٣-١٢٤؛ المقرئزي، السلوك ١/٢٧٥.

(٤) اليوسفي ٩٨.

(٥) الغرارة: مكيال دمشقي، للحنطة، وتعني الغرارة حرقياً (العدل من صوف أو شعر، وهي تتألف من ١٢ كيلاً أو ٧٢ مناً دمشقياً، وقيل أن الغرارة الواحدة إضافة إلى مد ونصف مد كانت تساوي ٣ أرادب مصرية تقريباً، أي حوالي ٢٠٤.٥ كلغم قمح.

(القلقشندي، صبح ٤/١٨٨هـ، ص ٦٤).

(٦) اليافعي ٤/٢٧٠؛ المقرئزي، إغاثة ٣٤، السلوك ١/٢٥٤.

(٧) الجزري ٢/١٨١.

(٨) المقرئزي، السلوك ٢/٦٢٢، ٣.

(٩) المصدر نفسه ٢/٦٢٢-٦٢٣.

أهم المنتجات والمحاصيل الزراعية :

اشتهرت بلاد الشام عامة ونيابة دمشق في العصر المملوكي خاصة بكثرة حاصلاتها وتنوع منتجاتها وجودة أصنافها، حتى عدها البدرى من محاسن البلاد ولا تقع تحت حصر أو عد^(١)، وقد أشارت المصادر المملوكية المختلفة بهذا الصدد إلى أنواع هذه المحاصيل، مثل: الحبوب، من البر، والشعير، والذرة، والأرز، والباقل (القول)، والبسلة (البازلياء)، والجلبان، والحلبة، والسمن، والقرطم (العصفر)، والخضار، مثل: البطيخ، والقثاء، والقلقاس، والملوخيا، والباذنجان، والخيار، والقرع، وكذلك الفواكه، مثل: التين، والعب، والرمان، والمشمش (وكان يدعى أحيانا بخوخ دمشق)، والخوخ (وهو المسمى بالدراقرن)، والكرز، والتوت...، والتفاح، والكمثرى، والسفرجل، والجوز، والبندق، والأجاص، والزعرور، والزيتون، والحمضيات، مثل: الأترج، والنارنج، والليمون، إضافة إلى الموز، والرياحين، مثل: الآس، والورد، والنرجس، والبنفسج، والياسمين، والنسرين^(٢).

وقد شهدت نيابة دمشق زراعة متطورة و متنوعة، حيث توافرت العوامل الطبيعية المساعدة على تنشيط الزراعة، فقد أشار البدرى في مقدمة كتابه "نزهة الأنام" إلى الطبيعة الجغرافية التي حيا الله بها مدينة دمشق، ووفرة مياهها^(٣)، وقد تميزت دمشق بوفرة مياهها لوجود الأنهار والينابيع في المدينة وقرائها، فقلما تخلو قرية من قرى غوطة دمشق من عين ماء أو نبع، حيث يذكر البدرى أن بنواحي دمشق ٣٦٠ عيناً رآها وشرب من أغلبها^(٤)، وأما المدينة فالماء ينفذ من جميع نواحيها^(٥).

وثاني العوامل التي ساعدت على وفرة الزراعة وازدهارها في منطقة دمشق، هو اعتدال مناخها، وصلاحية أرضها للزراعة، فترتها تتميز بالخصوبة والتنوع وتوجد فيها المحاصيل الصيفية والشتوية^(٦).

(١) البدرى ١٠.

(٢) القزويني، وصف ٢٤؛ أبو الفداء، تقويم ٢٥٢-٢٥٣، ٢٦٢-٢٦٣؛ العمري، مسالك، دولة ٩٠-٩٢؛ القلقشندي، صبح ٩٠/٤-٩١؛ البدرى ١٩٢؛ ابن إيس، نشق ١٠٥؛ قساطلي ١١٦؛ حتى، تاريخ ٢/٢٥٤-٢٥٥؛ البيطار، الحياة ٣٣١.

(٣) يقول البدرى في مقدمة كتابه عن الطبيعة الجغرافية التي حيا الله بها دمشق: ((الحمد لله الذي جعل الشام في وجه الأرض شامة خضراء، زان عاطله بحالي عيون تروي قلب الصادي وتشرح له صدرا، وأجرى ماءها الفضي على ثراء كالذهب، وحلى به حصاء در لم يكن فيه عخلب، وأدار من الماء خلا خيلا على سوق أصول الأشجار، وقلد أجياد فروعها بيواقيت الممار توجت رؤوسها بساكيل جواهر الأزهار، وأرسل كف النسيم بمشط المطر، فرح فروع رؤوس عرائس العصون وجعلها مجلل ذات أكمام من سندس أخضر معصفر، صبغة صنعه من هم له ساحلون)). (البدرى ٤).

(٤) البدرى ٩٢؛ العطار، دمشق ٧٣.

(٥) ابن طولون، القلائد ١/٢٦٦-١٦٧.

أهم المحاصيل الزراعية :

الحبوب :

تأتي على رأس المحاصيل الزراعية لأهميتها الغذائية للإنسان و الحيوان وهي من الزراعات القديمة،رافقت حياة الإنسان على الأرض. وتشمل الحبوب القمح والشعير وكذلك الحبوب العلفية،مثل: الجلبان والكرسنة^(١)،وقد وصف كل من الزهري (توفي في أواسط القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي)، والإدريسي (ت.٦٥٠هـ/١٢٥٢م) دمشق بكرة الخصب و الأرزاق من القمح و الشعير^(٢)، وكانت تزرع الحبوب في نواحي مختلفة من دمشق و أطرافها^(٣)، وزرع القمح و الشعير في الصالحية^(٤)، وزرع بأراضي دمشق الذرة والدخن والسهم و الحلبة^(٥)، واشتهرت المزة بزراعة الحبوب^(٦)، ويعتبر المرج(والذي يقع في غوطة دمشق) والذي يشتمل على ثلاثمائة وستين قرية، من المناطق المشهورة بزراعة الحبوب بمختلف أنواعها^(٧).

الخضار و البقول :

وتأتي أهميتها بالدرجة الثانية بعد الحبوب لاعتماد الإنسان عليها في حياته اليومية، و من هذه البقول ما هو شتوي، ومنها ما هو صيفي، وقد أورد ابن ممان أنواعاً منها، مثل: الفول، والحمص، والجلبان، والعدس، والبصل، والثوم، والتمرس، والكمون، والكرابيا، والفجل، و الخس، والكرنب^(٨). ويلاحظ أن زراعة الخس بنوعيه الصالح والأيض ازدهرت في دمشق^(٩). كما زرع الفلاح الدمشقي الخيار، والكوسا، والباذنجان، والبندورة، والفاصوليا، والقرنبيط، واللفت، وقد اشتهرت هذه الأصناف في المزة^(١٠)، كما تعد الغوطة من أشهر مناطق زراعة الخضار^(١١).

(١) كاهن ١٧٤/١؛ أبو دعة ١٠٠.

(٢) الزهري ٤٧١؛ الإدريسي ٣٦٩/١.

(٣) ياقوت، معجم ٥٢٧/٢.

(٤) البدرى ٢٥٠؛ ابن طولون، القلائد ٢٦٥/١.

(٥) ابن طولون، المواكب ٢٦٢/٢-٢٦٥.

(٦) ابن طولون، تاريخ ٣٤.

(٧) البدرى ٦٧-٧٠؛ ابن كنان، المواكب ٣٩٨-٣٩٩؛ كرد علي، غوطة ٢٠.

(٨) ابن ممان ٢٥٨-٢٧٠؛ ابن كنان، المواكب ٢٦٢/٢-٢٦٥؛ قساطلي ١١٦.

(٩) البدرى ٣١٠؛ ابن طولون، القلائد ٣٧٦/٢.

(١٠) ابن طولون، تاريخ ٣٤.

(١١) النويري ٣٨/١١-٤٣؛ البدرى ٢٥٧-٢٥٨؛ حتى، تاريخ ٢٠٤/٢.

ومن أصناف الخضار الأخرى التي تكثر في منطقة دمشق البطيخ الذي ينسب إلى قرية عذرا من قسرى الغوطة^(١)، إضافة إلى البطيخ الأصفر "الشمام"^(٢)، والبطيخ السمرقندي، حيث زرعت بسذوره بقرية "الضمير" فجاء طيباً للغاية^(٣)، كما زرع البطيخ في قرية داريا، حيث ينسب البطيخ الداراني إليها، والبطيخ المرجي، "نسبة إلى المرج"، والدومي "نسبة إلى دوما"، والبطيخ الحبشي والقبلي، والعواميدي^(٤)، وكسان البطيخ يزرع سقياً وبعلاً^(٥).

ولمعرفة البطيخ الحلو: روى البديري ما قاله أبو مسهر عن أبيه فقال: "كان أبي إذا بعثني اشتري البطيخ قال: يا بني أعدد الخطوط التي فيها، فان تك فرداً فخليق بها أن تكون حلوة"^(٦).

كما اشتهرت دمشق بزراعة البصل والثوم، وكان يستخدم في علاج بعض الأمراض، فهو يحلل مسامات الجلد، وخاصة إذا دق وشم، ويجلو البصر، ويتفح به من عضه الكلب، ويوضع الثوم على لسع الحيات والعقارب فيتفح به^(٧).

الأشجار المثمرة :

اشتهرت نيباة دمشق بكثرة أشجارها وفواكهها وجود ثمارها ووفرة إنتاجها، فوصفت بكثرة فواكهها وجودها^(٨)، أما شيخ الربوة فيذكر أن بدمشق واحد وعشرون ألف بستان تسقى كلها بماء واحد يأتي من أرض الزبداني^(٩)، ويقول ابن إياس إن غوطة دمشق كلها بستين^(١٠)، إذ اشتملت على ٥٣٤٥ بستاناً^(١١). وقد جهد الفلاح الدمشقي في زراعة الأشجار المثمرة واعتنى بها عناية فائقة فقد زرعتها في خطوط مستقيمة، بمسافات متساوية بين الشجرة والثانية، وحسن أنواعها بالتطعيم^(١٢).

(١) ابن طولون، ضرب ١٥٩؛ ابن كنان، المواكب ٢/٢٤٣.

(٢) البديري ٢٥٦.

(٣) ابن الشحنة، اللبر ٢٥٣.

(٤) البديري ٢٢٣.

(٥) العمري، مسالك، دولة ٩١؛ شيخ الربوة ١٩٨.

(٦) البديري ٢٢٣.

(٧) الغزي، جامع ١٥٢.

(٨) ياقوت، معجم ٥٢٩/٢؛ الحمري ٤٣١.

(٩) شيخ الربوة ١٩٤.

(١٠) ابن إياس، نشق ١٢١.

(١١) كرد علي، غوطة ١٩.

(١٢) البديري ٣٥٩-٣٦٠.

ومن أهم الأشجار المثمرة التي اشتهرت بها دمشق :

المشمش :

وكان يدعى «خوخ دمشق»، لكثرة أشجاره وتعدد أصنافه، حيث عرف منها ٢١ صنفاً أشهرها: الحموي، السندياني، والعريلي، واللوزي، والإدريسي، والإيدري، والبردي، والجلاجل، والقلسوع، والخراط وغيرها^(١).

وكان المشمش رخيص الثمن، فكان يساوي الرطل^(٢) منه ربع درهم، ويستفاد منه في صنع قمر الدين، وكان يصدر إلى مصر^(٣)، كما يطبخ منه الطعام المعروف بالمشمشية، ثم يعصر ويأخذ في النضج حتى ينتهي وينشف و يصدر إلى خارج البلاد^(٤)، ومن المناطق التي اشتهرت بزراعته قرية المزة^(٥)، وغوطة دمشق^(٦).

التفاح :

قالت الحكماء: «جسم التفاح صديق الجسم، وريحه صديق الروح»^(٧)، وكان تفاح الشام مضرب الأمثال لكثرة أنواعه وجودته وحسنه^(٨)، وتحدث البدري عن تفاح دمشق وعد منها ٢٣ نوعاً أشهرها الشتوي والبلدي والصيفي والقاسمي والفاطمي والحريستاني والمسكي والبناني والخلواني^(٩)، وكان يضرب بالتفاح الشامي المثل، فيقال «التفاح الشامي» لحسنه وطيب رائحته، ومن المناطق التي اشتهرت به في دمشق الصالحية، وإليها ينسب التفاح السكري^(١٠)، ويجود التفاح في المناطق الباردة نسبياً (المعتدلة) والمرتفعة، ولذلك تشتهر به قرية الزبداني^(١١)، وزرع التفاح أيضا في المزة^(١٢).

(١) الجزري ٨٧٦/٣-٨٧٧؛ البدري ١٨٧-١٨٨؛ ابن كان، المواكب ٢/٢٩٧-٢٩٨؛ قساطلي ١١٧.

(٢) الرطل الدمشقي: كان يساوي ٦٠٠ درهم، أو ١٢ أوقية كل أوقية ٥٠ درهم.

(العمرى، مسالك، دولة ٨١؛ القلقشندي، صبح ٤/١٨٧-١٨٨).

(٣) البدري ٢٦٤؛ الصباغ، المجتمع ٥٩؛ أبو دعة ١٠٣.

(٤) البدري ١٩٠.

(٥) ابن طولون، تاريخ ٣٤.

(٦) كرد علي، غوطة ١١١، خطط ٤/١٨٢-١٨٣؛ الصباغ، المجتمع ٥٩.

(٧) البدري ٢٠١.

(٨) النويري ١١/١٦٣؛ الكشي، عيون ٢٠/٣١٣.

(٩) البدري ٢٠١؛ ابن كان، المواكب ٢/٢٩٥-٢٩٦؛ قساطلي ١١٧.

(١٠) ابن طولون، القلائد ٢/٣٧٦.

(١١) البدري ٢٠١.

(١٢) ابن طولون، تاريخ ٣٤.

الدراق والكمثرى والسفرجل والخوخ :

وتزرع هذه الأصناف في أماكن زراعة التفاح، أي المناطق الباردة نسبياً، لأن الحر الشديد يؤثر عليها، كما يؤثر البرد والصقيع، وهي تحب المياه، ولذلك أكثر ما تزرع في الغوطة، ويتحدث البدرى عن الدراق فيذكر أنها بدمشق أصناف أهمها: خواصكي، رصاصي، حمصي، نيرباني، لوزي، ولا يعمر الدراق أكثر من عشر سنين، ولون نواره أحمر^(١).

أما الكمثرى فتكثر زراعتها في دمشق^(٢)، ويطلق عليها أحيانا الأجاج^(٣)، وهو أصناف منها: صيفي، زجاجي، قبرصي، أسود، عين البقر... وله نوار أبيض صغير دون نوار الكمثرى، كما اشتهرت دمشق بالبرقوق، وهو نوع من أنواع الأجاج^(٤)، وكل هذه الأصناف والألوان بالمزة وأرض اللوان^(٥) كما يزرع السفرجل في قرية برزة من أرض الغوطة، وهو من أجود الأنواع^(٦)، أما الخوخ فيسمى في دمشق بالدراقرن، وتشتهر به دمشق، وهو جيد للمعدة والعطس ويطفئ الحرارة^(٧).

كما زرعت أشجار السفرجل و القراصيا بكثرة في قرى دمشق ومناطقها المختلفة^(٨)، وتسمى في بلاد الروم "الكراز" وقد عدد البدرى منها سبعة أصناف وهي: رشيدية، بعلبكية، إفرنجية، رومية، طعامية، برزة، فيجية (نسبة لقرية عين الفيحة)، وأحسنها البلدية المنسوبة لواد مكرم وهو بين الربووة إلى تحت صحن المزة^(٩).

التوت :

اهتم سكان مدينة دمشق بشجر التوت، لأنهم كانوا يربون عليه دودة القز، من أجل استخدامها في صناعة الحرير^(١٠)، وقد وصف الزهري دمشق بكثرة شجر التوت^(١١)، وأهم أنواعه: التوت المحسني، وهو منسوب إلى أحد بساتين الصالحية، وأنواعه في دمشق كثيرة منها: القرشي، البندقي، اللؤلؤي، العجمي، الشامي (وهو الأسود)^(١٢).

(١) البدرى ٢٠٦-٢٠٩.

(٢) القزويني، عجائب ٣٠١؛ البدرى ١٩٦؛ قساطلي ١١٧.

(٣) القزويني، عجائب ٢٨٤.

(٤) البدرى ٢١٠-٢١١.

(٥) المصدر نفسه ٢١٢.

(٦) ابن طولون، ضرب ١٥٤-١٥٥؛ قساطلي ١١٧.

(٧) البدرى ٢٠٧-٢٠٨؛ قساطلي ١١٧.

(٨) الكشي، عيون ٣١١/٢٠؛ البدرى ١٩٢؛ قساطلي ١١٧.

(٩) البدرى ١٩٢-١٩٣.

(١٠) قساطلي ١١٧.

(١١) الزهري ٧١.

(١٢) الجزري ٨٧٨/٣؛ البدرى ٣١٨-٣٢٠؛ ابن طولون، القلائد ٣٧٦/٢؛ ابن كان، المواكب ٣١٨/٢.

وكانت قرية المزة من المناطق المهمة بزراعة التوت^(١).

الكرمة :

اشتهرت الشام عامة ودمشق خاصة بزراعة الكرمة، ولا تكاد تخلو منطقته من دمشق وغيرها من مناطق الشام من هذه الزراعة سواء كانت الزراعة بعليّة أم مروية^(٢).

ومن المناطق التي كانت تشتهر بها زراعة الكرمة في دمشق داريا^(٣)، و دوما^(٤)، فمن أصناف العنب التي زرعت في داريا العنب الزيني و الداراني، أما دوما فاشتهرت بعنبها الأحمر الذي تميز بشدة حلاوته^(٥)، كما اشتهرت قرية دقانية بزراعة العنب^(٦)، وقرية عرييل التي نسب إليها العنب البلدي^(٧)، وقرية عقربا التي نسب إليها العنب الزيني^(٨)، وقرية يلبدا^(٩)، وحرستا^(١٠)، واشتهر العنب الشامي بوجوده وحجمه، حتى قال القلقشندي: «إن حبة العنب ربما بلغت في الوزن عشرة دراهم»^(١١).

والعنب الشامي أنواع منها: البلدي، حناصري، عاصمي، زيني، بتموني، قناريلي، إفرنجي، مكاحلي، بيض الحمام، حلواني وغيره^(١٢).

ويبدو أن إقبال الناس على زراعة العنب لفوائده الجمّة، حيث يؤكل طازجاً ويصنع منه الدبس والزبيب والخمر والخل، وقد ساعد تنوع المناخ و ملاعته وتوفر التربة الخصبة على الإكثار من زراعة الكرمة^(١٣)، وكان السكان يعملون على تخزين العنب والزبيب في الأماكن الباردة لوقت الحاجة^(١٤).

(١) ابن طولون، تاريخ، ٣٤.

(٢) ابن حوقل ١/١٧٤؛ قساطلي ١١٧؛ كرد علي، خطط، ١٤٧/٤، ١٥١.

(٣) المقدسي ١٣٦؛ ابن طولون، اللغات، ٤٨.

(٤) المقدسي ١٣٦.

(٥) ابن حوقل ١/١٧٤؛ كرد علي، غوطة، ١٠٨.

(٦) ابن طولون، ضرب ١٥٧.

دقانية: إحدى قرى الغوطة، صغيرة، بها جامع و ترتوي من مهر ثورا. (ابن طولون، ضرب ١٥٧).

(٧) ابن طولون، ضرب ١٥٩.

(٨) كرد علي، غوطة، ٦٦.

(٩) البديري ٢٢٣.

(١٠) مقابلة ١٣٣.

(١١) القلقشندي، صبح ١٣٣/٤.

(١٢) البديري ٢٢٣-٢٢٤؛ ابن كان، المواكب ٢/٣١٧.

(١٣) أبو دعة ١٠٧.

(١٤) الإشبيلي ١٧.

التين :

انتشرت زراعته في مناطق مختلفة من دمشق، مثل: قرية برزة التي ينسب إليها التين الشتوي، وهو من أجود الأنواع^(١)، كما زرع التين في كل من الصالحية والمزة^(٢)، وقد وجد بقية الميطور، حيث كانت هذه الضبعة مزرعة لسليمان بن عبد الملك، وكان أول من غرس فيها غرساً وزرع فيها التين^(٣). وقد عدد البدرى أصناف التين منها: مزى، برزى، ماسوي، رومي، بعلبكي، كعنب الغزال، غريب، طيفور، شتوي، جبلي، ملكي، عسيلي، مكعب، مجهول، ورق الطير^(٤).

الرومان :

اعتنى سكان دمشق بزراعة أشجار الرمان بأنواعه وخصوصاً البصري الذي كان يزرع في الصالحية^(٥)، ومن أنواعه الأخرى أيضاً شويكي، بردي، ماوردي، مليسي، كوفي، مصري^(٦)، كما اشتهرت أرض المراز و الشويكة في دمشق بزراعة الرمان^(٧)، واشتهرت المزة أيضاً به^(٨).

اللوز :

اشتهرت دمشق بزراعة أشجار اللوز، ومن أنواعه: الجبلي، القسطاسي، العرييلي، العقابي، البندقسي، الشحمي^(٩)، وقد انتشرت زراعة اللوز في قرى دمشق بكثرة^(١٠) ومن أشهرها قرية عربيل بالغوطة^(١١).

الجوز :

زرع الجوز في منطقة دمشق بكثرة^(١٢)، ومن أشهر المناطق التي زرع بها الجوز غوطة دمشق، ومنين، وإليها ينسب الجوز المنيني لرقه قشرته و بياض قلبه وهو صنوف: مغاربي، وفرك، ومنيني، وجبلي، وبستاني، وكان الصباغون يستعملون قشر الجوز في الصباغة^(١٣)، ويطلق سكان دمشق على الجوز اسم «الحسف»^(١٤).

(١) ابن طولون، ضرب ١٥٤-١٥٥؛ قساطلي ١١٧.

(٢) ابن طولون، القلائد ٣٧٦/٢.

(٣) دهمان، في رحاب ٣٣؛ مقابلة ١٣٦.

(٤) البدرى ٢٦١.

(٥) ابن طولون، القلائد ٣٧٦/٢؛ قساطلي ١١٧.

(٦) البدرى ٢١٤؛ ابن كان، المواكب ٢٧٩/٢.

(٧) البدرى ٢١٤.

(٨) ابن طولون، تاريخ ٣٤.

(٩) البدرى ٢٤٥.

(١٠) الكتي، عيون ٣١١/٢٠؛ ابن طولون، اللغات ٢٨؛ ابن كان، المواكب ٣٣١/٢.

(١١) ابن طولون، ضرب ١٥٩.

(١٢) العمري، مسالك، دولة ١٨٠؛ البدرى ٣٤٥؛ ابن طولون، اللغات ٢٨؛ قساطلي ١١٧.

(١٣) البدرى ٣٤٥؛ ابن كان، المواكب ٢٧٢/٢.

(١٤) ابن كان، المواكب ٢٧٢/٢.

الزيتون :

وهو من الأشجار المباركة والتي لها أهمية كبرى من الناحيتين الغذائية والاقتصادية، خاصة استخراج الزيت وصناعة الصابون، كما أن له فوائد الدوائية أيضاً، وقد جاء في الأحاديث النبوية أنه يشفي من كثير من الأمراض^(١).

وتعتبر المنحدرات الجبلية من المناطق المفضلة لزراعة الزيتون، ولا يبذل الفلاحون جهداً كبيراً للعناية بأشجار الزيتون، فيحرقون الأرض حولها مرتين أو ثلاث مرات في العام، وتقليمها مرة كل ثلاث أو أربع سنوات^(٢)، ومعروف أن شجرة الزيتون لا تحمل ثماراً وفيرة إلا عاماً بعد عام^(٣)، كما أنه يصير على الماء^(٤)، ويقول أصحاب الفلاحة أن شجرة الزيتون تعمر ثلاثة آلاف عام^(٥).

ويبدأ موسم قطف الزيتون في بلاد الشام في شهر تشرين الثاني، ويعمل الفلاحون على كسبه للأكل، حيث يؤخذ الزيتون و يوضع في إناء ثم يصب عليه الماء المالح و الليمون والفلفل ويتم تغطيته أياماً، ثم ينشر عليه الملح والكمون، ويترك مدة شهر ثم يؤكل^(٦)، وبعضهم يعملون على عصره بوساطة الرحي^(٧) أو معاصر الزيتون لاستخراج الزيت^(٨).

وقد غطت أشجار الزيتون مساحات واسعة من دمشق^(٩)، وانتشرت المعاصر الخاصة بعصر الزيتون في بعض القرى مثل قرية كفر سوسيه، حيث يذكر البدري أن أشجار الزيتون وجدت بها منذ زمن سيدنا عيسى عليه السلام^(١٠)، كما انتشرت زراعته في غوطة دمشق^(١١)، وقرى عديدة أخرى من نيابة دمشق^(١٢) خاصة في المرة^(١٣)، ووزع الزيتون في القابون، وحرستا، ودومة، وبرزة، وبلدا، وحوش الریحانية^(١٤).

(١) معلما؛ زيود ٢٠١.

Conder 330.

(٢) النابلسي، الملاحه ٤١٣.

(٣) القزويني، عجائب ٢٩١.

(٤) القزويني، عجائب ٢٩١؛ النابلسي، الملاحه ٣٩.

(٥) مجهول، مفتاح ١٩١.

(٦) لإشيلي ٥٤، ٥٦.

(٧) الرحي: عبارة عن حجر كبير، يوجد في إحدى جوانبه فتحة كبيرة، يوضع في إحدى طرفيها جذع شجرة كبير بعد تنظيفه، والطرف الآخر يتصل مع حجر العصور، وعندما يتم إدارة الدولاب، يقوم المعصراني بوضع الزيتون في إحدى فتحات الحجر الدائري المتحرك، عندها تصبح ثمار الزيتون بين السطح الثابت والمتحرك، فتهرس ويبدأ الزيت بالنزول. (القاسمي ٤٥٦/٢-٤٥٧؛ البيضاوي ٢٣٦).

Conder 330.

(٨) البيضاوي ٢٣٦.

(٩) ابن طولون، ضرب ١٦٠؛ قساطلي ١١٧.

(١٠) البدري ٢١٢.

(١١) البدري ٢١٣؛ الصباغ، المجتمع ٥٩.

(١٢) كرد علي، خطط ٤/١٤٧، ١٤٩.

(١٣) ابن طولون، تاريخ ٣٤؛ كرد علي، غوطة ١٠٨.

(١٤) كرد علي، غوطة ١٠٨.

Neil 166.

الحمضيات :

انتشرت زراعة الحمضيات في مناطق مختلفة من دمشق وقراها و أهم أصنافها :

الأترج:

نقل الأترج من الهند في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وزرع في منطقة دمشق^(١). ويسمى الأترج أيضا تفاح العجم، وثماره ذات قشرة سميكة و لبه قليل العصارة حمضي، و محصوله قليل، يزرع لتطعم عليه الأشجار الحمضية حيث تعيش أطول، ذلك أن التي تطعم عليه تطول مدة حياتها أكثر من تلك التي تطعم على النارنج^(٢).

النارنج:

وهو من الشجر الذي لا يسقط ورقه، وقد جلب من الهند أيضا^(٣)، وتشتهر دمشق بزراعته. خاصة الغوطة منها^(٤).

الليمون :

وهو نبات هندي الأصل أيضا^(٥)، ويزرع في غوطة دمشق^(٦)، وقد عدد البدري منها ستة وهي: المركب، وهو نوعان: أحمر و أصفر، ومنها التفاحي وهو نوعان، والمختم والحلسمي، وغالب ما يستعمل الأصفر والتفاحي^(٧).

النخيل :

انتشرت زراعته في صالحية دمشق، وداريا، وحينما غزا تيمورلنك دمشق عام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م، قام بقطع نخيل الصالحية وكان عددها آنذاك اثني عشرة ألف نخلة^(٨)، وتحدث الزهري عن نخيل دمشق قائلاً: «حتى تبلغ النخلة الواحدة عندهم عشرة أصواع و العنقود الواحد يبلغ ربعاً»^(٩).

(١) العمري، مسالك، دولة ٩١، حسن، تاريخ الإسلام ٣٠٧/٢.

(٢) مجهول، مفتاح ٣٢٢، البدري ٤٣٠.

(٣) مجهول، مفتاح ١٧٤، حسن، تاريخ الإسلام ٣٨٧/٤.

(٤) العمري، مسالك، دولة ٩١، البدري ٣٣٥.

(٥) مجهول، مفتاح ١٧٦.

(٦) العمري، مسالك، دولة ٩١، قساطلي ١١٧.

(٧) البدري ٣٣٣-٣٣٤.

(٨) كرد علي، غوطة ١١٢-١١٣.

(٩) الزهري ٧١.

النباتات العطرية والورود :

يقول البدرى عن الورود: هو جنس تحته ستة أنواع خلا الأسود جيده الجوري، وقرينه الزيداني هي قلعة الورد يستخرجون بها ماء ورد القاهرة المحروسة ومكة المشرفة، كما يزرع في المزة، حيث كان يصنع فيها ماء الورد^(١)، ووصفها شيخ الربوة بكثرة الزهور والورود، ويستخرج منه ماء الورد، «حتى أن حرقته تلقى على الطرقات وفي دروبها وأزقتها كالمزابل فلا يكون لرائحته نظير ويكون ألدّ من المسك إلى مدة انقضاء الورد»^(٢).

ومن النباتات العطرية التي عرفتها دمشق: الياسمين، والمثور، والزنبق، والقرنفل، والريحان، والآس، والبنفسج، والنسرين، والدفلى، ونجوم مريم، وشقائق النعمان، والزنبق^(٣)، واختصت دمشق بالروائح العطرية، وماء الورد^(٤)، وتذكر المصادر أن وادياً بدمشق من الجانب الغربي، كان يدعى وادي البنفسج، وقال عنه الإدريسي: «وادي البنفسج من باب دمشق الغربي، وطوله اثنا عشر ميلاً، وعرضه ثلاثة أميال، وكله مغروس بأجناس الثمار و يسقيه خمسة أنهار»^(٥).

الثروة الحيوانية :

اعتمد الفلاح الشامي على تربية الحيوانات إلى جانب إعماده على الزراعة، وقل من الفلاحين من كان يملك قطعة من الكروم لا يمتلك دابة أو دابتين مهما كان فقيراً^(٦)، ومن هذه الحيوانات ما كان مدجناً أليفاً، ومنها البري و المتوحش، وكانت هذه الحيوانات الوسيلة الأساسية للنقل، كما استعملت على نطاق واسع في الأعمال الزراعية، ومنها ما كان يربي للحومه وللنقل كالجمل و الأبقار، أو للحوم ومنتجاته من الألبان كالماعز والأغنام، أو للنقل كالخيل والحمير والبغال، بالإضافة إلى الطيور المتنوعة الداخن منها و البري^(٧).

وأهم هذه الحيوانات :

الخيل :

دعت الحاجة للقتال إلى العناية الفائقة بتربية الخيل عامة، وتأتي في مقدمتها: الخيل العربية ذات

(١) البدرى ١٠٤.

(٢) شيخ الربوة ١٩٤-١٩٥.

(٣) العمري، مسالك، دولة ٩٢، الفلقشندي، صبح ٩١/٤، ابن تغري بردي، النجوم ١٠٢/٤، تاريخ ٢٠٤/٢.

(٤) حتى، تاريخ ٢٠٤/٢.

(٥) الإدريسي ٣٦٦/١، ابن عبد الهادي، غلدق ٢٥٤-٣٢.

(٦) عنشت ٤٥.

(٧) أبو دعة ١١٩-١٢٠.

الشهرة العالية، وإذا أمعنا النظر في تعداد الجيش المملوكي في نيابة دمشق البالغ ١٥ ألف فارس^(١)، ليعطينا صورة واضحة عن مدى الاهتمام بتربية الخيول في دمشق، حيث كان لهذه الخيول العربية دور مهم في الحروب ضد الأعداء، حيث كانت تلقي الرعب والخوف في قلوب المحاربتين^(٢)، وكانت قبيلة آل فضل من أكبر المصادر الممولة للخيول للدولة المملوكية في الشام ومصر^(٣):

البغال و الحمير :

وجل استخدامها للنقل والركوب و إدارة دواليب المياه، ويذكر أن للحمير ثلاثة عروق: الأسيوي، والقرصي أو الأوروي، والمصري، والأسيوي هو الأكثر شهرة^(٤).

وتشير بعض المصادر إلى أن الحمير كانت تمثل في ذلك الوقت أهم الحيوانات التي يحرص الفلاح عليها، فكان يستخدمها لعدة أغراض، فعليها يحمل أثقاله فضلاً عن التنقل إلى الأماكن العديدة وللحمل أيضاً، كما استخدمها في تنقلاته الداخلية^(٥)، ومما يدل على تربية البغال و الحمير أن المقرزي يذكر أن أعدادا كبيرة من الدواب(حمير و بغال)هلكت عام ٧١٦هـ/١٣١٦م في نيابة دمشق بسبب الأمطار والثلوج^(٦)، كما أن تيمورلنك صادر قطعاناً كبيرة من الخيول والبغال والحمير والجمال وسائر أنواع الدواب الموجودة في دمشق أثناء غزوها عام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م^(٧).

الأبقار:

اهتم أهالي دمشق بتربية الأبقار لحاجتهم إلى حليبها و لحومها و جلودها ولاستخدامها في مجال حراثة الأرض^(٨)، وقد اشتهرت غوطة دمشق بتربية الأبقار بشكل خاص، حيث ذكرها كرد علي مع الأغنام فيقول: «إن البقر البلدي والمعيز البلدية في الغوطة هما من عرق أصيل لا يكاد يكون له مثيل في سائر أقاليم الشام لكثرة ما يدر من الألبان الجيدة، وهذه الأنواع من الماشية لا تعيش في غسير ظلال الغوطة ولا تستمرئ غير مراعيها ومياها»^(٩).

الأغنام :

كانت قطعان الأغنام تعيش في المراعي الواسعة المنتشرة في ربوع دمشق و خاصة في المروج مثل مرج

(١) الظاهري ١٠٤.

(٢) زيود ٢٣٣.

(٣)

(٤) زيود ٢٣٣.

(٥) السخاوي ٢٣٦/٣.

(٦) المقرزي، السلوك ١٦٠،١/٢.

(٧) المقرزي، الخطط ١/٤٤٢٠، ابن إيس، بدالع ٦١٤١/٢.

(٨) مقابلة ١٤٠-١٤١؛ أبو دعة ١٢٠.

(٩) كرد علي، غوطة ٦٤.

راهط في منطقة عذراء^(١)، وكانت الماعز تربي في غوطة دمشق^(٢)، وقد وصف الزهري دمشق بكثرة ألبانها ومواشيها^(٣).

ومما يؤكد على تربية الأغنام في منطقة دمشق أنه في عام ٧١٦هـ/١٣١٦م هلك عدد كبير منها بسبب البرد والتلج الذي احتاح أرض النياحة^(٤)، وكثرة الأغنام وقطعان الماشية الأخرى المرباة في دمشق، كان يصدر الآلاف منها إلى مصر^(٥)، ومن الأمثلة على ذلك أنه في عام ٧٣٧هـ/١٣٣٦م ارتفع سعر اللحم في مصر - حيث بلغ الرطل درهم وربيع - وذلك بسبب ما ذكر من أن النشو كان يأخذ الغنم بنصف قيمتها، فكتب إلى نائب الشام وحلب يجلب الأغنام إلى مصر^(٦)، وكان أهل الغوطة يستفيدون من الأغنام والأبقار في مجال الألبان ومشتقاته كالجبين والسمن والزبدة، وكذلك الصوف والوبر والجلود^(٧).

الطيور :

اهتم الدماشقة بتربية الطيور الداجنة خاصة الإوز والدجاج والحمام^(٨)، حتى أن الدولة المملوكية وضعت رسماً على الدجاج سمي رسم الفراريج^(٩)، وريت هذه الطيور من أجل لحومها وبيضها وريشها، وكان الحمام يجعل في غرف أو على تل، وكانت أبواب البيوت وكواها مقابلة للمشرق لتدخلها أشعة الشمس^(١٠)، وكانوا يربونه في أبراج^(١١)، أما الدجاج فكان يعلف الشعير ونخالة القمح، ويربى في المنازل في مكان يطلق عليه «الحجم»^(١٢)، أما الإوز فيربي في مكان به ماء وعشب^(١٣)، أما النعام فكان الأهالي يربونه في بيوتهم، وتميز بصره على التعب والجوع والعطش^(١٤)، كما وجد في بعض القرى الطيور الجارحة كالصقور^(١٥).

(١) زيود ٢٢٩.

(٢) كرد علي، غوطة ٦٤.

(٣) الزهري ٧١.

(٤) المقرئ، السلوك ١٦٠، ١/٢.

(٥) المصدر نفسه ٤٢٠، ٢/٢.

(٦) المصدر نفسه ٤٢٠، ٢/٢.

(٧) كرد علي، غوطة ٦٢.

(٨) لإشيلي ٧٨؛ العمري، مسالك، دولة ٩١، الفلقشندي، صبح ٩١/٤.

(٩) أبو دمة ١٢١.

(١٠) لإشيلي ٧٠؛ العمري، مسالك، دولة ٩١.

(١١) مقابلة ١٤٣.

(١٢) الحجم : عبارة عن بناء صغير له فتحة صغيرة (طاقة) من جانبه وباب من خشب، ويوضع داخله ألواح من خشب لنوم الدجاج عليه ومكان للبيض. (مقابلة ١٤٣، ح ٧).

(١٣) لإشيلي ٧٨؛ الفلقشندي، صبح ٩١/٤؛ مقابلة ١٤٣.

(١٤) القزويني، عجائب ٤٠٤.

(١٥) الفلقشندي، صبح ٥٧/٢.

الصناعة

اعتمدت الصناعة بشكل أساسي على توفر المواد الخام التي ساعدت على ازدهار الصناعة بمختلف أنواعها، وأهمها توفر المنسوجات الطبيعية كالحرير والقطن والكتان، وتوفر المواد المعدنية من حديد ونحاس، والمواد الخام الزراعية كالزيتون، والعنب، والمشمش، والقراصيا، وغيرها، وما كان يستفاد من أخشابها. وفيما يلي عرض لأهم الصناعات التي وجدت في مدينة دمشق:

أولاً : الصناعات النسيجية :

عرفت دمشق صناعة النسيج منذ القدم^(١)، وقد أنتجت في العصر المملوكي تسعين نوعاً من أنواع الأنسجة، عشرون صنفاً كان من القطن، وعشرون من الكتان و أربعون من الحرير وعشرة من أنواع القصب المختلفة^(٢)، وقد صدرت صناعات دمشق من النسيج إلى الأسواق الفرنجية، وكسبت سمعة عالية من حيث جودتها ودقة نسجها وخاصة الحرير^(٣)، وتفنن الصناع في عملهم وطار اسمها في الأفاق وجرى على لسان كل تاجر وصانع ومستهلك، وغدا اسم دامسكو في أوروبا رمز الصناعة الدمشقية المتقنة، وصناعة النسيج مجموعة أعمال متكاملة تبدأ بتحضير المادة الأولية من الحرير أو الصوف أو القطن، ومن ثم تحول إلى غزول و كباية و فتالة وصباعة، وكانت عملية الغزل تتم بالقتل باليد أو بوساطة دواليب^(٤)، ثم يأتي دور الحائك ثم يتسلمها الدقاق^(٥)، وبعدها يتسلمها القصار^(٦)، ثم يحول النسيج إلى المكبس، ثم يحضر للعرض والتجارة، ولشهرة دمشق في صناعة المنسوجات بمختلف أنواعها وصفها الرحالة فريسكوبالدي الذي زار المدينة عام ٧٨٦هـ/١٣٨٤م بقوله: "إن ما يصنع في دمشق من أي نوع كان، كبيراً أو صغيراً، هو أكثر ما يصنع في أي مكان آخر في الدنيا، سواء في ذلك الأقمشة الحريرية أو القطنية أو الكتانية"^(٧).

وتشمل صناعة المنسوجات: صناعة الحرير، والصوف، والقطن، والكتان:

١- صناعة الحرير :

يؤخذ الحرير من دودة القز، وقد تم جلبها من بلاد الصين في فترة حكم الإمبراطور البيزنطي

(١) قساطلي ١٢٣؛ زيادة، دمشق ١٠٤.

Ziadeh 132_133.

(٢)

Burg 1.

(٣) زيادة، دمشق ١٣٤؛

(٤) الحموي، دمشق ٤٥؛ كيال، فنون ٩٣.

(٥) الدقاق: اسم لمن يدق أثواب الحرير المسماة بصايات الألاج أو أثواب القطن التي تسمى بصايات الدعما في اصطلاح أهل دمشق. (القاسمي ١/١٤٤).

(٦) القصار: هو من يقصر القماش، أي ينقيه من الأوساخ و الأدناس، ودمشق محل مشهور من قدم يعرف بصايات القصارين (غربي دمشق، محل يعرف بالمرجة). (القاسمي ٣٥٣/٢).

Frescobaldi 142.

(٧)

جستيان^(١)، حيث أحدثوا لها المصانع في دمشق^(٢)، وازداد الإنتاج وصدرت المنسوجات الحريرية إلى معظم بلدان العالم في ذلك الوقت^(٣)، وقد وصف الإدريسي دمشق في عهده بأنها «جامعة لصنوف من المحاسن وضروب من الصناعات وأنواع من الثياب الحرير كالحز والديباج النفيس الثمين، العجيب الصنعة، العدم المثال، الذي يحمل منه إلى كل بلد، ويتجهز منها به إلى كل الآفاق والأمصار المصاغة لها والمتباعدة منها ومصانعها في كل ذلك عجيبة، يضاهاي ديباجها بديع ديباج الروم، ويقارن ثياب تستر وينافس أعمال أصبهان، ويشف على أعمال طرز نيسابور من جليل ثياب الحرير المصمتة وبدائع ثياب تيس، وقد احتوت طرزها على أفانين من أعمال الثياب النفيسة ومحاسن حمة، فلا يعادلها جنس ولا يقاومها مثال»^(٤).

وكان جل اعتماد هذه الصناعة على الحرير الطبيعي وعلى أنوال يدوية^(٥)، وفي بعض الأحيان تزين وتطرز برسوم مختلفة باليد والإبرة^(٦)، وكان حرير دمشق معروفاً جداً ويقدر عالياً في أوروبا^(٧). وقد اشتهرت قرية جرمانا بصناعة المنسوجات الحريرية وخاصة صناعة العبي^(٨).

وقد تحدث البدري عن صناعة الحرير في دمشق قائلاً: «ومن محاسن الشام مما يصنع فيها من القماش والنسيج على تعداد نقوشه وضروبه ورسومه، ومنها عمل القماش الأطلس بكل أجناسه وأنواعه، ومنها عمل القماش القرمزي على اختلاف أشكاله وتباين أوصافه، ومنها عمل القماش الأبيض القطني المصور لأحياء القصور وأموات القبور، وما أيضاً عمل القماش السابوري^(٩) بجميع ألوانه وحسن لمعانه»^(١٠).

٢_ صناعة المنسوجات الصوفية :

اشتهرت دمشق بصناعة المنسوجات الصوفية لكثرة الحيوانات من قطعان الماشية التي كانت تربي فيها ، وقد شارك في عملية النسيج الرجال والنساء، فالرجال غنيهم وفقيرهم يقومون بعملية الغزل، أما

(١) دو كوسو ٢٨.

(٢) الحميري ٢٤٠ خير، مدينة ٣٤٨-٣٤٩ حسن، تاريخ الإسلام ٣٠٩/٢، ٣٩١/٤.

(٣) الحميري ٢٤٠ آشتور ١١٤، ٣٩١.

(٤) الإدريسي ٣٦٩/١.

(٥) كيال، فنون ١٠٩-١١٠.

(٦) المرجع نفسه ١٠٩.

(٧) السامر ٢٤٨.

(٨) كرد علي، غوطة ٦٧.

(٩) السابوري: نسبة إلى مدينة سابور الواقعة في بلاد فارس التي تشتهر ببساتينها وفيها يقول المقدسي: «بأنها كورة نزيهة قد اجتمع في البستان الواحد منها النجيل و الزيتون و اللوز و العنب و السدر و قصب السكر و ترى الأثمار جارية و الثمار دانية و القرى ممتدة».

(المقدسي ٣٢٤-٣٢٥ الفزويني، آثار ٢٠٠).

(١٠) البدري ٣٦٢.

النساء فينسجن في البيوت^(١)، وقد اقتصت دمشق بغزل الصوف ونسجه على أنوال يدوية، وكانت المنسوجات الصوفية تحمل إلى البلدان المجاورة لجودتها وإتقان صنعها^(٢)، وفي بعض الأحيان كان الصوف يتم إحضاره من بلاد الروم، وعرفت دمشق بصناعة الصوف المختم، ومن أنواعه المغربي الذي يحاك من الصوف والحرير^(٣).

وقد انتشرت مراكز صناعة المنسوجات الصوفية في مدينة دمشق وقرية جرمانا^(٤).

٣_ صناعة المنسوجات القطنية :

اشتهرت دمشق بحياكة العمائم والأزرر القطنية^(٥)، وحياكة «البطاطين» أو البطاين القطنية، ويبدو أن دمشق رغم إنتاجها لهذا الصنف، فإنها لم تحقق نجاحاً في صناعته وتفضل البطاين المصنوعة في الموصل وبعليك^(٦).

وقد وجد في مدينة دمشق سوق عرف بسوق القطنين تحت سوق جقمق يباع فيه القطن^(٧)، كما وجد في صالحة دمشق سوقان آخران لبيع القطن أحدهما بسوق القطن، والآخر بسوق القطانين^(٨)، ويصف فريسكوبالدي القطن المصنع بدمشق بقوله: «وهناك كميات كبيرة من الأقطان، من أجل ما في العالم، بحيث لو شاهدها أحد الناس وهو لم يكن تجيراً، لحسبها حريراً لما عليه من النعومة واللمعان والدقة والجمال»^(٩).

٤_ صناعة المنسوجات الكتانية :

لم تكن زراعة الكتان منتشرة في بلاد الشام، وإنما كان يستورد من الديار المصرية، ويصنع في دمشق وغيرها من مدن الشام الأخرى^(١٠)، وقد راجت صناعة المنسوجات الكتانية في دمشق وأحسنها الكتان الأبيض، ومنه كذلك الكتان الذي يطلق عليه كتان السمط، لأنه ينسج من الكتان الأزرق المصمت^(١١).

(١) كرد علي، خطط ٢٠٣/٤.

(٢) أبو دعة ١٣٣.

(٣) ابن طولون، ضوء ٨٠/١.

(٤) الصباغ، الصناعة ٤٦١/١؛ كرد علي، خطط ٢٠٤/٤.

(٥) البدري ٣٦٢؛ ابن طولون، ضوء ٧٩/١؛ زيادة، دمشق ١٠٤.

(٦) العلي، دمشق ٢٣٨.

(٧) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٣.

(٨) ابن طولون، القلائد ٢١٣/١، ٢٥٠.

(٩)

(١٠) زيتون ١٧٣؛ أبو دعة ١٣٦.

(١١) ابن طولون، ضوء ٧٩/١.

ثانياً : الصناعات العسكرية :

إن نشوء الدولة المملوكية في ظروف الحرب والقتال مع الفرنج والمغول حتم عليها الاهتمام بشؤون الحرب و من ضمنها السلاح، فقد احتوت خزانة السلاح^(١) "السلاح خاناه"^(٢) على أنواع مختلفة من السلاح من الزردخانات المغشاه بالدياج المحكمة الصنعة المحلاة بالفضة والجواشن^(٣) المذهبة، والخوذ المحلاة بالذهب و الفضة و السيوف العريبات و القلجورية^(٤) والرماح القنا والقنطاريات المدهونة والمذهبة والأسنة العظيمة والقسي المخجورة المنسوبة إلى أفاضل الصناعات، وقسي الرجل وقسي الركاب وقسي اللولب، والنبل الذي يرمى به القسي العربية في المحاري المصنوعة لذلك^(٥).

فقد كان في السلاح خاناه عدة مستكثرة من صناعات كل صنف من السلاح مقيمون يعملون ولا يبتلون في إصلاح و تجديد المستعمل من السلاح ويعرف الواحد منهم بالزردكاش، ويعرف كبيرهم "بالزردكاش كبير"، ومن حقه عرض خزائن السلاح إذا لزم الأمر، وله توزيع السلاح على المماليك السلطانية^(٦).

وقد وصف العمري خزانة السلاح في دمشق بقولهم: "... وفي خزائن السلاح بها معمل الجنايق والسلاح والزردخانات، وتحمل إلى جميع الشام وتعمر به البلاد والقلاع، ومن قلعتهما تجرد الرجال وأرباب الصنائع إلى جميع قلاع الشام ويندب في التجاريد والمهمات"^(٧)، وقد وجد في دمشق في العصر المملوكي سوقاً للسلاح حيث يباع فيه أنواع السلاح المختلفة، ويقع قبلي الجامع الأموي^(٨). وتحدث العمري عن تطور الصناعة في دمشق قائلاً: "وبها الصنائع المهرة في كل فن، من البنائين، وصنائع السلاح، والمصوغ، والزركش، وغير ذلك، وتعمل بها لطائف الأعمال في كل نوع، وصنائعها تفخر على بقية صناعات هذه المملكة إلا فيما قل مما بمصر"^(٩).

ومن أنواع الأسلحة التي صنعت في دمشق :

السيوف :

كان لدمشق شهرة كبيرة في صناعة السيوف والتي ازدهرت منذ بداية القرن الثالث الهجري/ العاشر

(١) خزانة السلاح و السلاح خاناه: لفظة خاناه فارسية تعني البيت فيكون معناها بيت السلاح وبيت الزرد لما فيها من أنواع الزرد ورمحل قبل الزردخاناه. (القلقشندي، صبح ١/٤).

(٢) الجواشن: جمع جوشن، وهو مثل الزرد يلبس على الظهر، و الفرق بينه و بين الزرد، أن الزرد يكون من حلقة واحدة فقط، والجواشن يكون حلقة يتداخل فيها صفائح رقيقة من الشدة. (القلقشندي، صبح ٤٧٣/٢، ح ١).

(٣) القلجورية: نوع من الأسلحة بمزانة السلاح. (البقلي، التعريف ٢٧٦).

(٤) القلقشندي، صبح ٤٧٣/٣.

(٥) غوائمه، التاريخ الحضاري ١١٥.

(٦) العمري، مسالك، دولة ١٧٨.

(٧) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٢.

(٨) العمري، مسالك، دولة ١٨٠.

الميلادي، وكانت صناعتها تتم وفق أسلوب خاص أطلق عليه اسم الدمشقية^(١)، أي السيوف ذات النصال المسقية^(٢).

كما فاخرت دمشق بما تصنع من السيوف المحلاة لما اختصت به من الصفاء والاختضار وما يكتب عليها من آيات وأشعار بماء الذهب، ولا تزال السيوف المصقولة تنسب إلى دمشق حتى الوقت الحاضر^(٣)، ويذكر بأن سيوف دمشق خير السيوف وأفضل ما يصنع في جنوب الشام^(٤). وقد ظل استخدام السيف المستقيم شائعاً حتى نهاية القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، واستخدم في أغراض الاحتفالات الرسمية حتى نهاية العصر المملوكي واشتهرت باسم "سيف بـداوي"، وكان يحمل أثناء مواكب تنصيب السلاطين والخلفاء^(٥).

ومن الأمثلة على السيوف الدمشقية: سيف السلطان الناصر محمد بن قلاوون من الفولاذ الدمشقي، ونصله من الجواهر، وهذا السيف موجود في المتحف الحربي بدمشق تحت رقم (١/٥٩)^(٦).

الرماح :

والرماح عبارة عن آلة الطعن، وهو نوعان:

الأول : يتخذ من القنأ، وهو قصب مسدود الداخل يثبت ببلاد الهند يقال للواحدة منه قنأة، ويقال لمفاصلها أنابيب، ولعقدها كعوب، وإذا كان مستقيماً فيعرف بالصعدة، وإذا احتاج إلى تقويم فقوم قيل له متقف^(٧).

الثاني : يتخذ من الخشب كالزان وفي أعلى الرمح يوجد حديد و يعرف بالسنان أما الذي في أسفله فيقال له الزجُ والقصب، وقد تحدث الطرسوسي في كتابه "تبصرة أرباب الألباب" عن صناعة الرماح بشكل مسهب^(٨).

وقد راجت صناعة الرماح في دمشق، فقد وجد فيها سوق خاص للرماحين، ويذكر أنه عند دخول غازان مدينة دمشق عام ٦٩٩هـ/١٢٩٩م فرض على سوق الرماحين مائة ألف درهم^(٩).

(١) قساطلي ١٢١ هجسي، الشام ٢٧٨؛ زيادة، دمشق ١١٠-١١١.

(٢) ماير ٨١؛ زيادة، دمشق ١١٠-١١١.

(٣) خير، مدينة ٣٤٩.

(٤) لا بروكير ٣/٣٧٢.

(٥) ماير ٧٩.

(٦) الحمود ٦٢.

(٧) القلقشندي، صبح ١٤٩/٢.

(٨) الطرسوسي، تبصرة ١١-١٢.

(٩) المقرئزي، السلوك ٣/١، ٨٩٣-٨٩٤.

الدروع :

جمع درع وهو جبة من الزرد المنسوج يلبسها المقاتل لوقايته من السيوف والسهام^(١)، وتعمل من الحديد، وتعتبر الدروع من الأسلحة الوقائية للمقاتل، وهي نوعان: سابغة وبتراء، فالسابغة هي التي تغطي جميع أجزاء الجسم وحاشيتها تصل إلى نصف الساق، أما الدرع البتراء فهي قصيرة بلا أكمام وتصل إلى أسفل الركبة^(٢).

كما شاع في العصر المملوكي استخدام القرقلات^(٣)، ووجد نوع أحسر من الدروع عسرف بالكازغندات: وهي زرديات رقيقة تلبس عليها الثياب^(٤)، ويوجد في المتحف الوطني بدمشق درع قصير من الزرد مع وقاء للرأس يعود للفترة المملوكية^(٥).

ومن بين الأسلحة التي اتخذت لوقاية الجسم أيضا الجواشن: وهي جمع جوشن، وهي صدرية بسلا ظهر بعضها مصنوع من الحديد والبعض الآخر إما من الفولاذ أو من الجلود^(٦).

التروس :

جمع ترس وهو الآلة التي يتقى بها الضرب والرمي عن الوجه والصدر، وتحمل باليد بواسطة مقبض وهو من المعدات الحربية المهمة التي كانت تستخدم عند التقدم نحو العدو، وله عدة أسماء كالجُنَّة آخذاً من الاجتنان وهو الاختفاء^(٧)، ويتخذ الترس من مواد مختلفة كالحديد والفولاذ^(٨) أو الخشب المغطى بجلد الإبل وتسمى بالدرقة أو الحجفة^(٩)، وتارة تصنع من عيدان يضم بعضها إلى بعض بخيوط القطن ونحوه، وله أنواع وأشكال عديدة فمنها المدور اللطيف الواسع التدوير، ومنه المستطيل في تدويره^(١٠).

القسي :

جمع قوس وهو سلاح معروف يتخذ من شجر ليف يحني طرفاه كالهلال، ويثبت فيها وتر وترمي به السهام^(١١)، وكانت القسي تنسب إلى البلاد التي تصنعها كالحجازية والدمشقية، وقد عرفت القسي

(١) الفلقشندي، صبح ١٥١/٢.

(٢) مجهول، خزانة ٦١.

(٣) الفلقشندي، صبح ١٥٢/٢.

القرقلات: نوع من الدروع تتخذ من صفائح الحديد وتنشئ بالدياج الأحمر والأصفر وقد تكون مبطنه. (الحمود ٦٦، ح ٣).

(٤) الطرسوسي، تبصرة ١٤، القبلي، التعريف ٢٧٢.

(٥) الحمود ٦٦.

(٦) الطرسوسي، تبصرة ١٤.

(٧) الفلقشندي، صبح ١٥٢/٢.

(٨) الطرسوسي، تبصرة ١٢؛ الفلقشندي، صبح ١٥٢/٢.

(٩) مجهول، خزانة ٥٧؛ الفلقشندي، صبح ١٥٢/٢.

(١٠) الطرسوسي، تبصرة ١٢.

(١١) الحمود ٧٠.

جـ_ سك النقود :

النقد بفتح النون يقابله في اللاتينية (Becumia) وتلفظ بيكونيا وهي مشتقة من (Pecus) بيكس ومعناها المواشي، وكانت تطلق في أول وضعها على ضرب من الغنم قبيح الشكل، صغير الأرجل، وأطلق الرومان اللفظ (بيكس) على النقود لأنهم صوروا على نقودهم في أول ضربهم إياها رؤوس الغنم^(١). وتعد صناعة سك النقود جانباً متقدماً من أوجه الحضارة الإنسانية فهي تكشف دقة المستوى الفني المتمثل في صناعتها، وعن أوجه إدارية وتنظيمية تتمثل في الإشراف عليها وضبط أوزانها، كما تعتبر وثائق تاريخية مهمة تستطيع بواسطتها التوصل إلى الحقائق التاريخية^(٢). وقد وجدت في دمشق في العصر المملوكي دار لسك النقود^(٣)، وعرفت بدار الضرب أو دار السكة أو دار العيار^(٤).

ويذكر ابن خلدون أن السكة: بكسر السين وتشديد الكاف تعني الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع جديد تنقش فيه صوراً أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدنانير أو الدراهم فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة^(٥).

ولفظ السكة كان اسماً للطابع، وهو الحديدية المستخدمة لذلك، والسكة وظيفة ضرورية إذ يتميز بها الخالص من البهرج (النقوش) بين الناس في النقود، وعند المعاملات، ويتقون في سلامتها من الغش بختم السلطان عليها كذلك، ويذكر المقرئ أن السكة لفظ يطلق على النقود المتعامل بها الدينار والدرهم المضروبين، وسمي كل منهما سكة لأنه طبع بالحديدة المعلمة^(٦).

وقد استخدمت عدة خامات في سك النقود كالذهب والفضة والنحاس^(٧)، فالدينار يتخذ من الذهب، والدرهم من الفضة، والفلوس من النحاس، ومنذ القرن الأول الهجري/السابع الميلادي تم الانتقال إلى نموذج موحد قام على الدينار الذهبي والدرهم الفضي^(٨)، وكانت دار ضرب العملة في دمشق تقع داخل القلعة^(٩).

(١) الحسيني، تطور ١٣.

(٢) المرجع نفسه ١٣.

(٣) الفلقشندي، صبح ٤/١٨٧، ٧، ٢٣٣.

(٤) الحمود ٩٧.

(٥) ابن خلدون، المقدمة ٢١٧.

(٦) المقرئ، شذور ٦٧.

(٧) ابن بكرة ١٦.

(٨) لومبارد ١٥١.

(٩) البدري ٣٦٣؛ ابن كنان، المواكب ١/٢١٧.

رابعاً : الصناعات الزجاجية

اشتهرت مدينة دمشق بصناعة الزجاج منذ أقدم العصور^(١)، وبلغت شأنًا عظيمًا في العصر المملوكي، وقد تميز زجاج الشام بدقته و نقاوته، وصنع منه الكؤوس، والصحاف، والقوارير، والمصاييح الموهمة بالمينا^(٢)، وهذا ما تميزت به زجاجيات هذا العصر^(٣). وقد اشتهرت مدينة دمشق خلال القرنين السابع و الثامن الهجريين/الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين بصناعة الزجاج^(٤).

ويصف ابن بطوطة مدينة دمشق حينما زارها في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي بقوله: «...وعليها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكتبيين وصناع أواني الزجاج العجيبة...»^(٥). وكانت دمشق تعد في طليعة إبداع ما خلفته تلك الصناعة على الإطلاق، ومنذ عهد السلطان المملوكي بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧) غزا صناع الزجاج الدمشقيون أسواق القاهرة و بقية المدن الإسلامية بفاخر إنتاجهم من المشكيات المذهبة و الموهة بالمينا، وهي أغطية مصاييح^(٦) كانت توضع بداخلها مسارج زيتية مثبتة في حافة الغطاء، وكانت هذه المصاييح تثبت بثلاث سلاسل من الفضة أو النحاس وتتصل بمقايض ثابتة في زجاجها تجمع كلها عند كرة مستديرة أو بيضية، وتبدأ عند هذه الكرة السلسلة التي تعلق بها المشكاة من السقف، وكانت تلك الكرات البيضية أو النامة التكوير تتخذ من الزجاج المدهون إلى أسفل وينتهي بقاعدة تقوم عليها المشكاة إذا لم تعلق، وزجاج المشكيات أبيض مائل إلى الصفرة أو الخضرة^(٧).

أما المينا التي يدهن بها زجاج المشكيات، فحمراء و زرقاء و خضراء وبيضاء ووردية اللون، وقوام الزخرفة أشرطة فيها كتابات ومعظمها آيات قرآنية كريمة كتبت للترك ومن أمثلتها «إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله و اليوم الآخر»، و عبارات دعائية، مثل: «عز لمولانا السلطان الملك الظاهر أبو سعيد نصره الله»^(٨).

(١) عبد الخالق ٥٨.

(٢) المينا: كلمة فارسية تعني جهر الزجاج، وهي أكاسيد معدنية تعمر بمادة زجاجية وتطلى بها الأواني المعدنية والأدوات لإظهار رونق نقوشها وجمال رسومها. (الحصني ١١٣٥/٣).

(٣) حسن، فنون ٥٩٩، الألفي ٢٧٧، عبد الخالق ٥٨، حسن، تاريخ الإسلام ٣٩٦/٤-٣٩٧.

(٤) دعماند ٢٣٨، عبد الخالق ٨٩، زيادة، دمشق ١٠٤.

(٥) ابن بطوطة ١١٠.

(٦) الحمود ١١٠.

(٧) حسن، فنون ٦٠٣.

(٨) حسن، فنون ٦٠٣، العشي ١٥/١٧.

خامساً : الصناعات الخزفية :

الخزف هو كل ما عمل من طين وشوي بالنار حتى يكون فخاراً، ويتنوع الخزف بخلط الطين الذي يصنع منه برمل وطباشير وغيرها، ولون الخزف يكون بحسب الطين الذي يصنع منه، وهو نوعان: صلب ولين، فاللين يؤثر فيه حد السكين بسهولة، بعكس الصلب، فإنه لا يؤثر فيه، واللين يذوب بحرارة أقل من الحرارة التي يذوب بها الصلب، وتطلق كلمة الخزف أيضاً على الجرار وما شابهها^(١).

وكانت لدمشق شهرتها في الصناعات الخزفية والفخارية المطلية بالمينا البديعة الحسن، الزاهية الألوان، ويوجد في دمشق حي لهذه الصناعة يقع إلى الغرب من حي الصالحية، وكان فيه إلى مدة قريبة حوالي عشرين فاخورة "مصنع للفخار"^(٢).

وهناك نماذج جميلة من القدور الخزفية، والقلل، والخوابي، والزهريات، والدوارق، والأصاصي، وغيرها مما صنع في معامل الفخار بدمشق^(٣).

كما عرفت دمشق صناعة القاشاني، وكان يصنع من الرمل الأبيض والجبس^(٤).

سادساً : الصناعات الخشبية :

اشتهرت دمشق بصناعة الأخشاب المستعملة في الأبواب و أثاث المنازل و أدوات الطعام والشراب، كما استخدمت الأخشاب في سقوف المنازل و المساجد و الكنائس والقصور أو القباب^(٥). وقد وصف النجارون في دمشق الشام بأنهم من أشهر تجاري العالم باعنتهم بصناعتهم، و النجار الدمشقي ذكي بالهندسة والمساحة والحسابات و المقاييس وهو قبل كل ذلك متقن لعمله^(٦)، واشتهرت دمشق بصناعة الصناديق من خشب الجوز ذات النقوش المحفورة عليها التي تدل على فن و ذوق جميل سليم^(٧)، كما صنعت الراح حيث يذكر محمد كرد علي أن "عقبة مران" مشرفة على غوطة دمشق يبيت فيها شجر باسق تتخذ منه القنا و الراح وهو المران، ولعل دير مران كان بها وهو في سفح قاسيون المطل على دمشق من جهة الغرب^(٨).

(١) علام ٤١.

(٢) زيود ٣٣٣.

(٣) كرد علي، خطط ٢٢٠/٤.

(٤) قساطلي ١٢١، ١٢٢؛ كرد علي، خطط ٢٢٠/٤-٢٢١؛ كيال، فنون ٦٤؛ الحموي، دمشق ٦٧؛ أبو دعة ١٥٨؛ الرجاوي، مدينة ١١٩.

(٥) قساطلي ١٢٤؛ أبو دعة ١٥٩.

(٦) كيال، فنون ٦٤.

(٧) أبو دعة ١٦٠.

(٨) كرد علي، غوطة ٢٦٧.

ومن الصناعات الخشبية الأخرى صناعة أدوات النسيج من أنوال ودفوف يشغل عليها النسيج^(١)، ويطلق على صانعيها اسم "نويلاتي" وتصنع من الخشب الصلب، كخشب الجوز والتوت^(٢)، ومنها كذلك صناعة الورق من نجارة الخشب، وكانت تصنع في الصالحية^(٣)، بالإضافة إلى ذلك انتشرت في مدينة دمشق صناعة الأثاث الخشبي بأنواعه، كالأسرة والخزانات والموائد وغيرها^(٤).

سابعاً : صناعة الحصر :

انتشرت هذه الصناعة في مدينة دمشق لتوفر المادة الخام اللازمة لصناعة الحصر في أراضي النياحة، حيث توفر في مروج دمشق نبات السلّ وهو نبات طوله ذراع حيث كان يضمته صاحب هذه الحرفة من أصحاب المروج، وعند دخول فصل الصيف يجف و يصلح قطعه، حيث يجمع هذا النبات ويجعل حزماً ويهياً أحمالاً تنقله الجمالة إلى دمشق و تورده إلى الحصرية حسبما يجري الاتفاق عليه^(٥).

واستخدم كذلك نبات الأسلّ المعروف في البادية باسم الكولان أما في الشام فيعرف باسم البابير، بينما يطلق عليه في مصر "البوط" وهو ذو قضبان رقاق ليس له شعب ولا خشب، ولا ينبت إلا في موضع فيه ماء أو آخر قريب من الماء، ومنه ثلاثة أنواع: بري وترعاه الماشية، ومائي وهو يؤذي المواشي، والثالث الرنجيلية، وتسمى فتائل الرهبان، ومن النوع الثالث تصنع السلال والحصر والأرشية^(٦).

ومن النباتات التي استخدمت في صناعة الحصر نبات الحلفاء، وهو من النباتات التي تقوم مقام نبات البردي في صناعة الحصر في مصر^(٧).

وكانت الأغوار الشمالية من المناطق التي اشتهرت بإنتاج نبات الحلفاء، فكان يزرع في الشونة الشمالية، وهو نبات يتجاوز ارتفاعه الذراع يتميز ساقه برخاوتها وزهرها الأبيض، وكان ينقل إلى دمشق لتصنع منه القفف والسرايج، حيث كانت القفف ضرورية للفلاح لاستخدامها في أعمال البنس، ونقل التراب والفاكهة وغير ذلك^(٨).

ومن النباتات الأخرى التي تدخل في صناعة الحصر: نبات البردي، وهو شبيه بالحلفاء أو البابير، وينمو في الماء، له ورق كخوص النخيل، وساقه خضراء طويلة، ويوصف بأنه ورق رخو يكثر في مصر،

(١) ابن طولون، ضوء ٨٠/١.

(٢) القاسمي ٤٩١/٢.

(٣) ابن طولون، القلائد ٣٧٦/٢.

(٤) القاسمي ١٢٢/١.

(٥) المرجع نفسه ٢٣٨-٢٣٩.

(٦) ابن البيطار ٢٦١/١، صالحية، علم ٦٠.

(٧) غوائمه، التاريخ الحضاري ١١١.

(٨) المرجع نفسه ١١١-١١٢.

بمضغ أصله كقصب السكر، تتخذ منه القراطيس والحبال والحصر المعروف في مصر بالأكياب، وينبت في غوطة دمشق أيضاً، يخلف بذوراً دون الحلبة^(١).

ثامناً : صناعة الصابون :

لما كان الزيتون يغطي مساحات واسعة من دمشق^(٢)، فقد انتشرت في المدينة صناعة الصابون^(٣)، وما ساعد على انتشارها توفر المادة القلوية التي تدخل في صناعتها، وهي ما تعرف بمادة البلس أو القلي المستخرجة من نوع من الأعشاب يسمى الأشنان^(٤).

وكانت صناعة الصابون تتم عن طريق مزج زيت الزيتون النقي والجير الطيب المحكم المطبوخ بالصودا القلوية المستخرجة من شجر الدردار، ويطبخ المزيج على النار، وعندما يصبح لزجاً يتم سكه في أوان كبيرة ثم يقطع ثم يسوق^(٥).

وكان لسكان بلاد الشام عامة و للدمشقيين خاصة شهرة و واسعة في استهلاك الصابون بأنواعه في الاستحمام والغسيل، وإن كثرة الحمامات دليل على ذلك، بالإضافة إلى التفنن في صناعة الصابون بألوانه وأطايه، والمعروف عن دمشق في التاريخ أنها اشتهرت بصناعة الصابون الممتاز^(٦).

تاسعاً : الصناعات الجلدية :

كانت هذه الصناعة على جانب كبير من الأهمية لاحتياج الناس للأشياء المصنوعة من الجلود كالأحذية والخفف^(٧) والسروج والمطارح والقرب والروايا والكنائن والمحافظ والأحزمة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لتوفر المادة الأولية التي تحتاجها الصناعات، حيث إن نيابة دمشق كانت تمتلك أعدادا كبيرة من الحيوانات الأليفة والبرية، ودليل ذلك وجود الأسواق المتعددة لهذه الحرفة كسوق الخدائين^(٨)، وسوق الإسكافيين^(٩)، وسوق السروجيين^(١٠).

وقد استفاد الفلاحون الدماشقة من جلود بعض الحيوانات في صناعة الملابس، مثل: السمندر، وهو

(١) ابن البيطار ١/٨٦-٨٧؛ صالحه، علم، ٦١.

(٢) البدرى ٢١٣؛ ابن طولون، ضرب، ١٦٠.

(٣) كرد علي، خطط ٤/١٩٠؛ زيادة، دمشق ١٠٤.

(٤) راوولف ٣٤-٣٥.

الأشنان : نبات لا ورق له، وله أغصان رفاق فيها شبه بالمعدة وهي كثيرة المياه، ناره حارة جداً ورائحة دخانه كريهة وطعمه يميل إلى الملوحة، يستعمل لغسل الثياب. (ابن البيطار ١/٣٧).

(٥) كرد علي، خطط ٤/١٩٠.

(٦) عاشور، ابن عساكر ٣٨٠.

(٧) القاسمي ١/٣٨؛ زيادة، دمشق ١٠٤.

(٨) عاشور، ابن عساكر ٣٨٤-٣٨٥.

(٩) المرجع نفسه ٣٨٥.

(١٠) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٤.

حيوان يشبه الفأر، يدخل النار ولا يحترق، ويصنع منه مناديل إذا اتسخت تلقى في النار فيزول وسخها^(١).
عاشراً : صناعة الورق :

من المعروف أن صناعة الورق في بلاد الشام قديمة، وقد اختلف في تحديد الزمن الذي ظهرت فيه الوراقة في دمشق، ومن المؤكد أن بغداد كان لها قصب السبق في تأسيس معامل الورق، ففي عام ١٧٨هـ/ ٧٩٥م تم تأسيس أول معمل في بغداد^(٢)، ثم انتشرت هذه الصناعة في بلاد الشام، ومهما يكن من أمر فإن الثابت أن دمشق أخذت في صنع الورق منذ بداية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي^(٣).

ويتحدث البدري عن الورق المصنوع في دمشق قائلاً: « وفيها تعمل صناعة القرطاس بحسن مقاله ونقى أوصاله^(٤) ».

وكانت تتم صناعة الورق أيضاً من نجارة الخشب، وقد أورد ابن طولون أنه كان يتم صنعها في الصالحية، وتصدر إلى باقي الدول المحيطة بالشام^(٥)، ويطلق على صانعيها اسم «الوراق»^(٦).
ومن مآثر دمشق على أوروبا إيصال الورق إليها عن طريق بعض الأسرى، ففي أثناء حروب الفرنج أسر شخصان فرنسيان في دمشق و أثناء أسرها تعلمتا طريقة صناعة الورق سرّاً، فلما عادا إلى فرنسا نقلتا هذه الصناعة إليها^(٧).

حادي عشر : صناعة العطور

اشتهرت أراضي دمشق بأزاهيرها وورودها، فتعددت فيها صناعة الزهور والعطور، وكان للمسلمين ولع شديد بالعطور، فقد استعملوا المسك والعنبر والزعفران، وكان لهم طيب يقال له «الغالية» وهو مصنوع من المسك والعنبر ومعجونان بالبان^(٨).

وكانت قرية المزة من قرى دمشق تشتهر بروائحها العطرية وماء الورد الذي صدر إلى كثير من بقاع العالم مثل: مصر، وشبه الجزيرة العربية، والعراق، وصدّر إلى الهند، والسند، وحتى بلاد الصين^(٩).
وقد أشار شيخ الربوة إلى استخراج ماء الزهر وبخاصة في قرية المزة، حيث تحدث عن كثرة ورودها

(١) ابن إياس، نشق ٩٨ ب.

(٢) حسن، تاريخ الإسلام ٣٠٨/٢.

(٣) المقدسي ١٥٤-١٥٥ أبو دمة ١٢٥.

(٤) البدري ٣٦٣.

(٥) ابن طولون، القلائد ٣٧٦/٢.

(٦) السبكي، معيد ١٣٢؛ ابن طولون، نقد ١٧٩.

(٧) كرد علي، خطط ٢٢٢/٤-٢٢٣.

(٨) زيادة، دمشق ١٠٤؛ مكاحلة ٢٨٢-٢٨٣.

(٩) شيخ الربوة ١٩٨، ابن طولون، تاريخ ٣٤-٣٥.

وزهورها وأصنافه، قائلاً: «إن حرقته تلقى على الطرقات وفي دروبها وأزقتها كالمزابل فلا يكون لرائحته نظير، ويكون ألدّ من المسك إلى مدة انقضاء الورد»^(١).

ومن المعروف عن دمشق في التاريخ شهرتها في صناعة العطور الطيبة^(٢)، وذكر لنا شيخ الربوة أيضاً صفة إخراجها في الكركات^(٣) والأنايق، ورسم صورها وطرق استعمالها، كما أن هناك كركات يستخرج منها الماورد وغيره من المياه بلا ماء، بل بوقود الحطب، وذلك بعد حشو القرع^(٤) بالورد وبلسان الثور وبزهر النيلوفر^(٥)، أو البان أو زهر النارج وشقائق النعمان والمهندباء أو بورق القرنفل^(٦).

أما البوغبوني الذي زار دمشق في أواسط القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد فيصف طريقة صنع ماء الورد بقوله: «إنها صناعة يقوم بها من ٥-٨ أشخاص، وكل واحد من هؤلاء يعملون خمسة عشر ألفاً من البراميل التي تحتوي ماء الورد وكل برميل من هذه تحتوي على ثلاث و عشرين وحدة قياسية هذا عدا عن الأشخاص الآخرين والذين كانوا يعملون عندهم، وكان هؤلاء الأشخاص يبيعون جميع ما يجوزهم من ماء الورد»^(٧).

ثاني عشر : الصناعات الغذائية : و تشمل :

طحن الحبوب :

عرفت صناعة طحن الحبوب في دمشق و قراها، ووجدت المطاحن المخصصة لطحن الحبوب والغلال في مختلف مدن و قرى بلاد الشام، ولم تخل مدينة أو قرية من وجودها، وقد أقيمت هذه المطاحن في دمشق على مجرى نهر بردى وفروعه^(٨)، ويذكر الإدريسي أن الأرحاء «مفردها رحى» انتشرت بدمشق فيقول «...وبدمشق أرحاء كثيرة على أوديتها»^(٩).

وبالنسبة لصناعة الخبز: انتشرت الأفران الخاصة بصناعة الخبز في مدينة دمشق لتأمين الخبز للمواطنين، وكان الخبازون يقومون بتحضير العجين إما في السوق، أو في البيت حيث يعجن في البيت بمعاجن من نحاس، وهناك فئات من السكان تعجن في البيت وتخزه في الفرن، ويساعد الخباز عادة مجموعة من الأفراد الذين يعاونونه في صناعة الخبز^(١٠).

(١) شيخ الربوة ١٩٤-١٩٥.

(٢) عاشور، ابن عساكر ٣٨٠؛ حن، تاريخ ٢/٢٥٤.

(٣) الكراكة: آلة تطهر بها الأثمار والقنوات العظيمة مما تسرب بها من رمل أو طين طارئ. (أبو حرب ٩٠٢).

(٤) القرع و الأنيق: هما آلتان لصنع ماء الورد، السفلى هي القرع، والعليا على هيئة المحجمة هي الأنيق. (كرد علي، خطط ٤/١٥٦).

(٥) النيلوفر : نبات ينمو في المياه، له ورق كثير، زهره أبيض شبيه بالسوسن. (التركمان ٢/٥٣٠).

(٦) شيخ الربوة ١٩٥-١٩٧.

(٧)

Pogbonsi 78 .

(٨) الإدريسي ١/٣٦٩؛ غوامه، التاريخ الحضاري ١١٢.

(٩) الإدريسي ١/٣٦٩؛ الحميري ٢٤٠.

(١٠) القاسمي ١/١٢١.

صناعة الأطعمة و الأشرية :

اشتهرت بلاد الشام بصناعة مختلف أصناف الأطعمة و الأشرية و على الأخص مدينة دمشق، وقد كان بالمدينة كثير من التائق و التصنع في موائد الكراء و الأغنياء و المترفين^(١).

واهتم المماليك بإتقان صناعة الطبخ و ممارسة إعداده بأنفسهم، رغم أن مطابخهم كانت تعج بالآلاف من الجوارى اللواتي كن يتقن هذه الصناعة^(٢)، وكان يعمل في المطبخ مجموعة كبيرة من الطباخين، و من أهمهم الخوان سلار^(٣)، وهو كبير رجال المطبخ السلطاني، و يقوم بإعداد الطعام في المطبخ بمعاونة غيره^(٤)، وأستدار الصحبة و الذي يقوم بنقل الطعام من المطبخ و المشي أمامه^(٥)، و"سقاة الخاص"، وهؤلاء يبلغ عددهم عشرة أشخاص و يرأسهم الساقى أو ساقى الملك و عملهم تقديم الخدمة أثناء الطعام و سقى المشروب^(٦)، و الجاشنكير^(٧)، وهؤلاء يرأسهم كبيرهم الجاشنكير، وهم يتصدون لتذوق الطعام و الشراب قبل السلطان خوفاً من أن يدس فيه السم أو غيره^(٨). كما كان لجميع الأمراء بحضرة السلطان الرواتب الجارية في كل يوم من اللحوم و التوابل و الخبز و الزيت^(٩).

وقد بالغ المماليك في إعداد الطعام، و بما يدل على مبالغتهم في شؤون الطبخ أن السلطان الناصر قلاوون احتفل في عام ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م بزواج ابنه أنوك من ابنة بكتمر الساقى، "ذبح فيه من الغنم و البقر و الخيل و الإوز و الدجاج ما يزيد على عشرين ألفاً، و عمل من السكر يرسم الحلوى و المشروب ثمانية عشر ألف دينار، قاله جماعة من المؤرخين"^(١٠).

من خلال النص السابق نستدل على أصناف الأطعمة التي كانت تعد في أيام المماليك و من أهمها:
اللحوم :

كان المماليك يكثرون من أكل اللحوم، و بالذات لحوم الخيل و البقر^(١١) و الطيور^(١٢)، حتى أنه كان يوجد في المطبخ موظفون كبار من درجة الأمراء يشرفون على تسوية أصناف اللحوم و الطيور، و يسمى

(١) ابن عبد الهادي، الطباخة ٣٧٠.

(٢) المقرئ، الخطط ٢/٣٨٤، ١٧٥/٣.

(٣) القلقشندي، صبح ٥/٤٤٢، ماجد ٢/١١٧.

(٤) ماجد ٢/١١٧.

(٥) القلقشندي، صبح ٤/٢٢، ماجد ٢/١١٧.

(٦) القلقشندي، صبح ٥/٤٢٦-٤٢٧، الظاهري ١١٦.

(٧) القلقشندي، صبح ٥/٢١.

(٨) المصدر نفسه ٥/٤٣٢.

(٩) ماجد ٢/١١٨.

(١٠) ابن تفرى، النجوم ٩/٨٠.

(١١) غوامه، إمارة ٢٣٤.

(١٢) ماجد ٢/١١٨.

الواحد منهم أمير مشوي^(١)، وكان شوي اللحوم يتم بالطريقة التالية: حيث يؤخذ اللحم و يدهن بالزعفران ويوضع بالتور و يسد عليه حتى ينضج^(٢)، وكانوا يأكلون اللحم السليخ، وذلك بشيه على النار، وجعله بالسמיד أو السمن^(٣)، كذلك كانوا يفضلون تناول الدجاج و من أشهر أطباقهم الفستقية، وهي وضع الدجاج في الجلاب^(٤)، وكان يضاف إلى الطعام لإعطائه نكهة لذيذة ويرش بالبندق^(٥).
والهريسة: وهي سلق اللحم أو الدجاج ويضاف إليه القمح حتى ينش ثم يغسل اللحم من العظام ويهرس و يضاف إليه الحليب^(٦).

ومن الأطعمة التي كانت شائعة عند المماليك إضافة إلى اللحوم هي:

١_ الأرز المفلفل^(٧) :

ويتم إعداد هذا الطبق، بسلق اللحم ووضع الأرز عليه بمقدار ما تقف فيه الملعقة ثم يغلى عليه حتى ينشف الأرز ثم ينزل و يصفى الماء و يوضع عليه الدهن و يكمر^(٨).

٢_ القلقاسية^(٩) :

وتطبخ بطريقتين: الأولى تكون بسلق اللحم و قلي القلقاس ثم يوضع المزق عليه و يصبح بالزعفران. أما الطريقة الثانية فهي قلي القلقاس و سلق اللحم ووضع الإسفاناخ^(١٠) عليه بعد النضج.

٣_ الملوخية^(١١) :

وهي نبتة سنوية لها سيقان طويلة وأزهار صغيرة صفراء، تطبخ أوراقها مع اللحم المسلوق، ويوضع فيها الكسفرة^(١٢) المدقوقة مع الثوم و البصل المشوي ويضاف إليها إما حصرم أو ليمون وذلك لتحميمها^(١٣).

(١)الظاهري ١١٦.

(٢)ابن عبد الهادي، الطباخة ٣٧٤.

(٣)الحمود ١١٩.

(٤)الجلاب: هو شراب يصنع من الزبيب المدقوق والمنقوع في الماء و يصفى بعد التقع، وكان قديماً يصنع بعقيد ماء الورد بالسكر أو العسل. (الحمود ١٢٠، ح ١).

(٥)ابن إيس، بدائع ١/١، ٢١٦؛ ماجد ١١٩/٢.

(٦)ابن عبد الهادي، الطباخة ٣٧٦.

(٧)الظاهري ١٢٥.

(٨)ابن عبد الهادي، الطباخة ٣٧٣.

(٩)المصدر نفسه ٣٧٥.

(١٠)الإسفاناخ: بقلة معروفة تعلقو شراً، ولها ورق ذو شعب ليس لها أنفاخ كما لسائر البقول. (ابن البيطار ١/٤٢٥).

(١١)ابن عبد الهادي ، الطباخة ٣٧٦؛ الحمود ١٢٠.

(١٢)الكسفرة: بقلة من فصيلة الخيميات مهدها الأصلي أوروبا الجنوبية أوراقها وردية اللون أو بيضاء بقلها من الأفاوية يستخدم كتوابل وحالياً تعرف بالكزبرة. (المنجد، خانات ٦٨٣).

(١٣)ابن عبد الهادي، الطباخة ٣٧٦.

٤_ القولية^(١) :

ويتم إعدادها بسلق اللحم وقلبي الفول بالدهن، ثم يوضع عليه اللحم و المرق، ثم يضاف إليه الصعتر المدقوق والكسفرة والثوم المدقوقين، ويفقس عليه البيض و يُذر عليه الفلفل^(٢) والكسفرة اليابسة ويغطى حتى يجمد وينزل.

٥_ قرعية^(٣) :

وتعد بسلق اللحم ثم يقلى القرع و البصل بالكسفرة المدقوقة و يوضع عليه المرق.

٦_ كشك :

يتم تحضير هذا الطبق بسلق اللحم و يضاف إليه السلق^(٤) و الكرنب^(٥) و اللفت و الحمص و مسن ثم يذر عليه الكشك^(٦)، ويوضع القنبيط و الباذنجان و بعد نضجه يضاف إليه البقدونس و الثوم المدقوقين^(٧).

٧_ الثريد :

ويتم إعداد هذا الصنف من الطعام، بسلق اللحم و تسقية الخبز بمرقه و يضاف إليه اللبن و الثوم و النعنع و يوضع اللحم عليه^(٨).

٨_ الرمائية :

و بعد بسلق اللحم بقليل من الماء، ثم يعصر الرمان أو يدق حب الرمان ويستخرج ماؤه و يوضع على ذلك ثم يحلى^(٩).

٩_ السماقية^(١٠) :

ويتم إعدادها بسلق اللحم و يضاف إليه الكرفس و الجزر و اللفت و الحمص و السلق و بنقع

(١) ابن عبد الهادي ، الطباخة ٣٧٥.

(٢) الفلفل: هو شجر كالرمان و أرفع، وورقه رقيق أحمر مما يلي الشجرة أخضر، و عوده بسيط، ينبت بالهند، وهو أبيض وأسود، كما أنه حار يابس. (الأنطاكي ٢٥١/١).

(٣) ابن عبد الهادي، الطباخة ٣٧٠.

(٤) السلق: نوع من الحماض. (ابن البيطار ٢٧/٢).

(٥) الكرنب: نبات شبيه بالسلق صغير القلوب وهو صنفان جعد، و بسيط و كلاهما يؤكل ساقه وورقه. (ابن البيطار ٥٨/٣).

(٦) الكشك: يصنع من البرغل و اللبن و يجفف في الشمس وهو طعام الفلاحين المفضل في فصل الشتاء. (القاسمي ٣٨٨/٢).

(٧) ابن عبد الهادي، الطباخة ٣٧١.

(٨) ابن عبد الهادي، الطباخة ٣٧٥؛ عظمة ٩٢.

(٩) ابن عبد الهادي، الطباخة ٣٧٣.

(١٠) المصدر نفسه ٣٧٢.

السماق^(١) ويمرس ويصفي ويوضع على ذلك، ويجوز طبخها بكروش البقر أو كروش الغنم المحشية.
١٠_ السفرجلية^(٢) :

يتم تقشير السفرجل^(٣)، ويسلق اللحم في قليل من الماء ويوضع عليه حتى ينضج ثم يضاف إليه الحلو واللوز والخشخاش^(٤) و الدهن .

١١_ المشمشية^(٥) :

كان هذا الطعام يصنع في قرى الغوطة و المرح و في القرى التي تزرع شجر المشمش، وطريقة صنعه تتمثل بمايلي:

يسحق المشمش بالأيدي في غربال، ثم يفرق العصير بوعاء من خشب و يفرش بمهارة على الواح من الخشب بعد طليه بقليل من الزيت ويترك يوماً و نصف اليوم حتى يجف العصير و يصبح شرائح تسمى قمر الدين^(٦).

وهناك أطعمة أخرى اعتاد أهل الشام تناولها وهي العدس المطبوخ^(٧)، والبقول المدمس: فقد كان باعة البقول المدمس يتجولون في الصباح في شوارع دمشق^(٨)، ويقبل الناس على شرائه لتناوله في وجبة الإفطار، وتأكد ذلك بما يذكره الإشبيلي حيث يقول: "ويقولون البقول المنبوت بالزيت و يسلقونه ويساع مع الزيتون"^(٩)، ومن مأكولاتهم أيضا الترمس المملح^(١٠)، والجبن الأبيض و الذي يعرف بالقنبريس^(١١).

كما عرف الشاميون أنواع الخضار المختلفة، مثل: البندورة، والباميا، والفاصوليا، والباذنجان، والكوسا

(١) السماق: جنس من الأشجار، ينبت في المرتفعات و الجبال، موطنها الأصلي منطقة المتوسط، طولها نحو ذراعين، وفيها ورق طويل، لونه إلى حمرة الدم، مشرق الأطراف على هيئة المنشار، جابتها حمراء اللون بمحجم العدس، وقشر هذا الحب هو المستعمل، طعمه حامض.
(الأنطاكي ١/١٩٨).

(٢) ابن عبد الهادي، الطباخة ٣٧٣.

(٣) السفرجل: شجر مشر من الفصيلة الوردية، يكثر نموه في بلاد الشام، فثماره مأكولة و بذوره طيبة، وهو أصناف: حلو و حامض أحوده الهش الحلو الكثير المائية و يوجد بقرية من أعمال حلب تسمى مرغيان، و الثمر تصلح للمرعى و الخبيص و غير ذلك من أنواع الأطعمة، كمل تؤكل نيأة. (الحمود ١٢٣، ح ٤).

(٤) الخشخاش: نبات طويل الأوراق مزغب الساق أبيض حاد مقطع، و الخشخاش المقرن ينبت له ورف كالجرجر يشبه المنشار في تشريفه، له زهر أصفر يخلف قروناً معوجة فيها بذر كالحلبة. (الأنطاكي ١/١٤٠).

(٥) البدرى ١٩٠.

(٦) كرد علي، خطط ٤/١٨٩.

(٧) المقدسي ١٥٨.

(٨) الزربا ٣١٥.

(٩) لإشبيلي ٥٧؛ المقدسي ١٥٨؛ القاسمي ٢/٣٤٤.

(١٠) المقدسي ١٥٨؛ القاسمي ٢/٣٤٤.

(١١) القنبريس: الحليب الحامض الغليظ. (ابن عبد الهادي، الطباخة ٣٧٥).

وغيرها من الخضار التي استخدموها في أطعمتهم و على موائدهم^(١)، كما اعتمد السكان على الفواكه في طعامهم، مثل: العنب، والتفاح، والتين، والبلح، والكمثرى^(٢).

وقد برزت في دمشق صناعات غذائية أخرى اعتمدت أساساً على توفر الثمار بكثرة، وأهمها صناعة القراصيا، والتي كانت تزرع في منطقة الفيحة وتصدر إلى مصر^(٣)، وكان يطلق عليها اسم "بنيت وادي التيرب"^(٤).

ومن الصناعات الغذائية الأخرى والتي كان يفتخر بها سكان مدينة دمشق اللحم على العجين، أو ما يطلق عليه "السنبوسك"، فقد قال ابن طولون نقلاً عن شيخه ابن الميرد^(٥) "ابن عبد الهادي": "الصلحي إذا ضيفه أحد لحمًا على عجين في غير الصالحة فقد ظلم نفسه"^(٦)، والسنبوسك كما أسلفنا عبارة عن عجين يخلط بالسمن أو الزيت ويحشى باللحم المفروم، ويقلى أو يخبز^(٧).
صناعة الأشربة :

تعددت أنواع الأشربة في العصر المملوكي إلا أن الممالك كانوا في أغلب الأحيان يقدمون الماء المثلج، ولا بد من الإشارة إلى أن الثلج كان شائع الاستعمال في دمشق، وذلك بسبب وجوده على الجبال المحيطة بها ومنها جبل الشيخ^(٨)، وكان يحفظ عند نزول حب البرد حيث يكبس في مكابس خاصة ويخزن في أماكن تحت الأرض مخصصة للثلج و يباع في الصيف^(٩)، فكان الثلج بدمشق لا ينقطع، لا صيفاً ولا شتاءً^(١٠)، ولقد اهتم سلاطين الممالك باستعمال الثلج وذلك "إكمالاً لحال الرفاهية وإظهاراً لأهمة الملك"^(١١).

وتيجة لاهتمام الممالك بالثلج فقد أوجدوا نظاماً خاصاً لنقله، حيث كان ينقل بحراً من بيروت وصيدا إلى دمياط، ثم تخرج المراكب في النيل إلى ساحل بولاق، ومن هناك كان ينقل على البغال إلى الشرايخانة^(١٢) بقلعة الجبل، ويخزن في صهريج، ويشرف على ذلك التلاجون^(١٣).

(١) الحمود ١٢٢.

(٢) ابن إياس، نشق ١٠٥.

(٣) البدري ٣٦٢؛ ابن طولون، القلائد ٣٧٦/٢.

(٤) ابن طولون، القلائد ٣٧٦/٢.

(٥) المصدر نفسه ٥٠٨/٢.

(٦) القاسمي ١٨٦/١.

(٧) الظاهري ٤٥؛ القاسمي ٧٢/١؛ ماجد ١٢١/٢؛ زيادة، دمشق ١٠٦؛ غوائمه، التاريخ الحضاري ٧٣-٧٤.

(٨) غوائمه، التاريخ الحضاري ٧٤.

(٩) العمري، مسالك، دولة ١٧٨-١٧٩؛ القاسمي ٧٢/١؛ غوائمه، التاريخ الحضاري ٧٤.

(١٠) القلقشندي، صبح ٤٤٠/١٤.

(١١) الشرايخانة: خزانة الشراب الخاصة بالسلطان، وتشتمل على أنواع الأشربة المرصدة لخاص السلطان من السكر والمشروبات المختلفة، وفيها يكون السكر المخصوص بالمشروب و بها الأواني النعيسة. (القلقشندي، صبح ٢٢/٤٠٥٤٦/٣).

(١٢) ماجد ١٢١/٢؛ غوائمه، التاريخ الحضاري ٧٥.

أما مراكز نقل الثلج بين الشام و مصر فهي تبدأ بدمشق ثم تمر بالصنمين، ثم طقس فأربد، فييسان، فحنين، فقاقون، فلد، فغزة، فالعريش، فالواردة، فالمطيلب، فقطيا، فالقصير، فالصالحية، فبليس، حتى تصل إلى القلعة بالقاهرة^(١).

وكان الثلج موجوداً باستمرار في دمشق^(٢)، حيث يجمع الجليد المتجمد في الجبال، ويستمر حتى شهر حزيران^(٣)، وهذا الجليد كان يحمل على الجمال ليباع داخل أسواق دمشق بين شهري نيسان وحزيران، وكان أهل دمشق يحتفظون بهذه الثلوج داخل الكهوف ويأكلونها مع بعض أصناف الشراب غير الماء^(٤)، وكان الثلج يوضع في الصيف على الفواكه بأصنافها فيحفظها طازجة، ويردها بحيث تكون لذیذة الطعم، وهذا الأمر أدى إلى وجود الفواكه في أسواق دمشق حيث وجدت غالب الأصناف من الفواكه الجيدة التي يحتفظونها من سنة لأخرى^(٥).

ومن الأشربة التي كانت شائعة في دمشق شراب التفاح، و يصنع بعد تقشير التفاح من الداخل والخارج ويؤرض ويطبخ بعشرة أمثاله ماء حتى يذهب ثلاثة أرباعه فيصفي و يلقى عليه مقداراً من ماء الليمون ويعقد و يطيب^(٦).

أما شراب الحماض فيتم إعداده بعصر رطل الحماض أو يطبخ حتى ينضج و يصفى و يعقد^(٧). كذلك اهتم الأهالي في دمشق بصناعة المشروبات المنتجة من الورد^(٨)، المنتشرة في دمشق خاصة ماء الورد الجوري، حيث صدرت هذه المشروبات إلى مختلف المناطق. صناعة الدبس :

اشتهرت دمشق بصناعة الدبس^(٩)، والدبس اسم للعسل المعمول من التمر والعنب، وطريقته تتمثل بتحفيف العنب أو التمر، ثم يدرس ويصب على الماء ويرشح ثم يغلى، وأشهر أماكن صناعته في قرية دوما، كما أن هناك خان خاص في دمشق أطلق عليه خان الدبس^(١٠).

(١) العمري، التعريف ٢٨٤-٢٨٥؛ القلقشندي، صبح ٤٤٣/١٤؛ الظاهري ١١٧-١١٨؛ غوثي، التاريخ الحضاري ٧٦.

(٢) ابن سعيد ٨٥.

Frescobaldi 181. (٣)

Pogbonsi 78. (٤)

Frescobaldi 143. (٥) الظاهري ٤٥؛ زيادة، دمشق ١٠٦؛

(٦) الأنطاكي ٢١٣/١.

(٧) المصدر نفسه ١٢٨/١.

(٨) ابن طولون، القلائد ٣٧٦/٢، وكان يطلق عليه الشراباني و الفاخوري. (القاسمي ٢٥٣/٢).

(٩) القاسمي ١١٩/١، ١٣٨-١٣٩.

(١٠) المرجع نفسه ١١٩/١، ١٣٨-١٣٩.

وقد تحدث النابلسي عن طريقة صناعة الدبس و تحضيره فقال: «وأما عمل الدبس فأحسن أعماله أن يلقي على كل ثلاثة أكياس عصير كيل ماء و يطبخ على نار لينة حتى ترتفع رغوته، وتنتزع الرغوة بمغرفة مثقوبة كلها ثم تقوى ناره و يدام تحريكه بلا فتور لثلاثين ساعة و ينزل القدر الحين بعد الحين عن النار ثم يعاد و يدام طبخه حتى يصير في قوام الأشربة و الجلاب، و حده أن يذهب الماء و يبقى من العصير الثلث أو الربع و الماء يحسن دقه و يجيد طعمه و ربحه و تفوح منه في أول غليه رائحة السفرجل من غير و ضعه فيه و يترك العصير بعد عصره يوماً و ليلة ثم يطبخ، و يطبخ الدبس في موضع فسيح لئلا يناله الدخان و كثرة تحريكه تحسن لونه»^(١).

و أما ادخار العصير من الدبس وهو حلو طول السنة فذلك بأن يجعل من العصير في ظروف فخار قد نصفها و تسد أفواهها بآدم و تربط و توضع في بئر ماء لعدة أيام فإنه يبقى على حالوته^(٢).

التجارة :

تعد التجارة من العناصر و المقومات المهمة في ميزانية و قوة الدولة المملوكية، و حينما نتناول هذا الموضوع فلا بد من توضيح موقع مدينة دمشق المتوسط، و الذي بدوره ساعد بشكل أساسي على ازدهار حركة التجارة فهي تقع في منطقة متوسطة بين بلاد الشام و مصر و الحجاز و العراق، فكانت هي إذن بمثابة حلقة و صل بين أطراف الدولة الإسلامية^(٣).

و مما ساعد على ازدهار حركة التجارة الداخلية و الخارجية في دمشق، أنها منطقة زراعية خصبة، تنوع فيها المحاصيل الزراعية، و أهمها الفواكه بنوعها الصيفي و الشتوي، و التي تنقل بالقوافل إلى سواحل البحر المتوسط ثم إلى أوروبا و كذلك إلى مصر^(٤).

كما لعبت الصناعة دوراً مهماً في تجارة دمشق خصوصاً الصناعات النسيجية و الغذائية، و التي كانت تصدر إلى مصر بمنتجاتها المختلفة و إلى أوروبا كذلك^(٥).

ويضاف إلى عوامل موقعها المتوسط، و تفوقها الزراعي و الصناعي، أنها كانت ملتقى وفود الحجيج من حلب و حماة و المناطق المجاورة الأخرى طيلة العصر المملوكي و ما بعده، وهو ما عرف بقافلة الحج الشامي، الأمر الذي ساعد على ازدهار أسواقها و تجارتها الداخلية و الخارجية^(٦)، و كانت دمشق تستثمر قوافل الحج الشامي في التجارة مع الحجاز و استخدامها سوقاً للبضائع الدمشقية^(٧).

(١) النابلسي، الملاحه ١٠٩ ب.

(٢) المصدر نفسه ١٠٩ ب.

(٣) الظاهري ٤٤٥ قساطلي ١٢٤؛ سوفاجه ١٦٤؛ العلي، خطط ٤٤٤.

(٤) البديري ٤٤ دارفيو ٢٢-٢٣.

(٥) البديري ٣٦٢-٣٦٤؛ دارفيو ٦٧؛ سوفاجه ١٦٤.

(٦) سوفاجه ١٩٩-٢٠٠؛ حسن، تاريخ الإسلام ٣٣٠/٣.

(٧) غوانم، التجارة ٨٩.

الأسواق الدمشقية :

تعريف السوق :

تعرف السوق بأنها موضع بيع السلع و الأمتعة والبضائع، تذكر وتؤنث، والتأنيث فيها أفصح وجمعها أسواق^(١).

وقد تركت أسواق دمشق أثراً جميلاً في نفس ابن جبير الذي وصفها بدقة من حيث كثرة البضائع والتنظيم و الحماية فقال عنها: "وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً وأبدعها وضعاً، ولاسيما قيسارياتها، وهي مرتفعات كأنها الفنادق مثقفة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب القصور"^(٢)، كما وصف العمري أسواق دمشق بحسن ترتيبها^(٣).

ويبدو أن ازدياد عدد السكان في دمشق أدى إلى اتساع أسواقها، وزيادة عددها، كما كانت حركة التجارة اليومية في المدينة نشيطة جداً^(٤)، وبسبب اتساع أسواق المدينة تجاوزت منطقة الشارع القديمة متجهة إلى الجامع الكبير بني أمية وهي نقطة مركزية يجتمع فيها أكثر الناس أسبوعياً أو يومياً، ويسهلون المعاملات التجارية، وقد كثرت الأسواق في المدينة حتى بلغت مائة و تسعاً وأربعين سوقاً^(٥).

وكانت الأسواق الدمشقية موضع اهتمام الكثير من الرحالة والمؤرخين لتنوع سلعتها، وإتقان صنعها وذيوع صيتها في الآفاق: فالمقدسي وصفها بقوله: "دمشق هي مصر الشام وأكثر أسواقها مغطاة ولهم سوق عمل على طول البلد مكشوف حسن"^(٦)، أما الإدريسي فيقول عنها: "وشوارعها تحتوي على صناعات مختلفة، وتجار يبيعون كل أنواع الحرير والبروكار المنوع ذي الصنعة الرائعة، وهو يحمل إلى كل المدن، وينقل بالسفن إلى كل الأصقاع والعواصم البعيدة والأماكن القريبة، وللسكان وسائل عديدة لكسب العيش وكل شيء يريدونه، وصناعات المدينة ذو شهرة عظيمة، وبضائعها تطلب من كل أسواق الأرض"^(٧).

وكان لدمشق علاقات تجارية مع قرأها، فأقيمت الأسواق على أبواب المدينة^(٨)، وانتشرت الأسواق في قرى مدينة دمشق، فابن بطوطة وصف قرى دمشق بقوله: "وأكثر قرى دمشق فيها الأسواق"^(٩).

(١) أبو حرب ٥٣٣.

(٢) ابن جبير ٢٦١، الحميري ٢٤٠.

(٣) العمري، مسالك، دولة ١٧٩.

(٤) ابن عبد الهادي، نزهة ١٩.

(٥) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٢-٢٧، العلي، خطط ٤٤٦، ٤٤٨.

(٦) المقدسي ١٣٧، الحميري ٢٣٨.

(٧) الإدريسي ٣٦٧/١.

(٨) كرد علي، غوطة ٣١، خير، مدينة ٤٣٧-٤٣٩.

(٩) ابن بطوطة ١٢١.

وقد وصف أحد الرحالة الذين زاروا مدينة دمشق في القرن ٨هـ/١٤م بأنها كانت مليئة بالتجار^(١). وفيما يتعلق بأسواق مدينة دمشق، فإن المجال يضيق عن تتبع كل سوق من هذه الأسواق في المدينة، لذا فقد ارتأينا أن نقسم الأسواق بحسب نوع البضاعة الموجودة في كل سوق، بمعنى وضع أسواق السلع الغذائية في مجموعة وأسواق الملابس وملحقاتها في مجموعة ثانية، وأسواق الزينة والتجميل في مجموعة ثالثة، وهكذا.

أ- أسواق المواد الغذائية :

انتشرت أسواق المواد الغذائية في مختلف أنحاء المدينة، وهو أمر كان يتمشى بالضرورة مع توزيع الكثافة السكانية، ومن هذه الأسواق:

سوق البقسماطية^(٢): و مركزه كان تحت القلعة^(٣).

سوق التنورية^(٤): وكانوا موزعين، وأفضلهم من كان يجسر الزلاية عند باب الجابية^(٥).

سوق الحلوانيين: وكان يقع بالقرب من جامع السلطان^(٦).

سوق دار البطيخ^(٧): كان يباع فيها البطيخ في البداية، وفيما بعد بيع فيها أصناف الفواكه^(٨)، وموقعها كان تحت القلعة^(٩).

وعند باب الفرج وجد سوقان، أحدهما كان لبيع الخضر سيما البقل منها، والآخر اختص ببيع الحلاوة الصابونية^(١٠)، كما وجد سوق ثالث لبيع الفاكهة في صالحية دمشق، حيث عد من أكبر أسواقها على الإطلاق^(١١).

سوق الدقاقين والحبوبية^(١٢): وموقعهما كان عند باب الجابية، فالأول اختص ببيع الدقيق، والثاني بالحبوب^(١٣).

Maundeville 190.

(١)

(٢) البقسماطية: نسبة إلى صانعي البقسماط أو البقسماط بمعنى الخبز المجفف أو اليابس. (الأسدي، الموسوعة ١٥٠/٢).

(٣) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٦.

(٤) التنورية: وهو صانعو التور أي الخبز والكمك. (الأسدي، الموسوعة ٤٢٩/٢).

(٥) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٧.

(٦) المصدر نفسه ٢٦.

(٧) دار البطيخ: وهي عبارة عن عازن وخانات كبيرة. (متر ٣٨٧/٢).

(٨) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٥؛ زيات، دور ٧٦١.

(٩) البدري ٣٦.

(١٠) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٧.

(١١) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٧؛ ابن كنان، المروج ٣٢.

(١٢) الحبوبية: ويعرف بانعها بالحبوباني نسبة لمن يبيع الحبوب بأنواعها مثل الحمص و الفول و العدس و القنبس وما شبه ذلك. (القاسمي ٩١/١).

(١٣) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٤.

- سوق السكرين : اختص ببيع السكر، وكان يقع تحت سوق البزورين^(١).
- الشرابية^(٢): كانوا موزعين مع الفقاعية^(٣)، والأقسماوية^(٤) في عدة أماكن داخل المدينة^(٥).
- سوق الطباخين : كان لهم سوق عرف بهم، وكانوا موزعين في نواحي المدينة^(٦).
- سوق القضمانيين^(٧) : وكانت تصنع فيه القضاة^(٨)، ولم يحدد ابن عبد الهادي موقعه وإنما اكتفى بالقول: «وخلف القضمانيين مسجد كبير فيه شجر و بركة عند بابه»^(٩).
- سوق القمح : ويعد من أقدم الأسواق في دمشق، وكان يقع جنوب الجامع الأموي، قرب حمام نور الدين زنكي، وحول مسجده أيضاً، وقد غلب عليه في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر للميلاد اسم سوق البزورية^(١٠)، ويبدو أنه انتقل فيما بعد إلى ميدان الحصا، وورد ذكره ثانية عند ابن عبد الهادي في أواخر القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي^(١١).
- سوق اللحامين: وكان مركزه الرئيس بباب الجابية، وهناك قسم آخر من باعته تفرقوا في عامة الأسواق^(١٢).
- سوق الموياتية : ولهم سوقان أحدهما كان بباب الجابية والآخر بالنقلية (جنوبي خان السلطان)، ويستبعد حبيب زيات أن يكون لهذين السوقين صلة ببيع الماء بسبب كثرة المياه في دمشق وإصالتها لجميع المنازل^(١٣)، لكن ما قصد هنا ليس ذلك، فعلى ما يبدو فإن هذه المياه التي كانت تباع في هذين السوقين هي مياه نقية وصحية، بناءً على ما ذكره السبكي من أن بعض الناس كان ينقل الماء من نهر ثورا أو
-
- (١) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٣.
- (٢) الشرابية: يبدو أنهم كانوا ينسبون إلى صانعي الشرايق، ولذا قيل لمن يعمل بهذه المهنة (الشرايق) أو الشربة: إناء للماء يصنع من التراب بعد عجنه بالماء و حرقة على النار، وكان يستخدم في الصيف بكثرة لاحتفاظه ببرودة الماء فيه. (القاسمي ٢٥٢/٢).
- (٣) الفقاعية: عرفوا بذلك لانتخاذهم شرباً من الشعير حيث يكون على سطحه زيد. (ابن منظور ١٢٦/١٠-١٢٧).
- (٤) الأقسماوية: الأقسما: هو نقيع الزبيب، وهو معرب عن الرومية، وهو في الأصل يصنع من مزيج العسل و الخل و الماء . (ابن عبد الهادي، نزهة ٢٧، ح ٢).
- (٥) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٤، ٢٧.
- (٦) المصدر نفسه ٢٧.
- (٧) القضمانيين: وهم صانعو القضاة التي هي من الحمص المقلّي على النار، والقضاة أنواع، فمنها ما يعرف بالصفراء و الملحّة و المغيرة. (القاسمي ٣٥٦/٢).
- (٨) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٣.
- (٩) ابن عبد الهادي، نهار ٩٧.
- (١٠) ابن كثير ١٠٧/١٤.
- (١١) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٣، ٢٤.
- (١٢) المصدر نفسه ٢٥.
- (١٣) المصدر نفسه ٢٦، ح ١.

بانياس وبيعتها لطائفة معينة من الناس^(١).

ب_ أسواق الملابس ومحتوياتها :

سوق الأبارين^(٢): وكان لهم أيضا سوقان، أحدهما وجد عند باب الفرج، والآخر كان يقع غربي البزورين^(٣).

سوق الأدميين والخور^(٤): ومحلّه كان بباب الفراديس^(٥).

سوق الأزرار وسوق الكتان: وموقعهما كان بالقرب من باب البريد^(٦).

سوق اليمارستان: وقد عني هذا السوق ببيع الملابس القديمة، وكان يقع قرب القلعة، وقد عرف هذا السوق أيضا بسوق قميلة أو سوق برا، وقد اختص في البداية ببيع الجوارى والرقيق^(٧)، ثم ربما تحول فيما بعد إلى العناية بالأقمشة القديمة.

سوق الجوخيين^(٨): واختص ببيع الجوخ عند التكة^(٩).

سوق الحرير^(١٠): ومحلّه كان بجذء الباب الجنوبي للجامع الأموي، واقتصر على بيع الحرير^(١١).

سوق الخياطين: ومكانه كان في رأس سوق برا الكائن تحت القلعة^(١٢).

سوق الدقاقين^(١٣): عرف بذلك نسبة لمن كانوا يدقون الثياب فيه، وكان لهم سوقان، أحدهما عند بلب الخضر (حول الجامع الأموي)، والآخر عند سوق العبي تحت سوق البزورية^(١٤).

(١) السبكي، معيد ٦٦.

(٢) الأبارون: وهم صانعو الإبر المتنوعة والمسلات والسنارات وغيرها للخياطة والأعمال المتنوعة. (القاسمي ٢١٥/٢).

(٣) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٦.

(٤) الأدميون: وهم باعة الأدم، أي الجلد المدبوغ، ويجمع عن آدم والخور جلد أحمر من جلود الضأن. (ابن منظور ٢٧٥/١٤).

(٥) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٦.

(٦) المصدر نفسه ٢٦.

(٧) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٤-٢٦؛ العلي، خطط ٤٥٢.

(٨) سوق الجوخيين: لم يعد لهذا السوق اليوم وجود، وموقعه القديم كان في سوق مدحت باشا.

(٩) ابن عبد الهادي، حال الأسواق ٧٦، ح ٨.

(١٠) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٣.

(١١) سوق الحرير: زال هذا السوق، وهناك سوق بالقرب منه يحمل نفس الاسم تباع فيه أدوات الزينة وبعض حلي النساء ونحو ذلك.

(١٢) ابن عبد الهادي، حال الأسواق ٧٤، ح ٧.

(١٣) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٢.

(١٤) المصدر نفسه ٢٥.

(١٣) الدقاقون: مفردھا دقاق، وكان يطلق غالباً على من يدق أثواب الحرير والقطن وكانت الطريقة تتم بغسل قطعة الحرير أو القطن بعد صنعها لإزالة اثر النشا عنها، ثم يأخذها الدقاق فينحها بالماء بواسطة فمه، ثم يطويها شيئاً فشيئاً ويدقها بخفسة بألسة خشبية ثقيلة تعرف (بالمدق) ثم ينشها طياً و تدق آخر طية دقاً محكماً بغير شدة فيظهر بعد ذلك حسن لونها و جمال موجهها مع البريق واللمعان. (القاسمي ١٤٤/١).

(١٤) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٤.

سوق الدهشة^(١): وجد في دمشق ثلاث منها، اثنتان للرجال^(٢)، وواحدة للنساء^(٣) واهتمت هذه الدهشات بالملابس و الأمتعة، ولاسيما دهشة النساء التي حوت على لوازم النساء من الثياب الرفيعة والنفيسة، وكان موقعها شرقي الجامع الأموي^(٤).

سوق الذراع^(٥): وكان موقعه قرب الجامع الأموي من جهة الغرب، وقد اختص ببيع البز من الحرير والكتان والملابس الجيدة والتمتازة^(٦).

وهناك سوقان آخران حملتا نفس الاسم أحدهما كان مركزه بالثقلية والآخر تحت القلعة، وقد اهتمتا ببيع القماش، ولكن بأقل جودة من السوق الأول^(٧).

سوق السقطية^(٨): وكان لهم سوقان^(٩)، تحت القلعة، أحدهما وجد في النحاسين، والآخر كان تحت القلعة^(١٠).

سوق العيين^(١١): وكان لهم سوقان في أسفل سوق البزورين، وعندما يعطل واحد منهما كان أصحابه ينتقلون أنفسهم إلى السوق الآخر^(١٢).

سوق الغزل^(١٣) العتيق: ومركزه كان في الجهة الشمالية للمدينة على يمين الداخل من الباب الشرقي^(١٤).

سوق الفرايين: كان لهم سوقان أحدهما للفراء الثقيلة، والآخر للفراء الحمر^(١٥).

سوق القطنين^(١٦): ومركزه كان أسفل سوق حقمق، وقد اهتم ببيع القطن فقط^(١٧)، كما وجد في صالحية

(١) الدهشة: أصلها قيسارية أو خان أو وكالة، معدة للتجارة وإيواء النزلاء في العصر المملوكي، سبب تسميتها بذلك جاء من المبالغة في تحسينها حتى تصير دهشة. (دهمان، معجم ٧٦، ولاية ٢٢٨؛ الخطيب ١٨٥-١٨٦).

(٢) ابن صصري ١١٧.

(٣) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٢.

(٤) المصدر نفسه ٢٢.

(٥) سوق الذراع: لعل السبب في هذه التسمية أن القماش كان يباع بالذراع. (ابن عبد الهادي، نزهة ٢٥).

(٦) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٢؛ العلي، خطط ٤٤٧.

(٧) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٦؛ العلي، خطط ٤٤٧.

(٨) السقطيون: جمع سقطى وتطلق على بائع السقط أي رديء المتاع. (ابن منظور ١٨٩/٩).

(٩) زال هذان السوقان. (ابن عبد الهادي، حال الأسواق ٨١، ح ٢).

(١٠) ابن عبد الهادي، حال الأسواق ٨١.

(١١) العيون: وهم صانعو الألبسة الواسعة التي تحتوي على خطوط سود كبار. (ابن منظور ٢٤/٢).

(١٢) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٣.

(١٣) الغزل: غالباً ما كان يصنع من الصوف و عرف صانعه بالمغزل. (القاسمي ٣٢٨/٢).

(١٤) ابن شناد، الأغلاق ١١٢؛ ابن عبد الهادي، ثمار ٨٠.

(١٥) الجزري ٤٥٦/٢؛ ابن عبد الهادي، حال الأسواق ٢٣.

(١٦) القطنون: مازال هنا السوق موجود إلى اليوم و يعرف بسوق القطن. (ابن عبد الهادي، حال الأسواق ٧٧، ح ٥).

(١٧) ابن عبد الهادي، حال الأسواق ٢٣.

دمشق سوقان آخران لبيع القطن، عرف أحدهما بسوق القطن، والآخر بسوق القطنين^(١).
سوق القلانسين^(٢): و موضعه كان بالقرب من سوق القطنين^(٣).
سوق الكوفيين^(٤): موقعه كان بالقرب من باب البريد^(٥).
جـ أسواق الأحذية و مستلزماتها :
سوق الإخفايين^(٦): كان يقع في رأس الرصيف^(٧)، و لعله نفس السوق الذي ذكر من قبل باسم سوق الإكفانيين^(٨).
سوق السراجيين^(٩): ومركزه كان غربي الجامع الأموي عند البيمارستان العتيق^(١٠).
سوق السيوريين^(١١): ومحله كان تحت سوق العنبرانيين^(١٢)، واقتصر عمله على صناعة وبيع السيور^(١٣).
سوق القباقيية^(١٤): وكان يوجد شمالي الجامع الأموي داخل باب الفراديس^(١٥).
د أسواق التزيين والحلي و توابعها :
سوق التواسيم^(١٦): ومحله كان بباب الفرج^(١٧).

-
- (١) ابن طولون، القلائد ٢١٣/١، ٢٥٠.
(٢) القلانسون: عرفوا بذلك نسبة إلى صنعهم القلنسوة، وهي من ملابس. (ابن منظور ٦٤/٨).
(٣) ابن شداد، الأعلام ٩٣؛ ابن عبد الهادي، غمار ٩٧، ٦٢.
(٤) الكوفيون: جمع كوف وهي أغطية للرأس تعمل من القطن و توضع تحت العقال، وهذا السوق زال و لم يعد له اليوم وجود. (ابن عبد الهادي، حال الأسواق ٧٤، ٦٥).
(٥) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٢.
(٦) الإخفايون: مفردها خف وهو ما يلبس بالخف من الأحذية الخفيفة. (ابن منظور ٤٢٨/١٠-٤٢٩).
(٧) الرصيف: يقع عند باب البريد. (ابن عبد الهادي، حال الأسواق ٧٥).
(٨) ابن شداد، الأعلام ٩٩؛ ابن عبد الهادي، غمار ٦٥.
(٩) السراجيون: اقتص بيع الأحذية دون صنعها. (العلي، دمشق ٢٥١).
(١٠) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٢.
(١١) السيوريون: و مفردها سيوري، نسبة لمن يبيع السبورة المعدة لصناعة القباقيب وهي تصنع من الجلد، ويخاط لها بطانة ثم يتم بيعها للقباقيية، وكان هذا السوق قد زال و لم يعد له وجود الآن. (ابن عبد الهادي، حال الاسواق ٧٥، ح ٥، نزهة ٤٢٢/٢).
(١٢) سوق العنبرانيين: موقعه كان بالقرب من الباب الجنوبي للجامع الأموي. (ابن عبد الهادي، نزهة ٢٢).
(١٣) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٢.
(١٤) القباقيية: وهم صانعو القباقيب المعمولة من خشب الصفصاف والجوز، فكانوا يقصونه حسب القدم، ثم يدقون به السير. (القاسمي ٣٤٨/٢).
(١٥) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٦.
(١٦) التواسيم: مصدر وسم وهي العلامة. (ابن منظور ١٢١/١٦-١٢٢).
(١٧) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٦.

سوق الخريزاتيين^(١): وكان لهم سوقان، أحدهما في باب البريد، والآخر أسفل سوق البزورين^(٢).
 سوق الذهبين^(٣): ومحلّه كان شرقي سوق الذراع، واقتصر على بيع الذهب المرقوق ومتعلقاته^(٤).
 سوق الرسامين^(٥): كان يقع بين سوق العنبرانيين والسراجيين^(٦).
 سوق الزهوريين^(٧): ولم يكن هؤلاء سوق معين، بل كانوا موزعين على كل أبواب المدينة حيث يوجد دكان لبيع الزهور^(٨).
 سوق الصاغة^(٩): وهما سوقان: أحدهما عرف بالصاغة الجوانية، وكان يباع فيها اللؤلؤ والجواهر وما يتعلق بذلك، والآخر سمي بالصاغة البرانية، وكان يصنع فيها الخواتم والأساور ونحو ذلك^(١٠).
 سوق الطواقين^(١١): وموضعه كان خلف سوق البزورين من ناحية الغرب^(١٢).
 سوق الطيبين^(١٣): ومركزه كان بالقرب من الجامع الأموي من جهة الغرب عند باب البريد^(١٤)، لتلبية حاجة المسلمين بالذات من الطيب أو العطور التي حث الإسلام المسلم على استعمالها^(١٥).
 سوق العنبرانيين^(١٦): وموقعه كان بجذء الباب الجنوبي للجامع الأموي^(١٧)، من أجل سد حاجة الجامع بالذات من العنبر ليبقى دوماً طيب الرائحة.

-
- (١) الخريزاتيون: عرف بذلك لاهتمامه بالخرز، وهو عبارة عن فصوص من الحجارة وقيل بل خياطة لأدم، فكل ثقب في الأدم ويخيطها تعرف بالخرز وقد زال هذان السوقان ولم يعد لهما اليوم وجود. (ابن منظور ٢١١/٧؛ ابن عبد الهادي، نزهة ٧٦، ح ٢).
 (٢) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٣.
 (٣) الذهبيون: جمع ذهبي وهو يطلق على من يبيع ويتجر بالذهب. (القاسمي ١٥١/١).
 (٤) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٢.
 (٥) الرسامون: ومفردها رسام، ويطلق على من يرسم القماش المنسوج بأنواعه، أي يطبعه بطابع بواسطة قالب من خشب محفور عليه مختلف الأشكال بحسب رغبة طالبه. (القاسمي ١٥٤/١).
 (٦) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٢.
 (٧) الزهوريون: وهم باعة الزهور بأنواعها مثل الورد والتسرين والعنبر. (القاسمي ١٦٩/١).
 (٨) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٣.
 (٩) الصاغة: والعامل فيها يسمى صانع لكونه يعمل في الذهب والفضة ونحوها إذ يغيرها من حالة إلى أخرى وذلك حسب رغبة طالبه. (القاسمي ٢٦٤/٢).
 (١٠) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٢.
 (١١) الطواقون: مصدر طوق وهي الخلي حيث توضع حول العنق. (ابن منظور ١٠١/١٢).
 (١٢) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٣.
 (١٣) زال هنا السوق. (ابن عبد الهادي، حال الأسواق ٧٤، ح ٧).
 (١٤) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٢.
 (١٥) يقول الله تعالى حاثاً المسلمين على الطهارة: ((وثيابك فطهر))، المدثر ٤.
 (١٦) زال هنا السوق. (ابن عبد الهادي، نزهة ٧٤، ح ٣).
 (١٧) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٢.

سوق اللؤلؤ: عليه مسجد معلق^(١)، ويبدو كما هو ظاهر من اسمه أنه اختص ببيع اللؤلؤ والجواهر النفيسة. هـ_ أسواق الحيوانات والطيور و ما يتعلق بهما :

سوق البراذعية^(٢): وكان لهم سوقان أحدهما بباب الحايية، و الآخر بباب الفرج^(٣).

سوق البيطرة^(٤): ولم يكن لهؤلاء موضع محدد بل كانوا موزعين في جميع أنحاء المدينة^(٥).

سوق الحمير: وموقعه هو الآخر كان تحت القلعة^(٦).

سوق الخيل: ومركزه كان تحت القلعة^(٧)، وهو يعد من أهم أسواق دمشق في العصر المملوكي حيث مد الدولة بالأموال و بوسيلة النقل التي هي الركيزة الأولى التي كان يستند إليها الجيش^(٨).

سوق الدجاجين: وموقعه كان عند باب الحايية، و بالحدرة غربي القلعة^(٩).

سوق الرحال: ومحلّه كان تحت القلعة على جسر الحديد، حيث اختص بلوازم الجمال^(١٠).

سوق السروجيين^(١١): ومحلّه كان يقع غربي القلعة واقتصر على بيع السروج ولوازم الخيل^(١٢)، ووجد سوق آخر قام بالدور نفسه الذي لعبه سوق السروجيين وقد عرف بسوق السرايحية، ولم يكن لأصحابه مكان محدد بالمدينة، بل كانوا موزعين في سائر أحيائها، وأفضلهم من كان قرب القلعة^(١٣).

سوق الطير^(١٤): ومركزه كان بالقرب من الباب الصغير، واختص ببيع الطيور، وبخاصة طيور الصيد^(١٥).

سوق الغنم: وكان يوجد بين باب الصغير و جسر المصلى^(١٦).

(١) ابن شداد، الأعلام ١٠١، ١١٦، ابن عبد الهادي، ثمار ٦٨-٦٩، ٨٤.

(٢) البراذعية: جمع برذع وهو الحلس الذي يوضع على الدابة و بخاصة على الحمير. (ابن منظور ٣٥٥/٩).

(٣) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٤.

(٤) البيطرة: هم اطباء الحيوانات. (القاسمي ٥٨/١).

(٥) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٧.

(٦) المصدر نفسه ٢٥.

(٧) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٥؛ النعيمي، الداروس ٥٩/١، سوفاجيه ١٩٦.

(٨) زيادة، دمشق ١٥٩-١٦٠.

(٩) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٤.

(١٠) المصدر نفسه ٢٥.

(١١) السروجيون: مفردا سرج وهو ما يوضع على الخيل للركوب فوقه، وهنا السوق لا يزال قائماً حتى وقتنا الحاضر. (ابن عبد

الهادي، حال الأسواق ٨٠، ح ٣؛ القاسمي ١٨٠/١).

(١٢) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٤.

(١٣) المصدر نفسه ٢٧.

(١٤) ابن شداد، الأعلام ١٠١.

(١٥) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٧.

(١٦) ابن شداد، الأعلام ١٥٩؛ القلقشندي، مآثر ٩٢/٢.

سوق الهوى: ومكانه قرب باب دار السعادة، حيث عني هو الآخر ببيع معدات الخيل^(١).

و أسواق الحدادة والنجارة والزجاج وما شاكلها :

سوق الأخصاصيين^(٢): عرف بذلك نسبة إلى صانعي الأخصاص و الأقفاص و ما كان يتعلق بذلك،

وكان موضع هذا السوق جنوب القلعة إلى الغرب من دار السعادة^(٣).

سوق الأمشاطية^(٤): ولهم سوقان أحدهما كان يقع جنوب سوق البزورين قرب الخريزاتية، واختص

بصناعة أمشاط الترجيل، أما الآخر فاقصر على صناعة أمشاط الحياكة، وموضعهم كان إلى الشرق من

خان السلطان^(٥)، والذي عرف أيضا بخان ابن العسال^(٦).

سوق الحدادين^(٧): وكان لهم سوقان، أحدهما بباب الجاية، والآخر بالشاغور^(٨).

سوق الخراطين^(٩): وكان لهم سوقان، أحدهما جنوب القلعة، والثاني بالقرب من سوق القشاشين^(١٠).

سوق الخشابين: مركزه كان خارج باب الصغير^(١١).

سوق الدفوفيين والطنابير^(١٢): ومحلّه كان بالقرب من سوق الأخصاصيين^(١٣).

سوق السكاكينيين^(١٤): ومحلّه كان إلى الشمال الغربي من القلعة داخل سوق جسر الزلاية^(١٥).

(١) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٤.

(٢) الأخصاص: جمع خص، وهو عبارة عن شبك خشبي فيه فتحات صغيرة مربعة كانت توضع على النوافذ لتظل من خلفها النسوة على الطريق دون أن يراهن أحد. (ابن منظور ٢٩٨/٨؛ ابن عبد الهادي، حال الأسواق ٨٠، ح ١).

(٣) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٤.

(٤) الأمشاطية: أطلقت على صانعي الأمشاط وعرف صانعها بـ ((المشيطاني))، وكانت تصنع عادة من خشب المشمش، واستخدمها الفلاحون لخص ثمنها، كما اشترتها نساء دمشق لتفكيك شعورهن. (القاسمي ٤٤٤/٢).

(٥) خان السلطان: موقعه كان خارج باب الجاية. (ابن عبد الهادي، نزهة ٢١).

(٦) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٤.

(٧) الحدادون: جمع حداد، أطلق على من يطوع الحديد وذلك بإدخاله في الكور والنفخ عليه بالكبر حتى إذا أصبح كالجر شكله كما يريد، وموضع هذا السوق قد زال. (ابن عبد الهادي، حال الأسواق ٧٩، ح ٣؛ القاسمي ٩٣/١).

(٨) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٤.

(٩) الخراطون: جمع خراط، وهذه الكلمة أطلقت على من كانوا يجهزون المواد الخشبية للصناعة، وذلك بتقشيرها وتنظيفها بواسطة آلة أعدت لهذا الغرض، ولم يعد لهذا السوق وجود الآن. (ابن عبد الهادي، حال الأسواق ٧٩، ح ٧؛ القاسمي ١٢٢/١).

(١٠) سوق القشاشين: يبدو أن هذا السوق كان مخصصاً لبيع أو صنع المكائس التي ينظف بها المنازل وغيرها وموضع هذا السوق غير معروف. (ابن منظور ٢٢٧/٨؛ ابن عبد الهادي، نزهة ٢٤).

(١١) ابن صصرى ٣٦.

(١٢) الدفوفيون والطنابير: اختص هذا السوق بصنع أو بيع الدف الذي تضرب به النسوة للتعبير عن الفرح، زال هذا السوق ولم يعد له اليوم وجود. (ابن منظور ١١/٥، ١٧٥/٦؛ ابن عبد الهادي، حال الأسواق ٨٠، ح ٢).

(١٣) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٤.

(١٤) لم يعد لهذا السوق اليوم وجود. (ابن عبد الهادي، حال الأسواق ٨٠، ح ٨).

(١٥) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٥.

سوق العليين^(١): وموقعه قرب قنطرة أم حكيم ومسجد الطباخين^(٢).

سوق القزازين: ومحلّه كان بالقرب من باب الفرج^(٣)، كما وجدت حوانيت أخرى لصناعة الزجاج وكان موضعها بالقرب من الباب الشرقي للجامع الأموي، حيث وصفها ابن بطوطة بقوله: "وفيها^(٤) أي دمشق" صناعات أوواني الزجاج العجيبة^(٥).

سوق المسماوية^(٦): ولهم أيضا سوقان، واحد كان تحت القلعة، والآخر في العلية^(٧).

سوق التجارين^(٨): وصناعات هذا السوق كانوا موزعين داخل المدينة، فقسم منهم كان بالقرب من بلب الصغير والسبعة^(٩)، واختص هؤلاء بنجارة عدة الحراثة، أما الآخرون فقد اهتموا بنجارة السكاكر والمفاتيح، وموضعهم كان إلى الأعلى من سوق الليمارستان^(١٠)، كما ورد ذكر آخر لسوق التجارين في صالحية دمشق^(١١).

سوق النحاسين^(١٢): وكان لهم أيضا سوقان، واحد لبيع النحاس، ومحلّه كان تحت القلعة أما الثاني: فاقتصر على صناعة النحاس فقط دون البيع، وكان موضعه قرب باب الفراديس^(١٣)، وعلى يسار الخارج من دهليز الباب الجنوبي للمسجد الأموي والذي عرف بباب الزيادة، وكان يوجد سوق آخر قام بتكملة الدور الذي كان يقوم به سوق النحاسين، وسمي هذا السوق بسوق الصفارين^(١٤)، حيث اعتنى بتنظيف الأواني النحاسية بمختلف أشكالها، وقد عدّه ابن بطوطة من أجمل أسواق دمشق قاطبة^(١٥).

سوق الهوائية^(١٦): ومكانه كان قرب باب الفراديس^(١٧).

(١) العليون: جمع علي وهو صانع الأواني الخشبية من علب وجامع ومخامر كيلات وغيرها. (القاسمي ٣١٨/٢).

(٢) ابن شداد، الأعلام ١٠٠.

(٣) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٦.

(٤) ابن بطوطة ١١٠.

(٥) المسماوية: لم يعد لذين السوقين اليوم وجود. (ابن عبد الهادي، حال الأسواق ٨١، ح ٣).

(٦) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٥.

(٧) اندثر هذا السوق ولم يعد له اليوم وجود. (ابن عبد الهادي، حال الأسواق ٧٩، ح ٤).

(٨) السبعة: كانت تقع شرقي مسجد القصب بالقرب من باب توما. (ابن عبد الهادي، حال الأسواق ٧٩، ح ٤).

(٩) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٤.

(١٠) ابن طولون، القلائد ٢٣٤/١.

(١١) ابن عبد الهادي، حال الأسواق ٨١، ح ١، نزهة ٢٥.

(١٢) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٥؛ النعمي، المدارس ٦٨/٢.

(١٣) الصفارين: أطلق هذا اللفظ أيضا على صنّاع النحاس الجيد. (ابن منظور ١٣١/٦-١٣٢).

(١٤) ابن بطوطة ١١٠.

(١٥) الهوائية: أطلقت على باتمي وصانعي الهوان، والهوان عبارة عن أداة مستطيلة ومدورة مديبة من الأمام حيث استخدمت لتكسير الحوز واللوز ونحو ذلك، وكانت تصنع غالباً من النحاس بواسطة قوالب خاصة أعدت لذلك. (القاسمي ٣٧/١، ٤٩٢/٢).

(١٦) ابن عبد الهادي، نزهة ٢٦.

العمائر التجارية المتممة للأسواق :

أولاً: القياسر :

القياسر أو القياصر مفرد قيسارية أو قيصارية، وهي كلمة لاتينية يبدو أنها محرفة عن كلمة قيصره Cesarie أو Caesarea^(١)، لتعني البناء الملكي أو الإمبراطوري، وذلك لأن السوق كان من الأملاك العامة التابعة للدولة أي أنها ذات صفة ملكية^(٢)، وهي مشاهة تماماً من حيث عمارتها للخانات والوكسالات والفنادق^(٣)، حيث وصفها ابن جبير مرة بقوله: "وكأها الفنادق مثقفة كلها بأبواب حديد كأها أبواب القصور"^(٤). فهي إذاً عبارة عن أبنية مكونة في الغالب من طابقين تضم أسواقاً خاصة أو دكاكين قد تزيد عن عشرين دكاناً^(٥)، وقد يكون في وسطها بركة أو مسجد، وفي أعلاها بيوت للسكن وإقامة التجار^(٦)، ومن المحتمل أنها كانت تزود براوق حول الصحن مرفوع بواسطة دعامات ورواق الطابق العلوي مسقوف بقباب صغيرة^(٧)، ولها باب ثقيل وسميك كان يصنع في العادة من الحديد، ويقفل بواسطة آلة حديدية^(٨).

وقد احتوت هذه القياسر على حوانيت تزجر للتجار، و تقوم إلى جانب ذلك بمهمة البيع والشراء ومهمة النزول وإقامة التجار وخزن سلعهم وحفظ أموالهم^(٩)، وأما البيع فكان يتم في الغالب بطريق الجملة^(١٠).

وقد عرفت تلك القياسر باسم بانيتها، أو باسم ما يباع فيها، حيث اختص بعضها بسلعة أو حرفة واحدة، ولما كانت هذه القياسر ذات مورد جيد ودخل كبير، فقد حرص الكثير من السلاطين والأمراء وكبار التجار على تشييدها والعناية بها^(١١).

Goitein 193.

(١) غالب، ٣٢٠.

(٢) غالب، ٣٢٠-٣٢١؛ الرينجاوي، خانات ٤٧؛ العلي، خطط ٤٦٩.

(٣) الشافعي ١٢٦٦؛ حسن، تاريخ الإسلام ٤/٤١٥.

(٤) ابن جبير ٢٦١.

(٥) ياقوت، معجم ٢/٢٨٤.

(٦) ابن كثير ١٤/٢٢٩.

(٧) الرينجاوي، خانات ٥٤.

(٨) ابن جبير ٢٦١.

(٩) ابن كثير ١٤/٢٤٨، ٥٩/١٤؛ ابن صصري ١٧٣.

(١٠) سعيد ٢٠٦.

(١١) فتهي ٢٩٥.

ومن أقدم القياس التي وجدت في مدينة دمشق القيسارية التي أشار إليها ابن تغري بردي وتعرف بالقيسارية الفخرية وموقعها كان بالقرب من حمام القلانسين شرقي كنيسة بولس، ومن المرجح أن هذه القيسارية يعود تاريخها إلى العصر الفاطمي، فقد ذكرها ابن تغري بردي في أحداث عام ٤٣٤هـ/١٠٤٢م بقوله: "توفي حمزة بن الحسن بن العباس الشريف العلوي أبو يعلى فخر الدولة ولي قضاء دمشق عن الظاهر العبيدي (الخليفة الفاطمي) وهو الذي بنى قيسارية الأشراف وتعرف بالفخرية"^(١).

ووجد في دمشق أيضا ثلاث قياسر أخرى قبل العصر المملوكي وهي قيسارية العقيقي، وكان موضعها بجوار سوق الأحد^(٢)، أما الأخرى فشيدت زمن المعظم عيسى وعرفت بقيسارية القطن^(٣)، وسميت الثالثة بقيسارية الصياغ، ويرجع تاريخ بنائها إلى سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م حيث ذكرها أبو شامة بقوله: "أحدثت القيسارية التي وراء سوق النحاسين بفتح باها إلى الزيادة"^(٤)، ونقل إليها سوق الصاغة^(٥)، وقد وصف العمري قياسر دمشق بخصائصها^(٦).

وخلال العصر المملوكي ارتفع عدد القياسر في دمشق نظرا لما شهده هذا العصر من ازدهار تجاري، فعمرت قيسارية الدهشة عام ٧١٥هـ/١٣١٥م بالقرب من باب البريد الكائن إلى الغرب من الجامع الأموي^(٧).

كذلك وجد في دمشق قيسارية الشرب^(٨)، وقيسارية الفرش^(٩)، وقيسارية المرحلين^(١٠)، وهذه الأخيرة كانت من أملاك تنكر الحسامي نائب دمشق، كما حول هذا النائب القيسارية التي فتحت عام ٧٣٢هـ/١٣٣١م بالقرب من الباب الصغير والتي كانت معدة لسبك الفولاذ إلى قيسارية بركة^(١١).

(١) ابن تغري بردي، النجوم ٣٧/٥.

(٢) أبو شامة، الروضتين ١٧/١.

(٣) ابن كثير ٢٧٤/١٣.

(٤) باب الزيادة: وهو باب الجامع الأموي من جهة الجنوب. (النعي، الدارس ٢٩٧/٢).

(٥) أبو شامة، الروضتين ١٦٢/٢.

(٦) العمري، مسالك، دولة ١٧٩.

(٧) الذهبي، دول ٢٣٤/٢؛ ابن كثير ٥٩/١٤.

(٨) الصقاعي ١٨٠.

(٩) الجزري ٤٥٦/٢.

(١٠) قيسارية المرحلين: اقتصت هذه القيسارية بصنع أو بيع الرحالة، وهي عبارة عن سرج مصنوع من الجلد ليس فيه خشب يوضع فوق الخيل والإبل، وأكثر استعماله يكون عند الجري السريع. (ابن منظور ٢٩١/١٣-٢٩٢).

(١١) الجزري ٥١٥/٢؛ ابن كثير ١٢٥/١٤.

وفي الوقت نفسه امتلكت ابنته قيسارية عرفت باسمها فأطلق عليها قيسارية الطواشي ومركزها كان خارج باب الفرج^(١) ومن القيساريات الأخرى: قيسارية ابن الباي: وكانت تقع في الجنوب الشمالي للجامع الأموي قرب سوق البزورين، وقد خصصت لسكن تجار الفرنج^(٢)، وقيسارية التجار على بلب الجامع الأموي^(٣). وقيسارية القواسين: ومركزها كان جنوب باب الزيادة بالقرب من سوق السلاح، وربما كانت هي القيسارية التي قصدها الصفدي إذ توافق في تحديده مع ما ذكره النعيمي عند حديثه عن المدرسة الأمينية^(٤)، فعين الأول موقعها بالقرب من المدرسة الأمينية، وقد تكون قيسارية أخرى. قيسارية السلاح: وموضعها ينطبق على قيسارية القواسين، وقد تكون هي نفسها أو بجوارها^(٥).

وبجوار سوق البزورين وجدت قيسارية الصوف، وقيسارية الإقبايعين، وقيسارية العبي^(٦). كما تحدث ابن كثير عن بناء قيسارين اثنتين في عصره، ولكنه لم يحدد سنة تأسيسهما، وقد جاء وصفه لهما على النحو التالي: "قلت وقد جدت شرقي هذه الصاغة الجديدة قيساريتان في زماننا، وسكنها الصياغ و تجار الذهب، وهما حستان و جميعهما وقف الجامع المعمور"^(٧)، فضلاً عن ذلك فقد ضمت كل من صالحية دمشق^(٨) والعقبة قيسارية واحدة^(٩).
ثانياً : الفنادق :

الفندق كلمة لاتينية أصلها باندوخيو ((Pandokeion))، وتعني تكلس البضائع^(١٠)، وتقابل في الإيطالية Fondachi لتدل على مبنى ضخم مكون من عدة طوابق فيه غرف مختلفة و مخازن، و به صحن داخلي كان يستخدم لحزن السلع و نزول الدواب، كما كان يشتمل على كنيسة وحمام ومحكمة ومخبز و مقبرة و تحيط به حديقة و له حرس، و لم يكن للفندق في الغالب أكثر من باب واحد، و يغلق بوسلطة باب حديد وأقفال خاصة أعدت لذلك^(١١).

استخدمت الطوابق العليا من الفندق لنزول التجار و لاسيما الأجانب منهم، وربما سمح للحجاج

(١) ابن كثير ٢٠٣/١٤.

(٢) ابن صصري ١٧٣.

(٣) العلي، خطط ٤٧٦.

(٤) الصفدي، الوافي ٨٧/٥؛ النعيمي، الدارس ١٣٣/١.

(٥) ابن قاضي شهبة، تاريخ ٦٦١/٣.

(٦) ابن صصري ١٧٣.

(٧) اسمه مسجد جراح، و موقعه كان بالقرب من باب الصغير، شيد سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣ م. (ابن كثير ١٥١/١٣).

(٨) ابن كنان، اللوج ٣٢.

(٩) العلي، دمشق ١٣٦.

(١٠) متر ٣٨٧/٢؛ حسن، تاريخ الإسلام ٣٣٠/٣، ح ٥٥؛ غالب، ٣٠٦-٣٠٧؛ الربعاوي، خانات ٤٧؛ لوتورنو ١٧٩٢٥/٢٥.

Goitein 27.

(١١) راوولف ٣١.

المارين ببلاد الشام إلى مكة أو إلى القدس بالنزول في هذه الفنادق بعض الليالي في مقابل أجر معلوم^(١).

والمعروف أن أهل الشام استخدموا كلمة فندق و كانوا يقصدون به الخان^(٢)، علاوة على ذلك فإن المدلول العام للفندق لم يتضح أمره إلا خلال العصور الوسطى أي في العصر الفاطمي^(٣)، عند ذلك انتشرت الفنادق في مختلف المدن الشامية ومنها دمشق، حيث وجد فيها قبل العصر المملوكي أكثر من تسعة فنادق كانت تقع داخل دمشق وخارجها، فداخل دمشق كانت فنادق الخشب و فندق الزيت^(٤)، وفندق البيع و فندق ابن حية، و فندق ابن موسى، وفندق بني عبد المطلب، وفندق في سوق البزورين، وفندق غربي درب اللبان، فندق في مكان دار جرير بن عبدالله البجلي^(٥).

وخارج دمشق كان فندق أبي طاهر الفارقي شمال مقبرة الباب الصغير و فندق ابن العنازة، كما عرف أيضا بفندق ابن العباد و موضعه كان بالقرب من قبر أويس القرني أي بالقرب من مقبرة الباب الصغير^(٦).

كذلك عثر على ثلاثة نصوص منقوشة في الجامع الأموي، و جامع التوبة في العقيبة، وكلها تدل على ذكر لثلاثة فنادق غير التي سبق ذكرها، ففي الرواق الشمالي للجامع الأموي نقش فيه ذكر لفندق بناه ناصح الدين العبدي خارج الباب الشرقي، وهو مؤرخ في عام ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م أي في السنة التي توفي فيها السلطان صلاح الدين الأيوبي، وعلى الباب الشمالي للجامع نفسه نقش مؤرخ في عام ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م يرد فيه ذكر لفندق الحلبيين، كما وجد على باب جامع التوبة في محلة العقيسة ذكر لفندق غربي دار البطيخ، وهذا النقش يرجع تاريخه لعام ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م^(٧).

وقبل هذا التاريخ تحدث أبو شامة^(٨) عن فندقين آخرين كانا في مدينة دمشق أحدهما فندق عرف بفندق تقي الدين، و مركزه كان بالقرب من باب الفرائيس، أما الفندق الآخر فسمي بالفندق الكبير، ويعود تاريخ إنشائه إلى عام ٦١١هـ/ ١٢١٤م حيث بناه المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بلووض عاتكة (و تعرف في الوقت الحاضر بقبر عاتكة) و موضعها جنوب القنوات وهما محلتان مشهورتان في دمشق.

(١) علي، القدس ٢٠٥.

(٢) البستاني ٧٠٣؛ ياقوت، معجم ٢٧٧/٤.

(٣) غوثامه، تاريخ نيابة ٩٠.

(٤) ابن قاضي شهبة، الكواكب ٤٩.

(٥) هذه الدار كانت تقع بالقرب من كنيسة القسلاط، وهذه الأخيرة مكانها على الأرجح كان بين باب الحياية و الباب الشرقي.

(ابن عبد الهادي، ثمار ١٠٦، ٧٠، ٦٦).

(٦) ابن شداد، الأعلام ١٣٥؛ ابن عبد الهادي، ثمار ١٢٧.

(٧) الرجاوي، خانات ٥٠.

(٨) أبو شامة، الذيل ٨٦، ٢٠.

ثالثاً: الخانات :

الخان كلمة فارسية، تعني البيت أو القصر أو المنزل، وذلك لأن بانيه هو الخان أي الملك، ومن جهة أخرى تدل كلمة خان على المخزن أو المستودع^(١)، وقد دخلت هذه الكلمة في معظم اللغات نقلاً عن التركية فعرفت بالفرنسية KHAN أو KAN، وفي الإيطالية KAN أو CANE، واستخدمت في اللغة الرومانية ف قيل HAN و في البلغارية Khan، و في اليونانية الحديثة HAN^(٢).

والخان عبارة عن مبنى على هيئة مربع طول ضلعه من عشرة إلى ستين متراً، و سمك جداره بين متر ومتر ونصف، وبداخله فناء مربع تشرف عليه أجنحة الخان من الداخل، وفي وسط الباحة يقام في الغالب مسجد، ويتكون الخان في العادة من طابقين على ارتفاع سبعة إلى ثمانية أمتار، استخدم الطابق الأرضي لخزن البضائع، والطابق العلوي استخدم كفندق تنزل به القناصل في كثير من الأحيان بسبب حصانته، كما احتوى الخان أيضاً على حمام للاستحمام^(٣).

والخانات على نوعين منها ما أقيم داخل المدن، ومنها ما شيد خارجها وخاصة الطرق الخارجية، وعرف الأول «خان التجار» وهو منزل التجار^(٤)، أما الثاني فسمي «فندق»^(٥) أو «خان المسافرين» ليعني محل نزولهم^(٦).

وفي مدينة دمشق ظهر الخان في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي وحل مكان الفندق^(٧)، وقد ترتب على ذلك أن ارتفع عدد خاناتها لاسيما في العصر المملوكي حيث زاد عددها عن السنتين خاناً^(٨)، الأمر الذي يؤكد لنا أهمية هذه المدينة من الناحية التجارية.

وقد جاء توزيع خانات دمشق في كافة أنحاء المدينة، وبخاصة حول سوق القمح الذي يتلقى بضاعته من المناطق الواقعة خارج المدينة، و صارت تعقد فيه صفقات البيع والشراء بالجملة والمفرق، وكان المكان لم يعد مخصص لإيواء المسافرين بل لاستقبالهم ريثما يفرغون من تجارتهم^(٩).

كما وجد بالقرب من القلعة ستة خانات، أربعة منها كانت في الجهة الشمالية الشرقية، واثنان تحتها^(١٠)،

(١) غالب، ١٥٢-١٥٧؛ الترنجي ٢٣٢؛ أدي شير ٥٨؛ الأسد، الموسوعة ٣/٣٠٠؛ الخطيب ١٥٧؛ الريحاني، خانات ٤٧؛ العلي، خطط ٤٦٩.

Elisseeff 4/1010.

(٢) الأسد، الموسوعة ٣/٣٠٠.

Elisseeff 4/1011.

(٣)

(٤) الريحاني، خانات ٤٧.

(٥) ياقوت، معجم ٤/٢٧٧.

(٦) الريحاني، خانات ٤٧، ٤٨.

(٧) السيف ١٠٧.

(٨) ابن عبد الهادي، الإعانات ٦٦-٧٠.

(٩) السيف ١٠٧.

(١٠) ابن عبد الهادي، الإعانات ٦٣-٦٤.

ولا نعرف شيئاً عما كان يباع فيها، وحول الجامع الأموي وجد عدد مماثل من الخانات مثل: خان التكة وخان الحرفان^(١) وغيرهما، وعند سوق السروجيين ورد ذكر لخمسة خانات أخرى وكانت بالقرب منه^(٢).

وإلى جوار باب الجاية وجد خان العميان، وخان السلطان، و خان قصر حجاج، و خان الشبلي^(٣)، وبسوق العمارة ذكر خمسة خانات عرف اثنان منها: خان عبد الباسط، والآخر خان ابن النحاس، وهذا الأخير تحول إلى مدرسة^(٤)، أما الاثنان الآخران فلا نعرف اسميهما أو ما عرض فيهما من سلع، وعند سوق مسجد القصب^(٥) وجد ستة خانات منها خان الشهابي الذي خصص لنزول الحلبيين^(٦)، و خان العقاد الذي عني بنسج الحرير، و خان الملح^(٧)، و خان البقسماط، و خان فارس^(٨)، و خان الخزندار^(٩) وغيرها. وفي السبعة الواقعة إلى الشمال من دمشق، شرقي مسجد القصب بالقرب من باب توما وجد ستة خانات أيضا عرفنا واحداً منها سمي خان الزيت، أما الباقية فلا نعرف شيئاً عنها^(١٠).

وبالعقبة الكائنة شمال السور قرب باب الفراديس وجدت عدة خانات، مثل: خان الزنجاري الذي هدمه الملك الأشرف موسى (٥٧٦_٦٣٥ هـ/ ١١٨٠_١٢٣٧ م) سنة ٦٣٢ هـ/ ١٢٣٤ م، لأنه كان مجمعاً للفساد، وبنى مكانه جامع التوبة^(١١)، كما وجد في المنطقة نفسها خان المقدم الذي اختص بضرب النحاس، و خان الحموي^(١٢)، و خان طولون^(١٣) وغيرها.

وفي سوق باب السريجة الكائن غربي باب الجاية ورد ذكر لتسعة خانات اختص بعضها ببيع سلعة واحدة، مثل: العنب، و شتل الباذنجان، و منها ما عرض فيها أكثر من صنف واحد من البضائع مثل القمح وغيره، و منها ما خصص لنزول تجار العيد، أما الباقية فلا نعرف ماذا يبيع فيها، مثل: خان ابن شريدة، و خان ابن العسال، و خان القسطل، بالإضافة إلى خانين آخرين لم تذكر أسماءهما، وإنما ورد

(١) ابن عبد الهادي، الإعانات ٤٦٥ الريحاوي، خانات ٥٦، ٥٨.

(٢) ابن عبد الهادي، الإعانات ٧٠.

(٣) النعيمي، الدارس ١٣١/٢؛ المنجد، خانات ٥٣_٥٥.

(٤) ابن عبد الهادي، الإعانات ٦٩_٧٠.

(٥) مسجد القصب: يقع هذا المسجد شرقي حي العمارة بالقرب من باب توما و رمم بناءه الأمير ناصر الدين بن منجك عام ٧٢١ هـ/ ١٣٢١ م. (ابن كثير ١٤/١٠٢).

(٦) ابن عبد الهادي، الإعانات ٧٠.

(٧) الريحاوي، خانات ٥٧.

(٨) النعيمي، الدارس ١٣/١.

(٩) الريحاوي، خانات ٥٧.

(١٠) ابن عبد الهادي، الإعانات ٧٠.

(١١) ابن كثير ١٣/١٢١.

(١٢) المنجد، خانات ٥٧، ٥٥.

(١٣) النعيمي، الدارس ١٣/١.

مكاهما، أحدهما كان بجوار الخان الخاص ببيع شتل الباذنجان، وكان بالقرب من خان ابن شريدة من جهة الشمال^(١).

وبالقرب من باب الفرج، والباب الصغير، والباب الشرقي، وباب النصر، ورد ذكر لمجموعة أخرى من الخانات كانت في هذه المواقع، وعلى الدرب الذي هو تحت سوق اللحامين، كان يوجد ثلاثة خانات، وفي القصبة الواقعة بباب المصلى والممتدة إلى رأس القببات وجد أربعة خانات، كما كان في القابون خانان عرف أحدهما بخان السيد أما الآخر فكان خاناً للسبيل^(٢).

كذلك وجد في صالحية دمشق عدد آخر من الخانات، مثل: خان العنب، وخان السبيل، وخان اللبن، وخان القلانسي، وخان القاضي علاء الدين المرادوي، وخان المدرسة، وخان ابن الديران، وخان دمرداش، وخان مليح، وخان بيرم، وخان سوق شعيب، وخان عبد الباسط، وخان المرستان^(٣)، وخان الحنابلة^(٤)، والخان الكبير^(٥).

ومن الخانات الأخرى خان الظاهر الذي نرجح أنه منسوب للسلطان الظاهر بيبرس (ت ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م)، إذ أشارت بعض المصادر إلى بناء خان في عهده، وقد تم تجديده من قبل الأمير تنكز نائب دمشق عام ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م^(٦).

ومن الخانات الأخرى التي عرفت في مدينة دمشق في العصر المملوكي: خان الطحين^(٧)، وخان ابن حجي، والخان المعروف قديماً بخان ابن الحارة، ويومئذ بخان المرأة^(٨)، وخان الجورة، أو خان المقداسة^(٩) وخان الناصر الذي ينسب إلى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون^(١٠)، كما ساهم التجار في بناء الخانات على نطاق واسع^(١١).

(١) ابن عبد الهادي، الإعانات ٧٠.

(٢) المصدر نفسه ٧٠.

(٣) المرستان: هو المرستان القيمري، بناه ضياء الدين أبو الفوارس القيمري زمن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد وهناك رسم في ذلك. (اليوناني ٤٣/١-٤٤٤ ابن كثير ١٣/١٦٣).

(٤) ابن عبد الهادي، الإعانات ٤٦٩ ابن كان، المروج ٣٢-٣٤.

(٥) ابن إياس، بلدائع ١/٢٤٦.

(٦) ابن كثير ١٤/١٢٦.

(٧) النعمي، المدارس ٢/١٧٦.

(٨) الرجاوي، خانات ٥٧-٥٨.

(٩) المنجد، خانات ٥٤.

(١٠) المرجع نفسه ٥٤.

(١١) ابن كثير ١٤/٨٣، ٩٧.

يستشف مما سبق أن مدينة دمشق كان لها مركز تجاري مهم وقد دل على ذلك تعدد خاناتها التي قل أن توجد هذه الكثرة في مدينة من مدن بلاد الشام^(١)، ولا غرابة في ذلك فدمشق تعد من أكبر المدن الشامية، علاوة على ريادتها السياسية حيث كانت تأتي بعد القاهرة في التنافس على السلطة.

التجارة الخارجية :

ازدهرت التجارة الخارجية بين نيابة دمشق ونيابات الشام الأخرى من جهة، وبين نيابة دمشق وكلاً من مصر والدول المجاورة الأخرى مثل: العراق، والشرق الأقصى، وبيزنطة، وأرمينيا، وأوروبا، من جهة أخرى، وبهذا الصدد يذكر العمري أن «مصر و الشام و العراق و الروم تستمد من لطائفها خصوصاً في القسي و النحاس المطعم، والزجاج المذهب، و جلود الخراف المدبوغة بالقرظ المضروب بها المثل»^(٢).

أ_ علاقة دمشق مع نيابات الشام :

استوردت دمشق احتياجاتها من جميع أنحاء الشام، فجلبت الحبوب إليها من حوران، والأرز من منطقة الحولة، والزيت من نابلس^(٣)، وفي هذا المضمار يذكر شيخ الربوة أن زيت نابلس «يحمل إلى جامع بني أمية منه في كل سنة ألف قنطار بالدمشقي»^(٤)، واستوردت دمشق الحليب من بعلبك، والتين والفسق من حلب، والصابون من منطقة سرمين^(٥).

صدرت دمشق إلى نيابات الشام المجاورة الفواكه والعي وأدوات الخيل والخيال والمواد اللازمة للزراعة والمشمش وقمر الدين^(٦)، كما صدرت دمشق إلى صيدا الأواني الخزفية، والتحف الزجاجية، والمعادن، والحلل الموشية، والمنسوجات الحريرية الفاخرة، والشموع، وبعض الحيوانات مثل: الغنم والخيول^(٧)، ومن الطرق الداخلية التي ارتبطت بها دمشق بمدن الشام الأخرى :

دمشق _ بعلبك : تستغرق يومين

دمشق _ طرابلس : ثلاثة أيام

دمشق _ صيدا : ثلاثة أيام

دمشق _ اذرعان : ثلاثة أيام

دمشق _ أقصى الغوطة : يوم واحد

E lisseff 4/1016.

(١)

(٢) العمري، مسالك، دولة ١٨٠.

(٣) فساطلي ١٢٥؛ لايدوس ٥١.

(٤) شيخ الربوة ٢٠٠.

(٥) لايدوس ٥١.

(٦) فساطلي ١٢٥؛ دارفيو ٢١-٢٢؛ زياده، دمشق ١١٨-١١٩.

(٧) سالم ١٦٧.

دمشق _ حوران _ البثنية : يومان

دمشق _ حمص : خمسة أيام

دمشق _ حماة : ستة أيام

دمشق _ القدس : ستة أيام

دمشق _ رفح : ثمانية أيام^(١)

دمشق _ حلب : عشرة أيام^(٢)

دمشق _ صور : أربعة أيام

دمشق _ طبرية : أربعة أيام^(٣)

وكانت القوافل التجارية تخرج من دمشق إلى السواحل الشامية عبر طريق دمشق _ إربد _ القصير _ طبرية _ و تنتهي إلى عكا، وهذه الطريق كانت تسلكها قوافل الجمال التي لا تستطيع السير في الشعاب الضيقة مثل: طريق بانياس _ عكا، وتستغرق أربعة أيام.

وهناك طريق دمشق _ بيروت، وتستغرق ثلاثة أيام^(٤).

أما وسائل النقل: فكانت السلع والبضائع بين دمشق ومدن الشام الأخرى تنقل على ظهور السدواب، والبغال، والحمير، والجمال^(٥).

ب_ التجارة بين دمشق ومصر :

ارتبطت نيابة دمشق بعلاقات تجارية وثيقة مع السلطنة المملوكية في القاهرة.

فقد صدرت نيابة دمشق إلى مصر: الفواكه، حيث يشير ياقوت الحموي إلى أن بدمشق «فواكه جيدة فائقة طيبة تحمل إلى جميع ما حولها من البلاد من مصر إلى حران وما يقارب ذلك فتعم الكل»^(٦).

وأهم الفواكه الطازجة والمجففة المصدرة إلى مصر: الزبيب، والتين، والمشمش، والدراق، والكـرز، والخوخ، والأجاص، والسفرجل، والتفاح، والجميز، والمان، واللوز، والجوز، والبندق، والكمثرى^(٧).

(١) ياقوت، معجم ٥٣٤/٢.

وقد ذكر الإدريسي أن الطريق بين دمشق و رفح تستغرق تسعة أيام. (الإدريسي ٣٧٨/١).

(٢) الإدريسي ٣٧٨/١. قال: من حلب إلى حمص : خمسة أيام، و من حمص إلى دمشق: خمسة أيام، فيكون المجموع عشرة أيام .

(٣) ياقوت، معجم ٥٣٤/٢.

(٤) المصدر نفسه ٥٣٤/٢.

(٥) كاهن ٢٢٤/١.

(٦) ياقوت، معجم ٥٢٩/٢.

(٧) حسن، تاريخ الإسلام ٤٠٤/٤-٤٠٥.

كما صدرت دمشق إلى القاهرة ماء الورد الذي اشتهرت بتصنيعه حيث اشتهرت قرية المزة خاصة بإنتاج العطور وتصنيع ماء الورد و تصديره إلى مصر وغيرها من المناطق^(١).

وصدرت دمشق إلى مصر لحوم الأغنام، فيذكر المقرئزي أنه حينما ارتفع سعر اللحم في مصر عام ٧٣٧هـ/١٣٣٦م بلغ سعر اللحم درهم و ربع، فأصدرت السلطنة المملوكية الأوامر إلى نواب الشام تنكر و نائب حلب بإرسال اللحوم إلى القاهرة^(٢).

وكثيراً ما كانت تصدر دمشق إلى مصر الحبوب و المواد الغذائية الرئيسة خصوصاً في أوقات الأزمات التي تعم مصر بسبب القحط و ما يرافقه من ارتفاع في الأسعار بشكل كبير^(٣).

ففي سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م ارتفع سعر القمح بشكل ملحوظ حتى وصل سعر الأردب^(٤) منه سبعين درهماً و الفول إلى خمسين و الخبز كل خمسة أرتال بدرهم، فكذب السلطان إلى نائب الشام بحمل الغلال من غزة و الكرك والشوبك وبلاد دمشق وألا يترك بها غلة مخزونة حتى تحمل إلى القاهرة^(٥) و تكرر ذلك عام ٧٣٧هـ/١٣٣٦م^(٦).

وكان لدمشق دور مهم في زراعة المشمش حيث كان يصنع منه قمر الدين ويصدر إلى مصر^(٧)، كما صدرت دمشق إلى مصر القراصيا^(٨)، وكذلك المنسوجات بمختلف أنواعها^(٩)، ولشهرة دمشق في صناعة القسي فقد صدرتها إلى مصر^(١٠)، كما اشتهرت دمشق بصناعة الورق و تصديره إلى مصر وباقي الدول المحيطة بالشام، و كان الورق يصنع من نجارة الخشب في الصالحية^(١١).

كما صدرت دمشق إلى القاهرة الثلج، حيث اهتم سلاطين المماليك بنقله إلى مصر، فأوجدوا نظاماً خاصاً لنقله، إذ كان ينقل بجرأ من بيروت و صيدا إلى دمياط، ثم تخرج المراكب في النيل إلى ساحل بولاق و من هناك كان ينقل على البغال إلى الشرايخانة بقلعة الجبل و يخزن في صهريج حيث يشرف

(١) شيخ الربوة ١٩٨٨؛ ابن طولون، تاريخ ٣٤-٣٥.

(٢) المقرئزي، السلوك ٢/٤٠٩.

(٣) لايلدوس ٥٢.

(٤) الأردب: مكيال مصري للحنطة، ويتألف من ٦ ويات كل وية ٨ أفداح كبيرة أو ١٦ قدحاً صغيراً، أو يضم أربعة و عشرين صاعاً، ومن الصعب تحديد الأردب بدقة. (الكرملی ٥٩؛ هنتر ٥٨-٥٩).

(٥) المقرئزي، إغاثة ٣٩، السلوك ٢/٣٩٤.

(٦) المقرئزي، السلوك ٢/٤٠٩.

(٧) البدری ٢٦٤.

(٨) المصدر نفسه ٣٦٢.

(٩) الإدريسي ١/٣٦٩؛ البدری ٦٢-٦٣؛ قسطلی ١٢٥؛ سوفاجی ١٦٤؛ دارقوتی ٦٧.

(١٠) البدری ٣٦٤.

(١١) ابن طولون، القلائد ٢/٣٧٦.

على ذلك الثلاثون^(١).

وقد ذكر البدرى أن نياحة دمشق كانت تصدر إلى الديار المصرية أشياء كثيرة حصرها بعشرة
تبتدئ أسماؤها بحرف القاف وهي: «قصب، قبع، قرضة، قرطاس، قوس، قبقاب، قراصيا، قمر الدين
(من المشمش)، قريشة، قنب»^(٢).

ولا بد من الإشارة إلى أن دمشق ارتبطت بالقاهرة بخط يسير عبر منطقة شمال الأردن في إربد مروراً
بالأغوار و فلسطين، فالقلقشندي يذكر أن المنطقة الواقعة قبلي دمشق والتي عبر عنها بالصفقة القبليّة
«هي طريق الأبواب الشريفة السلطانية في القاهرة و ممر التجار قاصدين الديار المصرية»^(٣).

وتشمل هذه الصفقة بلاد حوران والغور وما إلى ذلك، فالأغوار جميعها كانت داخلة فيها^(٤)، وقد
ربط الممالك بلاد الشام بالقاهرة أيضاً بخط المواصلات البريدية: الطائفة والبرية والمنارات، كما نقلوا
الثلج على الجمال من دمشق إلى القاهرة عبر هذا الطريق^(٥).

وقد عمل سلاطين الدولة المملوكية على إنشاء الخانات والفنادق والقياسر على طول الطريق
التجاري بين دمشق ومصر، فأمنت التجارة على هذا الطريق^(٦)، وغير مثال على ذلك ما ذكره المقرئ في
في الخطط عند ذكره للطريق بين مصر والشام فيقول: «... كانت طرق الشام عامرة يوجد بها عند كل
بريد ما يحتاج إليه المسافر من زاد و علف و غيره و لكثرة ما كان فيه من الأمن أدركنا المرأة تسافر من
القاهرة إلى الشام بمفردها راكبة، أو ماشية، لا تحمل زاداً و لا ماء»^(٧).

جـ_ التجارة بين دمشق والعراق :

ازدهر الطريق التجاري الرئيسي بين دمشق و بغداد، حيث تلقت دمشق من بغداد عبر هذا الطريق
الحيوي التوابل، والأقمشة الحريرية، والأصبغة، والعقاقير، واستمر هذا الطريق مزدهراً حتى منتصف
القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي^(٨).

د_ التجارة بين دمشق و الشرق الأقصى :

كانت دمشق المستودع الكبير الذي ترد إليه منتجات الشرق كله بكميات هائلة^(٩)، فكانت مركزاً
تجارياً هاماً، وملتقى التجار من جميع الآفاق يحملون تجارتهم على ظهور الجمال و الخيول فيأتي إليها

(١) ماجد ١٢١١/٢؛ غوامه، التاريخ الحضاري ٧٥.

(٢) البدرى ٣٦٤.

(٣) القلقشندي، صبح ٣١٠/١٢؛ غوامه، التجارة ٩٠.

(٤) القلقشندي، صبح ١٠٧/١٤؛ غوامه، التجارة ٩٠.

(٥) القلقشندي، صبح ٤٤٣/١٤؛ غوامه، التجارة ٩٠.

(٦) ريسلر ١٣١؛ كاهن ٢٢٥/١؛ غوامه، التاريخ الحضاري ٩٤.

(٧) المقرئ، الخطط ٤٢٠/١؛ غوامه، التاريخ الحضاري ٩٤.

(٨) قساطلي ١٢٥؛ لا بلوس ٥٢-٥٣.

(٩) هايد ١٨٤/١.

التجار من الهند وفارس وأرمينية ومناطق أخرى^(١).

وقد تدفقت متاجر الشرق الأقصى إلى المدن التجارية في بلاد الشام عن طريق الخليج العربي إلى بغداد، ومنها إلى ميناء إنطاكية و اللاذقية عبر مدينة حلب أو إلى ميناء طرسوس واللاذقية عبر مدينة حمص، أو إلى ميناء عكا أو طرابلس أو بيروت عبر مدينة حمص أو حماة أو دمشق^(٢) أو إلى آسيا الصغرى أو البحر الأحمر، وخاصة أن بلاد الشام تتصل من الناحية الجنوبية بهذا البحر عن طريق إيلقة فكانت السفن تبحر منها إلى موانئ البحر الأحمر والمحيط الهندي وبالعكس^(٣)، ولذا فإن مدينة دمشق كمدينة داخلية في بلاد الشام شكلت محطة تجارية ما بين الشرق عامة والساحل الشرقي للبحر المتوسط وشاركها في ذلك حلب^(٤).

وكانت البلاد الشرقية تلهف على المنسوجات العربية المصرية والشامية بأنواعها وعلى التحف النحاسية المكفنة بالفضة و فراء السمور^(٥)، وكذلك أخشاب الصنوبر والخيول العربية التي تجدد سوقا رائجة لها في الهند والصين^(٦)، وحمل تجار الشام إلى الهند والصين بالإضافة إلى متوجات بلاد الشام متاجر غربي أوروبية كالأصواف الإيطالية والذهب والفضة، وكانت جزيرة سيلان^(٧) مقصد العديد من التجار من جنسيات مختلفة من الصين، والهند، وبلاد فارس، والشام^(٨).

وقد حمل تجار الشام معهم من الهند التوابل وبخاصة الفلفل، والبخور، والياقوت، والصندل، وخشب الأبنوس، وجوز الهند، والكافور، والقرنفل، والقرفة، والعاج، وأنواع العقاقير، ومن الصين البهار، والحرير الخام، والمنسوجات الحريرية الغالية الثمن^(٩)، والخزف الصيني، والكاغد(الورق)، والحرير(المداد)، والسروج، واللباد، والذهب، والفضة، والسجاد، والحلي، والمقايض العاجية^(١٠)، ومن البضائع الأخرى التي أحضروها أيضا : الأحجار الكريمة والنباتات والأعشاب الطبية، والدرع والسيوف، والعمود، والجلود المدبوغة، واللبن^(١١)، كما أحضروا من التبت المسك وهو أغلى أنواع

Maundeville 190 .

(١)

(٢) فهيم ١١٤٧؛ زيادة، دمشق ١٣٤.

(٣) المقدسي ٧٠، ٢٤.

(٤) زيتون ١٨١.

(٥) أبو دعة ٢٥٦.

(٦) للاحظ، البصر ٧٦-٧٧؛ غوانمه، التاريخ الحضاري ٨٩؛ كاهن ٢٢٧/١-٢٢٨.

(٧) سيلان : جزيرة تقع على الطريق بين الهند والصين، وكان يطلق عليها(سرنديب)و فيها عقاقير كثيرة لا توجد في غيرها، وهي سيرانكا اليوم. (ياقوت، معجم ٣/٣٣٩).

(٨) فهيم ١٧٤.

(٩) شيخ الربوة ١٥٣؛ حتى، تاريخ ٢/٢٧٨؛ آشور ١٢٨-١٢٩؛ غوانمه، التاريخ الحضاري ٨٩.

(١٠) السامر ٢٠.

(١١) هايد ٢/٢٩٤.

المسك في العالم^(١).

والواقع أن أكبر جزء من منتجات آسيا كان يصل إلى دمشق عن طريق الخليج الفارسي وبغداد أو بطريق البر فقط عن طريق فارس وبلاد ما بين النهرين^(٢).

من خلال العرض السابق يتضح أن مدينة دمشق كانت المستودع الكبير الذي ترد إليه منتجات وبضائع الهند وبلاد شبه الجزيرة العربية وحتى إفريقية، وقد حافظت على مركزها ونشاطها التجاري الواسع حتى مطلع القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي وذلك عندما توطدت الطرق التجارية الجديدة التي اكتشفها البرتغاليون عبر رأس الرجاء الصالح، فضعفت قيمتها التجارية بتحول الطريق الرئيسية لبضائع الهند عنها^(٣).

وقد وصف كل من ابن جبير و ابن بطوطة أسواق دمشق بأنها كانت عامرة بجميع أنواع السلع المحلية والمنتجات الشرقية^(٤).

هـ_ التجارة بين دمشق و أوروبا :

يلاحظ أن العلاقات التجارية بين دمشق و أوروبا كانت قد شهدت في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي ازدهارا ملحوظا، إلا أنها تباطأت إلى درجة كبيرة و ذلك بسبب القضاء على الوجود الفرنجي في بلاد الشام، مما دفع البابا و الكنيسة و رجال الدين إلى إصدار القرارات التي منعوها من خلالها التجار الأوروبيين من الاتجار مع المسلمين في بلاد الشام و مصر، و منع الأوروبيين من بيع أي شيء للمسلمين يمكن أن يحول إلى مادة أو أداة حربية تنفع المسلمين، مثل: تجارة العبيد، والخشب، والأسلحة، والمواد الغذائية، وهذا يعني قطع دابر تجارة أوروبا مع شرقي البحر المتوسط، وقد رافق البابا قراراته بالتهديد بالحرمان، وإعلان خيانة من يخرج على تلك القرارات، وأمر بإيجاد سفن مراقبة للتأكد من سلامة التنفيذ^(٥).

ولكن هذه الإجراءات جميعها لم تتمكن من وضع حد للعلاقات التجارية القائمة بين الشام ومصر من جهة والمدن الإيطالية خاصة من جهة أخرى. فالجاليات التجارية ظلت كما هي ولا سيما في الإسكندرية، وفي بلاد الشام بالذات، فإنه لم يمض وقت طويل على انتهاء الحروب الصليبية حتى تجرأ التجار الأوروبيون وعادوا إليها متاجرين ومقيمين وبخاصة البنادقة منهم^(٦).

(١) السامر ٢٠.

(٢) هايد ٢٩٤/٢.

(٣) الصباغ، المجمع ٨٥.

(٤) ابن جبير ٢٦١؛ ابن بطوطة ١٠٥.

(٥) الصباغ، الجاليات ٥٧/١؛ آشور ٣٨٧.

(٦) الصباغ، الجاليات ٥٧/١.

ففي عام ١٣٠٤م زار تاجران بندقيان نائب صفد باسم حاكم البندقية يستأذناه بالسماح لتجار بلاده أن يأتوا إلى صفد لغرض التجارة، فوافق نائب صفد على ذلك^(١).

و يلاحظ بأنه رغم قرارات المنع التي أصدرها البابا فإن مدن إيطاليا التجارية مثل: جنوه، والبندقية، وغيرها كانت مصممة على الاحتفاظ بأسواق الشام رغم تهديدات البابا وإنذاراته، ولكن لا بد من الإشارة هنا إلى أن بلاد الشام فقدت بعض مكائنها في تجارة الشرق خلال الأرباع الثلاثة الأولى من القرن الرابع عشر، وحلت محلها مصر، إذ أن موانئ الإسكندرية، ودمياط أخرجت من حزام المنع الذي فرضته الكنيسة على التجار الأوروبيين^(٢).

و مما يؤكد على استمرار التجارة بين دمشق و الغرب الأوروبي (جنوه و البندقية و بقية مدن إيطاليا) أن البابا اضطر بسبب الضغط عليه إلى منح أذن مؤقتة للتجارة باستثناء بيع المواد الحربية^(٣).

ويلاحظ أن دمشق وفي النصف الأول من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، شملها الخطر الذي فرضته الكنيسة على تجار أوروبا، ورغم ذلك فإن التجارة ما بين دمشق والبلدان الأوروبية استمرت ولو بشكل ضئيل وأقل بكثير عما كانت عليه في القرون السابقة، فيذكر المؤلف هايد أنه بين القوافل (التجارية) كانت سوق دمشق تلعب دورا كبيرا من حيث عدد الحاج فيها، وبالتأكيد كانت القوافل تحمل عند رحيلها جزءا كبيرا من السلع الثمينة، فتمه حاجين ألمانيين زارا دمشق في الفترة التي ندرسها (النصف الأول من القرن الرابع عشر للميلاد وهما: "جويوم دي بولدنيل" حيث زار دمشق عام ١٣٣٣م، و"لودولف دي سوفم" زار دمشق عام ١٣٤٠م، حيث ذهل هذان الحاجان من كميات التوابل، والعطور، والخراتير، والبروكار المذهب، والأحجار الكريمة التي رأياها، وأشار بولدنيل إلى الطريق التي أتت منه، ولعله تتبع الطريق الأكثر أهمية فالواقع أن أكبر جزء من منتجات آسيا كان يصل إلى دمشق عن طريق الخليج الفارسي وبغداد، أو بطريق البر فقط عن طريق فارس وبلاد ما بين النهرين^(٤).

كانت دمشق تقوم بدور الوسيط التجاري بين الشرق و الغرب في هذه الفترة، إذ أن ما ذكره هذان الحاجان يبرهن على استمرار التبادل التجاري بين دمشق و الغرب الأوربي رغم ضآلته في النصف الأول من القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، ففي عام ٧٣٥هـ/١٣٣٥م، قدم تاجر من برشلونه إلى دمشق عبر قبرص لعقد صفقات تجارية مع تجار دمشق رغم قرارات الخطر الكنسية^(٥).

(١) الصباغ، الجاليات ٥٧/١-٥٨.

(٢) المرجع نفسه ٥٨/١-٥٩.

(٣) آشور ٣٨٧.

(٤) هايد ٢/٢٩٤.

(٥) المرجع نفسه ٢/٢٩٤.

ويلاحظ أيضا أنه خلال توقف التجارة بين مصر و الشام من جهة و أوروبا من جهة أخرى بين عامي ١٣٢٣-١٣٤٤م انتقل تبادل البضائع بين الطرفين بطريقة غير مباشرة و ذلك عن طريق قبرص و كريت. (آشور ٣٩٣).

ومن أهم السلع التي استوردتها دمشق خاصة و الشام عامة من البلدان الأوروبية: الحديد، والنحاس، والزيت، والجبنة، والأرز، والسكر، والقهوة، والنيلة، والمنسوجات الحريرية، والصوفية والقطنية، والكتانية، ودودة القز، والفراء، والأجواخ، والمصنوعات الحديدية، والفضية، والبلورية^(١)، وجلب التجار الإيطاليون أنواعا من الأقمشة والمنسوجات من الغرب الأوروبي، مثل: المنسوجات الكتانية والصوفية، وبخاصة الجوخ البندقي الذائع الصيت^(٢)، فقد قال القلقشندي: "إلى البندقية ينسب الجوخ البندقي الفائق لكل نوع من الجوخ"^(٣)، كما نقل التجار الإيطاليون أيضا إلى بلاد الشام أنواع الفراء، مثل: السنجاب، والقاقم، والسمور، من موانئ البحر الأسود التي تصلها من روسيا الشمالية^(٤)، إضافة إلى ذلك استوردت دمشق الخمر من جزيرة كريت وغربي أوروبا، والمرجان والخيوط الذهبية من إيطاليا^(٥).

كما استوردت دمشق المماليك من أوروبا عن طريق بيزنطة والأندلس وقد لجأ السلاطين والأمراء إلى شراء المماليك لتكوين جيوشهم المحاربة بالإضافة إلى الجوّاري اللاتي ملأن قصورهم^(٦). إضافة إلى ذلك فقد سمح للتجار الإيطاليين باستخدام قوارهم الخاصة في شحن سفنهم التجارية وتقريفها في الموانئ الشامية، وخصصت السلطات للتجار الإيطاليين مستودعات لتخزين سلعهم ومتاجرهم. دون دفع رسوم عليها وظلت مفاتيح هذه المستودعات بأيدي التجار الإيطاليين^(٧). أما أهم السلع التي صدرتها دمشق إلى أوروبا، فمن المعروف أن دمشق مع طرابلس كانتا ثمنان أوروبا بأنواع السكر الناعم و المقطع "الرقائق" أو بشكل حلوى^(٨). كما صدرت دمشق إلى أوروبا المنسوجات الحريرية بمختلف أنواعها حيث كانت المدينة مركزا رئيسا لصناعتها^(٩)، فلم يكن إنتاجها من المنسوجات للاستهلاك المحلي فحسب، بل للتصدير الخارجي الواسع النطاق^(١٠)، ويضاف إلى الصادرات النحاس المكفت والزجاج^(١١).

(١) قساطلي ١٢٥٤ عثمان ٧١.

(٢) أبو دعة ٢٤٩.

(٣) القلقشندي، صبح ٣٨٣/٥.

(٤) زيتون ٢٣٣-٢٣٤.

(٥) أبو دعة ٢٥٠.

(٦) فهمي ٢٢٥.

(٧) زيتون ٢٣٨-٢٣٩؛ زيادة، دمشق ١٣٤.

(٨) حقي، لبنان ٤١٤.

(٩) الحميري ٢٤٠؛ زيتون ٢٢٨؛ لابلوس ٤٥.

(١٠) أبو دعة ٢٤٩.

(١١) الحموي، دمشق ٤٤٢؛ لابلوس ٤٥؛ غوامه، دراسات ٢٤٣.

ونتيجة لعمل المسلمين في التجارة الخارجية فقد أثرى الكثير من التجار وامتلكوا الأموال الطائلة^(١). ولم يكن المسلمون وحدهم من سكان نيابة دمشق الذين يعملون في التجارة، بل كان لأهل الذمة دور مهم في التجارة الداخلية والخارجية طيلة العصر المملوكي، حيث مارسوا مهنة التجارة بحرية تامة وذلك لتمتعهم بسياسة التسامح الديني من قبل سلاطين المماليك^(٢)، وفي هذا المضمار يذكر بنيامين التطيلي حينما زار دمشق ما بين عامي ٥٦١-٥٦٩هـ/١١٦٥-١١٧٣م أنه وجد بها ثلاثة آلاف يهودي، وكان معظمهم من التجار الكبار^(٣)، كما وجد فيها أعدادا كبيرة من النصارى^(٤).

العملة في نيابة دمشق :

إن العملة المستخدمة تعبر عن قوة السلطة و الدولة، وكلما كانت قيمة العملة مرتفعة كلما كان اقتصاد الدولة ممتازا و دليلا على استقرار الأوضاع الداخلية و الخارجية^(٥). وقد وجدت بمدينة دمشق دار ضرب لسك النقود أسفل القلعة^(٦). وكانت عملة نيابة دمشق مكونة من الدينار المصرية وزنا، و الدينار الإفريقية^(٧) عدا، و الدراهم^(٨) النقرة^(٩) وزنا.

(١) الذهبي، ذبيل ٤/٣٣، ابن كثير ١٤/٨٣، ٨٦، ٩٧، ١٢٥، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٨، ١٤٦، ابن حجر، السور ٢/١٣٣، ٣٠٠، ٣١٤، ٣٢٩، ٣٧٢، ٣٨٧، ٣٩٥، ٤٠٣، ٤١٥، ٤١٧، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٣، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥١٠، ٥١١، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٦، ٥١٧، ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣١، ٥٣٢، ٥٣٣، ٥٣٤، ٥٣٥، ٥٣٦، ٥٣٧، ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٤٠، ٥٤١، ٥٤٢، ٥٤٣، ٥٤٤، ٥٤٥، ٥٤٦، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥١، ٥٥٢، ٥٥٣، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٥٦، ٥٥٧، ٥٥٨، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦١، ٥٦٢، ٥٦٣، ٥٦٤، ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٧، ٥٦٨، ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧١، ٥٧٢، ٥٧٣، ٥٧٤، ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥٧٩، ٥٨٠، ٥٨١، ٥٨٢، ٥٨٣، ٥٨٤، ٥٨٥، ٥٨٦، ٥٨٧، ٥٨٨، ٥٨٩، ٥٩٠، ٥٩١، ٥٩٢، ٥٩٣، ٥٩٤، ٥٩٥، ٥٩٦، ٥٩٧، ٥٩٨، ٥٩٩، ٦٠٠، ٦٠١، ٦٠٢، ٦٠٣، ٦٠٤، ٦٠٥، ٦٠٦، ٦٠٧، ٦٠٨، ٦٠٩، ٦١٠، ٦١١، ٦١٢، ٦١٣، ٦١٤، ٦١٥، ٦١٦، ٦١٧، ٦١٨، ٦١٩، ٦٢٠، ٦٢١، ٦٢٢، ٦٢٣، ٦٢٤، ٦٢٥، ٦٢٦، ٦٢٧، ٦٢٨، ٦٢٩، ٦٣٠، ٦٣١، ٦٣٢، ٦٣٣، ٦٣٤، ٦٣٥، ٦٣٦، ٦٣٧، ٦٣٨، ٦٣٩، ٦٤٠، ٦٤١، ٦٤٢، ٦٤٣، ٦٤٤، ٦٤٥، ٦٤٦، ٦٤٧، ٦٤٨، ٦٤٩، ٦٥٠، ٦٥١، ٦٥٢، ٦٥٣، ٦٥٤، ٦٥٥، ٦٥٦، ٦٥٧، ٦٥٨، ٦٥٩، ٦٦٠، ٦٦١، ٦٦٢، ٦٦٣، ٦٦٤، ٦٦٥، ٦٦٦، ٦٦٧، ٦٦٨، ٦٦٩، ٦٧٠، ٦٧١، ٦٧٢، ٦٧٣، ٦٧٤، ٦٧٥، ٦٧٦، ٦٧٧، ٦٧٨، ٦٧٩، ٦٨٠، ٦٨١، ٦٨٢، ٦٨٣، ٦٨٤، ٦٨٥، ٦٨٦، ٦٨٧، ٦٨٨، ٦٨٩، ٦٩٠، ٦٩١، ٦٩٢، ٦٩٣، ٦٩٤، ٦٩٥، ٦٩٦، ٦٩٧، ٦٩٨، ٦٩٩، ٧٠٠، ٧٠١، ٧٠٢، ٧٠٣، ٧٠٤، ٧٠٥، ٧٠٦، ٧٠٧، ٧٠٨، ٧٠٩، ٧١٠، ٧١١، ٧١٢، ٧١٣، ٧١٤، ٧١٥، ٧١٦، ٧١٧، ٧١٨، ٧١٩، ٧٢٠، ٧٢١، ٧٢٢، ٧٢٣، ٧٢٤، ٧٢٥، ٧٢٦، ٧٢٧، ٧٢٨، ٧٢٩، ٧٣٠، ٧٣١، ٧٣٢، ٧٣٣، ٧٣٤، ٧٣٥، ٧٣٦، ٧٣٧، ٧٣٨، ٧٣٩، ٧٤٠، ٧٤١، ٧٤٢، ٧٤٣، ٧٤٤، ٧٤٥، ٧٤٦، ٧٤٧، ٧٤٨، ٧٤٩، ٧٥٠، ٧٥١، ٧٥٢، ٧٥٣، ٧٥٤، ٧٥٥، ٧٥٦، ٧٥٧، ٧٥٨، ٧٥٩، ٧٦٠، ٧٦١، ٧٦٢، ٧٦٣، ٧٦٤، ٧٦٥، ٧٦٦، ٧٦٧، ٧٦٨، ٧٦٩، ٧٧٠، ٧٧١، ٧٧٢، ٧٧٣، ٧٧٤، ٧٧٥، ٧٧٦، ٧٧٧، ٧٧٨، ٧٧٩، ٧٨٠، ٧٨١، ٧٨٢، ٧٨٣، ٧٨٤، ٧٨٥، ٧٨٦، ٧٨٧، ٧٨٨، ٧٨٩، ٧٩٠، ٧٩١، ٧٩٢، ٧٩٣، ٧٩٤، ٧٩٥، ٧٩٦، ٧٩٧، ٧٩٨، ٧٩٩، ٨٠٠، ٨٠١، ٨٠٢، ٨٠٣، ٨٠٤، ٨٠٥، ٨٠٦، ٨٠٧، ٨٠٨، ٨٠٩، ٨١٠، ٨١١، ٨١٢، ٨١٣، ٨١٤، ٨١٥، ٨١٦، ٨١٧، ٨١٨، ٨١٩، ٨٢٠، ٨٢١، ٨٢٢، ٨٢٣، ٨٢٤، ٨٢٥، ٨٢٦، ٨٢٧، ٨٢٨، ٨٢٩، ٨٣٠، ٨٣١، ٨٣٢، ٨٣٣، ٨٣٤، ٨٣٥، ٨٣٦، ٨٣٧، ٨٣٨، ٨٣٩، ٨٤٠، ٨٤١، ٨٤٢، ٨٤٣، ٨٤٤، ٨٤٥، ٨٤٦، ٨٤٧، ٨٤٨، ٨٤٩، ٨٥٠، ٨٥١، ٨٥٢، ٨٥٣، ٨٥٤، ٨٥٥، ٨٥٦، ٨٥٧، ٨٥٨، ٨٥٩، ٨٦٠، ٨٦١، ٨٦٢، ٨٦٣، ٨٦٤، ٨٦٥، ٨٦٦، ٨٦٧، ٨٦٨، ٨٦٩، ٨٧٠، ٨٧١، ٨٧٢، ٨٧٣، ٨٧٤، ٨٧٥، ٨٧٦، ٨٧٧، ٨٧٨، ٨٧٩، ٨٨٠، ٨٨١، ٨٨٢، ٨٨٣، ٨٨٤، ٨٨٥، ٨٨٦، ٨٨٧، ٨٨٨، ٨٨٩، ٨٩٠، ٨٩١، ٨٩٢، ٨٩٣، ٨٩٤، ٨٩٥، ٨٩٦، ٨٩٧، ٨٩٨، ٨٩٩، ٩٠٠، ٩٠١، ٩٠٢، ٩٠٣، ٩٠٤، ٩٠٥، ٩٠٦، ٩٠٧، ٩٠٨، ٩٠٩، ٩١٠، ٩١١، ٩١٢، ٩١٣، ٩١٤، ٩١٥، ٩١٦، ٩١٧، ٩١٨، ٩١٩، ٩٢٠، ٩٢١، ٩٢٢، ٩٢٣، ٩٢٤، ٩٢٥، ٩٢٦، ٩٢٧، ٩٢٨، ٩٢٩، ٩٣٠، ٩٣١، ٩٣٢، ٩٣٣، ٩٣٤، ٩٣٥، ٩٣٦، ٩٣٧، ٩٣٨، ٩٣٩، ٩٤٠، ٩٤١، ٩٤٢، ٩٤٣، ٩٤٤، ٩٤٥، ٩٤٦، ٩٤٧، ٩٤٨، ٩٤٩، ٩٥٠، ٩٥١، ٩٥٢، ٩٥٣، ٩٥٤، ٩٥٥، ٩٥٦، ٩٥٧، ٩٥٨، ٩٥٩، ٩٦٠، ٩٦١، ٩٦٢، ٩٦٣، ٩٦٤، ٩٦٥، ٩٦٦، ٩٦٧، ٩٦٨، ٩٦٩، ٩٧٠، ٩٧١، ٩٧٢، ٩٧٣، ٩٧٤، ٩٧٥، ٩٧٦، ٩٧٧، ٩٧٨، ٩٧٩، ٩٨٠، ٩٨١، ٩٨٢، ٩٨٣، ٩٨٤، ٩٨٥، ٩٨٦، ٩٨٧، ٩٨٨، ٩٨٩، ٩٩٠، ٩٩١، ٩٩٢، ٩٩٣، ٩٩٤، ٩٩٥، ٩٩٦، ٩٩٧، ٩٩٨، ٩٩٩، ١٠٠٠، ١٠٠١، ١٠٠٢، ١٠٠٣، ١٠٠٤، ١٠٠٥، ١٠٠٦، ١٠٠٧، ١٠٠٨، ١٠٠٩، ١٠١٠، ١٠١١، ١٠١٢، ١٠١٣، ١٠١٤، ١٠١٥، ١٠١٦، ١٠١٧، ١٠١٨، ١٠١٩، ١٠٢٠، ١٠٢١، ١٠٢٢، ١٠٢٣، ١٠٢٤، ١٠٢٥، ١٠٢٦، ١٠٢٧، ١٠٢٨، ١٠٢٩، ١٠٣٠، ١٠٣١، ١٠٣٢، ١٠٣٣، ١٠٣٤، ١٠٣٥، ١٠٣٦، ١٠٣٧، ١٠٣٨، ١٠٣٩، ١٠٤٠، ١٠٤١، ١٠٤٢، ١٠٤٣، ١٠٤٤، ١٠٤٥، ١٠٤٦، ١٠٤٧، ١٠٤٨، ١٠٤٩، ١٠٥٠، ١٠٥١، ١٠٥٢، ١٠٥٣، ١٠٥٤، ١٠٥٥، ١٠٥٦، ١٠٥٧، ١٠٥٨، ١٠٥٩، ١٠٦٠، ١٠٦١، ١٠٦٢، ١٠٦٣، ١٠٦٤، ١٠٦٥، ١٠٦٦، ١٠٦٧، ١٠٦٨، ١٠٦٩، ١٠٧٠، ١٠٧١، ١٠٧٢، ١٠٧٣، ١٠٧٤، ١٠٧٥، ١٠٧٦، ١٠٧٧، ١٠٧٨، ١٠٧٩، ١٠٨٠، ١٠٨١، ١٠٨٢، ١٠٨٣، ١٠٨٤، ١٠٨٥، ١٠٨٦، ١٠٨٧، ١٠٨٨، ١٠٨٩، ١٠٩٠، ١٠٩١، ١٠٩٢، ١٠٩٣، ١٠٩٤، ١٠٩٥، ١٠٩٦، ١٠٩٧، ١٠٩٨، ١٠٩٩، ١١٠٠، ١١٠١، ١١٠٢، ١١٠٣، ١١٠٤، ١١٠٥، ١١٠٦، ١١٠٧، ١١٠٨، ١١٠٩، ١١١٠، ١١١١، ١١١٢، ١١١٣، ١١١٤، ١١١٥، ١١١٦، ١١١٧، ١١١٨، ١١١٩، ١١٢٠، ١١٢١، ١١٢٢، ١١٢٣، ١١٢٤، ١١٢٥، ١١٢٦، ١١٢٧، ١١٢٨، ١١٢٩، ١١٣٠، ١١٣١، ١١٣٢، ١١٣٣، ١١٣٤، ١١٣٥، ١١٣٦، ١١٣٧، ١١٣٨، ١١٣٩، ١١٤٠، ١١٤١، ١١٤٢، ١١٤٣، ١١٤٤، ١١٤٥، ١١٤٦، ١١٤٧، ١١٤٨، ١١٤٩، ١١٥٠، ١١٥١، ١١٥٢، ١١٥٣، ١١٥٤، ١١٥٥، ١١٥٦، ١١٥٧، ١١٥٨، ١١٥٩، ١١٦٠، ١١٦١، ١١٦٢، ١١٦٣، ١١٦٤، ١١٦٥، ١١٦٦، ١١٦٧، ١١٦٨، ١١٦٩، ١١٧٠، ١١٧١، ١١٧٢، ١١٧٣، ١١٧٤، ١١٧٥، ١١٧٦، ١١٧٧، ١١٧٨، ١١٧٩، ١١٨٠، ١١٨١، ١١٨٢، ١١٨٣، ١١٨٤، ١١٨٥، ١١٨٦، ١١٨٧، ١١٨٨، ١١٨٩، ١١٩٠، ١١٩١، ١١٩٢، ١١٩٣، ١١٩٤، ١١٩٥، ١١٩٦، ١١٩٧، ١١٩٨، ١١٩٩، ١٢٠٠، ١٢٠١، ١٢٠٢، ١٢٠٣، ١٢٠٤، ١٢٠٥، ١٢٠٦، ١٢٠٧، ١٢٠٨، ١٢٠٩، ١٢١٠، ١٢١١، ١٢١٢، ١٢١٣، ١٢١٤، ١٢١٥، ١٢١٦، ١٢١٧، ١٢١٨، ١٢١٩، ١٢٢٠، ١٢٢١، ١٢٢٢، ١٢٢٣، ١٢٢٤، ١٢٢٥، ١٢٢٦، ١٢٢٧، ١٢٢٨، ١٢٢٩، ١٢٣٠، ١٢٣١، ١٢٣٢، ١٢٣٣، ١٢٣٤، ١٢٣٥، ١٢٣٦، ١٢٣٧، ١٢٣٨، ١٢٣٩، ١٢٤٠، ١٢٤١، ١٢٤٢، ١٢٤٣، ١٢٤٤، ١٢٤٥، ١٢٤٦، ١٢٤٧، ١٢٤٨، ١٢٤٩، ١٢٥٠، ١٢٥١، ١٢٥٢، ١٢٥٣، ١٢٥٤، ١٢٥٥، ١٢٥٦، ١٢٥٧، ١٢٥٨، ١٢٥٩، ١٢٦٠، ١٢٦١، ١٢٦٢، ١٢٦٣، ١٢٦٤، ١٢٦٥، ١٢٦٦، ١٢٦٧، ١٢٦٨، ١٢٦٩، ١٢٧٠، ١٢٧١، ١٢٧٢، ١٢٧٣، ١٢٧٤، ١٢٧٥، ١٢٧٦، ١٢٧٧، ١٢٧٨، ١٢٧٩، ١٢٨٠، ١٢٨١، ١٢٨٢، ١٢٨٣، ١٢٨٤، ١٢٨٥، ١٢٨٦، ١٢٨٧، ١٢٨٨، ١٢٨٩، ١٢٩٠، ١٢٩١، ١٢٩٢، ١٢٩٣، ١٢٩٤، ١٢٩٥، ١٢٩٦، ١٢٩٧، ١٢٩٨، ١٢٩٩، ١٣٠٠، ١٣٠١، ١٣٠٢، ١٣٠٣، ١٣٠٤، ١٣٠٥، ١٣٠٦، ١٣٠٧، ١٣٠٨، ١٣٠٩، ١٣١٠، ١٣١١، ١٣١٢، ١٣١٣، ١٣١٤، ١٣١٥، ١٣١٦، ١٣١٧، ١٣١٨، ١٣١٩، ١٣٢٠، ١٣٢١، ١٣٢٢، ١٣٢٣، ١٣٢٤، ١٣٢٥، ١٣٢٦، ١٣٢٧، ١٣٢٨، ١٣٢٩، ١٣٣٠، ١٣٣١، ١٣٣٢، ١٣٣٣، ١٣٣٤، ١٣٣٥، ١٣٣٦، ١٣٣٧، ١٣٣٨، ١٣٣٩، ١٣٤٠، ١٣٤١، ١٣٤٢، ١٣٤٣، ١٣٤٤، ١٣٤٥، ١٣٤٦، ١٣٤٧، ١٣٤٨، ١٣٤٩، ١٣٥٠، ١٣٥١، ١٣٥٢، ١٣٥٣، ١٣٥٤، ١٣٥٥، ١٣٥٦، ١٣٥٧، ١٣٥٨، ١٣٥٩، ١٣٦٠، ١٣٦١، ١٣٦٢، ١٣٦٣، ١٣٦٤، ١٣٦٥، ١٣٦٦، ١٣٦٧، ١٣٦٨، ١٣٦٩، ١٣٧٠، ١٣٧١، ١٣٧٢، ١٣٧٣، ١٣٧٤، ١٣٧٥، ١٣٧٦، ١٣٧٧، ١٣٧٨، ١٣٧٩، ١٣٨٠، ١٣٨١، ١٣٨٢، ١٣٨٣، ١٣٨٤، ١٣٨٥، ١٣٨٦، ١٣٨٧، ١٣٨٨، ١٣٨٩، ١٣٩٠، ١٣٩١، ١٣٩٢، ١٣٩٣، ١٣٩٤، ١٣٩٥، ١٣٩٦، ١٣٩٧، ١٣٩٨، ١٣٩٩، ١٤٠٠، ١٤٠١، ١٤٠٢، ١٤٠٣، ١٤٠٤، ١٤٠٥، ١٤٠٦، ١٤٠٧، ١٤٠٨، ١٤٠٩، ١٤١٠، ١٤١١، ١٤١٢، ١٤١٣، ١٤١٤، ١٤١٥، ١٤١٦، ١٤١٧، ١٤١٨، ١٤١٩، ١٤٢٠، ١٤٢١، ١٤٢٢، ١٤٢٣، ١٤٢٤، ١٤٢٥، ١٤٢٦، ١٤٢٧، ١٤٢٨، ١٤٢٩، ١٤٣٠، ١٤٣١، ١٤٣٢، ١٤٣٣، ١٤٣٤، ١٤٣٥، ١٤٣٦، ١٤٣٧، ١٤٣٨، ١٤٣٩، ١٤٤٠، ١٤٤١، ١٤٤٢، ١٤٤٣، ١٤٤٤، ١٤٤٥، ١٤٤٦، ١٤٤٧، ١٤٤٨، ١٤٤٩، ١٤٥٠، ١٤٥١، ١٤٥٢، ١٤٥٣، ١٤٥٤، ١٤٥٥، ١٤٥٦، ١٤٥٧، ١٤٥٨، ١٤٥٩، ١٤٦٠، ١٤٦١، ١٤٦٢، ١٤٦٣، ١٤٦٤، ١٤٦٥، ١٤٦٦، ١٤٦٧، ١٤٦٨، ١٤٦٩، ١٤٧٠، ١٤٧١، ١٤٧٢، ١٤٧٣، ١٤٧٤، ١٤٧٥، ١٤٧٦، ١٤٧٧، ١٤٧٨، ١٤٧٩، ١٤٨٠، ١٤٨١، ١٤٨٢، ١٤٨٣، ١٤٨٤، ١٤٨٥، ١٤٨٦، ١٤٨٧، ١٤٨٨، ١٤٨٩، ١٤٩٠، ١٤٩١، ١٤٩٢، ١٤٩٣، ١٤٩٤، ١٤٩٥، ١٤٩٦، ١٤٩٧، ١٤٩٨، ١٤٩٩، ١٥٠٠، ١٥٠١، ١٥٠٢، ١٥٠٣، ١٥٠٤، ١٥٠٥، ١٥٠٦، ١٥٠٧، ١٥٠٨، ١٥٠٩، ١٥١٠، ١٥١١، ١٥١٢، ١٥١٣، ١٥١٤، ١٥١٥، ١٥١٦، ١٥١٧، ١٥١٨، ١٥١٩، ١٥٢٠، ١٥٢١، ١٥٢٢، ١٥٢٣، ١٥٢٤، ١٥٢٥، ١٥٢٦، ١٥٢٧، ١٥٢٨، ١٥٢٩، ١٥٣٠، ١٥٣١، ١٥٣٢، ١٥٣٣، ١٥٣٤، ١٥٣٥، ١٥٣٦، ١٥٣٧، ١٥٣٨، ١٥٣٩، ١٥٤٠، ١٥٤١، ١٥٤٢، ١٥٤٣، ١٥٤٤، ١٥٤٥، ١٥٤٦، ١٥٤٧، ١٥٤٨، ١٥٤٩، ١٥٥٠، ١٥٥١، ١٥٥٢، ١٥٥٣، ١٥٥٤، ١٥٥٥، ١٥٥٦، ١٥٥٧، ١٥٥٨، ١٥٥٩، ١٥٦٠، ١٥٦١، ١٥٦٢، ١٥٦٣، ١٥٦٤، ١٥٦٥، ١٥٦٦، ١٥٦٧، ١٥٦٨، ١٥٦٩، ١٥٧٠، ١٥٧١، ١٥٧٢، ١٥٧٣، ١٥٧٤، ١٥٧٥، ١٥٧٦، ١٥٧٧، ١٥٧٨، ١٥٧٩، ١٥٨٠، ١٥٨١، ١٥٨٢، ١٥٨٣، ١٥٨٤، ١٥٨٥، ١٥٨٦، ١٥٨٧، ١٥٨٨، ١٥٨٩، ١٥٩٠، ١٥٩١، ١٥٩٢، ١٥٩٣، ١٥٩٤، ١٥٩٥، ١٥٩٦، ١٥٩٧، ١٥٩٨، ١٥٩٩، ١٦٠٠، ١٦٠١، ١٦٠٢، ١٦٠٣، ١٦٠٤، ١٦٠٥، ١٦٠٦، ١٦٠٧، ١٦٠٨، ١٦٠٩، ١٦١٠، ١٦١١، ١٦١٢، ١٦١٣، ١٦١٤، ١٦١٥، ١٦١٦، ١٦١٧، ١٦١٨، ١٦١٩، ١٦٢٠، ١٦٢١، ١٦٢٢، ١٦٢٣، ١٦٢٤، ١٦٢٥، ١٦٢٦، ١٦٢٧، ١٦٢٨، ١٦٢٩، ١٦٣٠، ١٦٣١، ١٦٣٢، ١٦٣٣، ١٦٣٤، ١٦٣٥، ١٦٣٦، ١٦٣٧، ١٦٣٨، ١٦٣٩، ١٦٤٠، ١٦٤١، ١٦٤٢، ١٦٤٣، ١٦٤٤، ١٦٤٥، ١٦٤٦، ١٦٤٧، ١٦٤٨، ١٦٤٩، ١٦٥٠، ١٦٥١، ١٦٥٢، ١٦٥٣، ١٦٥٤، ١٦٥٥، ١٦٥٦، ١٦٥٧، ١٦٥٨، ١٦٥٩، ١٦٦٠، ١٦٦١، ١٦٦٢، ١٦٦٣، ١٦٦٤، ١٦٦٥، ١٦٦٦، ١٦٦٧، ١٦٦٨، ١٦٦٩، ١٦٧٠، ١٦٧١، ١٦٧٢، ١٦٧٣، ١٦٧٤، ١٦٧٥، ١٦٧٦، ١٦٧٧، ١٦٧٨، ١٦٧٩، ١٦٨٠، ١٦٨١، ١٦٨٢، ١٦٨٣، ١٦٨٤، ١٦٨٥، ١٦٨٦، ١٦٨٧، ١٦٨٨، ١٦٨٩، ١٦٩٠، ١٦٩١، ١٦٩٢، ١٦٩٣، ١٦٩٤، ١٦٩٥، ١٦٩٦، ١٦٩٧، ١٦٩٨، ١٦٩٩، ١٧٠٠، ١٧٠١، ١٧٠٢، ١٧٠٣، ١٧٠٤، ١٧٠٥، ١٧٠

إلا أن الصنجة^(١) في أوزان الذهب بالديار المصرية تخالف الصنجة الشامية في ذلك، فتتقاص الصنجة الشامية عن المصرية كل مائة مثقال مثقال و ربع مثقال، وتتقاص صنجة الدراهم الشامية عن الصنجة المصرية كل مائة درهم درهم.

إضافة إلى الدنانير^(٢) والدراهم راجت الفلوس^(٣) الصغار بناية دمشق وكان يتعامل بها في الديار المصرية في الزمن الأول، وكل أربعة و ستين منها تعادل درهماً، ويعبر عن كل أربعة منها بحبة^(٤). ويلاحظ بأن الدرهم الفضي كان الوحدة النقدية الأساسية طيلة العهد المملوكي^(٥).

الأوزان :

يمثل الدرهم^(٦) القاعدة الأساسية في تقدير قيمة الأوزان و المكاييل، و يختلف درهم الكيل في عيار درهم وزن النقود^(٧).

و كانت صنجة دمشق تنقص عن صنجة القاهرة درهماً واحداً من كل مائة درهم^(٨)، و بحساب الفرق بينهما فقد أشار هنتز إلى أن الدرهم المصري المعتر في الوزن يساوي ٣١١٥ غم، و درهم دمشق يساوي ٣٠٨٦ ر غم^(٩).

(١) الصنجة: أوزان خاصة من الزجاج طبع عليها شكل الدرهم أو الدينار لتعيين أوزان النقود. (السديري ٢١١) ذكر المقرئزي أن المقصود بالصنجة هو العيار. (المقرئزي، شلنور ١١٣).

(٢) الدينار النقرة: هو العملة الذهبية، تعرض كغيره من أنواع العملة إلى التعديل في وزنه، و العادة أن يكون مثقالاً، لكن وجد من السلاطين من ضرب دنانير تقل عن المثقال و تزيد مثل السلطان فرج بن برقوق (٨٠١-٨٠٨هـ/١٣٩٨-١٤٠٥م)، إذ تراوحت أوزان الدنانير التي ضربها بين مثقالين و مثقال و نصف مثقال و ربع مثقال، و تبعاً لاختلاف الأوزان و نسبة ما فيها من معادن أخرى غير الذهب اختلفت قيم الدينار من الدراهم التي يقدر بها، فمثلاً قدر دينار ببيرس بـ ٢٨ درهماً و دينار الناصر بـ ٢٥ درهماً من الدراهم الجديدة أو البيض غير النقرة و هكذا. (المقرئزي، السلوك ٣٢٠، ٢/٢؛ زامبارو، دينار ٤٩٦٨/١٦-٤٩٧٠؛

Rabie 192_193.

(٣) الفلوس: جمع فلس وأصلها أفلس، و كان الفلوس يساوي حوالي ثلاثة من المليمات العصرية المصرية، و يزن ٧٢ سنتغراماً و هو من النحاس (الكرملي ٧٤)؛

Rabie 195.

(٤) القلقشندي، صبح ١٨٧/٤.

الحبة: قد يراد بها حبة الشعير، و كثيراً ما يستعمل المنتشرة حبة الشعير في الأوزان و المقادير و المراد بها الوسطى من حب الشعير، و قد يراد بالحبة حبة القمح. (المقرئزي، شلنور ١٥٣-١٥٤؛ هنتز ٢٥٠).

(٥) لبينة ٢١٤؛ العلي، دمشق ٢٤٣.

(٦) الدرهم: اسم وزن من الأوزان ((درهم كيل)) يبلغ ٣.١٨٤ من الجرامات، و هو يختلف اختلافاً بيناً عن السكة المعروفة بهذا الاسم، و قد بقي هذا الكيل و إن اختلف من بلد إلى بلد حتى العصور الحديثة، يستعمله الصيدي و الصائغ، و قد وجده الفرنسيون إبان حملتهم على مصر مستعملاً في القاهرة عام ١٧٩٩م بالغا وزنه ٣.٠٨٤ من الجرامات و وحدته اللجنة التي عقدت عام ١٨٤٥م بـ ٣.٠٨٩٨ من الجرامات و يبلغ وزنه القانوني في استنبول اليوم ٢.٠٧ ر ٣ من الجرامات. (زامبارو، درهم ٤٨٩٨/١٦-٤٩٠٠).

(٧) هنتز ١١.

(٨) العمري، مسالك، دولة ٤٨١ القلقشندي، صبح ١٨٧/٤؛ هنتز ١١.

(٩) هنتز ١٢، ١١.

وقد عرفت دمشق عدة أوزان أهمها :

الرطل والأوقية :

يعد الرطل من الأوزان التي شاع استعمالها في نيابة دمشق في العصر المملوكي، وكانت الأوقية—وهي من مشتقاته—تساوي ١٢/١ منه، واعتمدت أساساً في عمليات البيع والشراء^(١).

وكان الرطل الدمشقي يساوي أربعة أرطال مصرية^(٢)، وهو ستمائة درهم بدرهم دمشق، ويتألف من اثني عشرة أوقية كل أوقية خمسون درهماً^(٣)، وبحساب الدرهم الدمشقي (٣٠٨٦ رغم) يكون رطل دمشق حوالي ١٨٥٢ رغم^(٤).

وقد استخدم الرطل في دمشق في بيع الخبز^(٥)، واللحم^(٦)، والفواكه^(٧)، والطحين^(٨).

القنطار :

كان القنطار متساوياً في الوزن في جميع المدن المملوكية، وهو مائة رطل^(٩)، وجاء الاختلاف بوزنه بحسب رطل كل مدينة والتي اختلف الرطل فيها عن الأخرى^(١٠).

وقد أشار آشور استناداً إلى المصادر الأوروبية أن قنطار دمشق يساوي ١٧٧—١٧٩ كغم، وهناك إشارات أخرى إلى قنطار أكبر لدمشق يعادل حوالي ١٨٤ كغم^(١١)، وهو قريب من الرقم الذي حدده هنتز لهذا القنطار ويساوي ١٨٥ كغم^(١٢).

المكايل :

الغراة و المد :

الغراة مكيال دمشقي يماثل الأردب المصري باعتماده كأساس لكيال الغلال، وهي تعادل ثلاثة أراذب مصرية^(١٣)، و تساوي اثني عشر كيلا، كل كيال ستة أمداد^(١٤)، أي ما يعادل ٧٢ مدا و المد ينقص

(١) خليل ١٩١.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم ١٣/١٦٥.

(٣) العمري، مسالك، دولة ٤٨١ القلقشندي، صبح ٤٠/١٨٧—١٨٨، العلي، دمشق ٢٤٠.

(٤) خليل ١٩٢.

(٥) ابن صصري ٧٥، ١٠٠، ١١٦، ١١٦، الأسد، التيسير ٤٣/٤١٤٣ ابن الشحنة، الدر ٤٨.

(٦) ابن صصري ٧٠، ١٣٧، ٢٢٦—٢٢٧.

(٧) المصدر نفسه ١٤٠.

(٨) المصدر نفسه ٢٠٢.

(٩) القلقشندي، صبح ٣/٥١١، ٥١٢، المقرئ، السلوك ٤/٩٤٢، ٢/٤، العلي، دمشق ٢٤١; Ashtor, Makayil 6/117;

(١٠) خليل ١٩٣.

(١١) Ashtor, Levantine weights 477.

(١٢) هنتز ٤٤.

(١٣) القلقشندي، صبح ٤/٢٠٥; Ashtor, Makayil 6/118;

(١٤) العمري، مسالك، دولة ٤٨١ القلقشندي، صبح ٤/١٨٨، العلي، دمشق ٢٤٢—٢٤٣; Ashtor, Makayil 6/118;

قليلا عن ربع الوية المصرية^(١)، وهو أربعة أقداح^(٢)، والقده حسب رواية القلقشندي^(٣) يساوي ٢٣٢ درهما، فيكون المد ٩٢٨ درهما، وبحساب الدرهم الدمشقي (٣٠٨٦ رغم) يساوي المد ٢٨٦ رگم، والغرارة بحسابه ٢٠٦ ر١٩٤ رگم، أما آشور فيرى أن الغرارة الدمشقية وزن ٢٠٨ ر٧٤ رگم^(٤).

ويورد القلقشندي رواية أخرى يبين فيها أن كل غرارة ومد ونصف تساوي ثلاثة أرادب بالكيل المصري تحريرا على الدمشقي^(٥)، فيكون الأردب بحساب الغرارة في دمشق ٧٠١٦ رگم، أما في مصر وبحساب الدرهم المصري ٦٩٦ رگم، ويشير القلقشندي بهذا الصدد أنه لا يتم التحويل بنسبة الأردب إلى الغرارة، بل يكال بوزن أهل البلد^(٦)، فالتاجر المصري يشتري من دمشق بالغرارة و الدمشقي يشتري من مصر بالأردب، ويبيع كل منهما بمكيال أهل البلد الذي يتعامل معه^(٧).

و ربما زادت الغرارة في بر دمشق عن الغرارة الدمشقية، حتى يكثر التفاوت ما بينهما لعظم زيادة بعض المواضع^(٨).

المقاييس :

استخدم الذراع^(٩) لقياس القماش و قياس أرض الدور، و كان ذراع دمشق يزيد على ذراع القاهرة بمقدار نصف السدس وهو قيراطان^(١٠)، فإذا عرفنا أن ذراع البر في القاهرة يساوي ١٨٧ ر٥٨ سم^(١١)، فإن الذراع الدمشقي يساوي ٦٣ ر٣٥ سم^(١٢).

(١) العمري، مسالك، دولة ٨١؛ القلقشندي، صبح ١٨٧/٤-١٨٨؛ هنتر ٦٤.

(٢) المقرئ، السلوك ٣/٣٠٤٨، ابن تيري بردي، التحوم ١٢/٢٤٢.

(٣) القلقشندي، صبح ٥١٢/٣.

(٤)

Ashtor, Makayil 6/118.

(٥) القلقشندي، صبح ١٨٧/٤-١٨٨.

(٦) المصدر نفسه ١٨٧/٤-١٨٨.

(٧) خليل ١٩٨.

(٨) العمري، مسالك، دولة ٨٢؛ خليل ١٩٨.

(٩) ذكر القلقشندي في كتابه ((صبح الأعشى)) أن الذراع نوعان: ذراع يستعمل في قياس البنان من الدور وغيرها، و ذراع يستعمل في قياس الأقمشة، أما الأول فقد كان يطلق عليه اسم ((ذراع العمل)) وهو الذراع التي كانت تقاس به أرض البنان من الدور وغيرها، و طول هذا الذراع ثلاثة أشبار بشر رجل معتدل، أما الذراع الثاني فقد كان يساوي ذراعا بذرار اليد وأربعة أصابع مطبوعة.

(القلقشندي، صبح ٥١٣/٣-٥١٤).

(١٠) القلقشندي، صبح ١٨٧/٤-١٨٨؛ هنتر ٨٥.

(١١) هنتر ٨٤.

(١٢) خليل ٢٠٢.

أما أراضيها فكانت تمسح بالفدان الإسلامي و الفدان الرومي^(١).

الأسعار :

تحدث القلقشندي عن الأسعار في نيابة دمشق قائلا : «...و أما سعرها :فسعر اللحم بما أرخص من مصر و الدجاج و الإوز أغلى من مصر، وكذلك السكر... ولا خفاء في أن الفاكهة فيها أرخص من مصر بالقدر الكبير، و القمح و الشعير و الباقلاء نحو من سعر مصر، و ذلك كله عند اعتدال الأسعار،أما في حالة الغلاء فيختلف الحال بحسبه»^(٢).

وبشكل عام ليس لدينا معلومات محددة خاصة بالأسعار في نيابة دمشق، ولكن يمكننا أن تبين ذلك من خلال المعلومات المتوفرة عن الأسعار في مصر،و التي لم تكن تختلف كثيرا عن الأسعار في الشام بما فيها نيابة دمشق،فقد كان سعر ١٠٠ كغم من القمح في الفترة ما بين ١٢٥٠م-١٣٠٠م ١٣٠٠م ١٠٧دينار، وكان يعادل ٠.٨٥دينار في الفترة ما بين ١٣٠٠-١٣٥٠م^(٣).

وكان سعر رطل الخبز في نهاية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي نحو ٠.٠٤١دينار وارتفع إلى ٠.٠٣٣-٠.٠٣٠. خلال النصف الأول من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي^(٤).

أما اللحم فإن سعر متوسط رطله من الضأن كان يساوي حوالي ٠.٢٥-٠.٣٠دينار، وذلك في النصف الأول من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، ثم ارتفع إلى ٣-٠.٤٠دينار في بداية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي^(٥).

أما السكر فقد كان سعره مرتفعا جدا، إذ بلغ سعر القنطار الدمشقي (١٨٥) كغم في مطلع القرن التاسع حوالي ٥٠دينار^(٦).

ويلاحظ بأن الأسعار كانت ترتفع بحدة في سنوات القحط، وعند ظهور الآفات في نيابة دمشق

وعموم بلاد الشام.

(١)القلقشندي،صبح ٤/٢٢٣،٢٢٤،٢٤٦،٢٤٧.

الفدان الإسلامي و الفدان الرومي: ذكر القلقشندي أن الفدان الإسلامي يساوي أربعمائة قصبة مربعة. (القلقشندي،صبح،٣/٥١٣)، فتكون مساحة الفدان في العصور الوسطى ٦٣٦٨ متر مربع. (هنتز ٩٧-٩٨)، وعند العودة إلى قانون نامة بلاد الشام في القرن الحادي عشر نجد أنه يذكر مايلي: ((و الفدان هو الزوج من الثيران للحرث،و الفدان أنواع منها: (الفدان الروماني) و (الفدان الإسلامي)،و (فدان الحراث)،و (فدان الأرض)،فالفدان الروماني:هو مقدار ما يحرثه الزوج من الثيران من الأرض في يوم و ليله،و الفدان الإسلامي هو ما يستطيع أن يحرثه الفدان في يوم كامل و يقال له أيضا (الفدان العربي)، و ما يحرثه الفدان حتى وقت الظهر فهو فدان الحراث و يقال له فدان الأرض)). (عطا لله ١٠٥،ح ٤٠).

(٢)القلقشندي،صبح ٤/١٨٨.

(٣)أشتور ٣٨٥؛ الطراونه ١٨٨.

(٤)أشتور ٣٨٥؛ الطراونه ١٨٨.

(٥)أشتور ٣٨٥.

(٦)الطراونه ١٨٩.

ففي سنة ٧٢٤هـ/ ١٣٢٤م أصاب دمشق غلاء مفرط في الأسعار بسبب القحط، فبلغت غرارة القمح ٢٢٠ درهم (٢٢ دينار) وقلت الأقوات واستمر ذلك عدة شهور، فأمر السلطان أمراه بنقل القمح من مصر إلى بلاد الشام فانحط سعر القمح حتى بلغت الغرارة ثمانين درهما^(١).

كما حصل الغلاء في أسعار القمح عام ٧٣٥هـ/ ١٣٣٥م في نيابة دمشق فقد بلغ سعر الغرارة في مدينة دمشق ١٧٠ درهم (١٧ ديناراً) فأرسل السلطان الغلال مرة أخرى من مصر إلى الشام^(٢).
الضرائب:

جباية الضرائب هي إحدى المهام الموكلة للنيابات في عهد السلطنة المملوكية، وكانت كل نيابة تقوم بجمع الضرائب بأنواعها من السكان.

وقد وردت إشارات متعددة لأنواع الضرائب التي كانت تجبى من السكان في فترة الدراسة، وهي:

١- الخراج: وتعني الضريبة السنوية المفروضة على إنتاج الأرض من كروم وعنب وزيتون وأرز وغيرها^(٣).

٢- العشر: وهي قيمة ما يدفعه المسلم عن محاصيله وثماره، مقابل أنها زكاة أو صدقة^(٤).

٣- الهلالية أو المشاهرة: وهي تلك الضريبة التي كانت تؤخذ من الفرد بداية كل شهر، وسميت هلالية لأنها تجبى مع بزوغ هلال كل شهر، وكانت تفرض على النطرون، والمراعي، ومصائد الأسماك، والحشائش، ومزارع قصب السكر، والأفران، والطواحين الدائرة، والأملاك المسقفة وغيرها^(٥).

٤- ضريبة الجزية: فرضت على أهل الذمة (يهودا ونصارى)، وكانت الجزية هي الشرط الأساسي في عقد الذمة، وكان يتولى جبايتها ناظر يعين من جهة السلطان ويساعده موظفون آخرون^(٦).

٥- ضريبة المراعي: وهي ضريبة شهرية يدفعها أصحاب المواشي في المناطق التي جعلتها الدولة مراعي للغنم والماعز والمواشي بأنواعها، مقابل رعيها من نبات الأرض^(٧).

٦- ضريبة الضيافة ورسم الأعياد والخميس^(٨): وهي التي كانت تحصل في كل شهر من الفلاحين لصاحب الإقطاع، وتشتمل بعض منتجات الفلاحين من غلة ودجاج وكشك وخراف وغيرها.

٧- ضريبة زكاة الدولة أو رسم الطواحين: ضريبة تؤخذ من المستفيدين من وسائل الري المختلفة في

(١) الذهبي، دول ٢٣٢/٢، ذبول ٤/٦٩؛ ابن كثير ١٤/٩١، المقرئ، السلوك ٢/٢٥٤، ١١٦.

(٢) اليوسفي ٢٣٦.

(٣) (الأسدي، التيسر ١٩١؛ الفلقشندي، صبح ١/٤٨٢، ٣/٥٣٩، ١٣/١٢٢؛ البقلي، التعريف ١١٦.

(٤) النويري ٨/٢٥٩.

(٥) النويري ٨/٢٢٨-٢٧١؛ الفلقشندي، صبح ٣/٥٣٩، ح ٣.

(٦) الفلقشندي، صبح ٣/٥٣٠؛ حجازي ٧٩.

(٧) النويري ٨/٢٦٢.

(٨) النويري ٨/٢٦٢؛ طرخان ٢٥٠-٢٨١.

ثانيا : خط البريد ما بين دمشق و البيرة :

أ. محطات البريد كما وردت عند العمري^(١) :

١. دمشق، ٢. القصير، ٣. القطيفة، ٤. القسطل، ٥. قارا، ٦. بريح العطش، ٧. الغسولة، ٨. شمسين، ٩. حمص، ١٠. الرستن، ١١. حماة، ١٢. لطمين، ١٣. جرابلس، ١٤. المعرة، ١٥. إنقرثا، ١٦. أباد، ١٧. قنسرين، ١٨. حلب، ١٩. الباب، ٢٠. الساجور، ٢١. البيرة.

ب. الطريق نفسها كما وردت عند الظاهري^(٢):

١. دمشق، ٢. القصير، ٣. القطيفة، ٤. القسطل، ٥. قارا، ٦. الغسولة، ٧. شمسين، ٨. حمص، ٩. الرستن، ١٠. حماة، ١١. لطمين، ١٢. جرابلس، ١٣. المعرة، ١٤. أبعاد، ١٥. أماد، ١٦. قنسرين، ١٧. حلب، ١٨. الباب، ١٩. بيت برة، ٢٠. البيرة.

أما القلقشندي فلم يتحدث عن هذه الطريق .

ثالثا: خط البريد ما بين دمشق والرحبة:

أ. محطات البريد لهذا الخط كما وردت عند العمري^(٣) :

١. دمشق، ٢. القطيفة، ٣. العطنة_ ليس بها مركز بل خان، ٤. جليجل، ٥. المصنع، ٦. القريتين، ٧. الحير، ٨. البيضاء، ٩. تدمر، ١٠. أرك، ١١. السخنة، ١٢. قباقب، ١٣. كواثل، ١٤. الرحبة.

ب. الطريق نفسها كما وردت عند القلقشندي^(٤):

١. دمشق، ٢. القطيفة، ٣. العطنة: ليس بها مركز بل خان، ٤. جليجل، ٥. المصنع، ٦. القريتين، ٧. الحير، ٨. البيضاء، ٩. تدمر، ١٠. أرك، ١١. السخنة، ١٢. قباقب، ١٣. كواثل، ١٤. الرحبة.

ج. الطريق نفسها كما وردت عند الظاهري^(٥):

١. دمشق، ٢. حمص، ٣. المصنع، ٤. القريتين، ٥. البيضاء، ٦. تدمر، ٧. كريد، ٨. السخنة، ٩. قباقب، ١٠. كواثل، ١١. الرحبة.

رابعا : خط البريد بين دمشق و كلا من حمص و حماة وحلب :

أ. محطات البريد لهذا الخط كما وردت عند العمري^(٦) :

١. دمشق، ٢. القصير، ٣. القطيفة، ٤. القسطل، ٥. قارا، ٦. بريح العطش، ٧. الغسولة، ٨. شمسين، ٩. حمص، ١٠. الرستن، ١١. حماة، ١٢. لطمين، ١٣. جرابلس، ١٤. المعرة، ١٥. إنقرثا، ١٦. أباد،

(١) العمري، التعريف ٢٧٨.

(٢) الظاهري ١١٩.

(٣) العمري، التعريف ٢٧٨-٢٧٩.

(٤) القلقشندي، صبح ٤٢٧/١٤.

(٥) الظاهري ١١٩-١٢٠.

(٦) العمري، التعريف ٢٧٨.

١٧. قنسرين، ١٨. حلب

ب. الطريق نفسها كما وردت عند القلقشندي^(١) :

١. دمشق، ٢. خان لاجين، ٣. القصير، ٤. خان الوالي، ٥. خان العروس، ٦. القسطل، ٧. قارا، ٨. بريج العطش، ٩. الغسولة، ١٠. سُمين، ١١. حمص، ١٢. الرستن، ١٣. حماة، ١٤. لطمين، ١٥. طرابلس، ١٦. المعرة، ١٧. إنقراتا، ١٨. إياد، ١٩. قنسرين، ٢٠. حلب.

ج. الطريق نفسها كما وردت عند الظاهري^(٢) :

١. دمشق، ٢. القصير، ٣. القطيفة، ٤. القسطل، ٥. قارا، ٦. الغسولة، ٧. شمسين، ٨. حمص، ٩. الرستن، ١٠. حماة، ١١. لطمين، ١٢. جرابلس، ١٣. المعرة، ١٤. أبعد، ١٥. أماد، ١٦. قنسرين، ١٧. حلب.

خامساً : خط البريد ما بين دمشق و طرابلس :

أ. محطات البريد لهذا الخط كما وردت عند العمري^(٣) :

١. دمشق، ٢. القصير، ٣. القطيفة، ٤. القسطل، ٥. قارا، ٦. بريج العطش، ٧. الغسولة، ٨. القصب، ٩. قدس، ١٠. أقمار، ١١. الشعرا، ١٢. عرقا، ١٣. طرابلس.

ب. الطريق نفسها كما وردت عند القلقشندي^(٤) :

١. دمشق، ٢. خان لاجين، ٣. القصير، ٤. خان الوالي، ٥. خان العروس، ٦. القسطل، ٧. قارا، ٨. بريج العطش، ٩. الغسولة، ١٠. القصب، ١١. قدس، ١٢. أقمار، ١٣. الشعرا، ١٤. عرقا، ١٥. طرابلس.

ج. الطريق نفسها كما وردت عند الظاهري^(٥) :

١. دمشق، ٢. القصير، ٣. القطيفة، ٤. القسطل، ٥. قارا، ٦. الغسولة، ٧. قدس، ٨. أقر، ٩. الشعرا، ١٠. العرقاء، ١١. طرابلس.

سادساً : خط البريد ما بين دمشق و بعلبك :

أ. محطات البريد لهذا الخط كما وردت عند العمري^(٦) :

كان لهذا الخط طريقان:

الأول : ١. دمشق، ٢. خان ميسلون، ٣. كرك نوح، ٤. بعلبك.

الثاني : ١. دمشق، ٢. الزبداني، ٣. بعلبك

(١) القلقشندي، ص ٤٢٦/١٤-٤٢٧.

(٢) الظاهري ١١٩.

(٣) العمري، التعريف ٢٧٨-٢٨٠.

(٤) القلقشندي، ص ٤٢٦/١٤-٤٢٧.

(٥) الظاهري ١١٩-١٢٠.

(٦) العمري، التعريف ٢٧٩.

ب. الطريق نفسها كما وردت عند القلقشندي^(١):
كان لها طريقان أيضاً :

الأول : ١. دمشق، ٢. خان ميسلون، ٣. كرك نوح، ٤. بعلبك

الثاني : ١. دمشق، ٢. الزبداني، ٣. بعلبك

جـ. الطريق نفسها عند الظاهري^(٢):

١. دمشق، ٢. الزبداني، ٣. بورا، ٤. بعلبك

سابعاً : خط البريد ما بين دمشق و الكرك :

أ. محطات البريد لهذا الخط كما وردت عند العمري^(٣) :

١. دمشق، ٢. طفس، ٣. القنيه، ٤. البرج الأبيض، ٥. حسيان، ٦. ذيبان، ٧. الربة، ٨. الكرك.

ب. الطريق نفسها كما وردت عند القلقشندي^(٤):

١. دمشق، ٢. طفس، ٣. القنيه، ٤. البرج الأبيض، ٥. حسيان، ٦. ديباج، ٧. أكرية، ٨. الكرك

جـ. الطريق نفسها كما وردت عند الظاهري^(٥) :

١. دمشق، ٢. القتيبة، ٣. البردية، ٤. البرج الأبيض، ٥. حسيان، ٦. قبس، ٧. ديبان، ٨. قاطع

الموجب، ٩. الصفرة، ١٠. الكرك.

ثامناً : خط البريد ما بين دمشق و صيدا:

أ. محطات البريد لهذا الخط كما وردت عند العمري^(٦):

١. دمشق، ٢. خان ميسلون، ٣. جزين، ٤. صيدا

ب. الطريق نفسها كما وردت عند القلقشندي^(٧):

١. دمشق، ٢. خان ميسلون، ٣. جزيرة صيدا

جـ. الطريق كما وردت عند الظاهري^(٨):

١. دمشق، ٢. خان ميسلون، ٣. جزين، ٤. صيدا

(١) القلقشندي، ص ٤٢٨/١٤،

(٢) الظاهري ١٢٠.

(٣) العمري، التعريف ٢٨٠.

(٤) القلقشندي، ص ٤٢٨ / ١٤.

(٥) الظاهري ١٢٠.

(٦) العمري، التعريف ٢٧٩.

(٧) القلقشندي، ص ٤٢٨/١٤.

(٨) الظاهري ١٢٠.

تاسعاً : خط البريد ما بين دمشق و بيروت :

أ. محطات البريد لهذا الخط كما وردت عند العمري^(١) :

١. دمشق، ٢. خان ميسلون، ٣. زبدان، ٤. الحصين، ٥. بيروت

ب. الطريق نفسها كما وردت عند القلقشندي^(٢) :

١. دمشق، ٢. ميسلون، ٣. زبدان، ٤. الحصين، ٥. بيروت

ج. الطريق نفسها كما وردت عند الظاهري^(٣) :

١. دمشق، ٢. خان ميسلون، ٣. جزين، ٤. صيدا، ٥. بيروت

عاشراً : خط البريد ما بين دمشق و صفد :

أ. محطات البريد لهذا الخط كما وردت عند العمري^(٤) :

١. دمشق، ٢. بريح الفلوس، ٣. أرنبيا، ٤. نعران، ٥. صفد

ب. الطريق نفسها كما وردت عند القلقشندي^(٥) :

١. دمشق، ٢. بريح الفلوس، ٣. أرنبه، ٤. نعران، ٥. صفد

ج. الطريق نفسها كما وردت عند الظاهري^(٦) :

١. دمشق، ٢. البريج، ٣. الفلوس، ٤. الأرنبه، ٥. نعران، ٦. جب يوسف، ٧. صفد

حادي عشر : خط البريد ما بين دمشق و جعبر :

أ. محطات البريد لهذا الخط كما وردت عند العمري^(٧) :

١. دمشق، ٢. القصير، ٣. القطيفة، ٤. القسطل، ٥. قارا، ٦. بريح العطش، ٧. الغسولة، ٨. شمسين،

٩. حمص، ١٠. سلمية، ١١. بغديد، ١٢. سوريا، ١٣. الحص، ١٤. جعبر

ب. الطريق نفسها كما وردت عند القلقشندي^(٨) :

١. دمشق، ٢. خان لاجين، ٣. القصير، ٤. خان الوالي، ٥. خان العروس، ٦. القسطل، ٧. قارا، ٨. بريح

العطش، ٩. الغسولة، ١٠. سمنين، ١١. حمص، ١٢. سلمية، ١٣. بغديد، ١٤. سوريا، ١٥. الحص،

١٦. جعبر .

(١) العمري التعريف ٢٧٩.

(٢) القلقشندي، صبح ٤٢٨/١٤.

(٣) الظاهري ١٢٠.

(٤) العمري، التعريف ٢٧٩.

(٥) القلقشندي، صبح ٤٢٨/١٤.

(٦) الظاهري ١٢٠.

(٧) العمري، التعريف ٢٧٨-٢٨٠.

(٨) القلقشندي، صبح ٤٢٦/١٤-٤٢٨.

وبالنسبة لهذا الخط، فلم يرد عند الظاهري.

ثاني عشر: خط البريد ما بين دمشق و أذرعَات :

أ. محطات البريد لهذا الخط كما وردت عند العمري^(١):

١. دمشق، ٢. طفس، ٣. أذرعَات

ب. الطريق نفسها كما وردت عند القلقشندي^(٢):

١. دمشق، ٢. طفس، ٣. أذرعَات

أما الظاهري فلم يذكر هذه الطريق

ثالث عشر: خط البريد ما بين دمشق و مصياف:

أ. محطات البريد لهذا الخط كما وردت عند العمري^(٣):

١. دمشق، ٢. القصير، ٣. القطيفة، ٤. القسطل، ٥. قارا، ٦. بريج العطش، ٧. الغسولة، ٨. شمسين،

٩. حمص، ١٠. مصياف

ب. الطريق نفسها كما وردت عند القلقشندي^(٤):

١. دمشق، ٢. خان لاجين، ٣. القصير، ٤. خان الوالي، ٥. خان العروس، ٦. القسطل، ٧. قارا، ٨. بريج

العطش، ٩. الغسولة، ١٠. سمين، ١١. حمص، ١٢. مصياف.

مما تقدم، نلاحظ أن كل خط من الخطوط السابقة ينقسم إلى مراحل أو محطات، وزودت كل محطة

منها بما يحتاج إليه موظفو البريد وحيولهم من ماء وطعام وعلف ومأوى^(٥).

(١) العمري، التعريف ٢٨٠.

(٢) القلقشندي، صبح ٤٢٨/١٤-٤٢٩.

(٣) العمري، التعريف ٢٧٨، ٢٨٠.

(٤) القلقشندي، صبح ٤٢٦/١٤-٤٢٨.

(٥) المقرئ، الخطوط ١/٤٢٠؛ حسن، تاريخ المالِك ٢٥٠؛ سداوي ١٢٦؛ عاشور، بريس ١٣٩، مصر ١٤٨.

ثانيا : أبراج الحمام :

لم تقتصر عناية السلطان الظاهر بيبرس بالبريد فقط، بل اهتم بالحمام الزاجل، حيث خصصت محطات بها أبراج، فإذا نزلت الحمامة إلى البرج تلقاها البراج وأخذ الرسالة إلى حمامة أخرى تطير بها لإيصالها إلى المحطة التالية و هلم جرا^(١).

وكانت الرسائل التي يحملها الحمام تمتاز بالإيجاز، فيستغنى فيها مثلا عن البسملة والمقدمات الطويلة والألقاب الكثيرة، وكان يكفي بذكر التاريخ والساعة وإيراد المطلوب في صيغة موجزة، أما الورق الذي كانت تكتب فيه الرسائل فكان يراعى أن يكون رقيقا حتى لا ينوء الحمام بحمله، أو يكون سببا في تقليل سرعته التي هي من أهم مميزاتة^(٢).

وكانت دمشق في هذا العهد محطة من محطات أبراج الحمام وارتبطت أبراجها مع المناطق التالية :

١. دمشق_غزة، ٢. دمشق_القاهرة، ٣. دمشق_بعلبك، ٤. دمشق_حمص، ٥. دمشق_حمّة، ٦. دمشق_حلب، ٧. دمشق_الرحبة، ٨. دمشق_صيدا، ٩. دمشق_بيروت، ١٠. دمشق_طرابلس^(٣) ومما تجدر الإشارة إليه إلى أن طريق مراكز أبراج الحمام كان نفس طريق البريد الذي ذكرناه سابقا.

مراكز هجن الثلج :

كانت مدينة دمشق في العهد المملوكي تعتبر مركزا من مراكز نقل الثلج بين مصر و الشام، وكان ذلك يتم عن طريق البحر، ولكن في أيام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون أصبح ينقل بطريق البر، وكانت عملية نقله تتم بين شهري حزيران و تشرين الثاني، من الثغور الشامية خاصة بيروت و صيدا^(٤)، ويتحدث ابن شاهين الظاهري عن الثلج بدمشق قائلا : «وها الثلج لا يزال على الجبال شتاء وصيفا وجميع أهلها يشربون منه وينقل منه إلى السلطان وأركان الدولة الشريفة»^(٥).

أما المراكز التي كانت تمر بها عملية نقل الثلج بين دمشق و غزة ثم إلى القاهرة، فكانت تتبع نفس خط البريد المار بين دمشق و غزة و القاهرة^(٦).

الناور :

كانت دمشق في هذا العهد مركزا من مراكز المناور، وعرف «شهاب الدين بن فضل الله العمري» المناور بقوله: «وهي مواضع رفع النار في الليل والدخان في النهار، للإعلام بحركات التتار إذا قصدوا

(١) عطا الله ١١٥.

(٢) القرظي، الخطط ١/٤١٩؛ حسن، تاريخ الممالك ٢٥٣-٢٥٤؛ سعداوي ١٤٢؛ عاشور، بيوس ١٤٠-١٤١، مصر ١٤٩.

(٣) العمري، التعريف ٢٨٣-٢٨٤؛ القلقشندي، صبح ١٤/٤٣٨-٤٣٩؛ الظاهري ١١٧.

(٤) العمري، التعريف ٢٨٤؛ القلقشندي، صبح ١٤/٤٤٣. أما غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري فذكر أن ذلك تم زمن السلطان

الملك الظاهر برفوق (٧٨٤-٧٩١هـ/١٣٨٢-١٣٨٨م). (الظاهري ١١٧).

(٥) الظاهري ٤٥.

(٦) العمري، التعريف ٢٨٥-٢٨٦؛ القلقشندي، صبح ١٤/٤٤٣؛ الظاهري ١١٨.

البلاد للدخول لحرب أو لإغارة، ولما يرفع من هذه النيران أو يدخن من هذا الدخان أدلة تعرف فيها اختلاف حالات رؤية العدو والمخبر به باختلاف حالاتها تارة في العدو وتارة في غير ذلك...»^(١).

أما فيما يتعلق بمواقع هذه المناور فقد بينها ابن فضل الله العمري بقوله التالي: «و المناور المذكورة تارة تكون على رؤوس الجبال وتارة تكون في أبنية عالية، ومواقعها معروفة يعرف بها أكثر السفارة، وهي من أقصى ثغور الإسلام كالبيرة و الرحبة إلى حضرة السلطان بقلعة الجبل، حتى أن المتجدد بكرة بالفرات كان يعلم بها عشاء و المتجدد بها عشاء كان يعلم بها بكرة...»^(٢).

وهذا يؤكد أن المناور كانت بالفعل وسيلة هامة من وسائل اتصال ذلك العهد، و كان في كل مركز من مراكز المناور رجال للإشراف عليها، و يتقاضون مقابل ذلك رواتب مقررة، و يبدو ذلك من خلال نص العمري الذي يقول فيه: «...وقد أرصد في كل منور الديادب النظارة لرؤية ما ورائهم، وإبراء ما أمامهم، ولهم على ذلك جوامك مقررة لا تزال دارة...»^(٣).

وهذا عرض لمراكز المناور بين الرحبة و غزة كما وردت عند ابن فضل الله العمري^(٤):

١. عانا	١٢. منظره تدمر	٢٣. الطرة
٢. خربة الروم والجرف	١٣. منظره البيضاء	٢٤. جبل إربد وجبل عجلون
٣. وادي الهيكل	١٤. الحسير	٢٥. جبل طيبة
٤. القناطر	١٥. جليجل	٢٦. عقبة البريد
٥. الرحبة	١٦. القريتين	٢٧. جينين
٦. كوائل	١٧. العطنة	٢٨. جبل فحمة
٧. منظره قباقا	١٨. ثنية العقاب	٢٩. قاقون
٨. حفير أسد الدين	١٩. مأذنة العروس	٣٠. مجدل يابا
٩. السخنة	٢٠. برزة	٣١. ياسور
١٠. منظره أرك	٢١. المانع	٣٢. حذب غزة
١١. البويب	٢٢. تل قرية الكتيبة	

وبعد ذلك لا مناور و لا أخبار وإنما يتم الاتصال بواسطة البريد.

(١) العمري، التعريف ٢٨٧.

(٢) المصدر نفسه ٢٨٧-٢٨٨.

(٣) العمري، التعريف ٢٨٧.

(٤) العمري، التعريف ٢٨٨-٢٨٩؛ القلقشندي، صبح ٤٤٦/١٤-٤٤٧.

الفصل السادس

الحركة العلمية

أن هذا المسجد من ضمن مرافق المدرسة، إلا أنه كان يخدم جميع من هم حول المدرسة، ومن مدارس دمشق التي اشتملت على مساجد: المدرسة الأُسدية^(١)، والنورية^(٢)، والصادرية^(٣)، والعزبية^(٤)، والسامرية^(٥)، والختونية^(٦)، وغيرها^(٧)، كما انتشرت مثل هذه المساجد في الأسواق وأحياء المدينة، فقد وجد في كل سوق مسجد أو أكثر، نذكر على سبيل المثال، مسجداً في سوق القطانين، وثلاثة مساجد في سوق الفسقار، وغيرها من المساجد المنتشرة في أسواق المدينة^(٨).

كما نسبت بعض المساجد إلى أسماء الأحياء والحارات، فقد وجد في المدينة مسجد يدعى بمسجد حارة الخاطب ومسجد حارة الحوارنة، ومسجد حارة العجم^(٩).

كما كانت القلعة في دمشق تحتوي على مسجد جامع مع أربعة مساجد^(١٠)، حتى يتمكن نزلاء القلعة أداء فرائض الصلاة وغيرها من العبادات في هذه المساجد.

إلى جانب ذلك وجدت المساجد الملحقة بالترب، فقد كان كثير من الأشخاص يبنون ترباً لهم، ويلحقون بها مساجداً، ويوقفون عليها بعض الأوقاف، ومقرئين لقراءة القرآن، والصلاة فيها، ومن هذه المساجد: مسجد تربة خاتون، ومسجد تربة ريجان بدمشق^(١١). كما بين الأمير سيف الدين بلبك المتوفى سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٣م تربة له بدمشق ألحق بها مسجداً بإمام ومؤذن، ووقف عليها مقرئين^(١٢). إن انتشار مثل هذه المساجد بهذه الكثرة في مدينة دمشق في العصر المملوكي يعود لأسباب عدة: منها اتساع المدينة وزيادة عدد السكان، مما أدى إلى زيادة الضغط على المسجد الجامع^(١٣) الجامع الأموي، وتجدر الإشارة إلى أن مدينة دمشق ظلت تقام بها خطبة وصلاة الجمعة في الجامع الأموي

(١) المدرسة الأُسدية: بالشرف القبلي ظاهر دمشق، أنشأها أسد الدين شيركوه. (النعيمي، الدارس ١/١١٤).

(٢) المدرسة التورية: من إنشاء نور الدين زنكي بدمشق. (النعيمي، الدارس ١/٧٤).

(٣) المدرسة الصادرية: داخل باب البريد أنشأها شجاع الدولة صادر. (النعيمي، الدارس ١/٤١٣).

(٤) المدرسة العزبية: أنشأها أيك المعظمي وكانت تعرف بدار ابن منقذ. (النعيمي، الدارس ١/٤٢٧).

(٥) المدرسة السامرية: تقع بدمشق إلى جانب المدرسة الكروسية، بناها سيف الدين أبي العباس أحمد بن علي البغدادي، وكانت قديماً تعرف بدار قوام، فاشتراها السامري، وجعلها داراً للسكن، ثم أوقفها دار حديث وخانقاه. (النعيمي، الدارس ١/٥٤-٥٥).

(٦) المدرسة الختونية: من وقف خاتون، أحت الملك دقاق وهي بمكان يعرف بصنعاء دمشق. (النعيمي، الدارس ١/٣٨٤).

(٧) ابن عبد الهادي، ثمار ٨٩-٩١.

(٨) المصنر نفسه ٦١-٦٢.

(٩) ابن عبد الهادي، ثمار ٦٧؛ النعيمي، الدارس ٢/٢٣٩، ٢٧٩، ٢٨١.

(١٠) ابن شداد، الأعلام ١٢٥.

(١١) النعيمي، الدارس ٢/٢٧٩.

(١٢) ابن كثير ١٤/١٧٧.

وحده إلى أن استحدثت خطبة ثانية في الجامع الشهرزوري قرب باب كيسان وذلك سنة ٧٦٥هـ/١٣٦٣م^(١).

فاتتشار مثل هذه المساجد كان يخفف الضغط على الجامع الأموي، كما أن الاستقلالية التي كانت تتمتع بها الأحياء في دمشق أدت إلى اعتماد هذه الأحياء على أسواق ومساجد خاصة بها إلى جانب كل مستلزمات الحارة أو الحي.

نفقات المساجد :

إن الكثرة الواضحة للمساجد في دمشق يتطلب منا البحث في مصادر تمويلها و النفقة عليها، فللمسجد قومة يقومون في خدمته، ويحتاجون إلى أجور، إلى جانب احتياجات المسجد نفسه من أثاث و ترميم ليتسنى له الاستمرار في أداء وظائفه على أتم وجه.

ويعود الفضل الأول في تمويل المساجد في دمشق إلى نظام الأوقاف، وبما أن بناء المساجد اقتصر على فئات معينة كالسلاطين و الأمراء وبعض الموسرين من أهل الخير، إذ لم تكن الدولة مسؤولة عن بنائها مسؤولة مباشرة^(٢)، تتجلى لنا أهمية الوقف في النفقة على المساجد، فعندما يقوم أحد الأشخاص ببناء مسجد سواء أكان من السلاطين أو الأمراء أو غيرهم من الموسرين، فإنه يوقف عليه أوقافاً تفي باحتياجاته، من أجور ومصاريف خاصة بالمسجد، وسنلقي الضوء على أوقاف المساجد من خلال ذكرنا لبعض منها في دمشق موضحين حجمها وقدرتها على تمويل المسجد، فمن أوقاف جامع بلبغا^(٣) بدمشق القيسارية التي بناها وأوقفها على المسجد^(٤)، ومن أوقاف جامع جراح جميع قرية الزعيزعية من أعمال مرج دمشق^(٥).

وكان مقدار الوقف يتفاوت من مسجد لآخر، ومن خلال أوقاف المساجد نستطيع تحديد مقدار الخدمة الاجتماعية والثقافية التي يقدمها هذا المسجد أو ذلك، ومن خلالها نستطيع أيضاً تحديد عدد العاملين فيه، ومقدار ما يتقاضون من مرتبات، ففي جامع جراح بدمشق شرط الواقف عدد العاملين فيه مع مرتباتهم، فجاءت على النحو التالي : خطيب الجامع وخصص له مبلغ عشرين درهماً في الشهر، وللإمام خمسون درهماً في الشهر، كما حدد للمؤذن و القيم ثلاثين درهماً، ولعشرة قراء لكل

(١) ابن كثير ٣٤٥/١٤.

(٢) مع أن الدولة لم تكن مسؤولة عن بناء المساجد أو المؤسسات الأخرى مسؤولة مباشرة إلا أنها كانت تحتقر نفسها مسؤولة عن تعيين الأئمة و الخطباء في هذه المساجد، ويعود ذلك لربط هؤلاء العلماء بالدولة مباشرة من خلال مراسيم يصدرها السلطان بتعيينهم و موافقة أي إمام أو خطيب أو قاض لإحدى هذه المناصب، فهو إعلان ضمن بولائه للسلطة، وبذلك تكون قد ربطتهم سياسياً واقتصادياً بالدولة. (المقابلة ٢٠).

(٣) جامع بلبغا : بناه الأمير بلبغا نائب الشام ، يقع على شط نهر بردى تحت قلعة دمشق. (النجمي، المدارس ٣٢٦/٢).

(٤) النجمي، المدارس ٣٢٧/٢.

(٥) ابن شداد ، الأعلام ٩٢؛ النجمي ، المدارس ٣٢٤/٢.

واحد منهم عشرة دراهم شهرياً^(١).

قومة المساجد :

كان يقوم على المساجد عدد من الموظفين، مرتين لخدمته، وقد اختلف عدد هؤلاء من مسجد لآخر، فنوعية المساجد كانت تحدد أعدادهم، فالمسجد الجامع كان به عدد أكبر من غيره، ونستطيع تحديد عدد العاملين على المسجد على النحو التالي:

ناظر المسجد : وهو المسؤول عن شؤون المسجد الإدارية والمالية، فمن مهامه النظر في كل ما يحتاج إليه المسجد من إصلاح وترميم، وتحديد أجور القائمين عليه إذا لم تحددوا وقفية المسجد، وكذلك الإشراف على أوقاف المسجد و تنميتها و تأجيرها ، وكانت هذه الوظيفة مرتبطة بالنائب، فقد كان ناظر الجامع الأموي بدمشق هو نائب المدينة^(٢).

الإمام : وهو الذي يؤم بالمصلين في أوقات الصلاة، وتولية إمام المسجد تكون في بعض الأحيان من السلطان بمرسوم شريف^(٣) ، أو من الواقف أو الناظر أو قاضي القضاة، ويشترط في الإمام أن يكون رجلاً عاقلاً، قارئاً، فقيهاً، سليم اللفظ، وأن يكون حافظاً لجزء من القرآن على الأقل، عارفاً بأحكام الصلاة^(٤).

الخطيب : وهو الذي يقوم بأداء خطبة الجمعة وإمامة الناس في الصلاة^(٥)، وكان يعين من قبل واقف المسجد، وأحياناً من قبل السلطان، وكان بعض الواقفين يشترط أن يكون الإمام على مذهب معين وأحياناً كان الخطيب يجمع بين الإمامة و الخطابة، وكان يخصص له بيتاً يعيش فيه بجوار المسجد، كما في مسجد التوبة بدمشق^(٦).

المؤذن : وهو الذي يدعو إلى الصلاة، ويشترط فيه حسن الصوت، وجودة الأداء^(٧).

قيم المسجد : وهو خادمه، وقد حدد المحتسب مهامه، وهي كنس و تنظيف المسجد يومياً، ونفض حصره من الغبار، ومسح حيطانه، وغسل قناديله، وتزويدها بالوقود، وإشعالها في كل ليلة، كما عليه أن يغلق أبوابه عقب الصلوات لمنع دخول الصبيان^(٨).

(١) ابن شداد ، الأعلاق ٩٢، النعمي ، المدارس ٣٢٤/٢.

(٢) القلقشندي، صبح ٤١٩٨/٤ دهمان، ولاة ٣١.

(٣) القلقشندي، صبح ٢٢٣/١١ الباشا، الفنون ١٠٨/١.

(٤) ابن الأخوة ١٧٣.

(٥) الخولان ٤٩ السبكي، معهد ٩١ الباشا، الفنون ١/٤٨٠-٤٨٥.

(٦) الباشا، الفنون ١/٤٨٠-٤٨٥.

(٧) المفايلة ٢٣.

(٨) ابن الأخوة ١٧٢ الباشا، الفنون ١/٤٤٦.

المسلمين الاجتماعية والسياسية والعمل على حلها^(١).

وكان المسجد هو المركز التعليمي الرئيس منذ صدر الإسلام، حيث ابتدأ التدريس فيه منذ عهد الرسول، عليه السلام، وقد خصص الرسول حلقات علم في المساجد، وسار الخلفاء الراشدون على نهجه بتعيين الوعاظ في المساجد للتدريس^(٢)، فكان المسجد المركز الأول لنشر العلوم الثقافية الإسلامية إلى جانب كونه مكاناً للعبادة وداراً للإحتكام، وملتقى للتشاور، ومقراً لاستقبال الوافدين^(٣).

وكانت علوم القرآن والحديث والفقه تدرس في المساجد بصورة رئيسة^(٤)، بالإضافة إلى علوم اللغة العربية من نحو، و صرف، وأدب، وشعر، لذا فإن المساجد كانت تؤدي وظيفة تعليمية مكملية للمدارس، حيث يقول العمري حول ذلك: « وفي هذه المملكة «الشام» فإن شعائر الإسلام قائمة بالمساجد و الخطابات في جميع القرى»^(٥). وكان التدريس في المساجد يتم في كل أيام الأسبوع، وأهم تلك الحلقات التعليمية ما كان يعقد يوم الجمعة، وكان يلقي فيها الفقهاء والمحدثون والأدباء والقراء وغيرهم من العلماء^(٦).

وقد تنوعت طرق التعليم والتحصيل ووسائله بين الحفظ، والرواية، والسماع، والإملاء، والقراءة، والمناقشة، والمناظرة، وشاعت ظاهرة الحفظ والرواية، فقد حفظ العلماء القرآن، وسمعوا الحديث الشريف ورووه، وحفظوا كتباً في القراءات، والفقه، واللغة، والمنطق، والجبر والمقابلة، والشعر، والخطب^(٧).

ومن الجدير ذكره أن الرواية كانت تعتمد على السماع، ونجاحه في المرحلة التي لم تكن الكتابة منتشرة فيها^(٨)، وعندما انتشرت الكتابة بقي السماع وسيلة مهمة في التحصيل العلمي، وأصبح السماع يقتصر بتدوين المسموع عن الأستاذ، وتسجيل اسم الأستاذ المسموع عنه، واسم السامع المتلقي، وتاريخ السماع، ولاشك أن هذا يضفي قيمة فنية وتاريخية على النص المسموع، ويتخرج بعدها الطالب بإجازة مكتوبة وموقعة من عدد من العلماء تؤهله لأخذ مكانه في المجال العلمي والفكري فيما أن يكون فقيهاً أو مفتياً أو نحوياً أو محدثاً^(٩).

(١) عبد المهدي ٢٥٠.

(٢) البخاري ١/١٦٦.

(٣) شمسي ٧.

(٤) القاياني ١١٣.

(٥) العمري، مسالك، دولة ١١١.

(٦) السبكي، معيد ٢٤؛ القاياني ١١٣.

(٧) القاياني ١١٣. عبد المهدي ٩٨.

(٨) القاياني ١١٣.

(٩) ابن طولون، تاريخ ١٤؛ عبد المهدي ١٠٦.

وبدأت تقام فيه صلاة الجمعة^(١).

جامع جراح : خارج الباب الصغير بمحلة سوق الغنم، وكان هذا المسجد مخصصاً للجنازات، ثم حوله الملك الأشرف موسى بن العادل عام ٦٣١هـ/١٢٣٣م إلى جامع^(٢).

جامع حورستا: أنشأه الوزير صفى الدين بن شكر^(٣).

جامع قلعة دمشق: أنشأه السلطان نور الدين زنكي بقلعة دمشق^(٤)، وقد تم تجديد عمارته مرة أخرى في عهد الأمير تنكز عام ٧٣٥هـ/١٣٣٤م^(٥).

جامع الكرمي: يقع بالقيبيات، بناه القاضي كرم الدين بن هبة الله وذلك عام ٧١٨هـ/١٣١٨م^(٦).

جامع الماردانية: يقع بالصالحية أيضاً، على حافة نهر ثورا، بجانب الجسر الأبيض، أنشأته عزيزة الدين أنحشا خاتون^(٧).

جامع المرجاني: يقع بضواحي المزة، أنشأه بهاء الدين محمد المرجاني عام ٦٦٩هـ/١٢٧٠م^(٨).

جامع المصلي: يقع قبلي البلد من خارج محلة ميدان الحصى، أنشأه الملك العادل سيف الدين أبو بكر ابن أيوب وذلك سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م^(٩).

جامع الملاح : يقع خارج باب شرقي، أنشأه صاحب شمس الدين غيريال ناظر الدواوين بدمشق عام ٧٠١هـ/١٣٠١م^(١٠)، وأقيمت فيه أول صلاة جمعة سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م^(١١).

جامع النحاس: شرقي الركنية بالصالحية، أنشأه الشيخ عماد الدين عبد الله بن الحسين بن النحاس^(١٢).
جامع الثيوب: يقع بالقرب من الربوة، بناه الصدر أمين الدين محمد بن أبي العيش الأنصاري على حافة نهر بردى عام ٦٥٨هـ/١٢٥٩م^(١٣).

(١) الذهبي، ذيل ٤/٤٥، العمري، مسالك، دولة ١١٨٣ ابن الوردي، تمة ٢/٣٧٩، الكشي، لوات ١/٢٥٢، ابن كثير ١٤/٤٧٠، المقرئ، السلوك ١/٢، ١٨٤٤، المقفي ٢/٤٦٠٩، ابن حجر، الدرر ١/٥٢٢، ابن تفرج، بردى، النجوم ٩/٤٨، النعمي، المدارس ٢/٣٢٧-٣٢٨، دهمان، ولاة ١٦٨، العلي، خطط ٢٧٨، ٢٨١، ٣١٦.

(٢) ابن كثير ١٣/١١٩، ابن عبد الهادي، ثمار ٥/٢٠٥، النعمي، المدارس ٢/٣٢٣-٣٢٤.

(٣) ابن عبد الهادي، ثمار ١٠٢، ١٤٠، النعمي، المدارس ٢/٣٣٧.

(٤) ابن عبد الهادي، ثمار ٩٤، النعمي، المدارس ٢/٣٤١.

(٥) ابن كثير ١٤/١٣٧.

(٦) الذهبي، دول ٢/٢٢٥، ذيل ٤/٥٩، ابن كثير ١٤/٦٩، ابن عبد الهادي، ثمار ٤٤، النعمي، المدارس ٢/٣٢١، العلي، خطط ٣١٦.

(٧) ابن عبد الهادي، ثمار ٢٢٢، ٢٤٩، ابن طولون، جوامع ٨/ القلائد ١/٦١، ابن كان، المروج ٤٥، الواكب ١/٣٥٨، ٣٨٠.

(٨) ابن عبد الهادي، ثمار ١٠٢، النعمي، المدارس ٢/٣٤٠-٣٤١.

(٩) ابن كثير ١٣/٤٩، ابن عبد الهادي، ثمار ١٣٢، النعمي، المدارس ٢/٣٢٣.

(١٠) ابن كثير ١٤/٧٠-٧١، النعمي، المدارس ٢/٣٢٤.

(١١) ابن كثير ١٤/٧٠-٧١.

(١٢) ابن كثير ١٣/١٦٢، ابن عبد الهادي، ثمار ٩٩، ٢٥٧، النعمي، المدارس ٢/٣٤٠.

(١٣) ابن كثير ١٤/١٣٤، النعمي، المدارس ٢/٣٣٨.

ثانياً : المدارس :

نشأة المدارس في بلاد الشام

يعود تاريخ إنشاء المدارس في بلاد الشام إلى زمن الأيوبيين، حيث أسهموا ببناء أعداد كبيرة من المدارس، تبعهم بذلك المماليك الذين أكثروا من بنائها في أنحاء الدولة المملوكية ومن ضمنها نيابة دمشق الشام.

وفي هذا الصدد يرى كثير من الباحثين أن من عوامل إنشاء المدارس في العصور الزنكية والأيوبية والمملوكية تعود إلى نشر المذهب السني في أنحاء الدولة (مصر وبلاد الشام)، فقد كانت المدارس السننية تركز على تدريس المذهب السني بمذاهبه الفقهية الأربعة، إضافة إلى الرغبة في إعداد موظفين مهرة يقومون على إدارة البلاد من خلال الدواوين، والوظائف الدينية، وبالنسبة للمماليك فكان يدفعهم إلى إنشاء مثل هذه المؤسسات أسباب أخرى، وهي تعزيز موقفهم أمام الناس، وربما يكون هناك عامل آخر لاهتمام الزنكيين و الأيوبيين و المماليك بالنهضة العلمية من خلال بناء المدارس ألا وهو الخطر الفرنجي، فان خطراً من هذا النوع، يجثم في وسط العالم الإسلامي متذرعاً بذرائع دينية، لا بد من التصدي له من خلال إعداد جيل، معه إعداداً دينياً لإذكاء روح الجهاد ، وهذا ما أدركه القادة المسلمون^(١).

مدارس دمشق في العصر المملوكي :

يذكر ابن شداد أن أول مدرسة أنشأت في بلاد الشام كانت في دمشق وهي التي بناها شجاع الدولة صادر بن عبد الله سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م، وأول من درس بها الإمام العالم علي بن مكي الكاشاني^(٢).

ويذكر النعمي أن أول دار لتعليم القرآن الكريم في دمشق هي دار القرآن الرشائية، وذلك سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م، حيث أنشأها رشاً بن نظيف بن ما شاء الله أبو الحسن الدمشقي^(٣).

ويمكننا رصد تطور الزيادة في أعداد المدارس في مدينة دمشق على النحو التالي :

فابن شداد ذكر ٩٢ مدرسة موزعة على النحو التالي:

٣٤ مدرسة على المذهب الحنفي، و ٢٧ مدرسة على المذهب الشافعي، ومدرستان على المذهب المالكي، و ١٠ مدارس على المذهب الحنبلي، و ٦ مدارس مشتركة على المذهبين الحنفي والشافعي، و ٣ مدارس للطب^(٤).

(١) زيادة، دمشق ٤٦٩ غواته، تاريخ نيابة ١٥١؛ الباشا، دوايات ١٠١؛ البيطار، التعليم ٤٦٣ فليح ٣٨٤.

(٢) ابن شداد ، الأغلاق ٢٠٠.

(٣) النعمي، المدارس ٩/١-١٠-٩١ كرد علي ، خطط ٦/٦٦.

(٤) ابن شداد ، الأغلاق ٢٢٠-٢٦٣.

وفي العصر المملوكي الأول ازدهرت المدارس في بلاد الشام ومصر على السواء، بسبب موقف سلاطين المماليك الإيجابي من الحركة العلمية، فقد شملوا رجال العلم برعايتهم واصبغوا عليهم فيضاً من تشجيعهم، وقد ذكر مؤرخو العصور المملوكية مدارس دمشق على النحو التالي^(١):

نوع المدرسة	قرآن	قرآن وحديث	حديث	شافعية	حنفية	مالكية	حنبلية	مشتركة للشافعية والحنفية	طب
الأربلي				٤٢	٣١	٤	١٠		٣
النعمي	٧	٣	١٦	٦١	٥٢	٤	٥٢	٤	٣
العلموي	٧	٣	١٦	٥٧		٠	٥٢	٤	٣

ومن ضمن هذه المدارس ودور القرآن الكريم والحديث الشريف ٤٦ مدرسة ودار قرآن وحديث أنشئت في العصر المملوكي موزعة على النحو التالي^(٢):

نوع المدرسة	قرآن	قرآن وحديث	حديث	شافعية	حنفية	مالكية	حنبلية	طب	هندسة
	٦	٣	٨	١٦	٧	١	١	٣	١

أنواع المدارس :

عرفت دمشق أنواعاً متعددة من المدارس، فقد وجد بها مدارس متخصصة بتعليم القرآن الكريم، إذ يتلقون بها أصول القراءات والتفسير، وأخرى لتدريس الحديث النبوي الشريف^(٣)، كما وجد في دمشق مدارس متخصصة في تدريس مذهب أو أكثر من المذاهب السنية الأربعة، وذلك على النحو التالي^(٤):

نوع المدرسة	شافعية	حنفية	حنبلية	مشتركة لمذاهب أو أكثر
عددها	٣٥	٣٤	٨	٧

ويعود السبب في كثرة المدارس التي تدرس المذهب الشافعي إلى أن الأيوبيين كانوا على هذا المذهب، حيث شجعوا على إنشاء المدارس التي تدرس هذا المذهب، كما كان نور الدين زنكي على

(١) الأربلي ٢٤٢-٢٤٤ النعمي، الدارس ١/٩٦-١٠٠٠/٢٠٨-٣٠٨. العلموي ٥١٣٨-٥. دهمان، في رحاب ٧٤-٧٥.

(٢) النعمي، الدارس ١/١٥٠-٥٠٠، ٢/١٠٨-٣؛ زيادة، سوريا ٢٢.

(٣) كحاله، دراسات ١٠٠.

(٤) زيادة، دمشق ١١٩.

المذهب الحنفي، وهذا يفسر كثرة المدارس التي تدرس هذا المذهب^(١).

وقد انتشرت المدارس التي كانت تدرس أكثر من مذهب فقهي، مثل المدرسة الفخرية التي كانت تدرس ثلاثة مذاهب، وهي: المذهب الحنفي، والمالكي، والحنبلي، وكان الظاهر يبرس قد عين قاضي قضاة لكل من المذاهب الأربعة في القاهرة ثم في الشام^(٢)، ومن المحتمل أن المالكي نظروا إلى هذه المذاهب نظرة واحدة، وربما أن الظاهر يبرس وهو يوطد أركان الدولة بزعامة المالكي، لم يشأ أن يركز منصباً مهماً كقاضي القضاة في يد شخص واحد، فقام بهذا الإجراء، وكانت الأولوية دوماً لقاضي القضاة الشافعية حتى في اللباس، لذلك تعين عليه النظر في الأوقاف والقضايا الخاصة ببيت المال^(٣).

الوظائف العلمية في المدارس :

وجد في مدارس دمشق عدد من الموظفين الذين كانوا يقومون بمهمة التدريس في هذه المدارس وهؤلاء هم :

المدرسون: وفي العادة يكون في المدرسة أكثر من مدرس، وهم مختصون بعدة علوم، فهناك شيخ لتدريس القرآن وتحفيظه، وشيخ لتدريس الحديث، وآخر لتدريس الفقه، كما وجد في بعض المدارس شيخ لتعليم الفقراء، وآخر لتعليم الأيتام^(٤).

والمدرس هو أعلى عضو في الهيئة التدريسية، ويكون من العلماء المشهورين المتمكنين من مادتهم، وعليه أن يحسن إلقاء الدروس، ويفهمها للطلبة الحاضرين، فإن كانوا مبتدئين فعليه أن لا يلقي عليهم ما لا يناسبهم، وأن يتدرج في تدريسهم من الأهلون فالأهلون إلى أن يصلوا إلى درجة التحقيق^(٥)، ويفهموا حقيقة ما يلقي عليهم بكل جوانبه، وإن كانوا متتهين أي لديهم قسط وافر من المعرفة في الأمور البديهية التي تلقى عليهم، فالأولى بالمدرس أن يلقي على طلابه دروساً في الفقه بفروعه المختلفة ويتعمق في تفصيلاته إلى أن يصبح الطالب متمكناً من هذا العلم^(٦).

ويشترط في المدرس كذلك أن يستعمل في تدريس طلابه الذكر والفكر والحواس، وأن يحثهم

(١) زيادة دمشق ١١٩.

(٢) النعيمي، المدارس ١/٣٢٦؛ معروف ١/٣٥.

(٣) السبكي، معيد ١٧٨ غوانمة، التاريخ الحضاري ٣٧.

(٤) الجزري ١٩٨/٢؛ القلقشندي، صبح ٥/٤٣٦؛ المقالة ٤٩.

Ziadeh 114

(٥) السبكي، معيد ٨٣، ١٠٥؛ ابن طولون، نقد ١٥٢؛ العلي دمشق، ١٨٠.

(٦) السبكي، معيد ١٠٥-١٠٦.

على تفهم ماضيهم وحاضرهم الذي يعيشونه، وأن يتلطف معهم^(١).

وكان تعيين المدرسين يتم عن طريق واقف المدرسة، أو الناظر، أو النائب، أو السلطان في بعض الأحيان^(٢)، ومن الحالات التي يتم فيها تعيين بعض الشيوخ أو المدرسين عن طريق السلطان، وقسوع خلاف بين العلماء على التدريس في إحدى المدارس، فيقوم السلطان بفض هذا الخلاف، وذلك بإصدار مرسوم بتعيين أحد العلماء في هذه المدرسة أو تلك، ومنها أيضا تغيير السلطان، فيقوم السلطان الجديد بتعيين بعض العلماء المقربين إليه^(٣).

المعيد : ومهمته تسميع الدرس وإعادته للطلبة للذين لم يفهموه^(٤)، وذلك بعد أن ينتهي المدرس من إلقائه وانصرافه، وبذلك يكون عليه قدر زائد في سماع الدرس وتفهمه، والمعيد في العادة يكون من طلبة المدرسة، إذ يتم تعيينه بما لاجتهاده وتفوقه^(٥)، ويتم ذلك من قبل ناظر المدرسة^(٦)، وأجرة المعيد أقل من أجرة المدرس، فمرتبة المعيد تأتي بعد المدرس في الترتيب الهرمي لموظفي المدرسة^(٧).

المفيد : ومهمته استخراج الفائدة والعبرة المستخلصة من الدرس، وبذلك يكون عليه عبء زائد في الاستماع إلى المدرس وفهم ما يقوله، ثم يقوم بإلقاء خلاصة الدرس على الطلبة، ويشترط أن يكون من الطلبة الناهمين والمجتهدين حتى يستطيع الحصول على هذه الوظيفة^(٨).

قارئ العشر : وهو الذي يقوم بقراءة عشر القرآن قبل الدرس، بعد الانتهاء من الربع^(٩).

المنشد : وهو المختص بذكر الأشعار مما هو غير واضح اللفظ ولا صحيح المعنى^(١٠)، فهو يعتمد الشواهد الشعرية لإزالة اللبس والغموض الذي لحق اللفظ أو المصطلح^(١١).

كاتب الغيبة : وهو يضبط من لا يحضر الدرس ومجالس العلم، كتابة. حتى يتأكد من مواظبة طالب العلم على حضور الدرس ومجالس العلم تأكيداً لإجازته عند طلبه لذلك^(١٢).

(١) النباهين ٣٠٠-٣٠٣.

(٢) الإمام ١٠٥.

(٣) اليونيني ١٤٢/٤.

(٤) الجزري ١٩٨/٢ السبكي، معيد ١٠٨، الفلقشندي، صبح ٤٤٣٦/٥ ابن طولون، نقد ١٥٤ العلي، دمشق ١٨١.

(٥) السبكي، معيد ٨٥، ١٠٨، ابن طولون، نقد ١٥٤، الباشا، الفتون ١١١٤/٣.

(٦) النباهين ٣١٠.

(٧) الفلقشندي، صبح ٤٣٦/٥.

(٨) السبكي، معيد ١٠٨، ابن طولون، نقد ١٥٤ العلي، دمشق ١٨١.

(٩) السبكي، معيد ١٠٩، الفلقشندي، صبح ٤٤٣٦/٥ ابن طولون، نقد ١٥٥.

(١٠) السبكي، معيد ١٠٩، ابن طولون، نقد ١٥٦.

(١١) لنية ٢٤٥.

(١٢) السبكي، معيد ١١٠، ابن طولون، نقد ١٠٦ العلي، دمشق ١٨١.

شيخ الرواية : وهو الذي يسمع المحدثين، ويستمع لما يقرأوه عليه، للتأكد من صحة حفظهم وسماعهم^(١).

ضابط الأسماء : عليه ضبط أسماء السامعين والحاضرين، ومراقبة الدارسين من حيث الانتباه للدرس من عدمه، فنبه شارذ الذهن إلى ذلك^(٢).

القصص : وهو من يقف في الطرقات يحدث الناس بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية الشريفة، وأخبار السلف^(٣).

الطلاب : وكان يسميهم البعض فقهاء المدرسة، وقد ازدحمت المدارس المملوكية في دمشق بطلبة العلم وذلك نتيجة للتشجيع على طلب العلم، فقد كان التعليم بالحنان، كما كانت تصرف لهم رواتب شهرية، وأحياناً كانت تحدد الوقفيات نوع الطلبة في المدارس بأن يكونوا من الغرباء، أو الفقراء الذين لا يستطيعون تحصيل العلم^(٤)، وكان عدد الطلاب في المدرسة يخضع لإمكانات المدرسة المادية التي يوفرها الوقف، فإن كان الوقف كثيراً ويغل جيداً، كانت أعداد الطلبة تزداد، وإن لم يكن كذلك وكان قليلاً فانه يؤدي إلى الحد من عدد الطلاب في المدرسة^(٥).

وكان معظم الطلاب يدخلون المدرسة في سن الحادي عشر والثاني عشر، ولا بد أن الفتيات لم يكن هن مكان في المدارس، وإنما كن يدرسن في البيوت غالباً وعلى آبائهن وأقاربهن، بالإضافة لذلك، فالتعليم في المدرسة لم يكن يخضع لنظام ثابت، وعلاقة المدرس مع طلابه كانت وطيدة، وقد وجدت الملازمة بين المدرس وطلابه، حيث يعيش الطالب ملازماً لأستاذه بحيث يأخذ منه معظم تعاليمه^(٦).

ووجد في كل مدرسة خزانة للكتب، يتولاها قيم وصف بالأمانة والإخلاص، مهمته المحافظة على الكتب وصيانتها من التلف وتجليدها ما تفكك منها، وأن ينظم إعارة الكتب منها للقراء^(٧).

(١) السبكي ، معيد ١١١؛ ابن طولون ، نقد ١٥٨.

(٢) السبكي ، معيد ١١٢؛ ابن طولون ، نقد ١٥٨.

(٣) السبكي ، معيد ١١٣؛ ابن طولون ، نقد ١٦٠.

(٤) ابن بطوطة ١٢٢؛ المقابلة ٥٠.

(٥) النباهين ٣١٤.

(٦) مقابلة ١٧٢.

(٧) السبكي معيد ١١١؛ طرخان ٣٢٧.

مراحل التعليم وطرقه :

كان طالب العلم في العصر المملوكي، يمر بثلاث مراحل ، بعدها يمنح إجازة علمية يستطيع من خلالها ممارسة مهنة التدريس، وهذه المراحل هي :

المرحلة الأولى :

كان التعليم في هذه المرحلة يتم عن طريق الكتاتيب التي يعمل فيها المؤدبون، ويعاونهم العرفاء، ويشترط في المؤدب أن يكون من أهل الصلاح والعفة والأمانة، حافظاً للقرآن الكريم، حسن الخط، له معرفة بالحساب^(١)، وتقتصر مهمة المؤدب (معلم الكتاب) في هذه المرحلة على تعليم الصبية السور القصار من القرآن بمعرفة الحروف وضبطها، ثم الحديث الشريف، وعقائد السنن، وأصول الحساب، وتجويد الخط ، والصلاة في سن السابعة، ويحثهم على طاعة الوالدين، ومكارم الأخلاق، وكان يسمح له بمعاينة الصبيان إن أساءوا الخلق، ويحظر على المؤدب استخدام الصبيان في قضاء حوائجهم وأشغاله الخاصة، ويخضع المؤدب لمراقبة المحتسب حيث يفرض عليه عدم تعليم الصبية في المساجد^(٢). ولا يتلقى الصبي في هذه المرحلة أي لون من ألوان التعليم المتخصص، فذلك يأتي في مرحله أخرى بعد أن تظهر ميول الطالب واتجاهاته^(٣).

وفي هذه المرحلة يتعلم الصبيان في أماكن خاصة، مثل: المكاتب التابعة للمدارس أو المنفصلة عنها، أو المحاضر كما سماها ابن جبير وهي الكتاتيب، كما انتشرت المكاتب لتعليم الصبيان والأيتام في الأسواق العامة بجانب الدكاكين، والمساجد، فقد وجد مكتب من هذا النوع بجانب الجامع الشامي قبل الخانقاه السميانية بدمشق^(٤).

وتميزت هذه المكاتب بتعليم الأيتام المسلمين، وكان كثير منها ملحق بالمدارس، أما المحاضر فقد ذكر ابن جبير أن مدينة دمشق كان بها محاضرة كبيرة للصبيان^(٥) لها وقف كبير يأخذ منه المعلم لهم ما يقوم به وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم ويكسوهم^(٦).

أما الدراسة في الكتاتيب فكانت تبدأ في سن مبكرة، حيث يلحق بها الأطفال في سن الرابعة وحتى العاشرة، ويجلسون حول مؤدبهم على حصير مفروش على الأرض، وهناك دوايب توضع فيها المصاحف والأقلام والألواح والدوي^(٧)، وكان على الأطفال أن يتعلموا في سن مبكرة الفرائض وقواعد الإسلام، ويحفظون بعض الحكم والأمثال، وبعض أبيات الشعر عن طريق زملائهم وبطريقة

(١) السبكي، معيد ٤١١؛ النباهين ٢٩٤-٢٩٧.

(٢) ابن الأخوة ١٧٠-١٧١؛ السبكي، معيد ١٣٠؛ طرخان ٣٢٧-٣٢٨.

(٣) المقابلة ٥٠.

(٤) أبو شامة، الذيل ٦٥؛ ابن الحاج ٤٥٧/٢، ٤٥٨، ٤٦٢؛ عاشور، المجمع ١٥٠؛ الزرنا ٢٠٧.

(٥) ابن جبير ٢٤٥.

(٦) السبكي، معيد ١٠١.

غنائية خشية النسيان، كما كانوا يتعلمون الخط العربي^(١).

ومن الأساليب التعليمية في هذه الكتابات، أن المؤدب كان يقوم بتعليم الصبية قصار السور من القرآن الكريم بطريقة التلقين، ثم ينتقل إلى تعليمهم الخط، وقد هي عن تعليم الخط من خلال سور القرآن الكريم، بل بالأشعار، تنزيهاً لكتاب الله عز وجل^(٢)، وعندما يحفظ أحد الصبية القرآن في المكتب يحتفل به احتفالاً كبيراً يسمى الإصراخة^(٣)، وكان في المكتب شخص مهمته أخذ الصبيان يوماً إلى المكتب ثم يردهم إلى بيوتهم، ويسمى السائق، ويشترط فيه الأمانة والثقة^(٤).

وكان الطلبة يكتبون دروسهم على ألواح من الطين، حيث تصقل وتدهن بلون داكن، ويكتب عليها بوساطة طين جاف، أو بوساطة الفحم على صفائح التناك^(٥).

أما نظام التدريس في الكتابات فلم يكن يخضع لامتحان أو شهادة، بل يعطى الطلاب بعد إنهاء دروسهم إجازة يمنحها الشيخ لتلميذه^(٦)، أما الترفيع والانتقال من سنة إلى أخرى فحسب تقرير المعلم الذي لا يحتفظ بسجل علامات ولا بأي وثيقة عن جهد الطالب وتقدمه، إلا قائمة بأسماء طلابه يثبت فيها الأجر والدوام لأنه كان يحاسب المتغيب على غيابه، ويتصل بالأهل ويستفسر عن أسباب الغياب، وأما بالنسبة للأجر الذي يتقاضاه المؤدب فهو بيضة ورغيف في كل أسبوع ومُد قمح كل عام غير الإكرامية^(٧).

وكان المؤدب يرتدي على رأسه عمامة بيضاء تدل على أن وظيفته ذات طابع ديني^(٨)، وكان المؤدب يستخدم مع الصبيان العقاب البدني، ويأخذه طابع القسوة في بعض الأحيان، فيسمح له أن يضرب الصبية على الألية والأفخاذ وأسافل الرجلين عند إسائة الأدب والفحش في الكلام والتصرفات السيئة، إلا أنه يحظر على المؤدب استخدام الصبيان في قضاء حوائجه وأشغاله الخاصة^(٩).

(١) السبكي، معيد ١٠١، غواصة، التاريخ الحضاري ١٣٥.

(٢) ابن حجر ٢٤٥، الشيزري، نهاية ١٠٣، ابن الأخوة ١٧٠، السبكي، معيد ١٣٠، بلوي ٧٨، عاشور، الأيوبيون ٣٦٣.

(٣) عاشور، المجمع ١٥٢، فليح ٣٩٨، الزربا ٢٠٩.

(٤) ابن الأخوة ١٧١، بلوي ٨٨.

(٥) السبكي، معيد ١٠١.

(٦) مقابلة ١٦٢.

(٧) كرد علي، غوطة ١٥٣، الصباغ، المجمع ١٧٠.

(٨) صابر ٩٦.

(٩) ابن الأخوة ١٧٠-١٧١.

المرحلة الثانية :

وهي المرحلة المتوسطة، بحيث يبدأ الطالب بدراسة علوم القرآن والحديث وقواعد اللغة، كما يتخصص الطالب في حفظ المتون، ويعرض ما يحفظه على شيخ أو أكثر، فيمتحنه به، فإن ظهر له فيه الحفظ والإتقان منحه على ذلك إجازة عراضة يشهد له فيها بالحفظ^(١).

المرحلة الثالثة :

وتعد هذه المرحلة، مرحلة التعليم العالي، بحيث يصبح طالب العلم قادراً على اختيار تخصصه وشيوخه بحسب قدراته وتفوقه في بعض العلوم^(٢)، واعتمد العلماء المسلمون في تدريس العلوم في المدارس المملوكية بدمشق عدة وسائل وطرق تساعد الطالب على التحصيل والمثابرة، فيذكر ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م)، في مقدمته في باب : وجه الصواب في تعليم العلوم قوله: «اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين، إنما يكون مفيداً، إذ كان على التدرج شيئاً فشيئاً، وقليلًا قليلًا، يلقي عليه أولاً مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب، ويضرب له في شرحها، على سبيل الإجمال، ويراعي في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه، حتى ينتهي إلى آخر الفن، وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم، إلا أنها جزئية وضعيفة، وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسأله، ثم يرجع إلى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود ملكته»^(٣).

نلاحظ من كلام ابن خلدون، أن من طرق التعليم البدء بتوضيح الأسهل فالأسهل ثم الشرح بصورة مجمل، وبعدها يقوم بالشرح المفصل، وهذه من النظريات التربوية الحديثة التي تطبق في أيامنا هذه.

كما استنكر ابن خلدون على بعض مدرسي عصره، في بعض طرقهم في التدريس، يقول نافرأ : « شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم وإفادته، ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقلدة من العلم ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلها، ويحسبون ذلك مراراً على التعليم، وصواباً فيه، ويكلفونه وعي ذلك وتحصيله، ويخلطون عليه بما يلغون له فيه غايات الفنون في مبادئها، وقبل أن يستعد لفهمها، فإن قبول العلم والاستعداد لفهمه تنشأ تدريجياً ويكون المتعلم أول الأمر عاجزاً عن الفهم بالجملة، إلا في الأقل على سبيل التقريب والإجمال»^(٤). هذه بعض ملاحظات مؤرخ معاصر لطرق التعليم في عصره.

(١) فليح ٣٩٨.

(٢) المرجع نفسه ٣٩٩.

(٣) ابن خلدون، المقدمة ٥٣٣.

(٤) المصدر نفسه ٥٣٣-٥٣٤.

ومن أساليب التعليم التي كانت متبعة في العصر المملوكي في دمشق خاصة وبلاد الشام عامة: الحلقات الدراسية: إذ يقوم الشيخ بالجلوس مستقبلاً القبلة في مكان بارز، بحيث يرى جميع الجالسين، ويفتح المدرس درسه بقراءة شيء من القرآن الكريم^(١)، وهذه الطريقة تعتمد في التدريس ثلاثة أساليب هي:

التلقين: كانت هذه الطريقة تركز على تلقين القرآن الكريم وتحفيظه، فقد كان محمد بن علي المصري (ت ٧٠١هـ/ ١٣٠١م) حازن كتب المدرسة البادرائية وملقن جماعة القراء فيها^(٢).

الإلقاء: فقد اتبع المدرسون في المدارس المملوكية طريقة الإلقاء، وكانت هذه الطريقة تعتمد في تدريس علوم القرآن والحديث والفقه، حيث كان المدرس يأجذ آية قرآنية أو فصلاً من كتاب ويشرحه للطلاب، وكانت العادة في ذلك الوقت، أن يقوم المدرس بعد الانتهاء من إلقاء أول درس له، بتوزيع الحلوى على الحاضرين^(٣).

الإملاء: حيث يقوم المدرس بإملاء بعض الكتب التي يطلب من الطلبة حفظها وفهمها^(٤).

وكان على الشيخ مراعاة عدة أمور في عملية تدريسه، كأن يأمر الطلبة بإعادة شرح الدرس بعد فراغه من إلقائه، كما كان يستحسن من الشيخ المكوث فترة من الوقت بعد إنهاء الدرس، حتى لا يراحه الطلبة في الخروج، وليتسنى لهم الاستفسار عن بعض الأمور التي لم يفهموها في الدرس^(٥).

أما نظام الإجازات العلمية التي كانت متبعة في المدارس المملوكية في نيابة دمشق فقد كانت ترتبط بالمدرس، فهو الذي يميز الطالب في علم من العلوم، بعد أن يمتحنه فإذا وجد فيه الحفظ والفهم أجازته^(٦).

وكانت الإجازات أنواع منها:

إجازة السماع: وهي أن يكتب المدرس أو الشيخ في آخر الكتاب أسماء من سمعوه، وهي أبسط الإجازات، إذ تبين حضور الطالب دروس الشيخ، وعندما زار ابن بطوطة دمشق في النصف الأول من القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، حصل على كثير من السماعيات التي سمعها على العلماء والشيوخ في هذه المدينة^(٧)، وبلغ عدد الذين أجازوا للشيخ صلاح الدين خليل بن كيكليدي العلامي

(١) ابن جماعة، تذكرة ٣٤.

(٢) ابن حجر، الدرر ٤/٦٦.

(٣) ابن طولون، القلائد ١١٥/١-١١٨.

(٤) عاشور، الأيوبيين ١٥٣.

(٥) ابن جماعة، تذكرة ٤٥، ٥٤.

(٦) المقابلة ٥٣.

(٧) ابن بطوطة ١٢٥؛ العلمي، دمشق ١٩٠.

الدمشقي بالسمع سبعمائة شيخ، وقد أشار إلى ذلك الصفدي في كتاب أسماه: "آثار الفوائد المجموعة في الإشارة إلى الفوائد المسموعة"^(١).

الإجازات العامة: وهي أن يكتب الشيخ لأحد طلابه ورقة يميز له بالتدريس، وهي كما ذكرها القلقشندي: "أذن لفلان... أن يدرس مذهب الإمام حيث حل وأقام، وكيف شاء، ومتى شاء، وأين شاء"^(٢).

الإجازة بعرضة الكتب: جرت العادة أن بعض الطلبة إذا حفظ كتاباً فيه، فيقوم الشيخ بطرح عدة أسئلة من أبواب هذا الكتاب، فإن وجده حافظاً ومتفهماً لما فيه، أجازته بأن يكتب ذلك على ورقة يشهد فيها أنه امتحنه ووجده حافظاً ومتفهماً لهذا الكتاب^(٣)، ومن الأمثلة على الإجازة بعرضة الكتب، إجازة الذهبي للصفدي، حيث يقول الصفدي عن ذلك في معرض حديثه عن مصنفات الذهبي: "... وطبقات القراء، وسماه "معرفة القراء الكبار على الطبقات والإعصار" تناولت منه وأجازني روايته"^(٤)، ويذكر الصفدي أيضاً أنه قرأ على الذهبي كذلك كتاباً بعنوان "فتح الطالب في أخبار علي بن أبي طالب"^(٥).

ومن الشروط التربوية التي حرص الواقفون على تنفيذها في المدارس إلزام المدرس بالتدريس بمدرسة واحدة، حتى لا يشتت ذهنه إذا ما عمل في أكثر من مدرسة، فقد كان عدد من الشيوخ يدرسون في مدارس متعددة في آن واحد، وأحياناً تكون هذه المدارس في أكثر من مدينة^(٦)، ومن الآداب التي يجب أن يتحلى بها المدرس، أن لا يقوم بعمله وبه ما يزعجه، كمرض أو جوع أو عطش، وعليه مراعاة مصلحة الجماعة في تقديم وقت الحضور أو تأخيرها، وعلى المدرس أن يكون واسع الصدر متسامحاً في معاملته للطلاب، وكأنهم أبناءه، وغيرها من الآداب^(٧).

إلى جانب إهتمام علماء المسلمين بالناحية التربوية، فقد حرصوا على تأمين الأمور المادية للطلبة، من خلال توفير مستلزمات وحاجات طلبة العلم، من أجل التفرغ والدراسة والتحصيل، فكانت توفر له المسكن والمال، حتى وصلت إلى توفير الملابس والغذاء لطلاب المدرسة، كما في المدرسة العميرية بدمشق، فقد كان يوزع على المقيمين بها من الطلبة والمدرسين، القمصان والسراويل، حتى وصلت إلى

(١) الصفدي، الوافي ١٣ / ٤١١.

(٢) القلقشندي، صبح ١٤ / ٣٦٧.

(٣) المصدر نفسه ١٤ / ٣٦٩.

(٤) الصفدي، الوافي ٢ / ١٦٣.

(٥) المصدر نفسه ٢ / ١٦٤.

(٦) أبو شامة، الذليل ٤١٥ النهي، تاريخ ٤٢ / ٢٤٣، ٢٨١، السبكي، طبقات ٩ / ١٩٩، ابن حبيب، درة ٢ / ٢٢٠؛

العمري، المدارس ١ / ٢٧٩ - ٣٢١.

(٧) ابن جماعة، تذكرة ٤٣٣ زيغور ١٢٢ - ١٢٤.

توفير سخناً لتسخين الماء لمن يريد الاغتسال في المدرسة^(١).

وفي وقفية المدرسة الظاهرية بدمشق كان يوزع الخبز على جميع العاملين بما فيهم الطلاب^(٢)، كما خصص المؤرخ الذهبي شيخ دار الحديث السكرية، راتبه لثلاثين محدثاً لكل منهم سبعة دراهم ونصف رطل من الخبز في الشهر، وقرر للشيخ ثلاثون درهماً ورطل خبز، كما قرر فيها ثلاثون نفرأ يقرأون القرآن لكل عشرة شيخ، ولكل واحد من القراء نظير ما للمحدثين، ورتب لها إمام وقارئ حديث ونواب، ولقارئ الحديث عشرون درهماً وثمان أواق خبز^(٣)، ووجد في المدرسة العمرية كاتب غيبة، مهمته تسجيل من لم يحضر أثناء توزيع الخبز على الطلبة^(٤)، وكان في بعض الأحيان يسند إلى أحد الطلبة المحتاجين وظيفة في المدرسة، فقد كان علي بن بكتوت (ت ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م) طالباً ومؤذناً في المدرسة العادلية في دمشق^(٥).

كما اشتملت المدرسة في العصر المملوكي على مكبات كانت تضم أمهات الكتب، سواء في الفقه، أو الحديث، أو اللغة، أو الأدب، أو علم الفلك، أو المنطق، أو الطب، ليعود إليها المدرسون والطلاب بسهولة ويسر، وفي الوقت الذي يحتاجونها فيه، فقد وجد في المدرسة العمرية مكتبة وصفها ابن كنان بجزائن الكتب^(٦)، ويذكر ابن طولون في وصف مكتبة المدرسة الضيائية في دمشق قوله: "وبهذه المدرسة كتب الدنيا والأجزاء الحديثية، حتى يقال أنه كان فيها خط الأئمة الأربعة، حتى يقال أنه كان فيها التوراة والإنجيل"^(٧)، وكان بها كتاب الخلاف للقاضي أبي يعلى غير موجود بسواها^(٨). وكان المسؤول عن هذه المكتبة يسمى (حازن الكتب) ومن مهامه تنظيم الكتب في أرفف، وإعارتها لمدرسي وطلاب المدرسة^(٩)، ومن أشهر خزنة الكتب في دمشق في العصر المملوكي علي بن محمد ابن إبراهيم الملقب بالحازن، حيث ولي خزنة الكتب بالخانقاه السمساطية^(١٠).

وقد جاء غنى هذه المدارس بالكتب نتيجة للوقف، حيث كان كثير ممن يبنون المدارس يزودونها بكثير من الكتب^(١١)، وكذلك نتيجة لاهتمام السلاطين بها، فيذكر القلقشندي في عصره قائلاً: «أما

(١) النعيمي، المدارس ٢/ ٨٠-٨٤.

(٢) ابن شداد، تاريخ ٢٢٨-٢٢٩، زيادة، دمشق ١٢٢.

(٣) ابن كثير ١٤/ ١٤٩.

(٤) ابن كنان، المروج ١٠٦.

(٥) ابن حجر، الدرر ٣/ ٣١.

(٦) ابن كنان، المروج ١٠٩.

(٧) ابن طولون، القلائد ١/ ٨٢.

(٨) ابن طولون، القلائد ١/ ٨٢؛ ابن كنان، المروج ٣٨.

(٩) الباشا، الفنون ١/ ١٤٥.

(١٠) ابن حجر، الدرر ٣/ ٩٧.

(١١) الذهبي، العبر ٣/ ٧٣٤؛ الكشي، عيون ٢٠/ ٣٥٥.

وأصول الدين، وأصول الفقه على المذاهب الأربعة^(١).

— علوم اللغة العربية: من نحو، وأدب، وبلاغة، وعروض، وأصول لغة^(٢).

— العلوم الرياضية: من حساب، وجبر، ومقابلة، و علم الميقات، والهندسة، والفرائض^(٣).

— إلى جانب علم التاريخ، والمنطق، وعلم الكلام، وعلم الفلك^(٤).

الدور الثقافي للمدارس في دمشق:

كان للمدارس الدور الأول في نشر الثقافة في دمشق وبلاد الشام في هذا العصر، فمن خلال إنشاء المدارس استطاع الزنكيون والأيوبيون والمماليك، نشر المذهب السني في بلاد الشام على حساب المذهب الشيعي، وأصبح المذهب السني هو المذهب السائد في بلاد الشام، وترتب على ذلك انتشار علوم الشريعة والفقه حسب المذاهب السنية الأربعة، كما أن انتشار المدارس في مدينة دمشق استلزم وجود أعداد كبيرة من العلماء والمدرّسين وطلاب العلم الذين كان لهم دور كبير في نشر الثقافة وتنشيط الحركة العلمية، من خلال تأليف الكتب وتدريسها، سواء في المدارس، أو المساجد، أو تلك التي أوقفوها على مكاتب المدارس^(٥)، فيذكر ابن طولون أن تاج الدين أبا القاسم عبد الغفار شيخ الحديث بالمدرسة الصاحبية بدمشق، نسخ بخطه حوالي خمسمائة مجلد^(٦)، وهذا دليل واضح على نشاط الحركة العلمية، من خلال انتشار الكتاب بين الناس، ومن الشرائح الاجتماعية التي أفادت من التعليم في العصر المملوكي الطبقة الدنيا، فقد نظر المماليك إلى التعليم والنفقة عليه على أنه عمل من أعمال البر والخير، فمجانبة التعليم رفعت من مستوى هذه الطبقة^(٧).

كما أن المدارس قدمت خدمات ثقافية وإدارية للدولة، فمن خلال المدارس، تم إعداد موظفين مهرة لدواوين الدولة، إذ كان يختار من بين طلاب المدارس في كثير من الأحيان رجال الدولة والإدارة والمستشارين^(٨)، كما كان لنشر الثقافة دور كبير في حماية العلماء المعارضين لسياسة الدولة من بطش السلطة الحاكمة، فمن خلال نشر الثقافة عن طريق العلماء في المدارس والمساجد، عمقت ارتباط العامة بعلماهم، فقد بعث هؤلاء روح المشاعر الدينية العميقة في نفوس العامة، مما أدى إلى تضامن العامة مع مشايخهم في كثير من الأحيان^(٩).

(١) الشيزري، نهاية، ١٠٣؛ البيطار، التعليم ٥٩-٦١.

(٢) البيطار، التعليم ٥٩-٦١؛ ظاهر ١١٠-١١١.

(٣) ظاهر ١١١.

(٤) المرجع نفسه ١١١.

(٥) ابن كثير ١٣/٢٠٥.

(٦) ابن طولون، القلائد ١٦٢/١.

(٧) طرخان ٢٤٥.

(٨) الباشا، دراسات ١٠١.

(٩) لايبوس ١٩٠-١٩١.

كما كانت المدارس مقراً للعلماء والقضاة للحكم بين الناس وتقديم الفتاوى، فقد كان قساضي القضاة الحنفية يحكم بالمدرسة النورية بدمشق^(١)، وفي المدارس أيضاً كانت تعقد المناظرات بين العلماء في المسائل الفقهية وغير الفقهية يحضرها الطلاب والعامه^(٢).

وأخيراً نقول إن المدارس لعبت دوراً مميّزاً في نشر الثقافة والعلم من خلال تدريس العلوم المتعددة كالعلوم الدينية والعقلية، ومع أن أغلب مدارس دمشق كانت تتسم بالتعليم الديني، إلا أنه وجد عدد من المدارس الأخرى التي اهتمت بعلوم مختلفة، فقد وجد مدرسة للهندسة، وثلاث مدارس للطب كانت متخصصة بتدريس العلوم الطبية إلى جانب البيمارستانات^(٣).

أهم المدارس في دمشق

انتشر في دمشق عدد من المدارس المختلفة، والتي يدرس فيها العلوم الدينية واللغوية بمختلف أنواعها، وقسم مؤرخو العصر المملوكي المدارس التي انتشرت في دمشق حسب المذاهب الفقهية الإسلامية الأربعة التي كانت منتشرة في تلك الفترة:

أ- المدارس الحنفية: وأهمها:

المدرسة البلخية: كانت قديماً تعرف بدار أبي الدرداء، تقع بباب البريد، داخل دمشق^(٤).

المدرسة الخاتونية البرانية: تقع بالشرف الأعلى، المطلّة على وادي الشقراء، أنشأها زمرد خاتون^(٥).

المدرسة الخاتونية الجوانية: تقع مقابل المارستان النوري بجانب القلعة، منشأها خاتون بنت معين الدين أنز^(٦).

المدرسة الركنية البرانية: تقع شرقي الصالحية بسفح قاسيون، بناها الأمير ركن الدين منكورس الفلكي^(٧).

المدرسة الجوهريّة: تقع بحارة البلاطة داخل دمشق، وتنسب إلى نجم الدين أبي بكر بن محمد بن عياش النجمي^(٨).

(١) ابن بطوطة ١١٤-١١٥،

(٢) البصروي، تاريخ ٢١١.

(٣) المقابلة ٥٩.

(٤) النجمي، المدارس ٣٦٨/١؛ ابن طولون، المدارس ١٩؛ بدران ١٥٥-١٥٦، حيث أشار بدران إلى أن المدرسة البلخية أصبحت خراباً في عصره. (العلي، خطط ١٧٣).

(٥) البدري ٧٥-٧٦؛ النجمي، المدارس ٣٨٤-٣٨٥؛ ابن طولون، المدارس ٢٢؛ بدران ١٦٨.

(٦) النجمي، المدارس ٣٨٨/١؛ ابن طولون، المدارس ٢١؛ بدران ١٦٩؛ العلي، خطط ١٨٦؛ شيسان ٧٦.

(٧) النجمي، المدارس ٣٩٨/١؛ ابن طولون، المدارس ٢٤؛ بدران ١٧١؛ العلي، خطط ١٨٩.

(٨) النجمي، المدارس ٣٨١-٣٨٢؛ ابن طولون، المدارس ٢٦؛ بدران ١٦٤-١٦٥؛ ابن كنان، الواكب ١/٣٤٤؛ العلي، خطط، ١٨٢-١٨٣.

المدرسة الزنجارية: تقع خارج دمشق، أوقفها عز الدين أبو عمر بن عثمان علي الزنجيلي أو الزنجاري، نسبة إلى زنجيلة، إحدى قرى دمشق^(١).

المدرسة الشبلية البرانية: تقع بسفح قاسيون بالصالحية عند جسر كحيل، والذي تحول اسمه فيما بعد إلى جسر الشبلية، بناها شبل الدولة كافور، مملوك الأمير حسام الدين لاحق^(٢).

المدرسة الصادرية: تقع بباب البريد، بناها شجاع الدولة صادر بن عبد الله^(٣).

المدرسة الطرخانية: تقع قبلي المدرسة البادرانية، وقد أصبحت في عصر ابن طولون خراباً، حيث اتخذت مسكناً بالإجارة، بناها طرخان بن محمود الشيباني^(٤).

المدرسة العلمية: تقع غربي جبل قاسيون، تنسب للأمير علم الدين سنجر المعظمي^(٥).

ب_ المدارس الشافعية: وأهمها:

المدرسة الإقبالية: تقع عند دار الحديث الأشرافية، بسفح قاسيون، منشؤها جمال الدين إقبال^(٦).

المدرسة الأكرزية: تقع تجاه الشبلية الدمشقية الحنفية، بناها أكر صاحب السلطان نور الدين محمود^(٧).

المدرسة الأمينية: عرفت في عصر ابن طولون بالسرقاوية، تقع شرقي باب العنبرانيين مقابل الجامع الأموي، بناها أمين الدين كمشتكين^(٨).

المدرسة الأجمدية: تقع بالشرف الأعلى من الغرب، منشؤها الملك المظفر عمر بن الأجد ابن

فروخشاه^(٩).

المدرسة البادرانية: تقع شرقي الناصرية الجوانية النحوية، بناها القاضي علم الدين أبو محمد بن عبد

الله البادراني الفرضي^(١٠).

(١) النعمي، المدارس ١/٤٤٠٤ ابن طولون، المدارس ٣٧ب؛ ابن كان، المواكب ١/٣٤٥؛ العلي، خطط ١٩٠.

(٢) النعمي، المدارس ١/٤٤٠٧ ابن طولون، المدارس ٤٤ب؛ ابن كان، المواكب ١/٣٢٣؛ العلي، خطط ١٩٦.

(٣) النعمي، المدارس ١/٤٤١٣ ابن طولون، المدارس ٤٧أ؛ ابن كان، المواكب ١/٣٤٥؛ العلي، خطط ١٩٦.

(٤) النعمي، المدارس ١/٤٤١٥ ابن طولون، المدارس ٤٨أ؛ ابن كان، المواكب ١/٣٤٥.

(٥) النعمي، المدارس ١/٤٢٩-٤٣٠ ابن طولون، المدارس ٥٩أ؛ ابن كان، المواكب ١/٣٢١؛ العلي، خطط ٢٠٥، شيسان ٢٠٤.

(٦) النعمي، المدارس ١/٤١٨ ابن طولون، المدارس ٨٥ب؛ ابن كان، المواكب ١/٣٣٤، ٣٣٤؛ العلي، خطط ١٠١، شيسان ٨٠.

(٧) النعمي، المدارس ١/٤١٢٤ ابن طولون، المدارس ٩٠ب؛ ابن كان، المواكب ١/٣٥٦؛ العلي، خطط ١٢٤، شيسان ١١٢.

(٨) النعمي، المدارس ١/٤١٣٣-١٣٢٢ ابن طولون، المدارس ٩٣أ؛ ابن كان، المواكب ١/٣٣٤، ٣٣٤؛ العلي، خطط ١٠٤-١٠٥.

(٩) النعمي، المدارس ١/٤١٢٦ ابن طولون، المدارس ١٠٠ب؛ ابن كان، المواكب ١/٣٤٧؛ العلي، خطط ١٠٤.

(١٠) النعمي، المدارس ١/٤١٥٤ ابن طولون، المدارس ١٠٢أ؛ ابن كان، المواكب ١/٣٣٥، ٣٣٥؛ العلي، خطط ١٠٧، ١٠٩.

المدرسة البهنسية: تقع شرقي المدرسة الجمالية بسفح قاسيون، وتنسب إلى الوزير محمد الدين البهنسي^(١).

المدرسة التقوية: تقع شرقي الإقبالية الجوانية والبرانية، بناها تقي الدين بن عمر بن شاهنشاه ابن أيوب^(٢).

جـ_ المدارس الخنبلية: وأهمها:

المدرسة الجوزية: تقع بسوق القمح، بالقرب من الجامع الأموي، منشؤها محيي الدين بن الشيخ جمال الدين بن الجوزي^(٣).

المدرسة الخنبلية الشريفة: تقع عند القباقيب العتيقة، بناها الإمام عبد الوهاب بن عبد الواحد الخنبلي، شيخ الخنابلة بالشام^(٤).

المدرسة الشامية البرانية: تقع شرقي سوق صاروجا، بنتها ست الشام خاتون، أخت صلاح الدين الأيوبي^(٥).

المدرسة الصاحبية: من المدارس الأيوبية بدمشق، بنتها ربيعة بنت أيوب، أخت صلاح الدين الأيوبي^(٦).

المدرسة الضيائية: تقع بسفح قاسيون، بناها ضياء الدين محمد أبو عبد الله^(٧).

د_ المدارس المالكية: وأهمها:

المدرسة الشراييشية: تقع بدارب الشعارين، داخل باب الجابية، تنسب إلى نور الدين علي بسن أبي المجد الشراييشي^(٨).

المدرسة الصمصامية: تقع شرقي دار القرآن الوجيهية، بناها شمس الدين غيريال الأسمرى^(٩).

المدرسة الصلاحية: تقع قرب البيمارستان النوري، أنشأها صلاح الدين الأيوبي^(١٠).

(١) النعمي، الدارس ١/١٦٢ ابن طولون، المدارس ١٠٣؛ ابن كان، المواكب ٢/٣٣٥؛ العلي، خطط ١٠٩؛ شيسان ١٨٥.

(٢) النعمي، الدارس ١/١٦٢-١٦٣ ابن طولون، المدارس ١٠٤؛ ابن كان، المواكب ١/٣٣٥؛ العلي، خطط ١١٢.

(٣) النعمي، الدارس ٢/٤٢٣ ابن طولون، المدارس ١٥٠؛ ابن كان، المواكب ١/٣٤٩؛ العلي، خطط ٢٣٣.

(٤) النعمي، الدارس ٢/٥٠ ابن طولون، المدارس ١٥١؛ ابن كان، المواكب ١/٣٤٩؛ العلي، خطط ٢١٥؛ شيسان ٢٢٩.

(٥) النعمي، الدارس ١/٤٢٠ ابن طولون، المدارس ١٢٠؛ ابن كان، المواكب ١/٣٣٧؛ بدران ١٠٤.

(٦) النعمي، الدارس ٢/١٦٢ ابن طولون، المدارس ١٥٣؛ ابن كان، المواكب ١/٣٢٨؛ العلي، خطط ٢٣٦.

(٧) النعمي، الدارس ٢/١٧١ ابن طولون، المدارس ١٥٥؛ العلي، خطط ٢٣٧؛ شيسان ١٦٧.

(٨) النعمي، الدارس ٢/١٦٦ ابن طولون، المدارس ١٦٠؛ ابن كان، المواكب ١/٣٤٨؛ العلي، خطط ٢٥٢.

(٩) النعمي، الدارس ٢/٦٧-٦٨ ابن طولون، المدارس ١٦١؛ ابن كان، المواكب ١/٣٤٨؛ العلي، خطط ٢٥٢-٢٥٣.

(١٠) النعمي، الدارس ٢/٤٨ ابن طولون، المدارس ١٦٣؛ ابن كان، المواكب ١/٣٤٩؛ العلي، خطط ٢٥٤.

ثالثاً : البيمارستانات^(١):

يعود نشأة أول بيمارستان في الإسلام إلى زمن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٤م)، وقد أنشئ في مدينة دمشق، ويقول المقرئزي عن ذلك: "وأول من بنى بيمارستاناً في الإسلام وداراً للمرضى الوليد بن عبد الملك"^(٢)، ويرجع تاريخ بناء هذا البيمارستان إلى سنة ٨٨هـ/٧٠٦م، ويبدو أن الغاية من بنائه هي رعاية العميان والمجنون^(٣)، حيث كانت لهم أماكن خاصة بهم، وكان الوليد قد أجرى عليهم الأرزاق، كما رتب الأطباء على البيمارستان، وجعل لكل ضرير قائداً، ولكل مقعد خادماً^(٤).

أما ثاني البيمارستانات التي أنشئت في بلاد الشام عامة ودمشق خاصة، فهو البيمارستان الدقائي أو البيمارستان العتيق^(٥).

ولعل البداية الحقيقية للاهتمام ببناء البيمارستانات في دمشق كانت في عهد نور الدين زنكي، فقد أنشئ في عهده البيمارستان النوري بدمشق، وأصبح يعرف بالبيمارستان الكبير أو الجديد تمييزاً له عن البيمارستان الصغير أو العتيق^(٦).

وفيما بعد أنشئ في دمشق البيمارستان القييري، أو بيمارستان الصالحية سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م على يد الأمير سيف الدين علي القييري^(٧).

وجدير بالذكر أن هذه البيمارستانات سواء تلك التي بناها نور الدين زنكي أو التي أنشأت في العصر الأيوبي، ظلت تقدم خدماتها طوال العصر المملوكي، مع إجراء بعض التعديلات على هذه البيمارستانات^(٨).

(١) البيمارستان: بفتح الراء وسكون السين، كلمة فارسية الأصل، وهي مركبة من كلمتين، ييمارة: وتعني المريض أو العليل أو المصاب، وستان: وتعني دار أو مكان، وترجمتها الحرفية: دار المرضى، ودرجت على الألسن مارستان لسهولة لفظها، وقد استخدمها العرب المسلمون للدلالة على المشفى أو المستشفى. (التونجي ١٣٠؛ أدي شير ٤١٤٥، ٣٣؛ الخطيب ٩٦؛ عيسى بك ٤٤ متر ٢٠٥/٢).

(٢) المقرئزي، الخطط ٤/٢٦٧.

(٣) الطبري ٦/٤٩٦.

(٤) السعيد ٤٤.

(٥) البيمارستان الدقائي: سمي هذا البيمارستان بعدة أسماء منها: البيمارستان الصغير أو البيمارستان الدقائي، وبيمارستان بساب البريد، ويذكر أحمد عيسى بك أن هذه الأسماء لبيمارستان واحد وهو البيمارستان الدقائي، ويقال العتيق أو الصغير، وربما نسب لنور الدين زنكي لتجديد بنائه وحبسه أوقافاً عليه. (دهمان، هامش ٦٢-٧٣).

(٦) ابن قاضي شهبة، الكواكب ٣٧.

(٧) اليونيني ٤٣/١-٤٤-٤٤٤ ابن كثير ١٣/١٦٣.

سيف الدين القييري: هو الأمير سيف الدين أبو الحسن علي بن أبي الفوارس القييري، كان من أكابر الأمراء، وله المكانة العلية عند الملوك، توفي سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م. (اليونيني ٤٣/١-٤٤؛ الكشي، عيون ٨٣/٢٠).

(٨) المقابلة ٦٣.

أقسام اليمارستان:

قبل الحديث عن أقسام اليمارستان، لا بد من ذكر الأسباب والدواعي التي من خلالها يتم اختيار موقع اليمارستان، لما لطبيعة هذه المؤسسة من ارتباط بالظروف البيئية المحيطة، إن الناظر إلى اليمارستانات في دمشق يلاحظ أن مواقعها لم تأت بمحض الصدفة، وإنما جاءت نتيجة لاختيار دقيق مع مراعاة أهمية المكانة الصحية، فاختيار موقع اليمارستان القيمري في صالحية دمشق يدل على أهمية اختيار الموقع، فقد بني على سفح جبل قاسيون، وكان يطلق عليه يمارستان الجبل، لما للمنطقة المرتفعة من فوائد بالنسبة لهذه المؤسسة، ويؤكد كذلك قول ابن طولون: "أن تمرلنك لما أخذ الشام نزل دواداره فيه وقال: "درت جميع دمشق فما وجدت أشرح منه ولا أفضى"^(١).

ونرى في وقتنا الحاضر أن أغلب المستشفيات يتم اختيارها في مناطق غير أهلة بالسكان متوخين الهدوء، إلى جانب تفضيل الأماكن المرتفعة، إذ يكون الهواء أكثر نقاوة.

كان اليمارستان في العصر المملوكي مقسماً إلى عدة أقسام، كل قسم مخصص لنوع معين من الأمراض، وله رئيس يقوم على إدارته، كما كان اليمارستان يقسم إلى جناحين، جناح خاص بالرجال وآخر بالنساء، وفي كل جناح من هذه الأجنحة عدة قاعات أشبه بالعيادات تشتمل الأمراض المختلفة، ومن هذه القاعات، قاعة لأمراض الكحالة (أمراض العيون)، وأخرى للأمراض الباطنية، وثالثة للجراحة، ورابعة لتجبير الكسور (العظام)، وكانت هذه القاعات بدورها تنقسم إلى عدة تخصصات، فكان هناك حجرات للمبرودين - المصابين بالثخمة، وحجرات للمزورين أو الجنون السبعي (مانيا)، وحجرات للمحمومين (المصابون بالحمى)، وحجرات لمن هم إسهال، وغيرها من التخصصات الطبية الدقيقة^(٢)، فقد كان في اليمارستان القيمري زمن ابن طولون قاعتان للمرضى المسهلين، أحدهما للرجال، والأخرى للنساء^(٣).

إلا أن أهم ما يميز اليمارستانات في العصور الإسلامية بشكل عام، و العصر المملوكي بشكل خاص، احتوائها على جناح خاص بالمجانين^(٤).

ومن أقسام اليمارستان الصيدلية، وكانت هذه القاعة تشتمل على الأدوية الضرورية التي يحتاج إليها الطبيب كوصفات للمرضى، كما كانت هذه القاعة مستودعاً للأدوية واللوازم الطبية، ومن محتويات هذه الصيدلية، المعاجين وأنواع الأشربة المختلفة، والأدوية والعطريات، وكذلك الأواني التي تحفظ بها مثل هذه الأدوية من زبادي وجرار وغيرها^(٥)، وفي وقية اليمارستان القيمري بدمشق ذكر

(١) ابن طولون، القلائد ١/٢٤٤.

(٢) ابن أبي أصيبعة ٧٣٢؛ عيسى بك ١١٩ زيادة، دمشق ١٢٣؛ المقابلة ٦٧.

(٣) ابن طولون، القلائد ١/٢٤٤.

(٤) ابن حيو ٢٥٥-٢٥٦؛ الحميري ٢٤٠ زيادة، دمشق ١٢٣.

(٥) عيسى بك ٢٠-٢١.

الواقف أثناء عرضه لأجور العاملين في البيمارستان^(١) وإلى الشراب وبائعة لعمل الأشرية والمعاجين^(٢). يتضح من هذا النص أن الصيدلية لم تكن مستودعاً لحفظ الأدوية فحسب، بل كانت مختبراً لتحضير أنواع الشراب والمعاجين وغيرها من الأدوية الضرورية للبيمارستان، هذا الأجر كان يقع على عاتق الصيدلي أو المهتار، فالصيدلية كان بها أكثر من موظف، فهناك موظف لصرف الأدوية، وآخر لتحضيرها في المختبر، ويؤكد ذلك ما ذكره ابن طولون في وصف البيمارستان القييري في الصالحية، فقد ذكر أن هناك حاصلان^(٣) شرقي معد للشرابات والمعاجين والأكحال والأشياف^(٤) والأقراص وغير ذلك، وغربي معد لتفرقة ذلك في كل يوم اثنين وخميس للخارجين عنه، وقد رأينا ذلك^(٥)، وكانت الصيدلية توزع الأدوية على المرضى في أيام محددة، كما ذكر ابن طولون، فقد خصص يوم الاثنين والخميس لصرف الأدوية على المرضى^(٦).

كما وجد في البيمارستانات قاعة للمكتبة كانت تحتوي على عدد من المؤلفات الطبية، وكانت هذه المكتبة بمثابة مرجع علمي للأطباء، إذا ما احتاجوا إلى بعض المعلومات الطبية، فقد كان في البيمارستان النوري بدمشق جملة من الكتب التي أوقفها نور الدين محمود زنكي على البيمارستان^(٧). ومن الأقسام الأخرى للبيمارستان المطبخ، فقد كانت البيمارستانات المملوكية تحتوي على مطابخ يتم بها إعداد الطعام للمرضى، وكان الأطباء يشرفون على مطبخ البيمارستان بأنفسهم، إذ كانت الأطعمة تحضر بمواصفات خاصة، فقد وجد في البيمارستان القييري مطبخ للمزورات^(٨)، والفراريج^(٩)، وكان الاهتمام بالمطبخ واضحاً من خلال أنواع الأطعمة التي كانت توصف للمرضى، كما أن بعض أنواع الأطعمة كانت عبارة عن وصفات طبية تقدم للمريض، فقد كان الطبيب المعروف ابن النفيس^(١٠) لا يقدم على معالجة أي مريض إلا بعد أن يتأكد من غذائه هل كان وافياً أم لا^(١١)، ومن الأدلة على اهتمام القائمين على البيمارستان بالمطبخ وأنواع الأطعمة التي تقدم للمرضى ما

(١) بوقية البيمارستان القييري ملحق رقم (٢). المقابلة ٦٩.

(٢) الأشياف: جمع شيف، وهي الأدوية الخاصة بالعين. (ابن طولون، القلائد ١/٢٤٤، ج ١).

(٣) ابن طولون، القلائد ١/٢٤٤.

(٤) المصدر نفسه ١/٢٤٤.

(٥) ابن أبي اصيبعة ٤٦٢٨ حتى، تاريخ ٢/٢٨٢.

(٦) المزورات: نوع من أنواع المشروبات الخالية من الدهون، وذلك حتى لا يتأثر المريض من زيادة الدهون في الطعام. (الخفاجي ٢٤١).

(٧) ابن طولون، القلائد ١/٢٤٤.

(٨) ابن النفيس: علاء الدين أبي الحزم، ولد سنة ٦٠٧هـ/١٢١١م، في قرية صغيرة قرب دمشق تدعى قرش، تتلمذ على يد مهذب الدين الدخوار في البيمارستان النوري، كان من أشهر أطباء عصره، شرح (القانون) لابن سينا، وصنف (الموجس)، توفي سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م. (ابن كثير ١٣/٢٦٠، القيم ٢٠).

(٩) حتى، تاريخ ٢/٢٨٣.

ذكره ابن شاهين الظاهري عن الخدمات التي تقدم للمرضى من خلال سرده لطرفة حدثت مع صديق له، عندما كانا متجهين للحج سنة ٨٣١هـ/١٤٢٧م وحطوا بدمشق، فدخلوا اليمارستان النوري وعندما رأيا أنواع المأكولات والتحف واللطائف، أراد صديق ابن شاهين اختبار القسائم على اليمارستان فتمارض عدة أيام، حيث قدمت له أنواع مختلفة من «الأطعمة الحسنة، والدجاج المسمنة، والحلو والأشربة، والفواكه المتنوعة»^(١).

هذه الحادثة تعطينا فكرة واضحة على أن المطبخ كان من الأقسام الرئيسة في اليمارستان، كما حرص القائمون على اليمارستان بتزويده بالماء، لما للماء من أهمية واضحة في سير عمل اليمارستان، سواء مياه نقية للشرب أو لتحضير الطعام أو لتنظيف اليمارستان من الأوساخ التي تعلق به نتيجة لكثرة المراجعين الذين يترددون على اليمارستان في اليوم واللييلة، فقد كان اليمارستان القيمري في الصالحية يتزود بالماء من نهر يزيد من خلال ناغورة مركبة، ترفع الماء إلى البركة الموجودة في وسط اليمارستان^(٢).

كما وجد في اليمارستان مستودع يحتوي على كل مستلزمات اليمارستان من قدور، وفرش، ولحف، ومخدات، إلى جانب معدات خاصة بالبناء، لتزيم اليمارستان في حالة تداعي أجزائه^(٣)، إلى جانب هذا المستودع وجد حاصل للمغل، وهو مستودع آخر كانت تخزن به غلال أوقاف اليمارستان التي يتم تحضيرها للمطبخ^(٤).

ومن أقسام اليمارستان أيضا دورات المياه، والتي كانت تقدم خدماتها للمرضى وزوار اليمارستان كالوضوء وغير ذلك من الاحتياجات، هذا إذا علمنا أن اليمارستان كان يضم إماماً ومؤذناً، وأحيانا كان يوجد بداخله أو بالقرب منه مسجداً^(٥).

نظام المعالجة في اليمارستانات:

شهدت اليمارستانات في دمشق نظاماً متميزاً في معالجة المرضى، فقد كان علاج المريض يخضع لأسس طبية وعلمية اتبعها الأطباء بكل حذر، ويصف لنا ابن الأخوة الطريقة المثلى في معالجة المرضى، فذكر أن على الطبيب أن يسأل المريض عن سبب مرضه، وما يجد من الألم، وبعد ذلك يرتب له ما يناسبه من الدواء، ثم يكتب ذلك في شهادة «ملف» لأولياء أمر المريض، وفي اليوم التالي ينظر

(١) الظاهري ٤٤.

(٢) ابن طولون، القلائد ٢٤٤/١.

(٣) بوقفية اليمارستان القيمري، ملحق رقم (٢)؛ المقالة ٧١-٧٢.

(٤) ابن طولون، القلائد ٢٤٤/١.

(٥) بوقفية اليمارستان القيمري، ملحق رقم (٢)؛ ابن كان، المروج ٨٥؛ المقالة ٧٢.

الجراح)، وجميع هذه الكتب للطبيب الكركي أبي الفرج بن القف^(١). ومنها أيضاً: (مقالة في مزاج الرقة)، (مفرج النفس)، (الملح في الطعام)، وهذه المؤلفات لابن قاضي بعلبك، و(شرح الكليات من كتاب القانون)، لموفق الدين يعقوب السامري، و(القانون في أمراض العيون)، (الأحكام النبوية في الصناعة الطبية)، لعلاء الدين الكحال الصفدي^(٢).

ويذكر ابن أبي أصيبعة أن البيمارستان كان بمثابة كلية لتدريس الطب، فقد كان أبو المجد بن أبي الحكم، بعد فراغه من معالجة المرضى في البيمارستان النوري بدمشق يجلس بالإيوان الكبير للبيمارستان، يطالع الكتب الطبية، ويحضر لديه عدد من الأطباء والتلاميذ، ثم تجري بينهم مباحث طبية، ويقدم ما لديه للطلاب، ويبين لهم ما يصعب عليهم^(٣).

كما كان الأطباء في البيمارستان يتنون بعض الطلاب، فيمكنون معهم في البيمارستان أثناء مناوباتهم، حتى يتعلموا المهنة بشكل عملي، فقد كان رشيد الدين علي عم ابن أبي أصيبعة ملازماً للطبيب نفيس الدين الزبير، وكان هذا الأمير متخصصاً بالكحالة في البيمارستان النوري، يتعلم منه الصنعة بطريقة علمية وعملية، ثم انتقل بعد ذلك إلى أعمال الجراحة^(٤)، كما تدرّب ابن أبي أصيبعة في البيمارستان النوري بدمشق على يد الطبيب عمران الإسرائيلي، ومهذب الدين عبد الرحيم الدخوار^(٥)، واعتاد أطباء ذلك العصر العمل كمدرس في إحدى مدارس الطب مع وظيفته كطبيب في البيمارستان، فقد كان الجمال المحقق شيخ المدرسة الدخوارية طبيباً في البيمارستان النوري بدمشق^(٦). ونظراً إلى أن مدارس الطب في دمشق، كانت على مقربة من البيمارستانات فقد كانت رافداً أساسياً لها، فمن المحتمل أنها خرجت كثيراً من الأطباء الذين خدموا في بيمارستانات دمشق، كمدان الأطباء الذين عملوا في مدارس الطب كانوا يقومون بتعليم طلابهم بالتجربة العملية في البيمارستانات بعد إعطائهم العلوم النظرية^(٧).

نلاحظ من خلال هذه الأمثلة أن البيمارستان في دمشق قدم خدمات طبية واضحة في هذا العصر، وما هذه الطرق في تعليم الطب إلا دليلاً واضحاً على مدى تقدم هذا العلم في العصر المملوكي، مع إدراك العلماء المسلمين أن هذه المهنة تتطلب من المبتدئ ما خيرة عملية من خلال المشاهدة و المشاركة في العلاج.

(١) ابن أبي أصيبعة ٧٦٨.

(٢) المصدر نفسه ٧٥٥-٧٦٧.

(٣) المصدر نفسه ٦٢٨.

(٤) المصدر نفسه ٧٣٧.

(٥) المصدر نفسه ٦٩٧.

(٦) ابن كثير ٢١٢/١٣.

(٧) المقابلة ٧٨.

رابعاً : المؤسسات الصوفية في دمشق:

« الخوانق _ الربط _ الزوايا »:

تمهيد :

إن الحديث عن المؤسسات الصوفية في دمشق يستلزم تقديم فكرة واضحة عن التصوف^(١). وردت كلمة صوفي في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، وكان أبو هاشم الكوفي المتوفى سنة ١٥٠هـ/ ٧٦٧م أول من أطلق عليه هذا الوصف، وكان عربياً من الكوفة، إلا أنه قضى معظم حياته في الشام^(٢)، وبذلك يكون القرن الثاني للهجرة، قد شهد بدايات ظهور هذه الحركة، إذ بدأ إعراض الناس عن الطريق الصحيح، وأخذوا بالاهتمام بالأموال الدنيوية على حساب الدين، فأعرض الصالحون من العباد والزهاد عن ذلك، وهالهم إقبال الناس على الدنيا، فانزروا جانباً يتدارسون أمور دينهم غير مباليين بأموال الدنيا، وظل هذا الأمر إلى القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وكانت الحركة الصوفية_ آنذاك _ لا تزال قريبة إلى الزهد في الدنيا مع وجود بعض الانحرافات في مسارها^(٣)، إلا أن ما حدث في العالم الإسلامي في القرن السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، من أحداث حسام، كاجتياح المغول للعراق وقسم من بلاد الشام، وبقيام الفرنج في أطراف الشام، وكذلك الإحساس بالضياع للعنصر العربي تحت وطأة الغزاة منذ القرن الخامس الهجري، أدت إلى ردة فعل معاكسة، فانصرف الناس عن الحياة وشؤونها، وأصاهم اليأس والخنوع نتيجة هذه الأحداث، وأصبح الزهد في مفهومه نوع من أنواع اللامبالاة^(٤)، كما أنهم انصرفوا عن الدنيا لحقارها على حد تعبير السبكي^(٥).

أضف إلى ذلك ما وصل إليه الناس من شظف العيش نتيجة للكوارث الطبيعية، كالقحط والجذب والمجاعات، مما أدى إلى انتشار الأمراض الفتاكة كالطاعون، والجدري، فوجد الناس في المؤسسات الصوفية ملاذاً، إذ توفرت لهم بسطة في العيش، وترفاً في المأكل والمشرب والملبس^(٦)، وقد عرفت بلاد الشام التصوف قبل العصر المملوكي، وارتبط انتشاره بأسباب دينية، فقد أسهم كل

(١) اختلفت الآراء حول تفسير كلمة صوفي، إلا أن أقرب هذه التفسيرات إلى الصحة، هي أن كلمة صوفي مشتقة من الصوف، حيث

عرف الصوفية بلباسهم للصوف مخالفين بذلك الناس بلباسهم فاخر الثياب، وهي دلالة على الزهد والتشرف. (ابن خلدون،

المقنعة ٤٤٦٧، السهروردي ٥٩، بحاث دمشقي ٣٣١، ماسنون ٢٢١٤/٧).

(٢) ماسنون ٢٢١٤/٧ عميرة ٧.

(٣) الأدفوي، الموق ٥.

(٤) الأدفوي، الموق ٥، سلام ١٩٨/١.

(٥) السبكي، معيد ١١٩، ٦٧.

(٦) الأدفوي، الموق ٧.

من نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي، وخلفاؤه من بعده بانتشار التصوف في بلاد الشام، فقد شجع نور الدين زنكي المتصوفة، وعرف عنه حبه لهم، فبنى لهم الربط والخوانق في جميع أنحاء بلاد الشام، كما كان يقرهم من مجالسه، ويقدم لهم الهبات، فقد بنى لهم في دمشق خانقاه، إلى جانب الربط والزوايا الأخرى^(١).

وفي العصر الأيوبي اعتنى صلاح الدين بالصوفية، وقرهم إليه، وكان يحضر مجالسهم، ويستمع إلى أقوالهم^(٢)، فقد أنشأ صلاح الدين وخلفائه من بعده أعداداً كبيرة من الخوانق والربط والزوايا في بلاد الشام، وكان اهتمام الزنكيين والأيوبيين بالصوفية ومؤسساتهم كوسيلة لتشجيع التصوف السني للقضاء على المذهب الشيعي في بلاد الشام، كما كان اهتمام صلاح الدين بإنشاء المدارس وتشجيعه للصوفية من خلال إنشاء الخوانق والربط والزوايا، للنهوض بالشعور الديني لدى المسلمين، ورفع استعدادات الأمة لمواجهة الأخطار المحدقة بها، وكان للصوفية ومؤسساتهم دور في تنمية هذا الشعور، حيث سلكوا الطريق القويم، وكانوا نماذج خيرة للأتقياء^(٣).

وقد سار المماليك على نهج أسيادهم الأيوبيين، فاهتموا بالصوفية، وأنشأوا الخوانق والربط والزوايا لهم، إلا أن هذه الأماكن أصبحت ملاذاً لكل طالب راحة، إذ يجد فيها أنواع الطعام والشراب واللباس دون أي عناء يذكر، وازداد عدد المتسبين إلى الصوفية، لا سيما بعد أن تضخم عدد الخوانق والربط والزوايا، إلى جانب الأقباس والأوقاف التي حبست وأوقفت على هذه المؤسسات^(٤).

ونتيجة لاهتمام المماليك البالغ بالصوفية، ازداد أدعياء التصوف بغية الحصول على المأوى والمأكل، فأصبحت مؤسسات الصوفية مركز جذب لعدد كبير من الناس الذين لبسوا الصوف، وحلقوا الرؤوس، إلا أنهم بعيدون كل البعد عن حياة الصوفي الحقيقية، التي من أهم أركانها الزهد، وأطلقت عبارات مختلفة أصبح يعرف بها الصوفي، كما أنهم أصبحوا نموذجاً للتطفل والفضول، ومن الأقوال التي أطلقت عليهم "نعوذ بالله من النار ومن الصوفي إذا عرف باب الدار"، وفي وصف آخر أنهم "أكلة، بطللة، سطللة، لا شغل لهم ولا مشغلة"^(٥).

لذا لعبت الصوفية دوراً مهماً وخطيراً في المجتمع الإسلامي في بلاد الشام خاصة، والعالم الإسلامي عامة، مما أدى إلى تصدي العلماء والفقهاء لبعض أفكار الصوفية، كابين تيمية الذي أعلن الحرب على

(١) ابن قاضي شبهه، الكواكب ١٣٨، باب ١٠٢.

(٢) ابن شداد، النواتج ٢٤٢-٢٤٣.

(٣) لأدفي، الموق ٦.

(٤) العمري، مسالك، دولة ٩٢، ابن بطوطة ١٢٢، الحموي ٢٤٠، المقابلة ٨٦.

(٥) لأدفي، الموق ٦-٧.

المتصوفة، فيقول ابن الوردي عن ابن تيمية وموقفه من المتصوفة: «وكان يقول في أحوال كثير من المشايخ أنها شيطانية أو نفسية، وينظر في متابعة الشيخ الكتاب والسنة فإن كان كذلك فحال صحيح وكشفه رحمانياً غالباً، وما هو بالمعصوم وله بذلك عدة تصانيف»^(١).

كما عارض علماء السنة والحنابلة خاصة الصوفية، وعارضوا أقوال أصحابها، وخاصة قولهم بالحلول والإتحاد والتناسخ واعتبروه كفراً، فقد أريق دم محمد بن عبد الرحمن الباجري بدمشق لقوله بالحلول، حيث «حصل له حال وكشف فانقطع، فصحبه جماعة من الرذلة وهون لهم أمر الشرائع وأراهم بوارق شيطانية، وكان له قوة تأثير، وكان يقول: إن الرسل طولت على الأمم الطريق إلى الله»^(٢).

وكان رد فعل المتصوفة أن كونوا لأنفسهم جماعات وأحزاباً، ولكل جماعة أو فرقة مبادئها وأصولها وشيخها وأبنائها، وهكذا تكونت فرق الصوفية في دمشق وبقية مناطق بلاد الشام^(٣).

ومن الفرق الصوفية التي انتشرت في دمشق وبلاد الشام:

الفرقة القادرية: أسسها عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة ٥٦١هـ/ ١١٦٦-١١٦٧م في بغداد، وانتقلت هذه الفرقة إلى بلاد الشام عن طريق محمد البطائحي^(٤).

الفرقة الوفاية: وجدت طريقها إلى بلاد الشام في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي^(٥).

الفرقة القلندرية: أصلها فارسي، كان أول ظهورها في دمشق سنة ٦١٠هـ/ ١٢١٣م^(٦).

الفرقة النبوية: أصلها من بلاد الشام^(٧)، وكانت هذه الفرقة أبرز الفرق الصوفية وأكثرها أتباعاً في دمشق^(٨).

كما وجدت بعض الفرق الصوفية المتجولة منها:

الفرقة اليونسية: نسبة إلى مؤسسها يونس بن مساعد الشيباني^(٩)، وكذلك الفرقة الأحمدية^(١٠).

(١) ابن الوردي، تمة ٢٨٩/٢.

(٢) الصفدي، الوالي ٣/٢٥٠، الكوي، فوات ٣/٣٩٩.

(٣) رمضان ١٥٥.

(٤) زيادة، دمشق ١٢٧-١٢٨.

(٥) المرجع نفسه ١٢٧-١٢٨.

(٦) المرجع نفسه ١٢٧-١٢٨.

(٧) لمقابلة ٨٨.

(٨) زيادة، دمشق ١٢٧-١٢٨.

(٩) لمقابلة ٨٨.

(١٠) المرجع نفسه ٨٨.

Ziadeh 162.

Ziadeh 163.

Ziadeh 162.

Ziadeh 162.

الفرقة الحيدرية: ظهرت هذه الفرقة في الشام عام ٦٥٥هـ/١٢٥٧م، ويذكر النعمي أن «من شعارهم لبس الفراحي^(١) والطراير^(٢)، ويقصون لحاهم ويتركون شوارهم، وتركوها لمتابعة شيخهم حيدر حين أسره الملاحدة فقصوا لحيته وتركوا شواربه^(٣)»، وأسسوا لهم في دمشق زاوية عرفت بالزاوية القلندرية الحيدرية^(٤).

الخوانق^(٥) والربط^(٦) والزوايا^(٧) في دمشق:

احتوت دمشق على عدد كبير من الخوانق والربط والزوايا، التي وجدت نتيجة لانتشار التصوف في بلاد الشام في العصر المملوكي، وستقدم إحصاء لهذه المؤسسات في دمشق كما ذكرها المؤرخون على النحو الآتي^(٨):

المؤرخ	خانقاه	رباط	زاوية
ابن شداد	١٩	١٩	٥
الأربلي	٢٥	٢٠ للرجال، ٢٠ للنساء	—
النعمي	٢٩	٢١	٢٦
العلموي	٢٧	٢١	٢٧

(١) الفرجية: جمعها فراحي، عبارة عن ثوب واسع طويل الأكمام يتزيا به علماء الدين. (القلقشندي، صبح ٤/٤٤، ١١/١٩٥؛ ماير ٩٥).

(٢) الطرطور: جمعه طراير، وهو القلنسوة الطويلة الدقيقة الرأس. (ماير ٩٦-٩٧).

(٣) النعمي، الدارس ٢/١٦٥-١٦٦؛ المقابلة ٨٨.

(٤) النعمي، الدارس ٢/١٦٥-١٦٦.

(٥) خانقاه: وتلفظ خانكاه، وهي كلمة فارسية، معناها في الأصل المائدة، وهو المكان الذي يأكل فيه الملك، كما تعني عملاً للتعبد والتزهد والبعد عن الناس، وتعني أيضاً البيت، وقد دخلت هذه الكلمة العربية منذ انتشار التصوف في الإسلام، فهي كالدير في النصرانية. (المقريزي، الخطط ٤/٢٨٠؛ ابن طولون، القلائد ١/١٩١؛ ابن كنان، المروج ٤٤٨؛ البقلي، التعريف ١١٥؛ العلي، خطط ٤٣٨٩؛ دهمان، معجم ٦٦؛ الخطيب ١٥٨؛ غالب ١٥٧-١٥٨).

(٦) رباط: والرباط من المرابطة أي ملازمة ثغر العدو وأصلها أن يربط كل واحد من الفريقين خيله، ثم صار لزوم الثغر رباطاً، وربما سميت الخيل أنفسها رباطاً، هذا من حيث المعنى اللغوي للكلمة، إلا أن كلمة الرباط تطورت في العصور الإسلامية المتأخرة، ولم تعد تعني ما كانت تعنيه في صدر الإسلام، إذ تحولت من مفهومها العسكري المرتبط بالجهاد إلى ما تعنيه كلمة الزاوية والخانقاه بالنسبة لأصحاب الطرق الصوفية. (ابن منظور ٩/١٧٣-١٧٤؛ المقريزي، الخطط ٤/٣٠٢؛ ابن طولون، القلائد ١/١٩١؛ ابن كنان، المروج ٤٤٨؛ الولي ٦٢؛ العلي، خطط ٢٨٩-٢٩٠؛ الخطيب ٢٠٤-٢٠٥؛ غالب ١٩٥-١٩٧).

(٧) زاوية: وزاوية البيت ركه، وكانت تطلق في بادئ الأمر على صومعة إلهاب المسيحي، ثم أطلقت على المسجد الصغير أو على المصلى، وتطورت الزاوية حيث ارتبطت بالصوفية، وأصبحت مرادفة لكلمة خانقاه ورباط. (ابن منظور ١٩/٨٣-٨٤؛ برونسال ١٧/٥٢٣٩؛ العلي، خطط ٢٩٠-٢٩١؛ الخطيب ٢١٧؛ غالب ٢١١).

(٨) ابن شداد، الأعلام ١٩١-١٩٦؛ الأربلي ٢٤٥-٢٤٦؛ النعمي، الدارس ٢/١٠٩-١١٧؛ العلموي ١٤٠-١٧٧.

وتعد الخوانق والربط والزوايا مؤسسات دينية، حيث ارتبط تأسيسها بالزهد والإعراض عن الدنيا، أو المراقبة على ثغور العالم الإسلامي، إذ شكلت الربط ثكنات عسكرية يربط فيها جند المسلمين للجهاد في سبيل الله، إلى جانب دورها التعليمي، إلا أن هذه المؤسسات تطورت مع تطور فكرة التصوف، وصيغت بصيغة اجتماعية وثقافية، وفي الوقت نفسه انتشرت هذه المؤسسات مع انتشار التصوف وغلبت عليها صفة الانقطاع للعبادة والاشتغال بالعلم^(١)، مع ما رافق هذه المؤسسات من الانحراف عن مسيرتها.

وهناك فرق بين الخوانق والربط من جهة والزوايا من جهة أخرى بالنسبة للبناء المعماري، فابن جبير يقدم لنا وصفاً دقيقاً للربط في دمشق قائلاً: «وأما الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة، وهي برسم الصوفية، وهي قصور مزخرفة، يطرد في جميعها الماء على أحسن منظر يبصر»^(٢)، ويصف ابن طولون الخانقاه القلاسية^(٣) بأنها «تتضمن على مصلى بثلاثة شبايك أوسطها كبير جداً مطلة على نهر يزيد، ويدخل إليه من باب غربية، يسلك إليه على جسر على النهر، ولصيق هذا الباب باب يصعد منه على مثذنة، ولها باب آخر من القبلة بالزقاق شمالي باب بيت ابن عبادة، وشمالي هذه الشبايك ساحة مبلطة يتوصل إليها وإلى الجسر المذكور في سلم حجر طويل بأعلاه فسحة بما الباب الخارج لهذه الدار، وشمالي هذه الفسحة سلم آخر يهبط منه إلى بيت الخلاء وهو وإن كان فوق النهر لكنسه ماء كثير، وبينه وبين تلك الساحة المبلطة جنية وشمالي هذه الدار رباط للنساء»^(٤).

أما الزوايا فقد كانت تختلف عن الخوانق من حيث البناء، إذ كانت الزوايا أصغر حجماً، بينما كانت الخوانق أكبر وأكثر روعة، فوصف ابن طولون الزاوية الأرموية بأنها منحوتة في الصخر وبها عدة خلاوي وخارجها عدة أبنية، وكانت على شكل مربع، لها باب من جهة الشرق وبجانبه شبك، وخارج الباب فسحة بما عدة قبور وبئر ماء^(٥).

وفي الحقيقة، فإن هناك اختلافاً بين دور كل من الخانقاه والرباط والزاوية، فالخانقاه: لفظ مأخوذ عن الفارسية، ويقصد به البيت الذي ينزل فيه الصوفية^(٦)، أما الرباط: فهي عسكرية الأصل^(٧)، حيث أن اتساع الدولة الإسلامية وسيطرتها على رقاع متعددة جعل من الضروري أن توضع أجزاءها

(١) عاشور، المؤسسات ٣٦٧.

(٢) ابن جبير ٢٥٦.

(٣) الخانقاه القلاسية: وكانت في الأصل تعرف بدار الحديث القلاسية، أنشأها صاحب عز الدين أبو يعلى حمزة بن القلاسي، تقع على حافة نهر يزيد، غربي مدرسة أبي عمر وشمالي جامع الأتابكي، أصبحت في عصر ابن طولون القرن (العاشر للهجرة/ الخامس عشر للميلاد) خانقاه. (ابن طولون، القلائد ٨٦-٨٥/١، ١٩١).

(٤) ابن طولون، القلائد ٨٦-٨٧.

(٥) المصدر نفسه ١٩٣/١.

(٦) كرد علي، خطط ١٣٠/٦.

(٧)

النائية_ والتي قد تتعرض إلى ثورات داخلية_ تحت رقابة مستمرة، ومن هنا ينشأ الرباط، حيث كلن يقيم المدافعون عن الدين والدولة، والذين كان يتوجب عليهم أن يدفعوا الأذى عن الحدود وأماكن الاضطراب^(١).

وكان أهل الرباط والمرابطون يجمعون بين الجهاد والحياة الدينية، حتى ضعف خطر المسيحية على الإسلام في الشرق، عندئذ أخذ الرباط يفقد طابعه الحربي، وغلبت عليه الصفة الدينية، ولم يلبث انتشار التصوف زمن المماليك أن خلق مسوغاً لبقاء الربط، فتحوّلت إلى دور للمتصوفة^(٢).

ويبدو من كتابات المعاصرين أن الرباط غلبت عليه صفة الملجأ، فقد ذكر المقرئ أن ييسرس الجاشنكير (٧٠٨هـ/١٣٠٨م_٧٠٩هـ/١٣٠٩م) بنى رباطاً قرر به «مائة من الجند وأبناء الناس الذين قعد بهم الوقت»^(٣)، كذلك نفهم أن الغرض الأساسي من إنشاء الربط الخاصة بالنساء هو أن تكون «كالمودع للنساء الأرامل» فضلاً عن النساء المطلقات^(٤).

أما الزوايا فقد كتب ابن جبير عنها أنها الأماكن التي يعيش بها رجال الدين وهؤلاء الرجال بشكل رئيس من الأجانب^(٥)، أما نيقولا زيادة فيقول أن الزاوية في غالب الأحوال مكان يلجأ إليه أهل التقوى والورع^(٦).

نلاحظ أن الخوانق والربط والزوايا متشابهة في معانيها في عهد المماليك، حتى اختلط الأمر على بعض المعاصرين ولم يستطيعوا التفرقة بين مدلول هذه الألفاظ الثلاثة^(٧)، فابن جبير (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م) يقول أن الربط التي يسمونها خوانق كثيرة^(٨)، وابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) يقول أن الخانقاه هي الزاوية، وأن الناس في العهد المملوكي يطلقون على زواياهم اسم خانقاوات أو خوانق^(٩)، أما المقرئ (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) فقد فرق بين الخوانق والربط والزوايا، وذكر كل نوع في قائمة مستقلة خاصة به، ولكنه في تعريفه لكل نوع لم يخرج عن معنى واحد هو أنها كانت جميعاً «بيت للصوفية ومنزلهم»^(١٠).

(١) زيادة، دمشق ١٢٥-١٢٦.

(٢)

(٣) المقرئ، الخطط ٢٨٥/٤.

(٤) الرربا ٢٥٧، ٢٥٥.

(٥) ابن جبير ٢٦٣.

(٦) زيادة، دمشق ١٢٦.

(٧) المرجع نفسه ١٢٦.

(٨) ابن جبير ٢٥٦.

(٩) ابن بطوطة ٥٦.

(١٠) المقرئ، الخطط ٣٠٢، ٢٨٠/٤.

كما وجد في بعض الخوانق والربط مكاتب للاعتناء بالأيتام وتعليمهم^(١)، أضيف إلى ذلك أن هذه المؤسسات اعتنت بتعليم الأطفال القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، فيذكر النعيمي أنه وجد في الخانقاه الشريفية دار قرآن، وكان يقرأ فيها صحيح البخاري^(٢)، كما أن الرباط الدواداري والذي يقع داخل باب الفرج كان يدرس به الشيخ نور الدين بن قوام^(٣). واشتملت هذه المؤسسات على مكاتب ضمت أعداداً لا بأس بها من الكتب الفقهية وعلوم الدين، وكان خازن المكتبة وخدام هذه المؤسسات يعيرونها لروادها^(٤)، مع وجود عدد من الخلوي المخصصة لرواد هذه المؤسسات لقراءة القرآن وتلاوة الأذكار^(٥). ومن الأدلة على دور هذه المؤسسات الثقافية أن بعضها كانت تجمع بين المدرسة والخانقاه، فكانت المدرسة السامرية تجمع بين دار حديث و خانقاه^(٦).

ومن أهم الخوانق في دمشق:

- ١_ الخانقاه الحسامية: تقع شمالي المدرسة الشبلية البرانية، عند جسر كحيل، وهي منسوبة لأم حسام الدين بن لاجين^(٧).
- ٢_ الخانقاه الخاتونية: تقع بظاهر باب النصر (باب دار السعادة في عصر النعيمي) في أول السحرف القبلي على بانياس، وهي شرقي جامع تكز، منسوبة إلى خاتون بنت معين الدين أنز^(٨).
- ٣_ الخانقاه السمساطية: منسوبة لأبي القاسم السمساطي، وكانت هذه الخانقاه دار عبد العزيز ابن مروان بن الحكم الأموي، وتقع بباب الناطفين^(٩).
- ٤_ الخانقاه الشبلية: أنشأها شبل الدولة كافور المعظمي بسفح جبل قاسيون^(١٠).
- ٥_ الخانقاه العزية: تقع على حافة نهر ثورا، غربي المدرسة الماردانية، أنشأها عز الدين أيدير الظاهري^(١١)

(١) ابن طولون، القلائد ١/١٨٧.

(٢) النعيمي، المدارس ٢/١٢٨.

(٣) المصدر نفسه ٢/١٥٢، ١٦٣.

(٤) الباشا، الفنون ١/٤٤٣.

(٥) ابن طولون، القلائد ١/١٩٣.

(٦) ابن كثير ١٣/٢٩٢.

(٧) النعيمي، المدارس ٢/١١٢-١١٣؛ ابن طولون، القلائد ١/١٨٧؛ بدران ٢٧٣؛ العلي، خطط ٣٩٥.

(٨) النعيمي، المدارس ٢/١١٣.

(٩) النعيمي، المدارس ٢/١١٨-١١٩.

(١٠) النعيمي، المدارس ٢/١٢٧-١٢٨؛ ابن طولون، القلائد ١/١٨٩.

(١١) ابن عبد الهادي، ثمار ١٣٣؛ النعيمي، المدارس ٢/١٣٠؛ ابن طولون، القلائد ١/١٨٩-١٩٠؛ ابن كنان، المواكب

١/٣٢٣، ٣٥٢؛ بدران ٢٨٣؛ العلي، خطط ٤٠٢.

ومن الربط التي وجدت في دمشق آنذاك:

- ١_ رباط أسد الدين شيركوه: يقع قبالة دار أسد الدين شيركوه بدرب زرعه^(١).
- ٢_ الرباط البياني: يقع بجارة درب الحجر، بناه أبو البيان بن محمد بن محفوظ السقرشي الشافعي
الدمشقي المعروف بابن الحواراني^(٢).
- ٣_ الرباط التكريتي: يقع بالقرب من الرباط الناصري بقاسيون، بناه وجيه الدين محمد بن علي ابن
أبي طالب بن سويد التكريتي^(٣).
- ٤_ رباط الحنابلة: يقع في الصالحية^(٤).
- ٥_ رباط دار الحديث القلاسية: يقع شمالي جبل قاسيون^(٥).
- ٦_ الرباط اللواداري: يقع داخل باب الفرّج، ولي مشيخته نور الدين بن قوام^(٦).
- ٧_ رباط زهرة: يقع بالقرب من حمام جاروخ، بجوار دار الأمير مسعود ابن الست عنذرا صاحبة
المدرسة العذراوية^(٧).
- ٨_ رباط الصارمية: يقع غربي مسجد جامع الحنابلة^(٨).
- ٩_ رباط صفية: يقع بالقرب من المدرسة الظاهرية، بنته صفية بنت قاضي القضاة عبد الله بن عطاء
الحنفي^(٩).
- ١٠_ رباط عنزاء خاتون: يقع داخل باب الفرّج^(١٠).
- ١١_ رباط العزية: يقع عند الجسر الأبيض من جهة الغرب^(١١).
- ١٢_ رباط مسجد الزهر: يقع بجارة الحياك الغربية بالصالحية، أنشأته عصمة الدين زهرة بنت الملك
العاقل الأيوبي^(١٢).

(١) النعيمي، المدارس ١٥٢/٢.

(٢) المصدر نفسه ١٥٠/٢.

(٣) المصدر نفسه ١٥٠/٢-١٥١.

(٤) ابن طولون، القلائد ٢٥٦/١.

(٥) المصدر نفسه ٢٥٦/١.

(٦) النعيمي، المدارس ١٥٢/٢.

(٧) المصدر نفسه ١٥١/٢.

(٨) ابن طولون، القلائد ٢٥٦/١.

(٩) النعيمي، المدارس ١٥١/٢.

(١٠) المصدر نفسه ١٥٢/٢.

(١١) ابن طولون، القلائد ٢٥٦/١.

(١٢) ابن طولون، القلائد ٢٥٧/١؛ العلي، خطط ٤١٠.

ومن الزوايا التي وجدت في دمشق آنذاك:

- ١_ الزاوية الأرموية: تقع بجبل قاسيون، منشؤها الشيخ عبد الله بن يونس الأرموي^(١).
- ٢_ الزاوية الحريرية الأعقفية: تقع بالمرزة، منشؤها الشيخ أحمد الأعقف الحريري^(٢).
- ٣_ الزاوية الحريرية: تقع بظاهر دمشق بالشرف القبلي، منشؤها علي الحريري^(٣).
- ٤_ الزاوية الدينورية الشيخية: تقع بسفح جبل قاسيون، بانيها الشيخ أبو بكر الدينوري^(٤).
- ٥_ الزاوية السيوفية: تقع بسفح جبل قاسيون أيضاً، على قبر يزيد، منشؤها نجم الدين عيسى ابن شاه أرم^(٥).

٦_ الزاوية اليونسية: تقع بالشرف الشمالي بدمشق غربي الوراق والمدرسة العزية البرانية، منشؤها الشيخ يونس بن يوسف الشيباني^(٦).

خلاصة القول أن دمشق ضمت عدداً كبيراً من دور العلم من مساجد ومدارس وبيمارستانات وخوانق وربط وزوايا.

وتدلنا كثرة عدد دور العلم في دمشق ما كانت تهدف إليه من ضرورة تلقي الثقافة الإسلامية الدينية وما يتصل بها من علوم العربية، غير أن نمو وانتشار دور العلم المهتم بالمذاهب الفقهية، سواء أكانت حنفية أم شافعية أم حنبلية أم مالكية، إنما يشير إلى رغبة السلطة الحاكمة في توطيد سلطاتها عن طريق الدين والسنة، وتأثير ذلك على المذاهب الفقهية، وكانت دور العلم التي تشترك في أصول أكثر من مذهب فقهي تمثل نوعاً من السعي لإيجاد وحدة ثقافية دينية عند فئات المجتمع الدمشقي المسلمة، كما أن بقاء دور العلم القرآنية يدل على نوع من الاكتفاء بما كان موجوداً منها في دمشق، وما كان يدرس في دور العلم الأخرى.

ومن المعروف أن قراء دمشق في ذلك الوقت اعتمدوا حروف ابن عامر وابن عمسر، وحين ذاعت الشاطبية التي ضمنها القاسم بن فيره الشاطبي بالقراءات السبع، حيث اعتمدت حروفها في القراءات، وبمعنى آخر فإن حروف القراءات العشر لا نجد لها ذبوعاً في دمشق^(٧).

(١) ابن عبد الهادي، ثمار ١٣٣، ٤١٥٣، النعيمي، المدارس ٢/٤١٥٣، ابن طولون، القلائد ١/١٩٣، ابن كان، المواكب ١/٢٥١-٢٥٢، بدران ٢٩٩، العلي، خطط ٤١٣.

(٢) النعيمي، المدارس ٢/١٥٥.

(٣) المصدر نفسه ٢/١٥٤.

(٤) النعيمي، المدارس ٢/١٥٧، ابن طولون، القلائد ١/١٩٤، بدران ٣٠٤، العلي، خطط ٤١٧.

(٥) النعيمي، المدارس ٢/١٥٨-١٥٧، ابن طولون، القلائد ١/١٩٤-١٩٥، بدران ٣٠٦، العلي، خطط ٤١٣.

(٦) النعيمي، المدارس ٢/١٦٦.

(٧) النهي، معرفة ١/٢٩٢، العلي، خطط ٥٤.

علماء دمشق في عهد الأمير تنكز

امتازت نيابة دمشق في العهد المملوكي عامة وفي عهد الأمير تنكز خاصة بظهور العديد من العلماء والفقهاء والأدباء، إذ كانت دمشق في هذه الفترة قبلة لطلاب العلم في بلاد الشام والمشرق الإسلامي عامة، شأنها في ذلك شأن القاهرة - عاصمة الدولة المملوكية - حتى أن كثيراً من علماء المدينة المذكورة كانوا يرحلون إلى القاهرة ويتلقون العلم فيها، لذا فإنه من الصعب علينا أن نفصل الحركة العلمية في هذه النيابة عن القاهرة مركز الدولة - حيث كان العلماء في دمشق والشام عامة على اتصال وثيق بعلماء القاهرة.

وقد شهدت نيابة دمشق في هذا العهد ازدهاراً كبيراً في مجال العلوم المختلفة ومنها:

أولاً: العلوم الدينية:

أ - في مجال الحديث والفقه:

١ - قاضي القضاة تقي الدين سليمان بن حمزة بن أحمد بن الشيخ أبي عمر محمد بن أحمد بن محمد ابن قدامه المقدسي الدمشقي الصالحي:

ولد عام ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م^(١)، وصفه كل من الصفدي والكني فقالا: «الإمام المقيت شيخ المذهب مسند الشام... سمع الصحيح حضوراً في الثالثة من ابن الزبيري وسمع صحيح مسلم ومالا يوصف كثرة من الحفاظ ضياء الدين وربما عنده عنه ست مائة جزء... وتفرّد في عصره ورُحِل إليه وروى الكثير لا سيما بقراءة الشيخ علم الدين الرزالي، وتفقه بالشيخ شمس الدين وصحبه مدة وبرع في المذهب وتخرج به الأصحاب، وله معرفة بتأليف الشيخ موفق الدين وأقرأ المقنع وغيره ودرس بالجوزية وغيرها وولي القضاء عشرين سنة^(٢)».

عزل سنة ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م عن القضاء بالقاضي شهاب الدين بن الحافظ من قبل بيرس الجاشنكير، ولما عاد الناصر محمد بن قلاوون من الكرك ولاه القضاء^(٣).

شارك في العربية والفرائض والحساب وكان مشهوراً بالعدل والفقّه بارعاً في الفقه جيد التدريس^(٤)، عني بالحديث وقراءته وكتابه فقرأ الكتب الكبار والأجزاء وروى الكثير من سماعته وشيوخه بالسماع نحو المائة وبالإجازة نحو السبع مائة^(٥). توفي عام ٧١٥هـ / ١٣١٥م^(٦).

(١) الصفدي، الوالي ٣٧٠/١٥، الكني، هوات ٤٨٣/٢ ابن حجر، الدرر ١٤٦/٢.

(٢) الصفدي، الوالي ٣٧٠/١٥، الكني، هوات ٤٨٣/٢ ابن حجر، الدرر ١٤٦/٢.

(٣) الصفدي، الوالي ٣٧١/١٥، الكني، هوات ٨٣/٢.

(٤) ابن حجر، الدرر ١٤٦/٢.

(٥) المصدر نفسه ١٤٦/٢.

(٦) الذهبي، دول ٢٢١/٢، ذيل ٤٢/٤، الصفدي، الوالي ٣٧٠/١٥، الكني، هوات ٤٨٣/٢ ابن حجر، الدرر ١٤٦/٢.

٢_ صدر الدين محمد بن عمر بن مكّي بن عبد الصمد بن عطية المعروف بابن الوكيل وابن
المرحل:

ولد بدمياط في عام ٦٦٥هـ/١٢٦٧م، ثم ارتحل إلى دمشق ونشأ فيها^(١)، برع في الفقه والحديث والنحو وعلم الكلام والأدب، والشعر، وكان عارفاً بالطلب علماً لا علاجاً^(٢)، وأفتى وناظر، ودرس بالمدرسة الشامية البرانية والجوانية بدمشق، وكذلك المدرسة العذراوية ودار الحديث الأشرافية، وناظر ابن تيمية، ثم انتقل إلى حلب فدرس فيها مدة، ثم انتقل إلى الديار المصرية ودرس بالمشهد الحسيني^(٣). توفي بالقاهرة في ذي الحجة عام ٧١٦هـ/١٣١٧م^(٤).

ومن تصانيفه:

١. الأشباه والنظائر في الفقه^(٥).

٢. شرح الأحكام لعبد الحق^(٦).

٣. الفرق بين الملك والشيء والشهيد والولي^(٧).

٣_ كمال الدين أحمد بن محمد بن أحمد البكري المعروف بابن الشريشي:

ولد بسنجار سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م^(٨)، تولى بدمشق بعض المناصب المهمة كوكالة بيت المال ومشیخة دار الحديث الأشرافية وتدريس المدرسة الناصرية لمدة عشرين سنة، كما درس بالمدرسة الشامية البرانية، وباشر مشیخة الرباط الناصري بقاسيون مدة^(٩)، وكان مشكور السيرة فيما يولى من المناصب المختلفة^(١٠). توفي بالحسا وهو عازم على الذهاب للحج عام ٧١٨هـ/١٣١٨م ودفن هناك^(١١). برع في علوم العربية والفقه والحديث^(١٢).

(١) الذهبي، ذيل ٤٤٥/٤، الصفدي، الوالي ٤٢٦٤/٤، الكتي، فوات ١٣/٤.

(٢) الكتي، فوات ٤٢٥/٤، ابن حجر، الدرر ١٢٠/٤.

(٣) الصفدي، الوالي ٤٢٦٥/٤، ابن كثير ٤٦٥/١٤، ابن حجر، الدرر ١١٦/٤-١١٧، ابن العماد ٤١/٦.

(٤) الذهبي، دول ٢٢٢/٢، ذيل ٤٤٥/٤، الصفدي، الوالي ٢٦٤/٤-٢٦٥، الكتي، فوات ٤١٣/٤، ابن كثير ٤٦٥/١٤، ابن حجر،

الدرر ١٢٣/٤، حاجي خليفة ١٣٦/١.

(٥) الصفدي، الوالي ٤٢٦٧/٤، حاجي خليفة ١٣٦/١، الشوكاني ٢٣٦/٢، كحالة، معجم ٩٥/١١.

(٦) حاجي خليفة ٨٠/١، كحالة، معجم ٩٥/١١.

(٧) الصفدي، الوالي ٤٢٦٧/٤، كحالة، معجم ٩٥/١١.

(٨) الصفدي، الوالي ٤٣٣٧/٧، ابن حجر، الدرر ٢٥٢/١.

(٩) الصفدي، الوالي ٤٣٣٧/٧، ابن كثير ٧٣/١٤، ابن حجر، الدرر ٢٥٢/١.

(١٠) ابن كثير ٧٣/١٤.

(١١) الذهبي، دول ٢٢٥/٢، الصفدي، الوالي ٤٣٣٧/٧، ابن كثير ٧٣/١٤، ابن حجر، الدرر ٢٥٢/١.

(١٢) ابن حجر، الدرر ٢٥٢/١.

البيمارستان النوري وقضاء القضاة بجلب^(١)، «وله الإنشاء الجيد ونثره خير من نظمه وله التواقيع المليحة والإنشاءات الجيدة»^(٢)، حفظ «التنبية»، و«المتخب» في أصول الفقه، و«المحصل» في أصول الدين^(٣). ويلاحظ بأنه برع في الفقه والعربية، كما تولى مناظرة شيخ الإسلام ابن تيمية مرات عديدة، ومع ذلك كان يعترف بإمامته ولا ينكر فضله^(٤). توفي في بلبس وهو قادم إلى الشام من مصر بعد أن ولاه السلطان قضاء دمشق بدلاً من جلال الدين القزويني الذي نقله إلى القاهرة عام ٧٢٧هـ/١٣٢٦م، فنقل إلى القاهرة، ودفن هناك^(٥). ومن تصانيفه:

١. رسالة في الرد على تقي الدين بن تيمية في مسألة الزيارة^(٦).

٢. الدرّة المضية في الرد على ابن تيمية^(٧).

٣. شرح قطعة جيدة من «المنهاج» للنووي^(٨).

٤. فضل الملك على البشر^(٩).

٨- شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحلّيم بن عبد السلام بن عبد الله بن الخضر بن محمد ابن الخضر بن علي بن عبد الله بن تيمية الحواشي الدمشقي:

ولد عام ٦٦١هـ/١٢٦٣م بحران^(١٠)، قدم مع والده وأهله إلى دمشق وهو صغير، فتلقي فيها العلم على يد علمائها^(١١)، فأصبح محدثاً حافظاً مفسراً فقيهاً مجتهداً مشاركاً في أنواع من العلوم^(١٢)، وصفه الصفدي والكني فقالا: «صار من أئمة النقد ومن علماء الأثر مع التدين والذكر والصيانة»^(١٣)، أما ابن كثير فنقل عن الزملاكي قوله فيه: «اجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها،

(١) الذهبي، سير ٤٤٩٩/١٧، الكني، فوات ٧/٤.

(٢) الصفدي، الوالي ٤٢١٥/٤، الكني، فوات ٧/٤.

(٣) الكني، فوات ٧/٤.

(٤) ابن ناصر الدين ١٠٧.

(٥) الجزري ٢٠٧/٢، الذهبي، سير ٤٤٩٩/١٧، الصفدي، الوالي ٤١٦٦/٤، ابن كثير ١٠٦/١٤، ابن حجر، الدرر ٧٥/٤، ابن ناصر الدين ١٧، ابن الصاد ١٧٨/٦، الشوكاني ٢١٣/٢.

(٦) الصفدي، الوالي ٤٢١٥/٤، الكني، فوات ٤٧/٤، ابن الصاد ٧٩/٦.

(٧) الكني، فوات ٧/٤، حاجي خليفة ٥٦٩/١، ابن الصاد ٧٩/٦.

(٨) الكني، فوات ٧/٤، ابن الصاد ٧٩/٦.

(٩) ابن الصاد ٧٩/٦.

(١٠) الجزري ٢١٦/٢، الذهبي، تذكرة ١٤٩٦/٤، سير ٥٠٣/١٧، الصفدي، الوالي ٤١٥/٧، الكني، فوات ١٧٤/١، الياضي ٢٧٨/٤، ابن كثير ١٠٩/١٤، ابن حجر، الدرر ١٤٤/١، ابن تيمية ٢٠، حاجي خليفة ٦٩٨/٢، ابن الصاد ٤٨٠/٦، الشوكاني ٦٣/١.

(١١) الذهبي، تذكرة ١٤٩٦/٤، سير ٥٠٣/١٧، الصفدي، الوالي ٤١٥/٧، الكني، فوات ١٧٤/١، ابن حجر، ابن تيمية ٢٠.

(١٢) الصفدي، الوالي ٤١٥/٧، الكني، فوات ١٧٤/١، ابن حجر، الدرر ١٤٤/١، ابن تيمية ٢٠، حاجي خليفة ٦٩٨/٢، ابن الصاد ٤٨٠/٦، الشوكاني ٦٣/١.

(١٣) الصفدي، الوالي ٤١٥/٧، الكني، فوات ٧٤/١.

وأن له اليد الطولى في حسن التصنيف وجودة العبارة والتقسيم والتدين^(١٠٠).

حدث بدمشق ومصر، وقد امتحن وأوذي مرات، وحس بقلعة القاهرة والإسكندرية وبقلعة دمشق، وذلك بسبب الخلاف بينه وبين فقهاء عصره في بعض المسائل الفقهية، حيث اجتهد فيها وخالفهم^(١٠١)، توفي محبوساً بقلعة دمشق في ذي القعدة عام ٧٢٨هـ/أيلول ١٣٢٨م، وبلغ الذين شاركوا في جنازته أكثر من مئة ألف رجلاً ونساءً، ودفن بمقابر الصوفية بدمشق^(١٠٢). وقد زادت مؤلفاته على ثلاثمائة مجلدة، ومن أهمها:

١. بيان الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح^(١٠٣).

٢. السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية^(١٠٤).

٣. قواعد التفسير^(١٠٥).

٤. مجموع فتاويه في خمسة مجلدات^(١٠٦).

٥. منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية^(١٠٧).

وهناك العديد من المؤلفات الأخرى التي لا يتسع المجال لذكرها^(١٠٨).

٩- قاضي القضاة شمس الدين محمد بن عثمان بن أبي الحسن الأنصاري ابن الحريري الدمشقي:

ولد عام ٦٥٣هـ/١٢٥٥م^(١٠٩)، برع في الفقه والحديث، درس بعدة أماكن بدمشق ثم ولي القضاء بها، ثم ولي القضاء بمصر^(١١٠)، تميز بالنزاهة وابتعاده عن الرشوة وكرهه لها^(١١١) إذ لم يثبت للمصريين أنه ارتشى في حكومة^(١١٢)، توفي بالقاهرة سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م^(١١٣).

(١) ابن كثير ١١٠/١٤.

(٢) الذهبي، تذكرة ١٤٩٧/٤، الصفدي، الوافي ١٥/٧، الكشي، فوات ٧٤/١، ابن كثير ١١٠/١٤، ابن حجر، ابن تيمية ٢١-٣٦، ابن العماد ٨٥/٦.

(٣) الجزري ٢١٤/٢، الذهبي، تذكرة ١٤٩٧/٤، دول ٢٣٧/٢، ذبول ٨٤/٤، سير ٥٠٤/١٧، الصفدي، الوافي ١٥/٧، الكشي، فوات ٧٤/١، اليافعي ٢٧٧/٤، ابن كثير ١٠٩/١٤، ابن حجر، اللب ١٤٩/٢-١٥٢، ابن تيمية ٣٧، ٤٢، ٧٠.

(٤) الصفدي، الوافي ٢٤/٧، الكشي، فوات ٧٦/١، حاجي خليفة ٢٤٧/١.

(٥) حاجي خليفة ٥١/٢، كحالة، معجم ٢٦١/١.

(٦) حاجي خليفة ٣١٧/٢، كحالة، معجم ٢٦١/١.

(٧) الصفدي، الوافي ٢٩/٧، ابن حجر، ابن تيمية ٤٠، كحالة، معجم ٢٦١/١.

(٨) حاجي خليفة ٦٩٨/٢، كحالة، معجم ٢٦١/١.

(٩) للمزيد من المعلومات عن مؤلفاته ينظر: (الصفدي، الوافي ٢٤/٧-٢٩، الكشي، فوات ٧٦/١-٨٠).

حاجي خليفة ١/٢٤٨، ٣٩٤، ٦٨٠، ١٠/٢، ٣٦٩٦، ٣/٦٣، ١٣١، ١٦٩، ٢١٧، ٤/١٣٠-١٣٠، ١٣١، ٢٤٠.

(١٠) الصفدي، الوافي ٤/٤٩٠، ابن كثير ١١٤/١٤.

(١١) الصفدي، الوافي ٤/٩٠.

(١٢) المصدر نفسه ٤/٩٠.

(١٣) الجزري ٢/٢٩٦، الصفدي، الوافي ٤/٤٩٠، ابن كثير ١١٣/١٤، ابن حجر، اللب ٤/٤٠.

ومن مؤلفاته:

١. علق على الهداية شرحاً^(١).

٢. منع الاستبدال، وقد وقف عليه ابن حجر^(٢).

١٠ - برهان الدين إبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع بن ضياء الفزاري المعروف بابن الفرکاح:

ولد عام ٦٦٠هـ/١٢٦١م^(٣)، تعلم الفقه والعربية والأصول والمنطق^(٤)، درس بالمدرسة البادرية، وأذن في الفتوى لجماعة، وعلق في "التنبيه" شرحاً حافلاً في مجلدات، وكان عذب العبارة صادق اللهجة طلق اللسان طويل الدروس، ولي الخطابة بالجامع الأموي بعد عمه شرف الدين، ولملأ توفي ابن صصرى طلب للقضاء فامتنع وألحوا عليه فأصر على موقفه، "وكان يخالف الشيخ تقي الدين في مسائل ومع ذلك فما تاجرا ولا تقاطعا بل كان كل منهما يحترم الآخر"^(٥).

ويقول عنه ابن كثير: "ساد أقرانه وسائر أهل زمانه من أهل مذهبه في دراية المذهب ونقله وتحريره... وبالجملة فلم أر شافعياً من مشايخنا مثله"^(٦). توفي عام ٧٢٩هـ/١٣٢٩م بدمشق^(٧).
ومن مؤلفاته:

١. الإعلام بفضائل الشام^(٨).

٢. تعليقة الفوائد من تنبيه أبي اسحق في الفروع في ستة مجلدات^(٩).

٣. شرح على التنبيه نحو عشرين مجلداً^(١٠).

٤. الفتاوى^(١١).

(١) ابن حجر، اللور ٤/٣٩.

(٢) المصدر نفسه ٤/٤٠.

(٣) الجزري ٢/٢٥٣؛ الصفدي، الوافي ٦/٤٤٣؛ الكتي، فوات ١/٣٣؛ ابن كثير ١٤/١١٧؛ ابن حجر، اللور ١/٤٣٥؛ ابن ناصر الدين ٤/١٥٤؛ حاجي خليفة ٥/١٥٠؛ ابن العماد ٦/٨٨؛ كحالة، معجم ١/٤٣.

(٤) الصفدي، الوافي ٦/٤٤٣؛ الكتي، فوات ١/٣٢.

(٥) الذهبي، ذيل ٤/٨٥-٨٦؛ الصفدي، الوافي ٦/٤٤٤-٤٤٣؛ الكتي، فوات ١/٣٣.

(٦) ابن كثير ١٤/١١٧.

(٧) الجزري ٢/٢٥٣؛ الذهبي، دول ٢/٢٣٧-٢٣٨؛ ذيل ٤/٨٥؛ الصفدي، الوافي ٦/٤٤٤؛ الكتي، فوات ١/٣٣؛ ابن كثير ١٤/١١٧؛ ابن حجر، اللور ١/٣٥١؛ ابن ناصر الدين ٤/١٥٤؛ ابن العماد ٦/٨٨؛ كحالة، معجم ١/٤٤٣؛ الحصن ٢/٥٣٣.

(٨) حاجي خليفة ٥/١٥٠؛ كحالة، معجم ١/٤٤٤؛ الحصن ٢/٥٣٤؛ النجد، معجم ١٣٨.

(٩) حاجي خليفة ٥/١٥٠؛ ابن العماد ٦/٨٨.

(١٠) الصفدي، الوافي ٦/٤٤٣؛ ابن كثير ١٤/١١٧؛ حاجي خليفة ٦/٣٩٦؛ كحالة، معجم ١/٤٤٤.

(١١) حاجي خليفة ٢/٢١٢، ٥/١٥٠؛ كحالة، معجم ١/٤٤٤.

٥. المنائح لطالب الصيد والذبائح^(١).

١١- جمال الدين أحمد بن محمد بن محمد بن نصر الله بن مظفر ابن القلانسي:

درس الفقه والحديث على يد الشيخ تاج الدين الفزاري^(٢)، تولى قضاء العساكر ووكالة بيت المال بدمشق وتدرّس بعض المدارس في المدينة كالمدرسة الأمينية والظاهرية وكتابة توقيع الدست^(٣)، كان صدرًا نبيلًا مليح الشكّل روى عن ابن البخاري و بنت مكّي وأذن لجماعة في الإفتاء^(٤). توفي عام ٧٣١هـ/١٣٣٠م ودفن بسفح قاسيون^(٥).

١٢- قاضي القضاة بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة:

ولد بجماعة في عام ٦٣٩هـ/١٢٤١م^(١)، برع في علوم الحديث والفقه والأصول والتفسير^(٢)، رحل في سبيل العلم، فزار دمشق ودرس بالمدرسة القيصرية، ثم ولي قضاء القلس عام ٦٨٧هـ/١٢٨٨م، ثم نقل إلى قضاء الديار المصرية فوليها عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م، ثم انتقل إلى قضاء الشام علم ٦٩٣هـ/١٢٩٣م فباشر القضاء بدمشق مع الخطابة، ثم ولي مشيخة الشيوخ مع التدريس والأنظار، ثم ولي قضاء الديار المصرية ثانية بعد ابن دقيق العيد، فتولى بمصر قضاء الشافعية^(٣)، وامتدت أيامه إلى أن شاخ وأضر وثقل سمعه فعزل بقاضي القضاة جلال الدين القزويني سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م^(٤)، قال عنه ابن حجر: «كان قوي المشاركة في الحديث عارفاً بالفقه وأصوله ذكياً فطناً مناظراً متفتناً... وكان صاحب معارف يضرب في كل فن بسهم وله وقع في النفوس وجلالة في الصدور... وكان علامة وقته^(٥)». توفي بمصر عام ٧٣٣هـ/١٣٣٢م، فدفن بالقاهرة بالقرب من قبر

(١) حاجي خليفة ١٥/٥، كحالة، معجم ٤٤٤/١.

للمزيد من المعلومات عن مؤلفات ابن الفركاخ ينظر: (ابن كثير ١١٧/١٤، حاجي خليفة ٢٥٦/٢، ١٥/٥ ابن العماد ٨٨/٦، كحالة، معجم ٤٤٤/١ المنجد، معجم ١٣٨).

(٢) الصفدي، الوافي ١٢٥/٨، ابن كثير ١٢٥/١٤، ابن حجر، الدرر ٣٠١/١.

(٣) الذهبي، ذبيل ٩٠/٤، الصفدي، الوافي ١٢٥/٨، ابن كثير ١٢٥/١٤، ابن حجر، الدرر ٣٠١/١.

(٤) الصفدي، الوافي ١٢٦/٨.

(٥) الذهبي، ذبيل ٩٠/٤، الصفدي، الوافي ١٢٦/٨، اليافعي ٢٨٣/٤، ابن كثير ١٢٥/١٤، ابن حجر، الدرر ٣٠١/١.

(٦) الجزري ٦٢٠/٣، الصفدي، الوافي ١٨/٢، ابن كثير ١٣١/١٤، ابن حجر، الدرر ٢٨١/٣، ابن العماد ١٠٥/٦.

كحالة، معجم ٢٠١/٨.

(٧) الجزري ٦٦١/٣، الصفدي، الوافي ١٨/٢.

(٨) الصفدي، الوافي ١٨/٢، ابن كثير ١٣١/١٤، ابن حجر، الدرر ٢٨١/٣، ابن العماد ١٠٥/٦، كحالة، معجم ٢٠١/٨.

(٩) الصفدي، الوافي ١٨/٢.

(١٠) ابن حجر، الدرر ٢٨٢/٣.

الإمام الشافعي^(١). ومن تصانيفه:

١. إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل^(٢).

٢. تحرير الأحكام في تدبير جيش الإسلام^(٣).

٣. تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم^(٤).

٤. غرر التبيان والفوائد اللامحة من سورة الفاتحة^(٥).

٥. المنهل الروي في علوم الحديث النبوي^(٦).

١٣_ شمس الدين محمد بن إبراهيم بن غنائم بن والفر بن سعيد الصالح الحنفي المعروف بابن المهنتس:

ولد عام ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م في دمشق^(٧)، سمع من عدد من علمائها، ثم رحل إلى مصر «وكتب العالي والنازل... وحصل الأصول وخرج وأفاد مع التصون والتواضع وطيب الخلق وصحة النقل»^(٨)، توفي عام ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م^(٩). ومن أعماله: أنه نسخ كتابي تهذيب الكمال، والأطراف للمزي^(١٠).

١٤_ شهاب الدين أحمد بن يحيى بن إسماعيل بن طاهر بن نصر بن جهيل الحلبي الدمشقي:

ولد سنة ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م^(١١)، تفقه على المقدسي وابن الوكيل وابن النقيب وسمع الحديث من الفخر والفااروثي^(١٢)، وولي تدريس الصلاحية بالقلمس مدة ثم تركها وسكن دمشق فولي مشيخة دار الحديث الظاهرية ثم ولي مشيخة البدارية بعد أن ترك الظاهرية إلى أن مات^(١٣)، «وله محاسن ومكارم

(١) الجزري ٢٦٢٠/٣، الذهبي، دول ٢٤٠/٢، ذيول ٩٦/٤، الصفدي، الوالي ١٩٩/٢، اليافعي ٢٨٧/٤، ابن كثير ١٤/١٣١، ابن

حجر، اللور ٢٨٣/٣، حاجي خليفة ١٦٣٢/١، ابن العماد ١٠٦/٦، كحالة، معجم ٢٠١/٨، المنجد، معجم ١٤٠.

(٢) حاجي خليفة ١٠٠/٣، كحالة، معجم ٢٠٢/٨.

(٣) حاجي خليفة ١٤٨/٣، كحالة، معجم ٢٠٢/.

(٤) حاجي خليفة ٣٢٦/١، كحالة، معجم ٢٠١/٨-٢٠٢.

(٥) حاجي خليفة ١٩٧/٢، كحالة، معجم ٢٠١/٨.

(٦) حاجي خليفة ٧٠٧/٢، كحالة، معجم ٢٠١/٨.

للمزيد من المعلومات عن مؤلفات ابن جماعة ينظر: (الصفدي، الوالي ١٩٩/٢، حاجي خليفة ١٦٣٢/١، المنجد، معجم ١٤٠).

(٧) ابن حجر، اللور ٢٩١/٣، ابن ناصر الدين ٧٨.

(٨) الصفدي، الوالي ٢١/٢.

(٩) الذهبي، ذيول ٩٧/٤، سير ٥٠٨/١٧، الصفدي، الوالي ٢١/٢، ابن حجر، اللور ٢٩٢/٣، ابن ناصر الدين ٧٨.

(١٠) الذهبي، ذيول ٩٧/٤، ابن ناصر الدين ٧٨.

(١١) الجزري ٣٢٩/٣، الذهبي، سير ٥٠٧/١٧، الصفدي، الوالي ٢٥٢/٨، ابن كثير ١٤/١٣١، ابن حجر، اللور ٣٢٩/١.

(١٢) الذهبي، سير ٥٠٧/١٧، الصفدي، الوالي ٢٥٢/٨، ابن حجر، اللور ٣٢٩/١.

(١٣) الجزري ٢٦٩/٣، الذهبي، ذيول ٩٧/٤، سير ٥٠٧-٥٠٨، الصفدي، الوالي ٢٥٢/٨، ابن كثير ١٤/١٣١-١٣٢، ابن

حجر، اللور ٣٢٩/١.

وأفتى ودرس وجود العربية^(١)، وكان أولاً ينوب في وكالة بيت المال عند القاضي جمال الدين والقاضي علاء الدين ابني القلانسي ثم انفرد بالوكالة، ثم ولي قضاء القضاة بعد القاضي جمال الدين ابن جملة^(٢)، درس بمدارس الإقبالية والرواحية وترتبة أم الصالح، وولي وكالة بيت المال ثم صار قاضي قضاة الشام بعد ابن جملة عام ٧٣٤هـ/١٣٣٣م^(٣)، قال عنه الصفدي: «كان مجموعاً عظيماً في الفضيلة، أما الفروع والشروط، فكان إماماً لا يجارى في ذلك وفيه مكارم وله محاسن وفيه حزم للناس»^(٤)، أما ابن حجر فقال: «جود العربية وتعاني الشروط فمهر فيها حتى صار إذا رأى المكسوب نظرة واحدة عرف فساده من صلاحه»^(٥).

توفي عام ٧٣٨هـ/١٣٣٧م بسبب وقوعه عن بغلته^(٦)، فدفن بباب الصغير بدمشق^(٧).

١٧_ بدر الدين محمد بن محمد بن عبد القادر الأنصاري، أبو اليسر بن الصائغ:

ولد بدمشق عام ٦٧٦هـ/١٢٧٧م^(٨)، سمع كثيراً من أبيه قاضي القضاة عز الدين أبي المفاخر الدمشقي، كما سمع من ابن شيان، والفخر علي، وبن مكي، وحدث بصحيح البخاري عن اليونيني، وحفظ التنبية، ولازم حلقة الشيخ برهان الدين، وولوه قضاء القضاة، فاستغنى، وأصر على ذلك، فاحترمه الناس وأجوه^(٩)، درس بالمدرسة الدماغية والعمادية، وتولى خطابة القلم مدة قصيرة ثم تركها، مرض أثناء زيارته للقلم في إحدى المرات فنقل إلى دمشق وتوفي عام ٧٣٩هـ/١٣٣٨م ودفن عند أبيه بسفح قاسيون^(١٠)، كان نائب دمشق تنكز يحله ويحترمه^(١١).

١٨_ قاضي القضاة جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن الحسن بن علي بن إبراهيم بن علي بن أحمد بن دلف بن أبي دلف العجلي القزويني الدمشقي:

ولد بالموصل سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م، وبعد عشرين عاماً من الإقامة هناك ارتحل إلى دمشق فتفقه بها وناظر واشتغل، وناب في قضائها لأخيه إمام الدين سنة ٦٩٦هـ/١٢٧٠م^(١٢). وولي خطابة

(١) الجزري ٤٩/٣-٤١، النهي، سير ٥٢٩/١٧، الصفدي، الوالي ٣٧٣/٣.

(٢) الجزري ٤٩/٣-٤١، النهي، سير ٥٢٩/١٧، الصفدي، الوالي ٣٧٣/٣-٣٧٤.

(٣) الجزري ٤٩/٣-٤١، ابن كثر ١٤٧/١٤.

(٤) الصفدي، الوالي ٣٧٤/٣.

(٥) ابن حجر، الدرر ٤٦٧/٣.

(٦) النهي، ذيول ٤/١١٠، سير ٥٢٩/١٧، الصفدي، الوالي ٣٧٤/٣، ابن حجر، الدرر ٤٦٧/٣.

(٧) ابن كثر ١٤٧/١٤.

(٨) النهي، سير ٥٣٨/١٧، الصفدي، الوالي ٣٣٢/١، الكتي، فوات ٢٩٣/٣.

(٩) النهي، سير ٥٣٨/١٧، الصفدي، الوالي ٣٣٢/١، الكتي، فوات ٢٩٣/٣.

(١٠) النهي، ذيول ٤/١١٣، سير ٥٣٨/١٧، الصفدي، الوالي ٣٣٢/١، الكتي، فوات ٢٩٣/٣، اليافعي ٣٠١/٤.

(١١) الصفدي، الوالي ٣٣٢/١، الكتي، فوات ٢٩٣/٣.

(١٢) النهي، سير ٥٣٧/١٧-٥٣٨، الصفدي، الوالي ٢٤٢/٣، ابن كثر ١٤٠/١٤، الشوكان ١٨٣/٢، الحصن ٥٣٦/٢.

الجامع الأموي، ثم ولي قضاء القضاة بالديار المصرية سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م^(١)، عظم شأنه وبلغ من العز والوجاهة مالا يوصف، وحج مع السلطان سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م، ورتب له ما يكفيه^(٢). انتقل إلى قضاء الشام عام ٧٣٨هـ/١٣٣٧م، فحصل له فالج توفي على أثره عام ٧٣٩هـ/١٣٣٨م فدفن بمقابر الصوفية بدمشق^(٣). «وبالجملة كان من كملة الزمان وأفراد العصر»^(٤)، وكان قد أجاز للصفدي عام ٧٢٨هـ/١٣٢٧م^(٥). مؤلفاته:

١. الإيضاح في المعاني والبيان^(٦).
٢. تلخيص مفتاح العلوم للسكاكي^(٧).
٣. الشذر المرجاني من شعر الأرجاني^(٨).
٤. صنف في الأصول كتاباً حسناً^(٩).

١٩- قاضي القضاة برهان الدين إبراهيم بن أحمد بن هلال الزرعي:

ولد عام ٦٨٨هـ/١٢٨٩م^(١٠)، «أتقن الفروع على مذهب ابن حنبل وأصول الفقه والفرائض والحساب وكتب الخط المنسوب للمليح إلى الغاية وكان له قدرة على حكايات الخطوط ومناسباتها ويحمل الناس إليه الكتب ليكتب أسماءها بحسن خطه»^(١١)، قرأ الأصول على ابن الزملكاني وجلال الدين القزويني وغيرهما من الشافعية وكان نائب القاضي علاء الدين ابن المنجا الحنبلي ومدرس المدرسة الحنبلية وناظرها ومدرس وقف سيف الدين بكتمر، ودرس بمدرسة الشيخ أبي عمر وحلقة العماد بالجامع الأموي ومعهد بالمدرسة الصلرية والمدرسة الجوزية والمسمارية^(١٢). توفي سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م وصلي عليه بالجامع الأموي ودفن بدمشق^(١٣).

(١) النهي، سير ٥٣٨/١٧، الصفدي، الوالي ٢٤٢/٣، ابن كثير ١٥٠/١٤، الشوكاني ١٨٣/٢، الحصني ٥٣٦/٢.

(٢) الصفدي، الوالي ٢٤٢/٣.

(٣) النهي، ذيول ١١٣/٤، سير ٥٣٨/١٧، الصفدي، الوالي ٢٤٣/٣، الحسيني، ذيل ١٢٢، الياقبي ٣٠١/٤، ابن كثير ١٥٠/١٤، ابن العماد ١٢٣/٦، الشوكاني ١٨٤/٢.

(٤) الصفدي، الوالي ٢٤٣/٣.

(٥) المصدر نفسه ٢٤٣/٣.

(٦) الصفدي، الوالي ٢٤٣/٣، ابن كثير ١٥٠/١٤، ابن العماد ١٢٣/٦، الحصني ٥٣٦/٢، كحالة، معجم ١٤٦/١٠.

(٧) الصفدي، الوالي ٢٤٣/٣، ابن كثير ١٥٠/١٤، حاجي خليفة ٦١٨/٢، ابن العماد ١٢٣/٦، كحالة، معجم ١٤٦/١٠.

(٨) الصفدي، الوالي ٢٤٣/٣، كحالة، معجم ١٤٦/١٠.

(٩) ابن العماد ١٢٣/٦.

(١٠) الصفدي، الوالي ٣٠٨/٥، ابن حجر، الدرر ١٥/١.

(١١) الصفدي، الوالي ٣٠٨/٥.

(١٢) المصدر نفسه ٣٠٨/٥.

(١٣) النهي، ذيول ١٢٢/٤، الصفدي، الوالي ٣٠٨/٥، ابن حجر، الدرر ١٦/١.

٢٠- علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر بن خليل الشحي البغدادي:

ولد ببغداد عام ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م^(١)، قدم دمشق وولي خزانة الكتب بالخانقاه السمساطية^(٢)، اهتم بدراسة التفسير والفقهاء والحديث والتاريخ^(٣)، توفي بدمشق عام ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م^(٤).
ومن تصانيفه:

١. الروض والحدائق في تهذيب سيرة خير الخلائق محمد المصطفى سيد أهل الصدق والوفاء^(٥).
٢. شرح عمدة الأحكام وسماه «عمدة الإلهام في شرح الأحكام»^(٦).
٣. «الباب التأويل في معاني التنزيل» في التفسير^(٧).
٤. مقبول المنقول : في عشرة مجلدات، جمع فيه بين مسند الشافعي وأحمد والجامع الستة والموطأ والدار قطني^(٨).

٢١- جمال الدين يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الملك القضاعي الكلبي الحلبي
الدمشقي المزي:

ولد بظاهر حلب سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م ، ونشأ بالمزة^(٩)، رحل من أجل تحصيل العلم فسمع الكتب الأمهات الستة والمعجم الكبير وتاريخ الخطيب والنسب لابن الزبير والسيرة والموطأ والخليفة والسنن للبيهقي ودلائل النبوة وغيرها^(١٠)، بلغ عدد شيوخه ألف شيخ، حفظ القرآن، وعنى بالعريية وبرع فيها وأتقن النحو والتصريف، ولي دار الحديث الأشرفية، وحينما وليها تذهب للشافعي، وأشهد عليه بذلك^(١١)، وقد استمر في دار الحديث الأشرفية بدمشق ثلاثاً وعشرين سنة ونصفاً (٧١٨هـ-٧٤٢هـ)، وحينما باشراها قال ابن تيمية: «لم يلبها من حين بنيت إلى الآن أحق بشرط الواقف منه لقول الواقف فإن اجتمع من فيه رواية ومن فيه الدراية قدم من فيه الرواية، قال الذهبي ما رأيت أحداً في هذا الشأن أحفظ منه»^(١٢).

(١) ابن حجر، الدرر ٩٧/٣؛ حاجي خليفة ٤٤٥٤/٢؛ كحالة، معجم ١٧٧/٧؛ المنجد، معجم ١٤٧.

(٢) ابن حجر، الدرر ٩٧/٣؛ حاجي خليفة ٤٤٥٤/٢؛ كحالة، معجم ١٧٧/٧؛ المنجد، معجم ١٤٧.

(٣) ابن حجر، الدرر ٩٧/٣؛ كحالة، معجم ١٧٧/٧؛ المنجد، معجم ١٤٧.

(٤) ابن حجر، الدرر ٩٧/٣؛ حاجي خليفة ٤٤٥٤/٢؛ كحالة، معجم ١٧٧/٧؛ المنجد، معجم ١٤٧.

(٥) حاجي خليفة ٣٧٣/٣؛ كحالة، معجم ١٧٧/٧-١٧٨؛ المنجد، معجم ١٤٧.

(٦) ابن حجر، الدرر ٩٧/٣؛ كحالة، معجم ١٧٧/٧.

(٧) ابن حجر، الدرر ٩٧/٣؛ حاجي خليفة ٤٤٥٤/٢؛ كحالة، معجم ١٧٧/٧.

(٨) ابن حجر، الدرر ٩٧/٣؛ حاجي خليفة ٦٣٩/٢؛ كحالة، معجم ١٧٨/٧.

(٩) الذهبي، تذكرة ١٤٩٨/٤، سير ٥٥١/١٧؛ الكتي، فوات ٣٥٣/٤.

(١٠) الذهبي، تذكرة ١٤٩٨/٤، سير ٥٥١/١٧؛ الكتي، فوات ٣٥٤/٤.

(١١) الكتي، فوات ٣٥٤/٤.

(١٢) ابن حجر، الدرر ٤٥٨/٤.

توفي بدمشق بسبب مرض الطاعون عام ٧٤٢هـ/١٣٤١م، ودفن بمقابر الصوفية^(١). ومن مؤلفاته:

١. تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف: في خمسة أجزاء^(٢).
٢. تهذيب الكمال في معرفة أسماء الرجال^(٣): قيل لم يكمله وأكمله مغلطاي بن قليج (ت ٧٦٢هـ/١٣٦٠م) في ثلاثة عشر مجلداً^(٤).
٣. معجم لشيوخه^(٥).

٢٢_ بدر الدين محمد بن أحمد بن بصخان بن السراج الدمشقي:

ولد بدمشق عام ٦٦٨هـ/١٢٧٠م^(٦)، كان من مشايخ الإقراء بالشام^(٧)، اهتم بعلم القراءات^(٨)، ورحل إلى مصر فاشتغل بالتجارة، ثم درس علوم العربية، فبرع فيها ثم قدم دمشق بعد ستة أعوام وتصدى لإقراء القراءات والنحو وقصده الطلبة للتعليم على يديه^(٩)، ثم تفرغ للإقراء بالجامع الأموي «فازدحم عليه المقرئون وأخذوا عنه وقرأ العربية وله ملك يقوم بمصاححة ولم يتناول من الجهات درهماً ولا طلب جهة مع كمال أهليته... ثم ولي بلا طلب مشيخة التربة الصالحية بعد مجد الدين التونسي بحكم أنه أقرأ من بدمشق في زمانه»^(١٠). توفي عام ٧٤٣هـ/١٣٤٣م بدمشق^(١١). ومن مؤلفاته:

١. التذكرة في الرد على من رد تفخيم الألف وأنكره^(١٢).

٢. شرح حرز الأمانى ووجه التهاني للشاطي^(١٣).

٣. مصنف في وقف حمزة وهشام^(١٤).

(١) الذهبي، تذكرة ٤/١٥٠٠، ذيول ٤/١٢٦، سو ١٧/٥٥١، ابن حجر، الدرر ٤/٤٦١، حاجي خليفة ١/١٤٨، المحصن ٢/٥٣٦.
(٢) الذهبي، تذكرة ٤/١٤٩٨، ذيول ٤/١٢٦، الكشي، الوات ٤/٣٥٥، ابن ناصر الدين ٢٢٩، حاجي خليفة ١/١٤٨، كحالة، معجم ١٣/٣٠٨.

(٣) الذهبي، تذكرة ٤/١٤٩٨، ذيول ٤/١٢٦، الكشي، الوات ٤/٣٥٥، ابن حجر، الدرر ٤/٤٥٨، ابن ناصر الدين ٢٢٩، حاجي خليفة ٢/٤٣٠، كحالة، معجم ١٣/٣٠٨، المنجد، معجم ١٤٨.

(٤) حاجي خليفة ٢/٤٣٠.

(٥) كحالة، معجم ١٣/٣٠٨.

(٦) الصفدي، الوالي ٢/١٥٩، ابن حجر، الدرر ٣/٣١٠، كحالة، معجم ٨/٢٣٨.

(٧) ابن حجر، الدرر ٣/٣٠٩-٣١٠، كحالة، معجم ٨/٢٣٨.

(٨) الصفدي، الوالي ٢/١٥٩.

(٩) المصدر نفسه ٢/١٥٩.

(١٠) المصدر نفسه ٢/١٥٩-١٦٠.

(١١) الصفدي، الوالي ٢/١٦٠، ابن حجر، الدرر ٣/٣١١، كحالة، معجم ٣/٢٣٨.

(١٢) كحالة، معجم ٨/٢٣٨.

(١٣) المرجع نفسه ٨/٢٣٨.

(١٤) المرجع نفسه ٨/٢٣٨.

٢٣_ شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن عبد الحميد بن عبد الهادي بن يوسف بن محمد بن قدامه المقدسي الصالحي الدمشقي:

ولد بدمشق عام ٧٠٥هـ/١٣٠٥م^(١)، درس الحديث والفقه والعربية على يد علماء دمشق، مثل: القاضي تقي الدين سليمان بن حمزة وأبو بكر بن عبد الدائم وعيسى المطعم وأحمد بن أبي طالب الحجار، وتفقه بالقاضي شمس الدين بن مسلم وتردد كثيراً إلى العلامة تقي الدين بن تيمية وأخذ العربية عن أبي العباس الأندلسي، حفظ كتباً كثيرة في الفقه والحديث، اجتمع به الصفدي أكثر من مرة^(٢)، أما ابن كثير فوصفه قائلاً: «حصل من العلوم ما لا يبلغه الشيوخ الكبار، وتفنن في الحديث والنحو والتصريف والفقه والتفسير والأصليين والتاريخ والقراءات»^(٣)، توفي بدمشق عام ٧٤٤هـ/١٣٤٣م ودفن بسفح قاسيون^(٤).

ومن مؤلفاته:

١. الإعلام في ذكر مشايخ الأمة الأعلام «أصحاب الكتب الستة»^(٥).

٢. تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق لابن الجوزي، مجلدان^(٦).

٣. العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية^(٧).

٤. فضائل الشام^(٨).

٥. مولد النبي^(٩).

٢٤_ شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية:

ولد في دمشق عام ٦٩١هـ/١٢٩٢م^(١٠)، لازم ابن تيمية، برع في الفقه والأصول والحديث والنحو، فأصبح مفتياً ومحدثاً، ولما لزمته ابن تيمية سجن معه في قلعة دمشق، ولم يفرج عنه إلا بعد

(١)الصفدي، الوالي ١٦١/٢ ابن كثير ١٦٩/١٤ ابن حجر، الدرر ٣/٣٣١ ابن ناصر الدين ٦٣ الشوكاني ١٠٨/٢.

(٢)الصفدي، الوالي ١٦١/٢-١٦٢.

(٣)ابن كثير ١٦٩/١٤.

(٤)الصفدي، الوالي ١٦١/٢ ابن كثير ١٦٩/١٤ ابن حجر، الدرر ٣/٣٣٢ ابن ناصر الدين ٦٤ الشوكاني ١٠٩/٢.

(٥)المنجد، معجم ١٥٧.

(٦)ابن حجر، الدرر ٣/٣٣٢ ابن ناصر الدين ٦٣ الشوكاني ١٠٨/٢.

(٧)المنجد، معجم ١٥٧.

(٨)المرجع نفسه ١٥٧.

(٩)المرجع نفسه ١٥٧.

للمزيد من المعلومات عن مؤلفات ابن قدامة ينظر: (الصفدي، الوالي ١٦١/٢ ابن حجر، الدرر ٣/٣٣٢ ابن ناصر الدين ٦٣

حاجي خليفة ١/١٧٨، ٣٤٠ الشوكاني ١٠٨/٢).

(١٠)الصفدي، الوالي ٦/٢٧٠ ابن ناصر الدين ١٢٤.

وفاة ابن تيمية^(١).

قال عنه الصفدي: «اشتغل كثيراً وناظر واجتهد وأكب على الطلب وصنف وصار من الأئمة الكبار في علم التفسير والحديث والأصول فقهاً وكلاماً والفروع والعريية ولم يخلف الشيخ العلامة تقي الدين ابن تيمية مثله^(٢)».

أما ابن كثير فيذكر أنه برع في علوم متعددة «لا سيما علم التفسير والحديث والفقاهة... ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه^(٣)». توفي في رجب عام ٧٥١هـ/أيلول ١٣٥٠م، ودفن في سفح قاسيون بدمشق^(٤).

ومن تصانيفه:

١. تهذيب سنن أبي داود وإيضاح مشكلاته والكلام على ما فيه من الأحاديث المعلولة، مجلد^(٥).
٢. سفر المحررتين وباب السعادتين: مجلد ضخمة^(٦).
٣. عقد محكم الأحقاء بين الكلم الطيب والعمل الصالح المرفوع إلى رب السماء: مجلد ضخمة^(٧).
٤. مراحل السائرين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين: مجلدان^(٨).
٥. منازل السائرين لشيخ الإسلام الأنصاري^(٩).

٢٥_ قاضي القضاة تقي الدين علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام بن يوسف بن موسى السبكي المصري الدمشقي:

ولد بسبك البيد بالقاهرة سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م^(١٠)، قرأ القرآن واشتغل بالتفسير والحديث والفقاهة وأصوله والنحو والمنطق والجبر والمقابلة والحكمة والطب^(١١)، درس بالقاهرة ثم رحل إلى دمشق

(١) ابن العماد ١٦٨/٦، كحالة، معجم ١٠٦/٩.

(٢) الصفدي، الوالي ٢٧١/٢.

(٣) ابن كثير ١٨٨/١٤، السعاوي ٥٤/١.

(٤) الذهبي، ذيل ١٥٥/٤، الصفدي، الوالي ٢٧٢/٢، ابن كثير ١٨٨/١٤، ابن حجر، الدرر ٤٠٣/٣، السعاوي ٥٣/١، حاجي خليفة ٤٤٦/٢، ابن العماد ١٦٨/٦، الحصني ٥٣٩/٢.

(٥) الصفدي، الوالي ٢٧١/٢، حاجي خليفة ٤٤٦/٢، ابن العماد ١٦٩/٦، كحالة، معجم ١٠٧/٩.

(٦) الصفدي، الوالي ٢٧١/٢، ابن حجر، الدرر ٤٠٦/٣، ابن ناصر الدين ١٢٤، حاجي خليفة ٢٣٦/٢، ابن العماد ١٦٩/٦.

(٧) ابن العماد ١٦٩/٦.

(٨) المصدر نفسه ١٦٩/٦.

(٩) المصدر نفسه ١٦٩/٦.

للمزيد من المعلومات عن مؤلفات ابن قيمة الجوزية ينظر: (الصفدي، الوالي ٢٧١/٢، الدرر ٢٧٢، ٢٧١/٢، ابن حجر، الدرر ٤٠٢/٣، ابن ناصر

الدين ١٢٤، حاجي خليفة ١٥٤/١، ١٥٧، ٢٢٧، ٣١٩، ٣٧٢، ٤٨٧، ٥٥٩، ٦٤٧، ٦٨٠، ٤/٢، ١٠٥، ٤٤١، ٥٩١، ٥٩٢.

ابن العماد ١٦٩/٦، ١٧٠، كحالة، معجم ١٠٧/٩).

(١٠) الصفدي، الوالي ٢١/٢٥٥، الحسيني، ذيل ٣٩، ابن حجر، الدرر ٦٣/٣.

(١١) الصفدي، الوالي ٢١/٢٥٥.

عام ٧٠٧هـ/١٣٠٧م لتلقي العلم هناك أيضاً، ثم رحل إلى الحجاز فجمع فنون العلم من الفقه والأدب والنحو واللغة والشعر^(١)، ولي قضاء الشام عام ٧٣٩هـ/١٣٣٨م، خطب في الجامع الأموي أياماً عام ٧٤٢هـ/١٣٤١م، ودرس بدار الحديث الأشرفية والشامية البرانية^(٢)، يذكر ابن حجر أنه «كان لا يقع له مسألة مستغربة أو مشكلة إلا ويعمل فيها تصنيفاً يجمع فيها شتاها طال أو قصر»^(٣)، وبعد أن مكث في الشام زمناً طويلاً توجه إلى القاهرة وتوفي فيها عام ٧٥٦هـ/١٣٥٥م^(٤). ومن مصنفاته:

١. الابتهاج في شرح المنهاج في الفقه للنووي^(٥).
 ٢. التحقيق في مسألة التعليق: رداً على ابن تيمية في الطلاق^(٦).
 ٣. تكملة المجموع في شرح المهذب للنووي في خمسة مجلدات^(٧).
 ٤. الدر التنظيم في تفسير القرآن العظيم: عمل منه مجلدين ونصفاً^(٨).
 ٥. شفاء الشقاق في زيارة خير الأنام رداً على ابن تيمية أيضاً في إنكاره سفر الزيارة^(٩).
- ٢٦- صلاح الدين خليل بن كيكليدي بن عبد الله العلامي الدمشقي:
- ولد بدمشق عام ٦٩٤هـ/١٢٩٤م^(١٠)، سمع الحديث على يد علماء دمشق ومصر والحجاز، برع في الفقه والأصول والعربية، وقد أجاز له بالسمع من شيوخه سبعمائة شيخ، ولي تدريس الحديث بالناصرية ثم درس بالأسدية^(١١). توفي بالقلس عام ٧٦١هـ/١٣٥٩م، حيث كان يدرس بالمدرسة الصلاحية كما تولى مشيخة دار الحديث السيفية بالقلس أيضاً^(١٢).

-
- (١) الحسين، ذيل ٣٩، ابن حجر، الدرر ٦٤/٣.
- (٢) الحسين، ذيل ٣٩، ابن حجر، الدرر ٦٤/٣، الحصن ٥٤٠/٢.
- (٣) ابن حجر، الدرر ٦٤/٣.
- (٤) الحسين، ذيل ٤٤٠، ابن كثير ٢٠١/١٤، ابن حجر، الدرر ٧٠/٣، الحصن ٥٤٠/٢.
- (٥) الصفدي، الوالي ٢١/٢٥٥، الحسين، ذيل ٤٤٠، حاجي خليفة ٢/٦٩٨-٦٩٩، الحصن ٥٤١/٢.
- (٦) الصفدي، الوالي ٢١/٢٥٥، الحسين، ذيل ٤٤٠، حاجي خليفة ١/٣٢١، ٣٢١.
- (٧) الصفدي، الوالي ٢١/٢٥٥، الحسين، ذيل ٤٠.
- (٨) الصفدي، الوالي ٢١/٢٥٥، حاجي خليفة ١/٣٦٨، الحصن ٥٤١/٢.
- (٩) الصفدي، الوالي ٢١/٢٥٥، الحسين، ذيل ٤٠.
- للمزيد من المعلومات عن مؤلفات السبكي ينظر: (الصفدي، الوالي ١/٣٣٢، ٢١/٢٥٦، الكتي، هوات ٣/٢٩٣، الحسين، ذيل ٤٠، حاجي خليفة ٢/٥٦، ٤٨١).
- (١٠) الصفدي، الوالي ١٣/٤٤١، الحسين، ذيل ٤٤٣، ابن ناصر الدين ١٧٣، ابن العماد ٦/١٩٠.
- (١١) الصفدي، الوالي ١٣/٤١٢-٤١٣، ابن حجر، الدرر ٢/٩١، ابن ناصر الدين ١٧٣، ابن العماد ٦/١٩٠.
- (١٢) الصفدي، الوالي ١٣/٤١٢-٤١٣، ابن حجر، الدرر ٢/٩١، ابن ناصر الدين ١٧٣، حاجي خليفة ٣/١٩٦، ابن العماد ٦/١٩٠.

ومن مصنفاته:

١. إثارة الفوائد المجموعة في الإشارة إلى الفرائد المسموعة: وهي إجازات شيوخه بالسماع^(١).
٢. الأربعين في أعمال المتقين: في ستة وأربعين جزءاً^(٢).
٣. برهان التيسير في عنوان التفسير^(٣).
٤. تحفة الرائض بعلوم آيات الفرائض^(٤).
٥. النفحات القدسية: مجلد كبير^(٥).

٢٧_ صلاح الدين عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن غنائم الصالحى الدمشقى المعروف بابن المهندس:

ولد بدمشق عام ٦٩١هـ/ ١٢٩١م^(١)، درس الفقه والحديث^(٢)، سمع من عدد من علمائها، وأحضر على عمر بن القواس معجم ابن جميع، وأجاز له التقي الواسطي وجماعة، نزل بجلب وحدث بالكثير، وذكر ابن حجر عن ابن رافع أن والده "خرج له أربعين حديثاً من عواليه وكتب بخطه بعض الطباقي، واشتغل ونزل بالمدارس، وحج مراراً على قدمه من مصر ودمشق، وأخبرني أنه حفظ المختار وعرضه على القاضي الحريري ستة عشر، وحفظ قطعة من الهداية، وكتب بخطه كثيراً بالأجرة... وقدّم القاهرة سنة ٧٣١هـ/ ١٣٣٠م وسمع قليلاً^(٣). توفي عام ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م في دمشق^(٤).
ألف: طبقات الفقهاء الحنفية^(٥).

٢٨_ القاضي تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي بن تمام بن يوسف بن موسى بن تمام الأنصاري الشافعي، السبكي:

ولد عام ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م في سبك بالقاهرة، درس الفقه على يد علماء القاهرة، ثم قدم دمشق مع والده عام ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م فلزم الذهبي وتعلم على يديه، فسرّع في الفقه والأصول والتاريخ

(١)الصفدي، الوالي ٤١١/١٣

(٢)الصفدي، الوالي ٤١١/١٣، الحسين، ذيل ٤٤.

(٣)الصفدي، الوالي ٤١١/١٣، الحسين، ذيل ٤٥، كحالة، معجم ٤/١٤٦.

(٤)الصفدي، الوالي ٤١١/١٣، الحسين، ذيل ٤٥، ابن العماد ٦/١٩١.

(٥)الصفدي، الوالي ٤١١/١٣، الحسين، ذيل ٤٤.

للمزيد من المعلومات عن مؤلفات ابن كيكلي ينظر: (الصفدي، الوالي ٤١١/١٣، ٤١٢، الحسين، ذيل ٤٤، ٤٥، حاجي خليفة ١/٣٢١، ٤٢٥، ٣/١٩٦، ٤/٣٦٤، ٤٤٧٥، ابن العماد ٦/١٩٠، ١٩١، كحالة، معجم ٤/١٢٦).

(٦)ابن حجر، الدرر ٢/٢٨٢.

(٧)ابن حجر، الدرر ٢/٢٨٢، المنجد، معجم ١٩٨.

(٨)ابن حجر، الدرر ٢/٢٨٢.

(٩)ابن حجر، الدرر ٢/٢٨٢، حاجي خليفة ٢/١١٧.

(١٠)ابن حجر، الدرر ٢/٢٨٢، حاجي خليفة ٢/١١٧، المنجد، معجم ١٩٨.

والأدب والنظم والشعر، ولي بدمشق القضاء وخطابة الجامع الأموي، ودرس في غالب مدارسها^(١). ويلاحظ بأنه تولى منصب القضاء في دمشق مرتين "وحصل له بسبب القضاء محنة شديدة مرة بعد مرة وهو في غاية الثبات، ولما عاد إلى منصبه صفح عن كل من أساء إليه... وجرى عليه من المحن والشدائد ما لم يجر على قاض قبله وحصل له من المناصب والرياسة ما لم يحصل لأحد قبله... وكان كريماً مهياً"^(٢)، توفي بدمشق عام ٧٧١هـ/١٣٦٩م^(٣).

ومن أهم مؤلفاته:

١. شرح منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل سماه: "رفع الحاجب شرح مختصر ابن الحاجب"^(٤).
٢. شرح منهاج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوي^(٥).
٣. طبقات الشافعية الصغرى والوسطى والكبرى^(٦).
٤. الفتاوى^(٧).
٥. معجم لشيوخة^(٨).
٦. معيد النعم ومبيد النقم^(٩).

٢٩- تقي الدين محمد بن رافع بن أبي محمد هجوس بن شافع بن محمد بن نعمة السلامي الدمشقي:

ولد بمصر عام ٧٠٤هـ/١٣٠٤م، وارتحل به أبوه إلى دمشق سنة ٧١٤هـ/١٣١٤م^(١٠)، فدرس علوم الحديث والفقه وأخذ عن المزني والبرزالي والذهبي، ودرس بدار الحديث النورية وبالمدرسة الفاضلية، وكان متقناً محرراً^(١١)، وصفه ابن حجر فقال: "محدث مشهور... وقد ذكر لي شيخنا الحافظ أبو الفضل العراقي أن الشيخ تقي الدين السبكي كان يرجحه في معرفة اصطلاح أهل

(١) ابن حجر، الدرر ٤٤٢٦/٢ الحصن ٥٤٤/٢.

(٢) ابن حجر، الدرر ٤٤٢٦/٢ الشوكاني ٤١٠/١-٤١١.

(٣) ابن حجر، الدرر ٤٤٢٨/٢ السخاوي ١١٧٧/١ حاجي خليفة ٦٠٢/٢ الشوكاني ٤٤١١/١ الحصن ٥٤٤/٢.

(٤) حاجي خليفة ٦٧٩/١ كحالة، معجم ٢٢٢٦/٦ الحصن ٥٤٤/٢.

(٥) حاجي خليفة ٧٠٣/٢ كحالة، معجم ٢٢٢٦/٦ الحصن ٥٤٤/٢.

(٦) حاجي خليفة ١١١٨/٢ كحالة، معجم ٢٢٢٦/٦ الحصن ٥٤٤/٢ المنجد، معجم ١٩٩.

(٧) حاجي خليفة ٢١٥/٢ كحالة، معجم ٢٢٢٦/٦.

(٨) المنجد، معجم ١٩٩.

(٩) حاجي خليفة ٦٠٢/٢ كحالة، معجم ٢٢٢٦/٦ الحصن ٥٤٤/٢.

(١٠) ابن حجر، أنباء ٥٩/١، الدرر ٤٤٣٩/٣ ابن ناصر الدين ١٨٨ المنجد، معجم ٢٠٨.

(١١) ابن حجر، أنباء ٥٩/١، الدرر ٤٣٩/٣.

الحديث على ابن كثير^(١)، زار حلب وحماة، توفي بدمشق عام ٧٧٤هـ/١٣٧٢م ودفن بباب الصغير^(٢).

ومن أهم مصنفاته:

١. الذيل على مشتبته النسبة للذهبي^(٣).
 ٢. المختار المذيل به على تاريخ بغداد لابن النجار^(٤).
 ٣. مشيخة الشيخ الجليل عبد العزيز يوسف الدقوقي^(٥).
 ٤. معجمه: ويشتمل على أكثر من ألف شيخ في أربعة مجلدات^(٦).
 ٥. نظم الدرر السنية في السيرة الزكية^(٧).
 ٦. الوفيات، ذيل به على تاريخ البرزالي من سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م^(٨).
- ٣٠_ الشريف محمد بن الحسن بن عبد الله الشافعي الحسيفي الدمشقي:
ولد بواسط في سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م^(٩)، قدم مصر، برع في الحديث ودرس الفقه والأصول، ثم ذهب إلى دمشق ونزل بالمدرسة الشامية الجوانية^(١٠)، توفي بدمشق عام ٧٧٦هـ/١٣٧٤م^(١١).
ومن أهم المصنفات التي ألفها:

١. شرح مختصر ابن الحاجب في ثلاثة مجلدات^(١٢).
٢. شفاء السقام في سيرة الأنام^(١٣).
٣. مجمع الأحباب في تاريخ الصوفية^(١٤).
٤. المكاتبات العلية في مناقب الشافعية^(١٥).

(١) ابن حجر، اللور ٤٣٩/٣.

(٢) ابن حجر، أنباء ٥٩/١، اللور ٤٤٠/٣، ابن ناصر الدين ٤٨٨، السخاوي ١٩٣/١.

(٣) المنجد، معجم ٢٠٩.

(٤) ابن حجر، اللور ٤٣٩/٣، المنجد، معجم ٢٠٨.

(٥) المنجد، معجم ٢٠٩.

(٦) ابن حجر، أنباء ٥٩/١، اللور ٤٣٩/٣، ابن ناصر الدين ٤٨٩، السخاوي ١٩٣/١، المنجد، معجم ٢٠٨.

(٧) المنجد، معجم ٢٠٩.

(٨) ابن حجر، أنباء ٥٩/١، اللور ٤٣٩/٣، السخاوي ١٩٣/١، حاجي خليفة ٤٨٠/٥/٢، المنجد، معجم ٢٠٨.

(٩) ابن حجر، أنباء ١٢٨/١، اللور ٤٢٠-٤٢١.

(١٠) ابن حجر، اللور ٤٢١/٣، المنجد، معجم ٢١١.

(١١) ابن حجر، أنباء ١٢٨/١، اللور ٤٢١/٣، المنجد، معجم ٢١١.

(١٢) ابن حجر، أنباء ١٢٨/١، اللور ٤٢١/٣.

(١٣) المنجد، معجم ٢١١.

(١٤) المرجع نفسه ٢١١.

(١٥) المرجع نفسه ٢١١.

٣١_ شمس الدين محمد بن يوسف بن إلياس الرومي الحنفي القونوي :

ولد سنة بضع عشرة وسبعمائة^(١)، واشتغل بالعلم في بلاده، ثم قدم دمشق فأقام بالمرّة منعزلاً^(٢)، قال ابن حجر عنه "ولم يتول بها «دمشق» وظيفة ولا تدريساً إلى أن فاق أهل زمانه في العبادة والزهاده، وارتفع صيته وقبلت شفاعته، وخضع له الكبار، وصنف التصانيف المفيدة واشتهر^(٣)، توفي بدمشق عام ٧٨٨هـ/١٣٨٦م^(٤).

ومن مصنفاته:

١. التلخيص في شرح تلخيص المفتاح درر البحار في الفروع^(٥).
٢. شرح عمدة العقائد للنسفي^(٦).
٣. شرح مسلم للنووي^(٧).
٤. المغني في شرح مجمع البحرين لابن الساعاتي في عشرة مجلدات^(٨).

ب_ التصوف:

١_ رافع بن هجرس الصميدي الصوفي:

ولد عام ٦٦٩هـ/١٢٧٠م^(٩)، عني بالرواية والقراءات، وأخذ عن ابن أبي عمير والفخر وأبي حامد بن الصابوني وغازي الخلاوي وابن خطيب المرّة وابن حمدان وغيرهم^(١٠)، أقام بدمشق، ثم تحول إلى القاهرة فتفقه على العلم العراقي ولازم ابن دقيق العيد والدمياطي، وأخذ في العربية عن البهاء ابن النحاس^(١١)، كان محدثاً زاهداً مقرئاً صالحاً، درس ببعض المدارس، كما ولي عقود الأتكة^(١٢)، مات كهلاً عام ٧١٨هـ/١٣١٨م عن تسع وأربعين سنة^(١٣).

(١) ابن حجر، أنباء ٢٤٤/٢-٢٤٥، الدور ٤/٢٩٢.

(٢) ابن حجر، أنباء ٢٤٥/٢، الدور ٤/٢٩٢.

(٣) ابن حجر، الدور ٤/٢٩٢.

(٤) ابن حجر، أنباء ٢٤٤/٢، الدور ٤/٢٩٢؛ السخاوي ١/٢٧٨؛ حاجي خليفة ١/٣٨٧؛ الحصني ٢/٥٤٥.

(٥) ابن حجر، الدور ٤/٢٩٢؛ السخاوي ١/٢٧٨؛ حاجي خليفة ١/٣٨٧؛ الحصني ٢/٥٤٦.

(٦) حاجي خليفة ٤/٨٧.

(٧) ابن حجر، أنباء ٢٤٦/٢، الدور ٤/٢٩٢؛ الحصني ٢/٥٤٦.

(٨) ابن حجر، أنباء ٢٤٦/٢؛ السخاوي ١/٢٧٨؛ الحصني ٢/٥٤٦.

(٩) ابن حجر، الدور ٢/١٠٦.

(١٠) الصفدي، الوافي ١٤/٤٧١؛ ابن حجر، الدور ٢/١٠٦.

(١١) ابن حجر، الدور ٢/١٠٦-١٠٧.

(١٢) المصدر نفسه ٢/١٠٧.

(١٣) الصفدي، الوافي ١٤/٤٧١؛ ابن حجر، الدور ٢/١٠٧.

٢ _ شهاب الدين محمد بن عبد الرحيم بن عمر الباجري الجزري:

ولد عام ٦٧٦هـ/١٢٧٧م^(١)، تحول جمال الدين بولديه بعد عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م إلى دمشق^(٢)، فسمعا من ابن البخاري، وجلسا للإفادة والإفتاء، درس والدهما ومات بعد السبعمئة وكان قد شاخ، فتزهد شهاب الدين الباجري المذكور وحصل له حال وكشف وانقطع فصحه جماعة من الرذالة، وهون لهم أمر الشرائع وأراهم بوارق شيطانية، وكان له قوة تأثير، فقصدته جماعة من الفضلاء، حتى قال لأحدهم مرة: وصلت في سلوكي إلى السماء الرابعة، فطلب الباجري وحكم بإراقة دمه فاختمني، وحكي عنه التهاون في الصلاة وذكر النبي من غير تعظيم ولا صلاة، فحكم عليه قاضي المالكية جمال الدين الزواوي بإراقة دمه، فهرب إلى العراق، ثم سعى أخوه بحماية ببيرس العلامسي إلى القاضي الحنبلي، فشهد نحو عشرين شخصاً بأن الذين شهدوا عليه التهاون في أمور الدين وهم ستة بينهم وبينه عداوة، فحقت القاضي الحنبلي دمه، فغضب القاضي المالكي وجدد الحكم بقتله^(٣)، ثم جاء شهاب الدين الباجري بعد مدة إلى دمشق ونزل بالقابون على باب دمشق ولم يزل محتفياً إلى أن مات وذلك عام ٧٢٤هـ/١٣٢٣م^(٤)، وكان يقول "إن الرسل طولت على الأمم الطريق إلى الله"^(٥).

٣ _ إبراهيم بن أبي البركات الصوفي:

ولد عام ٦٥٠هـ/١٢٥٢م^(٦)، "أحد الأخوة، شيخ الخانقاه الأسدية، وإمام تربة بني صصرى"^(٧)، وصفه الصفدي بقوله: "كان شيخاً منور الشيبة مليح الشكل حلو المذاكرة عليه أنسس المشاهدة، صحب المشايخ، وسمع من الشيخ الفقيه اليونيني، فكان خاتمة أصحابه"^(٨).

أما ابن حجر فوصفه بقوله: "كان ذا حرمة وجلالة بين القادرية والسلاوية"^(٩)، توفي عام ٧٤٠هـ/١٣٣٩م ودفن بسفح قاسون^(١٠).

(١) ابن حجر، الدرر ١٢/٤.

(٢) الذهبي، سير ٤٧٦/١٧، الصفدي، الوافي ٢٤٩/٣، الكشي، فوات ٣٩٧/٣-٣٩٨.

(٣) الذهبي، سير ٤٧٦/١٧، الصفدي، الوافي ٢٤٩/٣-٢٥٠، الكشي، فوات ٣٩٨/٣، ابن حجر، الدرر ١٣/٤.

(٤) الذهبي، سير ٤٧٦/١٧، الصفدي، الوافي ٢٥٠/٣، الكشي، فوات ٣٩٩/٣.

(٥) الذهبي، سير ٤٧٧/١٧، الصفدي، الوافي ٢٥٠/٣، الكشي، فوات ٣٩٩/٣، ابن حجر، الدرر ١٣/٤-١٤.

(٦) الصفدي، الوافي ٣٣٧/٥، ابن حجر، الدرر ٢٠/١.

(٧) الصفدي، الوافي ٣٣٧/٥.

(٨) المصدر نفسه ٣٣٧/٥.

(٩) ابن حجر، الدرر ٢٠/١.

(١٠) الصفدي، الوافي ٣٣٧/٥، ابن حجر، الدرر ٢٠/١.

٤ _ علاء الدين علي بن محمود بن حميد القونوي الصوفي شيخ الشيوخ الحنفي:

ولد سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م^(١)، درس بالمدرسة القليجية بدمشق^(٢)، ولما توفي قاضي القضاة شرف الدين محمد بن أبي بكر المالكي شغرت مشيخة الشيوخ بالسميساطية، فتولى علاء الدين مشيخة الشيوخ بالشام مكانه، وكان القاضي شرف الدين يأخذ من كل خانقاه في الشام عشرة دراهم في الشهر ونصيبين فأبطل ذلك، ولم يتناوله، ولم يزل على ذلك إلى أن توفي في أوائل شهر رمضان سنة ٧٤٩هـ/تشرين الثاني ١٣٤٨م^(٣)، وكان يعرب الكتب الواردة على ديوان الإنشاء باللغة العجمية، وتولى مشيخة الشيوخ بعد القاضي ناصر الدين كاتب السر بالشام متبرعاً^(٤).

ثانياً: علم التاريخ:

١ _ عز الدين حسن بن أحمد بن زفر الأربلي:

ولد في أربل عام ٦٦٣هـ/١٢٦٥م^(٥)، عمل طبيباً فيها، ثم قدم دمشق فاستوطن بها صوفياً بدويرة حمد إلى أن مات^(٦)، قال عنه الصفدي: «كان متفلسفاً صادقاً في نقله حصل إثبات سماعته وألف كتباً وتواريخ... وسمع معنا كثيراً... قلت: وبجاميعه بخطه معروفة وغالبها تراجم شعراء وتواريخ ووفيات»^(٧). توفي عام ٧٢٦هـ/١٣٢٥م بدمشق^(٨). ومن مصنفاته:

١. تاريخ الأربلي، جزء منه يشتمل على مدارس دمشق وربطها وجوامعها وحماماتها^(٩).
٢. السيرة النبوية في مجلدين^(١٠).

٢ _ فضل الله بن أبي الفخر بن الصقاعي الدمشقي:

كاتب نصراني^(١١)، «كان خبيراً في صناعته، باشر ديوان المرتجع، جمع الأناجيل الأربعة الإنجيل متى ومرقص ولوقا ويوحنا»، وجعلها إنجيلاً واحداً في كتاب بالسنة عسرية وسريانية وقبطية ورومية^(١٢)،

(١)الصفدي، الوالي ١٨٨/٢٢.

(٢)الصفدي، الوالي ١٨٨/٢٢ ابن حجر، الدرر ١٢٦/٣.

(٣)الصفدي، الوالي ١٨٨/٢٢ ابن حجر، الدرر ١٢٦/٣.

(٤)الصفدي، الوالي ١٨٩/٢٢ ابن حجر، الدرر ١٢٦/٣.

(٥)الجزري ١٤٦/٢ ابن كثير ١٠٠/١٤ كحالة، معجم ١٩٩/٣.

(٦)الجزري ١٤٦/٢ ابن كثير ١٠٠/١٤ ابن حجر، الدرر ١١١/٢ المنجد، معجم ١٣٢.

(٧)الصفدي، الوالي ٣٩٩/٢.

(٨)الجزري ١٤٦/٢ الصفدي، الوالي ٣٩٩/٢ ابن كثير ١٠٠/١٤ ابن حجر، الدرر ١١١/٢ المنجد، معجم ١٣٢.

(٩)الجزري ١٤٦/٢ ابن حجر، الدرر ١١١/٢ كحالة، معجم ١٩٩/٣ المنجد، معجم ١٣٢.

(١٠)الصفدي، الوالي ٣٩٩/٢ ابن حجر، الدرر ١١١/٢ كحالة، معجم ١٩٩/٣ المنجد، معجم ١٣٢.

(١١)ابن حجر، الدرر ٢٢٣/٣ ابن العماد ٧٥/٦.

(١٢)ابن العماد ٧٥/٦.

«وكان كثير النظر في التواريخ»^(١١٠)، توفي بيستانه بأرزه (من قرى دمشق) عام ٧٢٦هـ/١٣٢٥م وقد قارب المائة عام، ودفن بمقابر النصارى^(١١١). ومن مؤلفاته:

١. تالي وفيات الأعيان: ذيل به على تاريخ ابن خلكان «وفيات الأعيان» في عدة مجلدات^(١١٢).
٢. الذيل على تاريخ المكين ابن العميد النصراني: من سنة ٦٥٨هـ إلى سنة ٧٢٠هـ^(١١٣).
٣. وفيات المطربين^(١١٤).

٣ _ قطب الدين موسى بن محمد بن عبد الله البعلبكي اليوناني:

ولد عام ٦٦٠هـ/١٢٦١م بدار الفضل بدمشق^(١١٥)، «كان كثير التلاوة حسن الهيئة متقللاً في ملبسه ومأكله»^(١١٦)، توفي في شوال عام ٧٢٦هـ/آب ١٣٢٥م^(١١٧). ومن مؤلفاته:

١. ذيل مرآة الزمان، ويقع في أربعة مجلدات^(١١٨).

٤ _ شمس الدين محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الجزري الدمشقي:

ولد سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م بدمشق^(١١٩)، «لهج بالتاريخ وجمعه... كان حسن المذاكرة سليم الباطن صدوقاً وفي تاريخه عجائب وغرائب وعامية»^(١٢٠).

وكان يشهد على القضاة مدة^(١٢١)، وإذا انفرد بشهادة يكتفون به لوثوقهم به^(١٢٢)، توفي بدمشق عام ٧٣٩هـ/١٣٣٨م عن إحدى وثمانين سنة^(١٢٣). ومن مؤلفاته:

١. التاريخ الكبير ويسمى «حوادث الزمان وأبناؤه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه»، رتبته على السنين^(١٢٤).

(١) ابن حجر، اللور ٢/٢٣٣، ابن العماد ٦/٧٥، المنجد، معجم ١٣٤.

(٢) ابن العماد ٦/٧٥، المنجد، معجم ١٣٤.

(٣) ابن حجر، اللور ٣/٢٣٣، ابن العماد ٦/٧٥، المنجد، معجم ١٣٤.

(٤) ابن العماد ٦/٧٥، المنجد، معجم ١٣٤.

(٥) ابن العماد ٦/٧٥، المنجد، معجم ١٣٤.

(٦) النهي، ص ١٧/٤٤٩٦، ابن كثير ١٤/١٠١، ابن حجر، اللور ٤/٣٨٢.

(٧) ابن كثير ١٤/١٠١.

(٨) الجزري ٢/١٥٨، النهي، ذيول ٤/٧٦، ص ١٧/٤٤٩٧، ابن كثير ١٤/١٠١، ابن حجر، اللور ٤/٣٨٢.

(٩) الجزري ٢/١٥٩، النهي، ص ١٧/٤٤٩٧، ابن كثير ١٤/١٠١، ابن حجر، اللور ٤/٣٨٢.

(١٠) النهي، ص ١٧/٥٤٠، الصفدي، الوالي ٢/٢٢٢، ابن حجر، اللور ٣/٣٠١، ابن العماد ٦/١٢٤.

(١١) الصفدي، الوالي ٢/٢٢٢.

(١٢) ابن حجر، اللور ٣/٣٠١، ابن العماد ٦/١٢٤.

(١٣) ابن العماد ٦/١٢٤.

(١٤) النهي، ذيول ٤/١١٤، ص ١٧/٥٤٠، ابن العماد ٦/١٢٤.

(١٥) النهي، ذيول ٤/١١٤، حاجي خليفة ١/٥٣٣، ابن العماد ٦/١٢٤، المنجد، معجم ١٤٥-١٤٦.

٥_ علم الدين القاسم بن محمد بن يوسف بن محمد البرزالي الإشبيلي الأصل الدمشقي: ولد بدمشق عام ٦٦٥هـ/١٢٦٧م^(١)، رحل إلى حلب وبعليك ومصر، وصل عدد شيوخه فوق الثلاثة آلاف^(٢)، كان حافظاً مؤرخاً، فقيهاً، حدث وأفتى، حفظ القرآن والتبنيه ومقدمة ابن الحاجب^(٣)، تولى مشيخة دار الحديث النورية والنفيسة ووقف كتبه وعقاراً جيداً على الصدقات^(٤). وصفه ابن حجر قائلاً بأنه كان «قوي المذاكرة عارفاً بالرجال ولا سيما شيوخ زمانه»^(٥)، توفي في عام ٧٣٩هـ/١٣٣٨م بجليص وهو ذاهب إلى مكة ودفن هناك^(٦). ومن مؤلفاته:

١. الأربعون البلدانية^(٧).
 ٢. مشيخة بدر الدين بن جماعة^(٨).
 ٣. مشيخة المسند الكبير أحمد بن عبد الدائم المقدسي^(٩).
 ٤. المعجم الكبير: وبلغ ثبته بضعاً وعشرين مجلداً، أثبت فيه كل من سمع وانتفع به المحدثون منذ زمانه إلى آخر القرن^(١٠).
 ٥. المفتى في التاريخ، وهو ذيل على تاريخ أبي شامة بدأ فيه من عام مولده وهي السنة التي مات فيها أبو شامة (عام ٦٦٥هـ) إلى سنة ٧٣٨هـ فحاء في سبعة مجلدات^(١١).
 ٦. المتقى من كتاب البخلاء للخطيب البغدادي^(١٢).
- ٦_ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله التركماني الفارقي الدمشقي النهي:

ولد عام ٦٧٣هـ/١٢٧٤م بدمشق^(١٣)، تلقى التعليم فيها على يد علمائها، ثم ارتحل إلى بعليك

-
- (١) النهي، سو ١٧/٥٤١؛ الكتي، فوات ٣/١٩٦؛ الحسيني، ذيل ١٩؛ ابن حجر، الدرر ٣/٢٣٧.
 - (٢) النهي، سو ١٧/٥٤١-٥٤٢؛ الكتي، فوات ٣/١٩٧؛ ابن حجر، الدرر ٣/٢٣٧؛ ابن العماد ٦/١٢٢.
 - (٣) الكتي، فوات ٣/١٩٦.
 - (٤) المصدر نفسه ٣/١٩٨.
 - (٥) ابن حجر، الدرر ٣/٢٣٨.
 - (٦) النهي، ذيل ٤/١١٤؛ الكتي، فوات ٣/١٩٨؛ الياضي ٤/٣٠٣.
 - (٧) حاجي خليفة ١/٥٠٥؛ كحالة، معجم ٨/١٢٥.
 - (٨) المنجد، معجم ١٤٣.
 - (٩) المرجع نفسه ١٤٣.
 - (١٠) النهي، ذيل ٤/١١٤، سو ١٧/٥٤١؛ ابن حجر، الدرر ٣/٢٣٨؛ ابن العماد ٦/١٢٢؛ الشوكاني ٢/٥١؛ كحالة، معجم ٨/١٢٥.
 - (١١) النهي، ذيل ٤/١١٤، سو ١٧/٥٤١؛ ابن حجر، الدرر ٣/٢٣٨؛ ابن العماد ٦/١٢٢؛ الشوكاني ٢/٥١؛ كحالة، معجم ٨/١٢٥؛ المنجد، معجم ١٤٢.
 - (١٢) المنجد، معجم ١٤٢.
 - (١٣) الصفدي، الوالي ٢/١٦٣؛ الكتي، فوات ٣/٢٩٨؛ ابن حجر، الدرر ٣/٢٣٦؛ حاجي خليفة ١/٢٧٠؛ كحالة، معجم ٨/٢٨٩؛ المنجد، معجم ١٥٩.

وحص وحماة وحلب وطرابلس ونابلس والرملة والقاهرة والإسكندرية والحجاز والقدس^(١). وصفه الصفدي قائلاً: «حافظ لا يجارى ولا يظفر لا يبارى، أتقن الحديث ورجاله ونظر عله وأحواله، وعرف تراجم الناس، وأزال الإهام في تواريخهم والإلباس، ذهن يتوقد ذكاؤه ويصح إلى الذهب نسبه واتماؤه، جمع الكثير ونفع الجم الغفير وأكثر من التصنيف، ووفر بالاختصار مؤنة التطويل في التأليف»^(٢)، توفي بدمشق عام ٥٧٤٨هـ/١٣٤٨م، ودفن بها^(٣)، ومن تصانيفه:

١. تاريخ الإسلام الكبير في واحد وعشرين مجلداً^(٤).
٢. تذكرة الحفاظ في مجلدين^(٥).
٣. دول الإسلام^(٦).
٤. سير أعلام النبلاء^(٧).
٥. طبقات القراء وسماء: «معرفة القراء الكبار على الطبقات والإعصار»^(٨).
٦. ميزان الاعتدال في نقد الرجال في ثلاثة أسفار^(٩).
٧. شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله بن المجلى بن دعجان بن خلف بن نصر القرشي العدوي العمري الدمشقي:

يتهي نسبه بالصحابي الجليل عمر بن الخطاب^(١٠)، ولد بدمشق عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م^(١١)

-
- (١) الصفدي، الوالي ١٦٤/٢-١٦٥.
 - (٢) المصدر نفسه ١٦٣/٢.
 - (٣) اليافعي ٤/٣٠٨، ابن كثير ١٤/١١٨، ابن حجر، الدرر ٣/٣٣٨، السخاوي ١/٣١، كحالة، معجم ٨/٢٥٩، الحصري ٢/٥٣٨، المنجد، معجم ١٥٩.
 - (٤) الصفدي، الوالي ١٦٣/٢، الكتي، فوات ٣/٣١٦، الحسيني، ذيل ٣٥، ابن ناصر الدين ٦٧، حاجي خليفة ١/٢٧٠، ابن العماد ٦/١٥٥، كحالة، معجم ٨/٢٨٩، الحصري ٢/٥٣٨، المنجد، معجم ١٥٩.
 - (٥) الصفدي، الوالي ١٦٤/٢، الكتي، فوات ٣/٣١٦، حاجي خليفة ١/٣٢٩، ابن العماد ٦/١٥٥.
 - (٦) الصفدي، الوالي ١٦٣/٢، الكتي، فوات ٣/٣١٦، حاجي خليفة ١/٥٨١، ابن العماد ٦/١٥٥، الحصري ٢/٥٣٨، المنجد، معجم ١٦٠.
 - (٧) الصفدي، الوالي ١٦٣/٢، الكتي، فوات ٣/٣١٦، ابن ناصر الدين ٦٧، حاجي خليفة ٢/٥٤، ابن العماد ٦/١٥٥، الحصري ٢/٥٣٨، المنجد، معجم ١٥٩.
 - (٨) الصفدي، الوالي ١٦٣/٢، الكتي، فوات ٣/٣١٦، حاجي خليفة ٤/٣٤٢، ابن العماد ٦/١٥٥، كحالة، معجم ٨/٢٩٠، الحصري ٢/٥٣٨، المنجد، معجم ١٥٩-١٦٠.
 - (٩) الصفدي، الوالي ١٦٤/٢، الكتي، فوات ٣/٣١٦، ابن ناصر الدين ٦٧، ابن العماد ٦/١٥٥، كحالة، معجم ٨/٢٨٩-٢٩٠.
 - للمزيد من المعلومات عن مؤلفات الذهبي ينظر: (الصفدي، الوالي ١٦٣/٢-١٦٤، الكتي، فوات ٣/٣١٦، حاجي خليفة ١/١٤٨، ١٥٦، ٢٦٥، ٢٧٩، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٦٩، ٤٨/٢، ١٣٧، ٣٩٥، ٤٣٠، ٤٣٨، ٥٣٩، ٥٦٤، ٥٩٨، ٦٤٠، ١٤٤/٣، ٢٩٣، ١٢١/٤، ٤٤٢، ٤٥٠، ٤٧٩، ابن العماد ٦/١٥٦-١٥٧، الحصري ٢/٥٣٨-٥٣٩، المنجد، معجم ١٦٠-١٦١).
 - (١٠) الصفدي، الوالي ٨/٢٥٢، الكتي، فوات ١/١٥٧، ابن حجر، الدرر ١/٣٣١، حاجي خليفة ٢/١٤٤، ابن ناصر الدين ١٤٦.
 - (١١) الصفدي، الوالي ٨/٢٥٤، ابن حجر، الدرر ١/٣٣٣، ابن العماد ٦/١٦٠.

برع في الأدب والنظم والنثر والتأريخ والممالك والمسالك وخطوط الأقاليم ومواقع البلدان، كما برع في الإفتاء على المذهب الشافعي، وصفه الصفدي قائلاً: «الإمام الفاضل... حجة الكتاب إمام أهل الآداب أحد رجالات الزمان كتابة وترسلاً... جود فن الإنشاء: النثر وهو فيه آية والنظم... ولم أر من يعرف تواريخ ملوك الأرض المغل من لدن جنكيز خان وهلم جرا معرفة وكذلك ملوك الهند الأتراك وأما معرفة الممالك والمسالك وخطوط الأقاليم ومواقع البلدان وخواصها فإنه فيها إمام وقته وكذلك معرفة الإسطرلاب وحل التقويم وصور الكواكب، وقد أذن له العلامة الشيخ شمس الدين الأصبهاني في الإفتاء على مذهب الإمام الشافعي»^(١).

ولبراعته في علم الإنشاء تولى ديوان الإنشاء بدمشق فترة طويلة حيث يقول عنه ابن كثير في ذلك: «شهاب الدين بن فضل الله كاتب الأسرار الشريفة بالديار المصرية، والشامية...، وقد انتهت إليه رئاسة الإنشاء...»^(٢).

توفي بدمشق بسبب مرض الحمى عام ٥٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م ودفن بسفح قاسيون^(٣). ومن مصنفاته:

١. التعريف بالمصطلح الشريف^(٤).
٢. دعة الباكي ويقظة الساهي^(٥).
٣. صباية المشتاق في المدائح النبوية^(٦).
٤. فواضل السمر في فضائل آل عمر في أربعة مجلدات^(٧).
٥. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار في أكثر من عشرين مجلداً^(٨).

(١) الصفدي، الوافي ٢٥٤/٨ الكتي، فوات ١٥٩/١.

(٢) ابن كثير ١٨٣/١٤-١٨٤ السخاوي ٤٢/١.

(٣) الذهبي، ذبول ٤/١٥٢ الصفدي، الوافي ٢٦٨/٨ ابن كثير ١٨٤/١٤ ابن ناصر الدين ١٤٦ السخاوي ٤٤٢/١ حاجي خليفة ١٤٤/٢ الحصني ٥٣٩/٢.

(٤) حاجي خليفة ١٤٤/٢ ابن العماد ١٦٠/٦ كحالة، معجم ٢٠٥/٢.

(٥) الصفدي، الوافي ٢٥٥/٨ الكتي، فوات ١٦٠/١ حاجي خليفة ٥٨٠/١ كحالة، معجم ٢٠٥/٢.

(٦) الصفدي، الوافي ٢٥٥/٨ الكتي، فوات ١٦٠/١ حاجي خليفة ٩٥/٢ ابن العماد ١٦٠/٦ كحالة، معجم ٢٠٥/٢.

(٧) الصفدي، الوافي ٢٥٥/٨ الكتي، فوات ١٦٠/١ ابن العماد ١٦٠/٦ كحالة، معجم ٢٠٥/٢ المنجد، معجم ١٧٦.

(٨) الذهبي، ذبول ٤/١٥٢ الصفدي، الوافي ٢٥٥/٨ الكتي، فوات ١٦٠/١ السخاوي ٤٤٢/١ حاجي خليفة ٥٤٣/٢ ابن العماد ١٦٠/٦ كحالة، معجم ٢٠٥/٢ الحصني ٥٣٩/٢ المنجد، معجم ١٧٦.

للمزيد من المعلومات عن مؤلفات العمري ينظر: (الصفدي، الوافي ٢٥٥/٨ الكتي، فوات ١٦٠/١ حاجي خليفة ٥٧٧/١، ٧٦٩، ٢٢٥، ١٣/٤ المنجد، معجم ١٧٦).

٨_ صلاح الدين محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن الكنجي الداراني الدمشقي:

ولد بدمشق عام ٦٨١هـ/١٢٨٢م^(١)، برع في التأريخ والأدب، سمع من ابن الشحنة والمزني وغيرهما، وكان فقيراً جداً، ثم عمل في تجارة الكتب في دمشق، فرزق منها ملاً طائلاً^(٢)، قال عنه ابن كثير: «تفرد في صناعته وجمع تاريخاً مفيداً نحواً من عشرة مجلدات»^(٣). توفي بدمشق في رمضان عام ٧٦٤هـ/١٣٦٣م^(٤).

ومن تصانيفه:

١. روضة الأزهار وحديقة الأشعار على حروف القوافي^(٥).

٢. عيون التواريخ^(٦).

٣. فوات الوفيات^(٧).

٩_ الشريف محمد بن علي بن الحسن بن حمزة الحسيني الدمشقي:

ولد عام ٧١٥هـ/١٣١٥م بدمشق^(٨)، سمع من عدد من علمائها، ثم رحل إلى مصر وتلقى العلم على يد علمائها أيضاً^(٩)، ذكره ابن كثير فقال: «المحدث المحصل، المؤلف لأشياء مهمة، وفي الحديث قرأ وسمع وجمع وكب أسماء رجال بمسند الإمام أحمد»^(١٠)، ولي مشيخة الحديث التي وقفها في داره بماء الدين القاسم بن عساكر داخل باب توما^(١١)، وصفه ابن ناصر الدين الدمشقي فقال: «كان إماماً حافظاً مورخاً له قدر كبير، حسن الخلق، رضي النفس، من الثقات الأثبات»^(١٢).

توفي بدمشق عام ٧٦٥هـ/١٣٦٣م^(١٣)، ومن مصنفاته:

١. أسامي رجال الأئمة الستة ومسند أحمد بن حنبل^(١٤).

(١) ابن حجر، الدرر، ٤٤٥١/٣ كحالة، معجم ٤٦١/١٠ المنجد، معجم ١٨٣.

(٢) ابن حجر، الدرر، ٤٤٥١/٣ كحالة، معجم ٤٦١/١٠ المنجد، معجم ١٨٣.

(٣) ابن كثير ٢٤٠/١٤.

(٤) الذهبي، ذيل ٢٠٦/٤ ابن كثير ٢٤٠/١٤ ابن حجر، الدرر ٤٤٥١/٣ السخاوي ٤١٣٦/١ كحالة، معجم ٤٦١/١٠ المنجد، معجم ١٨٣.

(٥) كحالة، معجم ٦١/١٠.

(٦) السخاوي ٤١٣٦/١ كحالة، معجم ٤٦١/١٠ المنجد، معجم ١٨٣.

(٧) كحالة، معجم ٤٦١/١٠ المنجد، معجم ١٨٤.

(٨) ابن حجر، الدرر، ٤٦١/٤ ابن ناصر الدين ١٠٥.

(٩) ابن حجر، الدرر، ٤٦١/٤ ابن ناصر الدين ١٠٥.

(١٠) ابن كثير ٢٤٤/١٤.

(١١) المصدر نفسه ٢٤٤/١٤.

(١٢) ابن ناصر الدين ١٠٦.

(١٣) ابن كثير ٢٢٤٤/١٤ ابن حجر، الدرر، ٤٦١/٤ السخاوي ٤١٤٢/١ حاجي خليفة ٣٣٠/١.

(١٤) ابن ناصر الدين ١٠٦.

٢. الاكتفاء في الضعفاء^(١).

٣. الإلمام في آداب دخول الحمام^(٢).

٤. التذكرة في رجال العشرة^(٣).

٦. ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي^(٤).

٥. العرف الذكي في النسب الزكي^(٥).

٧. كتاب التاريخ^(٦).

١٠ _ عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير القيسي البصريي الدمشقي:

ولد بجندل من أعمال بصرى سنة ٧٠١هـ / ١٣٠١م^(٧)، ثم انتقل إلى دمشق ونشأ بها^(٨)، درس الحديث والتفسير والفقه والتاريخ^(٩)، يقول ابن حجر عنه: «أخذ عن ابن تيمية ففان بجبهه وامتحن بسببه، وكان كثير الاستحضر حسن المفاكهة سارت تصانيفه في البلاد في حياته وانتفع بها الناس بعد وفاته... وهو من محدثي الفقهاء»^(١٠)، توفي في شعبان عام ٧٧٤هـ / ١٣٧٣م، بدمشق، ودفن بمقابر الصوفية عند شيخه ابن تيمية^(١١).

ومن مؤلفاته:

١. البداية والنهاية^(١٢).

٢. التفسير في عشرة مجلدات^(١٣).

-
- (١) ابن ناصر الدين ١٠٦.
- (٢) ابن حجر، اللور ٤/٦١، ابن ناصر الدين ١٠٦، حاجي خليفة ١/١٧٨.
- (٣) ابن حجر، اللور ٤/٦١، حاجي خليفة ١/٣٣٠، المنجد، معجم ١٩٤.
- (٤) المنجد، معجم ١٩٣.
- (٥) ابن حجر، اللور ٤/٦١، ابن ناصر الدين ١٠٦، حاجي خليفة ٢/١٤٤، المنجد، معجم ١٩٤.
- (٦) ابن ناصر الدين ١٠٦.
- للمزيد من المعلومات عن مؤلفات الحسيني ينظر: (ابن حجر، اللور ٤/٦١، حاجي خليفة ١/١٤٨، ٣٣٠، ٥٣٠، ١٣٨/٢، ٧٣٢، ٧٥٣/٣، المنجد، معجم ١٩٣، ١٩٤).
- (٧) ابن حجر، أنباء ١/٤٥، اللور ١/٣٧٤، حاجي خليفة ١/٣٦٢، ابن العماد ٦/٢٣١، كحالة، معجم ٢/٢٨٤، الحصني ٢/٤٤٥.
- (٨) ابن حجر، أنباء ١/٤٥، اللور ١/٣٧٤.
- (٩) ابن العماد ٦/٢٣١، الشوكاني ١/١٥٣.
- (١٠) ابن حجر، اللور ١/٣٧٤.
- (١١) ابن حجر، أنباء ١/٤٥، اللور ١/٣٧٤، السخاوي ١/١٩٢، حاجي خليفة ١/٣٦٢، الحصني ٢/٤٤٥.
- (١٢) الحسيني، ذيل ١/٥٨، ابن حجر، اللور ١/٣٧٤، ابن ناصر الدين ١٦٢، السخاوي ١/١٩٢، حاجي خليفة ١/٢٢٦، ابن العماد ٦/٢٣١، الشوكاني ١/١٥٣، كحالة، معجم ٢/٢٨٤، المنجد، معجم ٢٠٣.
- (١٣) ابن حجر، اللور ١/٣٧٤، ابن ناصر الدين ١٦٢، حاجي خليفة ١/٣٦٢-٣٦١، الشوكاني ١/١٥٣، كحالة، معجم ٢/٢٨٤.

٣. التكميل في معرفة الثقاة والضعفاء والمجاهيل^(١).
٤. الفصول في سيرة الرسول^(٢).
٥. مختصر علوم الحديث لابن الصلاح^(٣).
٦. الهدى والسنن في أحاديث المسانيد والسنن، جمع فيه أحاديث الكتب الستة والمسانيد الأربعة^(٤).
- ١١ - بدر الدين الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب بن عمر الدمشقي الأصل الحلبي:
وُلد بحلب في شعبان سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م^(٥)، درس التاريخ والأدب، ورحل في سبيل تحصيل العلم فزار القاهرة والإسكندرية وسمع من علمائها، باشر في حلب نيابة القضاء وكتابة السر^(٦)، وصفه ابن حجر قائلاً: «كان فاضلاً كيساً صحيح النقل»^(٧). توفي بحلب سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٧م^(٨).
ومن مؤلفاته:
١. تذكرة النبي في أيام المنصور وبنه^(٩).
 ٢. جهينة الأخبار في ملوك الأمصار: مختصر في التاريخ^(١٠).
 ٣. درة الأسلاك في دولة الأتراك من عام ٦٤٨_٧٧٨هـ^(١١).
 ٤. معاني أهل البيان من وفيات الأعيان لابن خلكان^(١٢).
 ٥. المقتنى في ذكر فضائل المصطفى^(١٣).

-
- (١) ابن العماد ٢٣١/٦؛ الشوكاني ١٥٣/١؛ المنجد، معجم ٢٠٤.
- (٢) حاجي خليفة ١٣٥/٤؛ كحالة، معجم ٢٨٤/٢؛ المنجد، معجم ٢٠٤.
- (٣) كحالة، معجم ٢٨٤/٢.
- (٤) الحسيني، ذيل ٥٨؛ ابن ناصر الدين ١٦٦؛ الشوكاني ١٥٣/١؛ كحالة، معجم ٢٨٤/٢؛ المنجد، معجم ٢٠٤.
- للمزيد من المعلومات عن مؤلفات ابن حجر ينظر: (ابن حجر، أنباء ٤٥/١، الدور ٣٧٤/١؛ حاجي خليفة ١٢٠/٢؛ ابن العماد ٢٣١/٦؛ المنجد، معجم ٢٠٤).
- (٥) ابن حجر، أنباء ٢٥٠/١، الدور ٢٩/٢؛ ابن ناصر الدين ١٦٨؛ حاجي خليفة ١٧٦/٣؛ الشوكاني ١٠١/٢٠٥.
- (٦) ابن حجر، أنباء ٢٥٠/١، الدور ٣٠/٢.
- (٧) ابن حجر، الدور ٢٩/٢.
- (٨) ابن حجر، أنباء ٢٥١/١، الدور ٣٠/٢؛ ابن ناصر الدين ١٦٨؛ حاجي خليفة ١٧٦/٣؛ الشوكاني ١٠١/٢٠٥.
- (٩) ابن حجر، أنباء ٢٥٠/١، الدور ٣٠/٢؛ حاجي خليفة ١٧٦/٣؛ الشوكاني ١٠١/٢٠٥؛ المنجد، معجم ٢١٢.
- (١٠) حاجي خليفة ٤٨٦/١؛ المنجد، معجم ٢١٢.
- (١١) ابن حجر، أنباء ٢٥٠/١، الدور ٢٩/٢؛ ابن ناصر الدين ١٦٨؛ حاجي خليفة ١٥٦/١؛ الشوكاني ١٠١/٢٠٥؛ المنجد، معجم ٢١٢.
- (١٢) حاجي خليفة ٨٠٥/٢؛ المنجد، معجم ٢١٢.
- (١٣) حاجي خليفة ٦٤٠/٢.
- للمزيد من المعلومات عن مؤلفات ابن حبيب ينظر: (ابن حجر، أنباء ٢٥٠/١-٢٥١، الدور ٢٩/٢؛ ابن ناصر الدين ١٦٨؛ حاجي خليفة ١١٢، ٨٥/١، ١١٢، ٤٨٦، ٥٦٥، ٢٥١/٢، ٦٣٩، ٦٤٠، ٥٧٦، ٨٠٥، ١٧٦/٣؛ الشوكاني ١٠١/٢٠٥؛ كحالة، معجم ٣٦٦/٣؛ المنجد، معجم ٢١٢).

ثالثاً: الأدب

١- سراج الدين عمر بن مسعود بن عمر الأديب الحلبي الكنايني:
اشتهر بالأدب، ونظم الشعر، وبرع في الزجل والموشحات^(١). توفي عام ٧١١هـ/١٣١١م^(٢) أو
عام ٧١٢هـ/١٣١٢م^(٣) بدمشق^(٤).
ومن شعره:

انظر إلى النهر في تطرده
وصفوه قد وشى على السمك
توهم الريح صيدها فغدا
بنسيج متن الغدير كالشبيك^(٥)

٢- علاء الدين علي بن المظفر بن إبراهيم بن عمر بن زيد ابن هبة الله الكندي الوداعي
الاسكندراني الدمشقي:

ولد بجلب عام ٦٤٠هـ/١٢٤٢م^(٦)، برع في الأدب والنثر والشعر والنحو^(٧)، «تلا بالسبع على
علم الدين القاسم، وشمس الدين بن أبي الفتح، وطلب الحديث، ونسخ الأجزاء... ونظر في
العربية، وحفظ كثيراً من أشعار العرب، وكتب المنسوب، وخدم موقعاً بالحصون مدة، وتحول إلى
دمشق، فدخل ديوان الإنشاء بدمشق سنة إحدى عشرة وسبعمائة^(٨)»، كان شاهداً بديوان الجامع
الأموي، ولي مشيخة دار الحديث النفيسة^(٩)، وكان شيعياً^(١٠). توفي بدمشق عام ٧١٦هـ/١٣١٦م
ودفن بالملزة^(١١).
ومن تصانيفه:

١. التذكرة الكندية: في خمسين مجلداً بخطه، في علوم حجة أكثرها أديبات^(١٢).

-
- (١) الكتي، فوات ١٤٦/٣ ابن حجر، الدور ١٩٤/٣.
(٢) الكتي، فوات ١٤٦/٣ ابن حجر، الدور ١٩٤/٣.
(٣) ابن حجر، الدور ١٩٣/٣.
(٤) الكتي، فوات ١٤٦/٣ ابن حجر، الدور ١٩٤/٣.
(٥) ابن حجر، الدور ١٩٣/٣.
(٦) الصفدي، الوالي ١٩٩/٢٢؛ الكتي، فوات ٩٩/٣ ابن كثر ١٤/٦٦٣ ابن حجر، الدور ١٣٢/٣؛
ابن ناصر الدين ٢٠١ حاجي خليفة ٣٢٦/١.
(٧) ابن كثر ١٤/٦٦٣ ابن حجر، الدور ١٣٢/٣؛ ابن ناصر الدين ٢٠١ حاجي خليفة ٣٢٦/١.
(٨) الصفدي، الوالي ١٩٩/٢٢-٢٠٠.
(٩) الذهبي، ذيل ٤/٤٤٤؛ الكتي، فوات ٩٩/٣ ابن كثر ١٤/٦٣.
(١٠) الصفدي، الوالي ٢٢/٢٠٠؛ الكتي، فوات ٩٩/٣.
(١١) الذهبي، دول ٢/٢٢٢، ذيل ٤/٤٤٣؛ الصفدي، الوالي ٢٢/٢٠٠؛ الكتي، فوات ٩٩/٣ ابن كثر ١٤/٦٣؛ ابن حجر، الدور
٣/١٣٢٢؛ ابن ناصر الدين ٢٠١ حاجي خليفة ٣٢٦/١.
(١٢) الذهبي، ذيل ٤/٤٤٤؛ الصفدي، الوالي ٢٢/١٩٩؛ الكتي، فوات ٩٩/٣؛ حاجي خليفة ٣٢٦/١.

٢. ديوان شعر في ثلاثة مجلدات^(١).

ومن شعره:

من زار بابك لم تبح جوارحه تردى محاسن ما أوليت من منن
فالعين عن قرة والكف عن صلة والقلب عن جابر والأذن عن حسن^(٢)

٣_ شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله القرشي العمري:

ولد عام ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م^(٣)، باشر ديوان الإنشاء بمصر، ثم نقله الملك الناصر إلى الشام عوضاً عن أخيه محيي الدين، لأن الناصر كان قد وعد القاضي علاء الدين بن الأثير لما كان بالكرك بالمنصب، فأقام في ديوان الإنشاء بدمشق حتى عام ٧١٧هـ/ ١٣١٧م حيث توفي في رمضان من ذلك العام^(٤).
«كان كاتباً أديباً مترسلاً... وكان كاملاً في فنه، ما كتب عن ملوك الأتراك أحد مثله»^(٥).

ومن شعره بمدح الملك المنصور قلاوون الألفي:

تهب الألوف ولا تهاب لهم ألفاً إذا لاقيت في الصف
ألف وألف في ندى ووغى فلأجل ذا سموك بالألفي^(٦)

٤_ شمس الدين محمد بن علي بن عمر المازني الدهان الدمشقي:

ولد بدمشق عام ٦٦٧هـ/ ١٢٦٩م^(٧)، كان يعمل في صناعة الدهان ويعرف مقامات الحريري، وينظم الشعر الرقيق ويتقن الموسيقى فيعمل الشعر ويلحنه، فيغني به المغنون، وكان يجيد اللعب بالقانون^(٨)، عمر مكاناً بالربوة وزخرفه، فكان يجتمع عنده الظرفاء ويأخذ عنه أهل الملاهي الألمان^(٩)، توفي عام ٧٢١هـ/ ١٣٢١م^(١٠). ومن مصنفاته:

١. رسالة في الرد على تقي الدين ابن تيمية في مسألة الطلاق^(١١).

٢. رسالة في مسألة الزيارة^(١٢).

(١) كحالة، معجم ٢٤٣/٧.

(٢) الصفدي، الوالي ٢٠١/٢٢، الكتي، فوات ٩٩/٣.

(٣) الكتي، فوات ٤٤٢١/٢، ابن حجر، الدرر ٤٢٨/٢.

(٤) الذهبي، دول ٢٢٣/٢-٢٢٤، الكتي، فوات ٤٤٢٢/٢، ابن حجر، الدرر ٤٢٨/٢.

(٥) الكتي، فوات ٤٢١/٢.

(٦) المصدر نفسه ٤٢٤/٢.

(٧) الصفدي، الوالي ٢٠٩/٤، الكتي، فوات ٤٥/٤، ابن حجر، الدرر ٧٨/٤.

(٨) الصفدي، الوالي ٢٠٩/٤، الكتي، فوات ٤٥/٤، ابن تفردي، النجوم ١٨٠/٩.

(٩) ابن حجر، الدرر ٧٨/٤، ابن تفردي، النجوم ١٨٠/٩.

(١٠) الصفدي، الوالي ٢٠٩/٤، الكتي، فوات ٤٥/٤، ابن حجر، الدرر ٧٩/٤.

(١١) كحالة، معجم ٣١/١١.

(١٢) المرجع نفسه ٣١/١١.

٥_ شمس الدين محمد بن الحسن بن سباع الصائغ العروضي:

ولد بدمشق عام ٦٤٥هـ / ١٢٤٧م^(١)، «كان له نظم ونثر»^(٢)، أقام بالصاغة يقرئ الناس العروض ويشغل عليه أهل الأدب^(٣)، وكان له حانوت بالصاغة، وكان يقرئ في حانوته ديوان المتنبي والمقامات والحماسة، «ولو أنصف لكان من كبار الموقعين لاجتماع الآلات فيه»^(٤). توفي عام ٧٢٢هـ / ١٣٢٢م^(٥)، رآه كلاً من الصفدي والكتبي أكثر من مرة^(٦).

ومن شعره وهو بمصر يتشوق إلى دمشق:

شوق أكاد به جوى أتمرق	لي نحو ربعك دلم يا حلق
ذا مغرق طرقي وهذا محرق	وهمول دمع من جوى بأضلعي
إني وقلبي في ربوعك موثق ^(٧)	اشتاقت منك منازلًا لم أنسها

ومن مؤلفاته:

١. ديوان في مجلدين كبيرين^(٨).
٢. شرح الدرديية في مجلدين كبيرين، قال الكتبي «رأيتُه بخطه»^(٩).
٣. شرح ملحّة الإعراب^(١٠).
٤. قصيدة تائية على وزن الهيتية التي لشيطان العراق وتزيد على ألفي بيت^(١١).
٥. مختصر صحاح الجوهري وجرده من الشواهد^(١٢).
٦. المقامة الشهائية عملها للقاضي شهاب الدين الخوئي^(١٣).

(١) الذهبي، سير ١٧/٤٥٠، ابن حجر، الدرر ٣/٤١٩.

(٢) الذهبي، سير ١٧/٤٥٠، الصفدي، الوالي ٢/٣٦٢، الكتبي، فوات ٣/٣٢٦.

(٣) الذهبي، سير ١٧/٤٥١، الصفدي، الوالي ٢/٣٦١.

(٤) الذهبي، سير ١٧/٤٥١، ابن حجر، الدرر ٣/٤٢٠.

(٥) الذهبي، سير ١٧/٤٥١، الصفدي، الوالي ٢/٣٦٢، الكتبي، فوات ٣/٣٢٦.

(٦) الصفدي، الوالي ٢/٣٦١، الكتبي، فوات ٣/٣٢٦.

(٧) الصفدي، الوالي ٢/٣٦٣، الكتبي، فوات ٣/٣٢٧.

(٨) الكتبي، فوات ٣/٣٢٦.

(٩) الصفدي، الوالي ٢/٣٦٢، الكتبي، فوات ٣/٣٢٦، ابن حجر، الدرر ٣/٤١٩.

(١٠) الصفدي، الوالي ٢/٣٦٢، الكتبي، فوات ٣/٣٢٦.

(١١) الصفدي، الوالي ٢/٣٦٢، الكتبي، فوات ٣/٣٢٦، ابن حجر، الدرر ٣/٤٢٠.

(١٢) الصفدي، الوالي ٢/٣٦٢، الكتبي، فوات ٣/٣٢٦، ابن حجر، الدرر ٣/٤١٩.

(١٣) الصفدي، الوالي ٢/٣٦٢، الكتبي، فوات ٣/٣٢٦.

٦_ شهاب الدين محمود بن سليمان بن فهد الحلبي الدمشقي الحنبلي:

ولد بدمشق عام ٦٤٤هـ/١٢٤٦م^(١)، تفقه على ابن المنجا، وتأدب على ابن مالك، كسب في ديوان الإنشاء أولاً بدمشق، ثم نقله ابن السلعوس إلى الديار المصرية عقب موت محيي الدين بن عبد الظاهر، فكتب فيها في ديوان الإنشاء، ثم ولي كتابة السر بدمشق بعد موت شرف الدين بن فضل الله، حيث مكث في كتابة السر ثماني سنوات إلى أن مات^(٢)، وصفه الكيبي بقوله أنه «كان ممن أتقن الفنين المنظوم والمثور»^(٣)، وصف بأنه «لم يكن بعد القاضي الفاضل مثله في صنعة الإنشاء... سمع الحديث وعنى باللغة والأدب والشعر وكان كثير الفضائل بارعاً في علم الإنشاء نظماً ونثراً وله في ذلك كتب ومصنفات حسنة، وقد مكث في ديوان الإنشاء نحواً من خمسين سنة»^(٤).

توفي بدمشق عام ٧٢٥هـ/١٣٢٤م وصلى عليه نائب السلطنة الأمير سيف الدين تنكز ودفن في تربته بسفح قاسيون^(٥).

ومن أهم مؤلفاته:

١. أهنيئ المنائح في أسنى المدائح، وهو في المدائح النبوية، بلغت ٢٣٦٥ بيتاً^(٦).
 ٢. حسن التوسل في صناعة التوسل^(٧).
 ٣. ذيل على ذيل مرآة الزمان للقطب اليونيني^(٨).
 ٤. مقامة العشاق^(٩).
 ٥. منازل الأحياب ومنازة الألباب^(١٠).
- ومن شعره:

لما رأى صدكم عن حبكم عينا
وطالما قلت لا كان من نكتا^(١١)

رق العنول لما ألقى بكم ورثي
نكتتم جبل ودي بعد قوته

(١) الذهبي، سير ٤٤٨٨/١٧ الكتي، فوات ٤/٨٢٢، ابن كثير ١٤/٩٦، ابن حجر، الدرر ٤/٣٢٤، حاجي خليفة ٤/٣٥٩، ابن العماد ٦/٦٩، الشوكاني ٢/٢٩٥.

(٢) الذهبي، سير ٤٤٨٨/١٧ الكتي، فوات ٤/٨٢٢، ابن حجر، الدرر ٤/٣٢٤، ابن العماد ٦/٦٩.

(٣) الكتي، فوات ٤/٨٢.

(٤) ابن كثير ١٤/٩٦، ابن حجر، الدرر ٤/٣٢٥.

(٥) الذهبي، ذيل ٤/٧٣، سير ٤٤٨٨/١٧ الكتي، فوات ٤/٨٢٢، ابن كثير ١٤/٩٦، ابن حجر، الدرر ٤/٣٢٦، حاجي خليفة ٤/٣٥٩، ابن العماد ٦/٦٩، الشوكاني ٢/٢٩٦.

(٦) الكتي، فوات ٤/٨٢٢، ابن حجر، الدرر ٤/٣٢٤، حاجي خليفة ١/٢٠٩.

(٧) الكتي، فوات ٤/٨٢٢، ابن حجر، الدرر ٤/٣٢٤، حاجي خليفة ١/٥١٤، الشوكاني ٢/٢٩٦.

(٨) ابن حجر، الدرر ٤/٣٢٦، المنجد، معجم ١٢٩.

(٩) الكتي، فوات ٤/٨٢٢، حاجي خليفة ٤/٣٥٩.

(١٠) الكتي، فوات ٤/٨٢٢، حاجي خليفة ٢/٦٦٥.

(١١) الكتي، فوات ٤/٨٤.

٧_ شهاب الدين أحمد بن محمد بن سلمان بن حمائل بن علي بن معلى بن طريف بن أبي جميل ابن جعفر بن موسى بن غانم:

ولد بمكة عام ٦٥٠هـ/١٢٥٢م^(١)، فارق والده وهو صغير، وتوجه إلى السماوة، ونزل على الأمير حسين بن خفاجة، وأقام عنده مدة، وكان الوقت قريب العهد بخراب بغداد، حيث قتل المستعصم وتشتت أهل بغداد، فظن أن شهاب الدين هذا هو ابن المستعصم واشتهر بذلك، فطلبه الملك الظاهر بيبرس، حيث أحضر والده بعد ذلك إلى القاهرة، فلما حضر إليه والده اتجها معاً إلى دمشق^(٢)، سمع من ابن عبد الدائم وقرأ على ابن مالك وعلى والده بدر الدين وعلى مجد الدين بن الظهير الأربلي^(٣). كتب في ديوان الإنشاء. مصر وغزة وصفد ودمشق، ولما توفي فخر الدين ناظر الجيش بالشام عاد من مصر إلى دمشق ليتولى نظر الجيش^(٤)، اختل قبل موته بستين إلى أن توفي عام ٧٣٧هـ/١٣٣٦م وله من العمر سبعة وثمانون عاماً^(٥). ومن شعره:

يا حسنها من رياض مثل النضار نضارة
كالزهر زهراً وعنهما حسن العبير عبارة^(٦)

٨_ علاء الدين علي بن محمد بن سلمان بن حمائل بن غانم:

ولد عام ٦٥١هـ/١٢٥٣م^(٧)، حدث عن ابن عبد الدائم والزين خالد وابن النشبي وجماعة، وله النظم والنثر^(٨)، أجاز الصفدي عام ٧٣٠هـ/١٣٢٩م^(٩) وصفه ابن حجر بقوله: «تعانى الأدب... وله نظم ونثر وأعمال جيدة في الآداب ومكاتبات ومراجعات مع فضلاء عصره من زمن محيي الدين ابن عبد الظاهر وهلم جرا^(١٠)»، توفي بتيوك عام ٧٣٧هـ/١٣٣٦م وله من العمر ثلاث وثمانون سنة^(١١)،

(١)الصفدي، الوافي ٤١٩/٨ الكتي، فوات ١٢٧/١ ابن حجر، الدرر ٢٦٥/١.

(٢)الكتي، فوات ٤١٣١/١ ابن حجر، الدرر ١٦٥/١-١٦٦.

(٣)الجزري ٩٨٢/٣ الصفدي، الوافي ٤٢٠/٨ الكتي، فوات ٤١٢٨/١ ابن حجر، الدرر ١٦٦/١.

(٤)الصفدي، الوافي ٤١٩/٨ الكتي، فوات ٤١٢٨/١ ابن حجر، الدرر ١٦٦/١.

(٥)الجزري ٩٨١/٣ الصفدي، الوافي ٤٢٠/٨ الكتي، فوات ١٢٨/١.

(٦)الصفدي، الوافي ٤٢١/٨ الكتي، فوات ١٢٩/١.

(٧)الجزري ٩٩٤٦/٣ ابن حجر، الدرر ١٠٣/٣.

(٨)الصفدي، الوافي ٣٤/٢٢ الكتي، فوات ٨١/٣.

(٩)الصفدي، الوافي ٣٤/٢٢.

(١٠)ابن حجر، الدرر ١٠٣/٣-١٠٤.

(١١)الجزري ٩٩٤٦/٣ الصفدي، الوافي ٣٤/٢٢ الكتي، فوات ٤٧٨/٣ ابن حجر، الدرر ١٠٤/٣.

حيث كان عائداً من الحج^(١). ومن شعره:

وكم سرحة لي بالربا زمن الصبا
ويسكرني عرف الشذا من نسيمها
أشاهد مرأى حسنهما متمليا
فأقضى هوى من طبته حتف أنفيا^(٢)

٩_ تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد بن عبد الله اليميني المخزومي المكي:

ولد بمكة في رجب عام ٦٨٠هـ/تشرين الأول ١٢٨١م^(٣)، ورد إلى دمشق أيام الأفرم، وأقام فيها متصدراً بالجامع أيام سيف الدين تنكز مدة سبع سنين يقرئ الطلبة "المقامات الحريرية" والعروض وغير ذلك من علوم الأدب، وقرر له على ذلك مائة درهم في كل شهر على مال الجامع الأموي، ثم توجه إلى اليمن وياشر كتابة الدرج فيها لصاحب اليمن وربما وزر له، ثم لما مات ملكها المؤيد صادره ولده وأخذ منه ما حصله، ثم ورد إلى مصر عام ثلاثين وسبعمئة، وفوض إليه تدريس المشهد النفيس وشهادة البيمارستان المنصوري، ثم ورد إلى دمشق عام ٧٣١هـ/١٣٣٠م ورتب مصدرأ بالحرم في القدس، فأقام مدة، وتردد إلى دمشق، ثم باع وظائفه وتوجه إلى القاهرة فتوفي فيها عام ٧٤٣هـ/١٣٤٢م^(٤).

من مصنفاته:

١. ذيل تاريخ ابن خلكان بذيل قصير جداً^(٥)، قال عنه الكشي "رأته لم يبلغ به ثلاثين رجلاً"^(٦)
٢. عمل تاريخاً للنحاة^(٧).
٣. عمل تاريخاً لليمن^(٨).

ومن شعره:

تجنب أن تُذم بك الليالي
ولا تحفل إذا كملت ذاتاً
وحاول أن يذم لك الزمان
أصبت العزام حصل الهوان^(٩)

(١) ابن حجر، الدرر ١٠٤/٣.

(٢) الصفدي، الوافي ٢٢/٢٢، الكتي، فوات ٨٣/٣.

(٣) الصفدي، الوافي ١٨/٢٣، الكتي، فوات ٢٤٦/٢-٢٤٧/٢، ابن حجر، الدرر ٣١٦/٢.

(٤) الصفدي، الوافي ١٨/٢٣-٢٤، الكتي، فوات ٢٤٦/٢-٢٤٧/٢، ابن حجر، الدرر ٣١٦/٢.

(٥) الصفدي، الوافي ١٨/٢٤، الكتي، فوات ٢٤٧/٢.

(٦) الكتي، فوات ٢٤٧/٢.

(٧) الصفدي، الوافي ١٨/٢٤، الكتي، فوات ٢٤٧/٢.

(٨) الصفدي، الوافي ١٨/٢٤، الكتي، فوات ٢٤٧/٢.

(٩) الكتي، فوات ٢٤٧/٢.

١٠ - نجم الدين علي بن داود بن يحيى بن كامل بن يحيى بن جبارة بن عبد الملك القرشي القحفازي : ينتهي نسبه إلى الزبير بن العوام^(١).

ولد عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩م^(٢)، وصفه الصفدي والكتبي بأنه «شيخ أهل دمشق في عصره خصوصاً في العربية، قرأ عليه الطلبة وانتفع به الجماعة، وله النظم والنثر والكتابة المليحة»^(٣)، عينه الأمير تنكز خطيباً على جامعته بدمشق، ثم رسم له تدريس المدرسة الركنية، كان يعرف الإسطرلاب جيداً ويحل التقاويم^(٤)، اعتنى بالأدب فمهر في العروض^(٥)، تخرج به جماعة في العربية^(٦)، توفي عام ٧٤٤هـ/١٣٤٣م^(٧). ومن شعره:

عائني في حبكم عاذل يزعم نصحي وهو فيه كذوب
وقال ما في قلبك اذكره لي فقلت في قلبي المعنى قلوب^(٨)

١١ - زين الدين عمر بن الحسام آقوش الشبلي الدمشقي الذهبي الشافعي الافتخاري:
ولد عام ٦٨٤هـ/١٢٨٥م^(٩)، اشتغل بالأدب، وسمع الحديث على الحجار، وكان حسن الصحبة، طاهر اللسان^(١٠)، اجتمع به كل من الصفدي والكتبي فأنشداهم الكثير من شعره، فوصفاه بأن «فيه تودد كثير وحسن صحبة وطهارة لسان»^(١١)، توفي عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م بطاعون دمشق^(١٢). ومن شعره:

أمر على المنازل وهي تشكو من الأجاب ما أشكو إليها
كلانا نشتكي لهم فراقاً فما عطفوا علي ولا عليها^(١٣)

(١) الصفدي، الوالي ٤٨٣/٢١ الكتي، فوات ٢٣/٣ ابن حجر، اللور ٤٧/٣.

(٢) الصفدي، الوالي ٤٨٥/٢١ الكتي، فوات ٢٥/٣.

(٣) الصفدي، الوالي ٤٨٣/٢١ الكتي، فوات ٢٤/٣.

(٤) الصفدي، الوالي، ٨٤/١-٨٥ الكتي، فوات ٢٤/٣-٢٥ ابن حجر، اللور ٤٧/٣.

(٥) ابن حجر، اللور ٤٧/٣.

(٦) الصفدي، الوالي ٤٩٠/٢١ ابن حجر، اللور ٤٨/٣.

(٧) الذهبي، ذبول ٤/١٣٥ الصفدي، الوالي ٤٨٥/٢١ الكتي، فوات ٢٥/٣.

(٨) الصفدي، الوالي ٤٨٥/٢١ الكتي، فوات ٢٥/٣ ابن حجر، اللور ٤٨/٣.

(٩) الصفدي، الوالي ٤٤٣٧/٢٢ الكتي، فوات ١٣٢-١٣١/٣.

(١٠) ابن حجر، اللور ١٥٦/٣.

(١١) الصفدي، الوالي ٤٤٣٧/٢٢ الكتي، فوات ١٣٢/٣.

(١٢) الصفدي، الوالي ٤٤٣٨/٢٢ الكتي، فوات ١٣٢/٣ ابن حجر، اللور ١٥٦/٣.

(١٣) ابن حجر، اللور ١٥٦/٣.

١٢ - جمال الدين يوسف بن سليمان بن أبي الحسين بن إبراهيم الشاعر:

ولد بنابلس عام ٦٩٣هـ/١٢٩٣م ونشأ بدمشق^(١)، قرأ الأدب في المدينة على الشيخ تاج الدين اليميني والنحو على الشيخ نجم الدين القحفازي وغيره^(٢)، «وهو شاعر مُجيد في المقاطيع يجيد نظمها ومعناها وله بديهة مطاوعة وارتجال مرع، لذيد المفاكهة جميل الود حسن الملقى»^(٣).
رتبه ابن فضل الله رتبة كاتب غيبة الموقعين بدمشق^(٤)، حج مرتين الأولى سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م، والثانية سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦م^(٥)، توفي عام ٧٥٠هـ/١٣٤٩م^(٦).
ومن شعره:

أسر الفؤاد ودمع عيني أطلقا والوجد جده وصبري مزقا
حلو الشمائل ما أحرّ صدوده متنعّم قد لذ لي فيه الشقا
كملت محاسنه فلو أهدى السنا كلبدر عند كماله ما أشرقا^(٧)

١٣ - أمين الدين أبو محمد عبد الوهاب بن أحمد بن وهبان الحارثي الدمشقي:

ولد قبل عام ٦٣٠هـ/١٢٣٢م بدمشق^(٨)، واشتغل وتمهر وتميز في العربية والفقّه والقراءات والأدب، درس وولي قضاء حماة عام ٧٦٠هـ/١٣٥٨م واستمر فيها إلى أن مات في ذي الحجة من عام ٧٦٨هـ/١٣٦٧م^(٩). وصفه ابن حجر فقال: «كان مشكور السيرة، ماهراً في الفقّه والأدب»^(١٠). ومن مؤلفاته:

١. أحاسن الأخبار في محاسن السبعة الأخيار^(١١).
٢. شرح درر البحار، من تصنيف شمس الدين القونوي^(١٢).
٣. قصيدة من ألف بيت (على قافية الرءاء من بحر الطويل) ضمنها غرائب المسائل في مذهب الحنيفة وشرحها في مجلدين «وهي نظم جيد متمكن»^(١٣).

(١) الكتي، فوات ٤٣٤٣/٤ ابن حجر، الدرر ٤٥٣/٤.

(٢) الكتي، فوات ٤٣٤٣/٤ ابن حجر، الدرر ٤٥٣/٤.

(٣) الكتي، فوات ٣٤٣/٤.

(٤) ابن حجر، الدرر ٤٥٣/٤.

(٥) الكتي، فوات ٣٤٣/٤.

(٦) الكتي، فوات ٣٤٣/٤ ابن حجر، الدرر ٤٥٥/٤.

(٧) الكتي، فوات ٣٤٣/٤.

(٨) ابن حجر، الدرر ٤٢٣/٢.

(٩) المصدر نفسه ٤٢٣/٢.

(١٠) المصدر نفسه ٤٢٤/٢.

(١١) المصدر، معجم ١٩٦.

(١٢) ابن حجر، الدرر ٤٢٤/٢.

(١٣) المصدر نفسه ٤٢٤/٢.

١٤_ أبو بكر جمال الدين محمد بن شمس الدين محمد بن شرف الجذامي المعروف بابن نباته:
ولد بزقاق القناديل بمصر عام ٦٧٦هـ/١٢٧٧م^(١)، «نشأ بمصر وتعالى الآداب فمهر في النظم
والنثر والكتابة حتى فاق أقرانه»^(٢)، وأصبح «حامل لواء شعراء زمانه»^(٣)، رحل إلى الشام
سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م فأقام في دمشق مدة تقارب الخمسين عاماً، وكان يتردد إلى حماة وحلب
ويعمدح حكامها^(٤)، وكتب في التوقيع بديوان الإنشاء بدمشق^(٥)، استدعاه السلطان المملوكي الناصر
حسن عام ٧٦١هـ/١٣٥٩م إلى مصر، وولي توقيع الدست، إلا أنه لم يستمر فيه طويلاً بسبب عجزه
وكرر سنه، فأعفي من المنصب^(٦). توفي بالمارستان المنصوري بالقاهرة عام ٧٦٨هـ/١٣٦٦م ودفن
بمقابر الصوفية^(٧).

ومن أشهر مؤلفاته:

١. زهر المثور^(٨).
٢. سجع المطوق^(٩).
٣. سوق الدقيق: وهو عبارة عن قصائد في الغزل^(١٠).
٤. شرح رسالة ابن زيدون^(١١).
٥. الفاضل من إنشاء الفاضل^(١٢).
٦. القطر النبائي: وهو عبارة عن مقاطع من شعره^(١٣).
٧. مطلع الفوائد: وهو عبارة عن كتاب نفيس في الأدب^(١٤).

(١) ابن حجر، الدرر، ٤/٢١٦.

(٢) المصدر نفسه ٤/٢١٧.

(٣) ابن كثير ١٤/٢٥٥.

(٤) ابن حجر، الدرر، ٤/٢١٧.

(٥) المصدر نفسه ٤/٢١٧.

(٦) المصدر نفسه ٤/٢١٨.

(٧) ابن كثير ١٤/٢٥٥؛ ابن حجر، الدرر، ٤/٢١٨؛ السخاوي ١/١٥٨.

(٨) ابن حجر، الدرر، ٤/٢١٨.

(٩) المصدر نفسه ٤/٢١٨.

(١٠) المصدر نفسه ٤/٢١٧.

(١١) المصدر نفسه ٤/٢١٨.

(١٢) المصدر نفسه ٤/٢١٨.

(١٣) المصدر نفسه ٤/٢١٧.

(١٤) المصدر نفسه ٤/٢١٧-٢١٨.

١٥ - جمال الدين يوسف بن محمد بن مسعود العبادي الدمشقي الحنبلي:

ولد ببغداد عام ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م^(١)، رحل إلى دمشق فسمع من أصحاب ابن عبد الدائم فمن بعدهم فأكثر «وبرع في العربية والفرائض ونظم عدة أراجيز في عدة فنون... وكان يذكر أن تصانيفه بلغت مائة وزادت في بضعة وعشرين علماً»^(٢)، توفي بدمشق عام ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م وقد جاوز الثمانين^(٣).

ومن تصانيفه:

١. الأربعين الصحيحة فيما دون أجر المنيحة^(٤).
٢. عجائب الاتفاق وغرائب ما وقع في الآفاق^(٥).
٣. عقود اللآلي في الأمالي^(٦).
٤. غيث السحابة في فضل الصحابة^(٧).
٥. نشر القلب الميت بفضل أهل البيت^(٨).

(١) ابن حجر، أنباء، ١٥٠/، الدور ٤/٤٧٣، المنجد، معجم ٢١٠.
(٢) ابن حجر، أنباء ١٥٠/١-١٥١، الدور ٤/٤٧٣-٤٧٤.
(٣) ابن حجر، أنباء ١٥٠/١، الدور ٤/٤٧٤، المنجد، معجم ٢١٠.
(٤) ابن حجر، أنباء ١٥٠/١، الدور ٤/٤٧٤.
(٥) ابن حجر، أنباء ١٥٠/١، الدور ٤/٤٧٤.
(٦) ابن حجر، أنباء ١٥٠/١، الدور ٤/٤٧٤.
(٧) ابن حجر، أنباء ١٥٠/١، الدور ٤/٤٧٤، المنجد، معجم ٢١٠.
(٨) ابن حجر، أنباء ١٥٠/١، الدور ٤/٤٧٤، المنجد، معجم ٢١٠.

رابعاً : العلوم العقلية:

العلوم العقلية إطار ضخم يضم ألواناً من المعرفة التطبيقية، وتشتمل على علم الطب والصيدلة والرياضة والفلك والفلسفة والهندسة، وكانت هذه العلوم في العصر المملوكي ترتبط فيما بينها ارتباطاً وثيقاً، فكثير ما كان العلماء يجمعون في معارفهم الموسوعية بين الطب والصيدلة والفلسفة والعلوم الدينية في آن واحد^(١).

ومن العلماء الذين اشتهروا في دمشق بهذه العلوم:

١ _ بهاء الدين عبد السيد بن المهذب إسحاق بن يحيى الإسرائيلي:

كان ديان اليهود، وكان يحب المسلمين، ويحضر مجالس الحديث، ثم هداه الله وأسلم وقرأ القرآن، وكان ماهراً في صناعة الطب والكحل «جراحة العيون»، وكان إسلامه سنة ٧٠١هـ/١٣٠١م، وحضر هو وأولاده إلى دار العدل معلنين إسلامهم فأكرموا إكراماً زائداً لأنهم أسلموا طائعين، وعمل في تلك الليلة في داره قراءة للفاتحة ووليمة عظيمة حضرها القضاة والعلماء، وأسلم على يده جماعة من اليهود من أقاربه وخرجوا يوم عيد الأضحى يكبرون مع المسلمين وخرج الناس فرحين بهم، توفي في سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م، ودفن بسفح جبل قاسيون^(٢)

٢ _ شمس الدين محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي المعروف بشيخ الربوة وشيخ حطين:

ولد بدمشق عام ٦٥٤هـ/١٢٥٦م^(٣)، وكان يعرف بشيخ الربوة وشيخ حطين^(٤)، مهر في علم الرمل والتنجيم، وكان يدعي أنه يعرف الكيمياء، ودخل على الأقرم نائب دمشق فأوهمه شيئاً من ذلك فولاه مشيخة الربوة^(٥)، كما ألف في علم الجغرافيا^(٦)، قال عنه الصفدي: «رأيت به بصفد واجتمعت به، وكان من أذكى العالم له قدره على الدخول في كل علم وجرأة في التصنيف في كل فن، رأيت له عدة تصانيف حتى في الأطعمة وفي أصول الدين»^(٧)، توفي عام ٧٢٧هـ/١٣٢٧م بصفد في بيمارستان تنكز^(٨).

(١) غوانمة، التاريخ الحضاري ٢٠٦.

(٢) الذهبي، ذبول ٤/٣؛ ابن كثير ١٤/٦٠-٦١؛ ابن حجر، الدرر ٢/٣٦٦-٣٦٧؛ باشا ٤٨٦؛ حجازي ٢٥١.

(٣) الصفدي، الوافي ٣/١٦٣؛ ابن حجر، الدرر ٣/٤٥٨؛ الحصني ٢/٥٣٢؛ كحالة، معجم ١٠/٩٤.

(٤) الصفدي، الوافي ٣/١٦٣؛ ابن حجر، الدرر ٣/٤٥٨.

(٥) الصفدي، الوافي ٣/١٦٤؛ ابن حجر، الدرر ٣/٤٥٨.

(٦) الحصني ٢/٥٣٣؛ كحالة، معجم ١٠/٩٤.

(٧) الصفدي، الوافي ٣/١٦٣.

(٨) الصفدي، الوافي ٣/١٦٥؛ ابن حجر، الدرر ٣/٤٥٩.

ومن مصنفاته:

١. تصنيف في أصول الدين^(١).
٢. السياسة في علم الفراسة^(٢).
٣. نخبة الدهر في عجائب البر والبحر^(٣).
٤. نهاية الكياسة^(٤).

٣ _ زين الدين أيوب بن نعمة بن محمد بن نعمة بن أحمد بن جعفر الدمشقي الكحال:

ولد سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م^(٥)، درس الكحالة "طب العيون" على طاهر الكحال، فبرع في صناعة الكحل واشتهر بما فعراف بالكحال^(٦)، وقد مارس مهنته كحالاً لمدة سبعين سنة، قضى منها اثنتين وعشرين سنة يداوي الناس بمصر، أما الباقي فقضاها بدمشق، وكان خلال هذه الفترة يعالج عيون الناس ويأخذ أجراً على ذلك^(٧).

شاخ آخر أيامه وعجز، فنزل بدار الحديث الأشرفية في دمشق حتى توفي عام ٧٣٠هـ/١٣٢٩م^(٨).

٤ _ يوسف بن سليمان الكركي:

ذاع صيته في بلاد الشام، كان يتعاني علم الكيمياء فاشتهر به، اتصل بنائب صفد بهادر التقوي فأنلف له مالا كثيراً فأمر باعتقاله ثم أفرج عنه، وعندئذ قصد الأمير تنكر نائب دمشق واستقر بدمشق، ولما لم يستطع إثبات صدق تجاربه هم الأمير تنكر بقتله، إلا أن أمره وصل إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالقاهرة، فأرسل يستدعيه على البريد، فاجتمع به وخلع عليه، وأجرى له راتباً وأفرد له مكاناً^(٩)، وسلمه إلى الأمير سيف الدين بكتمر الساقي، فنزل بداره، ثم استدعى الآلات، وأحضر رئيس دار الضرب وعدداً من الأمراء والصاغة وأجرى التجربة في حضرة السلطان، فاحضر بوتقة مملأها بالنحاس والقصدير والفضة، ثم وضعها على النار حتى ذاب الجميع، ثم ألقى عليها شيئاً من الزئبق، وحركها على النار، ثم أفرغها أمامهم فإذا هي سبيكة ذهب كأجود ما يكون زنتها

(١) كحالة، معجم ٩٤/١٠.

(٢) حاجي خليفة ٥١/٢؛ الحصني ٥٣٣/٢؛ كحالة، معجم ٩٤/١٠.

(٣) الحصني ٥٣٣/٢؛ كحالة، معجم ٩٤/١٠.

(٤) حاجي خليفة ٤٤٦٣/٤؛ كحالة، معجم ٩٤/١٠.

(٥) الصفي، الوالي ٥٤/١٠؛ ابن حجر، الدرر ٤٣٥/١.

(٦) الصفي، الوالي ٥٤/١٠؛ ابن حجر، الدرر ٤٣٥/١.

(٧) الصفي، الوالي ٥٤/١٠؛ ابن حجر، الدرر ٤٣٥/١.

(٨) الجزري ٤٤٤٤/٢؛ الذهبي، دول ٢٣٨/٢؛ الصفي، الوالي ٥٤/١٠؛ ابن حجر، الدرر ٤٣٥/١.

(٩) ابن حجر، الدرر ٤٤٥٥/٤؛ المقرئ، السلوك ٣٢١، ٢/٢.

ألف مثقال^(١)، فلم يشك الناصر في صدقه وأعجب به، فخلع عليه خلعة سنهيه، فاشتهر أمره وصار غالب حاشية الناصر يتقربون إليه ويخدمونه، وحصل منهم مالاً كثيراً، ثم طلب من السلطان الناصر فضة مصفاة، وذهباً إفلورياً وزئبقاً، فطلب السلطان الزئبق من القاهرة ومصر والإسكندرية، واستنفذ جميع ما عند الناس من الزئبق، وأخذ كمية من الذهب ثم أحضر للسلطان ألف دينار، وادعى أنهما من صنعة، فأنعم عليه بما وخلع عليه ثانية، وأتاه عدة من الناس يسألونه في أخذ أموالهم، طمعاً في أن يفيدهم الصنعة أو يغيثهم منها، ولما شعر أن أمره سينكشف، طلب من السلطان السفر إلى الكرك لإحضار حشائش خاصة يستعملها في صناعته، فأذن له وأرسل معه من يحفظه، وكتب إلى نائب غزة والكرك بإكرامه وتسهيل مهمته، وعند عودته اتضح كذبه فهرب في رمضان سنة ٧٣١هـ/حزيران ١٣٣٠م واختفى، فأرسل السلطان إلى جميع النواب والولاة بالبحث عنه، فألقي القبض عليه في أحميم بصعيد مصر، وأحضر إلى القاهرة فأمر السلطان بضربه ضرباً شديداً، ثم رسم بتسميره. فمات في نهاية ذي الحجة سنة ٧٣١هـ/أيلول ١٣٣٠م^(٢).

٥- أبو الربيع أمين الدين سليمان بن داود بن سليمان الدمشقي:

كان رئيس الأطباء بدمشق ومدرسه^(٣)، اشتغل بالطب وتعالى العلاج فمهر فيه^(٤)، «كان مشهوراً بالمداواة وحسن التأني في ذلك وبسرعة المعالجة والسعادة في ذلك»^(٥)، كان من أبناء النصارى، وكان منقطع القرين معدوم النظر، شارك في الحكمة وبرز في علم الطب، وصار عالماً فيه وتقدم به عن جدارة ومعرفة، واقتصرت على طبقة كبار رجال الدولة، ومالت إليه العلماء، اعتنق الإسلام، إلا أنه عزل عن رئاسة الطب بأمر من نائب السلطنة الأمير تنكر بسبب الوشاة وبسبب ما كرهه منه من قوة النفس وكثرة الجرأة والإقدام، تولى معالجة إسندمر نائب طرابلس، فشفي فأجزل له العطاء، حيث أعطاه عشرين ألف درهم^(٦).

كما تولى معالجة عبد الله بن السلطان الناصر محمد فشفي من مرضه، وحاول معالجة القضاة علاء الدين بن الأثير الذي أصيب بمرض الفالج إلا أنه لم يستطع ذلك بسبب تحكم المرض فيه^(٧)، توفي بدمشق عام ٧٣٢هـ/١٣٣١م ودفن بالقيبات^(٨).

(١) المقريزي، السلوك ٣٢١، ٢/٢-٣٢٢.

(٢) ابن حجر، الدرر ٤٤٥٥/٤، المقريزي، السلوك ٣٢٢، ٢/٢-٣٣٤، ٣٣٣.

(٣) الجزري ٥٦٦/٢، الذهبي، دول ٢٣٩/٢، الصفي، الوافي ٣٨٠/١٥، ابن كثير ١٢٨/١٤.

(٤) الجزري ٥٦٦/٢، ابن حجر، الدرر ١٥١/٢.

(٥) ابن كثير ١٢٨/١٤.

(٦) ابن حجر، الدرر ١٥١/٢.

(٧) الصفي، الوافي ٣٨٠/١٥.

(٨) الجزري ٥٦٦/٢، الصفي، الوافي ٣٨٠/١٥، ابن كثير ١٢٨/١٤، ابن حجر، الدرر ١٥١/٢.

٦_ عبد الله بن يوسف بن أبي بكر الأسعدي الدمشقي:

كان فاضلاً في صناعة الميقات وعلم الإصطلاب، بارعاً في ذلك^(١)، كان حاملاً منحرف المزاج لشدة فقره، ولذلك لم يحصل به الإنتفاع^(٢)، ثم ضعف بصره فسقط من قيسارية عام ٧٣٤هـ/١٣٣٣م فمات، ودفن بباب الصغير بدمشق^(٣).

٧_ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الرحيم الموقت:

ولد قبل عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م^(٤)، عني بالقراءات والعربية ودرسها على علماء مصر، ثم ارتحل إلى دمشق واستقر فيها^(٥)، ثم برع في علم الهيئة والحساب والفلك^(٦)، واشتهر في عمل الإصطلابات، حيث كان يبيع الواحدة منها بعشرة دنانير وأكثر^(٧)، كما اشتهر بدهن القسي، عمل مؤقتاً بالجامع الأموي^(٨)، توفي في عام ٧٥٠هـ/١٣٤٩م^(٩).

ومن مؤلفاته:

١. رسالة في الإصطلاب^(١٠).

٢. كشف الريب في العمل بالجيب^(١١).

(١) الجزري ٦٩٧/٣؛ ابن كثير ١٣٥/١٤؛ ابن حجر، الدرر ٣٠٨/٢.

(٢) ابن كثير ١٣٥/١٤؛ ابن حجر، الدرر ٣٠٨/٢.

(٣) الجزري ٦٩٧/٣؛ ابن كثير ١٣٥/١٤؛ ابن حجر، الدرر ٣٠٨/٢.

(٤) ابن حجر، الدرر ٣٢٥/٣.

(٥) الصفدي، الوافي ١٧٠/٢؛ ابن حجر، الدرر ٣٢٥/٣-٣٢٦.

(٦) ابن حجر، الدرر ٣٢٥/٣.

(٧) الصفدي، الوافي ١٧٠/٢؛ ابن حجر، الدرر ٣٢٦/٣.

(٨) الصفدي، الوافي ١٧٠/٢.

(٩) الصفدي، الوافي ١٧١/٢؛ ابن حجر، الدرر ٣٢٦/٣.

(١٠) الصفدي، الوافي ١٧١/٢.

(١١) الصفدي، الوافي ١٧١/٢؛ ابن حجر، الدرر ٣٢٦/٣.

الفصل السابع

الحياة الاجتماعية

الفئات الاجتماعية :

أولاً : المسلمون :

أ_ السنة: شكل المسلمون السنة السواد الأعظم لسكان دمشق وغيرها من مدن الشام، فقد كانوا غالبية سكان القرى والمدن الشامية، عدا بعض المناطق التي كثرت فيها بعض الأقليات المذهبية، مثل: الشيعة الذين سكنوا قلاع الدعوة الإسماعيلية^(١)، وانتشر السنة بمذاهبهم الأربعة^(٢) الشافعي والحنفي والمالكي والحنبلي^(٣) بدمشق، بدليل أن الدولة المملوكية عينت قاضي قضاة لكل مذهب في المدينة^(٤)، إضافة إلى أن دمشق حوت العشرات من المدارس التي تدرس على المذاهب الفقهية الأربعة^(٥)، وكانت تعقد في الجامع الأموي حلقات العلم والفقه على المذاهب نفسها، وله أئمة وفق هذه المذاهب أيضاً^(٦). وكانت تحدث بعض الخلافات بين فقهاء المذاهب في بعض الأحيان خصوصاً بين الحنابلة والشافعية، لا سيما وأن الفترة التي نحن بصدد دراستها هي الفترة التي عاش فيها ابن تيمية، ووقعت بينه وبين فقهاء الشافعية العديد من المناظرات التي أدت إلى نقمة الشافعية عليه ولجوء الدولة المملوكية إلى سجنه، وقد حدث هذا عدة مرات^(٧)، وأدى إلى حدوث نزاعات بين الحنابلة والشافعية على نطاق أوسع في بعض الأحيان، فيذكر ابن كثير في حوادث عام ٧١٦هـ/١٣١٦م أنه "وقعت فتنة بين الحنابلة والشافعية بسبب العقائد، وترافعوا إلى دمشق، فحضرها بدار السعادة عند نائب السلطنة تنكر فأصلح بينهم، وانفصل الحال من غير محاققة ولا تشويش على أحد من الفريقين"^(٨).

كما وجدت فئة سنية أخرى عرفت بالمتصوفة، والتي عرفها ابن خلدون بقوله: "وأصلها العكوف على العبادة، والانتقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة"^(٩)، وأفرد السبكي نفسه للصوفية مكاناً في كتاباته لدرجة تظهر للباحث وكأن الصوفية غدت مذهباً وليس سلوكاً اجتماعياً، زهداً وعبادة وتقرباً إلى الله، ولا غرابة من ذلك، فالسبكي نفسه كان متصوفاً، فهو يقول عنهم: "حياهم الله وبياهم، وجمعنا في الجنة نحن وإياهم"^(١٠).

(١) العمري، مسالك، دولة ١٣٨-١٣٩؛ الكتي، عيون ٤٢١/٢٠-٤٢٢؛ ابن بطوطة ٤٨٢؛ الفلقشندي، صبح ١٠٥٤/١، ١٠٥٥.

١٠٥٧، ١٠٥٨، ٤/١٥٢، ٤٢٤٢؛ المقرئ، السلوك ٢/١، ٥٩٣، ٥٩٩، ٦٠٨، ٤/٣٧٣.

(٢) الطرسوسي، تحفة ٤٧٧؛ ابن كثير ١٣/٢٠٥؛ الفلقشندي، صبح ٤/١٩٩؛ زيادة، دمشق ١٥٥-١٥٦.

(٣) ابن شداد، الأعلام ٢٢٠-٢٦٣؛ الأربلي ٢٤٢-٢٤٤؛ النعمي، المدارس ٩٦/١-١٠٠، ٣/٢٠٠؛ العلوي ١٣٨-٥.

(٤) ابن بطوطة ١١١.

(٥) الصفدي، الوافي ٧/١٥؛ الكتي، فوات ١/٧٤؛ ابن كثير ٤/١١٠؛ ابن حجر، ابن تيمية ٢١-٣٦.

(٦) ابن كثير ١٤/٦١.

(٧) ابن خلدون، المقدمة ٤٤٦٧؛ الأدفوي، الموفى ٥.

(٨) السبكي، معيد ١١٩.

وقد انتشرت الطرق الصوفية ليس فقط في دمشق بل وفي قرانا وضواحيها، ففي قرية كفر سوسية وحدها من قرى الغوطة_ وجد سبع طرق صوفية^(١).

وبالنسبة لقرى دمشق، فغالبيتها قرى مسلمة، اشتملت على الجوامع والأربطة والزوايا والمزارع^(٢)، وتميزت هذه القرى بكثرة إقامة الشعائر الدينية فيها^(٣)، وكان وجوه القرية من صميم العامة على الأكثر، وهم الذين ينصبون الإمام والخطيب منهم^(٤)، يقول كرد علي: «كلما بعدت المزارع عن أمهات القرى لا تحس فيها أثراً للتدين، لأن مجموع سكانها من العملة المتنقلين لا المقيمين الثابتين، يشتغلون في أرض أرباب الأملاك وهؤلاء لم يهتموا بتعليم فلاحهم أمور دينهم لأن أمرهم لا يعينهم»^(٥).

ومن المسلمين السنة الذين وجدوا في دمشق أيضاً: المغاربة: حيث يذكر ابن بطوطة السذي زار دمشق في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد مدى الاهتمام الذي كان المغاربة يلاقونه، ففسد كان أهالي دمشق يؤمنونهم على أموالهم وأولادهم وأهلهم، كما عمل المغاربة في إمامة المساجد وفي المدارس، أو كقراء للقرآن الكريم، وكانوا يتلقون من الدولة النفقة والكسوة، كما عملوا في البساتين والطواحين وكفالة الصبيان^(٦)، ومن أشهر القضاة المغاربة الذين كانوا يقيمون في دمشق في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد القاضي المالكي إبراهيم بن عبد الله بن عمر الصنهاجي، والقاضي الشافعي سليمان بن عمر بن سالم^(٧).

وقد بدأت أعداد المغاربة تزداد في العصر المملوكي، سواء في دمشق أو غيرها من مناطق بلاد الشام، خاصة بعد سقوط غرناطة في أيدي الفرنج، ففي سنة ٨٩٦هـ/١٤٩٠م قدمت جماعات مسن بلاد المغرب من مقاتلة غرناطة^(٨) بعيالهم وأولادهم وسكنوا دمشق، وذلك بسبب استيلاء الفرنج على بلادهم^(٩).

ومن الأقليات العرقية التي سكنت دمشق، وهم من المسلمين السنة: التركمان: حيث قدمت أولى

(١) كرد علي، غوطة ٣٥، مقابلة ٤٩.

(٢) الانصاري/٦٤.

(٣) كرد علي، غوطة ٤٦، مقابلة ٤٧.

(٤) الخولاني ١١.

(٥) كرد علي، غوطة ٣٦، مقابلة ٤٧.

(٦) ابن بطوطة ١٢٢؛ العلي، دمشق ٩٢-٩٣.

(٧) ابن حجر، أنباء ٢١٨/٣، الدور ٣٠/١؛ ١٥٩/٢-١٦٢؛ زعرور ٧٤، ٧٣، ٦٥.

(٨) غرناطة: مدينة بالأندلس، أقدم مدن كورة البيرة وأعظمها وأحسنها وأحصنها يشقها نهر حذاره. (باقرت، معجم ٢٢١/٤).

(٩) ابن طولون، مفاكهة ١١٩/١؛ زعرور، ٦٣.

الجوهر^(١)، وأورد كرد علي أن أعدادهم في قرى الغوطة لا يقل عن مائة وأربعين ألفاً^(٢)، وهم قوم دهرية حلولية لهم عقائدهم الخاصة، إذ يكذبون الرسل، وينكرون الشرائع، ويأكلون لحم الخنزير والميتة، ولا يصومون، ولا يصلون، ولا يحجون، ولا يزكون^(٣)، ويعتقدون بتناسخ الأرواح، ولا يؤمنون بالبعث والنشور يوم القيامة^(٤)، ويمتازون بالجمال ورشاقة القامات خاصة النساء منهم، ويزرعون حشيشة مسكرة لاعتصار الخمر، وقد حصلت عدة محاولات من المالك لحملهم على المعتقدات السنية، كما صدرت أوامر في عهد الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م بأن يوجد مسجد في كل قرية من قراهم إلا أنهم استمروا على معتقداتهم^(٥).

وقد وصف بعض الشيعة في دمشق بالمغالاة والتطرف في أفكارهم وانهموا بالخروج عن الإسلام، فقد أعدم أحد الشيعة ويدعى حسن ابن الشيخ السكاكيني، وذلك بسبب تكفيره الشيخين (أبا بكر وعمر) وقذفه عائشة وحفصة، وزعم أن جبريل أخطأ الرسالة فأوحى إلى محمد بدلاً من علي، إلى غير ذلك من الأقوال التي تدل على أنه "الرفض الدال على الكفر المحض"، وبسبب ذلك أعدم بسوق الخيل عام ٧٤٤هـ/١٣٤٣م^(٦)، أما شمس الدين محمد بن أبي بكر الهمداني فقد كان أحسد علماء الشيعة بدمشق، وظهرت له بعد موته كتب له فيها انتصار لليهود وأهل الأديان الفاسدة، أما ابنه قايمز فقتل لقذفه عائشة وأمهاة المؤمنين^(٧).

ثانياً : أهل الذمة :

سكن أهل الذمة (يهوداً ونصارى) دمشق ونواحيها، وقبل الحديث عنهم لابد من الإشارة إلى العهدة العمرية التي منحها عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، لأهل الذمة في بلاد الشام بعد فتحه لبيت المقدس، حيث تشير المصادر التاريخية إلى الشروط العمرية التي أقرها الخليفة عمر بن الخطاب لمعاملة أهل الذمة يهوداً ونصارى، وأوجها عليهم، ومن تلك الشروط: ألا يتحدثوا كنيسة في مدينة ولا فيما حولها من دير^(٨)، أو قلابة^(٩)، أو صومعة^(١٠) راهب، ولا يجددوا ما خرب من كنائسهم، إلا ما

(١) م ٧.

(٢) كرد علي، مخطوط ٢٦٨/٦.

(٣) شيخ الربوة ٢١١؛ مقابلة ٥٠.

(٤) البكري، رحلة ١٠.

Ziadeh 46 .

(٥) ابن كثير ٤/٦٦٦، المقرئ، السلوك ١/٢، ١٧٨، الطراونة ١٤٥.

(٦) ابن كثير ١٤/١٦٦٩، ابن حجر، الدرر ٢/٣٤.

(٧) ابن كثير ١٤/٨٠.

(٨) الديور: مكان مخصص للنصارى بينونه الرهبان خارج البلد، ويجمعون فيه للاعتقاد عن الناس. (ابن قيم الجوزية ١٢، الخطيب ١٨٩).

(٩) القلاية: مكان مخصص للرهبان وبين مرتفعاً كالمنارة، وتكون القلاية داخل المدينة، أو في الجبال، وتخصص لراهب واحد فقط.

(ابن قيم الجوزية ١٢-١٣، المقرئ، المخطوط ٤/٤٢٣، الخطيب ٣٥٣).

(١٠) الصومعة: مكان يتخذ لعبادة الرهبان، تبين خارج المدينة. (ابن قيم الجوزية ١٢-١٣، الخطيب ٢٩٨).

كان في خطط المسلمين، وأن لا يمنعوا المسلمين من دخولها، وأن يوسعوا أبوابها للمارة وابن السبيل، ولا يؤون فيها ولا في منازلهم جاسوساً، وأن لا يكتموا غشاً للمسلمين، وأن لا يمنعوا منهم من أراد الدخول في الإسلام، وأن يلتزموا بزيتهم، وأن لا يتشبهوا بالمسلمين في لبس القلنسوة والعمامة والتعلين وفرق الشعر، ولا يكونوا بكناهم، وأن يجزوا مقادم رؤوسهم، ولا يفرقوا نواصيهم، ويشدو الزنابير على أوساطهم، ولا يشاركون مسلماً في تجارة إلا أن يكون رئيسها المسلم^(١)، وقد بقي معمولاً بهذه الشروط تقريباً طوال العهود الإسلامية مع اختلافات بسيطة، تبعاً للظروف اللاحقة للدولة الإسلامية.

أ_ النصارى:

انتشر النصارى في مختلف أرجاء بلاد الشام، حيث سكنوا إلى جوار المسلمين في القرى والمدن^(٢)، وكانت دمشق من ضمن المناطق التي سكنها النصارى^(٣)، وقد أشار الحميري إلى أن المنطقة الممتدة من ثنية العقاب إلى باب توما كلها قرى للنصارى^(٤)، كما وجدت قرى ونواحي كثيرة من دمشق كان غالبية سكانها من النصارى كقرية شذرة^(٥)، وصحنايا^(٦)، وعربيل^(٧)، والأشرفية^(٨)، وداريا، وحرستا^(٩)، والقابون التحتاني^(١٠)، ومنين^(١١)، ومعلولا، حيث أشار النابلسي في رحلته إلى أن أهالي معلولا نصارى ويتكلمون السريانية^(١٢).

وقد شيدت الكنائس والأديرة للرهبان، حيث وجد في دمشق أربع عشرة كنيسة وخمسة أديرة للنصارى^(١٣)، كما وجد في قرية معلولا عدد من الكنائس^(١٤)، ووجدت في قرية منين كنيسة^(١٥).

ويذكر ابن العماد أنه في سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م دخل المسلمون قارا وسبوا منها ألف نفس من

(١) ابن قيم الجوزية ٤-٣.

(٢) أبو الفداء، تقويم ٢٢٢٩؛ الظاهري ٥٠، الحميري ٢٤١؛ زيادة، دمشق ١٣١.

(٣) زيادة، دمشق ١٣١؛ حجازي ١٢١.

(٤) الحميري ٢٤١.

(٥) شذرة: من قرى غوطة دمشق. (كرد علي، غوطة ٣٥).

(٦) صحنايا: قرية في غوطة دمشق. (كرد علي، غوطة ٣٥).

(٧) عربيل: من قرى غوطة دمشق. (كرد علي، غوطة ٣٥).

(٨) الأشرفية: من قرى الغوطة بدمشق. (كرد علي، غوطة ٣٥).

(٩) كرد علي، غوطة ٣٥.

(١٠) ابن طولون، ضرب ١٥٩.

(١١) زكريا ٤٠٠.

(١٢) النابلسي، الحقيقة ٢٧.

(١٣) ابن شداد، الأعلام ٢٧١-٢٧٦.

(١٤) مقابلة ٥٥.

(١٥) زكريا ٤٠٠.

النصارى وجعلت كنيستها جامعاً^(١).

وامتهن النصارى العديد من المهن، فكان منهم التجار والزراع وأرباب الفن والصناع^(٢)، وبعضهم عمل بصناعة حجارة الرحي اليدوية لأن لها سوقاً رائجة في القرى الساحلية وغيرها^(٣)، وبرع التجار في دمشق في مجال التجارة الداخلية والخارجية^(٤)، حيث امتلكوا الأسس والمقومات التي تساعدهم على الاشتغال بالتجارة خاصة الدولية منها، فتوفر لديهم رأس المال الوفير، ومهروا في أعمال الاقتصاد وأصول التجارة وفنون الحساب وتعدد اللغات الأوروبية^(٥)، كما أسهم الفلاحون من نصارى دمشق وبقية مناطق بلاد الشام في النشاط الزراعي ودفَعوا الخراج، وكانوا يؤدون الجزية^(٦).

وكانت الجزية هي الشرط الأساسي في عقد الذمة، وكان يتولى جبايتها ناظر يعين من جهة السلطان بتوقيع شريف ويساعده موظفون آخرون، من شاد، وعامل، وشهود^(٧)، ويشترط في شاد الجوالي أن يكون ذا عزم وقوة، وصاحب هبة، ويستخلص الحق من أهله^(٨)، وقد دفع أهل الذمة الجوالي عما تحت أيديهم من أرض، وما تنتج أراضيه من غلال ومحاصيل^(٩)، وكانت في بداية الأمر تسمى جزية، ومع مرور الوقت أصبح يطلق عليها الجوالي، وهي الضريبة الرئيسة التي يدفعها الذمي للدولة الإسلامية^(١٠)، وقد تراوحت قيمة هذه الضريبة ما بين خمسة وعشرين درهماً إلى عشرة دراهم^(١١)، وكانت طريقة جمع هذه الضريبة قبل الروك^(١٢) الناصري سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م تتم بعد أن يقوم مباشر الجوالي بتسجيل قوائم بأسماء أهل الذمة من اليهود والسامرة والنصارى، حيث ترتب هذه الأسماء أبجدياً، وعندما تؤخذ الجزية من الذمي كان يعطى إيصالاً من أجل إثبات دفعه لها، وكان على رؤساء اليهود والسامرة وقساوسة النصارى كتابة قوائم سنوية بأسماء المقيمين في البلاد من طوائفهم الذين عرفوا بـ"الرواتب"، بالإضافة إلى الوافدين الذين عرفوا بـ"الطوائري"، وكانت هذه

(١) ابن العماد ٣١٤/٥.

(٢) اليونيني ٣٢١/٢.

(٣) مقابلة ٥٥.

(٤) هايد ١٤٠/١ - حجازي ١٢٨.

(٥) راوولف ٤٣١ - حجازي ١٢٧.

(٦) ابن الأثير ٥٥٣/١١.

(٧) الفلقشندي، صبح ٥٣٠/٣ - حجازي ٧٩.

(٨) الفلقشندي، صبح ٣٠٦/١٢ - حجازي ٧٩.

(٩) ابن جماعة، تحرير ١٠٢.

(١٠) الفلقشندي، صبح ٥٣٠/٣ - قاسم، أهل ٦٨.

(١١) الفلقشندي، صبح ٥٣٠/٣ - قاسم، أهل ٦٩.

(١٢) الروك : من مصدر الفعل الثلاثي (راك)، ومعناه في الأصل مسح أرض الزراعة في بلد من البلدان لتقرير الخراج المستحق عليها لبيت المال، و يعمل هنا الروك كل ثلاثين سنة تقريباً، والكلمة مأخوذة من كلمة روض ومعناها قياس الأرض بالحبل. (المقريزي، السلوك ١٤٦، ١/٢، ح ٤١؛ الأسدي، التيسير ١٩٤؛ طرخان ٩٥).

القوائم تحتوي أيضا على أسماء الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم والذين عرفوا بـ "النواب" بالإضافة إلى أسماء من اهتموا بالإسلام، وأولئك الذين توفوا أو سافروا مع ذكر اسم البلد الذي سافروا إليه، وكانت هذه الأموال تعود إلى ديوان الخصاص السلطاني، وقد استمر هذا الوضع حتى الروك الناصري، أما فيما بعد فقد أصبح النصارى وكافة أهل الذمة يدفعون هذه الضريبة كل حالبة إلى مقطع تلك البلد^(١).

انقسم النصارى في دمشق إلى طائفتين هما: اليعاقبة والملكانية، وكانت هناك مجموعة من الموظفين الدينيين الذين يقومون على شؤون هذه الطوائف وعلى رأسهم "البطريك" الذي يرجعون إليه في التحليل والتحرير وفي الحكم بينهم، ومن وظائفه النظر في أمر الكنائس والديارات والرهبان^(٢)، وذكر القلقشندي أن في مدينة دمشق بطر كان، أحدهما لليعاقبة والآخر للنصارى الملكانية^(٣)، وقد اعتبر البطاركة موظفين رسميين، وذلك لأن توابع تعيينهم كانت تصدر عن ديوان الإنشاء^(٤)، ويلبي البطريك من الوظائف الدينية "الأسقف" وهو نائب له، ثم "المطران"، وهو مثل القاضي، حيث يقوم بفصل النزاعات بين النصارى وبلية "القسيس"، وهو الذي يقرأ لهم الأناجيل والمزامير، ويقوم الصلوات ويفتي لهم في الدين، ثم "الشماس"، وعليه رعاية مصالح الكنيسة، ثم "الراهب" وهو ممن حبس نفسه للعبادة^(٥).

ولكي يحافظ النصارى على هويتهم الدينية، فقد كانوا يعلمون أبناءهم في مدارس تابعة للكنائس والأديرة، حيث كانوا يتلقون منها ما يساعدهم على المعيشة والتفرغ للدراسة، ووجد في هذه المدارس نظامان في التعليم: الأول: كان يخص أهل الدير أنفسهم، ويتلقون من خلاله مبادئ النحو والصرف، ويتفقهون في مسائل الرهبانية، والتزامات النذور والمنطق والفلسفة، الثاني: ما يخص باقي الطلاب (وهم ليسوا من أهل الدير) فقد كانوا يتعلمون النحو والصرف والحساب والموسيقى والخط^(٦)، وكان لكل مدرسة رئيس خاص بها يقوم بإدارتها ورعاية الطلاب، بالإضافة إلى المدرسين، وهم الرهبان الذين درسوا في هذه المدارس^(٧).

أما بالنسبة للعلاقة بين الممالك وأهل الذمة، فإنه لم يكن هناك أي تدخل من قبل المسلمين في

(١) النويري ٢٤٢/٨-٢٤٥؛ القلقشندي، صبح ٥٣١/٣؛ قاسم، أهل ٦٨-٦٩.

(٢) القلقشندي، صبح ٤٢٥/١٢-٤٢٦؛ غوانمة، التاريخ الحضاري ١٤٤.

(٣) العمري، التعريف ٢٠٥-٢٠٧؛ القلقشندي، صبح ٢٠١/٤.

(٤) العمري، التعريف ٢٠٥-٢٠٧؛ القلقشندي، صبح ١١/١١-٣٨٧، ٣٨١، ٣٩٠، ٣٩٦، ٣٩٩، ١٢/٤٥.

قاسم، أهل ٦٥-٦٦ ترون ٩٢.

(٥) ابن خلدون، المقدمة ٢٣٢-٢٣٤؛ القلقشندي، صبح ٤٤٤/٥-٤٤٥؛ المقرئ، الخطط ٤٤٢/٤؛ قاسم، أهل ١٠٧-١٠٨.

(٦) علي، القلس ١٦٦-١٦٧؛ قاسم، أهل ١٤٢.

(٧) علي، القلس ٦٧.

شعائهم، كما أن النصارى وقفوا إلى جانب السلطان الناصر محمد بن قلاوون في نزاعه مع بعض الأمراء المماليك الطامعين في السلطنة، وأيدوا ثورته، وقدموا له كل مساعدة^(١).

ونعم النصارى بالعدل في ظل حكم المماليك، لذلك فقد عاشوا عيشة رفاهية، فالتفت بيوتهم بالارتفاع والفخامة^(٢)، كما لبسوا أفخم الثياب، وركبوا الخيول، وامتلكوا العبيد، وعملوا في أحلّ المناصب^(٣)، وتقلدوا عدة وظائف، فمنهم من عمل جايياً و كاتباً في بيوت الأمراء والقضاة المسلمين، أو صيرفياً في الجوالي، كما رافق بعضهم الأمراء أثناء عملية جمع الخراج^(٤).

كما نعم النصارى وأهل الذمة بشكل عام بالأمن والطمأنينة في ظل الدولة المملوكية، ففي فترة حكم الأمير تنكز الحسامي على دمشق، لم يتمكن أحد من الأمراء من أن يظلم ذمياً في عهده^(٥)، وكان يحسن إلى الأسرى من أهل الذمة، ففي عام ٧٢٧هـ/١٣٢٦م "قدم جماعة من الأسارى مع تجار الفرنج، فأزلوا بالمدرسة العادلية الكبيرة واستفكوا من ديوان الأسرى بنحو من ستين ألفاً، وكثرت الأدعية لمن كان السبب في ذلك"^(٦).

كما أن الملاك والفلاحين من أهل الذمة استفادوا كثيرهم من أهل البلاد من الإعفاءات المالية التي كانت تحدث في عهود السلاطين، ففي عام ٧١٦هـ/١٣١٦م أصدر السلطان الناصر محمد بن قلاوون مرسوماً أبطل فيه المكس بسائر البلاد القبلية والشامية، فبلغ ما سوحت منه دمشق ٢٨٠ ألف درهم^(٧)، وفي عام ٧٢٤هـ/١٣٢٣م أبطل الناصر أيضاً مكس الغلة، وكان المتحصل منها مبلغاً كثيراً، وكان قد سبب ضيقاً على الفلاحين، فكان يؤخذ من ثمن كل غرارة ثلاثة دراهم ونصف^(٨)، ونتيجة لهذا العدل الذي تمتع به أهل الذمة (يهوداً و نصارى) أسلم عدداً من علمائهم^(٩).

ورغم ذلك، فقد كان النصارى يقومون أحياناً بإثارة الفتن والمشاكل في الدولة، مما دفع بسلاطين المماليك إلى اتخاذ التدابير بحق النصارى، فكانوا يعدونهم عن وظائف الدولة، ويشددون عليهم في تنفيذ ما كان مشروعاً لهم من ركوب الدواب، وهدم كل ما شيد من كنائسهم، كما فرض عليهم أحياناً لباس معين لتمييزهم عن المسلمين، وكتبوا المراسيم بذلك^(١٠)، وسبب ذلك أنهم

(١) غواصة، التاريخ الحضاري ١٤٢؛ التاريخ السياسي ١١٦.

(٢) المقرزي، الخطط ٤/٤١٠.

(٣) القلقشندي، صبح ١٣/٣٧٧؛ المقرزي، الخطط ٤/٤١٣، ٤١٩.

(٤) قاسم، أهل ٨٦.

(٥) الصفدي، الوافي ١٠/٤٢١؛ الإمام ١٣٢.

(٦) ابن كثير ١٤/٣٠١.

(٧) ابن كثير ١٤/٦١؛ المقرزي، السلوك ٢/٤٣٦.

(٨) الذهبي، دول ٢/٢٣٢؛ اليافعي ٤/٢٧١؛ ابن حبيب، تذكرة ٢/١٤٢.

(٩) الذهبي، ذبول ٤/٣؛ ابن كثير ١٤/٦١٠، ٦١٢، ٦١٤؛ ابن حجر، الدرر ٢/١٥١، ٣٦٦، ٣٦٧.

(١٠) البوسفي ٤/٨٤؛ اليافعي ٤/٢٣٤.

عدداً وثيراً من القرى على جانبي الطريق معظمها مأهولة بالنصارى من السريان والأرمن وغيرهم، واستقبلونا بمتهى الأدب، وقدموا لنا خموراً من الأعتاب والتي تنمو فوق تلك الجبال، ولم أكن قد شربت في حياتي أفخر من تلك الخمور^(١)، كما اشتهرت قرية صيدنايا من أعمال دمشق بكثرة الكروم والخمر الفائق^(٢).

ومما هو معروف عن نساء النصارى بشكل عام أنهن يتصفن بالجمال والرشاقة، فيذكر لابروكيو في رحلته^(٣) أنه لم يشاهد جمالهن في جميع القرى التي زارها، وهؤلاء النساء ينفين جمالهن وراء براقع صوفية سوداء تعلق بها النساء الأثرياء قطعاً من النقود والأحجار الكريمة^(٤).

ب_ اليهود:

سكن اليهود دمشق في العصر المملوكي^(٥)، وبالرغم من إهمال المصادر لأعدادهم وأماكن تواجدهم، إلا أن الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي_ الذي قدم الى هذه المنطقة أثناء الوجود الفرنسي فيها ودون رحلته هذه سنة ٥٦٩هـ/ ١٧٣١م_ أعطانا إحصائية لأعداد اليهود في جميع المناطق التي سكنوا فيها، والذي يهمننا منها دمشق، فقد أشار إلى أنه كان يسكن في دمشق ثلاثة آلاف يهودي بالإضافة إلى مئتين من القرائين وأربعمائة من السامريين^(٦)، كما سكن اليهود في قرية جوبر من أعمال دمشق^(٧)، وقد أشار ابن شداد إلى وجود كنيس لليهود في مدينة دمشق^(٨)، ويذكر أن أعداد اليهود في دمشق ومختلف بلاد الشام أخذت تزايد في العهد المملوكي بسبب هجرة أعداد كبيرة منهم من الأندلس إليها، وذلك هرباً من الاضطهاد الديني هناك^(٩).

وكان لليهود في دمشق رؤساء يسمى كل واحد منهم "راي"، وعلى رأس كل مجموعة من الربانية "خانام"^(١٠)، يقومون على أمورهم ويقيمون حدود التوراة فيهم، وكان مركز الرؤساء الربانيين والقرائين في دمشق، أما السامرة فكان رئيسهم في مدينة نابلس^(١١)، ومن الموظفين الدينيين عندهم أيضاً "الخران": وهو الذي يشرف على صلاتهم، ويشترط فيه المعرفة بأحكام التلمسود، ويليهِ "الشليحصور": وهو الذي يؤم اليهود في الصلاة بكنسهم، أما "الربان": فكانت مهمته القضاء

(١) راوولف ٥٠.

(٢) باقوت، معجم ٣/٢٥٠؛ البغدادي ٢/٨٥٩.

(٣) زايد ٣/٣٣٢؛ مقابلة ٥٧.

(٤) الجزري ١/٤٧٨.

(٥) التطيلي ١١٢، ١١٧؛ متر ١/٨٢؛ غوانمة، تاريخ نيابة ١٢٢.

(٦) ابن طولون، ضرب ١٥٥.

(٧) ابن شداد، الأعلام ٢٧١-٢٧٦.

(٨) ابن طولون، مفاكهة ١/١١٩؛ الطراونة ١٤١؛ علي، القلمس ١٠٠؛ زعرور، ٦٣.

(٩) علي، القلمس ١٠٤.

(١٠) القلقشندي، صبح ٤/٢٠١؛ غوانمة، تاريخ نيابة ١٢٥.

والفصل في نزاعات اليهود، والأمر والنهي في جميع الأمور الدينية^(١).

وكان التعليم عندهم ينقسم إلى مرحلتين: يتم في الأولى تدريس الأطفال في مكاتب تابعة لكنيسهم، حيث يرسلون إلى هذه المكاتب في سن الخامسة أو السابعة وحتى سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، فيدرسون القراءة والكتابة، وفهم وحفظ قوانين التوراة، بالإضافة إلى بعض الأتوال المأثورة عن رجال دينهم، ومبادئ العقيدة اليهودية والعبادات الخاصة بها^(٢).

وكان التعليم عندهم يتم مقابل دفع أهالي الأطفال الأجور للمؤدين، أما الأطفال الفقراء فكان اليهود يقومون بجمع الأموال ودفعها عنهم^(٣)، أما الكبار فكانوا يذهبون إلى الكنيس أيام السبت والعطل الأخرى من أجل تعلم السلوك الاجتماعي والديني السليم، كما كانوا يهتمون بتعلم القراءة من أجل تعلم الترجمة والتفسير في الكتاب المقدس^(٤).

وتركزت الوظائف والأعمال التي قام بها اليهود على أعمال الصيرفة وسك النقود والصياغة، كما عملوا في التجارة، وفي صناعة المنسوجات الصوفية، وكمرشدين سياحين أو مترجمين لمصاحبة الحجاج المسيحيين أثناء زيارتهم للأماكن المقدسة، وقاموا بأعمال الخياطة وصنع الأحذية، كما احترف بعضهم صناعة الزجاج، وكان منهم الأساكفة والصباغون^(٥)، وعمل البعض الآخر في مجال الطب^(٦).

تمتع اليهود في دمشق بالحرية الدينية - شأنهم في ذلك شأن النصارى - إلا أن الفقهاء المسلمين تشددوا في مسألة إحداث اليهود للكنس، ففي سنة ٧٢١هـ/١٣٢١م في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ونيابة تنكر على دمشق - تكلم جماعة من القضاة المسلمين في كنيسة اليهود القرائين بدمشق وقالوا بأنها محدثة، وعملوا محاضر بذلك وأثبتوها، وشهد بذلك جماعة، فورد مرسوم السلطان الملك الناصر بدمها، فهدمت بحضرة العلماء والفقهاء والحجاب، وكان يوماً مشهوداً ألقى به الشعراء القصائد^(٧)، وتجدر الإشارة إلى أن اليهود ادعوا بأن الكنيسة قديمة، ولكن ثبت للأمير تنكر والقضاة بأنها كنيسة محدثة وأنها «كانت مخفية لا يعرفها الا القليل من الناس، كانت داراً ثم عملت كنيسة منذ نحو مائة سنة»^(٨).

(١) القلقشندي، صبح ٤٦٣/٢-٤٦٦، قاسم، أهل ١٢٣-١٢٧.

(٢) علي، القلس ١٦٠.

(٣) المرجع نفسه ١٦٠.

(٤) المرجع نفسه ١٦٨.

(٥) التطلبي ١٠٤٩٢، ١٠٨، ١٠٩، ١١٩، قاسم، أهل ٨٦-٨٧، تروتون ١٠٠-١٠١، غرامة، التاريخ الحضاري ١٤٥، تاريخ نيابة ١٢٣، الطراونة ١٤١، علي، القلس ١٠٤.

(٦) ابن كثير ١٤/٦٠-٦١، ابن حجر، الدرر ١٥١/٢.

(٧) الجزري ١/٤٧٨، الذهبي، دول ٢٢٩/٢، ذبول ٤/٦٠، ابن كثير ١٤/٧٩، ابن حبيب، دوة ٢/١٨، تذكرة ٢/١١٧، ابن صصري ١٢٧، المقرئ، السلوك ٢/٢١٥.

(٨) ابن حبيب، تذكرة ٢/١١٧.

احتفالات المجتمع الدمشقي

أولاً: الأعياد والمناسبات الدينية :

احتفل أهالي دمشق بالعديد من الأعياد والمناسبات الدينية والتي كان من أهمها :

١- رأس السنة الهجرية :

حرص نائب السلطنة بدمشق، وكذلك العلماء والتجار وعامة الناس بالمدينة، على التهئة في أول المحرم^(١)، كما جرت العادة أيضاً بأن تقوم النسوة في أول ليلة من محرم بشراء اللبن، "ويزعمن أن ذلك تفاؤل بأن تكون سنتهم كلها عليهم بيبضاء"^(٢)، واعتبر ابن الحاج أن هذه العادة التي انتشرت بين النساء بدعة وسلوك باطل^(٣).

واعتاد أهالي دمشق أيضاً تبادل التهاني في اليوم الأول من كل شهر عربي، كما اعتاد أصحاب السعة منح العطايا لكل وارد عليهم يوم "تهنته الشهرية"^(٤).

٢- عاشوراء :

تصادف هذه الذكرى يوم العاشر من محرم، وهذا اليوم من الأعياد التي عرفت في بلاد الشام. ومنها دمشق. منذ العصر الفاطمي، حيث كان الشيعة يتخذونه يوم حزن تعطل فيه الأسواق، وبعد نائب الخليفة الفاطمي السمامت العظيم المسمى بـ "سمامت الحزن" المكون من العلس، والملوحات، والمخللات، والأجبان، والألبان الطازجة، والأعسال، والفطير، والخبز المغير لونه عن قصده، فإذا اقترب الظهر أدخل الناس للأكل منه، فإذا فرغ القوم انصرفوا، ويبدأ النواح حتى صلاة العصر، وبعد ذلك يجوز لهم فتح حوانيتهم^(٥)، وقد تواصل الاحتفال بهذه المناسبة في العصر المملوكي، فالفقهاء في هذا العصر اعتبروا يوم عاشوراء من المواسم الشرعية الرئيسة التي احتفل بها أهل دمشق^(٦)، ويلاحظ بأن المسلمين تأثروا بالشيعة وأصبحوا يقلدوهم في الاحتفال بهذا اليوم، حيث كان الناس يقومون في هذا اليوم بالتوسعة على الأهل والأقارب واليتامى والمساكين، وكان بعض الناس يؤجل ما عليه من أموال الزكاة في أي شهر من شهور السنة حتى يخرجها في يوم عاشوراء^(٧).

واعتادت نساء أهل دمشق في هذا اليوم زيارة الجامع الأموي والإقامة به من أول النهار حتى

(١) الشعران ٤١٣٢ متر ٢/٢٩٢.

(٢) ابن الحاج ١/٢٠٠.

(٣) المصدر نفسه ١/٢٠٠.

(٤) الشعران ١٣٢.

(٥) المقرئ، الخطط ٢/٣٢٩-٣٣١؛ رمضان ٢٤٠.

(٦) ابن الحاج ١/٢٠٨.

(٧) المصدر نفسه ١/٢٠٨-٢٠٩.

الزوال لا يشار كهن فيه الرجال، حيث يقمن بقضاء يومهن في التبرك بجدران المسجد^(١)، "ومن البدع التي أحدثتها النساء فيه استعمال الحناء فمن لم يفعلها منهن فكأنها ما قامت بحق عاشوراء"^(٢)، وكذلك تسريحهن للكتان وغزله وتبييضه، إضافة إلى شراء البخور لأنه حسب اعتقادهن "يرئى من العين والنظرة"^(٣)، وكذلك طحن الحبوب وزيارة القبور^(٤).

وكان الشيعة يحتفلون في دمشق في العصر المملوكي بيوم عاشوراء، حيث يتذكرون في هذا اليوم فاجعة كربلاء، فيجتمعون في أحد بيوتهم، ويقومون باستعادة أحداث هذه الواقعة، ويبدأون بالبكاء والنحيب والوعويل، ثم يوكبون موكباً هائلاً يجتمع فيه شيعة دمشق، ويدورون في أرجاء المدينة، وفي وسطهم تابوت مجلل بالبياض علامة شهدائهم، ويظهرون قاعدة "إدماء الوجوه"، وكان أهل السنة من المدينة لا يرضون بهذه الأعمال، فيرفعون بشكواهم إلى النائب^(٥).

٣_ المولد النبوي:

يأتي الاحتفال بالمولد النبوي في الثاني عشر من ربيع الأول، حيث كانت الزينة تعلق داخل مدينة دمشق، وتوقد القناديل، ويقام احتفال غالباً ما يكون بالجامع الأموي، ويحضره النائب وأعيان الدولة والقضاة، وتجري في هذا الاحتفال الألعاب بالسيف، والقوس وغيرهما، وتوزع الحلوى على الناس^(٦). كما اعتاد كثير من الناس إحياء الذكرى الكريمة في بيوتهم، وأقيمت الاحتفالات بهذه المناسبة، وغالبي بعضهم فيها فحساء وبالغاني وآلات الطرب، وتسابقوا في اللعب بالدف، والشبابة^(٧)، وأقيمت أمثال هذا الاحتفال بمولد النبي للنساء خاصة "فتكثر البدع والمخالفات"^(٨)، ففي هذا اليوم كسانت النساء يلبسن أحسن ثيابهن، ويخرجن بكامل زيتهن، ويبدأن احتفالهن بالضرب على الدف، وجلب المغاني، وما يرافقهن من آلات الموسيقى والطرب، وكن يغالين في ذلك أكثر مما يفعل الرجال، يزدن الجهر بالأصوات وترخيمها، والتعمد برفع أصوات التصفيق والرقص والخشخشة بالخلاخيل والحلي، وما يرافق ذلك من ضروب اللهو، مما يدفع الرجال إلى التطلع من أسطح المنازل وطاقت البيوت إليهن، والنظر إلى ضروب الزينة، وتمايل المرأة وهي ترقص وتصفق وترخم صوتها^(٩).

ولم تكن النساء يجتمعن إلا بحضور الشبيخة^(١)، التي تقوم بتفسير كتاب الله عز وجل، وتحكي قصص

(١) ابن الحاج ٢٠٩/١.

(٢) المصدر نفسه ٢٠٩/١.

(٣) المصدر نفسه ٢٨٣/١-٢٠٩.

(٤) ابن طولون، إعلام ١١٣٩ نعيه، مجمع ٦٥٧/٢-٦٥٨.

(٥) الجزري ٦٦٦/٣؛ نعيه، مجمع ٦٥٨/٢.

(٦) ابن الحاج ٢٢٩/٢.

(٧) المصدر نفسه ٢٣٥/٢.

(٨) المصدر نفسه ٢٣٥/٢.

(٩) الشبيخة: وهي كبيرة طائفة الصوفية المسؤولة عن الحانقاه. (السكي، معيد ١٢٦).

الأنبياء، وقد تزيد وتنقص، وربما وقعت بالكفر الصريح، وهي لا تشعر بنفسها، وليس من يردّها ولا يرشدها^(١).

٤ - ليالي الوقود:

هناك عدة ليالي في العام الهجري اعتاد الناس أن يحتفلوا بها، وهذه الليالي أربعة وهي: ليلة مستهل رجب وليلة نصفه، وليلة مستهل شعبان، وليلة نصفه^(٢)، وعرفت بليالي الوقود لأنه كان يزداد فيها الوقيد على مسافات الجوامع والمساجد، وحول صحوها توضع التناير^(٣)، والقناديل، والشمع، كما يبرق البخور في مجامر الذهب والفضة، وتقدم سلال الحلوى، والطعام على الحاضرين بالمسجد، ثم ينشد المنشدون والناحة حتى منتصف الليل^(٤).

ويتحدث المقرئ عن الشموع التي تعرف برسم ليالي الوقود فيقول بأنه كان يباع في كل ليلة من الشمع بمال جزيل^(٥)، وهذا يؤكد على احتفال الأهالي بهذه الليالي.

ففي شهر رجب: اعتاد الناس على إتفاق الأموال في سبيل تحضير الحلوات على الصور المحرمة شرعاً، وفي أول جمعة من الشهر المذكور يؤدي الناس في ليلتها في الجوامع والمساجد الصلاة، ويجمع الرجال والنساء في الليل، وقد أنكر ابن الحاج عليهم كل هذه الأعمال وعدّها بدع^(٦)، ويبدو أن أهل دمشق اعتادوا القيام بعمل وليمة في هذه المناسبة، ويسمونها «العتيرة» وكذلك «الرجبية»، وذلك خلال العشر الأوائل من شهر رجب سنوياً^(٧).

وفي ليلة النصف من شعبان: يزداد الوقود في المساجد حتى لا يبقى في الجوامع قنديل ولا شيء مما يوقد إلا وقوده، حتى أنهم جعلوا الحبال في الأعمدة والشرافات وعلقوا فيها القناديل وأوقدوها^(٨)، و يجمع في هذه الليلة النساء، والرجال، والولدان الصغار في المساجد، ويكثر اللغط واللغو^(٩)، وفي هذه الليلة تخرج النساء إلى المقابر مع الرجال، ويأخذن بضرب الدفوف والغناء، وهناك العديد من المفاسد الناتجة عن الاختلاط، وكشف المرأة عن وجهها وإبداء زيتها، فإذا رجعت إلى

(١) ابن الحاج ٢/٢٣٦.

(٢) المصدر نفسه ١/٢٠٨، ٢١١، ٢١٤.

(٣) التناير: التور لفة: هو الفرن، أما الناحية الفنية: فهو وسيلة من وسائل الإضاءة يصنع عادة من المعدن، ويحتوي على عدد كبير من الشموع أو المسارج التي تضاء بالزيت والفتيلة وهي تشبه الثريا الآن. (رمضان ٢٤١، ح ١٨).

(٤) رمضان ٢٤١.

(٥) المقرئ، الخطط ٣/١٧٥.

(٦) ابن الحاج ١/٢١٥.

(٧) ابن طولون، فص ٢٩٣، نعيه، مجتمع ٢/٦٥٣.

(٨) ابن الحاج ١/٢٢١.

(٩) المصدر نفسه ١/٢٢١.

المدينة أعادت النقاب إلى وجهها^(١)، ويقرأ الناس بين العشائين سورة يسن ثلاث مرات، ويلقنهم الإمام دعاء ليلة النصف المذكور في كتاب "نزهة المجالس" وغيرها من الكتب^(٢)، وكانت زيادة الوقود بالجامع الأموي قد بدأت عام ٤٥٠هـ/١٠٥٨م، وفي عام ٧٥٨هـ/١٣٥٦م أبطلت الدولة هذه العادة^(٣).

٥- ليلة الإسراء والمعراج :

وهذه الليلة تصادف السابع والعشرين من رجب، حيث يحتفل الدمشقيون بهذه الليلة بقراءة قصة الإسراء والمعراج في المساجد^(٤)، ويتذكرون ما حدث للرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذه الليلة، وما عملوا من أخطاء فيتقربون إلى الله تعالى، ويزورون موتاهم^(٥)، وتزداد في الجامع الأموي القناديل^(٦). وقد أنكر ابن الحاج ما أحدثه الناس في هذه الليلة من بدع فيقول: "في ليلة السابع والعشرين من رجب يجتمع الناس في الجامع الأموي، وينشرون البسط والسجاد، ويحضرون أطباق النحاس فيها الكيزان والأباريق وغيرها كأن بيت الله تعالى يبتهم، والجامع إنما عمل للعبادة لا للفراش والرقاد والأكل والشرب"^(٧)، بل أن النساء يجتمعن بالرجال في المساجد يقضون الليل كله، وكانت المسرأة تكشف السترة عنها، وتظهر زينتها وترجها^(٨)، كما أن النساء يخرجن إلى القبور ومع بعضهن الدف يضرين به، وبعضهن يغنين بحضرة الرجال^(٩).

٦- إحياء رمضان :

احتفل المالكي بقدم شهر رمضان احتفالاً كبيراً يتفق ومكانته الدينية عند المسلمين، وقد وصف ابن بطوطة طريقة احتفال أهالي دمشق في القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، وذلك عند زيارته للمدينة في رحلته، ففي يوم التاسع والعشرين من شعبان، يراقب الناس هلال رمضان، حيث "يجتمع فقهاء المدينة ووجوهها بعد العصر بدار القاضي،... فإذا تكاملوا هنالك ركب القاضي وركب من معه أجمعين، وتبعه جميع من بالمدينة من الرجال والنساء والصبيان، ويتجهوا إلى موضع مرتفع خارج المدينة وهو مرتقب الهلال عندهم، فرش ذلك الموضع بالبسط والفرش، فينزل فيه القاضي ومن معه، فيرتقبون الهلال، ثم يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب، وبين أيديهم الشمع والمشاعل و الفوانيس، ويوقد أهل الخوانيت بحوانيتهم الشمع، ويصل الناس مع القاضي إلى داره، ثم

(١) ابن الحاج ١/٢٢٣، ٢٢٤.

(٢) الغزولي ١٤٣، رمضان ٢٤٢.

(٣) السخاوي ١/٥١.

(٤) الجزائري ٢/٧٥؛ لنية ١٢٨.

(٥) لنية ١٢٨.

(٦) ابن الحاج ١/٢٢٤.

(٧) المصدر نفسه ١/٢١٢.

(٨) المصدر نفسه ١/٢١١.

(٩) المصدر نفسه ١/٢٢٣.

ينصرفون، هكذا فعلهم في كل سنة^(١)، ويلاحظ بأن وصول القاضي وجموع الناس ومعهم الشموع دليل على ثبوت رؤية هلال رمضان، أما إذا حدث ارتباك بسبب كثرة السحب، أو رؤية الهلال في بعض الجهات وعدم رؤيته في البعض الآخر، فإن الحاضرين يكتفون بشهادة اثنين من الرجال، وبعد ثبوت الرؤية يوقد التجار الشموع بجوانيتهم، وتكثر الأنوار في الطرقات والدروب والمساجد^(٢).

وكان نظار الأوقاف يزيدون في شهر رمضان من اهتمامهم بتنفيذ شروط الواقفين على المساجد، حيث يمهّدون لقدمه منذ شهر شعبان بزيادة الإشراف على المساجد والاهتمام بها من تجديد الحصر ونظافة المساجد وطلائها، وما يلزم لزيادة الإضاءة فيها وإعداد القناديل اللازمة لإضاءة المنارات طول الليل حتى السحور^(٣).

وكانت أسواق الشماعين في دمشق ومنذ القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، تحتفل بقدوم شهر رمضان فتعلق على واجهات الحوانيت وعلى جوانبها أنواع الفوانيس المتخذة من الشمع^(٤)، وكانت هذه الأسواق من الأهمية سواء في مصر أو الشام، بحيث كانت تصدر لها المراسيم بشكل الشموع الخاصة بكل مناسبة رسمية ووزنها، فكانت الحوانيت تزخر بالشموع ما بين كبيرة وصغيرة، ومنها شموع المواكب الكبيرة، ومنها ما يزن عشرة أرتال، ومنها ما يحمل على العجل ويبلغ وزن الواحدة منها القنطار، برسم الركوب لصلاة التراويح والخروج ليلاً، فيمر في شهر رمضان من ذلك ما يجلب عن الوصف^(٥)، وتستمر الحوانيت مفتوحة إلى منتصف الليل لكثرة ما يشتري وما يكرى من الشموع الموكبية^(٦).

وقد عرف التسحير في رمضان لإيقاظ النيام ليتزودوا بالطعام والشراب استعداداً لصوم اليوم التالي^(٧)، وكان شهر رمضان وما زال شهر الجود والكرم عند المسلمين، حيث كان المسلمون يلجأون إلى تقديم الصدقات وإقامة موائد الإفطار الجماعية^(٨)، فيذكر ابن بطوطة أن من فضائل أهل دمشق أنه لا يفطر أحدهم في ليالي رمضان وحده البتة، فمن كان من الأمراء والقضاة وكبار رجال الدولة، فإنه يدعو أصحابه والفقراء يفطرون عنده، ومن كان من التجار وكبار السوق، صنع مثل ذلك، ومن كان من الضعفاء والبادية فإنهم يجتمعون في كل ليلة في دار أحدهم أو في مسجد ويأتي

(١) ابن بطوطة ٤٨.

(٢) ابن الحاج ٤٤٩/٢.

(٣) الغزولي ١٥٧؛ رمضان ٢٤٥.

(٤) ابن بطوطة ١١١؛ رمضان ٢٤٥.

(٥) المقرئزي، الخطط ١٧٥/٣؛ رمضان ٢٤٥.

(٦) المقرئزي، الخطط ١٧٤/٣-١٧٥؛ رمضان ٢٤٥؛ العلي، خطط ٤٤٧.

(٧) ابن الحاج ٤١٥/٢؛ صالحة، رمضان ٥٩-٦٠.

(٨) ابن بطوطة ١٢٢-١٢٣؛ صالحة، رمضان ٦٠.

كل واحد بما عنده فيفطرون جميعاً^(١).

وكثر اجتماعات وزيارات عامة الناس في شهر رمضان، فإذا تخلف فرد عن زيارة قريبه أو صاحبه أو معلمه في شهر رمضان أدى ذلك إلى سوء تفاهم بين الطرفين^(٢).
ولجأ كثير من الناس إلى إحياء شهر رمضان في الجوامع أو المساجد بقراءة صحيح البخاري، أو صحيح مسلم، أو بالذكر والصلاة، لا سيما صلاة التراويح، وجرت العادة في عصر المماليك أنه عند ختم القرآن بأحد المساجد في شهر رمضان، يحتفل بذلك احتفالاً كبيراً، فتقرأ القصائد ويجتمع المؤذنون ليكبروا جماعة في موضع الختم، ثم يوتى بفرس أو بغلة ليركبها القارئ الذي تولى قراءة الختم ويزفوه إلى بيته في موكب حافل وأمامه القراء يقرأون، والمؤذنون يـكـبرون، والفقراء (الصوفية) يذكرون، وربما أضاف بعضهم إلى ذلك ضرب الطبل والدف والأبواق^(٣)، وعند وصول الجميع إلى بيت القارئ، يتناول الحضور الطعام ويدعى وليمة الخذاقة^(٤)، وكان يطلق عليها أيضاً التحلية^(٥)، وتقام هذه الوليمة سواء ختم القارئ القرآن كله، أو نصفه، أو ربعه، أو ثمنه^(٦)، ثم يقوم الحضور بتهنئة القارئ بختم القرآن^(٧).

٧_ عيد الفطر :

كان الناس يلجأون إلى مراقبة هلال شوال في مساء يوم التاسع والعشرين من رمضان، فإذا ما ثبت رؤية الهلال فإن اليوم التالي يكون عيد الفطر، وقد يتأخر ثبوت العيد في اليوم الأول من شوال إلى ساعات الظهر، كما حدث عام ٧٢٥هـ/١٣٢٤م، حيث تأخر ثبوت العيد إلى ما قبل الظهر، فأدى الناس صلاة العيد في مساجد دمشق في اليوم التالي^(٨)، وقد يكون سبب تأخر ثبوت هلال شوال بسبب رؤيته في منطقة دون أخرى، وتأخر وصول الخبر برؤيته بسبب طبيعة المواصلات في ذلك الوقت.

ويستغرق هذا العيد الثلاثة أيام الأولى من شهر شوال، ويستعد الناس أتم الاستعداد لهذا العيد حتى ساعة متأخرة من الليل، وهم منشغلون في صقل الملابس وإعداد الزخارف والحلوى والكعك^(٩).

(١) ابن بطوطة ١٢٢-١٢٣.

(٢) المصدر نفسه ١٢٣.

(٣) ابن الحاج ٤٤٨/٢-٤٤٩، الزربا ٣٧٣.

(٤) الخذاقة: بكسر الحاء المهملة، وهي الطعام المقدم عند ختم القرآن الكريم. (ابن طولون، فص ٦٥).

(٥) ابن طولون، فص ٦٥.

(٦) المصدر نفسه ٦٥.

(٧) المصدر نفسه ٦٥.

(٨) الذهبي، دول ٢/٢٣٤، ذبيل ٤/٧٢، ابن كثير ٩٥/١٤.

(٩) ابن الحاج ٢٠٦-٢٠٧، متر ٢٩٧/٢.

وفي صبيحة عيد الفطر يؤدي الناس صلاة العيد في المساجد، بعد أن يكونوا قد ذهبوا مبكراً في صباح ذلك اليوم، واجتمعوا أمام منزل الإمام الذي سيصلي بهم، فإذا خرج إليهم زفوه حتى المسجد وبأيديهم القناديل وهم يكبرون طوال الطريق، وبعد انتهاء الصلاة يعودون إلى منزله على الصورة نفسها التي أحضروه بها^(١).

وتحتفل الخوانق، والربط، والزوايا، وأرباب الطرق الصوفية بعيد الفطر، ويلبس المتصوفة في ذلك اليوم لباساً خاصاً يتكون من ثوب أبيض فضفاض، ويلبسون على رؤوسهم ما يسمونه «كلاهاً»^(٢)، وهو من اللباد مستطيل الشكل، ويمتاز رئيس تلك الطريقة بوضع عمامة خضراء فوقها، ويدورون على أنفسهم على نغمات موسيقية مطربة جداً وهذه الاحتفالات «مدنية أليق منها بالدينية»^(٣). كما أن للأطفال مرحهم وألعابهم الخاصة في مثل هذه الأعياد، فكان الأطفال يخرجون في أيام العيد وهم يصبغون أجسامهم بالسواد ويلبسون ثياباً قصيرة، وعلى رؤوسهم الطرايط الطويلة وفي أيديهم الدفوف يضربون بها فيضحكون الأطفال ويستندون إحسان الكبار بالرقص والقفر فيعطونهم شيئاً من النقود^(٤).

٨- يوم عرفة :

ويصادف هذا اليوم التاسع من ذي الحجة، حيث يقف حجاج بيت الله الحرام على جبل عرفات، وكان أهالي مدينة دمشق يحتفلون أيضاً بهذا اليوم، وقد وصف ابن بطوطة احتفال أهالي دمشق بيوم عرفة في أثناء زيارته لمدينة دمشق، فيقول: «ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد أنهم يخرجون بعد صلاة العصر من يوم عرفة، فيقفون بصحون المساجد، كبيت المقدس وجامع بني أمية وسواها، ويقف بهم أئمتهم كاشفي رؤوسهم، داعين خاضعين خاشعين ملتزمين البركة، ويتوخون الساعة التي يقف فيها وقد الله تعالى، وحجاج بيته بعرفات، ولا يزالون في خضوع ودعاء وابتهاال وتوسل إلى الله تعالى بحجاج بيته إلى أن تغيب الشمس، فينفرون كما ينفر الحجاج باكين على ما حرموه من ذلك الموقف الشريف بعرفات، داعين إلى الله تعالى أن يوصلهم إليها، ولا يخيبهم من بركة القبول فيما فعلوه»^(٥).

هذا الوصف لابن بطوطة، يعطينا صورة واضحة عن احتفال المسلمين في دمشق بيوم عرفة ولا تمدنا المصادر المعاصرة والمتوفرة بين أيدينا تفاصيل أكثر عنه.

(١) ابن الحاج ٢٠٦/١-٢٠٧؛ متر ٢٩٧/٢؛ كرد علي، خطط ٢٧٥/٦.

(٢) الكلاه : ويلفظ أيضاً : (كلاهك)، من ألبسة الرأس، وهيئة على شكل قلنسوة أو غطاء، وهو زي قديم كان مخصص لسدراوئش بعض الفرق الصوفية. (الخطيب ٣٧٠).

(٣) رمضان ٢٤٨؛ كرد علي، خطط ٢٧٦/٦.

(٤) الغزي، مهر ٢٧٢/١-٢٧٣؛ كرد علي، خطط ٢٨٦/٦؛ الرواشدة ١٢٥.

(٥) ابن بطوطة ١٢٣-١٢٤.

٩- عيد الأضحى :

وهو من أعظم المواسم الدينية عند المسلمين^(١)، ويصادف العاشر من ذي الحجة، ويحتفل الناس في هذا العيد بالصلاة في المساجد، ثم ذبح الأضاحي، وبعضهم يشترون اللحم بدلاً من ذبح الأضاحي، ويطبخون ألوان الأطعمة المختلفة، ويتهادى الحيران اللحوم^(٢)، وزيارة القبور تعد من أهم العادات التي اتبعتها الناس في ذلك اليوم، نساءً ورجالاً^(٣)، ويتحدث ابن الحاج عن مفسدة كبرى تحدث في عيد الأضحى، وهي أن تخرج مجموعة من الفتيات يطلق عليهن "بنات العيد" إلى الطرقات بعد أن يتزين ويكشفن وجوههن، ثم يأخذن في الغناء والضرب بالدفوف، ويطفن بالأسواق والحوانيت والبيوت لجمع ما يوجد به الناس عليهن^(٤).

١٠- هميس العلس :

من الأعياد التي كان يحتفل بها أهل الكئاب، وشاركهم بها بعض المسلمين، وقد اتبعت فيه تقاليد خاصة منها : خروج النساء في ذلك اليوم إلى الأسواق أكثر من الرجال، ويلبسن الملابس الفاخرة، فمن يمر بالسوق من الرجال لا يقدر على المشي فيه إلا بمشقة لزحمة النساء، وقد يزاخن من لا خير فيه، وفي خروجهن هذا كثير من المفاسد^(٥)، ويستعملون في هذا اليوم البخور والعلس المصفى، ويصبغون البيض بألوان مختلفة، ويعملون الكعك، ويشير ابن الحاج أن المسلمين يهتمون بعمل الكعك في هذا اليوم أكثر من النصارى^(٦).

١١- هميس البيض :

من الأعياد التي كان يحتفل فيها أهل دمشق، فكانوا يخرجون جميعاً نساءً ورجالاً وأطفالاً إلى القابون، ويختلط بعضهم ببعض، وكان نائب السلطان يأمر بإبطال هذا العيد بسبب ظهور بعض المفاسد فيه^(٧).

١٢- هميس الخلاوة :

وهو عيد قبر الست، وموعده في أول أحد من السنة الهجرية، يخرج فيه أهل دمشق إلى قبر السيدة زينب، رجالاً ونساءً وأطفالاً^(٨).

(١) ابن الحاج ١/٢٠٣، متر ٢/٢٩٧.

(٢) ابن الحاج ١/٢٠٤.

(٣) المصدر نفسه ١/٢٠٦.

(٤) المصدر نفسه ١/٢٠٦.

(٥) المصدر نفسه ٢/٢٦٧.

(٦) المصدر نفسه ٢/٢٦٨.

(٧) ابن طولون، ضرب ١٥٩، متر ٢/٢٨٥؛ عبد الودود ١٩٥-١٩٦؛ الرواشدة ١٢٨.

(٨) عبد الودود ١٩٦؛ الرواشدة ١٢٨.

أعياد أهل الذمة :

احتفل أهل الذمة في دمشق وغيرها من مدن الشام، بأعيادهم الدينية الخاصة، وكانت احتفالاتهم تتم على نطاق الحارات التي يقطنونها، وضمن أديرتهم وبيعهم وكنائسهم^(١).

أ_ أعياد النصارى :

كانت طريقة احتفال النصارى بأعيادهم، ومواعيدها، تختلف من طائفة إلى أخرى، لأن كل واحدة تتبع تقويماً يختلف عن الأخرى، وكذلك حسب رأيها في قدسية العيد، ونتيجة لتلك الاختلافات، كانت أعياد كل طائفة تتقدم أو تتأخر عن الطائفة الأخرى، فتعددت الأعياد لديهم وتنوعت، وأهمها: أربعة عشر عيداً تنقسم إلى سبعة أعياد كبيرة وسبعة أعياد صغيرة^(٢).

الأعياد الكبيرة :

عيد البشارة^(٣)، عيد الزيتونه، ويعرف بعيد الشعانين^(٤)، وعيد الفصح^(٥) وهو العيد الكبير لدى النصارى^(٦)، وحميس الأربعين^(٧) ويسميه الشاميون السلاق^(٨)، وعيد الخميس^(٩)، وعيد الميلاد^(١٠)، وعيد الغطاس^(١١).

الأعياد الصغيرة:

عيد الختان^(١٢)، عيد الأربعين^(١٣)، حميس العهد أو حميس العلس^(١٤)، سبت النور^(١٥)، حد الحدود^(١٦) أو أحد الأحد^(١٧)، عيد التجلي^(١٨)، عيد الصليب^(١٩).

(١) نعيسة، مجمع ٦٨٠/٢.

(٢) القلقشندي، صبح ٤٥٤/٢.

(٣) القلقشندي، صبح ٤٥٤/٢ المرقزي، الخطط ٢٧/٢ قاسم، أهل ١٢٠، نعيسة، مجمع ٦٨٠/٢.

(٤) القلقشندي، صبح ٤٥٤/٢ المرقزي، الخطط ٢٧/٢ قاسم، أهل ١٢٠، نعيسة، مجمع ٦٨٠/٢ متر ٢٨٣/٢-٢٨٤.

(٥) القلقشندي، صبح ٤٥٤/٢ المرقزي، الخطط ٢٧/٢-٢٨ قاسم، أهل ١٢٠.

(٦) القلقشندي، صبح ٤٥٥/٢ المرقزي، الخطط ٢٨/٢ قاسم، أهل ١٢٠.

(٧) القلقشندي، صبح ٤٥٥/٢ المرقزي، الخطط ٢٨/٢ قاسم، أهل ١٢٣.

(٨) ابن الحاج ٢٧٠/٢ المرقزي، الخطط ٢٨/٢-٢٩ متر ٢٨٧/٢.

(٩) القلقشندي، صبح ٤٥٥/٢ المرقزي، الخطط ٢٩/٢ قاسم، أهل ١٢١، نعيسة، مجمع ٦٨٠/٢ متر ٢٨٥/٢-٢٨٩.

(١٠) القلقشندي، صبح ٤٥٥/٢ المرقزي، الخطط ٣٠/٢ متر ٢٩٩/٢ قاسم، أهل ١٢١.

(١١) البيروني ٢٩٤ القلقشندي، صبح ٤٥٥/٢ المرقزي، الخطط ٣٠/٢ قاسم، أهل ١٢١.

(١٢) ابن الحاج ٢٦٧/٢ القلقشندي، صبح ٤٥٦/٢ المرقزي، الخطط ٣٠/٢-٣١ متر ٢٨٥/٢ قاسم، أهل ١٢٢.

(١٣) القلقشندي، صبح ٤٥٦/٢ المرقزي، الخطط ٣١/٢.

(١٤) القلقشندي، صبح ٤٥٧/٢ المرقزي، الخطط ٣١/٢.

(١٥) القلقشندي، صبح ٤٥٧/٢ المرقزي، الخطط ٣١/٢.

(١٦) القلقشندي، صبح ٤٥٧/٢ المرقزي، الخطط ٣١/٢ قاسم، أهل ١٢٢، نعيسة، مجمع ٦٨١/٢.

ب_ أعياد اليهود :

قسمتها المصادر العربية إلى: أعياد شرعية، وأعياد محدثة.

الأعياد الشرعية: وتتكون من خمسة أعياد هي:

عيد رأس السنة^(١)، وعيد صوماريا، «ويسمونه الكبور»، أو «الغفران»^(٢)، عيد المظلة^(٣)، عيد الفطير^(٤)، عيد الأسابيع^(٥).

الأعياد المحدثة: وهي عيدان:

أولهما: عيد الفوز «بالعبرية البوريم»^(٦)، والثاني: عيد الحنكة أو «الخانوكة»^(٧).

أعياد السامرة :

عيد الفصح (الفصح)، ويحتفل به السامرة في نابلس على جبل حرزيم^(٨).

أما يوم السبت فهو يوم مقدس لدى اليهود جميعاً، وهو بمثابة عيد أسبوعي لديهم، وقد تشددت جميع طوائف اليهود في حرمة وعدم القيام بأي عمل من الأعمال في هذا اليوم^(٩)، وكانوا يقضونه في العبادة والصلاة^(١٠).

(١) القلقشندي، صبح ٤٤٦٣/٢، المقرزي، الخطط ٣٧٦/٤.

(٢) القلقشندي، صبح ٤٤٦٤/٢، المقرزي، الخطط ٣٧٦/٤، قاسم، أهل ٤١٢٤، نعيمة، يهود ٣٨، مجتمع ٦٨٢/٢.

(٣) القلقشندي، صبح ٤٤٦٤/٢، المقرزي، الخطط ٣٧٦/٤، نعيمة، يهود ٣٨، مجتمع ٦٨٢، ٤٧٣/٢، قاسم، أهل ١٢٤.

(٤) القلقشندي، صبح ٤٤٦٤/٢، المقرزي، الخطط ٣٧٦/٤، قاسم، أهل ٤١٢٥، نعيمة، يهود ٣٨، مجتمع ٦٨٢، ٦٨٣.

(٥) البيروني ٢٨١، القلقشندي، صبح ٤٤٦٥/٢، المقرزي، الخطط ٣٧٨/٤، نعيمة، يهود ٣٨، مجتمع ٦٨٣/٢.

(٦) القلقشندي، صبح ٤٤٦٦، ٤٤٦٥/٢، المقرزي، الخطط ٣٧٧/٤، نعيمة، يهود ٣٨، مجتمع ٦٨٣/٢.

(٧) البيروني ٢٧٨، ٢٧٧، القلقشندي، صبح ٤٤٦٦/٢، المقرزي، الخطط ٣٧٧/٤، نعيمة، يهود ٣٨، مجتمع ٦٨٤/٢، قاسم، أهل ١٢٧.

(٨) كرد علي، خطط ٢١٧/٦، نعيمة، يهود ٣٩.

(٩) المقرزي، الخطط ٣٨٧/٤.

(١٠) نعيمة، يهود ٣٨.

ثانياً : احتفالات المجتمع الدمشقي في المناسبات الاجتماعية الخاصة:

١_ عادات وتقاليد الزواج

أ_ عادات وتقاليد الزواج عند علية القوم ("الممالك") :

كان الممالك يحرصون على الزواج ممن هم في مرتبتهم في السلم الاجتماعي، ولا يحاولون الزواج من فئة أخرى، بل يتزوجون من فئتهم^(١)، وخاصة من بنات الأمراء والنواب والسلاطين، ومن بنات ملوك التتر أو السبايا التتريات، وغالباً ما يفضلون أبناء جنسهم، وذلك تحقيقاً لمكاسب سياسية، أو لأغراض اجتماعية أو اقتصادية، وقليلون منهم الذين تزوجوا من بنات مياسير التجار أو المتعممين^(٢)، فالسلطان الظاهر بيبرس تزوج بنت حسام الدين بركة خان، وبنت الأمير سيف الدين نو كاي التتري، وبنت سيف الدين كراي بن نماجي التتري وبنت الأمير سيف الدين الدماحي التتري^(٣).

وهناك إشارات عديدة إلى زواج السلاطين من بنات الأمراء، وزواج الأمراء من بنات السلاطين والأمراء أيضاً، فالسلطان الملك السعيد بن الظاهر بيبرس تزوج سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م بنت الأمير سيف الدين قلاوون^(٤)، وتزوج إبراهيم بن السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م بنت الأمير طقز دمر^(٥)، وتزوج أنوك ابن السلطان الناصر محمد بن قلاوون بنت الأمير سيف الدين بكتمر الساقى^(٦)، وتزوج الأمير شهاب الدين أحمد بن الأمير بكتمر الساقى بنت الأمير تنكز الحسامي نائب الشام^(٧)، وزوج السلطان الناصر محمد بن قلاوون بناته وعددهن عشر من الأمراء الممالك مثل: الأمير قوصون^(٨)، والأمير بشتاك، والأمير الطنبغا المارديني^(٩)، والأمير طغاي قمر^(١٠).

Muir 15.

(١) ضومط ٨٧، الزربا ١٠٨، الرواشدة ٨٠.

(٢) ضومط ٨٧.

(٣) ابن شداد، تاريخ ٢٣٣.

(٤) ابن أبيك ١٩٧/٨.

(٥) الشجاعى ١٠.

(٦) الجزري ٥٢٤/٢، الذهبي، ذيول ٩١/٤، ابن كثير ١٢٦/١٤، المقرئ، السلوك ٣٤٥، ٢/٢.

(٧) الجزري ١٩٤/٢، ابن كثير ١٠٣/١٤.

(٨) الأمير قوصون الساقى الناصري : حضر مع الجماعة الذين أحضروا ابنة القان أزيك زوجة الناصر محمد بن قلاوون، فرآه السلطان واشتراه، وأصبح من خواصه، وأمره وزوجه ابنته سنة ٧٤٢هـ/١٣٤١م. (ابن حجر، الدرر ٢٥٧/٣، ٢٥٨).

(٩) الأمير الطنبغا المارديني : الساقى، أحد ممالك الناصر محمد بن قلاوون، رباه صغيراً، ورقاه في خدمه حتى صار من الأمراء الألسوف وزوجه ابنته، توفي عام ٧٤٤هـ/١٣٤٣م. (المقرئ، المقفى ٨٤٤/٢، ٨٤٥).

(١٠) الأمير طغاي قمر الدوادار : كان عاقلاً ساكناً يلازم السلطان، توفي عام ٧٤٨هـ/١٣٤٧م. (المقرئ، المقفى ٥٦٨/٢).

منها عشرون ألف دينار، والمؤخر عشرة آلاف دينار^(١)، وتبدو تلك المهور مرتفعة إذا ما قيسست بمستوى معيشة الأفراد، ولعل المبالغة في غلاء المهور إنما كان ليدل على الغنى وسعة الحال عند الزوج. وبعد عقد العقد تأتي مرحلة إعداد الجهاز ثم نقله إلى بيت الزوج، وعادة ما يشترك الزوج والزوجة بإعداد الجهاز، فيقوم والد العروس بتجهيز ابنته، ويحتوي الجهاز عادة على أقمشة وحلي وأثاث بيت من فرش وأواني ذهبية وفضية^(٢)، وتفاخر السلاطين والأمراء وبالغوا في تجهيز بناتهم، فعندما جهز الناصر محمد بن قلاوون ابنته عند زفافها على الأمير أرغون نائب السلطنة بمصر بلغ في الإنفاق على هذا الجهاز إذ احتوى جهازها على بشخاناه^(٣)، وداير بيت^(٤)، وستارات مزركشة بمبلغ ثمانين ألف مثقال ذهب^(٥) مصري وحرير وأواني ذهب وفضة بلغ وزنها عشرة آلاف مثقال من الذهب، وبلغ جهاز ابنة الأمير سيف الدين بكمر الساقى ما قيمة ألف دينار من ذهب وحرير ومسك وشمع وغير ذلك من الأمتعة الثمينة^(٦).

وعادة كان ينقل الجهاز بعد حفل القران بعدة أيام إلى بيت الزوج على البغال والحمالين، ويوضع في أطباق مخصصة لحمله، ويمشي أمامه الأمراء، ويشق شوارع المدينة من بيت العروس إلى بيت الزوج وسط احتفال بهيج^(٧).

بعد الانتهاء من نقل الجهاز، يبدأ حفل الزفاف وتراوح مدة الاحتفال من ٣-٧ أيام بلياليها^(٨). وكان السلاطين والأمراء يبالغون في هذا الاحتفال، وينفقون الأموال الطائلة على الطعام، فيعمل الزوج وليمة العرس للرجال، ووليمة للنساء المدعوات^(٩)، ففي عرس أنوك ابن السلطان الناصر محمد ابن قلاوون ذُبح من الغنم والبقر والخيل والإوز والدجاج ما يزيد على عشرين ألفاً، واستهلك من

(١) المقرئزي، السلوك ٢٠٥، ١/٢. يزيد من المعلومات حول مبالغ الصداق عند الفقة الحاكمة ينظر: (المقرئزي، السلوك ١٧٠، ١/٣، ١٦٧، ٢/٣، ١٦٨، ١/٣، ١٦٩، ٢/٣، ١٧٠، ١/٣).

(٢) المقرئزي، السلوك ٦٢٣، ٣/٢، الخطط ١٩٠/٣.

(٣) بشخاناه: جمع بشاخين ومعناه الناموسية أو ما يشبهها من حلية حول السرير أو الغرفة كلها، ومن معانيها أيضاً: السرير أو الغرفة التي بها الناموسية. (المقرئزي، السلوك ٢٤٩، ١/٢، ح ١).

(٤) داير بيت: أرائك تصف حول جدران الغرفة. (دوزي، تكملة ٤٤١/٤، الذهبي، ذبول ٩١/٤).

(٥) مثقال الذهب: يساوي ١٢٠ درهماً من الدراهم الصغار وستين درهماً من الكبار، كل درهم كبير يساوي درهين صغار وكل درهم كبير يساوي درهم أسود في مصطلح أهل مصر، والدراهم الأسود تساوي ٣ دراهم معاملة مصر والشام على وجه التقريب. ينظر: (صالحية، ظاهرة ١١٤).

(٦) الذهبي، ذبول ٩١/٤، ابن حبيب، تذكرة ٢٢١/٢، المقرئزي، السلوك ٢٣٣، ٢/٢، ٧٢٢، ٣/٢. يزيد من المعلومات حول جهاز المرأة عند الفقة الحاكمة ينظر: (ابن أبيك ٣٢٢/٩، اليوسفي ٤٣٦، المقرئزي، السلوك ٢٨٩، ١/٢، ٧٢٢، ٣/٢، الخطط ١٩١/٣).

(٧) ابن تغري بردي، حوادث ٢٥٥/١.

(٨) ابن حبيب، تذكرة ٢٢١/٢، ابن تغري بردي، النجوم ٧٩/٩.

(٩) المقرئزي، السلوك ١٣٢، ١/٤، ابن تغري بردي، حوادث ٢٥٥/١.

السكر لعمل الحلوى والمشروبات ثمانية عشر ألف قنطار^(١)، واستهلك من الشمع ٣٠٣٠ شمعة، زنتها ٣٠٦٠ قنطاراً^(٢)، وكلف البارود والنفط الموقد ثلاثين ألف درهم^(٣)، وفي حفل زواج ابنة تنكر نائب الشام "وتدعى قطلو ملك" على ابن بكتمر الساقى "ذبح من الأغنام والأبقار والخيول ما لا يحصى، وعمل من التماثيل النفط شيء يذهل العقول، وعمل من الشموع بالقناطير المقنطرة"^(٤).

ويكون في حفل الزفاف جوق المغاني، وأرباب الملاهي، وعادة ما تنفق عليهم الأموال الطائلة من قبل السلاطين والأمراء، ففي حفل عرس أنوك ابن السلطان الناصر "رسم السلطان بإحضار جميع من بالقاهرة ومصر من أرباب الملاهي إلى الدور السلطانية... فأقام المههم سبعة أيام بلياليها، واستدعى السلطان جميع حريم الأمراء إليه، فكان أمراً عظيماً"^(٥)، وبعد الانتهاء من الوليمة يزف الزوج إلى بيت العروس، والزفة الرئيسة في حفل الزفاف عند العامة والخاصة، وتم وسط موكب حافل من الأمراء والنساء والرجال^(٦).

وعند وصول الزوج منزل العروس، يبدأ حفل تحية جوق المغاني، وخلال هذا الحفل يبدأ الأمراء وكبار رجال الدولة والمدعوون من الرجال والنساء بتقدم النقوط^(٧)، ويكون عادة من النقود، أو الذهب، أو الشموع، أو السكر، أو الخراف، أو التحف، وكان حفل الزفاف معرضاً مناسباً لكي يظهر كل واحد من المدعوين مقدرته المالية، ويتباهى بما يقدم من نقوط، وأحياناً يقدم النقوط قبل حفل الزفاف، مثل: الشمع مساعدة لأهل الزوج ليستعمل يوم حفل الزفاف، وكانت الشموع المقدمة ذات أوزان وأشكال مختلفة، فيتباهى ويتبارز كل واحد في النقش أو الرسم أو التفنن بالشمعة المقدمة، فعندما تزوج أنوك بن الناصر محمد بن قلاوون، كان عدد الشمع المقدمة من الأمراء ثلاث آلاف وثلاثين شمعة، زنتها ثلاثة آلاف وستون قنطاراً، وفيها ما نقش نقشاً بديعاً، فكان أحسنها وأمهجها شمع الأمير علم الدين سنجر الجاولي، فإنه أرسل لعملها في دمشق فجاءت من أبدع شيء^(٨). ويكون النقوط أحياناً من التحف الفاخرة، والذهب، والخراف، والسكر، فلما زوج الناصر ابنته للأمير قوصون "ضرب الأمير عز الدين أيدير الخطيري دينارين وزنهما أربعمئة مثقال ذهب وعشرة آلاف درهم فضة برسم نقوط امرأته في عرس ابنة السلطان على قوصون"^(٩).

(١) ابن كثير ١٤/١٢٦؛ المقرئ، السلوك ٣٤٦،٢/٢.

(٢) المقرئ، السلوك ٣٤٦،٢/٢؛ ابن تغري بردي، النجوم ٨٠/٩.

(٣) ابن حبيب، تذكرة ٣١٧/٢.

(٤) ابن أيبك ٣٢٢/٩.

(٥) المقرئ، السلوك ٣٤٥،٢/٢.

(٦) المقرئ، السلوك ٣٤٦،٢/٢؛ الرواشدة ٨٥.

(٧) النقوط: كلمة دمشقية، ويقصد بها المال الذي يقدم كهدية للعروسين. (ابن طولون، فص ٤٨؛ لنية ١٣٢، ح ٨)

(٨) المقرئ، السلوك ٣٤٦-٣٤٥،٢/٢؛ ابن تغري بردي، النجوم ٨٠/٩.

(٩) ابن تغري بردي، حوادث ٦٦/١-٦٧.

أما الأمراء فكانوا يعتبرون النقوط ضريبة مصادرة، تدفع عند زواج أحد السلاطين أو أحد أبنائه أو بناته^(١)، وكانوا يجذونه عبثاً ثقيلاً عليهم، فلما تزوج الأمير سيف الدين قوصون ابنة السلطان الناصر محمد بن قلاوون عمل له عرساً وحمل له الأمراء شيئاً كثيراً، ولما تزوج الأمير سيف الدين طغاي ابنة السلطان الأخرى، قال السلطان الناصر محمد: لا نعمل له عرساً لأن الأمراء يقولون: هذه مصلدرة، ونظر إلى طغاي عمر فرآه قد تغير، فقال الناصر: اعمل لي ورقة بمكارمة الأمراء لقوصون فعملها وأحضرها، فقال السلطان: كم الجملة؟ فقال له: خمسين ألف دينار، فقال: أعطها من الخزانة لطغاي عمر^(٢).

وفي اليوم التالي لحفل الزفاف يقوم السلطان، أو الأمير صاحب العرس بتوزيع الخلع على الأمراء والقضاة، وكبار رجال الدولة، ويرسل لزوجته كل أمير من الأمراء بقمحة قماش، كل واحد حسب منزلته، وأحياناً توزع الخلع قبل انتهاء حفل الزفاف^(٣).

كما سبق نلاحظ أن أعراس طائفة الحكام امتازت بالإسراف والتبذير المبالغ فيه، فكانت تنفق فيها الأموال الطائلة التي تؤدي إلى نقص في أموال الدولة، وفي المقابل يعوض هذا النقص بفرض ضرائب على فئة العامة والقيام بالمصادرات، لأن تكاليف الزواج ومصاريفه تؤخذ غالباً من خزانة الدولة.

ويلاحظ أن بعض السلاطين تزوجوا لأغراض سياسية، فالناصر محمد بن قلاوون تزوج عام ٧٢٠هـ/١٣٢٠م من إحدى بنات ازبك خان، ملك بلاد القفجاق^(٤)، وذلك لتقوية روابط الصداقة والتعاون بين دولة المماليك ودولة المغول عن طريق المصاهرة^(٥)، وكان من أثر هذا الزواج أن زادت الصلات توثقاً بين دولة المماليك في مصر والشام ودولة مغول القفجاق، وعادت الحال بين هاتين الدولتين إلى ما كانت عليه أيام السلطان الظاهر بيبرس^(٦)، هذا بالإضافة إلى عوامل أخرى جعلت من التحالف مصلحة للطرفين^(٧).

(١) الشجاعى ٥٨.

(٢) الصفدي، الوالي ٤٤٨/١٦.

(٣) ابن كثير ١٢٦/١٤، المقرئ، السلوك ٣٤٦، ٢/٢، ابن تغري بردي، النجوم ٨٠/٩.

(٤) بلاد القفجاق: تقع هذه البلاد في الشمال، وأخذة إلى الشرق، تحدها أطراف الصين من شرقها، وبلاد الصقالبة من شمالها، وخراسان من جنوبها. (القلقشندي، صبح ٤٥١/٤).

(٥) القلقشندي، صبح ٤٥٠/٤، المقرئ، السلوك ٢٠٣، ١/٢، ٢٠٤.

(٦) النويري ٢٢٣/٣٠-٢٢٧.

(٧) لزبد من المعلومات عن العلاقات بين المماليك ومغول القفجاق ينظر: (الحجي، العلاقات ٣٢-٤٤).

بـ عادات وتقاليد الزواج عند عامة الناس:

لم تختلف تقاليد الزواج عند العامة عن مثلها من عليه القوم، فهي متشابهة كثيراً، فإذا قرر الشاب الزواج، تبدأ الأم أو الأخت بالبحث له عن عروس مناسبة له، فتدخل البيوت الموجودة فيها البنسات، وتراعي في اختيارها الجمال والأدب والأخلاق الحسنة والأصل^(١)، وبالنسبة لقرى دمشق، فقد يعين للابن أسماء بعض بنات القرية المشهورات بالجمال وحسن الأخلاق لينتار واحدة منهن زوجة له^(٢)، وربما توجه الشاب الراغب في الزواج إلى الخاطبة، لتبحث له عن عروس حسب الشروط المطلوبة، والخطابة عادة تعرف جميع فتيات المدينة، قال ابن دانيال يصف الخاطبة في مدينة القاهرة_ وهذا ينطبق أيضاً على مدينة دمشق بأنها: «تعرف كل حرة وعاهرة وكل مليحة بمصر والقاهرة»^(٣).

وكانت الخاطبة تدخل بيوت الناس متظاهرة ببيع الطيب والبخور، وغير ذلك من لوازم النساء، فتطلع على أسرار هذه البيوت، وتعرف على حريمها، الأمر الذي يمكنها بأن تختار للرجل العروس التي تنفق ورغباته ومطالبه^(٤)، إضافة إلى ذلك كانت الخاطبة أو أم الولد أو أخته يذهبن إلى الحمام، حيث تستحم النساء عاريات، الأمر الذي يتيح لهن أن يرين جسم الفتاة، ويتفحصنه عن كثب، أو يتعرفن على عيوب بدنها إن وجدت^(٥)، وأكثر من ذلك، حيث يشمنن فيها وتحت إبطها، ورائحة عرقها وثيابها، وينقلن ذلك إلى الخاطب مع وصف شكلها وجمال وجهها^(٦).

غير أن الزواج عن طريق الخاطبة لا يكون دائماً موفقاً، خاصة أن النساء في المجتمع الإسلامي كن يتحجن، ولا يسمح أن يراهن أحد، وربما لا يرى الرجل زوجته إلا ليلة الزفاف، الأمر الذي جعل بعض الخاطبات لسبب أو لآخر يمدعن الرجل، فتزوجه بفتاة غير التي وصفتها له، وقد تكون من فتاة غير جميلة^(٧)، على أن مثل هذا الأمر كان نادر الحدوث، وكثيراً ما كان الرجال يحددون مطالبهم عند الخاطبات، ويتزوجوا بالفتيات اللواتي وصفن لهن، وهذا سيف الدين المشد يصف العروس التي وجدتها له الخاطبة فيقول^(٨): «البحر مخلع البسيط»

ياحسن ما قد جلو عرساً في غاية الطرّف والطلاوة
مُشَبِّك النفس في يديها قد جمع الحسن والحلاوة

(١) ابن المشد ٤١٦ ابن دانيال ٤١٦١ ابن الحاج ٣٥٣/٢ الغزي، مهر ٢٤٩/١ كرد علي، خطط ٢٧٧/٦ عاشور، الحياة ٢٢٣؛

الصباغ، المجتمع ١١٧.

(٢) العطار ٥٠.

(٣) ابن دانيال ١٦١.

(٤) ابن دانيال ٣٩-٤٠؛ عاشور، الحياة ٢٢٣.

(٥) ابن الحاج ٣٥٣/٢ كرد علي، خطط ٢٧٧/٦ الزربا ٢٧٥.

(٦) الغزي، مهر ٩٧/١ كرد علي، خطط ٢٧٧/٦.

(٧) ابن حبيب، ذرة ٢٤١/٢ الكشي، فوات ٥١/١ ابن دانيال ١٧٥.

(٨) ابن المشد ١٦.

وعند العثور على العروس المطلوبة، يتوجه والد الشاب إلى بيت العروس ليخطبها من والدها^(١)، ويتم الاتفاق على المهر الذي يكون موضعاً لمساومات ومناقشات عديدة من كلا الطرفين^(٢). ومن الواضح أن البنت لم يكن لها رأي في اختيار زوجها فالرأي الأول والأخير لوالدها، وربما شاركته الأم في ذلك، وكان الأب أحياناً يختار الزوج لابنته فإذا كان شيخاً تزوجها من أحد تلاميذه^(٣)، وكان شيئاً إذاً أن تزوج البنت حسب رأيها واختيارها، ودون موافقة الأهل والأقارب^(٤)، وأحياناً تزوج البنت دون موافقتها وعلى كره منها، مما يؤدي إلى طلاقها، وفشلها في حياتها الزوجية^(٥).

وتأتي المرحلة الثانية للخطوبة وهي: عقد القران، وعادة ما يكتب على قطعة قماش من الحرير، مما أثار حفيظة بعض فقهاء العصر المملوكي، وعدوه إسرافاً، قال الشيخ علوان الحموي: «إذا أجزى العقد أبي أهلها أن يكتبوا عقد النكاح إلا على حرير، نحو ذراع أو أكثر، إسرافاً وتبذيراً»^(٦)، ويذكر راوولف أن العادة جرت على أن يكتب عقد الزواج للعامة على ورق ناعم مستو، أما الأثرياء فكانت عقود نكاحهم تكتب على قطع من القماش الحريري الذي يبلغ طول أحدها الyarدة^(٧).

ويعقد القران عادة في المسجد، ثم يخرج أهل العروسين في موكب يهيج إلى بيت أهل العروس حيث ينتظرهم احتفال فائق^(٨)، وفي العقد بين العاقد فضل الزواج وأهميته، ويوضح مكانة المرأة الزوجة، وما يجب أن تكون عليه من الخصال والصفات الحسنة، كما يبين العاقد مزايا العروس وحسن أخلاقها، ففي إحدى عقود الزواج يقول العاقد بعد حمد الله والصلاة: «... والزوجة المباركة هي الحافظة للعيال، الجامعة للمال، المعدة لحسن المال، والمولدة للطعام والمهدة للمنام، وهي مشتكى الحزن ومستودع السر والعلن والمساعدة على الأغراض والمعلقة في الأمراض، الخليفة الصاحبة»^(٩).

ويحدد في العقد قيمة الصداق الذي يختلف مقداره حسب ثراء الخاطب ومقدرته المالية، وقد بلغت في بعض الأحيان خمسة آلاف دينار ذهباً، فيذكر ابن حجر أن العالم إبراهيم بن محمد بن المؤيد

(١) الغزي، فهر ٢٤٩/١-٢٥٠، الرواشدة ٩٠.

(٢)

La ne-Pool 164.

(٣) الصفدي، الوافي ٢٤١/١٠، الرواشدة ٩٠-٩١.

(٤) ابن نباته ٦٦.

(٥) المقرئ، السلوك ٧٢٦، ٣/٢.

(٦) الحموي، نسمات ٣٣١، الرواشدة ٩١.

(٧) راوولف ٣٩.

(٨) ابن الحاج ٤٢٢/٢، رمضان ٢٥١، قاسم، بعض مظاهر ٢٠٥/٣.

(٩) ابن دانيال ١٦٤.

ابن حموية الجويني تزوج ابنة علاء الدين صاحب الديوان بدمشق على صداق قيمته خمسة آلاف دينار ذهباً^(١٠)، واعتادوا أن يقسطوا المهر، فيجعلوا جزءاً منه معجلاً يدفع إلى الزوجة أو وكيلها، وجزءاً

موجلاً يدفع للزوجة بعد الموت أو التطلاق^(١)، ففي أحد عقود الزواج ينص على قيمة الصداق «مئة معجلة وأربعة وأربعون مؤجلة»^(٢).

وكان مهر الزوجة حقاً لها وحدها، كما كانت الزوجة ترث زوجها، فقد ذكر ابن العراقي أنه «ماتت بنت محمد بن قاسم بن الأمير الحلبي المقرئ بقرية حرستا سنة ٧٦٣هـ/١٣٦١م ودفنت بها، وقال: مقيمة بقرية حرستا، كانت تزوجت هناك ومات الزوج وترك لها ميراثاً فاستقرت بالقرية المذكورة»^(٣)، وكان والدها يتحمل مسؤولية تجهيز ابنته، فيذكر ابن بطوطة في رحلته أن من عادات أهالي دمشق أن الأب يجهز ابنته، وأن معظم جهازها كان من النحاس^(٤)، وكان يشتري لها الحلبي، والفرش، والنمازق، والأواني الصينية وغيرها واطاسات من النحاس، والأصفر المكفت بالفضة، وطباق عددها سبعة بعضها أصغر من بعض، ومناير، وسرج، وطشت، وأبريق وغيره^(٥)، ويختلف جهاز العروس حسب ثراء والدها، فإذا كان ثرياً جهزها بمبلغ كبير من المال، أما إذا كانت الزوجة فقيرة لا يستطيع والدها تجهيزها فتجهز نفسها فقط بالمهر الذي أعطى لها^(٦)، وقد وجد في دمشق أوقاف لتجهيز البنات الفقيرات الحال^(٧) «وهن اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن»^(٨).

وعادة يتألف جهاز العروس من صندوق خشبي مزخرف ومخدات وحرامات ولحف، بالإضافة إلى دلة قهوة وإبريق شاي ومكنسة ومناشف وطانجر وسكاكين وبسط وسجاد وبشاكير، بالإضافة إلى المؤونة وجميع لوازم البيت^(٩).

ولعل ما نعرفه من تجهيز الوالد لابنته في بعض الأقطار العربية، إنما تعود جذوره إلى تلك العادة المملوكية التي كانت متبعة، بل أن البعض يعزوها إلى العهود المصرية القديمة^(١٠).

ويحمل جهاز العروس من بيت أهلها إلى بيت زوجها قبل العرس بأيام، وسط حفل بهيج، حيث يجتمع أهل العروس وأهل الزوج لحمل الجهاز من بيت والد العروس إلى بيت الزوج، ويضع أهل

(١) ابن حجر، الدرر، ٦٧/١.

(٢) الرواشدة ٩١.

(٣) ابن دانيال، ١٦٤.

(٤) ابن العراقي، ٩٤/١.

(٥) ابن بطوطة، ٨٤.

(٦) الغزي، مهر، ٢٤٩/١-٢٥٠.

(٧) الغزي، مهر، ٢٥٠/١؛ الرواشدة ٩٣.

(٨) ابن بطوطة، ١٢٢.

(٩) العطار، ٥٤.

(١٠) الرواشدة ٩٤.

الزوجة جهاز العروس وأثاثها في أطباق أعدت خصيصاً لمثل هذه المهام، ثم يوضع الجهاز على ظهور البغال وتوضع الحلبي على رؤوس الحمالين^(١١)، وكانت ظهور الدواب ورؤوسها تغطي بوسائل الزينة،

وتعصب بالناديل الملونة، ويمشي أمام الجهاز جماعة يلعبون بالسيوف وآخرون معهم طبل وزمر ويغنون ويرقصون وأصوات الزغاريد قاصدين المفاخرة^(١).

وفي حفل القران، تعد الوليمة من قبل أهل الزوج، وتوجه الدعوة إلى أكابر العلماء وأعيان الناس والأمراء مع قراءة المولد بخصوص ذلك^(٢)، ووليمة العرس سنة مثبتة عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، وعادة ما تكون شاة، وقبل موعد الدخول، وتحدد تقريباً يوم الجمعة^(٣)، وتكون الوليمة اثنتين، واحدة للنساء والأخرى للرجال، وبعد الانتهاء من الطعام، يقدم النقوط من قبل المدعويين، فيقوم مناد من أصحاب صاحب العرس ينادي للنقوط، فإذا قام أحد الأشخاص وقدم النقوط، ينادي باسمه، ويشكره، ويسمع الناس اسمه، وجماعة من النساء يسمعن صوت المنادي باسمه من وجوه الناس، فتقع هناك المفاخرة والمغايرة بين المدعويين، فينفقون أموالهم ويتبعهم المنادي ينادي «أخلف الله عليك يا فلان»^(٤).

وفي القرى الدمشقية كان أهل القرية يأكلون في دار الفرح، وكانوا يقدمون اللحوم مع البرغل، أو الأرز، أي ما يسمى بالمنسف أو «الفتة»، وبعضهم يسميها الكبسة، هذا في بيوت الأغنياء، أما في بيوت الفقراء فكانوا يقدمون الكعك والخبز الموشى باللوز والسكر، ويقوم أهل العريس بتزيين البيت استقبالاً للفرح^(٥).

بعد دفع النقوط، يتوجه الزوج إلى الحمام في موكب كبير من الرجال، يحملون الشمع بأيديهم، وعند المساء يتجه الزوج إلى بيت العروس، حيث تجتمع النساء هناك للاحتفال، وتكون العروس قد ذهبت قبل الحفل بيوم إلى الحمام، وتخضبت بالحناء وتزينت ولبست أجمل ثيابها، وتحلى بالذهب وتضع على وجهها ألوان الزينة، إذ يوجد في الحمام من اختصت بإعداد العروس وتعرف بالماشطة^(٦)، وكانت الماشطة أحياناً تستدعى من قبل أهل العروس للمنزل، وتحضر معها عدتها من أدوات المشط والتزيين والحلي والحلل، إن طلب أهل الفتاة ذلك^(٧)، وتسقوم بتف الحواجب وتحمير الوجه، ووضع

(١) الحموي، نسمات ٣٣١-٣٣٢؛ نعيسة، مجتمع ٦٩٩/٢.

(٢) الحموي، نسمات ٣٣٢-٣٣٣.

(٣) الحموي، نسمات ٣٣٣؛ ابن طولون، فص ٤١.

(٤) ابن طولون، فص ٤١-٤٩.

(٥) ابن دانيال ١٧٤؛ الحموي، نسمات ٣٣٣.

(٦) العطار ٤٠.

(٧) ابن كثير ١٢٦/١٤؛ الحموي، نسمات ٣٣٣.

(٨) المقرئ، السلوك ١/٢١، ٥٢١.

ألوان من الزينة على أطراف الأصابع^(١)، وهو ما يعرف بالنقش^(٢)، ويشترك معها في هذا النقش من يرغب من النساء، ويكون عادة بالشمع العسلي والحناء^(٣).

ويقام حفل الزفاف في بيت أهل العروس، وأحياناً يستأجر الزوج قاعة تعد للعرس^(٤)، وكانوا يدقون الطبول لمدة ثلاثة أيام قبل العرس، يقوم به شخص يقال له الطبال، وقد انفرد بها القبط المعروفين بالنور^(٥)، كما يقوم أهل العريس باستحار المغنيات من ضامنة المغاني لإحياء حفلة الزفاف، وتجلس العروس على كرسي مرتفع وتضاء حولها الشموع، وينشغل من حولها بالغناء والرقص وتقدم النقوط^(٦)، وتبدأ الفتيات بالغناء والعزف على الآلات^(٧)، ويصل في ذلك الوقت الزوج بزفة، وأمامه المغاني والشمع ومن خلفه البوقات والطبول، وهو راكب على فرس إلى بيت العروس^(٨)، وتستقبله النساء بالشموع والزغاريد، وتكون العروس واضعة على رأسها الشربوش^(٩)، وعلى وجهها منديل مذهب ومنقوش، فيكشفه الزوج عن وجهها^(١٠)، وبعد الانتهاء من حفل الزفاف يتوجه العروسان إلى بيت الزوج في زفة ثانية^(١١).

وفي الريف الدمشقي كانت النساء يخرجن ليلة الحناء من بيت العريس في مسيرة غنائية متجهات إلى بيت العروس، ومعهن العطور، والطيب، والبخور، حيث توضع على أطباق مزينة، وهذه الليلة تسبق ليلة الزفاف، وفي ليلة الزفاف تلبس العروس الأبيض، وينشر الملح، والعطر، والحلوى، ويبدأ الاحتفال مع مرافقة الطبل والزمير^(١٢)، وبعد الانتهاء من ذلك يتوجه الزوج وزوجته إلى بيت الزوجية في موكب مهيج، حيث يحضر جماعة من أهل العريس لمرافقة العروس إلى مكان العريس، وإذا كان بيت العريس بعيداً عن بيت العروس أو في بلدة أخرى جرت العادة أن تعقد كوكبة من الفرسان لمرافقة العروس، وتركب على فرس بيضاء وتعلق على رقبة الفرس فردة حذاء صغير منعاً للعين الحاسدة،

(١) ابن كثير ١٤/١٢٦؛ الحموي، نسيمات ٣٣٥.

(٢) القاسمي ٢/٤٨٧؛ نعيبة، مجتمع ٢/٦٩٧.

(٣) القاسمي ٢/٤٨٧؛ نعيبة، مجتمع ٢/٦٩٧.

(٤) الحموي، نسيمات ٣٣٧.

(٥) القاسمي ٢/٢٨٨؛ نعيبة، مجتمع ٢/٦٩٧.

(٦) الحموي، نسيمات ٣٣٧.

(٧) الغزي، هُر ١/٢٥١؛ الرواشدة ٩٥.

(٨) ابن دانيال ١٧٤.

(٩) الشربوش: لباس تضعه النساء على الرأس، ويقال أنه شيء يشبه التاج على شكل مثلث يجعل على الرأس بغير عمامة.

(١٠) ماير ١٢٧؛ دوزي، المعجم ٢٢٠.

(١١) ابن دانيال ١٧٤؛ الحموي، نسيمات ٣٣٥-٣٣٦.

(١٢) الحموي، نسيمات ٣٣٥-٣٣٦.

(١٣) العطار ٤٠.

وعندما تصل العروس يذبح لها ذبيحة وتدهن بها رقبة العروس ثم تقفز عن الدم اعتقاداً يجلب الخير والبركة^(١).

وعند دخول العروس لبيت زوجها تعطى قطعة من الخميرة لتلصقها فوق باب البيت دلالة على التصاقها الأبدي، ثم يقوم الأهل بتقديم النقوطة للعروسين أو إلى والديهما، وكانت العروس عند مرورها بالبلد ترشق بالعنصل^(٢)، وهذا يشير إلى مشاركة جميع سكان البلد أهل العريس فرحتهم^(٣). وقد يقدم أهل القرية للعروسين بعض الأدوات المنزلية كنقوطة^(٤).

ويتقدد الشيخ علوان الحموي كثيراً من البدع التي أوجدها الناس في حفلات الزفاف ومخالفاتها للشرع، ومنها الإسراف في استخدام الشمع، فيقول: «فإذا انقضت الوليمة، توجهوا إلى الحمام، وقد صحبوا معهم شمعاً مستكراً، فإذا خرجوا أوقده بين يدي الزوج متشبهين بالجنوس، من إظهار شعار النار، على أن يكفيهم مصباحان أو ثلاثة»^(٥).

ويقول في موضع آخر: «ثم المصيبة العظمى والداهية الدهياء، أن نساء المحلة وغيرها يتجمعن في دار في الثياب والزينة والخضاب بالحناء والتحلي بالذهب، بين أيديهن الشموع موقودة، والوجوه بادية والزينة ظاهرة، لا حجاب ولا جلباب، سافرات عن وجوههن، مبديات لزيتهن»^(٦)، ويستمر في وصف البدع التي استحدثت قائلاً: «فإذا خرجت العروس وامتلئت بين يدي الزوج قام لها وكشف شيئاً يقال له الجلاية عن وجهها، وأخذت تنقص وتنكسر في حركتها وتنقل وكلما دارت مرة لصق الزوج ومن معه، كأخيه البالغ والمراهق الذين يحرم عليهما النظر إليها... فإذا استقرا في البيت تطلع النساء الأجنبية عليها من الكوات، وجلسن يرقبن أحوالها إلى الصبح،... ومساذا عسى أن أصف من الأحوال السيئة الشنيعة، المبينة للدين والشرعية؟ والعجب كل العجب من بعض العلماء كيف يعلم هذه الأمور ولا ينكرها، ولا يبرهن على السنة ولا يشهرها، بل ربما يعث زوجته لحضور هذا المجلس الأثيم، الموجب للوزر العظيم»^(٧).

(١) العطار ٤٠-٤١.

(٢) العنصل: نوع من أبصال الزهور ويعرف بصل الفار، يزهر في الربيع، له ورق مثل الكرات، يستعمل في الخل والشراب والزيت.
(التركماني ٣٤١/٢؛ كرد علي، خطط ٦/٣٠٠، رمضان ٢٠٩).

(٣) العطار ٤٠.

(٤) راوولف ٥٨-٥٩.

(٥) الحموي، نسمات ٣٣٤.

(٦) المصدر نفسه ٣٣٤.

(٧) المصدر نفسه ٣٣٦-٣٣٧.

٢_ الاحتفال بولادة الطفل:

احتفل أهل الشام عامة ودمشق خاصة بولادة الطفل، وذلك بأساليب مختلفة، تبدأ بأن تلمسه القابلة بعد ولادته مباشرة، فإن كان ولدًا صلت على محمد، صلى الله عليه وسلم، وإن كانت بنتاً ترضت على فاطمة الزهراء، ثم يقدم إلى أحد أقربائه من المشهود لهم بالتفوق والصلاح، فيؤذن في أذنه الأذان الشرعي ثم يسمى من قبل وليه^(١).

ثم يبدأ الاهتمام بأم المولود، فتقدم لها الحلوى المصنوعة بالجوز، ليكثر لبنها، كما يقتصر شراها على ماء الحمام المنقوع فيه أصول البنفسج مدة أسبوع، كما يرسل لها الأقارب والأصدقاء موائد كبيرة تشتمل على مقدار عظيم من الزلاية والسكر^(٢).

وفي اليوم السابع للولادة يولم أهل المولود وليمة كبيرة حافلة بأنواع الحلوى، وقد يحضر في تلك الوليمة القيان يغنين ويرقصن للنساء، ويحضر المطربون للرجال أيضاً، ويقوم كل مدعو بإحضار هدية للأوبن، بعضها مأكول والآخر ملبوس، وقد تكون الهدايا مسكوكات ذهبية تعلق في قلنسوة الطفل تسمى «قناية»، وبعد مضي أربعين يوماً على الولادة تؤخذ الأم النفساء للحمام مع أترها من النسء ويكسين بدنها «بالشدود»^(٣).

وعند ولادة ابن السلطان تقام الاحتفالات وتزين مدينة دمشق، فيذكر ابن كثير في حوادث عام ٧٣٧هـ/١٣٣٦م أنه ولد للسلطان الناصر محمد بن قلاوون في هذا العام ولداً «فدقت البشائر وزينت البلد أياماً»^(٤).

٣_ الاحتفال بمخّنت الأولاد :

اعتاد أهالي دمشق والشام عامة ختان أولادهم في اليوم السابع من ولادتهم، فتقام لهذه المناسبة حفلة يدعى إليها الأجاب والأصحاب وتقدم الأسمطة الزاخرة بكل ما لذ وطاب، ثم يزين الغلام بالحلي والحلل ويركب على دابة، ويركب وراءه رديف يقال له العريف^(٥)، ويطاف به في الشوارع يتقدمه كبير مشايخ الطرق الصوفية راكباً على بردون مجلل بسجادة الإرشاد، مكللاً رأسه بطيلسان أحمر وفي يده عقافة «عصا معوجة» يشير بها إلى جماعته وهم سائرون أمامه يحملون أعلام طريقتهم ويضربون دقوفهم وطبولهم^(٦).

(١) كرد علي، خطط ٦/٢٨١، رمضان ٢٥٣.

(٢) كرد علي، خطط ٦/٢٨١، رمضان ٢٥٣.

(٣) كرد علي، خطط ٦/٢٨١، رمضان ٢٥٣.

(٤) الشدود: هو المردقوش والخزامى المغربية. (كرد علي، خطط ٦/٢٨١، رمضان ٢٥٣، ح ١٠٠).

(٥) ابن كثير ١٤٣/١٤.

(٥) الغزولي ١٠٧.

(٦) رمضان ٢٥٢.

وبعد الانتهاء من الطواف يعودون إلى منزل المولود وتلى قصة المولد النبوي، وفي ختامها يحنن الطفل^(١)، وقد يرافق تلك المواكب طائفة من الدراعين "لابسي الدروع" ولابسي الجواشن^(٢) والخوذ، وفي أيديهم السيوف والتروس، ويتبارز بعضهم مع بعض بالسيوف والرماح، ويسير عادة وراء تلك الجموع وفي آخر الموكب رجل يقود جملاً على ظهره منصة مهندمة يقوم فوقها رجل يرتدي ملابس نساء عرب البادية يقال له "عبلة"، وقد أمسك بيديه صنوجاً يرقص بها حتى يصل إلى دار المختسون ويسمى مثل هذا الموكب باسم "عراضة"^(٣).

ويلاحظ عند عملية الختن، يرتدي الطفل الملابس المقصبة والمزركشة، ويزين، وتصطف الأولاد حوله، وأمامه المجري الذي يقوم بختانه، لابساً ثوباً أحمرأ ينادي بصوت عالٍ "سعيد من يصلي على النبي، قلب العامر يصلي على النبي"، والأولاد حوله ينشدون بصوت عالي، ثم يسدورون بأسواق دمشق، ويعودون ليأخذوا الحلوى وبعض الدراهم^(٤)، مع تقديم وليمة العذير^(٥) المختصة باحتفال الختان^(٦)، وضرب الدف^(٧)، وكان يشترط أن يكون الختان قبل البلوغ^(٨).

ومن المتعارف عليه في مثل هذه الحفلات أن يهدى إلى صاحب الحفل أهله وأصدقائه شيئاً كثيراً من السمن والأرز والغنم والغلال والطيور، ويكون ذلك ديناً عليه وفاؤه حين إقامة حفلة مثلها عند الهادين^(٩).

وبالنسبة لأبناء الأمراء، فكانت تتم عملية الختان لهم جماعياً في بعض الأحيان، وعند الانتهاء من الختان يمد سباط عظيم، وتثر الفضة على رؤوس المطهرين^(١٠).

(١) رمضان ٢٥٢.

(٢) الجواشن: لباس من الزرد بلبس في الحروب. (القلقشندي، صبح ٥٤٧/٣؛ البقلي، التعريف ٩٣-٩٤؛ رمضان ٢٥٣، ح ٢).

(٣) رمضان ٢٥٣.

(٤) القاسمي ٤١٧/٢.

(٥) العذير: بالعين المهملة والذال المعجمة، والإعذار بكسر الهمزة مصدر إعذاره، وهي الدعوة للختان. (ابن طولون، فص ٦٠).

(٦) ابن طولون، فص ٦٠.

(٧) المصدر نفسه ٦٢.

(٨) المصدر نفسه ٦٢.

(٩) كرد علي، خطط ٢٧٥/٦-٢٧٦.

(١٠) ابن كثير ٨٢/١٤.

٤ - عادات وتقاليد الأتراح :

يعتبر الموت من أهم الأحداث التي تثير الحزن والفجعة لدى الإنسان، وتترك أثراً كبيراً لديه، خصوصاً إذا كان المتوفى شخصاً عزيزاً وقريباً، لذلك وجدت في مدينة دمشق مراسيم خاصة ترافق حدث الموت تكون بمثابة احترام وإجلال لهذا المتوفى^(١).

ومن المراسيم المتبعة في الأتراح هو غسل الميت، وهو أحد الأركان الأربعة في حق الميت المسلم على الحي^(٢)، ويهدف منها أولاً تطهير المسلم قبل الصلاة عليه ودفنه، وثانياً التأكد من أن وفاته كانت طبيعية قبل دفنه، وأنه لم يتعرض للضرب أو الخنق أو غير ذلك من أشكال التعذيب^(٣)، ويغسل الميت بالسدر^(٤).

واختص بعض الأشخاص في دمشق رجالاً ونساءً - بغسل الموتى، فتاج الدين عبد الرحمن بن أيوب (ت ٧٣٤هـ / ١٣٣٣م) كان مغسلاً للموتى، ويقال إنه غسل ستين ألف ميت^(٥).

ومن العادات المتبعة عند وفاة أحد الأشخاص إحضار النادبات بالأجرة، وذلك لذكر مناقب الميت الحسنة وأعماله^(٦)، فقد ذكر لنا اليوسفي بعضاً من عادات السكان في أتراحهم فيقول: "إن النسوة شاركن في مأتم قد جئن بدسوت مملوءة بالدبس، وأخذن يلطخن وجوههن بالدبس والرماد تعبيراً عن حزنهن الشديد"^(٧).

ويلاحظ بأن أهالي دمشق كانوا يشاركون في تشييع الموتى بشكل جماعي، وقد أشار إلى ذلك كلاً من ابن جبير وابن بطوطة في رحلتيهما - اللتين زارا فيها دمشق - حيث أوضحا بأن الناس في دمشق يشاركون في الجنائز بأعداد كبيرة، حيث يسرون أمامها يقرؤون القرآن، وذلك أثناء نقله إلى الجامع للصلاة عليه، ومن ثم تلقى في الجامع كلمات الوعظ من قبل العلماء المشاركين في الجنائز، ثم يعودون إلى بيت العزاء لمواساة أهله ومؤازرتهم^(٨).

ومن عاداتهم في مثل هذه المناسبات أن النساء يرتدين الخمار الأسود وينحن، ويردد الرجال الشهادتين "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، ثم ينزلون الجثة في حفرة ضيقة في القبر الخالي، ثم توضع

(١) نعيسة، مجتمع ٧٠٨/٢.

(٢) ابن طولون، التحوير ١٢٥-١٢٧؛ القاسمي ٤٥٩/٢.

(٣) الغزي، هجر ٤٥٤/١؛ القاسمي ٤٥٩/٢؛ كرد علي، خطط ٢٧٦/٦.

(٤) ابن كثير ١٠٩/١٤.

(٥) المصدر نفسه ١٣٢/١٤.

(٦) اليوسفي (٢٨١)؛ الغزي، هجر ٢٥٦/١؛ القاسمي ٤٠٣/٢.

(٧) اليوسفي ٩٠.

(٨) ابن جبير ٢٦٧-٢٦٨؛ ابن بطوطة ٢٤؛ الحميري ٢٤٠.

عليها الحجارة^(١)، وكان المسلمون يتأذون ويستأذون من كل من يدوس على قبورهم^(٢). وفي صبيحة اليوم الثالث للوفاة يجتمع الناس على قبر الميت، ويتقبل أهل الميت العزاء أثناء وجودهم في المقبرة، ويحدث مثل ذلك في اليوم السابع ويوم الأربعين^(٣).

وبالنسبة للأهالي فإنهم يتضامنون ويتعاطفون، ففي الليالي الثلاث الأولى من الوفاة يجتمع الرجل والأطفال في منزل عميد الأسرة يعزونه، ويحضرون على ثلاث ليالٍ بعد العشاء أحد المساجد القريبة من دار المتوفى، يسمعون ما تيسر من القرآن الكريم، ويسمون ذلك "صباحية" ويحضر تلك الحفلة أقرباء الراحل وجيرانه وزملاؤه، وفي نهايتها يفرق على الحاضرين الحلوى، وكانوا يوزعون على الفقراء شيئاً من النقود، وكانوا في أيام العزاء يتلون القرآن الكريم في هارهم، أما في المساء فكسنت تبسط الموائد فيفتح باب البيت للفقراء فيأكلون^(٤).

وكان ملاحظاً في هذه الفترة قيام ما يسمى "صلاة الغائب" خصوصاً إذا كان المتوفى من العلماء أو أعيان الدولة المملوكية، فقد صلى أهالي دمشق صلاة الغائب عام ٧٢٢هـ/١٣٢٢م على الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد الأصبهاني، وجماعة أخرى، وكانت وفاتهم بمكة المكرمة والمدينة المنورة^(٥)، وفي عام ٧٢٨هـ/١٣٢٧م صلى أهالي دمشق صلاة الغائب على القاضي شمس الدين بن الحريري الذي توفي بمصر^(٦)، كما صلى أهالي دمشق أيضاً صلاة الغائب عام ٧٣٤هـ/١٣٣٣م على الشيخ زين الدين أبي محمد عبد الرحمن الحنبلي الذي توفي ببلبك، وعلى قاضي القضاة جمال الدين الزرعي الذي توفي بمصر^(٧).

أما ماتم أهل الذمة فهي تناسب عاداتهم وعقائدهم الدينية، فاليهود كانوا يقومون بعملية غسل الميت وتكفينه في ثوب من الكتان^(٨)، ثم يصلون عليه في الكنيس، ويحملونه بعد ذلك إلى مدفنه^(٩). أما النصارى فكانوا يقومون بدعوة أحد الكهنة قبل مفارقة الروح للشخص ليسجل له واجباته

Wright 37.

(١)مقالة ١٠٥.

(٢)مقالة ١٠٥.

(٣)رمضان ٢١٠.

(٤)كرد علي، خطط ٢٧٦/٦.

(٥)ابن كثير ٨١/١٤.

(٦)المصدر نفسه ١٠٧/١٤.

(٧)المصدر نفسه ١٣٥/١٤.

(٨)نعيسة، مجمع ٧١٤/٢.

(٩)المرجع نفسه ٧١٤/٢.

الدينية، وبعد أن تفارق روحه جسده يضعونه في صندوق ليقوم أهله بوداعه، وحوله أكاليل الزهور، ويصلى عليه في الكنيسة، ويحمل إلى المقبرة ويدفن^(١).

وقد شارك المسلمون النصارى في أتراحم وأحزائهم، ففي بعض قرى وادي بردى، كانوا يشاركون جيرانهم المسيحيين مشاركة تامة في كل أفراحهم وأتراحهم، فإذا كان عند جارهم المسيحي فرح أو ترح يأتي المسلمون لخدموا ضيوفه، ويقدموا له الهدايا حتى يظهر أمام ضيوفه بالمظهر اللائق، وكان المسيحيون يفعلون الشيء نفسه مع جيرانهم المسلمين^(٢).

وسائل التسلية لدى المماليك :

عمل المماليك على استغلال أوقات فراغهم ببعض الألعاب الرياضية التي تتناسب مع طبيعتهم العسكرية، مثل لعبة الكرة أو «الأكرة»^(٣)، أو ما يعرف في وقتنا هذا بـ«البولو»، حيث خصصوا لها في كل مدينة ميداناً خاصاً وأوقاتاً معينة تلعب فيها، بالإضافة إلى تعيين موظفين من أجل الإشراف عليها، ويسمى واحدهم «جوكندار»، وهم الذين يحملون «الجوكان» وهي العصا التي يتم قذف الكرة بها^(٤)، وبلغ اهتمام الظاهر بيبرس بهذه اللعبة أنه كان يلعبها في القاهرة ودمشق في كل أسبوع^(٥)، وكان في دمشق ميدان خاص للعب بالكرة، يلعب فيه السلطان الناصر عند زيارته لدمشق، فقد لعب في هذا الميدان عام ٧١٣هـ/ ١٣١٣م عند زيارته للمدينة^(٦).

ويلى هذه اللعبة في الأهمية لعبة «القبق»، وكانت في البداية عبارة عن خشبه عالية مثبتت على رأسها دائرة، حيث يقوم المتسابقون برمي النشاب وسط هذه الدائرة «وذلك من أجل تدريبهم على إحكام الرمي»، ثم استبدلت هذه الدائرة بكرة من الذهب أو الفضة، ويكون بداخلها طائر حمام، ويقوم المتسابقون في هذه الحالة برميها أثناء جريهم على ظهور الجياد، والذي يصيب الكرة يجوز على قصب السبق ويفوز بإنعام سلطاني^(٧).

وقد وجد في مدينة دمشق في العصر المملوكي ميداناً للعبة القبق، كان يقع في منطقة الربوة، تحدث عنه ابن طولون بشكل مستفيض^(٨).

(١) نعيه، مجمع ٧١٥/٢.

(٢) كرد علي، خطط ٢٨٩/٦، ٣٠١؛ رمضان ٢٠٩.

(٣) ابن عبد الظاهر ١١٩-١٢٠؛ السبكي، معيد ٤٧؛ ابن حجر، الدرر ٥٦/٣؛ ابن تغري بردي، المنهل ٤٧٩/٢-٤٨٠؛ ابن طولون، إعلام ٥١.

(٤) عاشور، مصر ١٣٠-١٣١.

Hitti 632.

(٥)

(٦) ابن كثير ٥٥/١٤.

Ayalon, The Mamluk 55-56

(٧) عاشور، مصر ١٣١؛ الزربا ٢٨٥.

(٨) ابن طولون، وصف ١٤٩-١٥٠.

ومن الألعاب الأخرى التي اشتهرت بين المماليك اللعب بالرمح^(١)، والرمي بالبندق، وهو عبارة عن كرات تصنع من الطين أو الحجر أو الرصاص، وتقذف بها الطيور^(٢)، وفي عام ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م أصدر السلطان الناصر محمد المراسيم التي تمنع رمي البندق، وأن لا تباع قسيها ولا تعمل، وذلك لإفساد هذه اللعبة الرماة من أولاد الأمراء المماليك، وطبق هذا القرار في سائر البلاد المصرية والشامية^(٣).

كما حرص المماليك على تنظيم الرحلات من أجل الصيد^(٤)، فقد عاش في أراضي نيابة دمشق أنواع مختلفة من الحيوانات البرية، مثل: الأسود والفهود والذئاب، وحمير الوحش، والثعالب، والغزلان، والخنزير، والأرانب البرية، وقد عاشت في مناطق مختلفة، مثل: حمص، والأزرق، والزرقاء، ومنطقة جبال مؤاب، والشراة، وعجلون، والأغوار، وحازت هذه الرياضة على اهتمام السلطان الناصر محمد بن قلاوون، والأمير تنكز الحسامي نائب الشام، حيث كان هذا الأخير يخرج للصيد في الأزرق، والبلقاء، وغزة، والرحبة، والكرك، والحسا^(٥)، فيذكر المقرئ أن الأمير تنكز "كان مغرمًا بالصيد، بحيث يركب له في السنة ثلاث مرات، آخرها تعدية الفرات في الشتاء، فإذا ضرب الحلقة تشتمل على ثلاثمائة غزال ونيّف، وعلى مائتي رأس من بقر ونعام وغير ذلك"^(٦)، وقد استخدم المماليك الكلاب والصقور والشواهين في صيد الحيوانات وأنواع الطيور المختلفة^(٧).

ومن وسائل الترفيه عن النفس التي حظيت باهتمام المماليك الغناء، حيث كانوا يقومون بعقد مجالس للأنس والطرب^(٨)، الأمر الذي أدى إلى انتشار المطربين والعازفين على الآلات الموسيقية، كما اهتم السكان بالطرب فكانوا يستقدمون المغنين في أفراحهم، مثل: الزواج، والختان، مقابل مبلغ معين من المال، ولذا، فقد ظهر في ذلك الوقت ضريبة عرفت "بضريبة المغاني"، وظلت هذه الضريبة مفروضة في كل من الكرك والشوبك حتى ألغاه السلطان برقوق سنة ٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م^(٩)، ويذكر المؤرخون أن من أشهر المغنين بدمشق في العصر المملوكي شمس الدين المازني الدمشقي، حيث كان "يعرف مقامات الحريري، وينظم الشعر الرقيق، ويدري الموسيقى، فيعمل الشعر ويلحنه، فيغني به المغنون، و كان يلعب بالقانون"^(١٠)، وقد عرّم مكاناً بالربوة وزخرفه، فكان يجتمع فيه عنده الظرفاء،

(١) ابن تفرج يردى، النهل ٤٧٩/٢.

(٢) عاشور، مصر ١٣١-١٣٢ الزرربا ٢٨٦.

(٣) الجزري ٥٩٨/٣، ابن كثير ١٣٠/١٤.

(٤) الذهبي، دول ٢٤٢/٢، ذبول ٤٤٦/٤، اليوسفي ٢٢٦٨، ابن صصري ١٨٣-١٨٤، ابن تفرج يردى، النجوم ٩٨/٩.

(٥) ابن أبيك ١٦١/٩-١٦٣، الجزري ٢٢٢/٢، ٢٧٩، ١٢٣، ٣٢٢، ٢٠٦، ٢٠٦، ١٠١٥، اليوسفي ٢٢٨، غوانمة، التاريخ الحضاري ١٤٩.

(٦) المقرئ، السلوك ٥١١/٢-٥١٢.

(٧) الظاهري ١٢٧، غوانمة، التاريخ الحضاري ١٤٩.

(٨) البقلي، الطرب ٦٥.

(٩) المقرئ، السلوك ٤٠٥، ١/٣، غوانمة، التاريخ الحضاري ١٤٨.

(١٠) الصفدي، الوالي ٢٠٩/٤، الكتي، فوات ٤٥/٤، ابن حجر، الدرر ٧٨/٤.

ويأخذ عنه أهل الملاهي الألمان^(١)، وكان يتعاطى أجرأ على ما يلحن للمغنين في التهاني والتعازي^(٢). كما ظهر هناك نوع آخر من وسائل التسلية والترفيه، وهم أصحاب المساخر وأرباب الملاعب، وهم عبارة عن فرق تمثيلية هزلية، يظهرون في الأماكن العامة، وقد حظوا باهتمام الأمراء والسلاطين على السواء^(٣)، فكان الأمراء والأثرياء يستقدمون المخالين^(٤) «اللاعبين بخيال الظل» في ليالي سمرهم، وقد أصبحت هذه العادة جزءاً مهماً في حياة المجتمع الدمشقي، في مناسبات الزواج والختان، وغيرها من مناسبات الأفراح، حيث كان المخالون يعرضون باباتهم «تمثيلاتهم الظلية»^(٥).

وكان مسرح خيال الظل يتكون عادة من حاجز خشبي يعرض الصالة يفصل المشاهدين عن العارضين، ويرتكز على الأرض، ويرتفع إلى قبيل السقف، ويكون على ارتفاع متر ونصف مسن الأرض فتحة طولها متر وعرضها متر ونصف تقريباً مثبت عليها قطعة قماش أبيض شفاف، وكانت العادة أن يقوم العارضون بتحريك دمي على أشكال الحيوانات، مثل، الحمير، والكلاب، والملعز، أو أشياء جمادية، مثل: السفن، والبيوت، والأشجار، وكانت هذه العملية تتم بعد إطفاء الأضواء، وإضاءة مصباح زيتي خلف الحاجز الخشبي، حيث يقوم العارضون بتقديم تمثيلاتهم^(٦)، وهذا ما يعرف بـ(صندوق العجب).

ومن وسائل التسلية عند المماليك، اللعب بالشطرنج، والتي وصفها ابن أبي حجلة بأنها لعبة الملوك والأكابر^(٧)، فقد حظيت لعبة الشطرنج باهتمام السلاطين المماليك كثيراً، وخير مثال على ذلك، السلطان لاجين الذي قتل أثناء لعبته للشطرنج^(٨).

وكان سلاطين المماليك وأمرأؤهم يسخرون الخيول الفارسة لمواكبهم، ولا يكفون بما يركبون منها، بل كانت الجنائب^(٩) تقاد بين أيديهم مسروجة غير مركوبة^(١٠)، كما كانوا يبالغون في شراء الخيل، ويتحرون الكرم منها، حتى أنهم كانوا يشترون الفرس على قول السبكي بمائة ألف درهم، والملوك بخمسين ألفاً^(١١)، وقد عني الناصر محمد بن قلاوون باقتناء الخيول، وعمل ديواناً ينزل فيه كل فرس، فيقيد اسمه واسم صاحبه، ونسب الفرس والتاريخ الذي أحضر فيه، فإذا حملت الفرس من

(١) ابن حجر، الدرر ٧٨/٤.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم ١٨٠/٩؛ سلام ٢٨٤/١.

(٣) الجزري ١٠٥٦/٣؛ ابن صصري ٥٩؛ البقلي، الطرب ٦١-٦٢.

(٤) ابن دانيال ٩.

(٥) المصدر نفسه ١٤، ١٦.

(٦) ابن أبي حجلة ٢١-٢٢.

(٧) ابن كثير ٣/١٤؛ ابن اياس، بدائع ١/١، ٣٩٨-٣٩٩.

(٨) الجنائب: هي الخيول التي تسير وراء السلطان في الحروب لاحتمال الحاجة إليها. (السبكي، معيد ٥٢، ح ٦؛ الزربا ٢٨٢).

(٩) السبكي، معيد ٥٢.

(١٠) المصدر نفسه ٥٢.

خيول السلطان أحيط علماً بذلك، وأخذ يترقب الوقت الذي تلد فيه، ويقال أن الناصر كان يصرف المبالغ الطائلة دفعة واحدة في أثمان الخيول، حتى مات على أربعة آلاف وثمانمائة فرس^(١).
 واستخدمت الخيول في البريد وجلب ما يلزم سلاطين الممالك من ضروب المتع والملاذ، مثل: الجواري، والغلمان، فيقول السبكي: «وكانت أئمة العدل لا تبرد الرد إلا لهم من مهمات الإسلام، لئله تساق الخيول، وتزعج النفوس، والآن أكثر ما هلك خيول البريد وتساق للأغراض الدنيوية، من شراء الممالك، وجلب الجواري، والأمتعة، وإذا ركب الفقيه فرساً أنكر عليه ذلك، وقيل: قد أخطأ السلطان أو نائبه في إركابه، فإن البريد لا يساق إلا لمهمات السلطنة، كأنهم يعنون بمهمات السلطنة ما اعتادوا به من شراء مملوك مريح، أو استدعاء مغن حسن الصوت، أو خراب بيت شخص أنهى عنه مالا صحة له»^(٢).

الحياة اليومية في دمشق ومنتزهاتها :

كان لأهالي دمشق في كل يوم من أيام الأسبوع المكان المفضل في نزهتهم، فهناك نزهة السبت أو السبئية، يذهبون فيها إلى حيث يشاؤون، وغالباً إلى أماكن تجمع اليهود، أما يوم الأحد فيذهبون إلى أماكن تجمع النصارى حيث يشاهدون فرح النصارى وهوهم^(٣).

وكانت الحركة تدب في الأسواق مع شروق الشمس، وتستمر إلى العصر، حتى يأتي دور السرور والانشراح، فإن كان ثمة زينة في البلد، كانت السهرات تتم في الأسواق التي تبقى مفتوحة طيلة الليل، وإلا انصرف الناس إلى المنتزهات المحيطة بدمشق، أو إلى ساحة تحت القلعة، وسوق الخيل، حيث يقضون هناك معظم الليل^(٤).

وكان في ساحة تحت القلعة عدد كبير من الباعة، والمضحكين، و«الفالاتية» الذين ينظرون في حظوظ الناس، وأصحاب الألاعيب، والمسامرين، والقصاصين، ويستمرّون إلى طلوع ثلثي الليل^(٥).

وكان ليل دمشق المملوكية جو خاص، يشبه جو القاهرة، وقسموا الليل إلى ثلاثة أقسام، فعند مضي الثلث الأول يضرب على كل طبل من طبول القلعة الثلاثة، وعلى الطبول الموجودة في أبواب البلد، ضربة واحدة، وإذا مضى الثلث الثاني ضُرب ضربتان، فإذا ما جاء الثلث الأخير، طلع المؤذنون على «منارة العروس» في الجامع الأموي، وعلقوا القناديل، فيضرب على كل طبل ثلاث ضربات، ويسوق

(١) المقرئ، الحفظ ٣/٣٩١-٣٩٣.

(٢) السبكي، معيد ٣٢.

(٣) القزويني، آثار ١٩١؛ كرد علي، خطط ٦/٢٨٩؛ نعيسة، مجتمع ٢/٧٢٩.

(٤) العلي، دمشق ١٢٥-١٢٦.

(٥) البدري ٦٣.

المؤذنون الثلث الأخير بالتسييح حتى طلوع الفجر^(١).

وقد وصف القزويني أهل دمشق بقوله: "وأهل دمشق أحسن الناس خلقاً وخلقاً وزياً، وأميلهم إلى اللهو واللعب، ولهم في كل يوم سبت الاشتغال باللهو واللعب، وفي هذا اليوم لا يبقى للسيد على المملوك حجر، ولا للوالد على الولد، ولا للزوج على الزوجة، ولا للأستاذ على التلميذ، ويذهب سائر الناس إلى الميدان الأخضر، وهو محوط فرشه أخضر صيفاً وشتاءً، وفيه الماء الجاري، والمتعشون يوم السبت ينقلون إليه دكاكينهم، وفيها حلق المساخرة والمغنين والمصارعين، والناس مشغولون باللعب واللهو إلى آخر النهار، ثم يفيضون منها إلى الجامع ويصلون بها المغرب ويعودون إلى أماكنهم"^(٢)، وقد استمرت هذه الظاهرة طيلة العصر المملوكي^(٣).

وقد تعددت وسائل التسلية والترويح عن النفس في دمشق في العهد المملوكي، ومن هذه الوسائل، خروج الناس إلى الحدائق والمتنزهات، فعندما زار البوغبوني دمشق في الفترة ما بين (٧٤٧-٧٥١هـ/١٣٤٦-١٣٥٠م)، ذكر أنه وجد فيها من الجنائين "الذين يعتنون بالحدائق"، عشرين ألفاً، لا هم لهم سوى الاعتناء بالحدائق^(٤).

كما أن مدينة دمشق تقع ضمن منطقة معتدلة، وتمر فيها جميع الفصول الأربعة، لذلك نجد فيها جميع أنواع الفاكهة الصيفية والشتوية، وغيرها، وقد لعب مناخ المنطقة ووفرة مياهها عاملاً أساسياً في إظهار جمالها وروعيتها^(٥).

وقد تناول عدد كبير من المؤرخين محاسن دمشق ومآثرها، وما تمتاز به من متنزهات وأحبار وحدائق وبساتين وأنواع الفاكهة المختلفة التي تنبت فيها، ومزارعها، فمن محاسنها المنطقة المسماة "بين النهرين"، والتي يفصل فيها نهر بردى إلى قسمين، بينهما جزيرة تدعى "بين النهرين"، وقد وجدت فيها الدور والقصور والحوانيت والنواعير^(٦).

وقد تحدث ابن بطوطة عن متنزهات دمشق بقوله: "إن الواصف يعجز عن حصرها ومن جملتها الجبهة والربوة والعاشق والمعشوق وبين النهرين وتحت الطارمة والتخوت والمقاسم والوادي الفوقاني والتحتاني والصالحية"^(٧)، ومن متنزهاتها أيضاً الغوطة والقابون^(٨).

(١) البدرى ٦٣-٦٤.

(٢) القزويني، آثار ١٩١.

(٣) البدرى ٦٣-٦٤؛ ابن طولون، وصف ١٤٧؛ زيادة، دمشق ١١٨-١١٩.

Pogbonsi 77-78.

(٤)

(٥) البدرى ٣٥٦-٣٥٩؛ الدمشقي ٢٥؛ ابن كنان، المواكب ١/٢٠٠-٢٧٧؛ دارفيو ٢١-٢٢؛ زيادة، دمشق ١١٨-١١٩.

نعيسة، مجتمع ١/١١٥.

(٦) البدرى ٦٥؛ ابن كنان، المواكب ١/٢٦٠-٢٦٨.

(٧) ابن بطوطة ١١٤-١٢١.

(٨) عبد الرودود ١٩٦.

وكانت الظاهرة العامة للاحتفالات والأعياد في دمشق، وجود الأراجيح المستديرة التي تدور حاملة النساء والرجال والأطفال^(١).

كما اشتهرت دمشق وضواحيها بعادة الكرم وخاصة للغريب، فإذا قدم غريب استقبله السكان واعتنوا بدابته^(٢)، وقد بالغوا في إكرام ضيوفهم حتى في حالة عسرهم، ويورد ابن بطوطة في هذا المجال مثلاً على ذلك، فيقول: إن أحد المغاربة أتى قرية من قرى دمشق "وكان بها رجل من الضعفاء، فعرض عليه النزول عنده، ففعل، فصنع له مرقة وذبح دجاجة، فأتاه بها وبخبز شعير، فأكل من ذلك ودعا للرجل، وكان عنده جملة أولاد منهم بنت قد أن بناء زوجها عليها"^(٣)، ويذكر الرحالة نفسه بأن أحد علماء دمشق ويدعى نور الدين السخاوي، كان مدرس المالكية في دمشق، تعرف عليه ابن بطوطة حينما زار المدينة، فاستضافه عنده عدة أيام في شهر رمضان، وعندما مرض ابن بطوطة، أحضر له السخاوي طبيباً لعلاج، وبقي عنده حتى جاء العيد^(٤).

كما أن الأمراء والقضاة بدمشق كانوا يتبرعون بإطعام الفقراء في رمضان^(٥). كل هذا يشير إلى أن أهالي دمشق وقراها كانوا على درجة كبيرة من احترامهم لضيوفهم حتى ولو كانوا معسري الحال.
الفساد الاجتماعي :

انتشرت بعض المظاهر الاجتماعية السلبية في مجتمع مدينة دمشق في العصر المملوكي، فقد انتشر أهل الفساد والدعارة بشكل كبير، حيث كثرت حانات الخمر وبيوت الخواطي في دمشق ومختلف مناطق بلاد الشام^(٦)، فقد تردد المسلمون على أديرة النصارى، فكانوا يتمتعون ويتزهون ببسائنها الفسيحة، وقاعات شراها الباردة، وكثيراً ما كان يقترن ذكر الأديرة بذكر الشراب في كلام بعض الشعراء^(٧)، وبلغ الأمر أن الخمر والزنا كانا يضمنان في دمشق^(٨)، وبلغ ضمناها سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م ألف درهم يومياً^(٩)، ومن الأدلة على انتشار الزنا في دمشق ومناطق الشام المختلفة، أن وزير الشام قام عام ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م _ وفي محاولة منه للحد من ظاهرة الزنا _ بتوزيع خمسة آلاف من الزواني

(١) عبد الودود ١٩٥؛ الرواشد ١٢٨.

(٢) ابن حجر ٢٣٣.

(٣) ابن بطوطة ٨٤.

(٤) المصدر نفسه ١٢٣.

(٥) المصدر نفسه ١٢٣.

(٦) الجزري ٢٥٢/٢-٢٥٣/٣؛ المقرئ، السلوك ٢٨٤/٢، ابن ايسر، بدائع ١/١-٣٢٦.

(٧) العمري، مسالك ٣٤٠/١؛ الحصني ١٠٥٦/٣؛ متر ٢٥٣/٢؛ ترون ١٧٠؛ باشا ٢٦١.

(٨) ابن حجر، الدرر ٨٠/١.

(٩) المقرئ، السلوك ٣/١-٨٩٦.

«الخواطى» في يوم واحد^(١).

ولم يقف أمر الفساد عند هذا الحد بل ظهرت مجموعات من المردان الذين كانوا يأتون الفاحشة، ويصفهم ابن صصرى بقوله: «وأما المردان، فما يحتاج حالهم إلى بيان،... كل واحد منهم يجب أن يكون معشوق، ويتمشى في السوق، على أهل الفسوق، وقد كانت الصبيان أحسى من البنات، فانعكست الأمور،... حتى صاروا بالسقال والملابس، في زي العرائس، يأتون الفاحشة مجهر، ولا ينكر أحد عليهم منكر»^(٢).

غير أن الدولة لم تتغاض عن مثل هذه المفاسد، وإنما قام السلاطين والأمراء بإصدار الكثير من الأوامر التي تحذ من هذه المنكرات وتساعد على إزالتها^(٣)، كما أن الناصر محمد بن قلاوون أصدر في عام ٧١٤هـ/١٣١٤م مرسوماً ألغى فيه ضمان القواسير وضمان التبيذ، وغير ذلك «فدعا الناس للسلطان»^(٤).

وآمن الفلاحون في دمشق - كما في سواها من قرى بلاد الشام - بالخرافات، مثل: السحر والشعوذة والجن^(٥)، حيث كان المشعوذون يسيطرون على عقول الناس، ومن الأمثلة على ذلك سليمان التركماني الذي ظهر في دمشق عام ٧١٤هـ/١٣١٤م، حيث كان للناس فيه اعتقاد كبير، لأنه كان عنده نوع من إخبارات الكهنة، رغم لبسه الثياب النجسة، وعدم قيامه بأي نوع من العبادات، مثل: الصلاة والصوم^(٦).

ولم يقتصر أمر الاعتقاد بالمشعوذين على البسطاء من الناس، بل تعداه إلى المثقفين والعلماء، فيذكر مؤرخو الفترة أنه ظهر في دمشق في القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد، أحد المتصوفة الذين انخرقوا عن الدين، ويدعى شهاب الدين الباجريقي، والذي تذكر المصادر بأنه اعتكف عن الناس، وتبعه بعض الرذالة، فهون لهم أمر الشرائع، وكان يقول: «إن الرسل طولت على الأمم الطريق إلى الله»، وحكى عنه التهاون في الصلاة، فحكّم القاضي جمال الدين الزواوي بإراقسة دمه فاختم^(٧)، وادعى شخص آخر عام ٧٢٠هـ/١٣٢٠م النبوة، فضربت عنقه بعد أن رفض التوبة^(٨). ومن المتصوفة من خرج كلياً عن الإسلام، فالصوفي عثمان الدكاكي أتهم بالتنقيص من مكانة الأنبياء،

(١) الذهبي، دول ٢٢٨/٢، ذيول ٥٦/٤.

(٢) ابن صصرى ١٦٤.

(٣) ابن عبد الظاهر ٢٦٦، الجزري ٢٥٢/٢-٢٥٣، ٣٣٩/٣، المقرئ، السلوك ٢/١، ٢٠٥٣، ٢/١، الحجي، أحوال ٢٤٦.

(٤) ابن كثير ٥٧/١٤.

(٥)

(٦) الذهبي، ذيول ٣٩/٤.

(٧) الذهبي، دول ٢٣٢/٢، ذيول ٧٥/٤، سير ٤٧٦/١٧-٤٧٧، الصفدي، الوافي ٢٤٩/٣-٢٥٠، الكشي، فوات ٣٩٧/٣-٣٩٨.

ابن كثير ٩٨/١٤، ابن حجر، الدرر ١٢/٤-١٣.

(٨) ابن كثير ٧٧/١٤.

Conder 312.

فعمد له القضاة مجلساً وحكموا بإراقة دمه، فأعدم بسوق الخيل عام ٧٤٢هـ/١٣٤١م وكان ابن كثير شاهداً على ذلك^(١)، كما أعدم أحد الشيعة بسوق الخيل أيضاً عام ٧٤٤هـ/١٣٤٣م بعد إنكاره لنبوة الرسول، صلى الله عليه وسلم^(٢)، وأعدم البعض الآخر بعد أن ثبتت زندقته^(٣).

كما أشارت بعض المصادر المعاصرة أن أهالي دمشق تأثروا في بعض عاداتهم بأهل الذمة، من ذلك أن بعض النساء المسلمات اعتدن عدم شراء السمك أو أكله أو إدخاله بيوتهن يوم السبت، كما اعتادت بعض النساء عدم دخول الحمام أو شراء الصابون وغسل الثياب يوم السبت أيضاً، وذلك تأثراً بالعادات اليهودية^(٤)، كما أن بعضهن كن لا يعملن في ليلة الأحد ولا في يومه^(٥)، بل كن يخرجن إلى البساتين يوم عيد الفصح عند النصارى، وفي المنزهات يشاهدن بعض وسائل التسلية التي يمارسها القصاصون (الحكواتية)، وخيال الظل^(٦).

دور المرأة في الحياة الاجتماعية :

أ_ في الجنائز ومراسم الدفن :

كان من عادة النساء، إذا دخلت الغاسلة لغسل المتوفاة قمن إليها بالشم والضرب، وهي على علم من ذلك، فتأخذ حذرهما منهن وتتخبأ، ثم بعد وقت يمكنها من غسل الميتة، بعد أن تعظهن وتذكرهن بأن هذا قضاء الله تعالى وقدره، وأن ما يقمن به مخالف للشريعة^(٧).

ومن الناس من يحضر نائحات بالأجرة، حيث يضرين بالطارات ويثرن على رؤوسهن الحناء، ويشددن المآزر، ويسودن وجوههن بسخام القدر، أو بالدبس والرماد، ويخدشن خدودهن^(٨).

وبعضهن يفعلن النعي ليلاً ونهاراً، ويدعين بالويل والثبور، ويلطمن الخدود^(٩)، وقد نهى ابن الحاج عن النواح واعتبره عملاً مخالفاً للشرع الإسلامي^(١٠).

ب_ الخروج إلى الأسواق:

كانت المرأة تخرج إلى الأسواق للشراء والبيع، سواء كان ذلك لنفسها أو لزوجها، وكثيراً ما

(١) الذهبي، دول ٢/٢٤٧؛ ابن كثير ١٤/١٥٣-١٥٤.

(٢) ابن كثير ١٤/١٦٩؛ ابن حجر، الدرر ٢/٣٤.

(٣) الذهبي، دول ٢/٢٣٤.

(٤) القزويني، آثار ١٩١؛ ابن الحاج ١/٢٠١.

(٥) ابن الحاج ١/٢٠١.

(٦) كرد علي، خطط ٦/٢٧٩.

(٧) ابن الحاج ٣/١٩٣؛ الرواشده ١٢٩.

(٨) ابن الحاج ٣/١٨٤؛ اليوسفي ٢٨١؛ كرد علي، خطط ٦/٢٨٤.

(٩) ابن الحاج ٣/١٨٤.

(١٠) المصدر نفسه ٣/١٨٣-١٨٤، ١٩٣.

ارتادت النساء أسواق الملابس لشراء ما يلزم لأفراد الأسرة من ملابس بما في ذلك الزوج^(١). ومن الأسواق التي كانت النساء يذهبن إليها بكثرة، أسواق الملابس، حيث كانت تعج دوماً بالنساء، لذلك نجد الكثير من الرجال كانوا يذهبون إلى هذه الأسواق لرصد النساء، وإقامة العلاقات معهن، كما انتشرت النساء أيضاً في أسواق الصاغة، فقد اهتمت المرأة اهتماماً عظيماً بالجواهر والحلي، كما كن يذهبن إلى أسواق الأحذية^(٢).

ومن أهم أسواق دمشق التي كانت النساء ترتادها: سوق الدهشة، وسوق الصاغة^(٣). وكان خروج النساء إلى الأسواق يزعج أهل الدين لما في خروجهن من إثارة للمفاسد والفتن، ويصف الفقيه ابن الحاج خروجهن، فيقول: "إن المرأة إذا أرادت الخروج لبست أحسن ثيابها وتزينت وتعطرت، ولبست من الحلبي ما قدرت عليه من سوار وخلخال، وتضيف إلى ذلك فعلاً قبيحاً شنيعاً، وهو أن تجعل الخللخال فوق السراويل لكي يظهر، وقد تضرب برجلها في الغالب فيسمع له حس، وهذا خلاف ما نطق به الكتاب العزيز^(٤)... وكذلك ما يفعله من ليس هذا الإزار الرفيع، الذي لو عمل على عود لافتتن بعض الرجال في الغالب لحسن منظره وصقالته ورقة قماشه"^(٥). وكان ابن الحاج يطالب بمنع النساء من الخروج خوفاً من وقوع الفتن والفساد^(٦).

وكان على المحتسب أن يراقب النساء في الأسواق، ويمنعهن من ارتكاب الأخطاء، فيراقب النساء اللواتي يجلسن عند أبواب حوانيت القطنين والكنايين، حتى يفرغوا من العمل، وأثناء انتظارهن كن يأخذن في الحديث معهم، فيمنعوهن من ذلك^(٧)، كما كن يجلسن عند كتاب الرسائل والمنحمين^(٨) فهذه تأتي لكتابة رسالة لحبيب، وأخرى تأتي لتكشف نجمها وطالعها^(٩)، ويتهز الشباب الفرصة، ويجلسون عند كتاب الرسائل والمنحمين لغير عمل، وإنما لانتظار تلك اللواتي يفتحن المجال لهؤلاء، للممازحة والمباينة، ولكثرة التجاوزات التي كانت تحدث في هذه الحوانيت، حظر على المنحمين وكتاب الرسائل الجلوس في زقاق، أو الدروب أو الحوانيت، بل كانوا يجلسون على قارعة الطريق، كي لا يجروا أي من الرجال أو النساء على التلاعب والتجاوز^(١٠).

(١) ابن الحاج ١٧٧/١.

(٢) ابن الأخوة ٢٢٨-٢٣٠.

(٣) ابن عبد الهادي، حال ٧٥،٧٤.

(٤) يقول الله تعالى في محكم تنزيله: ((وقل للمؤمنات يفضنن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها... ولا يضرين بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن)). النور ٣١.

(٥) ابن الحاج ٣٥٠/٢.

(٦) المصدر نفسه ١٧٧/١، ١٨٠-١٨١.

(٧) ابن الأخوة ١٤٣.

(٨) المصدر نفسه ١٨٣.

(٩) المصدر نفسه ١٨٣.

وكان المحتسب يراقب الأماكن التي يمكن أن يحدث بها اختلاط بين الرجال والنساء، مثل مجالس الوعاظ، فكان لا يدع الرجال يختلطون بالنساء، ويجعل بينهم ستارة، فإذا انقضى المجلس خرج الرجال وذهبوا في طريق آخر، فمن وقف من الشباب في طريقهن بغير حاجة عزره، و كان يتفقد المآتم، والمقابر، فإذا سمع نادية أو نائحة عزرها^(١).

جـ الخرج إلى المقابر:

من الأماكن التي اعتادت النساء الخروج إليها المقابر في الليالي القمرية، وليالي المواسم والأعياد، ويختلط هناك الرجال بالنساء، وتكشف النساء عن وجوههن، ويظهرن زينتهن، ويحدث هناك الكثير من المفاسد والمفاتن، فيكثر الغناء والرقص^(٢)، «وتقام هناك مجالس الوعظ في المقابر، ويجلس الناس حول الواعظ أو الواعظة، وتنصب لهم المنابر ويصعدون عليها، ويعطون، ويزيدون، وينقصون، ويتميلون»^(٣).

د الخرج إلى المنزهات :

كانت المرأة تخرج إلى المنزهات العامة في دمشق كالرجال، وفي هذه المنزهات كان يختلط الرجال بالنساء دون كلفة أو حجاب^(٤). ففي القابون بدمشق كان يجتمع الرجال والنساء للنزهة، فيحدث الاختلاط وتظهر فيه بعض المفاسد^(٥).

ولكثر المفاسد التي كانت تحدثها النساء في خروجهن، نجد الفقهاء _ خاصة ابن الحاج _ ينادون بمنعهن من الخروج، ولم يقتنع الفقيه ابن الحاج بأسباب خروجهن وهي قضاء حوائجهن، إنما يقول لأمر ومفاسد في أنفسهن^(٦).

تعدد الزوجات :

وجدت ظاهرة تعدد الزوجات في العصر المملوكي عند الخاصة والعامة^(٧)، ولفتت هذه الظاهرة أنظار الرحالة الأجانب الذين زاروا دمشق، فيقول الرحالة فريسكوبالدي: «إن كل واحد من رجال دمشق كان له عدة زوجات، وكانوا لا يحتفظون بهن جميعاً معاً، و لكن كان لكل واحدة منهن بيتاً

(١) ابن الأخوة ١٨٠، ١٨٢.

(٢) ابن الحاج ١/١٩٣، ٢٠٦؛ الرواشدة ١٣٥-١٣٦.

(٣) ابن الحاج ١/١٩٣، ١٩٤.

(٤) الرواشدة ١٣٦.

(٥) المرجع نفسه ١٣٦-١٣٧.

(٦) ابن الحاج ١/١٩٤.

(٧) ابن شداد، تاريخ، ٢٣٣؛ الرواشدة ٩٦.

خاصاً وفي الليل يذهب إلى واحدة من نساته هوأها نفسه^(١).

وقد عرف عند فلاحى دمشق زواج البدل، أى يبدل شخص شقيقته بشقيقة غيره، وانتشر عندهم ظاهرة تعدد الزوجات لحاجة الفلاح لإنجاب الذكور، وحاجته للمرأة للمساعدة في أعمال الحقل^(٢).

وظاهرة تعدد الزوجات جعلت الزوج لا يبالي عن زوجته إذا ما خرجت زوجته من البيت إلى الحمام أو إلى السوق، أو إلى غير ذلك، وربما لا يدري كم غابت، لوجود غيرها من الزوجات أو الجوارى^(٣).

إلا أن عدداً ليس بقليل من الرجال اكتفوا بزوجة واحدة، وذلك على ما يبدو، لعدم قدرتهم على أعباء الزواج، حتى أن بعضهم من شدة فقره كان يقول: لو كانت الشركة تصح في الزوجات لشاركت في جزء من أربعة وعشرين جزءاً، وقال آخر لصديق له: إن استطعت أن تكفي في هذا الزمان بنصف امرأة فافعل^(٤)، ويعبر ابن نباته عن رفضه للزواج ثانية رافضاً تلك الراحة التي قد تأتيه منه بقوله^(٥): (بحر الرمل)

قال لي خلى تزوج تسرح
قلت دع نصحك واعلم أنني
من أذى الفقر و تستغني يقينا
لم أضع بين ظهور المسلمينا

ويعزي الحسن بن هبة الله الأدفوي، (ت ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م) ازدياد فقره على فقر، وما حصل له من تعب حتى تمزقت ثيابه إلى زواجه، ويصف ذلك بقوله^(٦): (الشعر الشعبي)

ومقبل أبق غازب
أزوجت صرت معدود
ساقتي المقادر
من جملة المدابير
حرامتي في الدنيا جماعة
أنسواي الخلاعة
تدروا إيش سبب
حتى بقي يرى في

الحمام ودوره في الحياة الاجتماعية:

كانت البيوت في دمشق وغيرها من المدن الإسلامية تبنى دون أن يبني لها على الأغلب حمام، ويشير ابن الحاج إلى ذلك بقوله: لم يكن من عادة الناس بناء الحمامات في البيوت، «فالواحد منهم

Frescobaldi 143.

(١) الرواشدة ٩٧؛

(٢) الصباغ، المجمع ١٤٩، مقابلة ١٠٠.

(٣) عاشور، المجمع ١٣٩؛ نقلاً عن الرحالة سانتو الذي زار مصر في ذلك الوقت؛ الرواشدة ٩٧.

(٤) الأدفوي، الطالع ٢١٨.

(٥) ابن نباته ٥٣٥؛ الرواشدة ٩٧، ٩٨.

(٦) الأدفوي، الطالع ١٦؛ الرواشدة ٩٨.

يشترى الدار بالألف أو يبيها ابتداءً، ثم يتوضأ في طست، ولا يعمل موضعاً للوضوء فضلاً عن موضع الغسل^(١)، لذلك كان الناس يذهبون للاستحمام في الحمامات العامة التي هي عبارة عن بناية خاصة مستقلة توجد في أحياء المدينة الإسلامية^(٢).

وقد وجدت في دمشق حمامات خاصة للنساء، وأخرى للرجال، وأحياناً يكون الحمام الواحد للرجال والنساء، ولكن على فترات، وعادة ما يكون الحمام من الصباح إلى الظهر للرجال، ومن الظهر حتى المغرب للنساء^(٣).

أما وصف الحمامات العامة في المدن الإسلامية، فالمصادر التاريخية لم تتعرض لوصف الحمامات العامة، ولكن يمكن الحصول على وصف بمقارنة ما جاء في الوثائق والحجج الشرعية مع الآثار الباقية للحمامات في المدن الإسلامية، فباب الحمام كان يؤدي إلى مشلح "مرخم به ثلاثة أو اوين" وهذه الأواوين كالمصاطب مكسوة بالرخام حيث يستريح طالب الاستحمام، ومن المشلح ينتقل المستحم إلى بيت أول حيث ينزع ملابسه، وتتصف غرفة بيت أول هذه بالدفي، وسميت كذلك لأنها أول الغرف الدافئة، وعندما يخلع المستحم ملابسه يضع حول وسطه فوطه^(٤) تصل إلى الركبتين، ثم ينتقل إلى الغرفة الرئيسة المسماة بيت الحرارة، وبها "أربعة أو اوين بكل واحد منها حوض حجر، وخلوتان، وطهر، وبيت "نورة"، وفي بيت الحرارة يقوم عامل الحمام بتدليك جسد المستحم ثم غسله بالماء الساخن في "المغطس"^(٥).

أعداد الحمامات في دمشق :

وجد في مدينة دمشق على زمن ابن عساكر، (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٥م)، ٥٧ حماماً^(٦)، وقفز هذا الرقم إلى ١١٧ حماماً زمن ابن شداد، (ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م).^(٧) ثم جاء أبو علي الأربلي، (ت ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م)، فذكر في المدينة نفسها ١٣٧ حماماً^(٨)، وذكر ابن عبد الهادي، (ت ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م) ١٠٢ حماماً داخل دمشق و ٨٠ حماماً خارجها^(٩).

(١) ابن الحاج ٣٥١/٢.

(٢) ابن الحاج ٣٥١/٢؛ غالب ١٣٨-١٤٤.

(٣) ابن عبد الهادي، عدة ٤٤٢ ابن طولون، القلائد ٣٧٧/٢؛ القاسمي ٤١٠٨/١، العلي، خطط ٤٩١، دمشق ١٢٣، تومين ٤٣٠٧/١٤.

(٤) الفوطة: من ألبسة البدن الخارجية وغير المحيطة. (العلي ٢٦٢/٢).

(٥) عاشور، الحياة ٢٤٦.

(٦) ابن عساكر ٣٥٦، ٣٥٥/١؛ تومين ٤٣٠٧/١٤.

(٧) ابن شداد، الأغلاق ٣٠٢-٢٩١؛ تومين ٤٣٠٧/١٤.

(٨) الأربلي ٣٢٢-٣٣٣.

(٩) ابن عبد الهادي، عدة ٤٠٩-٤١٨.

وقد تمت تغذية الحمامات الدمشقية بالمياه عن طريق نهر بردى وفروعه^(١)، وكانت الحمامات في المدينة تفيد من مياه الأنهار والقنوات من خلال شبكات خاصة من المجاري الفخارية، والتي ترتبط بالأنهار أو القنوات التي تعبر مدينة دمشق^(٢)، وبعد وصول الماء إلى الحمام يوزع في مختلف غرفه بفضل موزع خاص^(٣).

أقسام الحمام :

كان الحمام في دمشق ينقسم إلى أربعة أقسام وظيفية، وهذه الأقسام هي:

الأول: ويسمى البراني أو المسلخ أو المشلح :

وهذا القسم هو أول مكان يدخل إليه من يريد الاستحمام، إذ يعد صالة لاستقبال رواد الحمام، وهو في كثير من الأحوال يشكل قاعة رباعية الشكل سقفها على شكل قبة أو ربة، وبها نوافذ مغلقة بالزجاج، حتى توفر الإضاءة اللازمة لهذا القسم من الحمام^(٤)، ووظيفة هذا القسم تأخذها من الاسم الذي يطلق عليه وهو المسلخ أو المشلح، فهي صالة لخلع الملابس، كما أنه لا يأتيها البخار لأن بنيتها المعمارية تختلف عن باقي أقسام الحمام الأخرى، وهذه القاعة يجب أن تبقى مغلقة، والباب المؤدي إليها لا يفتح عليها مباشرة، وإنما يأتي في التواء للمحافظة على حرارة ودفئ القاعة^(٥)، وربما أن المشلح هو الغرفة الوحيدة التي لا يدخلها البخار فهي تحتوي على أثاث الحمام، من مقاعد استراحة مفروشة بيسط ذات ألوان مختلفة، ويقع على جانب المدخل سدة يجلس عليها أمر "معلم" الحمام يرحب بمراد الحمام، ويودع الخارجين، ويبارك لهم حمامهم، ويتقاضى منهم أجرة الحمام، كما يسودع المستحمين حاجياتهم الثمينة مع أمر الحمام، وفوق هذه السدة أماكن مخصصة لوضع مناشف الحمام^(٦).

الثاني: الوسطاني :

ويتألف من جزئين، وسطاني براني، ووسطاني جواني.

فالجزء الأول: الوسطاني البراني: وهو يعد مشلح الشتاء، وذلك للمسنين والمرضى الذين يتأثرون بالبرد، ويشتمل على مقاعد وفي وسطه بركة لا تستخدم إلا لغسل أرضية الحمام^(٧).

الجزء الثاني: الوسطاني الجواني: أو الصالة الدافئة، فهي تستعمل في فصل الصيف، وتحتوي على

(١) كيال، الحمامات ١٨١.

(٢) كيال، الحمامات ١٨٢ تومين ٤٣١٤/١٤.

(٣) يكوشار ٢٠/١.

(٤) كيال، الحمامات ١٥٤-١٥٥ تومين ٤٣١٢/١٤ غالب ١٣٨-١٤٤.

(٥) يكوشار ٢٣/١.

(٦) يكوشار ٢٥/١ كيال، الحمامات ١٥٨.

(٧) يكوشار ٢٨/١ تومين ٤٣١٢/١٤.

عليها^(١)، وعليه توفير المآزر^(٢) حتى يؤجرها لرواد الحمام، ويساعدهم على لباسها، ومن شروط المآزر أن تكون عريضة حتى تستر ما بين السرة والركبة، وفي حمام النساء تسمى الناطورة^(٣).

البلان : وهو الذي يقوم بعملية الاستحمام، من تدليك، ومعك وفرك لرواد الحمام، وله عدة مساعدين يقومون على مساعدته في عملية الاستحمام منهم "تبع"، وهو مكلف بتف الشعر، ويعد الناظر من مساعديه، والبلان هو "الريس" في الحمام، وتقبله في حمام النساء البلان^(٤).

وفي الحمام مستخدمون يعملون أثناء الفترة المخصصة للرجال والنساء، لأن عملهم لا يتعلق برواد الحمام مباشرة، وإنما يتعلق بالأمر الخارجية للحمام، وهم المسؤولون عن نار الحمام، منهم الزبال، وهو الذي يقوم بنقل روث الحيوانات، ونشارة الخشب والخطب المستعمل كمحروقات لموقد الحمام^(٥).

أما العامل الآخر فهو القيمي، وهو الذي يقوم بإشعال النار تحت حبل الماء ليسخنها للاستحمام^(٦).

أما المراحل التي يمر بها المستحم في الحمام، فكما ذكرنا فإن أول قسم يدخل إليه المستحم هو المشلح، إذ يجلس على المصطبة، ويخلع عليها ملابسه، ثم يقوم الناظر بلف الزبون بغطاء خاصة، وبطريقة معينة، إذ يلف هذه الغوط على خاصرتيه وتسمى "الماوية"، وغطاه أخرى تلف على كفيه وتسمى "الظهيرية"^(٧)، ويلبس المستحم أحذية خشبية، أو نعال عالية الكعوب، وذلك تلافياً لحرارة الأرضية المرتفعة^(٨)، وبعد أن يجلس المستحم بالبراني حيث يتأقلم بالجو المشبع بالبخار، ينتقل إلى حجرة خاصة في الوسطاني لتف الشعر، وبعدها ينتقل إلى الجواني، بحيث يجلس بعد أن ينتزع الظهيرية على مقعد، تحت الثقب الذي يأتي منه البخار، ويبقى فترة تتراوح من ١٠-٣٠ دقيقة حتى يتصبب عرقاً، وبعدها ينتقل إلى مقصورة في الجواني ويجلس على مقعد خشبي إلى جانب جرن الماء السلخن، عندها يقوم المدلك بصب الماء عليه بطاسة نحاسية صغيرة، وبعد ذلك يقوم المستحم بالتمدد على أرضية الحمام، حيث يقوم المدلك بتدليكه بقفاز شعر، ويقوم بتحريك جميع مفاصل المستحم، وبعدها يعود إلى المشلح، وتقدم له "بقجة" تحتوي على مناشف ليقوم بتغطية كل جسمه ويتجفف بها أيضاً،

(١) الشيزري، لمائة ١٥٦، ابن الأخرى ١٥٥، القاسمي ١٠٧/١، ٤٧٧/٢-٤٧٨؛ كيال، الحمامات ١٧٢-١٧٣.

(٢) مآزر: مفرد ما مزر، وهي قطعة من القماش الملون بخطوط حمراء وزرقاء وصفراء أو ما يشتق منها، وتجمع على مآزر.

(٣) الكواكي ١٧٩، المقابلة ١١٨، ح ٦.

(٤) القاسمي ١٠٧/١، ١٠٩، ٤٧٧/٢-٤٧٨.

(٥) القاسمي ٣٧/١، ٥٠، ١٠٨، أيكوشار ٤٥/١.

(٦) القاسمي ١٦٣/١، أيكوشار ٤٥/١.

(٧) القاسمي ٤٩٦/٢؛ كيال، الحمامات ١٧٨، تومين ٤٣١٠/١٤.

(٨) أيكوشار ٤٦/١.

(٩) لويس، الحمام ٤٣٢٤/١٤.

وبذلك يكتمل حمام الشخص^(١).

دور الحمام الاجتماعي :

لم يقتصر دور الحمام في دمشق على كونه مكاناً لتنظيف الجسد، بل لعب دوراً اجتماعياً، فالحمام يعد مؤسسة اجتماعية لعبت دوراً رئيساً في مجتمع دمشق ومختلف مدن الشام في العصر المملوكي، وكانت تمارس فيه أنواع مختلفة من النشاطات الاجتماعية، من عادات وتقاليد موروثات اكتسبها هذا المجتمع عبر تاريخه الطويل، وقد امتازت مدن الشام عامة ومدينة دمشق خاصة بانتشار الحمامات بكثرة، وهذا يعطينا فكرة واضحة عن مدى ما وصلت إليه هذه المدينة من رقي وتقدم.

ومن مظاهر الحمام الاجتماعية، التي كانت تمارس في الحمامات العامة، مناسبات الأفراح في مجتمع دمشق، فقد كان على العريس أو العروس الدخول إلى الحمام كل على حدة في مظهر احتفالي بهيج، حيث يقوم العريس أو العروس بالاستحمام وتنف الشعر، وبعد ذلك يقوم أصدقاؤهم والمقربون إليهم بنقلهم وسط فرحة عارمة مرددين أغاني وأهازيج شعبية^(٢) "وهو ما عرف بالزفة" إلى بيت العريس^(٣). ويورد المؤرخون في حوادث عام ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م عند حديثهم عن السيل الذي اجتاحت مدينة حمص أنه "غرق بسببه خلق... ومن مات فيه مائتي امرأة بحمام النائب"^(٤)، كن مجتمعات على عروس أو عروسين^(٥).

وأصبح يطلق على بعض الحمامات أسماء تلائم مثل هذه المناسبات، فقد كان بدمشق حمام يدعى بحمام العرايس، وحمام آخر يدعى حمام الزين، وغيرها من الأسماء التي تؤخذ من هذه العادات والتقاليد^(٦).

ومن المظاهر الاجتماعية الأخرى التي كانت تمارس في الحمام، اجتماع النساء فيه، فقد كانت فترة النساء في الحمام من الظهر حتى الغروب، وكانت النساء في العادة يذهبن على شكل جماعات، ويصطحبن معهن أولادهن، ويأخذن أنواع المأكولات، مثل: المجدرة، والكشك، والخبيزة^(٧)، كما يأخذن أجود وأفخر أنواع الملابس حتى تراها غيرها من النساء، "فتقع بذلك المفاخرة والمباهاة"^(٨).

(١) إيكوشار ٤٦/١-٤٧.

(٢) الحموي، نسمات ٣٣٥؛ إيكوشار ٥٠/١؛ كيال، الحمامات ٢٠٣؛ الزربا ٢٧٤؛ لويس، الحمام ٤٣٢٦/١٤، ٤٣٢٧.

(٣) حمام النائب: يقصد به حمام تنكر نائب الشام وكان يعرف بـ (حمام الناصري)، وقد بناه عام ٧٢١هـ/ ١٣٢١م.

(٤) ابن كثير ٧٩/١٤؛ العلي، خطط ٤٩٥.

(٥) الذهبي، دول ٢٣٩/٢، ذبول ٩١/٤؛ الياضي ٢٨٤/٤؛ ابن كثير ١٢٥/١٤-١٢٦.

(٦) الأربلي ٣٢٤؛ ابن عبد الهادي، عدة ٤١١؛ ابن كنان، المروج ٣١؛ العلي، خطط ٥١٥.

(٧) إيكوشار ٥٠/١؛ كيال، الحمامات ٢٠٥.

(٨) ابن الحاج ٣٥٣/٢؛ الزربا ٢٧٥.

وكانت المرأة تعد خروجها إلى الحمام حجة لخروجها من البيت لقضاء أوقات ممتعة داخل الحمام، بحيث تلتقي بصديقاتها من نساء الحي مرة في الأسبوع، فتبادل معهن أطراف الحديث^(١)، وقد وصف ابن الأخوة حجة خروج النساء للحمام، بقوله: «والنساء في هذا المقام أشد تمالكاً من الرجال»^(٢)، وهذا ما جعل بعض الفقهاء يتحفظ في السماح للنساء بارتياح الحمام، فابن الحاج ينصح معاصريه من العلماء بعدم السماح لنسائهم بدخول الحمام: «لما اشتمل عليه في هذا الزمان من المفاسد الدينية، والعوائد الرديئة»^(٣).

ونظراً لأن الحمام كان مركزاً مهماً لإقامة العلاقات الاجتماعية بين نساء المدينة، فقد كن يجتمعن في الحمامات مسلمات ونصرانيات ويهوديات، لأن الحمام كان في ذلك الوقت مفتوحاً لجميع سكان المدينة بمختلف طوائفهم^(٤).

كما كانت المرأة تذهب إلى الحمام بعد الولادة وانتهاء فترة النفاس، حيث تجلس جلسة خاصة للتعرق ببخار الحمام^(٥).

وكانت المرأة تحضر معها إلى الحمام أدواتها الخاصة، مثل: الحناء، والسدر، والأشنان، ودقيق الترمس، والطيب، والمآزر والمناشف^(٦).

ومن المظاهر الاجتماعية الاحتفالية التي كانت تحدث في الحمام، أنه في حالة شفاء المريض ممن مرضه يقوم أهله بالاحتفال ابتهاجاً بشفائه، ومن ضمن مراحل هذا الاحتفال دخول المريض إلى الحمام، وهي بمثابة إعلان شفاء المريض^(٧).

ولم يفت شعراء ذلك العصر أن يتحدثوا عن الحمام وفوائده في أشعارهم، ولذلك وصفوه بأنه «ماء الشتاء، وحرارة الصيف، وحلاوة الخريف، وابتسامة الربيع»^(٨).

وارتبطت بالحمام فكاهات ونوادير، كما ارتبطت به بعض الأمثال الشعبية والحكايات التراثية، وكثر الشعراء الذين يصفون الحبيب في الحمام، وغيرها من الأدبيات الأخرى، ومن هذه الفكاهات التي كانت تحدث في الحمام، ما ذكره ابن العماد الحنبلي عن الشهاب فتيان بن علي الدمشقي المعروف

Goitein 343;

(١)المقابلة ١٢٢

(٢)ابن الأخوة ١٥٧.

(٣)ابن الحاج ٣٥٢/٢-٣٥٣؛ الزربا ٢٧٥.

Goitein 343

(٤) ابن الحاج ٣٥٢/٢؛ هنسي، دمشق ١٠١؛ العلي، دمشق ١٢٣؛ الكواكي ١٧٢

(٥)ايكوشار ٥٠/١؛ كيال، الحمامات ٧-٢٠٨؛ الرواشدة ١٣٤-١٣٥؛ لويس، الحمام ١٤/٤٣٢٦؛ Goitein 343;

(٦) ابن الحاج ٢٠١/١؛ الكواكي ١٧٢؛ الرواشدة ١٣٥.

(٧)المقريري، السلوك ٤/٥٨٦؛ هنسي، دمشق ١٠١؛ الزربا ٢٧٤.

(٨)لويس، الحمام ١٤/٤٣٢٧.

بالشاغوري عند دخوله الحمام، فوجد ماءه شديد الحرارة، وكان قد شاخ فقال على سبيل الفكاهة^(١): (المقارب)

أرى ماء حمامكم كالحميم
وعهدي بكم تسمطون الجدي
وقال أبو المجد البالسي في غلام يدلّكه في الحمام^(٢): (البيسط)
بشرى لقيمة إذ باشرة يده
مازال يظهر لطفاً من صناعته
وقال الصلاح الصفدي في قيم حمام^(٣): (المنسرح)
بلان حمامنا له نظر
عناه موسى ونبت عارضيه
وقال ابن الوردي في القيم أيضاً^(٤): (المنسرح)
حمامكم فيه قيم منظره يسي
جعل مسنه وموسه والحجر يفى
وقال أيضاً في قيمة حمام^(٥): (مجزوء الرجز)
ما بال قيمة قيل لها
قالت وكيف يقتضي
وقال آخر على سبيل الفكاهة^(٦): (الوافر)
وحمام دخلناه سحيرا
فصحنا من لظاها أخرجونا
وقال ابن عربي يصف الحبيب في الحمام^(٧): (الكامل)
عائنت في الحمام بدرأ مشرقاً
يرخي ذوائبه على أعطافه
نكايد منه عناء وبؤسا
فما بالكم تسمطون التيوسا
جسماً تولد بين الماء والنور
حتى جنى المسك من ثمنال كافور
تجار في حسن وصفه الفكر
له مسن وقلبه حجر
غسلني بالدمع ثم انشد كذا وصبي
قال ذا عذارى وذا طرفي وذا قلبي
لا ترجعي عن مظلمة
ذلك دين القيمة
جماعتها أناس مجرمونا
فإن عدنا فإننا ظالمونا
يرنو بمقلة بادن مذعور
فيوريك ظللا لاح فوق غددير

(١) ابن العماد ٥/٦٣-٦٤.

(٢) المناوي ٩٦-٩٧.

(٣) المصدر نفسه ٩٧.

(٤) المصدر نفسه ٩٧.

(٥) المصدر نفسه ٩٧.

(٦) المصدر نفسه ٩٩.

(٧) المصدر نفسه ٩٧.

الملابس :

أولاً : ملابس الرجال :

أ_ الألبسة الخارجية :

__ الإزار : وهو إزار فضفاض يغطي الملابس، غير مطرز ويلف حول الوسط والأرجل، وقد استعمل للرجال والنساء، وكانت أزر الرجال بيضاء^(١).

__ الجبة: لباس خارجي من القماش الطويل، مفتوح من الأمام، واسع الأكمام، وتلبس فوق القميص، وهي مصنوعة من القطن^(٢)، وأحياناً من الصوف^(٣)، واستخدمت الجبة لأغراض متعددة، فقد عملت فيها الجيوب لتحفظ فيها الدنانير والدراهم، كما وضعوا فيها مناديلهم، وكان القاضي يضع فيها الكراسية التي يقرأ منها خطبة الجمعة، كما أفادت صاحب الحيل والشعوذة لحفظ حيلهم في أكمامهم، وبالغ بعضهم في توسيع الأكمام، فكان الفلاحون يحملون فيها قسماً من حاصلاتهم كالحنطة وغيرها^(٤).

__ القميص: على شكل لباس مصنوع من الكتان، لونه أبيض، ويلبس في الصيف، وله فتحة عنق دائرية، وبدون فتحة أمامية^(٥).

__ القباء: ثوب ذو أكمام ضيقة يلبس فوق الملابس، وهو منسوج من القطن أو الصوف، أو الحرير^(٦).

__ العباءة : لباس ذو فتحتين لإخراج الذراعين منها، ويغلب عليها اللون الأبيض، وهي مصنوعة من غزل الصوف الخشن، ويرتديها العلماء^(٧).

وحياكة العباءة غاية في المتانة، ولها أنوال في دمشق وقرى القلمون، وذلك لأنها لباس عامسة الفلاحين، ويوجد أنوال في دمشق وقرية جرمانا وحمص^(٨).

(١)ماير ٢٠،٢٥،١٢٦،١٣١.

(٢)ماير ٣٠؛

(٣) الفلقشندي، صبح ١/٤٥٣؛ مقابلة ٨٧.

(٤)رمضان ٢٧٠؛ مقابلة ٨٧.

(٥)ماير ٣٧.

(٦) الفلقشندي، صبح ١٠/٤، ٤١-٤٢؛ ماير ٢٥،٤٠.

Condor 318

(٧)ماير ٩٥-٩٦؛

(٨)القاسمي ٣٠١/٢.

بـ الألبسة الداخلية:

ـ السروال: نوع من الملابس الذي يلبس تحت الملابس الخارجية، وله ساقان ويستر أسفل الجسم، وألوانه صفراء وبياض، ويثبت في الوسط بواسطة تكة^(١).

ـ التبان: من ألبسة البدن الداخلية، وهو سروال صغير^(٢).

جـ ألبسة الرأس:

ـ المنديل: عبارة عن قطعة من القماش، لبسها الناس على اختلاف طبقاتهم في العصر المملوكي، ويلف المنديل على الرأس عند عدم وجود العمامة^(٣).

ـ العمامة: غطاء للرأس، يلبسه العلماء وعامة الناس على اختلاف طبقاتهم، وكانت العمامة تصنع من القطن، وقد لبس العلماء العمامة البيضاء، تمييزاً لهم عن أهل الذمة، الذين لبسوا العمامات الملونة، وكان يطلق على العلماء كطبة قائمة بذاتها اسم «أرباب العمام»^(٤).

ـ القبع: طاقية صغيرة تلبس تحت العمامة ذات الألوان المختلفة^(٥).

ـ الزمط: قلنسوة حمراء، تستخدم لباساً للرأس، يلف من حوله شال^(٦).

دـ ألبسة القدم:

ـ النعل: حذاء قصير مصنوع من الجلد الملون أو الأسود^(٧).

ـ المشاية: حذاء للقدم، وهو ضرب من النعال، تصنع من المخمل أو الجلد الأسود^(٨).

ـ الزربول: نوع من الأحذية الكبيرة الطويلة مثل الجزمة، وتزين بقطع حديدية في الكعب، وهي أحذية مشايخ القرى^(٩).

(١) زايد ٣٠٨ ماير ١٢٥.

(٢) ابن منظور ١٦/٢٢٠، ابن سيدة ٨٣/٤.

(٣) الفلقشندي، صبح ١٤٠/٢ ماير ٥٢.

(٤) الفلقشندي، صبح ٤٧٤/١، ١٣٧/٥ ماير ٩٨، بلال ٧٥.

(٥) ماير ٩٠.

(٦) المرجع نفسه ٥٩.

(٧) ماير ١٢٩.

(٨) ماير ١٢٩.

(٩) القاسمي ١٦٥/١.

ثانياً : ملابس النساء:

أما ملابس النساء فكانت كثيرة ومنها:

أ_ الألبسة الخارجية:

ـ الإزار: وهو ملاءة متسعة فضفاضة، ويلبس فوق الملابس الداخلية^(١).

ـ القُبَاء: وهو من الألبسة الخارجية، وهو ثوب بأكمام ضيقة^(٢).

ـ القميص: وعادة ما يكون أزرق ملون التطريز واسع الأكمام، وهو أكبر مما يلبسه الرجال^(٣).

ـ الجبّة: لباس خارجي طويل مفتوح من الأمام، ويلبسه أيضاً الرجال فوق القميص^(٤).

ـ الأصدّة: من ألبسة الفتيات التي كن يلبسها في الأفراح والأعراس^(٥).

ـ الجلباب: وهو ثوب ترتديه المرأة، يغطيها من رأسها إلى قدميها، تلبسه حين الخروج من المنزل^(٦).

ب_ الألبسة الداخلية :

ـ الرفيق: لباس داخلي للنساء، ويصنع من القطن والكتان^(٧).

ـ الأتّب: وهو ثوب تشقه المرأة وتلقيه بعنقها من غير جيب^(٨).

جـ_ لباس الرأس:

ـ المنديل: هو قطعة من القماش، استعملتها النساء على مختلف طبقاتهن، وتكون كبيرة أو صغيرة، وإذا كان المنديل كبيراً فإنه يلف حول الرأس^(٩).

ـ الطيلسان: نوع من أنواع الثياب يوضع فوق الكف أو الرأس، ويغطي نصف الوجه، وأطلق عليه أحياناً اسم طرحة^(١٠).

ـ العصابة: قطعة من القماش تلف على الرأس كالعمامة حول جزء من الإزار الذي يغطي الشعر، وكانت العصابة تزين أحياناً بزخارف جميلة مطرزة^(١١).

ـ النقاب أو الحمار: حجاب يغطي الوجه، وفيه فتحتان للعينين، وكانت النساء يلبسونه عند حضورهن

(١) ماير ١٢٥.

(٢) المرجع نفسه ١٢٥.

(٣) ابن سيده ٨٥/٤.

(٤) ماير ٣٠.

(٥) الصباغ، المجتمع ٦٠.

(٦) المرجع نفسه ٦٠.

(٧) مقابلة ٨٩.

(٨) ابن منظور ١٩٩/١-٢٠٠؛ مقابلة ٨٩.

(٩) مقابلة ٨٨.

(١٠) القلقشندي، صبح ٤٤٤/٤ ماير ٩٤.

(١١) ابن منظور ٩٢/٢-٩٣؛ القلقشندي، صبح ٧/٤؛ ماير ١٢٦.

مجالس العلم، وفي الأعراس والمناسبات العامة^(١).

د_ ألبسة القدم: كانت أحذية النساء تطابق في شكلها أحذية الرجال، ومنها:

_ الخف: وهو نوع من الأحذية المرتفعة الكعب، مصنوعة من الجلد أو الجوخ، وألوانه في الغالب بيضاء، وهناك خف يلبس في الشارع، ويطلق عليه المداس^(٢).

_ النعل: حذاء مصنوع من الجلد، ويشبه الصندل العادي^(٣).

_ البابوج: وهو مصنوع من الجلد الأصفر، معقوف الرأس، ذو كعب صغير جداً^(٤).

_ القبقاب: تستخدمه النساء في الشتاء، وفي البيت والحمام^(٥)، ويصنع من الخشب، وكانت القباقيب تصنع أحياناً غنية بالزخارف^(٦)، وقد استخدمته شجرة الدر وجواربها، فضربن به السلطان أيك حتى مات، واستخدمه الأمير علي بن أيك بعد أن قبض على شجرة الدر وسلمها إلى أمه فأمرت جواربها أن يقتلوا بالقباقيب والنعال حتى ماتت بنفس الطريقة^(٧).

_ السرموزة: نوع من الأحذية القصيرة، تلبس فوق الخف، وتخلع عند دخول المنزل^(٨)، والكلمة فارسية، مركبة من: سر: أي فوق، وموزة: أي الخف^(٩).

إضافة إلى ذلك، فقد كانت المرأة الدمشقية تعتنى بمظهرها الخارجي، فاستخدمت من أجل زيتها الحناء لتخضيب الأيدي والشعر^(١٠)، واستخدمت الكحل لزينة العيون^(١١)، وليست معظم النساء الأساور الفضية، والحلي، والمجوهرات والخواتم، والأقراط، والقلائد، بالإضافة إلى تزيين بعض النساء بالوشم^(١٢).

ثالثاً: لباس الأطفال:

كان الأطفال من صبيان وبنات، يرتدون ملابس تطابق في تفصيلها ملابس الكبار، وذلك فيما عدا الفتيات اللاتي كن يلبسن بدلاً من الحجاب الطواقي والكواشي^(١٣). وكانت معظم الملابس مصنوعة من

(١) ماير ١٣٠، رمضان ٢١٥.

(٢) القلقشندي، صبح ٤/٤٣، ٤٤٤ ماير ١٢٩.

(٣) ماير ١٢٩.

(٤) كرد علي، خطط ٦/٣٠١، خنشت ٤١.

(٥) ابن اياس، بدائع ١/١، ٢٩٤، مقابلة ٩٠.

(٦) ماير ١٢٩، زيات، المستطاب ٨١٨.

(٧) ابن اياس، بدائع ١/١، ٢٩٤، ماير ١٢٩.

(٨) القلقشندي، صبح ٤/١٠، ماير ١٢٩.

(٩) أدي شير ٩٠.

(١٠) القاسمي ١/١١٧.

(١١) بلال ٧٢.

(١٢) بلال ٧٢-٧٣، الصباغ، المجتمع ٦٠، رمضان ٢١٦.

(١٣) ماير ١٣١.

القطن أو الصوف، أو من الكتان وجلود الأغنام^(١).

رابعاً : لباس العلماء:

أما العلماء، فكانوا يلبسون الزي الأسود لخطيب الجمعة، ويمثل هذا الثوب عباءة سوداء، لها طرطور مناسب، يوضع فوق عمامة سوداء، كما تعتبر الجبة لباساً ملائماً لخطباء المساجد^(٢)، وأما الدراويش، فكان يتكون من عباءة وثياب من صوف^(٣)، وأما التجار، وأخلاق عامة الناس فتختلف أحوالهم في الملابس والزي حتى أن الفقراء، وإن جمعهم زي الفقر وزيفه، وضمهم لباس التصوف، فإن حالاتهم تباين في الملابس، وأطوارهم في التشكلات^(٤).

ويلاحظ بأن الفلاحين اعتمدوا في ملابسهم الشتوية على القراء المصنوعة من صوف الأغنام^(٥).

خامساً : لباس أهل الذمة :

اختلف لباس أهل الذمة عن لباس المسلمين: فلبس النصارى الدراريع^(٦)، كما لبسوا البرانس، وعندما صارت القلائس الطوال عند المسلمين لباساً قديماً لبسها النصارى وبقيت خاصة بهم، وقد منع النصارى أحياناً من ارتداء عمام أو ملابس بيضاء على رؤوسهم^(٧).

ويرتدي النصارى حزاماً يشد فوق الوسط، ويطلق عليه "زئار"، وذلك لتمييزهم عن أهل الكتاب الآخرين^(٨)، كما طبقت على النساء النصارى واليهوديات نظم مماثلة، إذ كان عليهن أن يرتدين أثناء وجودهن في الشوارع أقمشة زرقاء أو صفراء، أو على رؤوسهن أو فوق صدورهن حتى يميزن بها عن المسلمات^(٩).

ويلاحظ أن السلطة المملوكية كانت في كثير من الأحيان تشدد في التزام النصارى وأهل الذمة عامة بزيهم، فعندما أتم النصارى بإشعال الحرائق في القاهرة عام ٧٢١هـ/١٣٢١م، أصدر السلطان الناصر محمد بن قلاوون مرسوماً يقضي "أن يلبس النصارى الزرقاء على رؤوسهم وثيابهم كلها، وأن يحملوا الأجراس في الحمامات"^(١٠).

(١) الصياغ، المجمع ٦١.

(٢) ماير ٩٦.

(٣) المرجع نفسه ٩٩.

(٤) العمري، مسالك، دولة ١١٤.

(٥) ابن اياس، نشق ٢٧ب.

(٦) المقدسي ١٥٧ عباس ١٨.

(٧) متر ١٠٢/١ مقابلة ٩٢.

(٨) القلقشندي، صبح ٣٧٧/١٣ متر ١٠١/١ ماير ١١٦ غوانمة، التاريخ الحضاري ١٤٢.

(٩) القلقشندي، صبح ٣٧٧/١٣ ماير ١٢٠. لم تطبق هذه الشروط النسوية لعمر بن الخطاب إلا في الأزمات والفسن السني

كانت تحدث بين المسلمين والنصارى، وبعد زوالها تعود الأحوال إلى حالها، إثناء وعبة ووفاء. (غوانمة، التاريخ الحضاري ١٤٢).

(١٠) ابن كثير ٧٩/١٤.

أولاً : المصادر العربية المخطوطة :

- ١_ ابن إياس : محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م).
نشق الأزهار في عجائب الأقطار، مخطوط، صور من: الخزانة العامة، الرباط،
رقم: ٥١٢٢، ويوجد عنه نسخة بمركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية،
ميكروفلم شريط رقم: ٣٥٨.
- ٢_ البصروي : جلال الدين محمد بن علاء الدين بن يوسف، (ت ٩٠٥هـ/١٤٩٩م).
تحفة الأنام في فضائل الشام، مخطوط، صور من: جامعة برنستون، رقم ٧٥٣،
مجموعة جاريت، ويوجد عنه نسخة محفوظة بمكتبة مركز الوثائق والمخطوطات
بالجامعة الأردنية، ميكروفلم شريط رقم ٧٨.
- ٣_ البكري : مصطفى بن كمال الدين بن علي الحسيني، (ت ١١٦٢هـ/١٧٤٩م).
رحلة الشيخ مصطفى البكري، مخطوط رقم ١٦٤٢٠، مكتبة جامعة اليرموك،
ميكروفلم شريط رقم ١١٣.
- ٤_ ابن حبيب : الحسن بن عمر بن الحسن، (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م).
درة الأسلاك في دولة الأتراك، مخطوط مصور في مكتبة الجامعة الأردنية،
ج ١: مصور من مكتبة البودليان_ اكسفورد، رقم ٢٢٣_ مجموعة مارش، ويوجد
عنه نسخة مصورة بمكتبة مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية، ميكروفلم
شريط رقم ٥٣٩ .
- ج ٢: مصور عن الجلاوي_ الخزانة العامة بالرباط ١٢/٣٤، ويوجد عنه نسخة
مصورة بمكتبة مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية، ميكروفلم شريط
رقم: ٦٧٦.
- ٥_ الخالدي : بهاء الدين محمد بن علي بن أحمد بن لطف العمري، (ت ٩٩٧هـ/١٥٨٨م).
المقصد الرفيع المنشأ الحاوي إلى صناعة الإنشاء، ميكروفلم عن مخطوطة بياريس
محافظة بمكتبة مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية، ميكروفلم شريط
رقم ١٠٢٧.
- ٦_ ابن السباهي : محمد علي زاده، (ت ٩٩٧هـ/١٥٨٨م).
أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك، مخطوط محفوظ بمكتبة البودليان_
اكسفورد، رقم ٣٠٢، مجموعة بوكك، ويوجد عنه نسخة بمكتبة مركز الوثائق
والمخطوطات بالجامعة الأردنية، ميكروفلم شريط رقم ٥٥٩.

٧_ الشجاعى :شمس الدين، (ت٧٤٥هـ/١٣٤٤م).

تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده من سنة ٧٣٧_٧٤٦هـ/
١٣٣٦_١٣٤٥م، مخطوط محفوظ في:

Sttatsbibliothek Press, Kulturbesitz, Orientabteilung, Vorlage,
ويوجد عنه نسخة بمكتبة مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية، ميكروفلم
شريط رقم ١٠٤٢.

٨_ ابن طولون: محمد بن علي بن أحمد بن علي بن طولون الصالحى الدمشقى (ت٩٥٣هـ/١٥٤٧م).
الأحاديث المسموعة في أحد مدارس الخنفة أو الشافعية أو المالكية أو الحنابلة،
مخطوط مجموع في مكتبة شستريبي تحت رقم (٣١٠١)، ورقة (١٧ب_١٦٤ب)،
وتوجد عنه نسخة مصورة بمركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية تحت
الرقم نفسه.

٩_ : الأحاديث المسموعة في جوامع دمشق وضواحيها، مخطوط مجموع محفوظ في
مكتبة شستريبي تحت رقم (٣١٠١)، ورقة من (١أ_٤ب)، وتوجد عنه نسخة
مصورة بمركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية تحت الرقم نفسه.

١٠_ : الأحاديث المسموعة في دور القرآن بدمشق وضواحيها، مخطوط مجموع محفوظ
بمكتبة شستريبي رقم (٣١٠١)، ورقة (١أ_٤ب)، وتوجد عنه نسخة مصورة بمركز
الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية تحت الرقم نفسه.

١١_ ابن عبد الهادي : يوسف بن حسن بن عبد الهادي المقدسى، (ت٩٠٩هـ/١٥٠٣م).

معجم البلدان، مخطوط صور من جامعة برنستون، رقم ٧٦٠، مجموعة جاريت،
ويوجد عنه نسخة بمكتبة مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية، ميكروفلم
شريط رقم ٣٨٧.

١٢_ ابن عساكر : أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله، (ت٥٧١هـ/١١٧٥م).

تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل واجتاز بنواحيها
من واردها وأهلها، صورة عن نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق وكمل نقصها من
النسخ الأخرى بالقاهرة ومراكش واستنبول، وضع فهرس التراجم والموضوعات:
الشيخ محمد بن رزق الصرهوني، دار البشير للنشر، دمشق، د.ت.

١٣_ الغزى : رضى الدين محمد بن أحمد العامري، (ت٩٣٥هـ/١٥٢٨م).

جامع فرائد الملاحه في جامع فوائد الملاحه، ميكروفلم عن مخطوطة بدار الكتب
السلطانية، برقم زراعة ١٣٤، مجموعة أ.د محمد عيسى صالحية.

- ١٤_ مجهول : تاريخ الخلفاء والسلاطين، مخطوط مصور من مكتبة بودليان، اكسفورد، رقم ٢٤٠، مجموعة مارش، ويوجد عنه نسخة بمكتبة مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية، ميكروفلم شريط رقم ٥٦٢.
- ١٥_ ابن المشد : سيف الدين علي بن عمر، (ت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م). ديوان سيف الدين المشد، مخطوط مصور عن النسخة الموجودة في: Stlatsbibithek Preuss Kulturbesitz Orientabteilung,, Auftrgsnummer (402), الجامعة الأردنية، ميكروفلم شريط رقم ٨٣٣.
- ١٦_ المقريري : تقي الدين أحمد بن علي، (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م). الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، مخطوط مصور من جامعة بيل، رقم ١١١، مجموعة لانديبرج، ويوجد عنه نسخة بمكتبة مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية، ميكروفلم شريط رقم ٧.
- ١٧_ المنصوري : ركن الدين بيبرس الخطائي الدوادر، (ت ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م). زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، مخطوط بجامعة بيل، مجموعة لانديبرج، رقم ٧٥٨، ويوجد عنه نسخة مصورة بمكتبة مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية، ميكروفلم شريط رقم ٢٠.
- ١٨_ ابن ميمون : عبد الله. الإفادة والتبصير لكل رام مبتدئ أو مهير، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية الإنسانية، طبع بالتصوير عن المخطوطة رقم ١٢١٣، مكتبة كوبريلي، استنبول، ١٩٨٦م، جامعة اليرموك.
- ١٩_ النابلسي: عبد الغني بن إسماعيل، (ت ١١٤٣هـ/ ١٧٣٠م). الملاحه في علم الفلاحة، مخطوط مصور من مكتبة الكونجرس، رقم ٨٤، مجموعة الشرق الأدنى، ويوجد عنه نسخة بمكتبة مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية، ميكروفلم شريط رقم ٤٦٨.
- ٢٠_ ابن وحشية : أبو بكر أحمد بن علي بن قيس الكلداني، (ت أوائل ق ٤هـ/ ١٠م). كتاب الفلاحة النبطية، صورة عن مخطوطة، معهد تاريخ العلوم، جامعة فرانكفورت، ألمانيا، ١٩٨٩م، جامعة اليرموك.
- ٢١_ الوراق : المظفر بن نصر بن سيار. الطبخ، نسخة مصورة بمكتبة الجامعة الأردنية، ميكروفلم شريط رقم ١٨٧.

ثانياً : المصادر العربية المطبوعة:

- ٢٢- القرآن الكريم.
- ٢٣- ابن الأثير : عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م).
- الكامل في التاريخ، ١٣ ج، دار صادر، بيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- ٢٤- ابن أجا : شمس الدين محمد بن محمود بن خليل الحلي، (ت ٨٨١هـ/ ١٤٧٦م).
- تاريخ الأمير يشبك الظاهري، تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات، دار الفكر العربي، القاهرة، د. ت.
- ٢٥- ابن الأخوة: محمد بن محمد بن أحمد القرشي، (ت ٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م).
- معالم القرية في أحكام الحسبة، عني بنقله وتصحيحه : رو بن لوي، مطبعة دار الفنون، كمبرج، ١٩٣٧م.
- ٢٦- الإدريسي : أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسيني المعروف بالشريف الإدريسي، (ت ٥٠٦هـ/ ١١٦٤-١١٦٥م).
- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ٢ ج، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- ٢٧- الأدفوي : الحسن بن هبة الله، (ت ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م).
- الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق: سعيد محمد حسن، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦م.
- ٢٨- الأدفوي : كمال الدين أبو الفضل جعفر بن تغلب المصري، (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م).
- الموقف بمعرفة التصوف والصوفي، حققه وقدم له وعلق عليه: محمد عيسى صالحية، مكتبة دار العروبة، الكويت، ١٩٨٨م.
- ٢٩- الأربلي : الحسن بن أحمد بن زفر، (ت ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م).
- مدارس دمشق وهماهما، نشره: محمد أحمد دهمان، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، ج ٥، ج ٦، ٢٢م، جمادى الآخرة- رجب، ١٣٦٦هـ/ أيار- حزيران، ١٩٤٧م.
- ٣٠- الأسدي : محمد بن محمد بن خليل، من أعيان القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي. التيسير والأعتبار والتحرير والاختيار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار، تحقيق: عبد القادر طليمات، دار الفكر العربي، مصر، ١٩٦٧م.

- ٣١_ الأشبيلي : أحمد بن محمد بن حجاج، (ت ١١١/هـ).
المقنع في الفلاحة، تحقيق: صلاح جرار، جاسر أبو صفيه، تدقيق: عبد العزيز الدوري، مجمع اللغة العربية الأردني، د.م، ١٩٨٩م.
- ٣٢_ ابن أبي أصيبعة : موفق الدين أبو القاسم أحمد، (ت ٦٦٨/هـ-١٢٦٩م).
عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م.
- ٣٣_ الأنصاري: شرف الدين موسى بن يوسف، (ت ١٠٠٢/هـ-١٥٩٣م).
نزهة الخاطر وبهجة الناظر، تحقيق: عدنان محمد، راجعه: عدنان أوريس، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩١م.
- ٣٤_ الأنطاكي : داود بن عمر، (ت ١٠٠٨/هـ-١٥٩٩م).
تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجائب، ٢ ج، المكتبة الشعبية، بيروت، الطبعة الأخيرة، ١٣٩٩/هـ-١٩٧٩م.
- ٣٥_ ابن إياس : أبو البركات محمد بن أحمد، (ت ٩٣٠/هـ-١٥٢٣م).
بدائع الزهور في وقائع الدهور، ٥ ج، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط ٢، ١٤٠٢/هـ-١٩٨٢م.
- ٣٦_ ابن أبيك الدواداري: أبو بكر بن عبد الله، (ت ٧٣٤/هـ-١٣٣٣م).
كنز الدرر وجامع الغرر: الجزء التاسع وهو بعنوان: الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ج ٩، تحقيق: هانس روبرت رومر، منشورات قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألماني للآثار، القاهرة، د. ت.
- ٣٧_ البخاري : محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، (ت ٢٥٦/هـ-٨٦٩م).
صحيح البخاري، ٢ جزء، المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٣٠٤/هـ-١٨٨٦م.
- ٣٨_ البدري : أبو البقاء عبد الله بن محمد، (ت ٨٩٤/هـ-١٤٨٩م).
نزهة الأنام في محاسن الشام، عناية: نعمان الأعظمي الكشي، بغداد، المكتبة العربية، طبعة القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٤١/هـ-١٩٢٢م.
- ٣٩_ ابن بسام : محمد بن أحمد بن بسام المحتسب، (ت ٨٨٤/هـ-١٤٧٩م).
فهاية الرتبة في طلب الحسبة، حققه وعلق عليه: حسام الدين السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨م.

- ٤٠_ ابن بصال : عبد الله بن محمد بن إبراهيم.
كتاب الفلاحة، نشره وترجمه وعلق عليه: فوس ماريه، مياس بيكر وسا ومحمد
عزيمان، تطوان، المغرب، ١٩٥٥م.
- ٤١_ البصروي : علاء الدين علي بن يوسف الدمشقي، (ت٩٠٥هـ/١٤٩٩م).
تاريخ البصروي (صفحات مجهولة من تاريخ دمشق في عهد المماليك من سنة
٨٧١_٩٠٤هـ)، تحقيق: أكرم حسن العلي، دار المأمون للتراث، دمشق، ط١،
١٩٨٨م.
- ٤٢_ ابن بطوطة : محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م).
رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار،
شرحه وكتب حواشيه: ظلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢،
١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- ٤٣_ ابن بعرة الكاملي :
كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية، تحقيق: عبد الرحمن فهمي، لجنة
إحياء التراث العربي الإسلامي، مصر، ١٩٦٦م.
- ٤٤_ البغدادي : صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق، (ت٧٣٩هـ/١٣٣٨م).
مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة و البقاع، ٣ ج، تحقيق: علي محمد الجاوي،
دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.
- ٤٥_ البكري : عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، (ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م).
معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ٤ ج، تحقيق: مصطفى السقا، عالم
الكتب، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- ٤٦_ ابن البيطار : ضياء الدين عبد الله بن أحمد الأندلسي، (ت٦٦٤هـ/١٢٤٨م).
الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ٤ ج، مكتبة المثنى، بغداد، د. د. ت.
- ٤٧_ البيروني : أبو الريحان محمد بن أحمد الخوارزمي، (ت٤٤٠هـ/١٠٤٨م).
الآثار الباقية عن القرون الخالية، تحقيق: إدوارد ساشو، ليزج، ١٩٢٣م، أعيد طبعه
بالأوفست، مكتبة المثنى، بغداد، د. د. ت.

- ٦٦_ : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٤ ج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
- ٦٧_ ابن أبي حجلة : شهاب الدين أحمد بن يحيى المغربي، (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٥م).
- أنموذج القتال في نقل العوال، تحقيق: زهير أحمد القيسي، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٨٠م.
- ٦٨_ الحسيني : الحافظ أبو المحاسن الدمشقي، (ت ٧٦٥هـ/١٣٦٣م).
- ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٤، د. ت.
- ٦٩_ الحموي : علي بن عطية بن حسن بن محمد، المعروف بالشيخ علوان الحموي، (ت ٩٣٦هـ/١٥٢٩م).
- نسمات الأسحار في كرامات الأولياء الأخيار، (فصل أعراس الشام في القرن التاسع الهجري)، نشره: عبد الهادي هاشم، مجلة المجمع العلمي العربي، م٣٢، ج٢، رمضان ١٣٧٦هـ/نيسان ١٩٥٧م.
- ٧٠_ الحميري : محمد بن عبد المنعم الصنهاجي، (ت ٩٠٠هـ/١٥١٤م).
- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، دار العلم للطباعة، بيروت، ط١، ١٩٧٥م، ط٢، ١٩٨٤م.
- ٧١_ ابن الجوراني : عثمان بن أحمد السويدي الدمشقي، (ت ١١١٧هـ/١٧٠٥م).
- الإشارات إلى أماكن الزيارات المسمى زيارات الشام، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي، مكتبة الغزالي، دمشق، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- ٧٢_ ابن حوقل : أبو القاسم النصيبي، (ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م).
- صورة الأرض، ج٢، مطبعة بريل، ليدن، ط٢، ١٩٣٨.
- ٧٣_ الخفاجي : شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر، (ت ١٠٦٩هـ/١٦٥٩م).
- شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل، تصحيح وتعليق ومراجعة: محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الحرم الحسيني، القاهرة، ١٩٥٢م.
- ٧٤_ ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي، (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م).
- تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر وديوان المتبدأ والخير في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج٧، منشورات مؤسسة الأعلمي للطبوعات، بيروت، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.
- ٧٥_ : المقدمة، دار الفكر، دمشق، د. ت.

- ٧٦_ الخولاني : عبد الجبار بن عبد الله بن محمد، (ت ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م).
تاريخ داريا ومن نزل بها من الصحابة والتابعين، تحقيق: سعيد الأفغاني، دار
الفكر، دمشق، ١٩٨٤م.
- ٧٧_ ابن دانيال: محمد بن يوسف الموصلبي، (ت ٧١٠هـ/ ١٣١٠م).
خيال الظل وتمثيلات ابن دانيال، تحقيق: إبراهيم حمادة، وزارة الثقافة والإرشاد
القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، د. ت.
- ٧٨_ ابن دقماق : صارم الدين إبراهيم العلائي، (ت ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م).
الجواهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، ج ٢، تحقيق: محمد كمال الدين عز
الدين علي، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- ٧٩_ الدمشقي : عبد الرحمن بن إبراهيم بن عبد الرزاق، (ت ١١٣٨هـ/ ١٧٢٦م).
حدائق الأنعام في فضائل الشام، تحقيق: يوسف بدوي، دار الضياء، بيروت، ط ١،
١٩٨٩م.
- ٨٠_ الدميري : كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى، (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م).
حياة الحيوان الكبرى، ج ٢، طبع بالمطبعة العامرة الشريفة بمصر،
١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م.
- ٨١_ الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م).
الإعلام بوفيات الأعلام، تحقيق: رياض عبد الحميد مراد وآخرون، دار الفكر
المعاصر، بيروت، ١٩٩١م.
- ٨٢_ : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج ٤٢، حققه : بشار عواد معروف،
شعيب الأرنؤوط، صالح عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- ٨٣_ : تذكرة الحفاظ، ج ٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٤، د. ت.
- ٨٤_ : دول الإسلام، ج ٢، عني بنشره: عبد الله الأنصاري، تحقيق: فهم محمد شلتوت،
محمد مصطفى إبراهيم، إدارة إحياء التراث الإسلامي، قطر، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.
- ٨٥_ : ذبول العبر في خبر من عبر، ج ٤ وهو ذيل على كتاب العبر، حققه: أبو هاجر
محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م.
- ٨٦_ : سير أعلام النبلاء، ج ١٧، ج ١٧، تحقيق: أبو عبد الله عبد السلام عمر علوش،
دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

- ٨٧- :العبر في خبر من عبر، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسويي زغلول، ٣ ج، دار الكعب العلمية، بيروت، ١٩٨٥ م.
- ٨٨- :معرفة القراء الكبار علي الطبقات والإعصار، ٢ ج، تحقيق ودراسة: محمد سيد جاد الحق، طبعة مصر، ١٩٦٩ م.
- ٨٩- الزردكاش : ابن أرنغا، (ت ٨٦٧هـ/٤٦٢م).
- الأنيق في المناجيق، حققه وقدمه وعلق على متنه ورسومه: إحسان هندي، مصادر ودراسات في تاريخ التكنولوجيا العربية، منشورات جامعة حلب، معهد التراث العلمي العربي، ١٩٨٠ م.
- ٩٠- الزهري : أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، (ت في أواسط القرن السادس الهجري/الثاني عشر للميلاد).
- كتاب الجغرافية، تحقيق: محمد حاج صادق، د. ن، د. م، ب، ت.
- ٩١- السبكي : تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين علي بن عبد الكافي، (ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م). طبقات الشافعية الكبرى، ١٠ ج، تحقيق: محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى البابي وشركاه، د. ت.
- ٩٢- : معيد النعم ومبيد النقم، حققه وضيظه وعلق عليه: محمد علي النجار، أبو زيد شلي، محمد أبو العيون، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط ١، ١٣٦٧هـ/١٩٤٨ م.
- ٩٣- السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٧م).
- وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، ٤ ج، تحقيق: بشار عواد معروف، عصام الحمرستاني، أحمد الخطيمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥ م.
- ٩٤- ابن سعد : محمد بن سعد بن منيع، (ت ٢٢٠هـ/٨٣٥م). الطبقات الكبرى، ٩ ج، دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكعب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠ م.
- ٩٥- ابن سعيد : علي بن موسى، (ت ٦٧٣هـ/١٢٧٤م). بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق: خوان فرنيط خنيس، معهد مولاي الحسن، تطوان، ١٩٥٨ م.
- ٩٦- السهروردي : شهاب الدين أبو حفص عمر بن عبد الله، (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م). عوارف المعارف، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٦ م.

- ٩٧_ ابن سيده : أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي، (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٠م).
المخصص، ١٧ ج، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت،
د. ت.
- ٩٨_ السيوطي : الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م).
كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة، حققه وعلق عليه: عبد الرحمن بن عبد الجبار
الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ط ١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.
- ٩٩_ أبو شامة : عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الشافعي، (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م).
تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، صححه:
محمد الكوثري، عني بنشره وراجعته: عزت الحسيني، دار الجيل، بيروت، ط ٢، ١٩٧٤م.
- ١٠٠_ : الروضتين في أخبار الدولتين الزنكية والصلاحية، ٢ ج، دار الجيل، بيروت، د. ت.
- ١٠١_ ابن الشحنة : أبو الفضل محب الدين الشافعي، (ت ٩١٠هـ/١٥٠٤م).
الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تقدم: عبد الله الدرويش، دار الكتاب العربي،
دمشق، ١٩٨٤م.
- ١٠٢_ ابن الشحنة : محب الدين أبو الوليد محمد بن محمد، (ت ٨١٥هـ/١٤١٢م).
روض المناظر في علم الأوائل والأواخر، تحقيق: سيد محمد مهني، منشورات محمد
علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- ١٠٣_ ابن شداد : بهاء الدين أبو المحاسن يوسف، (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م).
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفيه أو سيرة صلاح الدين، تحقيق: جمال الدين
الشيال، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنسخ، الدار المصرية للتأليف
والترجمة، القاهرة، ط ١، ١٩٦٤م.
- ١٠٤_ ابن شداد : عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي، (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م).
الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، الجزء الثاني (تاريخ مدينة
دمشق)، تحقيق: سامي الدهان، نشر: المعهد الفرنسي للدراسات العربية
بدمشق، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م.
- ١٠٥_ : تاريخ الملك الظاهر، باعتناء: أحمد حطيط، مطابع مركز الطباعة الحديث، بيروت،
١٩٨٣م.
- ١٠٦_ الشعرائي : أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنصاري، (ت ٩٧٣هـ/١٩٦٧م).
لواقح الأنوار في طبقات السادة والأخيار، ٢ ج، القاهرة، ١٨٨١م.

- ١٠٧_ الشهرستاني : محمد بن عبد الكريم، (ت ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م).
- الملل والنحل، ٢ ج، تحقيق: محمد سيد كيلاني، الدار الثقافية العربية، بيروت، د. ت.
- ١٠٨_ الشوكاني : محمد بن علي، (ت ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م).
- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ٢ ج، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د. ت.
- ١٠٩_ شيخ الربوة : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الصوفي الدمشقي، (ت ٧٢٧هـ/ ١٣٢٧م).
- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، نشره: أ. مهران، ليزج، ١٩٢٣م.
- ١١٠_ الشيزري : عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر بن عبد الرحمن، (ت ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م).
- المنهج السلوك في سياسة الملوك، تحقيق: عبد الله الموسى، مكتبة المنار، الزرقاء، ط ١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- ١١١_ : نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق ومراجعة: السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ط ٢، ١٩٨١م.
- ١١٢_ ابن صصرى : محمد بن محمد، (ت ٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م).
- الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، تحقيق: وليم. م. برينر، جامعة كاليفورنيا، بركلي، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٦٣م.
- ١١٣_ الصفدي : صلاح الدين خليل بن أيبك، (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م).
- أمرء دمشق في الإسلام، تحقيق: صلاح الدين المنجد، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٥٥م.
- ١١٤_ : تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب، ٢ ج، حققه: إحسان بنت سعيد خلوصي، زهير حميدان الصمصام، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٢م.
- ١١٥_ : الوافي بالوفيات، ٢٢ ج، دار فرانز شتاينر شتوتغارت، طبعة ١٩٩١م.
- ١١٦_ الصقاعي : فضل الله بن أبي الفخر، (ت ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م).
- تالي كتاب وفيات الأعيان، تحقيق: جاكين سوبله، المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٧٤م.

- ١١٧_ الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير، (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م).
تاريخ الرسل والملوك، ١٠ ج، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف،
القاهرة، ط ٢، ١٩٦٤م.
- ١١٨_ الطرسوسي : إبراهيم بن علي، (ت ٧٥٨هـ/١٣٥٦م).
تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك، دراسة وتحقيق: رضوان السيد، دار
الطليعة، بيروت، ط ١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- ١١٩_ الطرسوسي : مرضي بن علي بن مرضي الطرسوسي، (ت ٥٨٩هـ/١١٩٣م).
تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء ونشر أعلام
الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء، تحقيق: كلود كاهين.
- ١٢٠_ ابن طولون : محمد بن علي بن أحمد بن علي بن طولون الصالحى اللدمشقي،
(ت ٩٥٣هـ/١٤٥٧م).
إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق: محمد أحمد
دهمان، وزارة الثقافة للإرشاد القومي_ مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم،
دمشق، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م.
- ١٢١_ : تاريخ المزة وآثارها وفيه: العزة فيما قيل في المزة، تحقيق: محمد عمر
حمادة، تقديم: محمد علي سلطاني، دار قتيبة، دمشق، ط ١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.
- ١٢٢_ : التحريو المرسخ في أحوال البرزخ، تحقيق: أبو عبد الرحمن المصري الأثري، دار
الصحابة للتراث، طنطا، ط ١، ١٩٩١م.
- ١٢٣_ : ضرب الحوطة على جميع الغوطة، نشر وتعليق: محمد أسعد طلس، مجلة المجمع
العلمي العربي، ٢١م، ج ٣، ج ٤، ربيع ثاني وجمادى الأولى ١٣٦٥هـ/آذار
ونيسان ١٩٤٦م.
- ١٢٤_ : ضوء السراج فيما قيل في النساج، تحقيق: ليلى الصباغ، تحت اسم: وثيقة عربية
شاملة من القرن العاشر الهجري، (المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام)،
١٥١٦-١٩٣٦م، جامعة دمشق، كلية الآداب، دمشق.
- ١٢٥_ : فص الخواتم فيما قيل في الولايم، تحقيق: نزار أباطة، دار الفكر، دمشق، ط ١،
١٩٨٣م.
- ١٢٦_ : القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية، ٢ ج، تحقيق: محمد أحمد دهمان، مكتب
الدراسة الإسلامية، دمشق، ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م.

- ١٢٧- : اللغات البرقية في النكت التاريخية، نشر: مكتبة القدسي والبدير، مطبعة الترقى، دمشق، ١٣٤٨هـ/١٩٢٧م.
- ١٢٨- : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ٢ ج، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
- ١٢٩- : نقد الطالب لزغل المناصب، تحقيق: محمد أحمد دهمان، خالد محمد دهمان، مراجعة: نزار أباطه، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- ١٣٠- : وصف ربوة دمشق ومنتزهاها وميدان القبق، نشر: أحمد تيمور، مجلة الجمع العلمي العربي، ٢م، ٥ ج، رمضان ١٣٤٠هـ/آيار ١٩٢٢م.
- ١٣١- الظاهري : غرس الدين خليل بن شاهين، (ت ٨٩٣هـ/١٤٨٧م).
زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق: بولس راويس، المطبعة الجمهورية، باريس، ١٨٩٤م.
- ١٣٢- ابن عبد الظاهر : القاضي محيي الدين، (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م).
الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر: عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط١، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.
- ١٣٣- ابن عبد الهادي : جمال الدين يوسف بن حسن بن عبد الهادي الصالحى الدمشقي، (ت ٩٠٩هـ/١٥٠٣م).
الإعانات على معرفة الخانات، نشره: حبيب زيات، مجلة المشرق، م٣٦، كانون ثاني _ آذار، ١٩٣٨م.
- ١٣٤- : ثمار المقاصد في ذكر المساجد، تحقيق: محمد أسعد طلس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥م.
- ١٣٥- : الحسبة، نشره: حبيب زيات، مجلة المشرق، م٣٥، تموز _ أيلول، ١٩٣٧م.
- ١٣٦- : الطباخة، نشره: حبيب زيات، مجلة المشرق، م٣٥، تموز _ أيلول، ١٩٣٧م.
- ١٣٧- : عدة الملمات في تعداد الحمامات، نشره: صلاح الدين المنجد، مجلة المشرق، م٤١، تموز _ أيلول، ١٩٤٧م.
- ١٣٨- : غدق الأفكار في ذكر الأثمار، تحقيق: صلاح محمد الخيمي، دار ابن كثير، دمشق_بيروت، ط١، ١٩٨٥م.
- ١٣٩- : رسائل دمشقية، نزهة الرفاق في شرح حال الأسواق، تحقيق: صلاح محمد الخيمي، دار ابن كثير، دمشق_بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

- ١٤٠_ : نزهة الرفاق عن شرح حال الأسواق بدمشق، نشره: حبيب زيات، مجلة المشرق،
 م٣٧، كانون ثاني - آذار، ١٩٣٩م.
- ١٤١_ العدوي : القاضي محمود، (ت١٠٣٢هـ/١٦٢٢م).
 الزيارات بدمشق، تحقيق: صلاح الدين المنجد، مطبوعات المجمع العلمي العربي،
 دمشق، ١٩٠٦م.
- ١٤٢_ ابن العراقي : ولي الدين أبي زرعه أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين،
 (ت٨٢٦هـ/١٤٢٢م).
- الذيل على العبر في خبر من عبر، تحقيق: صالح مهدي عباس، ج٣، مؤسسة
 الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- ١٤٣_ العطار الدمشقي : محمد حسين بن حسين، (ت١١٤٣هـ/١٨٢٧م).
 علم المياه الجارية في مدينة دمشق، تحقيق: أحمد غسان سبانو، دار قتيبة، دمشق،
 ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- ١٤٤_ العلمي : عبد الباسط، (ت٩٨١هـ/١٥٧٣م).
 مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى أحوال دور القرآن والحديث والمدارس،
 تحقيق: صلاح الدين المنجد، مطبعة الترقى، دمشق، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م.
- ١٤٥_ ابن العماد : أبو الفلاح عبد الحي، (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م).
 شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٨، تحقيق: لجنة إحياء التراث، دار الآفاق
 الجديدة، بيروت، د.ت.
- ١٤٦_ العمري : شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى، (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م).
 التعريف بالمصطلح الشريف، دراسة وتحقيق: سمير الدروبي، منشورات جامعة
 مؤتة_ عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، الكرك، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- ١٤٧_ : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (دولة المماليك الأولى)، دراسة وتحقيق:
 دوروتيا كرافولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، ط١،
 ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج١، تحقيق: أحمد زكي باشا، مطبعة دار
 الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٤.

- ١٤٨_ العيني : بدر الدين محمد بن أحمد، (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م).
السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، تحقيق: حكيم شلتوت، راجعه: محمد مصطفى
زيادة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧م.
- ١٤٩_ الغزولي : ابن عبد الله البهائي، (ت ٨١٥هـ/١٤١٢م).
مطالع البدور في منازل السرور، مطبعة الوطن، القاهرة، د.ت.
- ١٥٠_ الغزي : كامل بن حسين بن مصطفى، (ت ١٣٥١هـ/١٩٣٣م).
نهر الذهب في تاريخ حلب، ٢ ج، المطبعة المارونية، د. م، د. ت.
- ١٥١_ أبو الفداء : عماد الدين إسماعيل محمد بن عمر، (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م).
تقويم البلدان، اعتنى بتصحيحه وطبعه: رينود والبارون ماك كوكين ديسلان،
دار الطباعة السلطانية، باريس، ١٨٦٥م.
- ١٥٢_ : المختصر في أخبار البشر، ٢ ج، علق عليه ووضع حواشيه: محمود ديوب، دار
الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- ١٥٣_ ابن قاضي شهبة : بدر الدين محمد، (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م).
الكواكب الدرية في السيرة النورية _ تاريخ السلطان نور الدين محمود بن
زنكي، تحقيق: محمود زايد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط ١، ١٩٧١م.
- ١٥٤_ ابن قاضي شهبة : تقي الدين أبو بكر أحمد، (ت ٨٥١هـ/١٤٤٧م).
تاريخ ابن قاضي شهبة، م ١-٣ ج، حققه: عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي
للدراسات العربية، دمشق، ١٩٧٧م.
- ١٥٥_ القاياتي : الشيخ محمد عبد الجواد، (ت ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م).
نفحة البشام في رحلة الشام، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨١م.
- ١٥٦_ ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، (ت ٢٧٦هـ/٧٨٩م).
الأنواء في مواسم العرب، مطبعة مجلس دائرة المعارف، الهند، ط ١، ١٩٥٦م.
- ١٥٧_ القزويني : زكريا بن محمد بن محمود، (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م).
آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ١٩٦٩م.
- ١٥٨_ : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، تحقيق: فاروق سعد، دار الآفاق
الجديدة، بيروت، ١٩٨١م.
- ١٥٩_ : وصف دمشق أيام الظاهر بيبرس، تحقيق: أحمد إيش، دمشق، ١٩٨٣م.

- ١٦٠_ القساطلي : نعمان أفندي.
الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، د. ن، بيروت، ط١، ١٨٧٩م.
- ١٦١_ القلقشندي : أحمد بن علي، (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م).
صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج١٥، شرحه وعلق عليه: نبيل خالد الخطيب،
دار الكتب العلمية، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.
- ١٦٢_ : مآثر الأئمة في معالم الخلافة، ج٢، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، عالم الكتب،
بيروت، د.ت.
- ١٦٣_ ابن قيم الجوزية : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، (ت ٧٥١هـ/١٣٥٠م).
شرح الشروط العمرية مجرداً من كتاب أحكام أهل الذمة، تحقيق: صبحي الصالح،
جامعة دمشق، دمشق، ط١، ١٩٦١م.
- ١٦٤_ الكشي : محمد بن شاکر، (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م).
عيون التواريخ، ج٢٠، تحقيق: فيصل السامر، نبيله عبد المنعم داوود، دار الرشيد،
بغداد، ١٩٨٠م، ج٢١، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية، ١٩٨٤م.
- ١٦٥_ : فوات الوفيات والذيل عليها، ج٥، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت،
د.ت.
- ١٦٦_ ابن كثير : أبو الفداء الحافظ إسماعيل بن عمر الشافعي، (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م).
البداية والنهاية في التاريخ، ج١٤، دار الكتب العلمية، بيروت،
١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- ١٦٧_ ابن كنان : محمد بن عيسى بن كنان الصالحى الدمشقي، (ت ١١٥٣هـ/١٧٤٠م).
حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين، تحقيق: عباس صباغ، دار
النفائس، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
- ١٦٨_ : الموج السندسية الفسيحة في تلخيص تاريخ الصالحية، عني بتحقيقه ووضع
حواشيه وفهارسه: محمد أحمد دهمان، مطبعة الترقى، دمشق، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م.
- ١٦٩_ : المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية، ج٢، تحقيق ودراسة: حكمت
إسماعيل، مراجعة: محمد المصري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٣م.
- ١٧٠_ الماوردي : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م).
الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

- ١٧١_ مجهول : (ت٧٤٢هـ/١٣٤١م).
- تاريخ سلاطين المماليك، تحقيق: زيترشتين، ليدن، بريل، ١٩١٩م.
- ١٧٢_ مجهول : خزانة السلاح مع دراسة عن خزائن السلاح ومحتوياتها على عصر الأيوبيين والمماليك، تحقيق: نبيل عبد العزيز، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م.
- ١٧٣_ مجهول : من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي.
- مفتاح الراحة لأهل الفلاحة، تحقيق ودراسة: محمد عيسى صالحية، إحسان صدقي العمدة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب _ قسم التراث العربي، الكويت، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- ١٧٤_ المقدسي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن البناء البشاري، (ت٣٨٠هـ/٩٩٠م).
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، وضع مقدمته وهوامشه وفهارسه: محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.
- ١٧٥_ المقرئزي : تقي الدين أحمد بن علي، (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م).
- إغاثة الأمة بكشف الغمة، نشره: محمد مصطفى زيادة، جمال الدين الشيال، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٢، ١٩٥٧م.
- ١٧٦_ : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٦، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦م، ج٦، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٠م.
- ١٧٧_ : المقفى الكبير، ج٨، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- ١٧٨_ : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقرئزية، ج٤، وضع حواشيه: خليل المنصور، منشورات: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
- ١٧٩_ : النقود الإسلامية المسمى بشذور العقود في ذكر النقود، تحقيق: السيد محمد بحر العلوم، دار الزهراء، بيروت، ط٦، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- ١٨٠_ ابن ممتي : القاضي الوزير شرف الدين أبو المكارم الأسعد بن مليح، (ت٦٠٦هـ/١٢٠٩م).
- قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز سوريال عطية، مطبعة مصر القاهرة، ١٩٤٣م.

- ١٨١_ المناوي : عبد الرؤوف، (ت ١٠٣١هـ/١٦٢١م).
- النزهة الزهية في أحكام أمر الحمام الشرعية والطبية، حققه وقدم له: عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٧م.
- ١٨٢_ المنصوري: ركن الدين بيبرس الخطاطي الدوادار، (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م).
- التحفة الملوكية في الدولة التركية، تقدم: عبد الرحمن صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٧م.
- ١٨٣_ : مختار الأخبار _ تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ، تحقيق: عبد الرحمن حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٣م.
- ١٨٤_ ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، (ت ٧١١هـ/١٣١١م).
- لسان العرب، ٢٠ ج، طبعة مصورة عن طبعة بولاق معها تصويبات وفهارس متنوعة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأبناء والنشر، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مطابع كوستاتوماس وشركاه، ١٣٤١هـ/١٩٢٢م.
- ١٨٥_ النابلسي: عبد الغني بن إسماعيل، (ت ١١٤٣هـ/١٧٣٠م).
- الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، تقدم وإعداد: أحمد عبد المجيد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م.
- ١٨٦_ : رحلتي إلى القدس المسماة بالخصرة الأنسية في الرحلة القدسية، مطبعة جريدة الإخلاص، مصر، ١٩٠٢م.
- ١٨٧_ ابن ناصر الدين : الحافظ محمد بن أبي بكر بن ناصر الدين الدمشقي الشافعي، (ت ٨٤٢هـ/١٤٣٨م).
- الرد الوافر على من زعم: بأن من سمي ابن تيمية شيخ الإسلام: كافر، حققه: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، عمان_ دمشق_ بيروت، ط ٣، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- ١٨٨_ ابن نباتة: أبو بكر جمال الدين محمد بن شمس الدين محمد بن شرف الجذامي، (ت ٧٦٨هـ/١٣٦٦م).
- الديوان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٠م.
- ١٨٩_ النعيمي : عبد القادر بن محمد الدمشقي، (ت ٩٢٧هـ/١٥٢٠م).
- الدارس في تاريخ المدارس، ٢ ج، اعد فهارسه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

- ١٩٠_ : دور القرآن في دمشق، صححه وعلق عليه وذيله: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٣م.
- ١٩١_ النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، (ت٧٣٢هـ/١٣٣٢م).
نهاية الأرب في فنون الأدب، ٣١ ج، تحقيق: الباز العريني، مراجعة: عبد العزيز الأهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- ١٩٢_ الهروي: أبو الحسن علي بن أبي بكر، (ت٦١١هـ/١٢١٤م).
الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق: جانين سورديل، المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٥٣م.
- ١٩٣_ ابن الوردي: زين الدين أبو حفص عمر بن مظفر الشافعي، (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م).
تتمة المختصر في أخبار البشر، ٢ ج، إشراف وتحقيق: أحمد رفعت البدرأوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٣٨٩هـ/١٩٧٠م.
- ١٩٤_ : خريدة العجائب وفريدة الغرائب، صححه وعلق عليه: محمود فاخوري، دار الشرق العربي، بيروت، د. ت.
- ١٩٥_ اليافعي: أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان، (ت٧٦٨هـ/١٣٦٦م).
مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ٤ ج، مؤسسة الأعلمي للطبوعات، بيروت، ط٢، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.
- ١٩٦_ ياقوت: شهاب الدين بن عبد الله الحموي، (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م).
إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (معجم الأديب)، ٢٠ ج، القاهرة، ١٩٢٧م.
- ١٩٧_ : المشترك وضعا والمفترق صقعا، جوتنجن، ١٨٤٦م، أعادت طبعه بالأوفست، مكتبة المثني، بغداد.
- ١٩٨_ : معجم البلدان، ٥ ج، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- ١٩٩_ اليوسفي: موسى بن محمد بن يحيى، (ت٧٥٩هـ/١٣٥٨م).
نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق ودراسة: أحمد حطيظ، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- ٢٠٠_ اليونيني: قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد، (ت٧٢٦هـ/١٣٢٦م).
ذيل مرآة الزمان، ٤ ج، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

ثالثاً : المراجع العربية والمعرّبة:

- ٢٠١_ آشور : آ.
- التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة: عبد الهادي عبلة، مراجعة: أحمد غسان سبانو، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٥م.
- ٢٠٢_ أدهم : مصطفى وغسان مراد.
- الأطلس التطبيقي، حلب، ط١، ١٩٥٦م.
- ٢٠٣_ أدي شير :
- معجم الألفاظ الفارسية المعربة، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٠م.
- ٢٠٤_ الأسدي: خير الدين.
- موسوعة حلب المقارنة، ٣ج، مطبعة جامعة حلب، حلب، ط١، ١٩٨٤م.
- ٢٠٥_ الألفي : أبو صالح.
- الفن الإسلامي أصوله وفلسفته، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦م.
- ٢٠٦_ اليسيف: نيكيتا.
- التخطيط المادي، بحث في كتاب (المدينة الإسلامية)، ترجمة: محمد أحمد تغلب، السيكوموفجر، اليونسكو، ١٩٨٣م.
- ٢٠٧_ الإمام : رشاد.
- مدينة القدس في العصر الوسيط (١٢٥٣_١٥١٦م)، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.
- ٢٠٨_ ايكوشار : ميشيل، وكلود لوكور.
- حمامات دمشق، ٢ج، تعريب: ممدوح الزركلي، نزيه الكواكي، دمشق، ١٩٨٥م.
- ٢٠٩_ الباشا : حسن.
- الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، الدر الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- ٢١٠_ : دراسات في الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٨م.
- ٢١١_ : الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، ٣ج، القاهرة، ١٩٦٥م.
- ٢١٢_ باشا : عمر موسى.
- الأدب في بلاد الشام، عصر الزنكيين والأيوبيين والمماليك، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ١٩٧٩م.

- ٢١٣_ بدران : عبد القادر.
- منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، إشراف: محمود زهير الشاويش، د. ت.
- ٢١٤_ بدوي : أحمد أحمد.
- الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، د. ت.
- ٢١٥_ البستاني : بطرس.
- محيط المحيط (قاموس مطول للغة العربية)، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٧م.
- ٢١٦_ البقلي : محمد قنديل.
- التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣م.
- ٢١٧_ : الطرب في العصر المملوكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م.
- ٢١٨_ بلال : ثناء عبد الرحمن.
- الملابس في العصرين القبطي والإسلامي، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٢-١٩٨٣م.
- ٢١٩_ هنسي : عفيف.
- دمشق الشام، المكتبة العمومية، دمشق، ١٩٨١م.
- ٢٢٠_ : الشام الحضارة، منشورات-وزارة الثقافة، دمشق، ط ١، ١٩٨٦م.
- ٢٢١_ البشاوي: سعيد عبد الله.
- نابلس الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية في عصر الحروب الصليبية (٤٩٢_٦٩٠هـ/١٠٩٩_١٢٩١م)، د. ن، عمان، ط ١، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- ٢٢٢_ البيطار : أمينه.
- الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٨٠م.
- ٢٢٣_ ترتون : أ. س.
- أهل الذمة في الإسلام، ترجمة وتعليق: حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ١٩٦٧م.

- ٢٢٤_ تمام : يوسف عبد العزيز.
دراسات في العقيدة الدرزية، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ١٩٩٢م.
- ٢٢٥_ التونجي : محمد.
المعجم الذهبي: فارسي _ عربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٦٩م.
- ٢٢٦_ جودي : محمد حسين.
صناعة النحاس عند العرب وأثرها على الفن الأوروبي، عمان، ط٢، ١٩٩٣م.
- ٢٢٧_ جوستاف : أ. فون جرونباوم.
حضارة الإسلام، ترجمة: عبد العزيز جاويد، دار مصر للطباعة، القاهرة، ١٩٥٦م.
- ٢٢٨_ الجيلاني : ابن الحاج وآخرون.
قاموس الجديد الألف بائي، بيروت، ١٩٩٧م.
- ٢٢٩_ الحافظ : محمد مطيع.
الجامع الأموي بدمشق (نصوص لابن جبير، والعمري، والنعمي)، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ١٩٨٥م.
- ٢٣٠_ حتي : فيليب.
تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢ ج، ترجمة: كمال اليازجي، أشرف على مراجعته وتحريره: جبرائيل جبور، دار الثقافة، بيروت، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر: بيروت_ القاهرة _ بغداد _ نيويورك، ١٩٥٩م.
- ٢٣١_ : لبنان في التاريخ منذ أقدم العصور التاريخية حتى عصرنا الحاضر، ترجمة: أنيس فريجة، مراجعة: نقولا زيادة، بيروت، نيويورك، ١٩٥٩م.
- ٢٣٢_ الحجي : حياة ناصر.
أحوال العامة في حكم المماليك: ٦٧٨_٧٨٤هـ/١٢٧٩_١٣٨٢م (دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية)، شركة كاظم للنشر والترجمة والتوزيع، الكويت، ط١، ١٩٨٤م.
- ٢٣٣_ أبو حرب : محمد خير.
القاموس المدرسي، إصدار وزارة التربية في الجمهورية العربية السورية، ط١، ١٩٨٥م.

- ٢٣٤_ حسن : حسن إبراهيم.
تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ٤ ج، مكتبة النهضة
المصرية، القاهرة، ط٧، ١٩٦٤م.
- ٢٣٥_ حسن : زكي محمد.
فنون الإسلام، دار الفكر العربي، د. م، د. ت.
- ٢٣٦_ حسن : علي إبراهيم.
تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٣، ١٩٦٧م.
- ٢٣٧_ الحسيني : محمد باقر.
تطور النقود العربية الإسلامية، دار الجاحظ، بغداد، ط١، ١٩٦٩م.
- ٢٣٨_ الحصني : محمد أديب آل تقي الدين.
منتخبات التواريخ لدمشق، ٣ ج، قدم له: كمال سليمان الصليبي، دار الآفاق
الجديدة، بيروت، د. ت.
- ٢٣٩_ حمادة : محمد ماهر.
الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي: (٦٥٦_١٢٥٨هـ / ١٢٥٨_١٥١٦م)،
دراسة ونصوص، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- ٢٤٠_ حمزة : عبد اللطيف.
الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، القاهرة، ١٩٤٧م.
- ٢٤١_ الحموي : محمد ياسين.
دمشق في العصر الأيوبي، المطبعة الهاشمية، دمشق، د. ت.
- ٢٤٢_ الخطيب : مصطفى عبد الكريم.
معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١،
١٤١٦هـ / ١٩٩٥م.
- ٢٤٣_ خنشت : يوسف.
طوائف الأمس غرائب اليوم، دار الرائد العربي اللبناني، لبنان، ١٩٨٢م.
- ٢٤٤_ خير : صفوح.
غوطة دمشق، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٦٦م.
- ٢٤٥_ : مدينة دمشق، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٦٩م.

- ٢٤٦_ دارفيو : الفارس.
- وصف دمشق في القرن السابع عشر (١٦٦٠-١٧٠١م)، ترجمة: أحمد إبيش،
دار المأمون، دمشق، ط١، ١٩٨٢م.
- ٢٤٧_ الدباغ : مصطفى مراد.
بلادنا فلسطين، ١١ ج، دار الهدى، كفر قرع، طبعة جديدة، ١٩٩١م.
- ٢٤٨_ دهمان : محمد أحمد.
في رحاب دمشق، دراسات عن أهم الأماكن الأثرية ومقالات عن أهم حوادثها
المجهولة، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- ٢٤٩_ : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، دار الفكر،
دمشق- بيروت، ط١، ١٩٩٠م.
- ٢٥٠_ : ولاية دمشق في عهد المالكي، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- ٢٥١_ الدوري : عبد العزيز.
تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، دار المشرق، بيروت، ط٢.
- ٢٥٢_ دوزي : رينهارت.
تكملة المعاجم العربية، ٤ ج، دار الرشيد، د. م، ١٩٨٠م.
- ٢٥٣_ : المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة: أكرم فاضل، وزارة الإعلام،
بغداد، ١٩٧١م.
- ٢٥٤_ دعاند :
الفنون الإسلامية، ترجمة: أحمد عيسى، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٨٢م.
- ٢٥٥_ الرافي : محمد راشد.
مكانة المسجد في المدينة العربية، تخطيط المدن في العالم العربي، نشر: المنظمة العربية
لحرية الثقافة، د. ت.
- ٢٥٦_ رافق : عبد الكريم.
بحوث في التاريخ الاقتصادي لبلاد الشام، د. ن، د. م، ١٩٨٥م.
- ٢٥٧_ راوولف: ليونهارت.
رحلة المشرق إلى العراق وسوريا وفلسطين، ترجمة: سليم طه التكريتي، منشورات
وزارة الثقافة والفنون، العراق، ١٩٧٨م.

- ٢٥٨- راييس : دافيد تالبوت.
- الفن الإسلامي، ترجمة: منير صلاحى الأصبحى، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.
- ٢٥٩- رمضان : أحمد.
- المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، د. ن، القاهرة، ١٩٧٧م.
- ٢٦٠- الرىحاوى : عبد القادر.
- مدينة دمشق، د. ن، دمشق، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.
- ٢٦١- ريسلر : جاك.
- الحضارة العربية، ترجمة: غنيم عبدون، الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، د.ت.
- ٢٦٢- زامبارو : إدوارد فون.
- معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة: زكى محمد حسن، حسن أحمد محمود، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، ١٩٥١م.
- ٢٦٣- زكريا : أحمد وصفى.
- الريف السوري - محافظة دمشق: وصف طبغرافى - تاريخى - أثري - عمرانى - اجتماعى - زراعى للأقضية والنواحي والقرى العائدة إلى محافظة لواء دمشق، مطبعة دار البيان، دمشق، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.
- ٢٦٤- زيادة : محمد مصطفى.
- المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادى/التاسع الهجرى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٢، ١٩٥٤م.
- ٢٦٥- زيادة : نقولا.
- دمشق في عصر الماليك، مكتبة لبنان، بيروت، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، نيويورك، ١٩٦٦م.
- ٢٦٦- : رواد الشرق العربى في العصور الوسطى، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م.
- ٢٦٧- زيتون : عادل.
- العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دمشق، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

- ٢٦٨_ زيغور : شفيق محمد.
الفكر التربوي عند العلموي، دار اقرأ، بيروت، ١٩٨٦م.
- ٢٦٩_ زيود : محمد.
حالة بلاد الشام الاقتصادية منذ العهد الطولوني حتى نهاية العصر الفاطمي، د. ن،
د.م، ١٩٨٧م.
- ٢٧٠_ السامر : فيصل.
الأصول التاريخية للحضارة العربية الإسلامية في الشرق الأقصى، سلسلة
دراسات، ١١ ج، وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، بغداد، ١٩٧٧م.
- ٢٧١_ سالم : عبد العزيز.
دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، جامعة بيروت العربية، بيروت،
١٩٧٠م.
- ٢٧٢_ سبانو : أحمد غسان.
دمشق في دوائر المعارف العربية والعالمية، دار الكتاب العربي، دمشق، د. ت.
- ٢٧٣_ سرور : محمد جمال الدين.
دولة بني قلاوون في مصر _ الحالة السياسية والاقتصادية في عهدها بوجه خاص،
دار الفكر العربي، القاهرة، د. ت.
- ٢٧٤_ سعداوي : نظير.
نظام البريد في الدولة الإسلامية، دار مصر للطباعة، القاهرة، ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م.
- ٢٧٥_ سعيد : حسن.
البحرية في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م.
- ٢٧٦_ السعيد : عبد الله عبد الرزاق.
المستشفيات الإسلامية منذ العصر النبوي إلى العصر العثماني، دار الضياء للنشر
والتوزيع، عمان، ط ١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.
- ٢٧٧_ سلام : محمد زغلول.
الأدب في العصر المملوكي، الدولة الأولى: ٦٤٨-٧٨٣هـ، ج ٢، منشأة المعارف،
الإسكندرية، د. ت.

- ٢٧٨_ سوفاجيه : جان.
دمشق الشام: لحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى العصر الحاضر، المطبعة
الكاثوليكية، بيروت، ١٩٣٦م.
- ٢٧٩_ الشافعي: فريد محمود.
العمارة العربية الإسلامية، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض،
١٩٩٢م.
- ٢٨٠_ الشرتوني : سعيد الخوري.
ذيل أقرب الموارد، مطبعة مرسلبي اليسوعية، بيروت، ١٨٩٣م.
- ٢٨١_ شمساني : حسن.
مدارس دمشق في العصر الأيوبي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.
- ٢٨٢_ الصالح : صبحي.
النظم الإسلامية، نشأتها وتطورها، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٥م.
- ٢٨٣_ صالحية : محمد عيسى.
بحوث ومقالات في الحضارة العربية الإسلامية، دار التقدم العربي، بيروت، مؤسسة
دار الكتب، الكويت، ١٩٨٨م.
- ٢٨٤_ الصباغ : ليلي.
الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر
والسابع عشر (العاشر والحادي عشر الهجريين)، ٢ج، مؤسسة الرسالة، بيروت،
ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- ٢٨٥_ : المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، منشورات وزارة الثقافة، دمشق،
١٩٧٣م.
- ٢٨٦_ : (وثيقة عربية شاملة من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي)،
(الصناعة النسيجية والنساج)، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، جامعة
دمشق، كلية الآداب، دمشق، ١٩٣٩م.
- ٢٨٧_ صبحي : أحمد محمود.
الزيدية، الزهراء للإعلام العربي، ط٢، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

- ٣٠٢_ عاشور : فايد حماد.
العلاقات السياسية بين الممالك والمغول في الدولة المملوكية الأولى، قدم له
وراجعه: جوزيف نسيم، دار المعارف، القاهرة، د. ت.
- ٣٠٣_ عباس : إحسان.
فصول حول الحياة الثقافية والعمرانية في فلسطين، المؤسسة العربية للدراسات
والنشر، بيروت، ١٩٩٣م.
- ٣٠٤_ عبد الخالق : هناء.
الزجاج الإسلامي في متاحف ومخازن الآثار في العراق، الجمهورية العراقية، مديرية
الآثار العامة، دار العربية، بغداد، ١٩٧٦م.
- ٣٠٥_ عبد المهدي : عبد الجليل حسن.
الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي، مكتبة
الأقصى، عمان، ١٩٨٠م.
- ٣٠٦_ عثمان : حسن.
البحر الأحمر كطريق تجاري في عهد البيزنطيين والعرب والممالك، د. ن. د. م،
١٣٧١هـ/١٩٥٢م.
- ٣٠٧_ العريني : السيد الباز.
الممالك، دار النهضة العربية، بيروت، د. ت.
- ٣٠٨_ العزاوي : عباس.
التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان، د. ن، بغداد، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م.
- ٣٠٩_ العسلي : كامل جميل.
وثائق مقدسية تاريخية، ٣ ج، مطبعة التوفيق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،
الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٣-١٩٨٩م.
- ٣١٠_ عطا الله : محمود علي خليل.
نيابة غزة في العهد المملوكي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ١،
١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- ٣١١_ العطار : عدنان.
تقاليد الزواج الدمشقي البدوي والريفية والحضري، دار سعد الدين، دمشق،
١٩٨٠م.

- ٣١٢_ عطية الله : أحمد.
القاموس الإسلامي، ٤ ج، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٣ م.
- ٣١٣_ عظمة : عبد العزيز.
مرآة الشام، تحقيق: نجدة صفوت، رياض الريس للنشر، د. م، ١٩٨٧ م.
- ٣١٤_ علام : محمود.
الخزف، مؤسسة سجل العرب، د. ن، د. م، د. ت.
- ٣١٥_ العلي : أكرم حسن.
خطط دمشق، دراسة تاريخية شاملة لدور القرآن والحديث والمدارس
والبيمارستانات والجوامع الكبرى والخوانق والربط والزوايا والأسواق والخانات
والحمامات والدروب من سنة ٤٠٠هـ_١٤٠٠هـ، دار الطباع، ط١،
١٤١٠هـ/١٩٨٩ م.
- ٣١٦_ : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ٩٠٦_٩٢٢هـ/١٥٠٠_١٥٢٠ م،
دراسة تاريخية واجتماعية وثقافية واقتصادية، الشركة المتحدة للطباعة والنشر،
دمشق، ط١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢ م.
- ٣١٧_ : الملك الأشرف خليل بن قلاوون فاتح عكا ومحور بلاد الشام من الصليبيين
(٦٩٣هـ/١٢٩٣ م)، دار المأمون للتراث، دمشق، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧ م.
- ٣١٨_ علي : علي السيد.
القدس في العصر المملوكي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١،
١٩٨٦ م.
- ٣١٩_ علي : وفاء محمد.
جهود المماليك الحربية ضد الصليبيين، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية،
ط٢، ١٩٩١ م.
- ٣٢٠_ عميرة : عبد الرحمن.
التصوف الإسلامي منهجاً وسلوكاً، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، د. ت.
- ٣٢١_ عنان : محمد عبد الله.
مصر الإسلامية وتاريخ الخطوط، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ط١،
١٣٥٠هـ/١٩٣١ م.

- ٣٢٢_ عيسى بك : أحمد.
تاريخ البيمارستانات في الإسلام، المطبعة الهاشمية، مطبوعات جمعية التمدن
الإسلامي، دمشق، د. ت.
- ٣٢٣_ غالب : عبد الرحيم.
موسوعة العمارة الإسلامية، جروس برس، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- ٣٢٤_ الغامدي: علي.
بلاد الشام قبيل الغزو المغولي: ٥٨٩_٦٥٧هـ/ ١١٩٣_١٢٥٩م، مكتبة
الطالب الجامعي، مكة المكرمة، ١٩٨٨م.
- ٣٢٥_ غوانمة : يوسف درويش.
إمارة الكرك الأيوبية، دار الفكر، عمان، ط٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- ٣٢٦_ : التاريخ الحضاري لشرق الأردن في العصر المملوكي، دار الفكر، عمان، ط٢،
١٩٨٢م.
- ٣٢٧_ : التاريخ السياسي لشرقي الأردن في عصر دولة المماليك الأولى، وزارة الثقافة
والشباب، عمان، ١٩٧٩م.
- ٣٢٨_ : تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياة للنشر والتوزيع، الزرقاء-
الأردن، ١٩٨٢م.
- ٣٢٩_ : دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين في العصر المملوكي، دار الفكر، عمان،
١٩٨٣م.
- ٣٣٠_ : الزلازل في بلاد الشام في العصر الإسلامي، دار الفكر، عمان، ١٩٩٠م.
- ٣٣١_ : غلاة الشيعة الباطنية في بلاد الشام، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان،
١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- ٣٣٢_ فهمي : نعيم زكي.
طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى)،
الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م.
- ٣٣٣_ قاسم : قاسم عبده.
أهل الذمة في مصر العصور الوسطى، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٧٧م.

- ٣٣٤_ : بعض مظاهر الحياة في عصر سلاطين المماليك، موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، بيروت، ١٩٨٧م.
- ٣٣٥_ القاسمي : محمد سعيد.
- قاموس الصناعات الشامية، ٢ ج، حققه وقدم له: ظافر القاسمي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط ١، ١٩٨٨م.
- ٣٣٦_ القيم : علي.
- ابن النفيس، دار المعرفة، ١٩٨٨م.
- ٣٣٧_ كاهن : كلود.
- تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى بداية ظهور الإمبراطورية العثمانية، ٢ ج، ترجمة: بدر الدين القاسمي، دار الحقيقة، بيروت، ط ١، ١٩٧٢م.
- ٣٣٨_ كحالة : عمر رضا.
- دراسات اجتماعية في العصور الوسطى، المطبعة التعاونية، دمشق، ١٩٧٣م.
- ٣٣٩_ : معجم المؤلفين، ١٥ ج، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م.
- ٣٤٠_ كراتشكوفسكي : اغناطيوس.
- تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ٢ ج، ترجمة: صلاح الدين هاشم، راجعه: أيغور بلياييف، موسكو، لينينغراد، ١٩٥٧م.
- ٣٤١_ كرد علي : محمد.
- خطط الشام، ٦ ج، دار العلم للملايين، مكتبة النوري، دمشق، ط ٣، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- ٣٤٢_ : غوطة دمشق، مطبعة الترقى، دمشق، ط ٢، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م.
- ٣٤٣_ الكرمللي : الأب أنستاس ماري.
- رسائل في النقود العربية والإسلامية وعلم النميات، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٧م.
- ٣٤٤_ كندور : و. ج.
- مناخ القارات، ترجمة: حسن طه، مطبعة الحكومة، بغداد، ١٩٦٧م.

- ٣٤٥_ كيال : منير.
الحمامات الدمشقية وتقاليدها، د. ن، د. م، ١٩٦٤م.
- ٣٤٦_ : فنون وصناعات دمشقية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ط١، د. ت.
٣٤٧_ لابدوس: أيرا مارفين.
مدن إسلامية في عهد المماليك، نقله إلى العربية: علي ماضي، الأهلية للنشر
والتوزيع، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م.
- ٣٤٨_ لسترانج : غي.
فلسطين في العهد الإسلامي (٦٥٠_١٥٠٠م)، ترجمة: محمود عمايره، منشورات
وزارة الثقافة والإعلام، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ط١، ١٩٧٠م.
- ٣٤٩_ لومباردو : موريس.
الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى، ترجمة: عبد الرحمن
حميدة، دار الفكر، دمشق، د. ت.
- ٣٥٠_ لويس : برنارد.
أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرومية، راجعه وقدم له: خليل أحمد خليل، دار
الهداية، ط١، ١٩٨٠م.
- ٣٥١_ ماجد : عبد النعم.
نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، الجزء الأول، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة،
١٩٥٣م.
- نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، الجزء الثاني، مكتبة الأنجلو المصرية،
القاهرة، ١٩٦٧م.
- ٣٥٢_ ماير : ل. أ.
الملابس المملوكية، ترجمة: صالح الشيبني، مراجعة وتقديم: عبد الرحمن فهمي محمد،
الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢م.
- ٣٥٣_ مبارك باشا : علي.
الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،
١٩٨٠م.

- ٣٥٤_ متر : آدم.
- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ٢ ج، نقله إلى العربية: محمد عبد الهادي أبو ريذة، أعد فهارسه: رفعت البدراوي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٤، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
- ٣٥٥_ مرزوق : محمد عبد العزيز.
- الناصر محمد بن قلاوون، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، د. ت.
- ٣٥٦_ معروف : ناجي.
- تاريخ علماء المستنصرية، ٢ ج، مطبعة العاني، بغداد، ط ٢، ١٩٦٩م.
- ٣٥٧_ معلا : جميل، وعبد الحنان حلوة.
- زراعة الزيتون في سورية، دمشق، ١٩٥٥م.
- ٣٥٨_ المنجد : صلاح الدين.
- معجم المؤرخين الدمشقيين وآثارهم المخطوطة والمطبوعة، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط ١، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
- ٣٥٩_ النباهين : علي سالم.
- نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ط ١، ١٩٨١م.
- ٣٦٠_ نعيمة : يوسف حسن.
- مجتمع مدينة دمشق في الفترة ما بين ١١٨٦_١٢٥٦هـ/١٧٧٢_١٨٤٠م، ٢ ج، دار طلاس للدراسات والترجمة، دمشق، ط ١، ١٩٨٦م.
- ٣٦١_ : يهود دمشق، دار المعرفة، دمشق، ط ١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- ٣٦٢_ النقاش : زكي.
- أضواء توضيحية على تاريخ المارونية، مطابع دار لبنان للطباعة والنشر، لبنان، ١٩٧٠م.
- ٣٦٣_ هايد : ف.
- تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ٢ ج، ترجمة: أحمد رضا محمد رضا، مراجعة: عز الدين فوده، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١م.

٣٦٤_ هنتر : فالتر.

المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادها في النظام المتوي، ترجمة: كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٠م.

٣٦٥_ الوشلي : عبد الله.

المسجد ودوره التعليمي عبر العصور من خلال الحلق العلمية، مؤسسة الرسالة، صنعاء، مكتبة الجيل الجديد، بيروت، ١٩٨٨م.

رابعاً : الرسائل الجامعية :

٣٦٦_ حجازي : فايزة عبد الرحمن.

أهل الذمة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

٣٦٧_ حسين : فالخ.

الحياة الزراعية في بلاد الشام، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٨م.

٣٦٨_ الحمود : رنا سعيد عوض.

حرف وصناعات بلاد الشام في العصر الملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

٣٦٩_ خليل : سعيد صالح موسى.

التجارة الداخلية في دولة المماليك الثانية (٧٨٤_٩٢٢هـ/١٣٨٢_١٥١٦م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

٣٧٠_ أبو دعة : أمين.

الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأيوبي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق، دمشق، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

٣٧١_ الرواشده : آمنة محمود سليمان.

حيوات المرأة في الدولة المملوكية في مصر والشام (٦٤٨_٩٢٢هـ/ ١٢٥٠_١٥١٧م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

- ٣٧٢_ الزربا : فريال بدوي يوسف.
الحياة الاجتماعية في دمشق في العهد المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة،
الجامعة الأردنية، عمان، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
- ٣٧٣_ ظاهر : عدنان محمد محمود.
التعليم في مدارس بيت المقدس الإسلامية في العصر الأيوبي، رسالة ماجستير،
الجامعة الأردنية.
- ٣٧٤_ لبنية : بوران طاهر فريد.
المجتمع الدمشقي من خلال كتابات ابن طولون، رسالة ماجستير غير منشورة،
جامعة اليرموك، إربد، ١٩٩٧م.
- ٣٧٥_ مقابلة : إيمان أحمد حسين.
القرية في بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة
اليرموك، إربد، ١٩٩٨م.
- ٣٧٦_ المقابلة : معن علي.
المؤسسات الاجتماعية والثقافية في بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير
غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- ٣٧٧_ مكاحلة : نهي محمد حسين.
الزراعة في بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة
اليرموك، إربد، ١٩٩٢م.

خامساً : المصادر والمراجع باللغة الإنجليزية :

- 378_ Ashtor : Elyahu.
"Levantine Weights and Standard Parcels". In East-West Trade in the
Medieval Mediterranean. London, 1986.
- 379_ Ayalon : David.
The Mamluk Military Society, Collected Studies, Variorum reprints,
London, 1979- Notes on the Furusiyya exercise and Games Sultanate
Scripta Hierosolymitana, Vol. IX., Jerusalem. 1961.
- 380_ Burg : Brown Ogan, 1590.
Red House Dictionary, Red House Yen, Twckce- INGILLCE 8024.
Istanpool. 3 rd Edition 1979.

- 381_ Conder : Clade.
Tent Work in Palestine, London, 1889.
- 382_ Fapri : Felx.
"Palestine Pilgrims Text Society, The Wonderings of Felx Fapri", pres,
 NewYork, N.d.
- 383_ Frescobaldi : Gncci and Sigoli.
Visit to the Holy Places of Egypt Sinai, Palestine and Syria, in1389, Translated From the Italian by - F. R. The ophilus Bellorini. Jerusalem, Franciscan press, 1948.
- 384_ Goitein : S.D.
Amediterranean Society, 3 vols , University of California Press, Berkeley, and Los Angeles, California, 1967_1971, Vol. 1.
- 385_ Holt : P. M.
The Age of the Crusades, the Near East from the Eleventh Century to 1517, Longman, London and Neu York.
- 386_ Khowaiters: Abdul _Aziz.
Baibars the First_ His Endeavours and Achievements. The Green Mountain Press, London, 1978.
- 387_ Lane _Pool : Stanly
Social Life in Egypt, London, 1883.
- 388_ Maclead : Norman.
"East Ward Travels in Egypt, Palestine, Syria", Charles Burnet, London, 1891.
- 389_ Maundeville : John.
The Book of Sir John Maundeville, A. D 1322_1356, in Thomas Wright.(ed), **Early Travels in Palestine**, A M S press, New York, 1969.
- 390_ Muir : Sir William.
The Mameluke or Slave Danasty of Egypt, 1200_1517. A. D. London, 1896.
- 391_ Neil : Lahg, Robenson Less.
Pictorial Palestine, London, n.d.
- 392_ Hitti :Philip.
History of Syria Including Lebanon and Palestine, London – Macmillan Co -LTD, 1951.

- 393_ Poggbonsi : Fra Niccolo.
Avoyage Beyond The seas 1346_1350 A.D. Trans. By: Fr. T. Bellorinio and Fr. E. Hoade. Jerusalem, 1945 .
- 394_ Rabie : H.
The Financial System of Egypt, A.H.564_741, A.D 1169_1341.
- 395_ Wright : Thomas.
"Early Travels in Palestine", London, n.d.
- 396_ Ziadeh : Nicola.
Urban Life in Syria under th Early Mamluks, Creen wood press, Publishers, West Port connecticut, First green wood Reprinting 1970.

خامساً : المقالات باللغة العربية :

- ٣٩٧_ إبراهيم : مصطفى الحاج.
 الآفاق الجغرافية عند أبي الفداء، المعرفة، ع ١٥٤٤، دمشق، كانون الأول ١٩٧٤م، (١٣٠-١٥٠).
- ٣٩٨_ أرندتك : فان.
 ابن حجر العسقلاني، دائرة المعارف الإسلامية، ج ١، (١٥٥-١٥٦).
- ٣٩٩_ : ابن خلدون، دائرة المعارف الإسلامية، ج ١، (١٧٨-١٨٠).
- ٤٠٠_ باريه :
 التشريق، دائرة المعارف الإسلامية، ج ٧، (٢٢٠٩-٢٢١٠).
- ٤٠١_ بحاث دمشقي :
 التصوف، مجلة المجمع العلمي العربي، ٢٨م، ج ٤، دمشق، ١٩٠٣م، (٣٣٠-٣٣٤).
- ٤٠٢_ بروفنسال : ليفي.
 الزاوية، دائرة المعارف الإسلامية، ج ١٧، (٥٢٣٩-٥٢٤٢).
- ٤٠٣_ بروكلمان : كارل.
 ابن بطوطة، دائرة المعارف الإسلامية، ج ١، (١٣٥-١٣٦).
- ٤٠٤_ بهنسي : عفيف.
 المدينة العربية الإسلامية ونموذجها دمشق القديمة، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، ٢٦م، ج ١، ج ٢، دمشق، ١٩٧٦م، (٩-٢٦).

- ٤٠٥_ البيطار : أمينه.
التعليم في دمشق في القرن السادس الهجري، مجلة آداب الرافدين، ع ١١، كلية الآداب، جامعة الموصل، الموصل، ١٩٧٩م، (٦٩_٣٩).
- ٤٠٦_ تومين : سوردل.
الحمام، دائرة المعارف الإسلامية، ج ١٤، (٤٣٢٢_٤٣٠٦).
- ٤٠٧_ الحجي : حياة ناصر.
الأمير تنكز الحسامي نائب الشام في الفترة: (٧١٢_٧٤٠هـ/١٣١٢_١٣٤٠م)، مجلة حوليات كلية الآداب، الحولية الأولى، جامعة الكويت، الكويت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٨٠م، (٧٧_٩).
- ٤٠٨_ : العلاقات بين دولة المماليك ودولة مغول القفجاق في الفترة (٦٥٨_٧٤١هـ/ ١٢٦٠_١٣٤١م)، مجلة حوليات كلية الآداب، الحولية الثانية، جامعة الكويت، الكويت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨١م، (٧٠_١).
- ٤٠٩_ حداد : سامي.
المارستانات العربية، مجلة المقتطف، م ٩٠، ج ١، ج ٢، القاهرة، ١٣٥٥_١٣٥٦هـ/ ١٩٣٦_١٩٣٧م، (١٠_١٥، ٢٠٧_٢١٣).
- ٤١٠_ دهمان : محمد أحمد.
على هامش تاريخ البيمارستانات في الإسلام _ تحقيقات واستدراكات _ مجلة المجمع العلمي العربي، م ١٨، ج ١، ج ٢، دمشق، ذي الحجة ١٣٦١_ محرم ١٣٦٢هـ/ كانون ثاني_ شباط ١٩٤٣م، (٧٣_٦٢).
- ٤١١_ دو كوسو : المسيوغستون.
تاريخ الحرير في بلاد الشام، مجلة المشرق، م ١٥، ع ٤٤، بيروت، ١٩١٢م، (٢٨٧_٢٨٠).
- ٤١٢_ دي لابروكير : برتراندون.
رحلة برتراندون دي لابروكير إلى فلسطين ولبنان وسوريا عام ١٤٣٢م، ترجمة: محمود زايد، مجلة الأبحاث، ج ٣، السنة الخامسة عشرة، بيروت، ١٩٦٢م.
- ٤١٣_ الريحاوي : عبد القادر.
خانات مدينة دمشق، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، م ٢٥، ج ١، ج ٢، دمشق، ١٩٧٥م، (٨٢_٤٧).

- ٤١٤_ زامبارو : إدوارد فون.
 درهم، دائرة المعارف الإسلامية، ج١٦، (٤٨٩٨_٤٩٠٠).
 ٤١٥_ : دينار، دائرة المعارف الإسلامية، ج١٦، (٤٩٦٨_٤٩٧١).
 ٤١٦_ زعرور : إبراهيم.
 القضاة الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام في عصر المماليك، مجلة دراسات تاريخية،
 السنة السادسة عشرة، ع ٥٣، ٥٤، جامعة دمشق، دمشق، تموز_ كانون الأول،
 ١٩٩٥م، (٧٩_٦١).
 ٤١٧_ زكار : سهيل.
 أبو الفداء _ البيه _ الأمير _ للتورخ، المعرفة، ع١٥٤، دمشق، كانون الأول
 ١٩٧٤م، (٥٥_٤٢).
 ٤١٨_ زيات : حبيب.
 دور البطيخ ببغداد ودمشق، مجلة المشرق، ع٢٧، بيروت، ١٩٢٩م.
 ٤١٩_ : المستطاب من أخبار القبقاب، مجلة المشرق، م٢٧، بيروت، تشرين ثاني،
 ١٩٢٩م، (٨٢١_٨١٨).
 ٤٢٠_ زيادة : نقولا.
 سوريا في زمن الصليبيين، مجلة المقتطف، م٨٧، ج١، القاهرة، ١٩٣٤م، (٢٢_١٦).
 ٤٢١_ الساعاتي : حسن.
 منهج أبي الفداء في البحث، المعرفة، ع١٥٤، دمشق، كانون الأول ١٩٧٤م،
 (٧٤_٥٦).
 ٤٢٢_ صالحية : محمد عيسى.
 رمضان في ليالي العرب، مجلة العربي، ع٢٩٥، الكويت، ١٩٨٣م.
 ٤٢٣_ : ظاهرة الطرح والرمي في الاقتصاد المملوكي، مجلة أبحاث اليرموك، سلسلة العلوم
 الإنسانية والاجتماعية، جامعة اليرموك، إربد، ١٩٩٣م، (١٢٤_٥١).
 ٤٢٤_ : علم الريافة عند العرب، نشره دورية محكمة تعنى بالبحوث الجغرافية، يصدرها
 قسم الجغرافيا بجامعة الكويت والجمعية الجغرافية الكويتية، جامعة الكويت،
 الكويت، ربيع أول ١٤٠٢هـ / كانون ثاني ١٩٨٢م.

- ٤٢٥_ عبد الودود : يوسف.
جوانب اجتماعية من تاريخ دمشق في القرن الخامس عشر، مجلة الحوليات الأثرية
العربية السورية، ٢٣م، ج١، ٢، دمشق، ١٩٧٣م.
- ٤٢٦_ العث : محمد أبو الفرج.
الزجاج السوري المموه بالمينا والذهب في العصر الوسيط، مجلة الحوليات الأثرية
العربية السورية، ١٦م، ج١، دمشق، ١٩٦٦م، (٣٧_٥٦).
- ٤٢٧_ عياد : كامل.
المؤرخ أبو الفداء ونزعتة العلمية، المعرفة، ١٥٤ع، دمشق، كانون الأول ١٩٧٤م،
(٧٥_٩٥).
- ٤٢٨_ غوانمة : يوسف درويش.
التجارة الدولية في مناطق شرق الأردن (من جنوب الشام) في العصر المملوكي، مجلة
دراسات تاريخية، السنة السابعة، ع٢٣_٢٤، جامعة دمشق، دمشق، أيلول_ كانون
الأول ١٩٨٦م، (١٠٢_٨٦).
- ٤٢٩_ فليح : مناهل فخر الدين.
التعليم في ظل دولة المماليك: ٦٤٨_٩٢٣هـ، مجلة آداب الرافدين، ع١٠، كلية
الآداب، جامعة الموصل، الموصل، ١٩٧٩م، (٣٨٣_٤٠٧).
- ٤٣٠_ كرد علي : محمد.
الحسبة في الإسلام، مجلة المجمع العلمي العربي، م١، ج٩، دمشق، ذي الحجة
١٣٣٩هـ/ أيلول ١٩٢١م، (٢٦٢_٢٥٧).
- ٤٣١_ : عمران دمشق: قراها _ هندستها _ أثمارها _ معابدها والجامع الأموي، مجلة
المقتطف، م٢٦، ج١١، القاهرة، رجب ١٣١٩هـ/ تشرين الثاني ١٩٠١م، (٩٧٧
_ ٩٨٣، ١٠٦٩_١٠٨٠).
- ٤٣٢_ الكواكي : سعد زغلول.
الحمامات في حلب عبر التاريخ والأدب، عاديات حلب، الكتاب الأول، حلب،
١٩٧٥م، (١٨١_١٤٦).

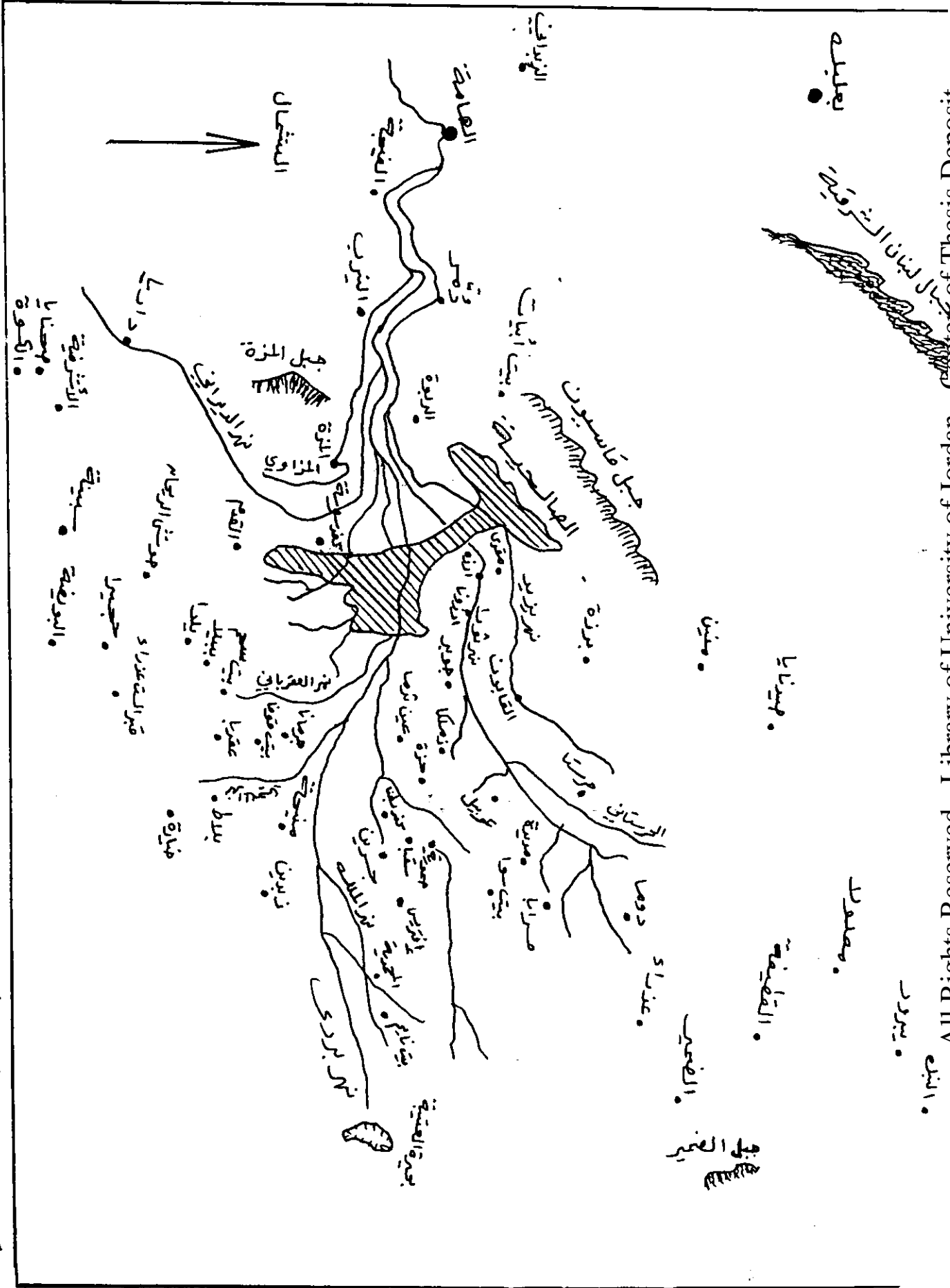
- ٤٣٣_ كرينكو :
الصفدي، دائرة المعارف الإسلامية، ج ٢١، (٦٥٢٩_٦٥٢١).
- ٤٣٤_ لوتورنو :
الفندق، دائرة المعارف الإسلامية، ج ٢٥، (٧٩٢٥).
- ٤٣٥_ لويس :
الحمام، دائرة المعارف الإسلامية، ج ١٤، (٤٣٢٨_٤٣٢٣).
- ٤٣٦_ ماسنيون :
لتصوف، دائرة المعارف الإسلامية، ج ٧، (٢٢٢٧_٢٢١٤).
- ٤٣٧_ المعلوف : عيسى اسكندر.
حقائق تاريخية عن دمشق وحضارتها، مجلة المجمع العلمي العربي، م ١، ج ١١،
دمشق، ربيع الأول ١٣٤٠هـ/ تشرين الثاني ١٩٢١م، (٣٤٩_٣٤١).
- ٤٣٨_ المنجد : صلاح الدين.
أهمر دمشق، مجلة المشرق، م ٤٢، بيروت، كانون ثاني _ آذار ١٩٤٨م، (٥٢_٣٩).
- ٤٣٩_ : خانات دمشق، مجلة المشرق، م ٤٢، بيروت، كانون ثاني _ آذار ١٩٤٨م،
(٦٥_٥٣).
- ٤٤٠_ هارتمان :
دمشق، دائرة المعارف الإسلامية، ج ١٦، (٤٩٤٧_٤٩١٨).
- ٤٤١_ الولي : طه.
المدينة في الإسلام، مجلة الاجتهاد، السنة الثانية، ع ٦٤، دار الاجتهاد، بيروت
١٩٩٠م، (٦٧_٣٣).

سابعاً : المقالات باللغة الإنجليزية:

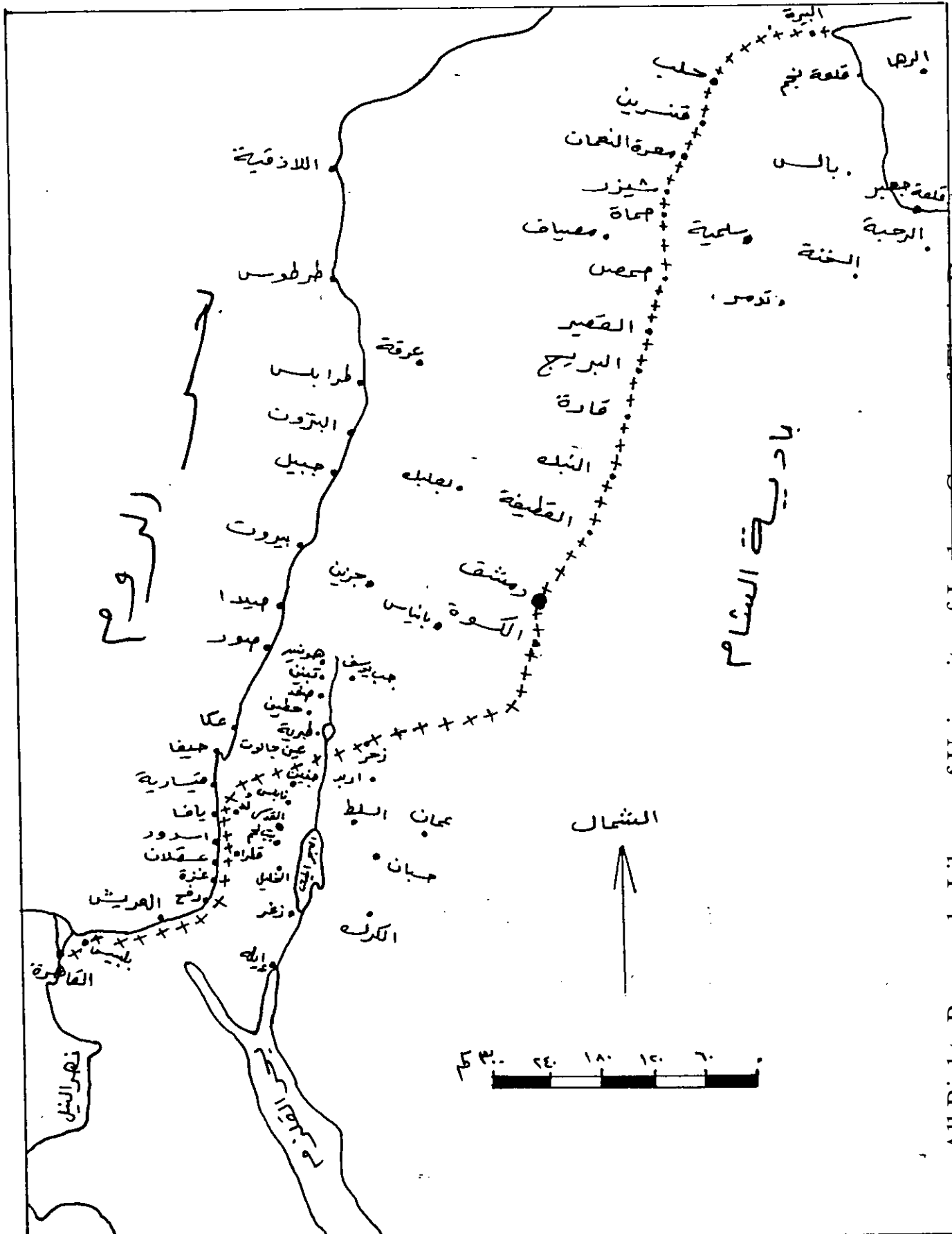
- 442_ Ashtor : Elyahu.
Makayil and Mawazin, Encyclopaedia of Islam, vol 6 ,pp.117_121.
- 443-Ayalon : David.
Atabak , Encyclopaedia of Islam, vol 1, pp. 732.
- 444_ : Halqa, Encyclopaedia of Islam, vol 3, pp. 941.
- 445_ Cahen : CL.
Djawali, Encyclopaedia of Islam, vol 2, pp. 490.
- 446_ Elisseff : N.
Khan, Encyclopaedia of Islam, vol 4, pp. 1010_1017.
- 447_ Talbi : M and Cahen.
Hisba, Encyclopaedia of Islam, vol 3, pp. 485_489.

الخرائط والأشكال

شكل (١) : خريطة المنطقة الممتدة من الشمال إلى الجنوب مع أهم المعالم الجغرافية



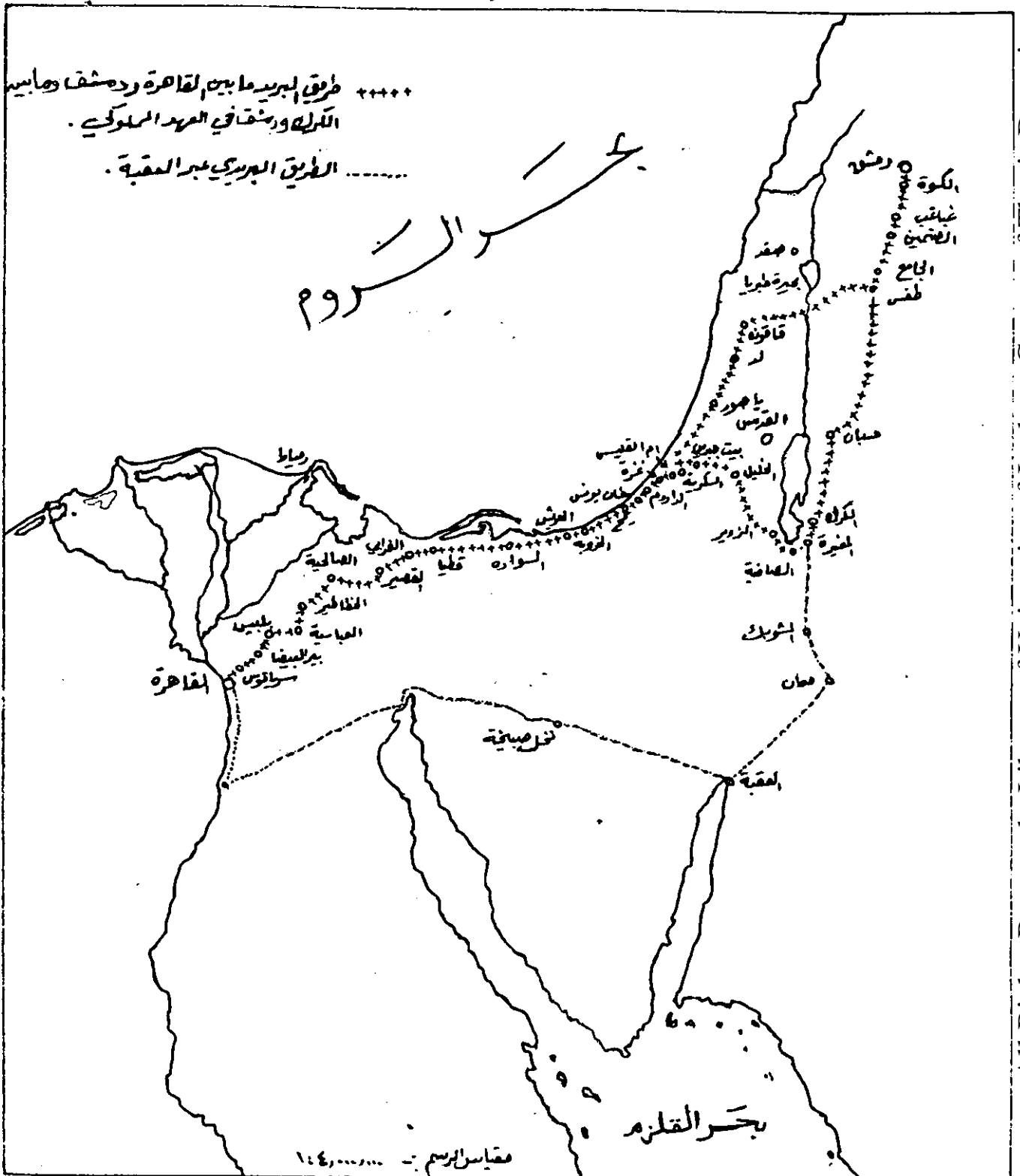
شكل (٣)



توزيع البريد بين دمشق والمناطق الأخرى في الدولة المملوكية
إعداد: الباحث

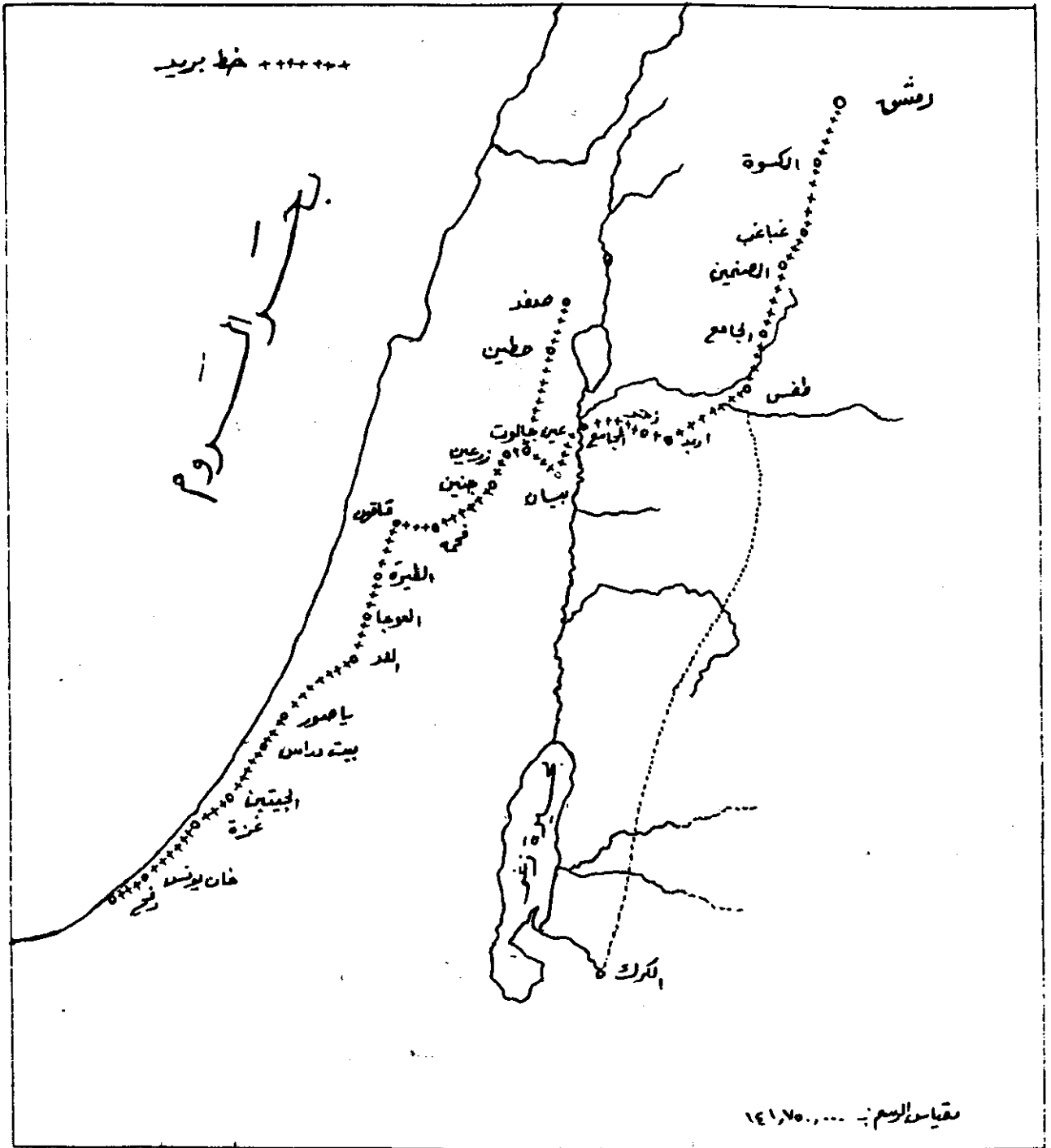
All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكل (٣)



مراكز توزيع البريد

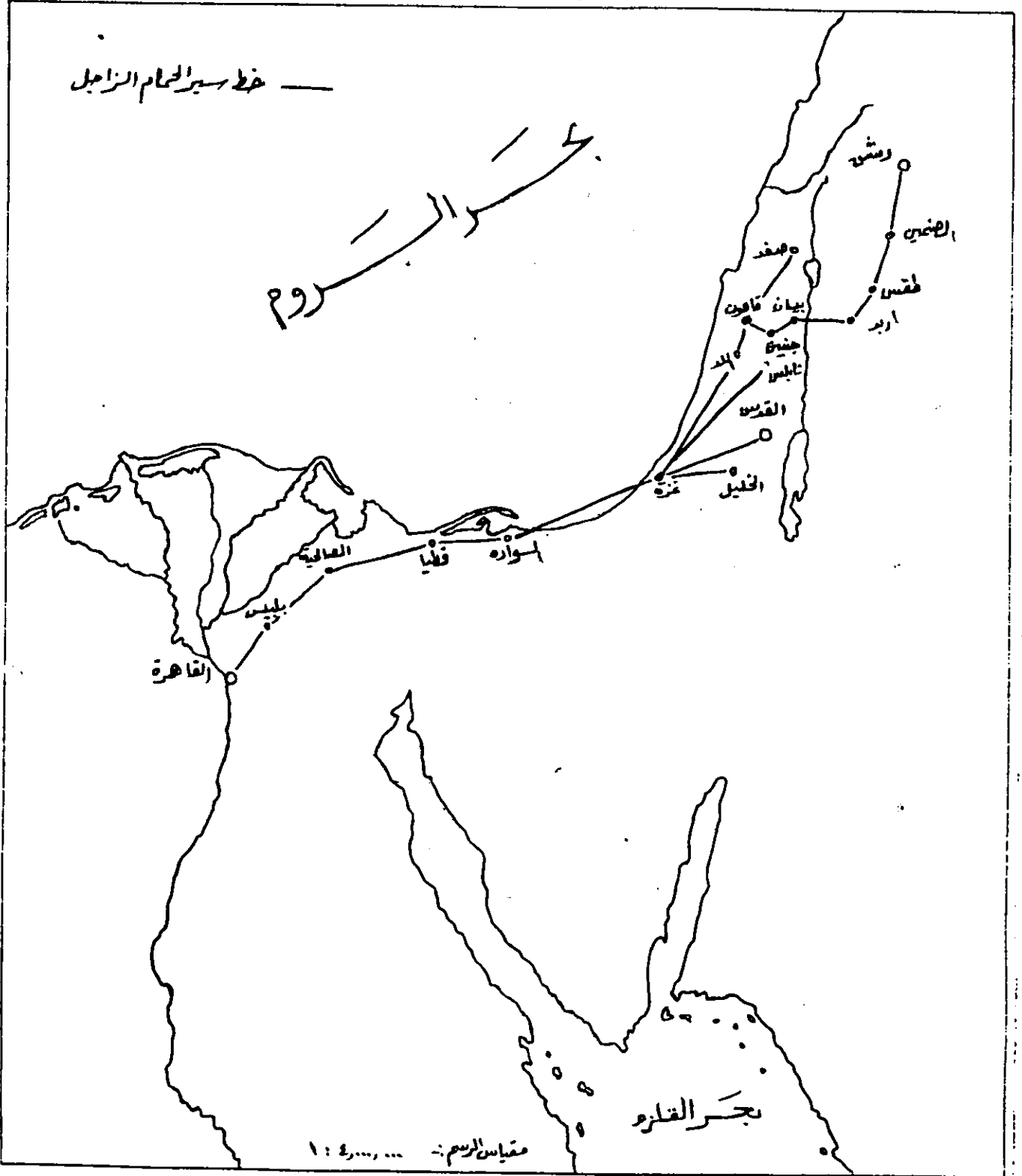
شكل (٤)



مراكز البريد بين دمشق وغزة

نقلاً عن: عفا الله، نبأ بنة غزة

شكل (٥)



مراكز أبراج النمام الزاجل بين دمشق وعزقة، وبين دمشق والقاهرة
 نقلًا عن: عطا الله، نيا بنة عزقة

ملخص

نيابة دمشق الشام في عهد الأمير تنكز
(٧١٢_٧٤٠هـ/١٣١٢_١٣٣٩م/١٣٤٠م)

إعداد:

عبد الجبار أحمد محمد العملة.

إشراف:

الدكتور محمود عطا الله

عالجت هذه الدراسة نيابة دمشق في فترة وجيزة من تاريخ العصر المملوكي، وهي الفترة التي حكم فيها الأمير تنكز الحسامي نيابة دمشق بين الأعوام (٧١٢_٧٤٠هـ/١٣١٢_١٣٣٩م/١٣٤٠م). ويلاحظ بأن المماليك اهتموا بنيابة دمشق أكثر من غيرها من نيابات الشام، فأعطيت لنائبها صلاحيات واسعة لم تعط لنائب آخر من النواب.

من الناحية الإدارية، تنوعت الوظائف في نيابة دمشق، شأنها في ذلك شأن النيابات الأخرى في الدولة المملوكية، إلا أن أهمية دمشق، أدت إلى تزايد الوظائف فيها بالمقارنة مع النيابات الأخرى. أما من الناحية السياسية والعسكرية، فاضطلعت نيابة دمشق، في عهد نائبها تنكز بدور مهم في الجانب السياسي والعسكري للدولة المملوكية، إذ أصبح الأمير تنكز مسؤولاً عن الشام كله، واعتبر نائباً للسلطان الناصر محمد بن قلاوون في بلاد الشام، كما كان له دور مهم في علاقة دولة المماليك الخارجية، سواء مع المغول أو مع الأرمن.

في الجانب الاقتصادي، تنوعت المحاصيل الزراعية في أراضي نيابة دمشق، وبالنسبة للصناعة، فقد لوحظ نشاطاً كبيراً في هذا المجال، ومما يدل على هذا النشاط، الصناعات العديدة والمتنوعة التي ظهرت في دمشق في فترة الدراسة، كما راجت تجارة دمشق داخلياً وخارجياً. ومن الناحية العلمية، زحرت دمشق بمؤسساتها العلمية المختلفة، ونبغ فيها العديد من العلماء، مما جعلها قبلة للعلماء وطلاب العلم.

أما من الناحية الاجتماعية، فتميز المجتمع الدمشقي في هذه الفترة بتعدد فئاته، فكان هناك المسلم والنصراني واليهودي، بالإضافة إلى سكان من النيابات المملوكية الأخرى، مثل: المصري، والمقدسي، والنابلسي، والحلي، والحموي، والكركي، وغيرهم.

Abstract

**Damascus _AL_ Sham Province During Prince Tinkiz
712_740H/1312_1339/1340G**

Prepared by

Abdel Jabbar Ahmed Moh'd AL_Amleh

Supervised by

Dr. Mahmoud Atallah

This Study approached Damascus Province in a short period of time of Mamluke age history, the period when Al-Husami prince Tinkiz ruled Damascus between (712-740H/1312-1339/1340G). It's noted that Al-Mamalik paid much more attention to Damascus than other provinces of AL-Sham (Syria). Its governor was given large authorities and powers more than others.

From managemental point of view, jobs were different and various as well as other provinces, but the importance of Damascus resulted in increasing jobs in comparison with other provinces.

From political and military point of view, Damascus played an important role for the Mamluke state. Prince Tinkiz became responsible for the whole areas of Al-Sham, and was considered as deputy to the Sultan Nasser ibn Qalawun in Al-Sham. He also played an important role in foreign affairs with both Maghoul and Armanians.

In economical field, products varied in Damascus, and industry flourished. Trade flourished internally and externally, too.

In scientific sphere, Damascus witnessed various educational organizations, and scholars appeared in the area, the matter that Damascus became a place to which scholars and learners go.

In social side, Damascus community contained various groups. There were Muslims, Christians and Jews. Besides, there were the Egyptians, people of Jerusalem, Nablus, Aleppo, Hama, Kerak and others.